المجلس الأعلى للثقافة



المشروع القومي للترجمة

بنجامين باربر

عالم ماك

المواجهة بين التأقلم والعولمة

ترجمة: أحمد محمود

المشروع القومى للترجمة

عالم ماك

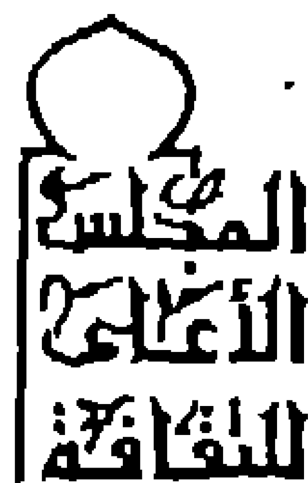
المواجهة بين التأقلم والعولمة

تأليف

بنجامين باربر

ترجمة

أحمد محمود



هذه ترجمة كاملة لكتاب

Jihad vs. McWorld

by

BENJAMIN R. BARBER

Published

by

Times Books

New York

1995

إهداء

إلى أستاذى
الدكتور محمد عنانى
كبيرنا الذى علمنا الترجمة

مقدمـة

التاريخ لم ينته بعد . كما أننا لم نصل بعد إلى الأرض العجيبة التى وعد بها علماء المستقبليات ، وأسموها land of techne. ولم يؤد انهيار شيوعية الدولة لوصول الناس إلى ملاذ ديمقراطى آمن . ومازال الصراع الأهلى القديم الذى يقتل الأخ فيه أخاه قائماً ، حيث مايزال يحجب عنا ذلك الأفق القريب منا . وهؤلاء الذين ينظرون إلى الوراء يرون كل أعمال الرعب التى ترتبط بالمجازر القديمة ، وقد أعيدت من جديد فى بلاد ممزقة كالبوسنة وسريلانكا وأوستيا ورواندا ، وكأنها تقول إن كل شىء لم يتغير . أما هؤلاء الذين يتطلعون إلى الأمام فيتنبئون بحدوث اعتماد تجارى وتكنولوجى متبادل ، وجنة حقيقية جعلها انتشار الأسواق والتكنولوجيا العالمية أمراً ممكناً . وهم يزعمون أن كل شئ الآن ، أو سيكون عما قريب ، مختلف . فى حين يبدو أن المراقبين المناوئين لهم يرجعون إلى تقاويم مختلفة أُخذت من كواكب غير كوكبنا .

ومع ذلك فإن أى إنسان يقرأ الصحف اليومية عن كثب ، ويستوعب ماتحمله الصفحة الأولى عن المذابح الأهلية ، وماتتضمنه موضوعات صفحة الأعمال عن ميكانيكا طريق المعلومات السريع واقتصاديات اندماج شركات الاتصالات ، وأى إنسان يدور متعمداً ليفهم الأفق بدرجاته الـ 360 ، سوف يدرك أن عالمنا وحياتنا واقعان بين ما يسميه ويليام بتلر ييتس William Butler Yeats أبديتىّ العنصر والنفس . أما أبدية العنصر فتعكس الماضى القبلى ، فى حين تنبئ أبدية النفس بالمستقبل العالمى . إلا أنّ أبديتينا الدنيويتين أصابهما الخراب . فقد أُختزل العنصر إلى مجرد شعار للاستياء، وتضاءل حجم النفس ليتلاءم مع الجسد ، صاحب الطلبات الملحة ، الذى تحددمن خلاله احتياجاتها . وكل من العنصر والنفس لا يقدمان لنا ذلك المستقبل غير المظلم . كما أنهما لا يعدانا بنظام حكم شديد الديمقراطية .

والسيناريو الأول المتأصل فى هذا العنصر يتضمن فى طياته ذلك الاحتمال المقيت الخاص بعودة أعداد كبيرة من البشر إلى القبلية من خلال الحروب وإراقة الدماء : التهديد ببلقنة تلك الدول التى تتصارع فيها ثقافة ضد أخرى، وشعب ضد آخر، وقبيلة ضد أخرى،

و"جهاد" باسم مائة عقيدة يؤمن بها البعض فى تشدد ضد كل نوع من الاعتماد المتبادل وكل شكل من أشكال التعاون الاجتماعى الاصطناعى والتفاهم المتبادل: ضد التكنولوجيا، وضد الثقافة الدارجة ، وضد الأسواق المتكاملة ، بل ضد الحداثة نفسها ، وكذلك ضد المستقبل الذى تُولد فيه الحداثة . أما السيناريو الثاني فيصور ذلك المستقبل بألوان باستيل زاهية ، كلوحة تموج بالحركة ، نرى فيها تلك القوى الاقتصادية والتكنولوجية والإيكولوجية المنطلقة ، التى تتطلب التكامل والتوحيد وتفتن الشعوب فى كل مكان بالموسيقى السريعة وأجهزة الكمبيوتر السريعة والوجبات السريعة – "ام تي في" و"ماكنتوش" و"ماكدونالدز" –حيث تسوق الأمم إلى داخل حديقة ملاه عالمية متجانسة ، تلك الحديقة التى ربطها عالم ماك بالاتصالات والمعلومات والتسلية والتجارة . وفيما بين برج بابل وديزني لاند، نجد أن هذا الكوكب يتمزق بصورة سريعة جدا ، ويتقارب فى الوقت نفسه على استحياء.

وبعض المراقبين الذين أصابتهم الدهشة لا يرون سوى برج بابل . وهؤلاء يشكون من "الألف" شعب التى قسمت حديثا ، وتفضل أن تخاطب جيرانها ببنادق القناصة ومدافع الهاون . أما الآخرون ، وهم المتعصبون لديزني لاند ، فيتعلقون بأفكار مستقبلية ، واهية الأساس وبما تعد به الأوهام ، قائلين : "إنه عالم صغير أولاً وأخيراً" . والواقع أن كلا الفريقين على صواب . ولكن كيف يمكن ذلك ؟

نحن مضطرون للاختيـــار بين ما يمر كأنه " أفول السيادة " ونهاية قاصرة للتاريخ كله [1]، وبين العودة إلى أشد خلافات الماضي عناداً وأكثرها إفساداً للأخلاق . إلى "التهديد بالاضطراب العالمى" . إلى بانديمونيوم عاصمة الجحيم عند ملتون . إلى عالم " لا يسيطر عليه " أحد بالمرة.[2]

الحقيقة الجلية ، التى تفصح عن المفارقة الظاهرية الموجودة فى متن هذا الكتاب ، هي أن ميول كل من الجهاد وعالم ماك قائمة بالفعل ، ويمكن رؤيتها أحيانا فى بلد واحد فى نفس اللحظة . المتعصبون الإيرانيون يعطون أذناً للملالى الذين يحثون على شن حرب مقدسة ، بينما الأذن الأخرى تميل نحو محطة تلفزيون " ستار " التى يملكها روبرت مردوخ .

Rupert Murdoch وتبث مسلسلات "ديناستي " و" دانهيو " و " عائلة سيمسون " عبر الأقمار الصناعية المحلقة في الفضاء . أما المستثمرون الصينيون فيتنافسون على نيل اهتمام كوادر الحزب في بكين ، في حين يسعون إلى الحصول على حقوق امتياز محلات "كنتاكي " في مدن مثل نانجنج وهانجزو وشيان، حيث تقدم 28 منفذاً خدماتها لمائة ألف زبون يومياً . وحتى في الوقت الذي تجاهد فيه الكنيسة الأرثوذكسية الروسية من أجل إحياء الدين القديم ، نجدها تدخل في مشروعات مع رجال أعمال من كاليفورنيا لتعبئة المياه المعدنية وبيعها تحت اسم Water Saint Springs Company. ونجد أن القتلة الصرب يلبسون الأحذية الرياضية ماركة " أديداس " ويستمعون إلى مادونا من خلال أجهزة الـ"ووكمان "، بينما يصوبون نيرانهم من خلال تلسكوبات بنادقهم على المدنيين في سراييفو وهم يجرون هنا وهناك سعياً وراء ملء صفائح مياه العائلة . وقد اتجه كل فرد من الحسيديين الأصوليين والنازيين الجدد إلى موسيقى الروك كوسيلة لتوصيل رسائلهم التقليدية إلى الجيل الجديد . في حين يدبر الأصوليون مؤامراتهم من خلال شبكة الإنترنت.

والآن لا يُعدُّ أي من الجهاد أو عالم ماك جديداً في حد ذاته . وانتهاء التاريخ بانتصار العلم والعقل أو بإساءة استغلالهما بطريقة مرعبة (" دكتور فرانكنشتاين " لماري شيلي) هي الفكرة الأساسيـــة التي تكررت عند كل فيلسوف وشاعر تأسى على عصر العقل ، منذ عصر التنوير حتى يومنا هذا . وعبَّر ييتس عن أسفه قائلاً : " لن يظل المركز حيثما هو ، فالفوضى المحضة انطلقت من عقالها على العالم " . ومراقبو الجهاد ليس لديهم في الوقت الراهن ما يضيفونه إلا بعض التفاصيل التاريخية . والحكاية الرمزية المسيحية التي تتناول " السقوط " واحتمالات الخلاص ، التي تجعلها ممكنة ، أدركت ازدواجية القرن الثامن عشر – وازدواجيتنا – بشأن الماضي والمستقبل . إلا أنني أريد أن أقوم بما يتعدى مجرد إلباس المفارقة الرئيسية في التاريخ البشري ملابس عصرية . فالمسألة ليست جهاداً وعـــالم ماك. ومـــــا يهمني أكثر هو العلاقة التي بينهما . فالعـالم المطحون بين رحى قوتيهما المتعارضتين أصبح يـــدور دون أن يكون لأحد سلطان عليه (3) . هل ما يجمع بين الجهاد وعالم ماك هو الفوضوية ؛ أي غياب الإرادة المشتركة وتلك الرقابة البشرية الإنسانية الجماعية الواعية في ظل القانون التي نطلق عليها ديمقراطية ؟

التقدم يسير في خطوات قد تتراجع في بعض الأحيان . وفى متاهة التاريخ لا يثور الجهاد على عالم ماك فحسب ، بل يشجعه . بينما لا يمثل عالم ماك خطورة وحسب بالنسبة للجهاد ، وإنما يحييه ويشد من أزره . فكل منهما بمثابة النقيض للآخر ويحتاج إليه . لذلك فما أسعى إليه هنا ليس مجرد عرض صور متتابعة لعالم ماك والجهاد ، إذ إنه فى الوقت الذى أتفحص فيه عالم ماك لا يغيب الجهاد عن ناظرى . وعندما أتناول الجهاد بالتشريح، لا أنسى فحوى عالم ماك . سَمِّه ، إذن ، دياليكتيك عالم ماك : دراسة فى خداع العقل الذى يحترم الفروق الجذرية التى تميز بين الجهاد و عالم ماك ويعترف ، فى الوقت نفسه ، باعتمادهما المتبادل المتين والمتناقض ظاهرياً.

واقع الأمر أن هناك فرقاً جوهرياً بين محاولتي المتواضعة فى الدياليكتيك ومحاولة أساتذة القرن التاسع عشر . فبسبب افتتان هيجل Hegel وماركس Marx بإيمان عصر التنوير بالتقدم ، اعتقدا أن خداع العقل كان فى جانب التقدم. غير أنه من الصعب الإيمان بأن النزاع بين الجهاد و عالم ماك سوف يسفر عن خير عميم . والظاهر أن عاقبة ذلك النزاع قد تضر فى الغالب بحرية الإنسان أكثر من أن تفيدها . ومن خلال معارضة كل منهما للآخر قد يعملان من أجل غاية واحدة . إنهما يعملان من خلال توتر ظاهري، بيد أن بينهما انسجام مستتر . ولكن الديمقراطية لا تستفيد من أيهما شيئاً . ففي برلين الشرقية تمخضت الرأسمالية عن الشيوعية القبلية . وفى ميدان ماركس وإنجلز بلاتس يولي ، تمثالا ماركس و انجلز الشامخان اللذان لا يشعران بشيء، وجهيهما صوب الشرق، وكأنهما يلتمسان السلوى من موسكو ؛ أما الآن فتحيط بهما الشوارع الواقعة حول ذلك المتنزه ، الذى هو سجنهما ، سلسلة من المطاعم مثل " تي جي آى فرايديز " والفنادق العالمية ، مثل " راديسون " وحلقة من لوحات الإعلانات المضاءة بالنيون ، التى تسخر منهما بأسماء علامات تجارية مثل " باناسونيك " و " كوكاكولا " و " جولد ستار " . آلهة جديدة ، هذا صحيح، فهل هناك المزيد من الحرية ؟

ماهو ، إذن ، المعنى الملموس لرؤية الجهاد و عالم ماك من منظور دياليكتيكى؟ فى حين تبدو اتجاهات كلتا المجموعتين من القوى منذ الوهلة الأولى متناقضتين تناقضا بيِّناً؟ أولاً وقبل كل شئ ، يعمل الجهاد وعالم ماك فى اتجاهين متضادين ، أحدهما مدفوع

بالكراهية الإقليمية ، والآخر بعولمة الأسواق . أحدهما يُحْيى الحدود العرقية والقومية القديمة من الداخل ، بينما يسعى الآخر لاختراق الحدود القومية من الخارج . إلا أن ما يجمع بين الجهاد و عالم ماك هو ما يلي : كلاهما يشن حرباً على الدولة ذات السيادة ، ويدمر بالتالي مؤسسات الدولة الديمقراطية . فى حين لا يسعى أى منهما إلى إيجاد المؤسسات الديمقراطية البديلة . والخيط الذى يجمعهما هو تجاهل الحرية المدنية . فالجهاد يشكل مجتمعات الدم التى تقوم على الاستبعاد والكراهية . تلك المجتمعات التى تزدرى الديمقراطية لمصلحة الأبوية الطاغية أو القبلية العرفية . أما عالم ماك فيشكل الأسواق الكونية التى تقوم على الاستهلاك والربح تاركة لإحدى الأيدى الخفية غير الجديرة بالثقة ، إن لم تكن زائفة تمام الزيف ، أمور المصلحة العامة التى كان أحرى بالمواطنين الديمقراطيين وحكوماتهم الواعية أن يرعوها. وعندما ترهب أيديولوجيا السوق مثل هذه الحكومات فإنها تتراجع فى واقع الأمر فى ذات اللحظة التى كان ينبغي عليها أن تتدخل فيها بكل شجاعة . وما كان يُعرف من قبل على أنه حماية للمصلحة العامة بات الآن موصوماً بأنه ترهيب غاشم منظم [4] . ومع ذلك فالعدل يفضي إلى خلق الأسواق ، كما اعترف بذلك فيلكس روهاتين Felix Rohatyn بكل صراحة قائلا إن " هناك منطق داروني وحشي يرتبط بهذه الأسواق . فهى تتسم بالقلق والجشع . وهى كذلك تنشد الاستقرار والوضوح . ولكن ما تقدمه ليس دائماً ذلك الشكل الذى نفضله للديمقراطية." [5] وإذا كان ما يحفظ الحرية هي الدساتير الديمقراطية وقوانين حقوق المواطنين ، فإن جورج ستاينر George Steiner يرى أن " معبدا الحرية الجديدين سيكونان ماكدونالدز و كنتاكي فرايد تشيكن ." [6]

وبعد أن آل المآل بالشعوب فى أنحاء العالم إلى الاختيار بين كنيسة السوق الكونية وبين سياسة إعادة القبلية ، نجد أن هذه الشعوب مهددة بردة إلى العصور الوسطى ؛ حيث كانت القبائل المحلية والأباطرة الطموحون يحكمون العالم قاطبة ، وكان الرجال والنساء يجمع بينهم تجرد المسيحية الكوني ، وإن ظلوا يعيشون حياة منعزلة فى إقطاعيات متناحرة تحددها أشكال جبرية (نسبية) للهوية . كان ذلك عالماً يتمتع فيه الأمراء والملوك بنفوذ حقيقى قليل، إلى أن تفتق ذهنهم عن أيديولوجيا القومية . وجعلت القومية نطاق الحكم يتسع

ليتعدى القبيلة ، وإن كان أقل عمومية من الكنيسة القومية . وفى وقت من الأوقات أفرز ذلك الحكم تلك المؤسسات الوسيطة ، التى صارت أكثر ديمقراطية شيئاً فشيئاً ، وأصبحت تشكل الدولة . والآن ونحن على الطرف الأقصى من هذا التاريخ ، يبدو أننا عازمون على إحياء عالم خيارنا الأوحد فيه بين الكونية الدنيوية الخاصة بالسوق الكونية والإقليمية اليومية المرتبطة بالقبلية العنيدة.

وفى خضم المواجهة بين التجارة الكونية والعرقية المحلية، ضاعت قيم الأمة الديمقراطية ، وأصبحت الوسائل التى تسمح بمقتضاها للشعوب أن تحوِّل نفسها إلى أمم وتستحوذ على السلطة السيادية باسم الحرية والصالح العام فى خطر . ولا يطمح أى من الجهاد أو عالم ماك إلى استعادة القيم المدنية التى دمرتها ممارساته المؤدية إلى محو الحقوق القومية . كما أنه لا الأسواق الكونية ولا المجتمعات العرقية تخدم الصالح العام أو تسعى إلى المساواة والعدل . والسلطة القضائية المحايدة ومجالس الشورى ليس لها أى دور فيما يتعلق بتلك العصابات الجوالة من القتلة ، التى تتحدث بالنيابة عن "الشعوب " التى تحررت حديثاً . وهذه المؤسسات لها ، فى أفضل الأحوال ، نفوذ هامشي على الشركات متعددة الجنسية المتحدثة باسم الأسواق التى تحررت حديثاً . وبينما يتبع الجهاد سياسة دموية للهوية ، يتبع عالم ماك اقتصاداً غير دموى بغية الحصول على الربح . وكل الناس مستهلكون بسبب انتمائهم إلى عالم ماك بدافع الحاجة . وبما أن كل إنسان يبحث لنفسه عن مستودع للهوية ، فهو ينتمي إلى قبيلة من القبائل . ولكن ليس هناك مواطن . فكيف تكون هناك ديمقراطية فى غياب المواطنين ؟

من تقرير المصير إلى الجهاد

منذ زمن ليس ببعيد تنبأ دانييل باتريك موينيهان Daniel Patrick Moynihan بأن الخمسين دولة التالية التى قد تأتى إلى الوجود خلال الخمسين سنة المقبلة سوف يقررها الصراع العرقي : أى من خلال الحروب الأهلية . (6) وهاهما الاتحاد السوفيتي ويوغوسلافيا معاً يقدمان عشرين "أمة" جديدة (قديمة) ، أو لنقل شظية قومية ، أو يزيد . وفى أشد

الحالات سوءاً ترسل الأمم المتحدة قوات حفظ السلام ، وإن كانت الدول الأعضاء تزداد يوماً بعد يوم نفوراً عن تعريض جنودها للخطر . وفى الوقت الراهن نجد أن لها جنوداً فى ثماني عشرة دولة ، وفى كل حالة من هذه الحالات ، تقريباً ، تقف تلك القوات فى مواجهة قوات العصيان المسلح والنزاع المدني المحلية.[8] ومركز كارتر فى أطلانطا لديه قائمة لا تزال الأكثر تدرجاً، وبالتالى الأكثر اتساعاً، وقد انعكست بشكل أو بآخر فى مناطق الاضطرابات الثماني والأربعين التى حددتها صحيفة "نيويورك تايمز" فى بداية سنة 1993 . (9) وأصدرت منظمة العفو الدولية تقاريرا عن وجود مسجونين سياسيين وإعدامات سياسية فى أكثر من ستين دولة .

وفى هذا العالم الذى يموج بالاضطرابات ، نجد أن الأدوار الحقيقية لا تقوم بها الأمم على الإطلاق، وإنما القبائل التى نجد أن الكثير منها فى حالة حرب مع الآخر . أما هدفها المحدد فهو إعادة رسم الحدود بغرض التقسيم ؛ ينسحب هذا على الأكراد فى العراق أو المسلمين فى السودان أو القطاعات التى يسكنها الصرب فى كرواتيا . كما نجد أن بلاداً مثل أفغانستان ، التى كانت منذ عهد قريب تقاتل غازياً أجنبياً باسم الاستقلال الوطني ، قد تفتت بالفعل ؛ حيث قُسمت بين البانتان والهزارا والأوزبك والطاجيك . تلك عضوية عرقية عززها الانفصال القومي-أو استبعاد الملوثين غير المرغوب فيهم أو حذفهم من الوجود ، كما حدث فى مجزرة رواندا . فهل هذا الجحيم مجرد امتداد لجهود التعددية الثقافية الحميدة ؟ أم هو نتيجة طبيعية لنزعة تقرير المصير التى مضت عليها قرون ؟ أم أن ظهور مرض جديد قد أفسد القومية المتكاملة ، وأفسح الطريق للجهاد العرقي والديني ؟

إنى أعترف بأن الجهاد مصطلح قوى . فهو فى أبسط صوره يدل على الجهاد الدينى باسم العقيدة ، وهو أحد أشكال التعصب الإسلامى . وهو فى أشد صورة السياسية يعنى الحرب المقدسة الدموية باسم الهوية الحزبية التى تحددت على أساس ميتافيزيقى ويكون الدفاع عنها بتعصب . وفى الوقت الذى قد يعنى فيه الجهاد بالنسبة للكثيرين من المسلمين مجرد الحماس باسم الدين، الذى يمكن اعتباره بحق ديناً يستهدف العالمية (وإن لم يكن عالمياً بالقدر الكافى) ، فأنا أستعير معناه من هؤلاء المسلمين الذين يجعلون ذبح "الآخر" واجباً سامياً.[10] إنى أستخدم المصطلح بمبناه القتالى كى أشير إلى الإقليمية العقائدية العنيفة من ذلك الصنف المعروف لدى المسيحيين بصورة لا تقل عن المسلمين ، وعرفه

الألمان والهنود ، كما يعرفه العرب . والظواهر التى أُطبق عليها العبارة تتميز ببداياتها شديدة البراءة ؛ إذ أنه من الممكن أن تمثل سياسة الهوية وتنوع الثقافات استراتيجيات أى مجتمع حر يحاول التعبير عن تنوعه . فما ينتهي به المرء كجهاد قد تكون بدايته بحثاً بسيطاً عن الهوية المحلية ، أى تلك المجموعة من السمات الشخصية المشتركة ، للوقوف فى وجه تماثل التحديث الصناعى الذى يشل الإنسان ويخصيه من جهة ، وثقافة عالم ماك الاستعمارية من جهة أخرى .

وغالباً ما تعد أمريكا مثالاً لذلك النوع من التعددية الثقافية الحميدة ، وإن كان لدينا كذلك منتقدونا مثل آرثر شليزنجر الابن Arthur Schlesinger Jr. الذى يرى أن التعددية الثقافية ليست أمراً محموداً ، ويعتقد أنها تنذر بحدوث انقسام بعيد المدى. [11] والواقع أن أمامى فرصة فيما سيأتى كى أكتب عن "الجهاد الأمريكى" الذى أعلنه اليمين المتشدد. والحقيقة المذهلة أن ما لا يقل عن 10بالمائة من دول العالم الحديث (حوالى 20 دولة) متجانسة تمام التجانس . لذلك فهى لا يمكن أن تصبح أصغر مما هى عليه وإلا انقسمت إلى قبائل وعشائر ، كما هو الحال فى الدنمارك أو هولندا . [12] وفى نصف هذا العدد فقط نجد أن هناك مجموعة عرقية واحدة تشكل 75بالمائة من تعداد السكان . [13] وفى حالة الولايات المتحدة، القاعدة هى التعددية الثقافية والاستثناء هو التجانس . وبعض الدول التى تبدو للعالم الخارجى متكاملــة ، كاليابان أو أسبانيا ، يتضح أنها على قدر كبير من تعدد الثقافات . ولو جعلنا اللغة وحدها ، وهى السمة الأساسية من سمات الأمة ، شرطاً لتقرير المصير ، فإن عدد اللغات التى يتكلمها الناس فى أنحاء العالم يعنD أن عدد أعضاء مجتمع الدول قد يربو على الستة آلاف .

لا شك فى قيام الدولة الحديثة بدور المكمل الثقافى إلى جانب تكيفها تكيفاً لابأس به مع المثل العليا الجمعية ، أى الأيديولوجيات المدنية والعقائد الأساسية التى تجتمع عليها عشائرها وقبائلها العديدة . ولم يكن من الصعب اختراع ديانة مدنية للأمريكيين أو الفرنسيين أو السويسريين ، طالما أن تلك "الشعوب" تضم بالفعل أقواماً تنتمى إلى فصائل قومية وقبائل عرقية ، تسعى سعياً حثيثاً لإيجاد أرضية مشتركة . فما بال الباسك والنورمانديون ؟ مالهم لا يأبهون بشئ سوى الذكريات والدم ؟ وماذا عن الإلزاسيين

والبافاريين وأهل بروسيا الشرقية والأكراد وأهل تيمور الشرقية وأهل كيبيك والأبخاز وأهل قطالونيا والتاميل وزولو إنكاثا واليابانيين من سكان جزر الكوريل - أهي شعوب بلا أوطان تقيم في أوطان تعتقد أنها لا تنتمي إليها ؟ أم هي شعوب تسعى إلى الانغلاق على نفسها، ليس تحاشياً للآخرين وحسب ، وإنما للحداثة كذلك ؟ إنها قبائل مذعورة لاتهرب إلى العقيدة المدنية بل تفر منها ، بحثاً عن شيء أكثر وضوحاً وأشد إثارة . كيف السبيل إلى إقناع الشعوب التي تجعل لنفسها كياناً بذبح جيرانها القبليين ، بأن تنضم إلى عقيدة اصطناعية واهية قامت على مُثل عليا مدنية مجردة أو إلى أسواق تجارية ؟ هل بمقدور الإعلان أن يثني مقاتلي الدم عن الإبادة الجماعية التي تمليها عليهم ضغائنهم القديمة ؟

وكما هو الحال بالنسبة لعالم ماك ، يمكن صبغ الجهاد بألوان زاهية أو أخرى قاتمة . ومثلما يُروج لأسواق عالم ماك الجشعة أحياناً باسم الاختيار الحر الديمقراطي ، يمكن الترويج لمصالح الجهاد القتالية باسم تقرير المصير . وواقع الأمر يشير إلى أن أيديولوجيا تقرير المصير قد تكون مصدر الكثير من أدواء الجهاد . ولم يشارك روبرت ل . لانسنج Robert L. Lansing وزير خارجية الرئيس وودرو ويلسون Woodrow Wilson حماس رئيسه لهذه الفكرة قائلاً : أليس تقرير المصير هو الذي " يولد السخط والفوضى والتمرد ؟ هذه العبارة بكل بساطة محشوة بالديناميت . إنها تنعش الآمال التي لا يمكن تحقيقها . وأخشى كل الخشية أن تودي بآلاف الأرواح . يالها من كارثة يوم انطلقت هذه العبارة ، وياهول ما سوف تسببه من بؤس ! " (14)

ويبدو أن مخاوف لانسنج لها ما يبررها بحق . ففي عهد ويلسون نفسه أدت سياسة تقرير المصير إلى بلقنة أوروبا، وأججت نار القومية، وخلقت القلاقل التي ساهمت في ظهور الفاشية . واليوم ليست هناك قبيلة، أو عصبة، أو جماعة منشقة، أو عصابة في إحدى المناطق،إلا وتطمح إلى تقرير المصير. فهاهو المغني اللص يصرخ قائلاً :" لا تحتقروني ! ينبغي أن أعامل بشئ من الاحترام !"وبدت خريطة أوين-فانس Owen - Vance العقيمة ، الخاصة بتقسيم البوسنة، في نهاية الأمر ، وكأنها تحترم منطق العصابات ، وذلك بمضاعفتها عدد خطوط الحدود من خلال تضييق مساحات الطوائف العرقية . فقد كانت تسعى إلى تقنين عبث التعامل مع كل مربع سكني على أنه أمة، ومع كل وحدة سكنية تقريباً

على أنها كيان ذو سيادة . وفى أحيان أخرى نجد أن مثل هذا الترتيب السياسى المفلس، الذى فرضه مجلس الأمن ، التابع للأمم المتحدة لفترة طويلة ، يحمل اسم الفوضوية . [15]

إلا أن المرء لا يسعه أن يلقى باللوم على واضعى الخرائط أو صانعى السلام، فيما يتعلق بعبثية الجهاد . فهؤلاء لا يعيدون ترتيب الساحة ، وإنما يلتقطون لها الصور وحسب. وفى بعض الأحيان، بلغ تقرير المصير حداً يزيد قليلاً على القضاء على الآخرين . بل إن أساتذة الاستعمار فعلوا فى زمانهم ما هو أسوأ ، حيث رسموا خطوطاً تعسفية على خرائط لم يقرؤها جيداً وما زال الناس يعانون من عواقبها حتى اليوم فى أنحاء المستعمرات السابقة ، وخاصة فى أفريقيا والشرق الأوسط . [16] الجهاد ، إذن ، رد فعل عنيف للاستعمار والإمبريالية وذريتيهما الاقتصاديتين، الرأسمالية والحداثة . لقد استشرى التنوع وتحولت التعددية الثقافية إلى مرض سرطانى، لكى تستمر الخلايا فى الانقسام زمناً طويلاً، بعد أن يكون انقسامها قد بات فى غير صالح الجسم المعافى . [17]

وحتى تلك الدول التى تعارفنا على أنها متكاملة ومتجانسة، معها كل الحق فيما يتعلق بقلقها بشأن مستقبل الجهاد . وتزايد الاعتماد المتبادل فيما بين دول العالم فى مجالات الاقتصاد والاتصالات يعنى أن مثل هذه الأمم ، مهما كانت موحدة داخلياً ، مجبرة على التعامل فى بيئة عالمية على درجة كبيرة من التعددية الثقافية . ومن المفارقات أن العالم الذى يتقارب على مستوى الثقافة الدارجة والتجارة هو نفسه ذلك العالم الذى يشتد وضوح أجزاؤه القومية العرقية والدينية والعنصرية ؛ وهو ما يعد بدرجة كبيرة رد فعل لعالم ماك . وعلى الرغم من اضطرار دول ما بعد الحداثة إلى الدخول فى اتصالات لا تنقطع ، فهى لن تتخلى عن خصوصياتها . لذا نجد أنه رغم عدم تحقيق أوروبا ما بعد ماستريخت لكل طموحاتها السابقة ، فقد أصبحت متكاملة بالقدر الذى يمكنها من فرض وعى متعدد الثقافات فى أنحاء القارة ، كانت نتائجه ، لا شك ، طيبة ، ناهيك عن تأثيره الوحدوى . وكلما تزايد تواجد "أوروبا" كانت الكيانات المكونة لها أكثر تردداً وأشد إحساساً بذاتها . وما قاله جونتر جراس Gunter Grass عن ألمانيا – "عندما توحد الألمان كانوا أكثر تفككاً من أى وقت مضى " – ينطبق تماماً على أوروبا والعالم الذى وراءها : عندما يصبح موحداً يكون أكثر تفسخاً من أى وقت مضى . [18]

وكرد فعل لعالم ماك ، تدافع القوى الإقليمية عن الحداثة، وتنكرها، وترفضها، وتحاربها حيثما وجدتها . ولكنها في الوقت نفسه تتمثل الاستراتيجية الوطنية ضد أي مستعمر يعبر الحدود منذ وصول الرومان إلى بلاد الغال ، وتستوعبها استيعاباً تاماً ، وتستفيد منها . وعندما وصل "هيلتون " إلى " تلال بودا " أقام مهندس معماري البناء الجديد على دير من القرن الثالث عشر . وعندما أعاد الفرنسيون الشانزليزيه إلى سابق مجده أزالوا قوس "ماكدونالدز " . ويذكرنا أورلاندو باترسون Oralndo Patterson بأنه عندما غزت الموسيقى الأمريكية البحر الكاريبي كان رد فعل أهله إنتاجاً موسيقياً هائلاً من إبداعهم . وما الريجي إلا مثال واحد مشهور .(19) ومع ذلك فإن الاعتقاد بأن الإقليمية والكونية قوتان متساويتان تماماً تجعلان الجهاد وعالم ماك يقللان من شأن قوة الأسواق الكونية الجديدة إلى حد كبير . إن " دير " هيلتون بودابست يضم فيما يضم نادياً للقمار . ويقدم " ماكدونالدز " باريس سندوتشات "بيج ماك " والبطاطس المقلية في وجود القوس أو عدمه . ولا تحصل موسيقى الريجي إلا على قدر ضئيل من وقت إرسال محطة " إم تي في " ، حتى في أسواق أمريكا اللاتينية . فلا مجال للمنافسة .

ومع هذا ، مازال هناك نموذج للعلاقات الإقطاعية . وبذا يعودون بنا إلى مجال الإقطاع، ذلك العالم المحير الذي جمع فيه تجرد المسيحية بين شظايا مختلفة . وتجرد الزمن الذي نعيش فيه هو السوق الاستهلاكية ، وهي لا تقل كونية رغم كل علمانيتها المادية الملفتة للنظر . وعندما تتبع السوق قوس " ماكدونالدز " من بلد لآخر، فهي تتبع مسار الدولارات والسندات والإعلانات والين والأسهم والمعاملات المالية، الذي يصل إلى المكان الصحيح في أنحاء العالم . و ما لاحظه جراس يمكن تطبيقه بطريقة عكسية كذلك ؛ فالعالم الذي يفصم الجهاد عراه ويفتته، يزداد وحدة عن أي وقت مضى . كما أنه يزداد فيه الاعتماد المتبادل في الوقت نفسه.

عالم ماك الذي يزداد صغراً

لم يعد بوسع أكثر دول العالم تقدماً، التي يفترض أنها مكتفية ذاتياً، الادعاء بأنها دول ذات سيادة تامة . وهذا هو معنى مصطلح " ايكولوجي " الذي يشير إلى السقوط التام لكل

الحدود التى أقامها الإنسان . وعندما يصل الأمر إلى الأمطار الحمضية، أو بقع الزيت، أو المياه الجوفية، أو ملوثات الفلوروكربون، أو التسرب الإشعاعى، أو النفايات السامة، أو الأمراض التى تنتقل بالاتصال الجنسي ، فإن الحدود الوطنية تصبح بكل بساطة لا معنى لها . فالسموم لا تتوقف فى نقاط الجمارك للتفتيش . والميكروبات لا تحمل جوازات سفر . وهاهي أمريكا الشمالية تصبح منطقة تجارة حرة، بحرياً وجوياً، قبل أن تحرر النافتا السوق بالسلع .

لقد بات ناقوس الخطر البيئى قوياً وجلياً ومتكرراً . وهناك القليل الذى يمكن إضافته إلى ذلك الكم الضخم الذى كُتب للتحذير من تلك الحرب المدمرة التى تشمل الكرة الأرضية وما يحيط بها من هواء . وعرفنا كيف تدمر الغابات الألمانية بسهولة على يد السويسريين الذين يقودون المركبات التى تعمل بالوقود المحتوى على الرصاص (مازال الأوروبيون متأخرين كثيراً عن الأمريكيين فيما يتعلق بحظر الرصاص) . ونعلم أيضاً أن الكوكب الذى نعيش عليه قد يختنق بسبب غازات الصوبة الزجاجية . فالمزارعون البرازيليون يرغبون فى أن يكونوا جزءاً من القرن العشرين ، فيحرقون ما لديهم من غابات مدارية مطيرة للحصول على قطعة أرض صغيرة يزرعونها . كما أن الكثيرين من الأندونيسيين يكسبون رزقهم بتحويل غاباتهم الكثيفة إلى خلة للأسنان توضع على موائد اليابانيين شديدى الحساسية . وكل هذا يخل بتوازن الأكسجين الدقيق ويمزق رئة عالمنا .

غير أن تبادل المنفعة البيئى مسألة تفاعلية . إنه نتيجة للقوى الطبيعية التى لا يمكن التنبؤ بها أو السيطرة عليها سيطرة تامة . ولكن تبادل المنفعة الخاص بعالم ماك ، وتلك القيود التى يفرضها على السيادة الوطنية مسألة تتعلق فى واقع الأمر بقوى اقتصادية إيجابية، تجعل من الكونية هدفاً تعيه وعياً تاماً . وهذه القوى الاقتصادية والتجارية – وهي أحدث حلقة من حلقات بحث الرأسمالية الدؤوب عن الأسواق العالمية والمستهلكين الكونيين – هى الموضوع الأساسى لهذا الكتاب .

إن كل اقتصاد وطني مميز، وكل شكل من أشكال المصلحة العامة، معرض اليوم لاعتداءات التجارة الانتقالية . فالأسواق تكره الحدود كراهية الطبيعة لوجود أى فراغ . وفى

داخل مناطق نفوذها الرحبة، التى يمكن اختراقها، المصالح خاصة، والتجارة حرة، والعملات قابلة للتحويل، والطريق إلى البنوك مفتوح، والعقود واجبة النفاذ (الوظيفة الاقتصادية المشروعة الوحيدة للدولة) وتفوق سيادة قوانين الإنتاج والاستهلاك وقوانين البرلمانات والمحاكم . وفى كل من أوروبا وآسيا والأمريكتين، انتقصت هذه القوانين من السيادة الوطنية ، وأفرزت طبقة جديدة من المؤسسات - البنوك الدولية والاتحادات التجارية وجماعات الضغط الدولى كالأوبك، والخدمات الإخبارية العالمية، مثل " سى إن إن " و " بى بى سى " والشركات متعددة الجنسيات - وجميعها مؤسسات تفتقر إلى الهوية الوطنية المميزة، ولا تعكس أى منها الانتماء للأمة كمبدأ منظم أو ضابط ، ولا تحترمه . وبينما تقع المصانـــع فى كل مكان من أرض ذات سيادة تحت بصر الدول وفى متناول لوائحها الممكنة ، فإن أسواق النقد وشبكة الإنترنت موجودة فى كل مكان ، وإن لم تكن موجودة فى مكان بعينه . وفى غياب العنوان أو الفرع الوطنى ، نجد أنها جميعاً بعيدة عن أجهزة السيادة .[20] بل إن المنتجات صارت مجهولة الهوية ؛ أى عمالة وطنية يمكنك تحميلها خطأ عيب ما فى إحدى الدوائر المتكاملة المكتوب عليها :

مصنوعة فى واحدة أو أكثر من الدول التالية:

كوريا - هونج كونج - ماليزيا - سنغافورة - تايوان - موريشوس - تايلاند - أندونيسيا - المكسيك - الفلبين . دولة المنشأ غير معروفة على وجه الدقة .[21]

كيف السبيل ، والحال كذلك ، إلى الحفاظ على متطلبات المسئولية الاجتماعية والاقتصادية فى ظل مثل هذه الظروف غير العادية ؟

لقد أكدت مقتضيات السوق الحاجة إلى السلام والاستقرار العالميين ، وهما ما يتطلبه أى اقتصاد عالمى فعال، دون تحسين فرص المسئولية المدنية أو المحاسبة أو الديمقراطية، التى قد تستفيد أو لا تستفيد من التجارة واقتصاد السوق ، الذى لا يعد مرادفاً للسلام رغم اعتماده عليه . والزعم بأن اقتصاد السوق والديمقراطية توءم أصبح أمراً شائعاً فى السياسة ، خاصة فى ضوء انهيار اشتراكية الدولة ، الذى أطلق العنان للمتحمسين للرأسمالية ، كى يعتبروا أنفسهم وحدهم ليس فقط المنتصرين فى الحرب الباردة ، بل

والأبطال الحقيقيين لديمقراطية (هى فى يقينهم) من صنع اقتصاد السوق وحده . وهكذا نجحوا فى استغلال ذلك الادعاء المثير للجدل ، بأن الأسواق حرة كى يؤكدوا ادعاء آخر مثير لقدر أكبر من الجدل بأن حرية السوق تتبعها الديمقراطية ، بل وتحددها . واستعمل الرئيس كلينتون عبارة " الأسواق الديمقراطية " ، وكأنها شئ مقدس أثناء زيارته التاريخية لشرق أوروبا وروسيا سنة 1994 . [22] واتفق مساعدوه للسياسة الخارجية على سلوك المسلك ذاته . [23]

وهذه اللغة المستترة التى تفترض أن المصالح الرأسمالية لا تتوافق فحسب مع المُثُل الديمقراطية التى تُرجمت إلى سياسات، بل ترتقى بها بشكل فعال ، يصعب التوفيق بينها وبين الواقع العالمى خلال الخمسين سنة الماضية . فقد أظهرت اقتصادات السوق قدرة كبيرة على التكيف مع الظروف ، وانتعشت فى كثير من الدول الدكتاتورية ، من شيلى حتى كوريا الجنوبية ، ومن بنما حتى سنغافورة . والواقع أن الدولة التى تحكمها أقل حكومات العالم ديمقراطية – جمهورية الصين الشعبية – يعد اقتصادها واحداً من أسرع اقتصادات العالم نمواً . وفيتنام " الشيوعية " ليست أقل من ذلك بكثير ، وقد فُتحت مؤخراً أمام التجارة الأمريكية ، اعتماداً على قوة الاعتقاد بأن الأسواق تهزم الأيديولوجيا فى آخر المطاف . [24] وتتطلب الرأسمالية وجود مستهلكين قادرين على الوصول إلى الأسواق ، ومناخاً سياسياً مستقراً لكى تنجح ؛ وهذان الشرطان قد تشجع الديمقراطية على نموهما وقد لا تشجع. فربما افتقرت إلى النظام أو كانت فوضوية ، خاصة فى مراحلها الأولى . كما أنها فى الغالب الأعم تسعى إلى الصالح العام على حساب مقتضيات السوق الخاصة أو على نحو يتعارض معها – مثال ذلك الدفاع عن البيئة أو التوظيف الكامل . وعلى مستوى الفرد ، تبحث الرأسمالية عن مستهلكين تكون حاجاتهم طيعة للتشكيل ، ورغباتهم قابلة للتوجيه . بينما تحتاج الديمقراطية إلى مواطنين لهم أفكارهم الذاتية ، ويتمتعون بالاستقلال فى أحكامهم المتأنية . وهاهو ألكسندر سولجنتسين Aleksandr Solzhenitsyn يتمنى " ترويض الرأسمالية المتوحشة " ، بينما تتمنى الرأسمالية ترويض الديمقراطية الفوضوية. ويبدو أن لديها مشكلة بسيطة مع الاستبداد، طالما أنه يضمن الاستقرار . [25]

ومن المؤكد أن السعى المتسرع إلى اقتصاد السوق، بغض النظر عن عواقب ذلك،

عرَّض النمو الديمقراطي في كثير من الدول التي تحررت مؤخراً من الشيوعية للخطر .[26] فعدم توفر الأمن الاجتماعي، مع تفشي البطالة بالنسبة لشعوب تعودت على رعاية البيروقراطية الاشتراكية الأبوية من المهد إلى اللحد، قد ينتقل بها إلى نظام من الديمقراطية لم تكن مؤهلة له في غير تلك الظروف . وربما كان هذا هو السبب في كون الأغلبية داخل معظم البلاد السوفيتية السابقة مشغولة في إعادة انتخاب المسئولين الشيوعيين السابقين (وهم عادة ما يرفعون شعارات حزبية جديدة ، ويحملون مبادئ أيديولوجية جديدة) ، ليكونوا أعضاء في برلماناتها الديمقراطية الجديدة . وتشير كلمات الاقتصادي روبرت ماكنتاير Robert McIntyre الصريحة إلى أن " الشيوعيين والشيوعيين السابقين يحققون الانتصارات ؛ لأن النصائح الاقتصادية الغربية أدت إلى معاناة معوقة لا طائل من ورائها ، بينما فشلت في وضع أسس نمو مستقبلي قادر على البقاء سياسياً واجتماعياً ." [27] وحق الاختيار بين تسعة موديلات من أجهزة الفيديو أو بين عشر من ماركات السيارات، ليس بالضرورة أن يشعر العمال الذين لا تتناسب رواتبهم مع ارتفاع أسعار الخبز ، ناهيك عن النساء والرجال الذين لا عمل لهم بالمرة، على أنه حرية . قد يكون الرأسماليون ديمقراطيين ، ولكن الرأسمالية ليست بحاجة إلى الديمقراطية ، ولا تفرضها بالضرورة . ومن المؤكد أن الرأسمالية لا تحتاج إلى الدولة القومية التي هي موئل الديمقراطية .

وليس في هذا انتقاد للرأسمالية في حد ذاتها ؛ فالشركات ذات رؤوس الأموال المشتركة والمؤسسات ذات المسئولية المحدودة تهتم بالربح في المقام الأول . إنها لا تسعى وراء الحرية المدنية والعدالة الاجتماعية، إلا إذا كانتا لا تتعارضان مع حساب المكسب والخسارة . وحقيقة الأمر أن لها حسنات ملموسة تتعدى حدود منافعها الاقتصادية الجوهرية ، كالكفاءة والإنتاجية والمرونة والربحية . فهي معادية للإقليمية والعزلة والتشظي والحرب، وتكره فرض القيود على الاختيار الاقتصادي والانتقال من طبقة اجتماعية إلى أخرى . وإن كان هذا لا يجعلها على ود مع العدالة . كما أن سيكولوجية السوق يمكنها كذلك التخفيف من سيكولوجية الانقسامات الأيديولوجية والدينية وتغذية الوفاق بين المنتجين والمستهلكين. تلك الكيانات التي لا تتناسب مع ثقافة الجهاد العرقية أو الدينية

ضيقة الأفق . إلا أنها فى الوقت ذاته تقوض دعائم سيكولوجية التحقيق القائم على الشك الذى يقوم عليه الحكم المستقل ومقاومة التلاعب . وفى أجواء عالم ماك، قد يتضح أن بديل التقليدية الدوجماتيــة هو الاستهلاكية المادية ، أو العلمانية النسبية، أو مجرد الفساد النفعى . [28] وتقوم روابط الديمقراطية بعالم ماك على الصدفة فى أفضل الأحوال . والحق أن التسوق لا يطيق الكثير من القوانين المنظمة للنشاط التجارى فى أيام الآحاد ، سواء أفرضتها الطريقة الأبوية البريطانية التى تغلق الحانات، أم السلفية اليهودية التى تدعو إلى قدسية يوم الراحة، أم تطهرية ماساتشوستس التى تحظر بيع الخمور أيام الآحاد . إلا أن عدم تحمل قوانين تنظيم الأنشطة التجارية أيام الآحاد ليس شرطاً من شروط العقيدة الدستورية أو من احترام العملية الواجبة . وفى سياق الأسواق المشتركة، لم يعد القانون الدولي رؤية للعدالة وتحول إلى إطار يومي لتسيير الأمور: تنفيذ العقود، أو التصديق على الصفقات، أو تنظيم التجارة، أو العلاقات التجارية، أو الإشراف على دمج الشركات، أو حالات الإفلاس . وكان الكُتَّاب الأخلاقيون يشكون من عجز القانون الدولى عن الحد من الظلم الذى تمارسه الدول القومية ، وإن أظهر قدرة أقل على كبح جماح الأسواق التى ليس لها عنوان يمكن إرسال استدعاءات المحكمة إليه . وبما أن الأسواق نتاج عدد ضخم من الخيارات الفردية أو قوانين الشركات المنفردة ، فهى لا توفر أية مسئولية جماعية . ومع ذلك ، فالمسئولية هى الإلزام الأول لكل من المواطن والمؤسسات المدنية .

وبينما لا تنتج الأسواق المشتركة المصالح المشتركة أو القانون المشترك ، فهى تتطلب وجود لغة مشتركة إلى جانب العملة المشتركة . بل إنها تفرز سلوكيات مشتركة أشبه بذلك الصنف الذى تفرزه الحياة فى مدينة من المدن الكوزموبوليتانية فى أى مكان. الطيارون،التجاريون، ومبرمجو الكمبيوتر، ومخرجو الأفلام السينمائية ، ورجال البنوك العالمية ، وخبراء الإعلام، ومستخرجو البترول، ومشاهير الفنانين، وخبراء شئون البيئة، ومنتجو الأفلام السينمائية، وخبراء السكان، والمحاسبون، وأساتذة الجامعات، والمحامون، والأبطال الرياضيون–كل هؤلاء يشكلون سلالة جديدة من الرجال والنساء الذين يرون أن الدين والثقافة والقومية العرقية عوامل هامشية فى أى كيان عامل . ومع أن علماء الاجتماع المهتمون بالحياة اليومية سوف يظلون دوماً يميزون بين النمط اليابانى والنمط الأمريكى ،

فالتسوق له توقيع مشترك فى كل أنحاء العالم. وربما يرى المتشائمون أن بعض الثورات التى شهدتها أوروبا الشرقية مؤخراً لم يكن هدفها الحقيقى الحرية وحق التصويت، وإنما الوظائف ذات الرواتب الجيدة وحق التسوق. والتسوق يعنى الاتصال الترفيهى المعلوماتى infotainment telesector فى اقتصاد الخدمات .

وعالم ماك إفراز من إفرازات ثقافة تحركها التجارة التوسعية . قالبه أمريكى ، وطابعه الترف . أما سلعه فالصور إلى جانب المعدات ، وخطوط الجمال بجوار خطوط الإنتاج . فالأمر يتعلق بالثقافة كسلعة من السلع ، وبالملابس بصفتها أيديولوجيا . رموزها موتوسيكلات "هارلي-ديفيدسونز" وسيارات "كاديلاك" رُفعت من الطرق ، التى كانت تمثل فيها يوماً من الأيام نمطاً للنقل ، لتوضع فى واجهات مقاهي السوق الكونية مثل "هارلي ديفيدسونز" و"هارد روك"، حيث أصبحت أيقونات أسلوب الحياة . إنك لا تقود أياً منها، بل تشعر بذبذباتها وترقص على الصور التى تستحضرها من الأفلام القديمة ومشاهير الفنانين الجدد ، الذين يُعد ظهورهم شخصياً الأساس فى سلسلة المقاهي العالمية "بلانيت هوليوود" التى تتمتع بشعبية جامحة . أما الموسيقى وأفلام الفيديو والمسرح والكتب ومدن الملاهي- وهى الكنائس الجديدة لأى حضارة تجارية تصبح فيها المراكز التجارية هى الميادين العامة ، وتصير الضواحي هى الجيرة التى ليس فيها جيران- فقد صُنِّعت جميعاً كصادرات من الصور تخلق ذوقاً عالمياً مشتركاً يحيط بالشارات المشتركة، وشعارات الحملات الإعلانية، والنجوم، والأغنيات، والماركات، والتنويهات، والعلامات التجارية . وتتخلى السلطة الدائمة عن موقعها للسلطة العابرة ، بينما تتحول الأيديولوجيا إلى نوع من الفيديولوجيا التى تعمل من خلال المقاطع الصوتية والفيديو كليب. والفيديولوجيا أكثر غموضاً من الأيديولوجيا السياسية ، وأقل منها تشدداً ؛ وهى بذلك قد تكون أكثر نجاحاً فى بث القيم المحدثة اللازمة لنجاح الأسواق الكونية .

وتظل فيديولوجيا عالم ماك أشد منافسى الجهاد هولاً ، وربما أدت على المدى البعيد إلى موت قوة قبلية الجهاد الرجعية .(29) إلا أن أدوات ثورة المعلومات هى كذلك الأسلحة التى يفضلها الجهاد . فهوية الهوتو أو صرب البوسنة كانت دعاية إعلامية أطلقتها قيادة عازمة على تصفية العشائر المنافسة، أكثر منها مسألة ذكرى تاريخية حقة . وفى كل من

رواندا والبوسنة، ساق البث الإذاعي المستمعين إلى حالة من الجنون القاتل . ولاحظ جون باريليس Jon Pareles ناقد موسيقى الروك فى صحيفة "نيويورك تايمز" أن الإقليمية فى موسيقى البوب أصبحت موضة، مثل بيرة المصانع الصغيرة وقنوات الكيبل التى تبث برامجها على نطاق ضيق . فالأسباب واحدة .(30) والثقافة الكونية هى ما يوفر للثقافة المحلية وسيلتها وجمهورها وطموحاتها . وموسيقى البوب الفاشية وموسيقى الروك التى يعزفها أبناء طائفة الحسيديين ليس بينهما تناقض . فهما تمثلان ديالكتيك عالم ماك بطرق شديدة الدراماتيكية . وتضم إذاعة بلجراد محطات تذيع موسيقى البوب الغربية كنوع من التوبيخ لحكومة ميلوشيفتش Milosivic المتشددالمغالية فى قوميتها، بالإضافة إلى محطات أخرى تذيع ألحاناً شعبية محلية تحمل أفكاراً معادية للأجانب ومعادية للسامية . حتى شبكة الإنترنت تحمل نشرات النازية الجديدة ونشرات "حاملو المشاعل" الأرمن الذين يوجهون انتقادات شديدة للأتراك (حيث يهاجمون كل استخدام لكلمة "تركيا" ، سواء أكانت تعني نوعاً من الطيور أم إنساناً غير مرغوب فيه). بل إن أفكار الفضاء الإلكتروني المجردة أصبيت هى الأخرى بإقليمية ثقافية تتسم بالغرابة والتعصب.

إن ديناميكية العلاقة بين الجهاد وعالم ماك شديدة الجدلية . فاليابان ، على سبيل المثال ، أصبحت من الناحية الثقافية أكثر تمسكاً بتقاليدها فى السنوات القليلة الماضية . فى حين يسعى شعبها إلى الحصول على مشتريات أكبر من عالم ماك . وفى سنة 1992، كان المطعم الأول فى اليابان، من حيث عدد زبائنه، هو "ماكدونالدز"، يليه فى الترتيب "كنتاكى فرايد تشيكن". (31) وفى فرنسا ، حيث يشكو الداعون إلى النقاء الثقافى مر الشكوى من الجمهورية السادسة الوشيكة التى يسمونها ("la Republique Americaine")، تهاجم الحكومة استعمال المفردات الإنجليزية فى اللغة الفرنسية "Franglais"، حتى وهي تمول منتزه "يوروديزني" الواقع على أطراف باريس . وبنفس الروح تشن صناعة السينما حرباً ضد واردات الأفلام الأمريكية ، بينما تمنح سيلفستر ستالون Sylvester Stallone واحداً من أرفع الأوسمة الفرنسية ، وهو وسام فارس فى الفنون والآداب Chevalier arts des et lettres . (32) وهاهى الازدواجية تتفشى فى الهند كذلك . فعلى

مقربة من بومباى وبجوار القرى التى لا تزال غارقة فى الفقر وتشتهر بوأد الإناث الرضع، بل والزوجات ، غير الرغوب فيهن ، وهو الأمر الذى كثر الحديث عنه ، نجد مدينة جديدة تعرف اختصاراً بـ SCEEPZ – منطقة سانتا كروز لتجهيز الصادرات الإلكترونية – ، يقوم فيها مبرمجو الكمبيوتر الذين يتحدثون لغات الهندوستانى والتاميل والمهراتى بكتابة برامج لشركات "سويس اير" و "ايه تى أند تى" وغيرها من الشركات متعددة الجنسية التى تهتم بتكلفة العمالة . وبذلك تصبح الهند فى ذات اللحظة نموذجاً أساسياً للتوترات الدينية والعرقية القديمة و" قوة ناشئة فى صناعة برامج الكمبيوتر الدولية ".[33] والذهاب للعمل فى SCEEPZ ، كما يقول أحد العاملين " أشبه بعبور حدود دولية " . ليس إلى دولة أخرى، وإنما إلى أرض عالم ماك الوهمية التى لا مكان لها .

والأمر الأكثر دراماتيكية عما عليه الحال فى الهند هو ذلك التداخل العجيب بين الجهاد وعالم ماك فيما تبقى من يوغوسلافيا . ففى تقرير مؤثر لـ "نيو ريببليك" ذكرت سلافنكا دراكوليتش Slavenka Drakulic قصة حب مأساوية ، بطلاها أدميرا Admira و بوسكو Bosko الحبيبان سيئا الحظ من سراييفو . تقول القصة إنهما " جاءا إلى هذه الدنيا فى الستينيات، وشاهدا أفلام سبيلبيرج، واستمعا إلى ايجى بوب Iggy Pop ، وقرءا جون لو كاريه John le Carre ، وذهبا إلى الديسكو كل ليلة سبت، وتخيلا السفر إلى لندن أو باريس ."[34] ويبدو أنه بدافع من اشتياقهما إلى الأمان ، تفاوضا مع كل الأطراف على المرور الآمن ، وأعدا العُدة لمغادرة سراييفو . وقبل أن يعبرا الحدود السحرية ، التى تفصل بلدهما الذى أصابه الفقر عن ملاذ عالم ماك الظاهرى ، وقعا فى أيدى الجهاد . رقد جسدهما على ضفة النهر ، وقد مزقتهما طلقات الرصاص، التى انطلقت من بنادق قناصة مجهولين كان مرورهما الآمن بمثابة دعوة لهم للتدريب على إصابة الهدف . كان العاشقان القتيلان يرتديان الجينز والأحذية الرياضية ، وهو ما يليق بمهاجرين إلى عالم ماك . وللمرء أن يتخيل أن قاتليهما كانوا يلبسون الأشياء نفسها .

وهناك إلى الشرق ، يجد السائحون الذين يبحثون عن قطعة من روسيا القديمة أنه لا تبعدهم كثيراً عن "إم تى فى " دمى "ماتريوشكا" التقليدية المتداخلة (حيث توضع الواحدة

منها داخل الأخرى) على هيئة وجوه غير تقليدية لبروس سبرنجستين Bruce Springsteen ومادونا وبوى جورج Boy George وديف ستيوارت Dave Stewart وآنى لينوكس Annie Lennox .[35]

ففى روسيا وفى الهند وفى البوسنة وفى اليابان ، بل وفى فرنسا كذلك ، يميل التاريخ الحديث إلى الجانبين : نحو حتمية عالم ماك الذى يقوم على المظاهر ، وكذلك إلى اتجاهات الجهاد المتشددة ، متأرجحاً بين هذا وذاك مائلاً مرة إلى البنجلوسيين [المتفائلين] تارة وإلى الباندورا [المتشائمين] تارة أخرى . ويكون الميل فى كل مرة للأسباب ذاتها فى بعض الأحيان . ويركن البنجلوسيون إلى "يوروديزنى" و"مايكروسوفت" ، فى حين ينتظر الباندورا العدمية وعالماً تسوده الفوضى والاضطرابات . ومع ذلك فعالم ماك والجهاد لا يفرضان فى واقع الأمر أى خيار بين هذين السيناريوهين المتناقضين . فهما معاً قد يشكلان نوعاً من المزيج الخانق ، وهما معلقان فى الفوضى . ومع أن الجهاد وعالم ماك على طرفى نقيض فى كل صغيرة وكبيرة ، إلا أنهما يتآمران على تدمير حرياتنا المدنية التى حصلنا عليها بشق الأنفس (وإن كنا لم نحصل عليها بالكامل) والقضاء على إمكانية أن يكون هناك مستقبل ديمقراطى كونى . وعلى المدى القريب، نجد أن قوى الجهاد ، ذات الصوت الأعلى والعدمية الأكثر وضوحاً من صوت عالم ماك وعدميته ، قد تهيمن على المستقبل القريب ، لتحفر على وجه زماننا حكايات صغيرة عن المآسي المحلية وعمليات إبادة البشر الإقليمية، وتخلق مناخاً من عدم الاستقرار يتميز بالحروب الصغيرة المتعددة الضارة بالتكامل الكونى. أما على المدى البعيد، فنجد أن قوى عالم ماك هى تلك القوى التى تشكل الأساس لقوى دفع الحضارة الغربية التى تتسم بالبطء والثبات ، وهو ما يعنى أنه لا قبل لأحد بإيقافها . وسوف تحتل حروب الجهاد الصغيرة عناوين الصحف فى القرن المقبل ، وهو ما يجعلنا نتكهن بأن نهاية التاريخ ستكون صامتة فى آخر المطاف . أما المجانسة التى يقوم بها عالم ماك، فقد تخلق سلاماً عاماً يؤيد انتصار التجارة وأسواقها ، ويوفر لمن يسيطرون على المعلومات والاتصالات والترفيه سيطرة مطلقة (وإن كانت غير مقصودة) على مصير البشر . وإذا لم نقدم بديلاً للصراع بين الجهاد وعالم ماك فإن الحقبة التى نقف على أعتابها – وهى حقبة ما بعد الشيوعية وما بعد التصنيع وما بعد القومية ، وإن كانت كذلك حقبة طائفية ومخيفة ومتعصبة – قد تصبح فى نهاية الأمر حقبة ما بعد الديمقراطية .

الجزء الأول

دنيا عالم ماك الجديدة

الفصل الأول
الاقتصاد القديم
ومولد عالم ماك الجديد

قال ألفريد م. زيين Alfred Zeien رئيس مجلس إدارة "جيليت" : " إنى لا أرى البلاد الأجنبية كذلك ." [1] أهلاً بكم فى عالم ماك . ليس هناك نشاط أشد أصالة فى قدرته على العولمة مثل التجارة ، ولا أيديولوجيا أقل اهتماماً بالأمم من الرأسمالية ، ولا تحد للحدود أكثر جرأة من السوق . وبمقاييس كثيرة نجد أن الدور الذى تقوم به الشركات فى الوقت الراهن فى الشئون الكونية أكثر مركزية من دور الأمم . إننا ندعوها متعددة الجنسية ، فى حين أننا لو فهمناها فهماً صحيحاً لوجدناها عابرة للقومية أو ما بعد قومية أو معادية للقومية . ذلك أنها تنكر فكرة الأمم أو أية إقليمية أخرى تقيدها زمانياً أو مكانياً . وعملاؤها ليسوا مواطنى أمة بعينها أو أبناء إحدى العشائر الإقليمية ، إنهم ينتمون إلى قبيلة كوكبية من المستهلكين ، حيث تحددهم الحاجات والرغبات الموجودة فى كل مكان وزمان ، إن لم تكن بالطبيعة فهى ، إذن ، من صنع دهاء الدعاية والإعلان . المستهلك هو المستهلك ، وهو كذلك المستهلك .

يقدم "ماكدونالدز" خدمات لعشرين مليون مستهلك فى أنحاء العالم كل يوم ، ويجتذب كل يوم من العملاء ما يزيد عددهم على عدد أهل اليونان وأيرلندا وسويسرا مجتمعين .[2] وتستخدم "جنرال موتورز" (وما تزال أكبر شركة فى العالم رغم عدم كثرة مبيعاتها فى الآونة الأخيرة) من الأفراد فى أنحاء العالم مايزيد عددهم عمن يعيشون فى بعض دول العالم الصغرى .[3] وبعد أن بلغت مبيعات "دومينوز" ، وهى ملكية خاصة ، من البيتزا 4,2 مليار دولار سنة 1991 ، حصلت من العائدات ما يكفي لتمويل النفقات الحكومية فى السنغال وأوغندا وبوليفيا وأيسلندا مجتمعة .[4] أما "توشيبا" ، وهى "جنرال الكتريك" اليابان ، فتتباهى فى تقريرها السنوى لسنة 1992 بأنهم " كمواطنين جماعيين صالحين نقوم بدورنا لضمان استمرار التقدم داخل المجتمع الدولى " ، ولكن مواطنتها – سواء أكانت يابانية أم كونية – تحدها من كل جانب تلك الحدود التى فرضتها متطلبات الربحية ، وهى

بدورها تحركها مبيعات 1992 ، التى بلغت 25 مليار دولار ، أى ما يقل بشكل طفيف عن ميزانية حكومة الأرجنتين الأخيرة . [5] الكونية تحكمها الربحية وليست المواطنة . وهاهى الوجبات السريعة تتزايد مبيعاتها فى سلسلة مطاعم " بلانيت هوليوود " الفخمة الجديدة . وطبقاً لشعار الحملة الإعلانية الناجحة لشركة الأحذية الرياضية "الأمريكية" اسماً فحسب ، " على كوكب ريبوك لا وجود للحدود " . [6] ويفخر عطر رالف لورين الرجالى " سفارى " بـ " العيش بلا حدود " فى الحملة التى صاحبت طرحه فى الأسواق سنة 1992 .

وهناك ملصق حمائى شاع ظهوره في أنحاء البلاد على صدامات السيارات يقول " الأمريكيون بحق لا يشترون إلا ماهو أمريكي " . ولكن المشكلة هى صعوبة معرفة ما هى السيارة الأكثر "أمريكية " حقاً : هل هى " تشيفى " المصنوعة فى المكسيك بأجزاء مستوردة فى الأصل ثم صُدرت إلى الولايات المتحدة من جديد ؟ أم " فورد " المصنوعة فى مصانع ألمانية يعمل بها عمال أتراك وتباع فى أسواق هونج كونج ونيجيريا ؟ أم هى " تويوتا كامارى " التى صممها الأمريكى بيتر ج هيل Peter J. Hill فى مركز "كالتى" للأبحاث فى نيوبورت بيتش بكاليفورنيا التابع لتويوتا وتُجمَّع فى مصنع تويوتا بكنتاكى فى جورج تاون بأيدى عمال أمريكيين من أجزاء صنعت أصلاً فى أمريكا ، وأجريت عليها اختبارات القيادة فى ساحة التجارب التابعة لتويوتا فى أريزونا البالغة مساحتها اثنا عشر ألف فدان .[7] أمر هذه السيارات "اليابانية" يبعث على الحيرة ؛ فهى لكى تظل يابانية بحق لابد أن تصبح المكونات فى مجملها يابانية أكثر منها أمريكية . وبذلك تتباهى" هوندا " فى إحدى نوبات الاحتفاء بالذات الشيزوفرينية بجذورها " المصنوعة فى أمريكا "(أى الأجزاء) حتى وهى مبتهجة بوضعها " أفضل السيارات المستوردة لهذا العام " فى مجلة " موتور ترند " .

لقد أصبحت أنساب السيارات على قدر كبير من الاختلاط ، الأمر الذى جعل حكومة الولايات الأمريكية تصدر قانوناً خاصاً ببطاقات مكونات السيارات الأمريكية منذ 1 أكتوبر 1994 . ويقضى هذا القانون بوضع بطاقة على السيارات الجديدة تتضمن " مكوناتها المحلية " ، من المحركات حتى مساحات الزجاج الأمامي . إلا أن البطاقات قد لا توضح

الموقف ، طالما أنها تكشف (على سبيل المثال) أن السيارة دودج ستيلث من إنتاج شركة " كرايسلر " صنعتها " متسوبيشى " فى ناجويا باليابان ، بينما صنعت سيارة "ميتسوبيشى ايكلبس آر إس" فى نورمال بالينوى وتتميز بمحركات " كرايسلر " . [8] وهذه البطاقات قد تحدث نوعاً من الفوضى : فالسيارة نيسان ألتيما المجمعة فى أمريكا بأجزاء أمريكيـة فى غالبهــا تستخدم خراطيم ردياتير مصنوعة فى باريس ... باريس بولاية تينيسى .[9]

ووجد واضعو اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية أنه من الصعوبة بمكان أن يقرروا أى المنتجات يمكن تأهيلها ، لتحتل وضع الإعفاء من الجمارك فى المنطقة الجديدة، طالما أن كثيراً جداً من المنتجات " الأجنبية " عن أمريكا الشمالية جُمعت فى المنطقة بمكونات محلية . ماذا عن صمامات الصورة اليابانية التى تُركب على شاسيه التلفزيون المكسيكى ؟ ففى ظل القواعد التجارية التقليدية كانت " محلية " . أما فى ظل قواعد النافتا فلابد أن تكون مدفعة الإلكترونيات محلية كى تتأهل لذلك . ولكن بما أن الشركات اليابانية تمتلك أسهماً كبيرة فى كل من الشركتين " الأمريكيتين " اللتين تنتجان ألمدفعة ، فسوف تظل أجهزة التلفزيون "الأمريكية" يابانية بقدر كبير ، حتى وإن كانت مؤهلة كأمريكية فى ظل قواعد النافتا . [10] وسوف يتحتم على السيارات أمريكية الصنع أن يكون 50٪ من مكوناتها (من حيث القيمة) وكذلك 50٪ من العمالة المساهمة فى صنعها محلية (على أن ترتفع هذه النسبة إلى 62،5٪ فى سنة 2002) . ولكن هل هذا بالفعل يجعل السيارات " أمريكية " ؟ إن وضع بطاقات الهوية على المنتجات يتحول فى نهاية الأمر إلى أمر أكثر تحدياً من تحديد الهويات العرقية فيما يتعلق بالبشر ، إذ لابد من تفكيك المنتجات قطعةً قطعة ووضع بطاقة على كل منها تتضمن منشأ المادة وجنسية العمالة وهوية المصمم الثقافية ؛ لكى نصل إلى نتيجة عبثية بشأن هويتها العرقية.[11]

ومن المنظور التاريخى ، هناك مسألة أمريكية أصيلة فيما يتعلق بالسيارة : فقد ارتبط تعهد هنرى فورد بصنع مركبة ذات إنتاج ضخم تحرر كل أسرة أمريكية بكثير من محاسن المجتمع الأمريكى ، وليس بالقليل من مساوئه . فعولمة ثقافة السيارة – وهو ما سماه جورج بول George Ball " أيديولوجيا تسير على أربع عجلات " – وكذلك ثقافة تصنيع السيارة

هى فى واقع الأمر عولمة لأمريكا ، بغض النظر عمن يتولى صنع السيارة . وهاهم الصينيون يلجأون مؤخراً لإقامة صناعة سيارات كأساس للتحديث الاقتصادى ، وهذا القرار أكثر من أى قرار آخر اتخذوه ، قد يلزمهم بالأمركة التى يخشونها أيما خشية .[12]

إلا أنه مهما كانت السيارات أمريكية من حيث مفهومها ، فهى ليست كذلك من حيث صنعها ، سواء أكان مقياسنا هو أجزاؤها أم تصميمها أم حتى العمالة التى صنعتها . وحقيقة الأمر أن الشركات ترفض رفضاً باتاً تعريف أنفسها على أساس من العمالة ، ناهيك عن الإشارة إلى عمالة إقليمية بعينها ذات صفة قومية محلية . ويشير إجناثيو رومانيت Ignacio Romanet إلى أنه فى الاقتصاد الكونى ليس العامل الحاسم هو رأس المال ولا العمل ولا المادة الخام ، بل هى " العلاقة المثلى بين الثلاثة " ، وهو ما يدفعنا إلى عالم المعلومات والاتصالات والإدارة ؛ حيث يمكن للدول التقليدية أن تمارس قدراً بسيطاً من الرقابة ، ويكون مقدراً عليها الشعور بالمزيد من عدم الارتياح .[13] ويقول روبرت كوتنر Robert Kuttner إن أحدث اسم لشركة ما بعد الصناعة – وهى بالطبع شركة ما بعد الدولة القومية – هو " الشركة الوهمية " ؛ حيث " لم تعد الشركة كياناً فيزيقياً له مهمة ثابتة أو موقع لا يتغير ، بل مجموعة متغيرة من العلاقات المؤقتة ترتبط بشبكات الكمبيوتر والتليفون والفاكس".[14]

ما عالم ماك إلا واقع وهمى خلقته شبكات المعلومات عالية التقنية ، التى تُعد رغم كونها خفية شديدة البأس ، وكذلك الأسواق الاقتصادية التحولية سهلة الحركة . لذلك فإن عبارة الشركة الوهمية ليست مجرد قول مجازى .[15] وهاهى الصحفية جولى إديلسون Julie Edelson تعطيها معنى ملموساً ، دون قصد ، بتلك الصورة التى ترسمها لمشروع " مونيدو " الخاص بشركة " فورد " للسيارات :

سعياً وراء توفير الشهور وملايين الدولارات مما هو مخصص لتصميم السيارات ، أدمجت " فورد " إدارة عمليات تصميمها الأوروبية والأمريكية الشمالية والآسيوية فى شبكة عالمية واحدة ، مستخدمة مراكز كمبيوتر فائقة القوة تعتمد على تكنولوجيا " سيليكون جرافيكس إنكوربوريشن"التى ربطت ببرامج" إثرنيت " الخاصة بشبكات الكمبيوتر .

... ووُضع نظـام " فورد " تحت " سقف الكترونى " واحد قاعدته فى ديربورن بميشيجان . أما المواقع الرئيسية الأخرى على الشبكة فهى فى دانتون بإنجلترا ، وكولونيا بألمانيا ، وتورينو بإيطاليا ، وفالينسيا بكاليفورنيا ، وهيروشيما باليابان ، وملبورن بأستراليا . وتُشترى دوائر الاتصال - وصلات الأقمار الصناعية والكابلات البحرية والخطوط الأرضية - من شركات الاتصالات .(١٦)

والعملية الوهمية قائمة كذلك فى سوق العمل على هيئة مستخدم لعمال " وهميين " بدلاً من العمال الحقيقيين . والعامل الوهمى المثالى هو الروبوت : وهو عامل تفاعلى " ذكى " مبرمج برمجة تامة ، وقادر على العمل طوال الأربع والعشرين ساعة يومياً بلا أكل أو شرب مع أقل قدر من الصيانة . ياله من زواج موفق ؛ ففى الفضاء الإلكتروني الجديد البارد الخاص بعالم ماك تمتد يد الأمس الخفية لتمسك بجسم شركة الغد الوهمية التى وُلدت حديثاً كى ترشد حركاتها التشنجية إلى لانهائية الأرباح . ويكاد يحدث ذلك دون تدخل من أى يدٍ بشرية مرئية على الإطلاق .

والكثير من الدول القومية الحديثة عمدت إلى توليد سياسات صناعية قومية تستهدف التنسيق بين السياسة الاقتصادية وهيمنة الأسواق الكونية عن طريق شركاتها التجارية ، اعتماداً على نظرية أن مواطنى الأمة سوف يستفيدون بصورة أو بأخرى من دعم الشركـــات ، حتى وإن لم ترد تلك الشركات الجميل . إلا أنه رغم كون حصول الكل على فرص عمل مصلحة عامة ، فليس فيه أى مصلحة للشركات . فكفاءة الأعمال التجارية تفرض تقليص الأحجام ، وهو ما يعنى الإنتاج ذا رأس المال المكثف . والإنتاج ذو رأس المال المكثف يعني سياسة الأعمال التى تقوم على تقليل العمالة . ولو ترجمنا هذا إلى كلام مفهوم نجده يعنى فصل أكبر عدد ممكن من العمال الدائمين ، والتخلص مما يدفع لهم من إعانات ومعاشات تقاعد ويحل محل هؤلاء الآلات والروبوت،إلى جانب زيادة كبيرة فى (ما يسمّى) الوظائف "المؤقتة" ، التى هى فى حقيقة الأمر ، وظائف طويلة المدى ، دون وجود عقود طويلة المدى أو تأمين طويل المدى أو إعانات طويلة المدى . وربما أدى الأمر بالبطالة إلى إضعاف السوق بإضعافها المستهلكين المحتملين (فأنت لن تشترى لو لم تكسب المال). إلا أننا إذا نظرنا إلى الشركات واحدة بعد الأخرى لوجدناها تتنافس تنافساً محموماً فى

ظل وجود أفق أرباح ربع سنوية (على الأكثر) . وهى لابد أن تكون " نحيفة وبخيلة " كى تسود . و" الدهون " فى هذه الحالة هي العمال، وريجيم الشركات معناه البطالة "الهيكلية" الدائمة لمصلحة أعداد العمال المتزايدة .

وتظل الزراعة الأمريكية منتجاً مهيمناً بالنسبة لأسواق العالم . إلا أنها بينما كانت تحتاج فى يوم من الأيام إلى 80٪ من إجمالي القوى العاملة لزراعة المحاصيل ، فإنها اليوم لا تستوعب سوى 2٪ فقط . ويسير التصنيع على خطى الزراعة . فها هى شركة " آى بى إم " تتخلص من دهون العمالة التى بلغت ستين ألف عامل سنة 1993 ، الأمر الذى لقى استحساناً عاماً من محللى السوق ، كما ضمن مزايا خاصة فى سوق الكمبيوتر الدولية، لن نرى تكلفتها العامة لعدة سنوات ولن تتحمل عواقبها " آى بي إم " تحملاً مباشراً بأى حال من الأحوال .[17] كان عام ألف وتسعمائة وثلاثة وتسعين عام " التصغير " -sizing down (وهو تعبير مخفف مفاده الاستغناء عن العمال وفصلهم) بالنسبة لكثير من الشركات الكبرى ، ومنها عدد من تلك الشركات التى تحقق أرباحاً ، وكانت تتصرف " بشكل وقائى " . والشىء الوحيد فى التصنيع الحديث الذى تُحشد من أجله حشود العمالة هو خفض النفقات . وخوفاً من زحف الشركات صاحبة العلامات التجارية . أعلنت شركة "بروكتر أند جامبل" سنة 1994عن عزمها الاستغناء عن 13 ألف وظيفة (وإغلاق 30 من مصانعها الـ 147) على مدى ثلاث سنوات . وفى الوقت نفسه تعتزم " ايستمان كوداك " الاستغناء عن 10 آلاف وظيفة خلال 1995 كجزء من "إعادة هيكلة " الشركة . ويربو معدل البطالة فى السوق الأوروبية المشتركة على 11٪ ، بينما يزيد على ذلك فى فرنسا ذات الناتج المحلى الإجمالى المنخفض . وصحيح أن الانكماش العالمى خفت حدته ، إلا أنه من غير المحتمل أن تعود فرص العمل إلى الوفرة التى كانت عليها قبل الانكماش ، وهو ما يعد الانتعاش الأمريكى فى منتصف التسعينيات دليلاً عليه . فالكثير من الوظائف الجديدة خدمية منخفضة الأجور . وغالباً ما تكون بلا أى إعانات أو ضمانات مالية . والتصغير على أية حال استراتيجية من استراتيجيات السوق الكونية تتفق مع اقتصاديات عصر الميكنة والمعلومات الإلكترونية . واهتمام سوق العمالة فى عالم ماك بالتوظيف في حد ذاته قليل ، ويقل أكثر فى الحكومات الحمائية التى تعبث بقانون العرض والطلب الخاص بالعمالة .

والواقع أن هناك من الأعمال التجارية ما يُعد هياباً وضعيفاً (وهذه لا تفي بمعايير المشروعات الرأسمالية بالمرة) وهذه ، شأنها شأن الاتحادات المتعثرة ، ترحب باهتمام الحكومة التدخلية . إلا أنها تنتمي إلى اقتصاد تجارى آخذ فى التلاشى وليس إلى عالم ماك. وشهدنا فى العقود الأخيرة بعض كبرى الشركات الأمريكية تسعى للحصول على العون من الدولة – "كرايسلر" أو "أمتراك" أو صناعة الادخارات والقروض – مطالبة بتأميم رؤوس أموالها ذات المخاطر ، بحيث يتحمل دافعو الضرائب من المواطنين تبعات خسارة أعمالها. وفى عالم اختفت فيه الاشتراكية، قد تجدها ما تزال قابعة فى غرف مجالس إدارات الشركات المتعثرة وشركات الاستثمار ذات الأوضاع المالية السيئة ، كتلك التى أساءت تقدير البيزو، وتهفو إلى نشر خسائرها على ظهور دافعى الضرائب الذين طالت معاناتهم .

وتتوارى الاتحادات هى الأخرى خلف السياسات الحمائية ، سعياً منها إلى عزل أعضائها عن تلك الأسواق الدولية التى تتسم فى الغالب بنظامها الجائر كالنافتا . ولكن روبرت ج. صمويلسون Robert J.Samuelson يقول إن " نزوع الشركات الكبرى إلى الفوز بأسواق العالم والوصول بمبيعاتها إلى أقصى حد ، يسيطر على الجميع دون الحمائية الأكثر تشدداً ."[18] والعدل الاجتماعي يحقق تقدماً ضد أيديولوجيا السوق ، يزيد قليلاً على ذلك الذى تحققه المصلحة الذاتية القومية . فالأسواق بطبيعتها ظالمة . وعندما تواجهها مسائل المصلحة العامة التى تطرحها الدولة ، كالعدالة والتوظيف الكامل وحماية البيئة ، فإنها تسعى ، قبل كل شيء ، إلى أن تُترك فى حالها . وهذه حال أية سوق : مجموعة منفلتة من علاقات التبادل فيما بين المستهلكين والمنتجين الفرديين يُسمح لها بالسير كيفما شاءت. وعـالم مـاك لا وجود له إن لم يكن سوقـاً . ويصر أنصار السوق على أن مثلها كالنهر ، حال بينه وبين مفيضه الطبيعي مهندسون عقدوا العزم على احتواء جموحه ، الذى يحدث بين الحين والحين . وأى سوق تحيط بها الجسور الحكومية والسدود التنظيمية سوف ينتهى بها الأمر إلى أن تتسبب فى حدوث دمار يفوق ذلك الذى كانت ستحدثه تلك التى تُركت تسير سيرها الطبيعي .

والحكومة لها الحق كل الحق فى التدخل فى الاقتصاد باسم العدالة أوالبيئة أوالمصالح الاستراتيجية أو التوظيف الكامل أو غيرها من المصالح العامة التى قد يكون

للسوق فيها مصلحة أو لا يكون. بل إن هذا واجب عليها . إلا أنها لا تنتظر من سكان عالم ماك أن يرحبوا بهذا التدخل أو أن يتقاعسوا عن محاولة التصدى للحكومة من خلال تدخلاتهم السياسية . وهذا هو السبب الرئيسى وراء فشل العقوبات التجارية وفرض الحظر فى أغلب الأحيان . فالربح الذى توجهه السوق لا يتغاضى كثيراً عن العقوبة التى توجهها السياسة . وفى استثناء نادر لبلد كالعراق بقيادته التى بلغت من البغض ما أثار العداء بين خصومها ودفع الحكومات الوطنية إلى مقاضاة الشركات الخاصة التى تخترق النطاق المضروب حولها ، نجد أن الحظر يزيد قليلاً عن كونه نوعاً من الإزعاج الصاخب . وفى أوقات مختلفة تعرضت جنوب أفريقيا وصربيا وإيران وإسرائيل وشيلى والأرجنتين وكوبا ، حتى وقت قريب ، للحظر فى هدوء ملحوظ . وكثير منها حققت نمواً اقتصادياً بمساعدة تبادلات السوق التى لا تستجيب ببساطة للسياسات القومية القهرية أو القانون الدولي . وحتى العراق نفسه نجح فى الحصول على إمكانية صنع الأسلحة النووية عبر التجارة السرية بعد أن أصبح بلداً خارجاً على القانون .[19]

والشركات العابرة للقوميات الحديثة لا يمكن أن تعى فى سعيها إلى الأسواق الكونية "السياسة الخارجية" لأن كلمة خارجية لا معنى لها بالنسبة لرجل الأعمال الكونى الطموح. وهى ، كما يقول زيين رئيس مجلس إدارة "جيليت" ، لا ترى الدول الأجنبية كذلك : ففيما يتعلق بالإنتاج والاستهلاك ، هناك عالم واحد هو عالم ماك .[20] كيف السبيل ، إذن ، إلى أن يكون للتمييز المادى بين ماهو محلى وماهو أجنبى صدى قوى فى عالم وهمى تحدده الاتصالات الإلكترونية والأسواق المنفلتة انفلاتاً حقيقياً ؟ فى سنة 1950 ، بلغت التجارة العالمية 308 مليار دولار . وبحلول سنة 1968 ، كانت تربو على التريليون ، واليوم زادت على ثلاثة ونصف تريليون . وفى الوقت ذاته انخفضت التعريفة الجمركية – التى يعد وجودها رمزاً قوياً للحدود القومية – من 40٪ من متوسط أسعار المنتجات إلى حوالى 5٪ .[21] وإذا كانت التجارة العالمية تشكل نسبة من الناتج المحلى الإجمالى تزيد عما كانت عليه فى أى وقت مضى ، فإن صرف العملات يتفوق على التجارة – ويقول البعض إنه يتفوق عليها بنسبة ثلاثة إلى واحد .

فى فترة الثمانينيات ، سخرت اليابان من الشركات الأمريكية التى نقلت منشآت

الإنتاج إلى خارج أراضيها للاستفادة من العمالة الأرخص والاقتراب من الأسواق ، ولتحاشى الاعتماد على الدولار التوسعى . وفى التسعينيات نجد اليابانيين أنفسهم ينقلون منشآت الإنتاج إلى خارج اليابان . وسبعون فى المائة من أجهزة التلفزيون ، وثلاثون فى المائة من أجهزة الفيديو " صنع اليابان " تُصنع الآن فى الخارج . وبينما تنتج " جنرال موتورز " أربعين فى المائة من سياراتها فيما وراء الشواطيء الأمريكية ، يصل إنتاج تويوتا خارج البلاد إلى عشرين فى المائة من إجمالى إنتاجها .[22] أما " مابوتشى موتورز " التى تتحكم فى نصف سوق العالم فى تلك الموتورات الصغيرة التى تدير فرش الأسنان وعدسات الزوم ونوافذ السيارات ، فيعمل بها ثلاثة وثلاثون ألف عامل ، إلا أن ألفاً منهم فقط يعملون داخل اليابان ، بينما الباقون عمال أجانب خارج البلاد فى مصانع موجودة فى أسواق عمالة أرخص كالصين .[23]

وفى نفس السياق نجد أنه بينما يعقل أن توفر الدول الأمم الحوافز للصادرات وتقيم العقبات فى وجه الواردات ، تبدأ الشركات المنتجة والأفراد المستهلكون من وضع أفضلية شديد الاختلاف : فالمنتجون " مصدرون " كونيون بالمعنى الحرفى للكلمة (فهم يصدرون كل شيء ينتجونه فى مصانعهم لل"خارج") والمستهلكون " مستوردون " كونيون (إذ يستوردون من " خارج " بلادهم كل ما يستهلكونه) . وهذه الكونية تعنى من الناحية العملية أن فكرة الصادرات والواردات تعنى القليل بالنسبة للاعبين فى السوق ، وقد لا تعنى شيئاً بالمرة . فشركة النسيج الأمريكية التى تنقل مصنعها إلى إندونيسيا وتعيد عبر الحدود ، من خلال استخدامها لعمالة رخيصة ، فساتين أرخص أسعاراً لا تجلب لنفسها العجز التجارى ، وإنما المزيد من الربحية . والمستهلكة الأمريكية التى تشترى ذلك الفستان لا تخسر وظيفة ، وإنما تكسب صفقة . العجز التجارى من نصيب الدولة الأمة وحدها . قد يفقد العمال الأمريكيون الأفراد الوظائف ، وربما اضطر المواطنون الأمريكيون الأفراد للتعامل مع التغيرات التى تطرأ على أسعار الفائدة بسبب العجز التجارى فى دولتهم ، إلا أن المستهلكين الأمريكيين والمنتجين الأمريكيين ، بوصفهم مستهلكين ومنتجين ، لا يعنون بما دون ذلك .

وواقع الأمر أنه ليس هناك من يعتزم تشعيب كيانه بهذه الطريقة التى تتسم بقدر كبير

من الشيزوفرينية : فالأمريكان شاغلو وظائف بقدر ما هم مستهلكون . وحتى إذا نظرنا إلى الأمر من منظور القدرة الاقتصادية الضيق ، سنجد أن إمكانياتهم الشرائية لفترات ممتدة تتوقف على التشغيل الآمن على المدى الطويل – وهم يدركون ذلك . إنهم مواطنون وليسوا منتجين ، وعليهم أن يضعوا فى اعتبارهم عواقب الفضاء العام الخاصة بقوانين قطاعهم الخاص . وما هوية السوق إلا جزء يسير من كامل هوية أى شخص ، إذ إنها تضم ، إلى جانب ذلك ، أبعاداً عرقية ومدنية ، قد تنافس هوية السوق أو حتى تناصبها العداء . والمستهلك الذى يرحب بالأسعار المنخفضة ، بصفته من العاملين فى أحد مصانع النسيج، قد يعادى تصدير العمالة التى تؤدى إلى انخفاض الأسعار . كما أن المنتج الذى يستفيد من التحايل على تشريعات البيئة قد يأسو كمواطن على الأضرار التى تلحقها أعمال كتلك بالبيئة ، وسوف يؤيد ، كمواطن كذلك ، تشريع الهواء النقى الذى يؤذى أعماله .

ومع كل هذا يعد التوظيف الكامل والحفاظ على البيئة سلعاً اجتماعية ، وليست سلعاً فى السوق الخاصة . وينظر أنصار عالم ماك إلى الأسواق وتأثيرها من خلال منظور الكفاية الرأسمالية أحادى البعد . ومن هذا المنظور المقيد قصير المدى نجد أن المواطنة والعرقية والوضع الوظيفي وكذلك أشكال الهوية المتنافسة الأخرى لا علاقة ببعضها البعض فى أفضل الظروف ، وهى عقبات يجب التغلب عليها فى أسوأ الحالات . قد لا يهتم الأفراد أو الدول بسياسات التصغير التى تتبعها الشركات وتؤدى إلى الاستغناء عن أعداد ضخمة من الوظائف ، إلا أن السوق سوف تحتفى بتنافس لاعبيها الجدد .

والدول قد يكون لديها سياسات اقتصادية قومية، ولكن الرأسمالى الحق يرى اللوائح والتعريفة الجمركية الكفالة والحظر التجارى وتقييد الأجور وحصص العمالة والقيود التى يضعها المحافظون على البيئة ، بل والحوافز التى يفترض أنها فى مصلحة الرأسمالية أو خطط تثبيت الأسعار ، على أنها نقم – فهى على السواء مكروهة ؛ لأنها محاولات من الدولة لتشويه عملية " طبيعية " لا تعمل عملها الصحيح إلا إذا تُركت فى حالها . لذلك فإن صيحة الحرب العتيقة التى يطلقها الرأسماليون القدامى والجدد على السواء هى : دعوه يعمل ، اتركونا فى حالنا، دعونا نفعل ما يفعله المنتجون والمستهلكون : نبيع ونشترى ، ننتج ونستهلك .

لقد كان هناك اعتقاد بأن هذه المذاهب التى تعارف عليها الناس تنتمى إلى عالم أكثر بساطة ، كما أن النظرية الكينزية Keynesianism ودولة الرفاهية جعلتها هامشية . فالدولة الديمقراطية الحديثة تكتسب مشروعيتها من تقديم ما هو عام على ما هو خاص ، حيث تتفوق المصالح العامة على المنافع الخاصة ، وتسبق رفاهية الثروات الفردية . ولكن فى ظل ظروف الكونية - أى السياسات التجارية والأسواق الكونية التى تشكل ما أسميته عالم ماك - تعاود أفكار عدم تدخل الدولة الظهور بقوة جديدة . فليست هناك دولة كونية ، وبالتالى لا نجد من يضمن الصالح العام أو يبحث عنه . ويظل عدم النظام الكونى نوعاً من الحالة الطبيعية فيما بين الأمم ، كما يتميز بنوع من " حرب الكل ضد الكل " - أو ما وصفه توماس هوبز فى كتابه Leviathan منذ ما يربو على ثلاثمائة سنة بأنه الـ " سعى إلى السلطة وراء الأخرى الذى لا يتوقف إلا بالموت " .

وبذلك تكتسب اليد الخفية معنى جديداً فى ظل الفضاء الإلكترونى الخفى ، حيث تلحق الشركات الوهمية الهزيمة بالدول الحقيقية . والفضاء الذى تعمل فيه لا يراه أحد . مثله فى ذلك مثل أيدى السوق الوهمية . أما أنا فأقلل من أهمية الواقع الإلكترونى الجديد الذى تعيشه السوق لسببين : فأيديولوجيا السوق الحرة التى يعيد لها اعتبارها تعد منجنيقاً مصوباً على أسوار الدولة القومية ، ويكشف عداوة عالم ماك لكل شعور قومي من أى نوع . والسبب الثاني هو أنه يتحدى التاريخ المتعارف عليه للأسواق ، ويعيد كتابته فى إطار التجارة الحرة فى المواد الخام والسلع المصنعة والخدمات . ذلك أنه فى اقتصاديات عالم ماك يترك تفوق المواد الخام والسلع التقليدى الساحة لسلطان جديد يتسم بالحداثة والتميز - وهو ما أدعوه قطاع الاتصالات المعلوماتى الترفيهى - يعيد تحديد واقع عالم ماك الاقتصادى ويسجل العلاقات بين الدول القومية بطرق لم تخطر ببال فوكوياما Fukuyama أو بول كينيدى Paul Kennedy .

الفصل الثـانى

حتميـة المـوارد:

مـوت الاكتفاء الذاتى وسقوط الغرب

التجارة فى الموارد الطبيعية وخيرات الأرض من حيوان ونبات ومعادن من بين أقدم قطاعات الاقتصاد وأكثرها ازدهاراً وربحية ، وتعود إلى أقدم عصور الاقتصاد . وقامت مجتمعات العبد والسيد ، وكذلك المجتمعات الزراعية والإقطاعية على اكتشاف هذه السلع الأولية وتجهيزها واستعمالها . وتمثل الزراعة والتجارة فى الموارد الطبيعية الدرجة الأولى فى السلم الاقتصادى . وفى الاقتصاد الحديث هما مدخل العالم الثالث الرئيسى إلى التنمية. وهنا نجد تلك الشركات الاثنتا عشرة أو تزيد فى الناحية الجنوبية من خط الشمال/الجنوب التى شقت طريقها على قائمة أكبر خمسمائة شركة صناعية كبرى فى العالم .[1]

وكذلك تهيمن الزراعة ، وهى القطاع الفرعى الآخر داخل فئة المصادر التقليدية ، على العالم الثالث فيما يتعلق باستثمار العمالة (إذ يشتغل ثلثا القوى العاملة فى كثير من أمم العالم الثالث فى الزراعة) ، رغم أن هذا ليس قائماً فيما يتعلق بالإنتاج لسوء حظ مثل هذه الدول . أما دول العالم الأول فيجعلها استخدام التكنولوجيا المتقدمة من قطاع المعلومات/التكنولوجيا تنتج سلعاً بكفاءة ، بينما لا تستخدم سوى جزء ضئيل من قوتها العاملة .[2]

وعندما نقارن النسبة المئوية المخصصة للزراعة فى الناتج المحلى الإجمالى بتلك المخصصة للسلع والخدمات فى العالم الثالث، نجد أن التقسيم إلى عالمين أول وثالث يزداد تكريساً أكثر و أكثر. ولا تخصص دول منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية (OECD) سوى 8،2 بالمائة من ناتجها المحلى الإجمالى للزراعة و 33 بالمائة للتصنيع ونسبة ضخمة قدرها 6,57 بالمائة للخدمات . فى حين ترتفع النسبة المئوية المخصصة للزراعة إلى 2,17 بالمائة فى أوروبا الشرقية و8,21 بالمـائة فى الدول الأفريقية الواقعـة جنوب الصحـراء الكبرى وإلى 34 بالمـائة فى جنوب آسيا ، مع انخفـاض مماثل فى قطاع الخدمات إلى 5،38 بالمائة فى أوروبا الشرقية وإلى 18 بالمائة فى كل من الدول الأفريقية

الواقعة جنوب الصحراء الكبرى وجنوب آسيا .[3] ولا ينقص عدد من الدول الفقيرة مجرد القدرة التصنيعية ، بل الموارد الطبيعية الأولية والإمكانيات الزراعية . وقد تظل إلى ما شاء الله تنتمى إلى ما لا ينبغى فى واقع الأمر أن نطلق عليه العالم الثالث ، وإنما العالم الأخيرTerminal World . والبعض الآخر "عالم ثالث" فى سبيله إلى أن يكون عالماً ثانياً وأولاً – بنفس الطريقة التى كانت تقارن بها الولايات المتحدة ببريطانيا منذ قرنين .[4] وتعد غانا أوضح مثال للمستقبل المحزن الذى ينتظر كثيراً من الدول الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى . ويشير بول كنيدى إلى أنها فى بداية الستينيات كانت تشترك مع عدد من الدول الأسيوية ،ومنها كوريا الجنوبية ، فى متوسط دخل الفرد الذى كان يزيد قليلاً على200 دولار . واليوم زاد دخل الفرد فى كوريا الجنوبية اثنتا عشرة مرة ليصبح أكثر من 3 آلاف دولار ، ومازال دخل الفرد فى غانا على ما كان عليه ، يزيد قليلاً على 200 دولار .[5]

ومع ذلك فأكثر الحقائق الجدية إثارة للانتباه فيما يتعلق بالموارد الطبيعية فى حقبة عالم ماك ، هى أنه حتى فى هذا المقام يكون الجدل بشأن المصلحة القومية أو الاستقلال القومي غير ملائم إلى حد كبير . والحق أن الاكتفاء الذاتى الاقتصادى ظل حلم كثير من الشعوب منذ فجر تاريخها الجمعى ، وخاصة تلك الشعوب ذات المطامح الديمقراطية . وكانت التبعية الاقتصادية تعنى العبودية السياسية داخلياً وخارجياً فى الوقت ذاته . والمجتمع الحر فى النظرية الجمهورية من بيريكليس Pericles حتى مكيافللي Machiavelli و مونتسكيو Montesquieu كان المجتمع المكتفي ذاتياً فى الطعام والموارد . وبذلك كان الديمقراطيون يحلمون باليوتوبيات التى يرتكز حكمها الذاتى السياسى ارتكازاً قويا على الاستقلال الاقتصادى ، وهو ما أطلقوا عليه الاكتفاء الذاتى autarky. ولم يصل به الأمر إلى أن يكون السوق الحرة ، وإنما السوق المستقلة التى توفر الحرية للدولة المدينة . ومع ذلك لم يكن أهل أثينا قادرين على تحقيق الاكتفاء الذاتى ؛ إذ يتضح أن الطبيعة البشرية هى اعتماد الناس بعضهم على بعض ، ربما لأن الحاجات البشرية والنفسيات المتصاعدة التى تحددها بطبيعتها لا يمكن تلبيتها .

وساد حلم الاكتفاء الذاتى لفترة قصيرة فى أمريكا القرن التاسع عشر كذلك، حين خلقت الأرض قليلة السكان التى لاحد لسخائها ووفرة الموارد الطبيعية والحواجز الطبيعية

للقارة الجزيرة التى يحدها بحران ضخمان ؛ خلقا معاً فاصلاً سحرياً ، اعتقد خلاله كثيرون أن أمريكا قد تصبح بالفعل عالماً بذاته . وطبع هذا فى ذهن الأمريكيين إحساساً متوهماً بالاكتفاء الذاتى . وربى فيهم روح الانعزالية التى أدت فى بعض الفترات إلى الانسحاب من الشئون الدولية . إلا أنه عندما يتعلق الأمر بالأمم فأى جزيرة ليست جزيرة فى واقع الأمر. ورغم صعوبة قبول الأمريكيين لحتمية اعتماد الناس بعضهم على بعض ، فلم تكن وفرتنا القارية بمأمن من النضوب . وفى مواضع أخرى يجعل سوء توزيع الأراضى القابلة للزراعة والموارد المعدنية ، فى كوكب لم يُخلق بالعدل ، أكثر المجتمعات ثراء أشدها حاجة إلى الموارد ، ويهبط بكثير من الدول الأخرى إلى درك يأس العالم الأخير الذى لا ينتهى .

ولم يكن الاكتفاء الذاتى يوماً خياراً بالنسبة لدول كاليابان وسويسرا اللتين تتسمان بالحداثة والتقدم ، بينما تفتقران إلى الموارد الطبيعية . وسواء من خلال الهيمنة العسكرية على جاراتها الأوفر حظاً من الموارد (" منطقة الرفاهية المشتركة الكبرى فى شرق آسيا" كما كانت تُعرف إمبراطورية اليابان التى حُكمت بيد من حديد قبل الحرب العالمية الثانية) أم التجارة الموسعة والسياسة الخارجية الحكيمة (حياد سويسرا هو المثال المفضل) ، أُضطرت تلك الدول إلى اختراع علاقات مع الدول الأخرى التى تجنى فائدة من اعتمادها عليها . وكانت سيطرة اليابان عسكرياً على شرق آسيا بمثابة نظام قاسٍ بالنسبة لليابانيين كذلك . إذ كان يتطلب ذلك وجود جيش إمبراطورى ضخم ، واحتلال دائم ومراقبة لا تنقطع . وإذا كانت المعجزة اليابانية بعد الحرب قد أتاحت لها استعادة هيمنتها، فقد جعلتها تعتمد على شركائها التجاريين أكثر من اعتمادها قديماً على مستعمراتها .

وكان ما حققته الدول ، التى تُعد جغرافيتها بخير أكبر، أفضل بعض الشىء . فالدول الزراعية الكبرى كروسيا والهند تبدو فى بعض الأحيان واقعة تحت ضغط شديد لإطعام أنفسها ؛ ومن المؤكد أن الاتحاد السوفيتي أخفق فى تحقيق ذلك ، مما زاد من حدة الظروف التى عجّلت بنهايته . والثابت أن كل دولة فى حاجة إلى شىء ما لدى غيرها . وبعض الدول تكاد لا تملك شيئاً مما تحتاج . ويُعد تناقص الاكتفاء الذاتى الأمريكى فى الموارد الطبيعية على مدى السنوات المائة الماضية مثالاً لعشرات الدول المتقدمة . وإن كانت

قصته أكثر دراماتيكية من معظم القصص ، فهى جميعاً على درجة كبيرة من الشيوع فى نهاية الأمر .

وحتى سنة 1960 ، كانت الولايات المتحدة لا تستورد إلا عدداً قليلاً جداً من المعادن كالألمونيوم والمنجنيز والنيكل و القصدير . أما اليوم فنحن نأتى من الخارج بالزنك والكروم والتنجستن والرصاص ، وكذلك البترول بطبيعة الحال . وعما قريب يصبح النحاس والبوتاسيوم والكبريت ، بل والحديد ، سلعاً ينوء بحملها ميزاننا التجارى السلبى . وسوف يكفينا إنتاجنا المحلى من الفحم والزيت الحجرى حتى القرن بعد المقبل ، وسوف يحتاج هلاك زراعتنا إلى قدر من الغباء والعجز يزيد عما قد يتمكن مدراؤنا الاقتصاديون ، الذين أفاض الله عليهم من هاتين الصفتين من استجماعه . أما فيما يتعلق بالأمور الأخرى ، فإن أمريكا ، التى كانت فى القرن الثامن عشر جنة عدن الثانية والأرض المكتشفة حديثاً ، فإنها تبدو أكثر وأكثر كبريطانيا أو سويسرا ، إن لم تكن كتشاد أو بنجلاديش ، باستيرادها المزيد والمزيد مما هى بحاجة إليه كى تبقى على قيد الحياة .

ومنذ أقل من خمسين سنة لم يكن هناك ذلك المعتدى الذى يراوده الأمل ، بكل ما أوتى من شجاعة وإقدام ، فى دخول معركة يهزم فيها أمريكا التى تتسم خطوط إمدادها بمثل هذه الوفرة . فمن احتياطى الحديد الخام والبوكسيت والفوسفات والبترول كانت تأتى الإمدادات التى لا حد لها من محركات الطائرات والسفن الحربية وقذائف الهاون والقنابل. ومن الخصوبة الأزلية التى تتميز بها السهول الشاسعة كان يأتى الطعام والكساء لتلك الجيوش الكثيرة التى كان بوسع البلاد إرسالها إلى ساحة القتال . إلا أنه بحلول ثمانينيات هذا القرن كان كل أثر لذلك الاكتفاء الذاتى بكل ماله من قيمة قد تلاشى ، وأصبحت أمريكا تعتمد على الواردات شأنها شأن سائر شركائها التجاريين . والواقع أن النجاح الذى أحرزته أمريكا فى الحرب العالمية الثانية أضر بنفس الاكتفاء الذاتى فى الموارد الذى كان سبباً فى تحقيق الانتصار . فقد سحبت الولايات المتحدة من بنوك مواردها القدر الكبير كى تكون لها الريادة الكونية ، كما سحبت القدر الأكبر منها كى تستعين به فى سنوات التهور التى أعقبت الحرب عندما كانت علاقاتها مع الاتحاد السوفيتى تتجمد ، فى نفس اللحظة التى كان فيها نمو اقتصادها المحلى يستعز .

ويتضح التدهور الحاد والمفاجيء في استقلال أمريكا فيما يتعلق بالموارد، والناتج عن هذا التجاوز من الأرقام الأمريكية الخاصة بالبوكسيت . والبوكسيت مصدر الألمونيوم وعنصر مهم من عناصر التصنيع ، لا يقل أهمية عن غيره من العناصر في لحظة شن الحروب . وكان حظ أمريكا من البوكسيت أقل مما حبته لها الطبيعة من معادن أخرى . إلا أن أمريكا أنتجت في نهاية الحرب العالمية الأولى 50 بالمائة من الإنتاج العالمي من البوكسيت .[6] والأمر الأكثر أهمية أنها استوردت في سنة 1920 ما يقل عن 10 بالمائة من استهلاكها المحلي . وعند نهاية الحرب العالمية الثانية كانت لا تزال تنتج 52 بالمائة مما كانت تحتاجه .[7] إلا أنه خلال خمس سنوات (بحلول 1950) زادت الواردات لتصبح 65 بالمائة من الاستهلاك المحلي ، مع سرعة تزايد الاعتماد على الغير لتصبح النسبة 87 بالمائة سنة 1960 و90 بالمائة سنة 1980 و94 بالمائة سنة 1988 .[8] بل إن إنتاج البوكسيت أخذ يتضاءل ، بينما استمر الاستهلاك في الازدياد بصورة حادة . وفي حين كانت أمريكا سنة 1945 ما تزال تنتج 27 في المائة من خام الحديد في العالم وما يزيد على نصف احتياجاتها المحلية ، كان الإنتاج المحلي قد هبط بحلول سنة 1950 إلى 16 في المائة من الواردات العالمية . وبعد عشر سنوات (1960) هبطت النسبة إلى 7 بالمائة ثم أصبحت نصف ذلك (4,3 بالمائة) بحلول سنة 1970 لتقترب من لا شيء سنة 1989 - 5,0 بالمائة .[9]

وفي الخمسين سنة التالية للحرب العالمية الثانية ، أصبحت أمريكا تعتمد اعتماداً كبيراً ، فيما يتعلق بالألمونيوم الذي كان بعض من ريادتها للعالم يقوم عليه ، على نفس دول العالم الثالث التي كانت ريادتها تعني تبعيتها لها .[10] وهناك قصص تتطابق تقريباً مع هذه القصة تتعلق بالثروات المعدنية الأخرى ، وكذلك بدول أخرى . فعلى سبيل المثال ، يعتمد منافسا أمريكا الكونيان ، أي السوق المشتركة واليابان ، بنسبة 85 إلى 100 بالمائة على الواردات بالنسبة للكولمبيوم والسترونيوم والمنجنيز والكوبالت والتانتالوم والبلاتين والكروم والنيكل والقصدير والأنتيمونيا وخام الحديد والذهب والنحاس والموليبدينوم والفوسفات .[11] وكما هو الحال في أمريكا ، يتزايد اعتماد أوروبا على الخصوم المحتملين في حصولها على المعادن الاستراتيجية التي تعتمد عليها القدرة العسكرية في مواجهة هؤلاء الخصوم .

ومع أن الاكتشافات الجديدة من النحاس والرصاص والزنك (وكذلك الألمونيوم) أدت إلى تزايد الاحتياطات فى أنحاء العالم بصورة أسرع من تناقصها نتيجة للاستهلاك العالمي فى الثمانينيات ، فإن أنماط الإنتاج والتكرير والتوزيع أدت إلى تزايد اعتماد كل الدول المشاركة فى هذه العملية – وخاصة دول مثل فرنسا وروسيا وأمريكا التى كانت فى يوم من الأيام تتمتع بوهم الاكتفاء الذاتى – على غيرها . بل إن الاستهلاك العالمى سوف يتعدى لا محالة الإنتاج العالمى بهوامش أكبر من أى وقت مضى ، حيث إن دول العالم الثالث القابلة للنمو (من غير دول العالم الأخير) تتمتع بشهية العالم الأول الاستهلاكية لتشجيع صناعاتها النامية ، الأمر الذى سيؤدى إلى تزايد الحاجة الملحة إلى الاعتماد على الآخرين فى الموارد وإعادة القواعد المالثوسية إلى العمل بشكل دراماتيكى من جديد ، من يحصل على ماذا من المعروض الآخذ فى التناقص من الواردات ؟ هل ستسعى الصين حقاً للوصول إلى اقتصاد ذاتى الحركة لكل إنسان كما اقترحت سنة 1994 ؟ سوف ينال مليار سيارة جديدة من استقلال الصين ، كما أنها سوف تستنفد الواردات العالمية من المعادن والوقود الأحفورى (ناهيك عن البيئة) . فإذا كان الصينيون سيقطعون بسياراتهم نفس المعدل من الأميال التى يقطعها الفرد الأمريكى فى الوقت الحالى كل سنة ، فلن يحتاج الأمر إلا خمس سنوات لاستهلاك كل مخزون الطاقة المعروف على الأرض.

والحقيقة أن التكنولوجيا سوف تمضى فى معاركها مع الطبيعة من خلال صراع الأمل واليأس الذى لا نهاية له وتتميز به الحياة البشرية . وقد أوجدت الشركات الصناعية بدائل للغازات الصناعية المدمرة لطبقة الأوزون ، وطرحتها فى الأسواق بقدر من السرعة يفوق ما تتطلبه اللوائح القانونية ، حتى إن تقديرات الأضرار قد تم تصحيحها إلى ما هو أدنى بفضل ذلك . وقد يكون لتوجيه الحكومات لحوافز السوق أثر فى ذلك . ففى مجال المعادن يفرض الابتكار التكنولوجي الخاص بإعادة التصنيع استراتيجية تخفف كلا من نضوب الموارد ، وما ينتج عنه من الاعتماد على الآخرين . وفى سنة 1987 كان رصيد نفايات التعدين وتجهيز المعادن والصناعات المعدنية فى أمريكا تقدر بحوالى مليونى طن . وبينما يؤدى تفاوت ما تحتويه هذه النفايات من معادن جعل إعادة التصنيع مكلفاً ، فإننا رغم ذلك ننتج المزيد والمزيد منها .[12] والمدخرات البيئية كثيرة : فكمية الطاقة اللازمة لإنتاج طن

من معدن معين من خلال استخراجه واستخلاصه وتكريره تزيد فى أى مكان بمقدار الضعف إلى عشرة أضعاف على تلك الطاقة اللازمة لإنتاج الطن نفسه من خلال إعادة التصنيع . وإعادة استخدام الأشياء لا يحقق الكثير بالنسبة لأرباح الشركات ، ولكنه ينقذ أمنا الأرض ، ويبقى على الكثير للأجيال التى لم تر النور بعد .[13] وفى حقبة عالم ماك الجديدة الرائعة قد لا يزال بإمكاننا إيجاد طريقة لتحويل قمامتنا إلى حرية، واستخلاص ما يشبه استقلالنا المفقود من نفاياتنا .[14]

وتعدنا التكنولوجيا كذلك بسيمياء عصر جديد ؛ حيث نستخرج من المواد الاصطناعية بدائل جديدة غريبة للمعادن الطبيعية مما يقضى على الاعتماد على المـوارد الطبيعية ويحسن الأداء فى الوقت ذاته . كما أنها تعد بطرق جديدة للوصول إلى الموارد المعدنية التى كانت فى يوم من الأيام متدنية الرتبة أو على عمق سحيق تحت الأرض أو تحت الماء يحول دون الحصول عليها ، كما تمكننا من تجهيزها .[15] وتتناثر على قاع المحيط الهادى عُقيدات المنجنيز ، وهى ثروة من الكتل المعدنية الصغيرة التى تحتوى على مايزيد كثيراً عما فى كل مستودعات الكوبالت والنيكل والنحاس المعروفة فى العالم . وهى الآن على أعماق تجعل استخراجها أمراً غير مجدٍ . إلا أن علم الغواصات يمضى قدماً بينما نجد الشفاطات التى يديرها الإنسان الآلى والقادرة على شفط الكنز موجودة بالفعل على متن السفن .[16]

ومع ذلك، ففى آخر المطاف ، ورغم تعويض التكنولوجيا لنضوب الموارد من خلال تقنيات الاكتشاف الجديدة وطرق الاستخراج التى تتسم بقـدر أكبر من الاقتصـاد، أو عن طريق إعادة التصنيع واتخاذ البدائل ، تشير الاتجاهات طويلة المدى إلى حتمية اعتماد كل إنسان تقريباً على غيره فيما يتعلق بكل شىء تقريباً . قد يتغلب الأمل البروميثى على الشك المالثوسى فى آخر المطاف ، ولكن سرقة بروميثيوس لنار التكنولوجيا لا يمكن بحال من الأحوال استغلالها إلا من خلال التعاون . والعلم والتكنولوجيا ، شأنهما شأن بروميثيوس ، لا سبيل للوقوف فى طريقهما : لا بالحدود ولا بالسيادة القومية . فهما يتحققان بالتعاون ويتطلبان اعتماد الناس بعضهم على بعض . ودول العالم ، وقد استنفدت خيراتها الطبيعية

واحداً تلو الآخر ، ربما تجد طريقة تتحايل بها لتبقى على قيد الحياة . ولكنها سوف تفعل ذلك باعتماد كل منها على الأخرى وبصورة جماعية ! إما بشكل كونى و إلا فلا . إن الدولة القومية باتت أيامها معدودة .

البترول : القصة القديمة ذاتها ، وبشكل أسوأ

الكثير من الموارد المعدنية يمكن إعادة تصنيعه أو استبداله بالبدائل التكنولوجية . ولكن موارد الطاقة – وعلى رأسها الوقود الأحفورى – لا يفلح معها ذلك ، إذا وضعنا فى الاعتبار المعدل الذى يستهلكها به الناس فى أنحاء العالم فى الوقت الراهن . والأمل ضعيف في الحصول عليها من الموارد القابلة للتجديد التى تشمل الطاقة الشمسية التى نحصل عليها من الخلايا الفولتضوئية ، التى زاد إنتاجها بمعدل 15 بالمائة سنوياً فى الفترة من 1981 حتى 1991 مع انخفاض أسعارها بصورة كبيرة جداً . وهناك كذلك الطاقة الحرارية الجوفية – من سوائل الأرض وغازاتها الحارة – التى لم تنتج سنة 1950 سوى 239 ميجاوات من الكهرباء وتنتج اليوم ما يقرب من 10 آلاف ميجاوات ، أو ما يكفى لتوفير احتياجات 6 ملايين أمريكي يفرطون فى استخدام الطاقة . وأيضاً طاقة الرياح ، التى زادت خلال إحدى عشرة سنة فقط من 15 ميجاوات إلى 2652 ميجاوات . والطاقة الهيدروكهربية، التى تلبى ثلث احتياجات الطاقة فى كثير من الدول النامية ، وزادت من دون الخمسين ألف ميجاوات لتصل إلى نصف مليون ميجاوات فى الفترة منذ 1950 حتى الآن . والطاقة النووية رغم أن المخاطر البيئية أدت بها إلى حالة من الثبات الفعلى فى السنوات القليلة الماضية فى أعقاب بلوغها الذروة سنة 1990 حين أصبحت 328 ألف ميجاوات أو أقل من نصف الطاقة الهيدروكهربية .[17] ورغم كل هذا فإن كل هذه الموارد مجتمعة ليس لها سوى تأثير ضئيل على الاستهلاك العالمى للبترول ، تأثير يقل كثيراً عما أحدثته أزمات البترول وكساد السبعينيات والثمانينيات .[18] وبعد أن بلغ الإنتاج العالمي ذروته ليصبح 63 مليون برميل تقريباً يومياً ، استقر بين 59 و60 مليون برميل يومياً منذ 1989 : وهذا يمثل 40 بالمائة من إجمالى الطاقة المستهلكة يومياً فى أنحاء العالم . وبينما يقل الإنتاج اليوم كثيراً عن أعلى حد يمكن أن يصل إليه ، تزداد التوقعات إلى أبعد مدى قتامة كلما طال الزمن . فالاقتصادات المتقدمة التى تخلق عالم ماك تعتمد على السيارة ، وهى أحد أشكال النقل

التى تعتمد اعتماداً شديداً على البترول ، وتعد رمزاً لكل من الرفاهية والفردية والحركة المرتبطة بالمجتمعات الديمقراطية الليبرالية . إذن كيف يمكن إثناء الدول النامية عن استخدام السيارات فى مجتمعاتها ، كما تود الصين أن تفعل الآن ؟[19]

مازال العالم يدور بطاقة الوقود الأحفورى، الذى لا يمكن إعادة تصنيعه أو استبداله. وتمثل الولايات المتحدة دراسة حالة تنذر بشر مستطير ، لأننا أمام واحدة من أغنى دول العالم المنتجة للوقود الأحفورى التى تستنفد مواردها من خلال الإفراط فى الاستهلاك الذى لا ينعكس على مستويات المعيشة المرتفعة ، ولا على ناتج محلى إجمالى أكبر نسبياً . كما أننا لم نتعلم الكثير من أزمتين كبيرتين فى الواردات ولا من اعتمادنا على البترول الأجنبى بصورة تزيد على أى وقت مضى . أسعار وقود السيارات مازالت منخفضة بصورة عبثية . كما أن الضرائب (حتى بعد أن أضافت مبادرة حكومة كلينتون الخاصة بالضرائب 3,4 بالمائة) ليست ذات قيمة . إضافة إلى أن المخزون الاستراتيجى ليس بالقدر المؤثر .

وزيادة عما هو عليه الأمر في حالة المعادن ، تمثل موارد الطاقة شكلاً من أشكال القوة يبدو منكمشاً وهو ينمو . وتلك هى مفارقة التحديث التى وصفها جان جاك روسو ، أول من انتقد التحديث بشكل قاطع . فقد رأى روسو أن القوة التى يقدمها لنا العلم والتكنولوجيا كى نشبع بها حاجاتنا تؤدى ، فى واقع الأمر ، إلى تزايد تلك الحاجات وتضاعفها ، فتزداد قوتنا ويتلاشى ما نشعر به من إشباع . وإذا كانت السعادة هى مجموعة من الحاجات المنسجمة مع قدرتنا على تلبيتها ، فسيكون معنى "التقدم" دائماً هو أن القوة ، مهما كانت سرعة نموها ، سوف تسبقها الحاجات التى تنمو نمواً أسرع . ومن ثم كان لغز الإنسان الحديث ، كلما زادت قوته كان شعوره بالبؤس أعظم . فليس لكل ما لدينا أى فائدة سوى أنه يجعلنا "نحتاج" إلى المزيد . وكلما كثر ما معنا كان ما نحتاجه أكثر ، كى نحمي ما لدينا . وكما هو حال مالك الأرض الذى يُضرب به المثل لأن نفسه لا تهفو إلا للأرض المجاورة لأرضه ، فإن مستهلكنا الحديث لا يحتاج إلا المنتجات قريبة الشبه من تلك التى عنده بالفعل . التلفزيون "يحتاج" إلى الفيديو ، الذى "يحتاج" بدوره إلى مشغل أسطوانات الليزر ، الذى "يحتاج" إلى كمبيوتر ، الذى "يحتاج" إلى برامج لا آخر لها . والسيارة "تحتاج"

أول ما تحتاج إلى جهاز إنذار ضد السرقة وكاشف للرادار وكاسيت وكمبيوتر سيارة . بعد ذلك تحتاج إلى أماكن يذهب إليها أصحابها وإلى دور سينما ومطاعم السيارات . ثم تحتاج إلى أماكن انتظار وجزر وسط الطرق . وقريباً جداً تحتاج إلى كل ما يحسبه الناس حضارة حديثة ، أي تلك السلع التي لا بد للإنسان أن يكدح زمناً يزيد على سنوات عمره كي يبدأ في القدرة على دفع ثمنها . وساعتها سوف يشكو بكل تأكيد من عدم وجود ما يكفي من وقت الفراغ كي يستمتع بـ "الممتلكات" ، التي بات يشعر أنها تملكه بدلاً من أن تكون ملكاً له .

وما أسماه هوبز التماس القوة بعد القوة الذي لا ينتهي إلا بالموت أصبح التماس بئر البترول بعد بئر البترول الذي لا ينتهي إلا بالإفلاس الاقتصادي والبيئي . وفي أمريكا لا يبدو أنه بالإمكان أن يزيد العرض على الطلب . ومنذ اكتشاف البترول في بنسلفانيا الغربية قبيل الحرب الأهلية ، وهو الاكتشاف الذي كان وراء الثروة التي جمعها جون د. روكفلر – وحتى الثلاثينيات من هذا القرن ، كان يبدو أن التنقيب يكشف عن مستودعات جديدة بصورة أسرع مما يمكن لأي عالم تصنيع أن يستهلكه . ومع ذلك فإنه بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب العالمية الثانية وجدت أمريكا نفسها تنزلق إلى الاعتماد على الآخرين ، وإن كان الاعتقاد في أول الأمر هو أن الاعتماد على الواردات ليس سوى مسألة تيسير وكفاءة .

ما الذي يدعو إلى ضخ البترول المحلي غالي الثمن ، بينما البترول في الخارج بهذا الرخص ؟ في ثلاثة أرباع القرن الأولى كان استهلاك البترول في أمريكا يزيد بمقدار 3 بالمائة سنوياً ، في حين كان إجمالي الناتج القومي الحقيقي يزيد بمعدل 4 بالمائة سنوياً في المتوسط .[20] ونجح الإنتاج المحلي الذي بلغ ذروته سنة 1970 في تلبية الحاجة ، حيث كانت المصادر الأمريكية المحلية لا تزال تلبي 88 بالمائة من الاستهلاك سنة 1970 .[21] إلا أنه نتيجة لحرب الشرق الأوسط سنة 1973 وحظر تصدير البترول ، تضاعف عشر احتياجاتنا من الوقود أو ما دون ذلك الذي يعتمد على الواردات الخارجية في الستينيات ثلاث مرات تقريباً بحلول سنة 1974 ، الأمر الذي أوجد لأول مرة إحساساً قوياً بالخطر القومي . وفي 1974 زادت الواردات لتصبح 28 بالمائة من الاستهلاك ، بينما ارتفعت أسعار البترول ارتفاعاً سريعاً من 1,73 دولار للبرميل سنة 1970 إلى 89،10 دولار في

نهاية سنة 1974 .[22] وبحلول 1980 كانت الواردات قد زادت لتصبح 38 بالمائة من الاستهلاك المحلى و 42 بالمائة بحلول 1990 .[23] والآن ، ورغم تراجع الأعمال التجارية وتذبذب الأنماط الاستهلاكية مما أدى إلى جعل الإنتاج العالمى دون معدلات ذروة الإنتاج التى بلغها فى السبعينيات ، فإن الاعتماد الأمريكى على الواردات ظل أعلى من 40 بالمائة . وفى سنة 1994 بلغ لأول مرة ما يربو على 50 بالمائة .

وتعكس هذه الزيادة طويلة المدى فى أرقام الواردات هبوطاً شديد التدرج فى الإنتاج المحلى ، إلى جانب رغبة فى الطاقة آخذة فى النمو ، وإن اتسمت بالاعتدال فى السبعينيات عندما ارتفعت الأسعار . وبينما هبط استهلاك الطاقة محلياً من 11 , 30 مليون برميل يومياً فى السبعينيات (من البترول الخام والغاز الطبيعى) ، وهو معدل مرتفع ،إلى حوالى 9 ملايين برميل يومياً سنة 1990 ، ارتفع الاستهلاك مما يقل عن 15 مليون برميل يومياً إلى حوالى 18 مليون برميل فى أواخر السبعينيات ، وهو معدل مرتفع ، (وإن انخفض الاستهلاك منذ ذلك الحين ثم ارتفع وهبط تارة أخرى ، ليصبح الآن أعلى قليلاً عما كان عليه قبل خمس عشرة سنة) . ويتوقع الخبراء فى إدارة معلومات الطاقة أنه فى حال استمرار انخفاض الأسعار قد ينخفض الإنتاج المحلى إلى حوالى 6 ملايين برميل يومياً بحلول سنة 2010 ، بينما يرتفع الاستهلاك إلى مايقرب من 24 مليون برميل فى اليوم الواحد . وبذلك يكون هناك عجز مقداره 17 أو 18 مليون برميل يزيد من الاعتماد على الواردات التى تمثل 75 بالمائة تقريباً من الاستهلاك بحلول سنة 2010 .

والحال الذى عليه أمريكا هو نفسه الكابوس الذى يقض مضجع كل دولة متقدمة . وإذا استبعدنا تلك الدول الأعضاء فى الأوبك ، مثل قطر والبحرين ، ذات الأعداد الضئيلة من السكان والفائض الضخم من الإنتاج ،[24] نجد أن كل الدول الصناعية على وجه التقريب تعتمد على الواردات . وفى كثير من الحالات يكون اعتمادها عليها اعتماداً تاماً تقريباً . وحيث إن نصف إجمالى الناتج المحلى العالمى تقريباً موزع بين أمريكا واليابان وألمانيا (الولايات المتحدة 27 فى المائة واليابان 16 فى المائة وألمانيا 7 فى المائة) ، فإن هذه الدول تستورد ما يزيد على نصف طاقتها – أقل من 50 فى المائة بالنسبة للولايات المتحدة، وما يزيد على 90 فى المائة لليابان ، وما بين هذا وذاك لألمانيا .[25] ولأن فرنسا اتجهت

إلى الطاقة النووية فإنها تنتج معظم طاقتها . ولكننا إذا نظرنا إلى الاستهلاك بدلاً من الإنتاج فإنها تظل معتمدة على الواردات .[26] ومن بين دول منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية نجـــد أن كندا وأستراليا إلى جانب النرويج والمملكة المتحدة ، الواقعتين على بحر الشمال ، هى وحدها التى تعد دولاً منتجة صرفة للطاقة - وهو ماأتاح للنرويج أن تظل خارج أوروبا . من ناحية أخرى تعد أكبر اقتصادات العالم أكبر مستوردى الطاقة . فكلما ازدادت الدولة قوة كان استقلالها أكثر هشاشة .

ويكمن فى خضم هذه الإحصائيات كذلك عامل شديد البأس من عوامل الظلم ، يضىء جانباً أشد ظلمة من جوانب عالم ماك .ومع أن الأسواق عابرة القوميات حلت محل الدول ، فإن سكانها مازالوا منتجى السوق الكونية ومستهلكيها . ويشوه التوزيع غير العادل لموارد العالم ويخل بتوازنها ، ويجعل من عالم ماك - بمزاياه وعيوبه - ملعباً للبعض ومقبرة لسواهم . وإذا نظرنا لاستهلاك الطاقة فى الدول الغنية ، التى تعد أمريكا كذلك نموذجاً لها لتوصلنا إلى نتيجة تثير القلق فيما يتعلق بالعدل . فالأمر ليس فقط أن ما يسد الحاجة آخذ فى النقصان ، بل إن ما تبقى يوزع بطريقة تزداد ظلماً وعدم فاعلية . وبذلك يتضح أن الظلم سمة أساسية من سمات عالم ماك . ورغم أن هذه النقطة ليست محط اهتمامنا الأول هنا ، فليس بإمكاننا تجاهلها .[27] (انظر الملحق أ)

مصادر المعادن والطاقة : الجهاد أم عالم ماك ؟

فيما يتعلق بعالم ماك ، فإن أوضح نتيجة يمكن استخلاصها من هذا العرض هى أن قوى الاعتماد على الغير التكاملية المرتبطة بالعولمة تعزز ، فى واقع الأمر ، اتجاهات الجهاد التفتيتية التى يبدو ، فى ظاهر الأمر ، أنها تحاربها . وعندما يتصل الأمر بأنماط استهلاك المعادن والطاقة يبدو كلاهما وكأنه يشجع الاعتماد على الغير بتعزيزه لضرورة الحاجة إلى التعاون الكونى ، وتأكيد الانقسام والظلم والضعف ، مما يؤدى إلى جعل الاقتصاد العالمي الجديد هدفاً سهلاً لقوى الجهاد . وقابلية تعرض عالم ماك الناشىء الذى يضم الدول المتقدمة للخطر تبرز بالسؤال عن عدد دول العالم المنتجة للطاقة الأساسية من خارج منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية المرشحة لأن تكون هدفاً للجهاد وما يرتبط به من أدواء ؛ أى كم من هذه الدول يبدو مهيئاً لمسلسلات الاضطرابات الداخلية وعدم الاستقرار السياسى

والحروب الأهلية والتمزق القبلي . (انظر جدول المخاطر) . ومن بين الدول القابلة لأن تكون منتجة للجهاد يمكننا أن نذكر بكل تأكيد إيران والعراق والجزائر وليبيا ونيجيريا ويوغوسلافيا السابقة كدول قوية الاحتمال . أما الدول متوسطة الاحتمال فتشمل الأرجنتين والبرازيل وبيرو وفنزويلا وألبانيا ورومانيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق وأنجولا والكاميرون والكونغو والجابون والصين والهند وماليزيا والمكسيك ، وبالطبع سائر دول الشرق الأوسط بما في ذلك المملكة العربية السعودية والكويت وعمان وقطر ومصر وسوريا والإمارات العربية المتحدة - فهل تقدم على استثمار مدخرات أطفالك في أي من هذه الدول ؟ وفي سنة 1991 كان نصيب الدول قوية الاحتمال 8 ملايين برميل يومياً من أصل 60 مليوناً في أنحاء العالم ، أي ما يمثل 13 بالمائة من إنتاج البترول في العالم .

الجهاد وإنتاج البترول : المخاطر

الدول المنتجة للبترول قوية ومتوسطة الاحتمال والجهاد.
هذه آخر أرقام خاصة بإنتاج العالم من البترول في سنة 1992.
الأرقام بالألف برميل يومياً . إجمالي إنتاج العالم من البترول :
4,60029 (ألف برميل في اليوم)

الدول قوية الاحتمال

الجزائر	771.3
إيران	3ر341.3
العراق	417.3
ليبيا	1ر468.7
نيجيريا	1ر1887.٠
يوغوسلافيا	22.2
الإجمالي	7ر9818 . (ألف برميل في اليوم)

13.30 بالمائة من إجمالD إنتاج البترول في العالم
يأتD من دول إما تعيش صراعاً عرقياً، أو هناك احتمال كبير أن تشهد صراعاً من هذا النوع في المستقبل .

الدول متوسطة الاحتمال

ألبانيا	30.0
أنجولا	553.2
الأرجنتين	554.3
البرازيل	640.7
الكاميرون	139.0
الصين	2833.6
كومنولث الدول المستقلة*	8848.8
الكونغو	182.7
مصر	870.7
الجابون	302.7
الهند	573.8
الكويت	845.3
ماليزيا	661.0
المكسيك	2775.7
عُمان	724.0
بيرو	115.0
رومانيا	140.0
السعودية	8.206.7
الإمارات*	2.337.2
فنزويلا	2.328.7
الإجمالى	33718.8 (مليون برميل فى اليوم)
	56.17 بالمائة من إنتاج البترول فى العالم ،

يأتي من دول احتمال حدوث صراعات عرقية على أراضيها في المستقبل (متوسط) .

الإجمالي العام 6,41700 (ألف برميل فى اليوم)
47,69 بالمائة من إجمالى إنتاج البترول فى العالم يأتى من دول احتمال حدوث صراعات عرقية على أراضيها فى المستقبل (قوى أو متوسط) .

المصدر :

- The International Petroleum Encyclopedia (Tulsa : PenWell Publishing Company, 1993)pp .354–350

* دول الكومنولث المستقلة هى : أذربيجان وروسيا البيضاء وجورجيا و قرغيزستان وروسيا وطاجيكستان و تركمانستان وأوكرانيا و أوزبكستان .

** تضم الإمارات : أبو ظبى وعجمان ودبى والفجيرة ورأس الخيمة والشارقة وأم القوين .

الجهاد واحتياطى البترول : المخاطر

نظرة على احتياطي البترول العالمى المؤكد . (احتياطى البترول المؤكد = كمية البترول التى يمكن استخراجها بالأسعار الحالية والتكنولوجيا المتاحة فى الوقت الراهن .) وهذه هى الأرقام النهائية فى 1 يناير 1993 .)

الأرقام بالمليار برميل . إجمالى احتياطى البترول العالمى 04,997 مليار برميل .

الدول قوية الاحتمال

	احتياطى البترول	النسبة المئوية من من احتياطى البترول العالمى
الجزائر	9.20	0.92
إيران	92.86	9.31
العراق	100.00	10.03

ليبيا	22.80	2.29
نيجيريا	17.90	1.80
يوغوسلافيا	0.80	0.008
الإجمالي	242.84 مليار برميل	24.36

36.24 بالمائة من إجمالى احتياطى العالم المؤكد من البترول يقع فى دول إما تشهد صراعاً عرقياً فى الوقت الراهن أو أن احتمال حدوث ذلك فى المستقبل قوى أو متوسط .

الدول متوسطة الاحتمال

	احتياطى البترول	النسبة المئوية من احتياطى البترول العالى
ألبانيا	0.17	0.012
أنجولا	1.50	0.15
الأرجنتين	1.57	0.16
البرازيل	3.03	0.30
الكاميرون	0.40	0.04
الصين	24.00	2.41
كومنولث الدول المستقلة	57.00	5.72
الكونغو	0.83	0.08
مصر	6.20	0.62
الجابون	0.73	0.07
الهند	6.05	0.61
الكويت	44.00	4.43
ماليزيا	3.70	0.37
المكسيك	51.30	5.15

عُمان	4.48	0.45
بيرو	0.38	0.04
رومانيا	1.57	0.16
السعودية	256.84	25.86
الإمارات	98.10	9..84
فنزويلا	62.65	6.28
الإجمالى	675.50 مليار برميل	67.75

50.67 فى المائة من إجمالى احتياطى البترول العالمى المؤكد يقع فى دول احتمال حدوث صراع عرقى على أراضيها فى الوقت الراهن أو المستقبل قوى أو متوسط .

الإجمالى العام 34,918 مليار برميل من البترول

92.11 بالمائة من إجمالى احتياطى البترول العالمى. المؤكد ، يقع فى دول احتمال حدوث صراع عرقى على أراضيها فى الوقت الراهن أو فى المستقبل قوى أو متوسط .

المصدر:

The International. Petroleum Encyclopedia
(Tulsa : PennWell Publishing Company1993)pp. 284-285

فى إطار مجموعة الدول متوسطة الاحتمال تنتج الدول غير العربية حوالى 21 مليون برميل يومياً (أى ما يزيد على ثلث الإنتاج العالمى) ، بينما يقدم الشرق الأوسط (باستثناء العراق وإيران المنتميتين إلى الفئة قوية الاحتمال) حوالى 13 مليون برميل أخرى يومياً، أو خُمس آخر من الإنتاج العالمى . وإذا جمعناهما لوجدنا أن أكثر من ثلاثة أخماس إنتاج العالم حالياً من البترول (وحوالى 93 بالمائة من احتياطى إنتاجه المحتمل) تسيطر عليه أقل الدول احتمالاً لدخول عالم ماك وأكثرها احتمالاً للتعرض لعدم الاستقرار السياسى والاجتماعى وبالتالى الاقتصادى .[28]

ونجد كذلك أن النتائج غير مطمئنة ، إن نحن رتبنا الدول المصدرة للبترول فى الفئتين قوية الاحتمال ومتوسطة الاحتمال حسب معيار الديمقراطية . وحيث إن هناك تلازماً بين الديمقراطية واستمرارية الحكومة ، ومن ثم الاستقرار ، وحيث إن احتمال شن الدول الديمقراطية الحرب على غيرها من الديمقراطيات أقل من احتمال قيام الدول غير الديمقراطية بذلك ، تعد الديمقراطيات المنتجة للبترول شركاء مأمونين فى علاقات عالم ماك التجارية . ومع ذلك كانت القوى الغربية راضية عن عودة الكويت لإنتاج البترول دون حثها على أن تكون أكثر ديمقراطية .

و فى أفضل الأحوال تضع أدق المعايير مجموعة أمريكا اللاتينية والهند فى الهامش الديمقراطى ، و تعطيها 7 ملايين فقط من بين 42 مليون برميل تنتجها مجموعة الدول قوية ومتوسطة الاحتمال ، بينما تترك مايزيد على أربعة أخماس الإنتاج فى هاتين المجموعتين فى أيد غير ديمقراطية . وإذا أصبحت جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق ديمقراطية بحق، سوف تصبح 10 ملايين برميل أخرى " آمنة " ، غير أن نصف إنتاج العالم تقريباً سوف يظل معرضاً للخطر . فواقع الأمر أن تقسيم الاتحادات السابقة كيوغوسلافيا والاتحاد السوفيتى إلى شظايا أصغر جعل الدول التى كانت يوماً ما منتجة ومصدرة دولاً مستوردة صرفة . وعندما كانت أوكرانيا ضمن الاتحاد السوفيتى كانت ترى نفسها جزءاً من دولة قوية منتجة للوقود الأحفورى والأخشاب . أما الآن وهى تعيش وهم الاستقلال، فقد أصبحت مستورداً شديد الحاجة يتفاوض بلهفة مع روسيا على البترول والغاز والأخشاب . ويتحدث يورى بيلومستينوف Yuri Byelomestnov مدير " منجم أكتوبر " بأوكرانيا بمرارة قائلاً : " كان استقلال أوكرانيا غلطة . ... القومية أعمت الذكاء . كنا نحصل على 8 آلاف قطعة من المعدات – سيور ناقلة وأخشاب – شهرياً من روسيـــا . أمـــا الآن فلا نحصل على ذلك ."[29]

المنطق ضئيل ومخيف : الجهاد وعالم ماك كلاهما ينال من قوة أى دولة . فالجهاد يفتتها ، بينما يتزايد اعتمادها على عالم ماك . أما عالم ماك فيسحب الدول من عزلتها واكتفائها الذاتى . غير أنه بجعله إياها معتمدة على سواها يقلل من قوتها . وفى كلتا الحالتين تعاني الديمقراطية ما تعانيه ، خاصة إذا كانت الديمقراطية قد رسخت جذورها

من الناحية التاريخية فى مؤسسات الدولة القومية ، وهو ما سأناقشه لاحقاً . وحتى عندما نضمن السلام الأكبر من خلال التجارة والمعاهدات والقانون والتعاون والقوة المشتركة ، فإن الحروب الصغرى التى تشعلها إقليمية الجهاد الممزقة تصبح ذات أهمية كونية أكبر . واعتماد الدول على بعضها البعض لا يفتح الحدود أمام ما هو خير وحسب ، بل يسمح بأن يعبرها ما هو شر ، بالنسبة للجهاد وعالم ماك على حد سواء .

الفصـــل الثالث

القطاع الصناعى وقيام الشـــرق

كيف يختلف الحال عندما ننتقل من مجال الموارد الخام إلى السلع المصنعة – التى يفترض أنها أساس أى اقتصاد قومى ؟ تشكل السلع المعمرة المصنعة القطاع الصناعى التقليدى الذى يقاس به قيام الرأسمالية فى أغلب الأحيان . وحتى وقت قريب كان يُنظر إلى هذا القطاع على أنه محرك كل اقتصاد متقدم . وبذلك ارتبط انهيار التصنيع الأمريكى فى مجالات تقليدية ، مثل الصلب والسيارات ، ارتباطاً شديداً بما يُظن أنه تآكل فى القيادة الاقتصادية العالمية . وقد حوَّل " حزام الصدأ " الأمريكى الولايات المتحدة إلى دلو متسع من الصدأ . و " القرن الأمريكى " الذى احتفى به هنرى لوس Henry Luce صاحب مجلة " لايف " سنة 1941 انتهى دون أية مراسم فى وقت ما من السبعينيات ، عندما عبرت أمريكا نقطة منتصف الطريق خلال رحلتها المحزنة من كونها أكبر دولة دائنة فى العالم إلى كونها أكبر دولة مدينة ، عندما بدأت أوروبا واليابان ، بعد أن تعافتا تماماً من آثار الحرب ، التهام ريادة أمريكا فى مجالات تصنيع السيارات والأجهزة المنزلية والإلكترونيات والكمبيوتر . وانتهى بول كينيدى وديفيد كاليوDavid Calleo وغيرهما من المتشائمين إلى أن الحقبة الأمريكية ، التى تكاد تصل إلى نصف قرن، قد ولت . (1)

وبالمنطق نفسه فإن ما حدد القوى الاقتصادية الناشئة ،التى يفترض أن المستقبل كان لها ، فى العقود القليلة الماضية ، وهى قدرتها التصنيعية الصناعية . وبذلك لحقت "النمور" التى يتكاثر عددها على الجانب الآخر من المحيط الهادى ، كاليابان والكوريتين وتايوان وسنغافورة والصين (ومعها هونج كونج) ، بالقوى الأوروبية ، كألمانيا وفرنسا ، بل وتفوقت عليها لتصبح من اللاعبين الاقتصاديين الكبار . كما أن الدول الأصغر حجماً والأقل وضوحاً المتخصصة فى التصنيع كإسرائيل والعراق وكوبا (قبل سقوط رعاتها الشيوعيين) وبتسوانا والكويت وليبيا بات لها أثر اقتصادى لا يتناسب مع حجمها ، فى حين قد تحقق شيلى وتركيا ، بل والمكسيك ، معدلات نمو غير عادية فى هذا العقد .(2) وكل هذه الدول التى جاء ذكرها تخصص ما يربو على نصف إجمالى ناتجها المحلى للصناعة .(3) والثابت أن هذه الاتجاهات قليلة . فالتكهنات القائمة على القدرة التصنيعية خاطئة ،

لأنها تفتقد الاتجاه الذى يسير فيه الاقتصاد الناشيء . وقد انتقلت القوة الاقتصادية فى عصر عالم ماك إلى مجال الخدمات ، وهنا ظهرت إجراءات جديدة ومميزة للقيادة منفصلة تماماً عن القطاع الصناعى التقليدى .

كتب جوزيف ناى Joseph Nye يبتغى الإقناع بالتحول عن نوع " القوة الصلبة " المتأصلة في قهر البُنى الآمرة – الجيش وسلطة الآلة – إلى شكل جديد هو " القوة اللينة" التى تقود بطيب الخاطر ، والمتأصلة فى " عمومية ثقافة دولة من الدول وقدرتها على إيجاد مجموعة من القواعد والمؤسسات المقبولة التى تحكم مناطق النشاط الدولي . "[4] وهو يرى أنه من الناحية السياسية تحل القوة اللينة محل القوة الصلبة فى العـالم الحديث ، وأقول أنا إن هناك تطوراً موازياً فى الاقتصاد من التصنيع الصلب إلى قطاع الخدمة اللينة soft service (المعلومات والاتصال) وأنه من المحتمل أن تنحو القـوة الاقتصـادية هذا المنحى من التطور فى العقود المقبلة ، مما يقلب التكهنات المروعة التى أبداها المؤمنون بنظرية الانهيار بشأن الولايات المتحدة .[5] ومع أن الولايات المتحدة لم تعد ذلك الكيان الصناعى المسيطر الذى كانته من قبل ، فإن لها سيطرة أكيدة على القوى الأكثر ليونة التى تشكل عالم ماك ، وهى التى تؤهلها لاستعادة الريادة الكونية . ومايوحي به هذا الأمر هو أن قصة قيام أمريكا كقوة صناعية وانهيارها ما هى إلا جزء من رحلة أكبر لم تصل بعد إلى منتهاها .

فى سنة 1950 ، حين لم يكـن قد مضى زمن طويل على انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وقبل أن تبدأ الحرب الباردة الوشيكة تحدى القوة الأمريكية ، وتحول اهتمامها عن إعادة بناء اقتصاد سلام خرج لتوه من الحرب إلى بدء اقتصاد الحرب من جديد ، كانت الولايات المتحدة قد حلت بالفعل محل إنجلترا وألمانيا ؛ لتصبح القوة العالمية . بدت العوامل العسكرية والسياسيـة وكأنها تحتل الصدارة ، ولكن القوة الاقتصادية كانت تتقدمها . وكانت تلك الهيمنة الاستراتيجية التى لم يسبق لها مثيل تعتمد اعتماداً تاماً ، تقريباً ، على الاقتصاد الصناعى الأمريكى بالحالة التى خرج بها من الحرب العالمية الثانية – اقتصاد وراءه أكثر الشركات المصرفية والصناعية إنتاجية فى العالم .[6]

وفى تلك اللحظة من فترة ما بعد الحرب ؛ حيث كانت أمريكا تسيطر على العالم

اقتصادياً ، كان العالم الذى تسيطر عليه مكاناً على قدر شديد من التباين ثقافياً . وبينما مارست أمريكا هيمنة القوة الصلبة ، كانت القوة اللينة متناثرة وغير ذات قيمة ، حيث كانت مسألة خاصة بثقافات محلية منعزلة على قدر من الاختلاف والكثرة . كانت الأنظمة الدلالية ممزقة ، فى حين كانت الرموز الثقافية فى حوزة الشعوب الإقليمية ، التى تتسم صورها عن أنفسها بأنها شديدة التميز . وفى الخمسينيات والستينيات لم تكن هناك "أوروبا" فى أوروبا. ففى عالم ما قبل عالم ماك كان ما يقوده أهل السويد ويأكلونه ويستهلكونه سويدياً . وكان ما يقوده الإنجليز ويأكلونه ويستهلكونه إنجليزياً . وكان سائر سكان العالم إما أن يحاكوا ساداتهم المستعمرين أو يبتكروا اقتصادات استهلاكية محلية تدور حول منتجاتهم المحلية وثقافتهم المحلية . وفى فرنسا كانوا يأكلون جبن برى غير المبستر ، ويشربون نبيذ البروفانس فى المقاهى والمطاعم التى كانت فرنسية محضة . وكانوا يستمعون إلى إديت بياف Edith Piaf وجاكلين فرانسواز Jacqeline Francoise من محطات الإذاعة الوطنية ويقودون السيارات الستروين 2CV والسيارات الرينو دون أن يغادروا الطرق الفرنسية – تلك الطرق ذات الحارتين التى تحفها الأشجار ، وتمر بك خلال نصف قرى فرنسا وأنت فى طريقك ، لنقل ، من باريس إلى مارسيليا . وأى أمريكى فى باريس كان يعبر البحار هرباً من " تستي فريز " و" وايت كاسل " وشاحنات الشيفروليه . وما أن تطأ قدماه أرض فرنسا حتى يتأكد من أن كل هذا سوف يختفى . وأى ألمانى كان يدرس فى إيطاليا لينهل من ثقافة البحر المتوسط لا ثقافة الأطلنطى . كان الأمريكيون يسيطرون على العالم الاقتصادى بالمعنى المجرد للسيطرة . ولكن كان الفرنسيون يسيطرون على فرنسا، والإنجليز على إنجلترا ، والإيطاليون على إيطاليا .

ومع ذلك ظهر داخل الحرب الباردة وخارجها عالمان متنافسان لكل منهما قوته الاقتصادية . وبينما ركزت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى جهودهما فى الصناعات الثقيلة المرتبطة بالدفاع والفضاء ، كان هدف ألمانيا واليابان المنتجات الاستهلاكية . والمفارقة أن المستهلك الأمريكى المثالى المستقل القادر على الانتقال بسهولة من طبقة إلى أخرى ويصعب إرضاؤه وبيده تحديد ما سيكون عليه الاقتصاد فى المستقبل هو الهدف الطبيعى . وحيث كان الدفاع وصناعة الفضاء شديدى الارتباط بالقوة الصلبة وبُنى سيطرة

الدولة ، أعطت الاقتصادات الاستهلاكية الجديدة المزايا للقطاع الخاص واتجهت صوب القوة اللينة .

وعزز الهيمنة الاقتصادية بعد الحرب قرارها بأن تركز على السيارات . وكان تفضيل الطرق البرية على السكك الحديدية مع إنشاء شبكة ضخمة من الطرق بين الولايات يعنى أن الصناعات التى تقوم عليها السيارات (وهى الصلب والألمونيوم والكروم والبترول والمطاط والخرسانة والأسفلت والإلكترونيات) سوف تنمو باستمرار ، ليس من أجل إنفاق الدفاع التابع للقطاع العام ، وإنما من أجل إنفاق القطاع الاستهلاكى الخاص . وسهلت السيارات عملية نشوء ضواحى المدن في أمريكا ، مما كان له أثره الحيوى على صناعة الإسكان والتشييد كذلك . وتطلب نشوء المدن تحسين وسائل الاتصالات ووسائل الترفيه المنزلية وأعطى التلفزيون دوراً جديداً كوسيلة إعلامية قومية . وأدى تضافر هذه الإنتاجية المحلية مع الإنتاج الصناعى الثقيل فى قطاع الدفاع إلى انتعاش الاقتصاد ، وضمن لأمريكا ريادتها الاقتصادية العالمية . وأتاح سباق السلاح للاتحاد السوفيتى وبعض الموردين كألمانيا الشرقية بناء اقتصادات صناعية منافسة كذلك (أو أجبرهم على ذلك)، ولكن المستقبل كان بحق لتلك الدول التى ركزت على السلع الاستهلاكية . وواقع الأمر أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى كانا يتسابقان على تسليح نفسيهما من منطلق تحقيق الريادة . وفى ختام هذا التنافس كان الاتحاد السوفيتى قد أفلس ، ولم تنج أمريكا اقتصادياً إلا بفضل توفير ذلك الدين القومى شديد الضخامة والعجز التجارى المؤلم ووضع أكبر دولة فى العالم الذى لا يرغب فيه أحد ، وهو الوضع غير المريح فى التسعينيات فى ظل عالم ماك الذى خلقه اقتصادها فيما بعد الحرب .

وأدت الابتكارات فى تكنولوجيا الإلكترونيات والكمبيوتر ، التى كانت قد ظهرت أصلاً فى أبحاث الدفاع الأمريكية ، إلى تيسير التطورات التى شهدتها السلع الاستهلاكية واستفادت منها القوى الصناعية فى أوروبا وساحل المحيط الهادى . وشجعت القدرة قصيرة المدى للصواريخ الأمريكية منخفضة الطاقة على تصغير الأحجام ، بينما أدى الطلب على الأسلحة عالية التقنية إلى حدوث تقدم فى الإلكترونيات والكمبيوتر سرعان ما تُرجم إلى تكنولوجيا استهلاكية . وصارت أجهزة الراديو وآلات التصوير والتليفونات وأجهزة

الفيديو والأجهزة المنزلية وكذلك الكمبيوتر – وهى كل الأشياء التى يحتاجها الناس ، كى يملأوا بها السيارات الخاصة والمنازل الخاصة المتزايدة فى أمريكا – جبهة التصنيع الجديدة . ورغم ريادة أمريكا فى البحث والتطوير ، سرعان ما تخلت عن ميزتها التنافسية لدول كانت قد هزمتها فى الحرب .(7)

إلا أن الولايات المتحدة ظلت رغم الاستنزاف قوة صناعية تدعو للإعجاب ، تبنى شيئاً فشيئاً قاعدة لمشروعاتها الجديدة فى اقتصاد الخدمات . وبلغ إجمالى ناتجها المحلى 5 تريليون دولار سنة 1993 –أى أن ما يزيد على خمس إجمالى الناتج العالمى من إنتاج واحد على عشرين من سكان العالم . ومن بين أكبر 500 شركة صناعية فى العالم سنة 1991 كانت هناك 161 شركة أمريكية ، تشمل خمساً من أكبر تسع شركات وكل الشركات الثلاث التى تحتل القمة (وهى جنرال موتورز وإكسون وفورد) .(8) ولكن هناك رقماً يدعو للدهشة من الشركات الجديدة فى البلاد . فقد حققت شركة إنتل ، التى تأسست سنة 1968 مبيعات تقدر بـ 8,8 مليار دولار وكان يعمل بها ثلاثون ألف موظف سنة 1993 . وولدت نايك فى 1972 ومايكروسوفت فى 1975 وأبل كمبيوتر و جين تك فى 1976 . وهذه الشركات ليست جديدة وحسب ، بل إنها تمثل كذلك شكلاً جديداً من أشكال القوة الاقتصادية .

والقصة الحقيقية وراء التغيرات التى شهدتها الولايات المتحدة بصفتها الدولة الصناعية العالمية ليست فى واقع الأمر قصة انتقال القوة من دولة إلى أخرى ، بل قصة التآكل التدريجى لكُنه السيطرة القومية فى مجال الصناعات التى أخذت سنة وراء الأخرى تصبح عابرة للقوميات فيما يتعلق بتركيبة الشركات ، ومتعددة الجنسية من حيث امتلاك أجزائها ، ودولية فى توزيع وظائفها ، وعالمية فى استراتيجياتها الخاصة بالتسويق والمستهلكين . حسبك أن تنظر إلى نايك أو أبل . لم تعد الريادة الصناعية الأمريكية أمريكية، بنفس القدر الذى لم تعد فيه الريادة الصناعية اليابانية يابانية . إذ أصبحت الشركات الصناعية عالمية شأنها شأن الأسواق التى تغذيها بمصنوعاتها . ولهذا السبب كان أحرى بعنوان كتاب بول كنيدى عن قيام القوى الكبرى وسقوطها أن يكون " حول قيام فكرة القوة العظمى ذاتها وسقوطها " .

والواقع أنه عندما نتحدث عن الشركات العالمية والأسواق العالمية ، فإن العام فى هذه

الحالة لا يشمل إلا هؤلاء اللاعبين المتميزين فى هذه اللعبة . وجغرافية الكوكب بأسره ليس لها أى دخل فى الأمر . وإذا استبعدنا شركات البترول والمعادن لن نجد هناك شركة واحدة من أفريقيا أو أمريكا الجنوبية أو الشرق الأوسط أو الهند بين الخمسمائة شركة الكبرى . والموقف ليس أفضل فيما يتعلق بأنماط الاستهلاك ، حيث يتضح أن أكبر المنتجين هم كذلك أكبر المستهلكين . وفى سنة 1991 ، على سبيل المثال ، صدّرت الولايات المتحدة بضائع قيمتها 85 مليار دولار إلى كندا و48 مليار دولار إلى اليابان و33,3 مليار دولار للمكسيك و22 مليار للملكة المتحدة و21,3 مليار لألمانيا . وتشكل هذه الأسواق التصديرية مجتمعة حوالى 210 مليار دولار أو ما يزيد على نصف صادرات أمريكا إلى أنحاء العالم سنة 1991.[9] ومن بين أكبر خمس دول موردة لأمريكا نجد أن أربعة منها بين أكبر خمس أسواق مصدرة . ومن بين أكبر عشرة مستوردين تعد ثمانية منها تشكل ما يربو على 77 بالمائة من إجمالى ما تستورده أمريكا من كبرى الأسواق التصديرية .

الدولة	ترتيبها كمورد (تستورد منها أمريكا)	ترتيبها كسوق للتصدير (تصدر لها أمريكا)
اليابان	1	2
كندا	2	1
المكسيك	3	3
ألمانيا	4	5
الصين	6	16
المملكة المتحدة	7	4
كوريا الجنوبية	8	6
فرنسا	9	6
إيطاليا	10	12

ويشغل الأمريكيين أمر عجزهم التجارى : فهناك عجز ضخم فى ميزان أمريكا التجارى مع سبع من الدول التسع التى تضمها هذه القائمة، ولا يستثنى من ذلك إلا فرنسا والمملكة المتحدة والمكسيك . ورغم ذلك فإن شركاءها التجاريين فى العجز هم كذلك

شركاؤها التصديريون . والدول غير الأوروبية وغير الواقعة على ساحل المحيط الهادى بين أسواق الولايات المتحدة التصديرية الخمس والعشرين الكبرى هى جاراتها الأمريكية اللاتينية (التى تعانى أمريكا من العجز التجارى معها هى الأخرى) ، وتأتى البرازيل فى المرتبة 17 وفنزويلا فى المرتبة 20 . وتضع نصف دول العالم المصدرة تقريباً، أو حوالى سبعين دولة، أمريكا كأول أو ثانى أو ثالث مقصد لصادراتها فى عام 1987/1988 . وتضع أربعون من تلك الدول أمريكا فى المرتبة الأولى ، وتشمل كل أمريكا اللاتينية ، وكذلك كوريا الجنوبية واليابان ونيجيريا وموزمبيق والعراق وأوغندا وباكستان وسريلانكا والهند وبنجلاديش الفقيرة .[10] باختصار تشترى أمريكا من منافسيها وتبيع لهم، وهم يفعلون الشيء نفسه مع بعضهم البعض عندما لا يتاجرون مع أمريكا . وداخل هذا النادى قد تكون هناك فروق في معدلات التصدير/الاستيراد تثير المشاعر المحلية (كما هو الحال بالنسبة للنافتا) . غير أن الانضمام للنادى هو ما يهم .[11]

ودول العالم الثالث دول مهمشة تظهر وتختفى ، بينما تتساقط دول العالم الأخير . وربما كان هناك عجز تجارى بين الشركاء التجاريين ، إلا أن عدداً قليلاً من الدول تعد جزءاً متكافئاً فى العملية الحسابية . وانقسام الشمال/الجنوب ينبىء بحدوث انقسام الشرق/الغرب . ويتضح ذلك تقريباً في كل تقرير اقتصادى توفر لنا عن آسيا الوسطى والشرق الأوسط ، وكذلك دول أفريقيا الواقعة جنوبى الصحراء الكبرى ، وهى أشدها فظاعة من حيث كونها " منطقة كوارث بشرية وبيئية تقع على هامش سائر دول العالم " لا يفكر فيها أحد على أنها تحتل " نفس الفترة التاريخية " .[12]

ومن المفارقات أن القوى الاقتصادية الكونية تضعف الدولة القومية فى المناطق المتقدمة حيث هى أكثر ماتكون ديمقراطية ، بينما تقويها فى العالم الثالث حيث هى أقل ما تكون ديمقراطية ، معرضة الحرية في كلتا الحالتين للخطر . فالديمقراطية خاسرة على طرفى المعيار التنموى . إذ إن المجتمعات الحرة ذات الاقتصادات التوسعية تقطع شيئاً فشيئاً الأواصر التى تربط شعباً من الشعوب بالديانة والقومية التقليديتين، وتمحو مؤسسات الدولة التى تجعل الديمقراطية والاقتصاد الحر أمراً ممكناً قبل أى شيء . والدول المستبدة لا تقدم مثل هذا المذيب للقومية والدين اللذين يقويان بطرق تعوق التحديث والتحول إلى

الديمقراطية . ولا يحدث فقط أن يزداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً ، وإنما يزداد الأغنياء حرية ، بينما يستعبد الفقراء .

وحقيقة الأمر أنه على المدى الطويل لا تخدم هذه المفارقات الديمقراطية فى أى من العالمين الأول أو الثالث . ففى العالم الثالث يسلب قهر الدولة الشديد الحرية من الشعوب التى على وشك تحقيق انطلاقة اقتصادية . أما فى العالم الأول ، فإن قهر الدولة القليل يترك الأفراد بلا حماية من قوى السوق التى ليس لها عليها أى سيطرة منطقية أو جمعية . والاعتماد على الأسواق الكونية استناداً إلى السخاء الكونى قد يكون أفضل من الاعتماد على المستبدين المحليين استناداً إلى الفقر. إلا أن كليهما يشكل نوعاً من الإخضاع ولا يحول أى منهما دون تلك العبودية العامة التى تزداد فيها الفوارق ، بينما تنمحى الحرية العامة.

وبينما تساهم هذه المفارقات المتعددة مساهمة فعالة فى مسألة تزايد الظلم الكونى وتضاؤل احتمالات الديمقراطية الكونية ، فما هى إلا قليل من كثير بالنسبة للأمر الذى نركز عليه هنا : أى عولمة الأسواق والشركات التى تخدمها . وفى العالم المتقدم الذى "يحسب له ألف حساب " ، حيث الحد الأدنى من الحرية مكفول (نظرياً على الأقل) ، يظل تآكل القومية ، باعتباره أبرز موجِّه لأعمال الشركات التجارية ، أكثر ملامح قطاع التصنيع أهمية . ذلك أن انهيار السيطرة الديمقراطية على الأسواق على مستوى الدولة يُعرِّض كلاً من العدل والسياسة الاجتماعية من جهة واحتمالات السيطرة الديمقراطية الكونية على الاقتصاد من جهة أخرى للخطر . ومن بين أكبر خمس وعشرين شركة أمريكية (سنة 1992) ذات أكبر مبيعات خارج الولايات المتحدة لا نجد فقط شركات الطاقة العملاقة مثل. اكسون (77 بالمائة من المبيعات خارج الولايات المتحدة) وموبيل (68 بالمائة) وتكساكو (53 بالمائة) والشركات الكيماوية مثل داو (50 بالمائة) وديبون (47 بالمائة) ، بل كذلك فيليب موريس وكوكاكولا وجونسون أند جونسون وايستمان كوداك .[13] وتكسب داو كيميكال حوالى 4 دولارات من كل مبيعات للخارج قيمتها 10 دولارات ومصانعها فى الخارج ضعف ما فى الولايات المتحدة . وتكسب جوديير للإطارات والمطاط 43 بالمائة من دخلها من الخارج ويقع أكثر من نصف مصانعها البالغ عددها ثلاثة وثمانين خارج الولايات

المتحدة فى خمس وعشرين دولة أجنبية مختلفة .

ولا يحتاج المرء إلا أن يدق أبواب عدد قليل من تلك الشركات التى تحمل صفة "أمريكية" ضمن أسمائها كى يدرك كم هى جوفاء رنات الوطنية فى تلك الكيانات . خذ مثلاً شركة أمريكان جريتنجز كوربوريشن (لبطاقات المعايدة والهدايا) ،التى تكسب 14 بالمائة من عائدات مبيعاتها من الخارج ، وأمريكان إكسبريس ، التى تحصل على 20 بالمائة من مكاسبها من خارج الولايات المتحدة ، وأمريكان هوم برودكتس ، التى تحقق 24 بالمائة من مبيعاتها خارج البلاد ، ومجموعة أمريكان إنترناشونال إنشورانس ، التى تحصل على 46 بالمائة من عائداتها من الجانب الدولى فيها وليس من الجانب الأمريكي ، وأمريكان ستاندارد (للسباكة) ، التى تحصل على 49 بالمائة من عائداتها طبقاً لمعايير رواج يضعها غيرها ، وأمريكان سيناميد ، التى تكسب شأنها شأن معظم شركات الكيماويات الأمريكية أكثر من نصف عائداتها (51 بالمائة) من الخارج ، وأخيراً أمريكان بريزدنت (للشحن)، التى تحصل على ثلثى دخلها من رحلات تقوم بها من موانىء أجنبية .(14)

ومنذ عشرين سنة أو أكثر كان الكثير من تلك الشركات الأمريكية التى تحصل على أغلب عائداتها من الخارج تركز تقريباً على السوق المحلية وحدها . وتكسب شركة "فرنسية" مثل ميشلان (للإطارات) ، التى تمثل مبيعاتها من الإطارات 20 بالمائة من المبيعات في العالم ، 19 بالمائة فقط من عائداتها من داخل فرنسا ، وتكسب سونى أقل من ربع دخلها السنوى الذى يقدر بـ 30 مليار دولار تقريباً من اليابان ، بينما تحصل على ما يزيد على النصف من الولايات المتحدة وأوروبا (28 بالمائة من إجمالى مبيعاتها فى كل منهما) . وفقدت الدول الصغرى كذلك سيادتها الاسمية على أعمالها التجارية . فهاهى شركة إيكيا السويدية العملاقة لبيع الأثاث بالتجزئة تبيع أكثر من أربعة أخماس إنتاجهـا (مبيعات مقدارها 3,2 مليار دولار سنة 1992) خارج الحدود السويدية . وفى الفترة الأخيرة نقل مؤسسها أندريس موبيرج Andres Moberg (مثله مثل الملياردير سام والتون Sam Walton مؤسس وال-مارت) ملكية إيكيا بالكامل إلى مؤسسة أقامها فى أمستردام ، فى حين نُقل المركز الرئيسى للشركة إلى الدنمارك (وانتقل موبر) .(15) وفى ظل أسلوب يسمى "الحديث الدنماركى" ماهو الحجم الحقيقى لدنماركية ايكيا ؟

وبينما تعولم التصنيع وتنازلت القوى الصناعية التقليدية عن سلطانها للأسواق الجديدة ذات العمالة الرخيصة ، فإن القطاع الصناعى نفسه يشهد تحولاً فى الوقت الراهن. وما عولمة الشركات إلا جزءاً من هذا التغير . ذلك أن السلع التى تنتجها الشركات – أى نفس فكرة ماهية السلعة الاستهلاكية – تتطور حالياً . من السلع الصلبة إلى السلع اللينة ومن السلع اللينة إلى الخدمات ، التى أخذت هى الأخرى تتحول إلى سلع . ولننتقل الآن إلى هذا الجانب من الموضوع .

الفصل الرابع

من السلع الصلبة إلى السلع اللينة

بينما يظل صنع السلع وبيعها الشكل السائد للنشاط الاقتصادى فى أسواق عالم ماك الدولية ، فإن التفاعلات الرمزية الخاصة بقطاع الخدمات فى صوره ما بعد الحداثية والمرتبطة بالاقتصاد الوهمي يزداد ارتباطها بالسلع أو تحديدها لها . ونجد أن الانتقال من الإنتاج الصناعي الثقيل المرتبط بالدفاع إلى السلع الاستهلاكية ، وكان ملمحاً ثابتاً من ملامح التنمية الاقتصادية ، قد انتقل فى العشر سنوات الأخيرة إلى مرحلة أخرى يزداد فيها ارتباط السلع الاستهلاكية الصلبة بالتكنولوجيات اللينة وثيقة الصلة بالمعلومات والترفيه وأسلوب الحياة، وتظهر فيها منتجات تجعل الخط الفاصل بين السلع والخدمات غير واضح . والاقتصاد الرأسمالي القديم ،الذى تصنع فيه المنتجات وتباع من أجل الربح تلبية لطلب المستهلكين الذين يعلنون عن حاجاتهم التي لا وسيط دونها من خلال السوق ، يستسلم الآن شيئاً فشيئاً لاقتصاد رأسمالي ما بعد حداثي تصنع فيه الحاجات تلبية لطلب المنتجين الذين يجعلون منتجاتهم التي لا وسيط دونها قابلة للتسويق من خلال الترويج والتغليف والإعلان. وبينما تعامل الاقتصاد القديم ، الذى يعكس القوة الصلبة ، فى السلع الصلبة التي تستهدف الجسم ، يعتمد الاقتصاد الجديد ، الذى يعكس القوة اللينة ، على الخدمات اللينة التي تستهدف العقل والروح (أو التي تستهدف محو العقل والروح) . وهذا التزاوج بين تكنولوجيات الاتصالات وبرامج المعلومات والترفيه يمكن أن نطلق عليه اختصاراً infotainment telesector (قطاع الاتصالات المعلوماتي الترفيهي) . وقد استولى قطاع الاتصالات المعلوماتي الترفيهي ، الذى لايستهدف شيئاً دون الروح الإنسانية ، على قطاع السلع .

هل فى هذا مبالغة ؟ إن لغة الروح التي ظلت زمناً طويلاً فى سبات عميق ،وكانت حتى وقت قريب لغة مهجورة إلى حد ما ، على الأقل فى مجال رأسمالية الشركات ، تعود من جديد عودة علمانية . وبما أن رأسمالية ما بعد الحداثة تستوعب الكثير والكثير من الأيديولوجيات وتغير شكلها ، فهي لم تجد حرجاً فى استيعاب الدين وتغيير صورته . وإذا

كان بمقدور مادونا أن تقوم بألعاب إباحية ومعها صليب ، فلم لا تعمل مازدا وأمريكان اكسبريس من أجل الحصول على بعض المشتريات المرتبطة بالروح القدس ؟ ففي أحد إعلانات مازدا التلفزيونية سنة 1993 يغني مستهلك ذو صوت خشن قائلاً " الشاحنات شيء روحي بالنسبة لي " . والشاحنة الصغيرة مازدا الجديدة " كالصديق " – ذلك الصديق الذى " له محرك V-6 جديد وروح ينسجم كل منهما مع الآخر ". وفى حملة إعلانية أخرى اشتركت أمريكان اكسبريس مع محلات أنيتا روديك لبيع المنتجات العضوية للعناية بالجسم من أجل استغلال الحفاظ على البيئة وحقوق الإنسان وما تسميه " التجارة بشرف " . وينتهي الإعلان المطبوع بعبارة روحية تقول : " أمريكان اكسبريس تعرف الكثير من المحلات التي تفيد جسمك ، وأنيتا تعرف محلاً يفيد روحك ".

وبالنسبة للشركات الأمريكية صاحبة أكبر أسماء فى مجال السلع الاستهلاكية ، مثل كوكاكولا أو مارلبورو أو كنتاكى فرايد تشيكن أو نايك أو هيرشى أو ليفايز أو بيبسى أو ريجلى أو ماكدونالدز ، يعني بيع المنتجات الأمريكية بيع أمريكا : ثقافتها الدراجة ورفاهيتها المفترضة وخيالها وبرامجها القادرة على كل شيء ، وهو ما يعني روحها نفسها . وتصريف السلع يهتم بالرموز قدر اهتمامه بالسلع ولا يبيع ضروريات الحياة وإنما أساليب الحياة – وهو الطريق الحديث الذى ينقلنا من الجسم للروح . " رواج الثقافة (والسلع) الأمريكية فى جنوب أفريقيا" كان العنوان الرئيسي لصحيفة نيويورك تايمز حول الإمكانيات الاستثمارية الجديدة فى دولة كانت تستعد لإجراء أول انتخابات حرة فيها تشمل كل الأجناس ، حيث كان أهل جنوب أفريقيا السود يتجمعون فى " أحد مطاعم كنتاكي فرايد تشيكن يحتسون الكوكاكولا ويستمعون لشريط من أشرطة ويتني هيوستون " وحيث كان سبعة من أفضل عشرة برامج تلفزيونية فيها أمريكية .[1] وفى الوقت نفسه تعلن مارلبورو عن Marlboro Gear حيث تبيع الأسلوب الذى اخترعته (" ريف مارلبورو") كي تحافظ على مبيعات الدخان فى عصر معاد للتدخين .

والأسلوب الذى يُسوِّق أمريكى صرف ، إلا أنه قد يصبح كونياً ، طالما أننا العالم بالنسبة للشركات ، بالمعنى الذى يكاد يكون حرفياً للكلمة. وتقدم أمريكا للعالم أسلوباً مفككاً ومتناقضاً ولكنه أسلوب مغر يقل "ديمقراطية" عن الثقافة المادية : فهو يتمتع

بالشباب، وحضرى ثري ، وراعي بقر متقشف، ونجم لامع من نجوم هوليوود، وجنة عدن لا أول لها ولا آخر، ويقع فى الخطأ بحسن نية، وهو واع اجتماعياً وكامل سياسياً، وتنتشر فيه المراكز الاجتماعية، ومن المفارقات أنه كثيراً ما تسوده أطياف حياة الجيتو الأسود-إلا أنه أسود كما فى واع وممتاز ليس كما فى تنتشر فيه الجريمة وقذر، وهو "سيء" ولكنه ليس سيئاً . ويبرز تقرير بيبسيكو السنوى لعام 1992 فى الغالب راقصين سود من فرقة مارثا جراهام ومدرسة الباليه الأمريكية على غلافيه الأمامي والخلفي . وجيل بيبسي متعدد الألوان والثقافات لا يعد شيئاً إن لم يكن أمريكياً . الأخوان مايكل (جوردان وجاكسون) والإخوة جاكسون (مايكل ولاتويا وجيسي) والملك King (مارتن لوثر) والأمير Prince كذلك . وهناك سيمسون (وليس الأخوة سيمسون) : وبذلك يستغل الأمريكيون البيض مجموعة منتقاة ليس فيها أى تمييز من الأبطال من أمريكا السوداء للاستيلاء على الأسواق الكونية التي يتم تخيلها تخيلاً بطولياً . وسقوط الأبطال – مايكل جاكسون Michael Jackson و أو جي سيمسون J. O. Simpson ليس تعثرا – غير أن كونهم يعيشون على الهامش يعد جزءاً مما يجعل ثقافة الجيتو الأمريكية أمراً مثيراً للمراقبين الأجانب .

وفى بيع أمريكا كوسيلة لبيع السلع الأمريكية ، أصبح الإعلان نفسه عملاً تجارياً كبيراً على المستوى الكونى . ومن بين أكبر خمس وعشرين شركة إعلان هناك خمس عشر شركة أمريكية . ويقدر إجمالى عائدات الإعلان فى العالم بما يتراوح بين 150 مليار و250 مليار دولار ، نصفها تقريباً أمريكي . [2] وتعمل أكبر الشركات ، وهى البريطانية ساتشى أند ساتشى ، فيما يربو على الثمانين دولة . وهى ، طبقاً لما يقوله الخبير الإعلامى بن باجديكيان Ben Bagdikian ، تشترى 20 بالمائة من كل إعلانات التلفزيونات فى العالم. وأعد القسم الخاص ببيبسي كولا فى الشركة إعلاناً يعرض فى أربعين سوقاً إقليمية مختلفة حيث ينتظر أن يراه خمس الجنس البشرى . [3] وتشمل فروع كوكاكولا الجديدة الصين وجامعة روتجرز . وفى الصين لابد أن تشترك فى السوق مع بيبسيكو وغيرها من الشركات، أما فى جامعة روتجرز فقد تغلبت على منافسيها وضمنت احتكار منتجاتها للسوق إلى جانب حق الإعلان بالاشتراك مع الجامعة مقابل 10 ملايين دولار . الرأسمالية المتأخرة لم تعد تدور حول المنتجات أو التنافس . الصورة هي كل شيء وكلمة "هي" التي

تعني كوكا هي الآن التعليم – بصفتها صورة وليست الجوهر . ومثل هذه الانتصارات التي تحققت مؤخراً ، وتشمل رعايتها لدورة الألعاب الأخيرة ، قد تكون ثمرة من ثمـــار الارتباط الذى أقامته كوكاكولا منذ عدة سنوات مضت مع وكالة كرييتف آرتيستس ، تلك الوكالة الجبارة ذات المواهب التي ترسم الصور ويديرها مايكل أوفيتز Michael Ovitz، لكي " تساعد في وضع استراتيجياتها التسويقية والإعلامية في أنحاء العالم . " وكوكا تفهم العلاقة بين مشروبها والثقافة الأمريكية: وطبقاً لما يقوله أحد المديرين التنفيذيين فإن " الثقافة الأمريكية بتعريفها الواسع – الموسيقى والأفلام والموضة والطعام – أصبحت هي الثقافة في كل بقاع الأرض ." [4] لقد اكتشفت كوكاكولا عالم ماك – الذى ساعدت مساعدة فعلية في خلقه على امتداد نصف القرن الماضى دون أن تدرى .

وفى الوقت ذاته أدركت كرييتف آرتستس أنها إن أرادت أن ترسم عالم ماك من أجل من هم على شاكلة كوكا فهي بحاجة إلى زيادة تعاونها مع قطاع المعلومات والاتصالات . وفى صيف 1994 ضم أوفيتز إلى الوكالة المدير المالي السابق فى إيه تى أند تي روبرت كافنر Robert Kavner . وكانت مهمته " البحث عن فرص للمديرين والكُتّاب والمؤدين فى تلك الحلبة التي تتسع اتساعاً سريعاً لتربط أجهزة الكمبيوتر الشخصي على الخدمات التليفونية التي تشمل فى البداية التعليم والتسوق والأفلام وألعاب الفيديو " . وكان المستر كافنر يقر بكيفية "أننا نعيش عصراً مماثلاً لعصر الثورة الصناعية ." [5]

وقصة قيام عالم ماك هى قصة النمو المدوى لصناعة الإعلان فى الفترة ذاتها. فقد زادت نفقات الإعلان فى العالم بصورة أسرع من اقتصاد العالم بمقدار الثلث ومن عدد سكان العالم ثلاث مرات ، حيث تضاعفت سبع مرات فى الفترة من 1950 إلى 1990 من مجرد 39 مليار دولار إلى 256 مليار دولار .[6] وزاد نصيب الفرد من الإنفاق العالمى من 15 دولاراً سنة 1950 إلى حوالي 50 دولاراً فى الوقت الراهن . وبينما تأتى الولايات المتحدة على رأس القائمة ، حيث يبلغ نصيب الفرد فيها 500 دولار ، فإن دولاً مثل كوريا الجنوبية (حيث تراوح المعدل السنوى لنمو الإعلان فيها بين 35 و40 بالمائة فى أواخر الثمانينيات) والهند (حيث زادت قيمة الفواتير خمسة أضعاف فى الثمانينيات) تتسابق كي تلحق بالركب .[7] والإعلان يعكس تفوق أهمية العلامة التجارية على المنتَج ويعززها فى

السوق الكونية . وأسماء العلامات التجارية مثل مارلبورو وبيرة بد والدمية باربي ونسكافه غالباً ماتحمل شركاتها الأم (فيليب موريس وأنهويزر بوش وماتل ونستلة) . وكل من الشركة وأسماء خطوط الإنتاج لها قيمة علامات تجارية تساوى مليارات الدولارات .[8]

وأسماء العلامات التجارية تعد شفرة للارتباطات والصور التي رسمها الإعلان والتسويق بعناية ، لأنها هي مايولد طلب السوق . وعند تعريف لوتشينو بنيتون لحملته المذهلة شديدة العدمية لمنتجات بنيتون ،التي تعرض ضحايا الإيدز ومشاهد الجريمة بدلاً من العارضات الجذابات والبلوفرات ذات الألوان الفاتحة ، يقول مؤكداً :" نحن ننشيء فن اتصال جديد ... إننا لا ننشر أكاذيب . نحن نقول إن فى هذا العالم مرض وحرب وموت ."[9] ماذا تعني بالضبط صورة جذع أنثى عار عليه وشم يقول HIV POSITIVE [مصابة بالإيدز] للاتصال بمشترى الملابس المحتمل ؟ هل هو تحذير بارع من القولبة أم هو مثال لها تنقصه البراعة ؟ أم ترى يكون إثارة سياسية ؟ أم هو مجرد فكرة مخرج مبدع، تضم خليطاً حاراً فى اللاوعى من اللحم والمرض وسياسة الشواذ يجعل الأخضر اللون السائد بين ألوان بنيتون ، تحول الموت إلى أسلوب حياة أكثر جاذبية ؟[10]

ينظم أمريكان اكسبريس كذلك حملة إعلانات مع بعض تجار التجزئة المختارين تحاول أن تجعل التسوق مسئولاً اجتماعياً ، إلا أنها فى واقع الأمر تخضع المسئولية الاجتماعية للتسوق . أحد الإعلانات فى هذه السلسلة يشجع " المستهلكين على دخول محل مستحضرات العناية بالجسم Body Shop لشراء بلسم للشعر والبحث عن قصة عن محمية زينجو وهنود كايابو الذين يجمعون لنا جوز البرازيل ." يتضح أن محل مستحضرات العناية بالجسم أقل اهتماماً بـ "بيع الصابون " من الحفاظ على الغابات المطيرة . كيف ذلك؟ بدفع المال لهنود الكايابو كي يستخرجوا زيت جوز البرازيل ويخرجوا من منطقة قطع الأشجار لكى يتركوا الغابة المطيرة المدارية وحدها ، وتدفع أنيتا رودك Anita Roddick التي أسست محلات Body Shop ثمن السيمياء التي يحولون بها أى بائع صابون إلى جمعية للحفاظ على البيئة بأن تذكر فى نهاية الإعلان أن " الرحلة التي قمت بها خطيرة فى الغالب . إننى فى أماكن بعيدة تتسم بالغرابة. وما أستخدمه لذلك هو بطاقة أمريكان اكسبريس . " ومن الواضح أن محمية زينجو – وهل هي بحق بعيدة وغريبة ؟ – تتعامل ببطاقة أمريكان اكسبريس .[11]

وفى سنة 1995 وفى أعقاب ما حققته الرأسمالية من "انتصار" على الشيوعية ، غامر عدد قليل بالقول بأنها هى نفسها الإمبريالية . إلا أن الأسواق لابد أن تنمو و الإعلان يميل بطبعه إلى التسرب كالمياه الجوفية الصاعدة إلى داخل كل قبو فى منازل الثقافة التجارية المتعددة . ويتحدث المعلنون عن ضرورة ملء الفضاء الخالي أو "الميت" حيثما وجدوه . وهم يعنون به ذلك الفضاء الذى لم يستغل إعلانياً بعد . إن فصول المدارس تُستغل حالياً كلوحات إعلان تلفزيونية من قبل القناة الأولى (باعها كريس كيلي لـ III-K سنة 1994). وبإمكان التكنولوجيا الآن إرسال إعلانات مسموعة إليك وأنت تنتظر الرد على مكالمتك التليفونية التي طلبتها ، (12) ووضع لوحات إعلانات إلكترونية فى الفضاء يقضي تماماً على النجوم بتلك الشعارات الأرضية ويضع نهاية أبدية لفضاء الليل الميت بإيحاءاته.(13) وشجع المدير التنفيذى للشركة التي أعدت لإطلاق إعلانات تدور فى الفضاء على اقتناص " الفرصة الهائلة لكي تجعل أى شركة ذات توجه كوني ملايين الناس يرون شعارها ورسالتها من خلال وسيلة إعلانية رفيعة المستوى تُعَد فتحاً تاريخياً ."(14) وشعار " العيش بلا حدود "، وهو الطريقة التي يبيع بها رالف لوران Ralph Lauren عطره سفارى للرجال، هى كذلك الطريقة التي يستعمر بها الإعلان الفضاء الخالى - أى ذلك الفضاء الخالى أمام الإعلان .

ويعون من قرار حكومة ريجان Reagan لسنة 1984 برفع الحدود المفروضة على وقت الإعلانات فى التلفزيون ، ينفق الإعلان مبالغ كبيرة عبر العديد من أشكال الترفيه والمعلومات مما أدى إلى عدم وضوح الحدود . فهاهي الإعلانات تثير أحكام المحررين المستقلة التي تتحول إلى مواد تحريرية إعلانية advertorials . إنها تنشر البرامج الإخبارية وتتحول إلى إعلانات معلوماتية infomercials حيث يكون الجمهور غير متأكد تماماً إن كان يشاهد برنامجاًتلفزيونياً عن أحد المنتجات أم طريقة لطيفة للإيحاء بشراء ذلك المنتج . إنهم يدخلون مجال الحكي ، مما جعل الإعلانات تبدو أكثر وأكثر وكأنها تمثيليات تلفزيونة تتناول الحياة اليومية soap operas ذات شخصيات وحبكات تستمر من إعلان إلى آخر ، كما فى مسلسل "Gramercy Press " من إنتاج MCI أو القصة العاطفية Choice من إنتاج Tasterوتأتي بعد إحدى العلاقات المتجهة إلى باريس (وإلى

أين عساها تتجه ؟) ولكن التمثيليات فى ذلك الوقت كانت عن بيع الصابون عن طريق رواية الحكايات ، تماماً كما هو حال شبكة إم تى فى بالكامل ، باستثناء الإعلانات إلى حد ما ، التي تعد إعلاناً مطولاً عن صناعة الموسيقى ومنتجاتها بصورة عامة .[15]

وتداوب الشركات فى الوقت الراهن لا يسمح لرواية الحكايات أن تقف بمفردها . فنجد أن شركة نايك تقدم لقراء أحد الإعلانات ، الذى بدا كأنه إحدى المسرحيات التي تصور معاناة السيد المسيح ، رقم تليفون حيث يمكنهم أن يطلبوا كتاباً لنايك بعنوان " Women's Source Book " مطبوعاً على ورق قابل لإعادة التصنيع .[16] وتناقش إم سى أى بيع كتاب عن ميلودراما "Gramercy Press" السخيفة التي ذكرناها آنفاً يتحدث عن دار نشر يجرى توصيلها بشبكات الكمبيوتر استعداداً للعصر الجديد . كما أنها مكنت المعجبين بشخصيات "Gramercy Press" من الاتصال بهم عن طريق شبكة الإنترنت – فكما تقول وكالة الإعلان التي تتولى موضوع إم سى آى ، " كل شيء ممكن فى الفضاء الإلكترونى ".[17]

والإعلانات المعلوماتية تروج السلع بقدر أكبر من البراعة . والواقع أن الاتحاد القومي لمحطات الإذاعة أبلغ لجنة الاتصالات الفيدرالية أن تلك الإعلانات بطيئة الحركة التي تستغرق نصف الساعة " ارتقت باهتمام الجمهور من خلال تزويد المستهلكين بمعلومات عن اختيار المنتجات تفوق ما تقدمه الأنواع الأخرى من الإعلانات ." وكانت دهشة ستيوارت اليوت Stuart Elliot الذى يغطى أخبار الإعلانات لجريدة نيويورك تايمز أقل ، رغم أنه يفترض أنه سمع عن كل شيء . فقد قال: " من ذا الذى كان يمكن أن يتخيل أن هذا الفريق غير المتجانس من مروجي السلع وكُتَّاب الإعلانات والمشخصاتية الذى يبيع سبراى الشعر ومعدات التمرينات البلاستيكية ومستحضرات التجميل باهظة الثمن كان يرتقي باهتمام الجمهور ؟ إن أياً من ، الأصدقاء الروحانيون، عند ديون واروِيك Dionne Warwick لم يكن بوسعه التنبؤ بذلك." [18] ومجلة تايم التي ليست بغريبة عن كتابة الإعلانات تعترف صراحة أن ما تفعله الإعلانات المعلوماتية فى واقع الأمر هو جعل " الرسائل تصل إلى المشاهدين الذين لا يدركون إدراكاً تاماً أنهم يتلقونها."[19]

ويوفر الترخيص للمعلنين نوعاً آخر من الاستعمار . فالأسماء التي تزرع بعناية فى

أحد الأعمال المحدودة كالأزياء الراقية يمكن أن تصبح أجهزة تسويق كونية عندما يُعطى ترخيص باستعمالها على منتجات لا علاقة لها بالمصمم الأصلي وربما لم يرها المصمم قط. وكان بيير كاردان Pierre Cardin أول من أعطى لصناع الدرجات الدنيا من الملابس الترخيص باستخدام اسمه ، عندما أعطى فى الستينيات ترخيصاً لما يربو على ثمانمائة منتج من الكولونيا حتى النظارات الشمسية .[20] والعطور تباع بالكامل تقريباً من خلال بطاقات المصمم . وأفلس كالفن كلاين Calvin Klein أو كاد ببيعه الأزياء ، ولكن خطوط عطوره الثلاثة المتتالية – وكان كل منها انعكاساً لعصره –كانت انتصارات تاريخية . فقد كان Obsession يعكس الثمانينيات العدمية وكان Eternity يتبع القيم الأسرية الجديدة . ومؤخراً كان Escape رجع الصدى لصغار المهنيين المتعبين الذين يبحثون عن مخرج . وثلاثتها حققت نجاحاً كبيراً فى سوق تزدحم بالمنتجات الجديدة (ما يزيد على 120 عطراً جديداً كل سنة) . وهذه هى الحالة التي لا تكون فيها وردة من الورود حلوة لو كان لها أى اسم آخر، وحيث تكون العلامة التجارية هي ما يحقق الأرباح وليس العطر .

والصلات التجارية والترخيص بعمل منتجات فرعية من الأفلام التي تحقق نجاحاً جماهيرياً ضخماً مثل Jurassic Park و The Lion King (والأفلام الحائزة على الأوسكار مثل Forrest Gump) لا تحقق ثروات ضخمة للشركات المالكة لها وحسب (حيث تتوقع شركة ديزنى الحصول على مليار دولار من تراخيص The Lion King) بل إنها تجعل الحدود بين المجالات المختلفة غير واضحة ، وكان يُعتقد يوماً ما أنها واضحة. وبرنامج ديزني التسويقى " يربط وحدات الكتب والأفلام والتسجيلات وحدائق الملاهي التابعة لها " بشكل من أشكال التعاون التى لا تباريها فيه أية شركة سواها .[21]

إن ديزني هي البطل الجلي للتعاون . ولكن صناعة الأحذية تقدم هي الأخرى مثالاً مطابقاً، وإن كان أقل وضوحاً لقوة الاسم والعلامة التجارية اللذين يفوقان المنتج ولعلم النفس الترابطى الذى يربط سحر الحركات النسائية الأنيق وتطوعية الشباب بالبيع الذى يستهدف الربح. والأحذية الرياضية صنف من أصناف الملبوسات وشركة نايك جديدة على صناعة الأحذية (فهي فى الساحة منذ 1972 فقط) . لذلك كان عليها أن تستولى على حصة

من السوق مقدارها 4 مليارات دولار ، ليس من خلال بيع الأحذية بل عن طريق زراعة العلامة التجارية وامتياز استغلالها التي تعتمد على خيارات أساليب الحياة والصور المرتبطة بها . وفى معرض بحث شركة نايك عن استراتيجيات تسويق كلية ، استشارت مصنع الأحلام فى وكالة كرييتف آرتستس التي يرأسها أوفيتز . وأبلغ أوفيتز مدير نايك التنفيذى فيل نايت Phil Knight شيئاً كان يعرفه بالفعل ، وهو أن " الرياضة أكبر حجماً من الترفيه حالياً ."[22] فقد قطعت البشرية الأرض منذ آلاف السنين دون تلك الأصناف ذات النوعيات الخاصة التي أُبتكرت فى العقود القليلة الماضية من أجل الرياضيين المحترفين . والآن ، حيث 40 بالمائة من كل الأحذية المباعة أحذية رياضية بالفعل ، لن يسير إنسان بدون منتجات شركات نايك وأديداس وريبوك إن هى عرفت إلى ذلك سبيلاً ، وسوف يكون ذلك محصلة لأحد خيارات أساليب الحياة الناشئة عن التحكم فى المشاعر ذات الصلة بالرياضة والمكسب وليس تلبية الحاجات المتصلة بالمشي والأحذية .

كانت بداية نايك منذ مايزيد على عشرين سنة فحسب وباعت ما تتعدى قيمته 3مليارات دولار بقليل من الأحذية الرياضية لمستهلكي ولاية أوريجون ، الذين كان كثيرون منهم يظن أن الشعار يُقرأ Mike (الأمر الذى تذكره نايك الآن بفرح) . واليوم تزيد مبيعات الشركة فى أنحاء العالم على 5،3 مليار دولار . وتفسر ليز دولان Liz Dolan نائبة رئيس نايك لاتصالات الشركة ذلك قائلة : " لسنا شركة أحذية ،وإنما نحن شركة أدوات رياضية . "[23] بل إن فيليب نايت المدير التنفيذى للشركة يبدو مباشراً أكثر حين يسأل فى التقرير السنوى لعام 1992 : " كيف نتوقع غزو البلاد الأجنبية ؟ سيكون ذلك على منوال ما فعلناه هنا . إذ أننا بكل بساطة سوف نصدر الأدوات الرياضية ، التي هى أفضل اقتصاد فى العالم ."[24] ليست الأدوات الرياضية على وجه الدقة، وليست الأدوات الرياضية فى حد ذاتها، وإنما صورة الأدوات الرياضية واستراتيجيتها : الصحة والانتصار والثروة والجنس والمال والحيوية – لا تذكر اسم الشيء ، "افعله وحسب."

ولو كان الرياضيون الفعليون هم وحدهم من يستهلك الأحذية الرياضية لكان هناك عدد قليل جداً منهم عليه المحافظة على أن تظل المبيعات بالمليارات فى أنحاء العالم . لذلك

يصبح الهدف هو أن يعتقد من يشاهدون أبطال الرياضة أنهم بارتدائهم أدوات نايك يصبحون كذلك أبطالاً رياضيين ، وإن لم ينهضوا من المقعد الوثير الذى يشاهدون من عليه مايكل الشهير وهو يعبر السماء فى ملبوسات Air Jordan . ومسترنايت صريح فيما يتعلق بذلك حين يقول : "مستهلكونا المستهدفون يشاهدون جون ماكنرو John McEnroe وتشارلز باركلي Charles Barkley منذ سنوات . والروابط العاطفية قائمة ." المشاهدة وليس الممارسة . الروابط العاطفية وليس الحاجات الضرورية . ولا تحاول نايك تصدير الأحذية الرياضية (فهذه سوق محدودة ، كما تعترف الشركة) ، إنها تحاول تصدير مايكل جوردان Michael Jordan ،الذى يؤكد لنا رئيس مجلس الإدارة نايت أنه ، فيما يتعلق بالمرتبة الأولى ، يرتبط فى الصين كأعظم رجل فى العالم بشو اين لاى (ومع ذلك فهي مقارنة مدهشة لا تستحق من وجهة نظر المبيعات التباهي بها !) .

وفى عالم ماك الجديد ذى المبيعات الكونية ، فاقت العلامة التجارية الصنف المباع وتغلبت الصورة على المنتج باعتباره أساس الدخل المكتسب . وكسب مايكل جوردان نفسه حتى تقاعده المؤقت للعب فى دورى بيسبول صغير عادى ، 3 ملايين دولار فى السنة مقابل لعب كرة السلة و36 مليوناً فى السنة من بيعه لاسمه .[25] وفى قسم عنوانه " صورة نايك يشير تقرير نايك إلى أنه بينما " ركزت الجهود الإعلانية والترويجية الأولى على الحذاء وخواصه وفوائده ... اتسعت اتصالات الشركة فى السنوات التالية لذلك لتجعل من نايك واحدة من الشركات الكونية الرائدة المعدودة ذات الشخصية الفعلية . " وتكتسب شركة الواقع الوهمي الجديدة شخصية "فعلية" حتى وهي تنفض شخصيتها التقليدية باعتبارها شركة ذات شخصية ملموسة .[26] ونايك لا تريد من مستهلكيها شراء سلعها وحسب ، بل تريدهم أن يؤمنوا بنايك. إنها لا تريد منهم فقط أن يقدروا جودة المنتجات وإنما الإيمان بـ "دوافع" المنتجين . وهذا الكلام الخطابي يوحي بأن الشركة تعمل بطريقة أقرب إلى الدولة المدنية أو الدولة الدينية منها إلى شركة أحذية . فهي تطمح إلى " إنشاء قنوات إعلامية أوروبية وأسيوية وأمريكية لاتينية قوية تسمح لنايك بأن توصل رسالتها وشخصيتها إلى المستهلكين فى كل ركن من أركان الأرض – جزء متمم لضمان وجود صورة متينة لعلامة تجارية كونية . "

وخلال توصيل الرسائل ونقل الشخصية تشكل نايك الملامح العاطفية والسلوكية لعالم ماك. وتأكيداً من نايك على صدق عولمتها ، فإن خطاب رئيس مجلس إدارتها فى التقرير السنوي، الذى توجد به هذه المقتطفات ، مقدم باللغات اليابانية والفرنسية والألمانية والأسبانية حيث تظهر تلك " الروابط العاطفية " القيمة " الموجودة بالفعل " بلغات متعددة على هيئة " die gefuhlsmassige Bindung" و "deja en- place ... les liens emotionnels ...و " bereits vorhanden "و"en el lugar apropiado ... los lazos sentimentales . وأترك الصيغة اليابانية لخيال القارئ . وقد حدد الفضاء الإلكتروني للمعلومات والاتصالات واقع نايك الوهمي الجديد ، وهو خروج تام عن أى واقع نعرفه أنا وأنت . إنه واقع جرى تمييده وأعيد للأرض فى متاجر جديدة مثل NikeTowns [مدن نايك] التي يتزايد عددها و وُصف نواتها فى ضاحية بيفرتون (بورتلاند) بولاية أوريجون بأن " فيه من ديزني لاند وفيه من إم تى فى"، حيث زود بشاشات التلفزيون والأسماك الغريبة وجوقات الفلوت وأصوات ارتطام كرة سلة متخيلة بالأرض . وأصبحت مدن نايك مزارات سياحية تجتذب الجماهير التي لا تبحث عن حذاء بل عن "المتعة". [27] ومثل هذه المتاجر بالنسبة للمتاجر التقليدية كمثل التسويق الجديد للصور بالنسبة لبيع المنتجات بالطرق التقليدية . إنها عدن ملاه للأحذية الرياضية حيث الرياضة (المكسب؟ التمرينات؟ مجرد القيام بها؟) تتخلل الواقع. ذلك الواقع، الذى يكون فيه مسئولو الشئون العامة فى الشركات دراسات سريعة ، ينسجم مع السائد من المواقف السياسية انسجامه مع السائد من الأحذية الرياضية . وبهذه الطريقة اكتسبت نايك مالها من فكر . فبعد أن سوقت الأحذية لأطفال المدينة الداخلية الذين تعد صورتهم الحضرية الجامدة أمر مهم بالنسبة للمبيعات العالمية، بينما هم أنفسهم قد لا يمكنهم شراء الأحذية ، تشجع نايك حالياً برنامجاً تطوعياً يعرف اختصاراً بـP.L .A.Y(المشاركة فى حياة الشباب الأمريكي) . وهي تأمل فى أن يعمل القليل من أموالها على زيادة فاعلية الكثير من جهد المستهلكين بالنيابة عن الصبية الحضريين الذين يسرقون ويقتل الواحد منهم الآخر ، ليضمن الحصول على زوج من أحذية نايك غالية الثمن. [28]

وربما كانت نايك أجرأ مروج لنفسها كعلامة تجارية، وليس كمنتَج فى هذا القطاع

الاستهلاكي . إلا أن ريبوك لا تقل كثيراً عنها . فتعريفها لنفسها كشركة يصورها على أنها " مصمم عالمي وسوق وموزع رائد لمنتجات الرياضة واللياقة البدنية وأسلوب الحياة ، بما في ذلك الأحذية والملابس الرياضية " وتصور إعلاناتها "كوكب ريبوك" (الذى يبدو أنها تشارك فيه رالف لوران) حيث "لا حدود" كذلك . وفى أواخر الثمانينيات وبعد الاستغلال الناجح للسوق المحلية الأمريكية ، سعت كل من نايك وريبوك لدخول السوق الأوروبية ، التي يسيطر عليها الشركتان الألمانيتان أديداس وبوما ، ودخلت مؤخراً أسواقاً عالمية أخرى بجرأة .

وفى أى قطاع استهلاكي لين تقريباً تتطلع إليه الواحدة منها يكون الإعلان فى الوقت ذاته أمريكياً دوماً وكونياً دوماً : فهناك قدر أقل مما تراه العين من توتر ، لأن ثقافة البوب الكونية ثقافة أمريكية . والمتنافسان العملاقان فى حرب الكولا ، كوكاكولا وبيبسي ، نموذج حي لذلك.[29] وتظل كوكا رائدة المشروبات الخفيفة الكونية حيث يأتي مايربو على ثلثي عائداتها من الخارج (مقابل 20 بالمائة فقط من عائدات بيبسي).ومع ذلك فإنه (وحسبما جاء فى كلامها بالنص) " على ضخامة عالمنا ، عالم كوكاكولا ، الآن ، فإنه ليس سوى شيء ضئيل من ذلك العالم الذى يمكننا خلقه ."[30] وكوكا لديها مطامح كونية منذ أمد بعيد .[31] ولكن فى وقتنا هذا لا يمكن لأى شركة طموحة أن تستولي ببساطة على الأسواق الاستهلاكية الكونية بتقليد أيديولوجياتها والتكيف مع أذواقها : فعليها كذلك أن تخلق الأسواق الكونية بالتخطيط الواعي والمراقبة . والتكنولوجيات الجديدة أشد قوة من القديمة . وكوكاكولا انتهت الآن من تصنيع أيديولوجيا المشروبات الخفيفة الخاصة بها التي تستوعب مُثُل الألعاب الأوليمبية وسقوط سور برلين وجامعة روتجرز وتحولها إلى كيان مدينة الملاهي المثالي من أجل شاربي الكوكا . فصناعات عالم ماك الوهمية الخلاقة تولد مصانع الحاجات الوهمية (وكالات الإعلان والعلاقات العامة الخاصة بالشركات وأقسام الاتصالات ومؤسسات الأعمال التجارية) حيث تحدد العواطف ويتم التحكم فيها بالصور التي تشكل الحاجات الجديدة .[32]

الآن لايمكن تصنيع العطش ، بينما الذوق يمكن تصنيعه . فعطشى العالم يمكنهم

شرب الماء (تماماً مثلما يمكن لمن يمارسون المشي بلا أى قيود أن يلبسوا الأحذية القديمة العادية) : فاذا كان عليهم أن يشربوا المشروبات التي توفر لغيرهم دخلاً ما ، كان لابد أن يرتبط الاستهلاك بـ"حاجات" جديدة وأذواق جديدة ووضع جديد . إنك لا بد أن تشرب لأن ذلك يجعلك تشعر (والخيار لك) بأنك : شاب وجذاب ومهم و"صاحب نفوذ" وقوى ورياضى ووسيم وعصرى ورائع وتتمتع بمهارات غير عادية ورياضى وتساير العصر وجزء من العالم ، كما فى عبارة نحن العالم ومثلما فى عبارة نحن الأمريكيين العالم : باختصار كأى فائز وكأى بطل قومي وكأى بطل رياضى وكأى أمريكى . وهو ما يعني أولاً وأخيراً أنك محب للمرح (كما فى الشقراوات لديهن أكثر). والسبب الوحيد لضرورة عدم استهلاك المشروبات الخفيفة هو أن تروى ظمأك بأية طريقة حاسمة . والماء يحقق لك ذلك . والواقع أنك إذا كنت ستشترى كوباً آخر من الصودا فالمشروب الخفيف المثالي ينبغي أن يعطيك الإحساس بأن ظمأك قد رُوى ، بينما واقع الأمر أنه يتركك أشد عطشاً من الناحية الأيضية بعد الانتهاء منه عما كنت عليه قبل أن تبدأ فى شربه . بل إنه فى إطار السلسلة المعلوماتية المتصلة الصحيحة يمكن بيع ثاني أكسيد الكربون من أجل الربح ، كما هو حال ما يسمى بماء المصممين مثل بيريير . وحبذا لو وُجد مشروب مالح ...

يتساءل روبرتو جويزويتا Roberto C. Goizueta مدير كوكاكولا التنفيذى "كم من الزمن يمكن لشركة تعمل فى مجالنا أن تستمر فى مضاعفة حجمها ؟ من أين ستأتي العشرة مليارات صندوق التالية ؟ والعشرون ملياراً التي بعدها ؟ "[33] لدى جويزويتا رد على ذلك يبدو جلياً بالنسبة له . إنه يلاحظ أن "الحقيقة هي أننا الآن فقط ندخل أسواق المشروبات الخفيفة ، التي تضع فى حسبانها أغلبية سكان العالم ، دخولاً جاداً ونطورها تطويراً لا لعب فيه . وهذه العوالم الجديدة من الفرص ليست كثيفة السكان وحسب ، بل هي كذلك ناضجة ثقافياً ومناخياً لتستهلك قدراً ضخماً من المشروبات الخفيفة ." وكونها ناضجة مناخياً أمر شديد الوضوح : فحيثما يكون الجو حاراً يكون الناس عطشى ، وليتنا نستطيع إبعادهم عن الماء ..ولكن هل هى ناضجة ثقافياً ؟ ما معنى هذا ؟ كوكا ليست مخادعة بحال من الأحوال : ففي اندونيسيا (التي يظهر كشافوها ومرشداتها وفى أيديهم زجاجات الكوكا على غلاف التقرير السنوى لعام 1992) يمكن أن يهزم "الاستثمار العدائى"

الثقافى المحلية ويجبر الأمة على أن تحذو حذو تلك "المجتمعات التى اعتادت على استهلاك مشروبات كالشاي" ولكنها أجبرت على "التحول إلى المشروبات الأكثر حلاوة مثل الكوكاكولا ." وإبعاد الناس عن الماء مسألة اقتصادية (فالماء مجانى) ، أما إبعادهم عن الشاى فأمر يحتاج إلى حملة ثقافية . و "هبوط معدل استهلاك الشاي" ، الذى قد يعده علماء الأنثروبولوجيا الثقافية إشارة إلى بداية تنذر بحدوث تآكل فى إحدى الثقافات المحلية السائدة ، يلقى ترحيباً بصفته باباً مفتوحاً بعض الشيء أمام مبيعات المشروبات الحلوة . وعسى أن يتحول كل إندونيسي من الشاى إلى الكوكا ومن الصندل إلى أحذية نايك ومن الأرز إلى الدجاج من ماكنجتس ومن السارى إلى فساتين لورا اشلي ومن الثيران إلى الجراند شيروكي ومن أفلام السينما التي تنتج بأساليب بدائية إلى أشرطة فيديو شوارتزنجر ومن البوذية إلى الاستهلاكية – تخيل كم من "عوالم الفرص" سوف تفتح على مصاريعها أمام مغامرى شركات عالم ماك الشجعان . وتخيل شكل سوق متجانسة ومربحة عرضها عالم ماك تشكلها أقاليم كانت يوماً مميزة .

وحتى أفريقيا ، رغم سقوطها من على خرائط العالم الاقتصادية ، سوف تُضم إلى حظيرة عالم ماك . ولأنها فى مرمى مطامح كوكا ، فهي ليست موطن الفقر الذى لاحد له ولا الايدز المتفشي ولا السلطوية المتزايدة ، بل سوق للمشروبات الخفيفة تضم 568 مليون نسمة تمثل "الأجواء الدافئة والسكان الشباب والحكومات التي تتحرك فى اتجاه اقتصاد السوق ." وينطبق الشيء نفسه على سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك ويوغوسلافيا السابقة حيث "يوجد نظام ناجح لتعبئة الزجاجات." وحيث يرى المراقبون العاديون أن الجحيم تُسَعَّر ترى كوكا سوقاً قوامها 24 مليون نسمة من المؤكد أن " تكون هدفاً لمزيد من الاستثمارات عندما تخف حدة التوترالإقليمي السياسي ." وعموماً فإنه عندما ظهرت شاحنات الكوكا لأول مرة فى وارسو ، اصطفت الجماهير على جوانب الطرق وتعالت أصواتها بالهتاف .

وخلق كوكا للعالم على صورتها هي يسمح لها بإعادة تعريف الواقع السياسى والاجتماعي . ومعدلات المواليد غير المراقبة ، التي تجعل الاقتصاد ينحرف عن مساره

وطرأ عليها تعديل طفيف بسبب بلاء الإيدز ، تصبح "السكان الشباب" الجاهزين للاستغلال الاستهلاكي . ورغم أن التطهير العرقى والاغتصاب كسياسة والإبادة الجماعية "توترات إقليمية" قد تحرم السوق من مليوني مستهلك ، بينهم مليون مسلم (يقل احتمال أن يصبحوا زبائن للاستهلاك على النمط الغربي بأى حال من الأحوال) ، فسوف تسفر فى آخر المطاف عن قوات للعولمة أقل صخباً وأكثر ربحية . ومن هذا المنظور ، تبدو الرحلة من الإيدز والجوع والإبادة الجماعية إلى مجرد الأسلوب الأمريكي للهو الخالص أقصر بكثير مما قد يتخيله إنسان .

وربما يكون من الظلم أن نلزم الشركات، التي تجرى وراء أقصى قدر من المبيعات والأرباح وإرضاء المساهمين، برؤية التنوع الكونى أو العدالة الدولية أو الديمقراطية العالمية. إلا أن طموحاتها شديدة الاقتصادية ماتلبث أن تصبح أى شيء غير أن تكون شديدة الحياد . فكما رأينا فإنها هي نفسها تخوض فى القضايا الاجتماعية الكبيرة ، ربما بغرض تملق طبقة وسطى تنتمى للعهد الجديد ترغب فى جعلها هدفاً لنفس الأسباب الاقتصادية الصغيرة القديمة . وحتى عندما تزعم الشركات متعددة الجنسية أنها مهتمة اهتماماً خالصاً بأرقام الإنتاج والاستهلاك ، فكثيراً مالا تصل بهذه الأرقام إلى أقصى حد ممكن إلا من خلال التدخل تدخلاً فعالاً فى نفس المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تؤثر بشأنها فى مذهب اللاأدرية . وربما لم تكن وراء طموحاتها السياسية أية دوافع سياسية ، وقد لا تكون طموحاتها الثقافية بدافع من أية ميول ثقافية ، إلا أن هذا يزيد من عدم مسئولية مثل هذه الطموحات ويجعلها أكثر تدميراً وحسب .

وتتوقف المبيعات الاستهلاكية على عادات المستهلكين وسلوكياتهم . وهؤلاء الذين يتحكمون فى الأسواق الاستهلاكية ويؤثرون فيها لا يسعهم إلا مخاطبة السلوك والموقف . ويفترض أن هذا هو هدف سوق الإعلان التي تتعامل فى مليارات الدولارات . فشاربو الشاى لا ينتظر أن يكونوا زبائن لمبيعات الكوكا . وتقاليد الغداء الذى يطول وقت تناوله تحول دون تزايد عدد توكيلات الأطعمة السريعة ، كما أن توكيلات الأطعمة السريعة تقضى حتماً على طقوس العودة ظهراً للبيت لتناول الغداء فى حوض البحر المتوسط- سواء كان ذلك متعمداً أم لا . وأنظمة المواصلات العامة التى على قدر كبير من التطور تحد من فرص

مبيعات السيارات وتؤدى إلى كساد إنتاج الصلب والمطاط والبترول . ولا ترحب أساليب الحياة الزراعية (حيــث الاستيقــاظ مع طلــوع الشمس والعمل طوال النهار والنوم بعد الغروب) بمشاهدة التلفزيون . والذين لا اهتمام لهم بالرياضة يشترون عدداً أقل من الأحذية الرياضية . وتضر الحملات الصحية بمبيعات التبغ . ويتعارض منطق التقشف الأخلاقي مع منطق الاستهلاك الاقتصادى . فهل يملك مديرو الشركات المسئولون والأمر كذلك إلا أن يدافعوا عن الترف دفاعاً غير أخلاقي؟ أو أن يتصرفوا كمواطنين غير مسئولين فى عوالم الفرص الجديدة هذه التي تتسم فى الغالب بالتخلف؟ وبصفتهم رجال أعمال ، هل هم فى حل من الخروج من شرنقة السوق الحرة ومحاولة التأثير على العادات الثقافية والعادات المرتبطة بأساليب الحياة، التي قد يكون بعضها سياسياً كذلك؟ وأحد إعلانات الموضة فى مجلة نيويورك تايمز ليس سوى تلاعب بالألفاظ ، حيث يضع العنوان "خط الحفلات" وسط صور ست من المحتفلات برأس السنة ، فى حين يكشف جانباً مظلماً عندما يتحدث بخبث عن كون الإنسان "ملتزم بأيديولوجيا المرح" .[34]

وفى محاولة من ادوارد بانفيلد Edward C. Banfield لتطوير افتراض ماركس المرتجل بشأن الحماقة السياسية التي تتسم بها الحياة فى الريف ، نجده يتفحص الريف الإيطالي عقب الحرب العالمية الثانية ويربط أسلوب الحياة الزراعية بمجموعة متخلفة أخلاقياً من المواقف السياسية .[35] وسواء كان مصيباً أم لا فيما يتعلق بالزراعة ، يبدو من المحتمل أن أساليب الحياة تزداد تمشياً مع الاقتصاد السياسي مابعد الحداثي . إنها تحدث اختلافاً ما : فالمجتمع العاطل قد يمكنه تدبير وقت للمجتمع المدني والخدمة التطوعية والسياسة أكثر من ذلك الذى يوفره المجتمع العامل . فأساليب الحياة فى ضواحي المدن تقضي على الفضاء العام والمشترك من ذلك النوع الذى تتميز به المدن الكبيرة والصغيرة. والأسواق الكونية التي تعمل أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم وتربطها ببعضها الاتصالات الالكترونية ، وكذلك الأعمال التجارية الكونية التي تربط الواحدة منها بغيرها رحلات الطيران العالمية ، تتدخل فى المواعيد والعادات الثابتة التي تأصلت فى الساعات النهارية التقليدية . وبينما تطالب الأسواق بالتحررمن لوائح القطاع العام وتدخله ، تزداد مشاركتها فى أنشطة تتعدى تعدياً مباشراً على الثقافى المدنية والصالح العام . ورغم كون هذه

الأسواق تؤمن باللاأدرية السياسية ، فهي تستعير الأفكار السياسية والمصطلحات السياسية وتلوى عنقها . إحدى سلاسل الأطعمة السريعة التي تبيع أشكالاً متنوعة من البطاطس المشوية تقول فى إعلانها إنها "تُمكِّن" الزبائن لأنها تعطيهم الحق فى أن "يختاروا الحشو" . فاختيار العلامة التجارية واختيار الصنف من داخل العلامة التجارية (كريست الأزرق وكريست العادى) يُفهم على نطاق كبير على أنه يشكل جوهر الحرية فى مجتمعات السوق . بل إنه بِيع بهذا المفهوم لـ "الديمقراطيات الجديدة" . ولكنه اتضح أنه شيء دون الحرية الحقيقية . فأيديولوجيا الحصول على المتعة هي بحق أيديولوجيا .

وربما يتضح ذلك أكثر مايتضح فى أعظم مناطق النمو بالنسبة لسلع استهلاكية مثل الخدمات وصناعتى المعلومات والترفيه ، التي تقود المعدات وتنقاد لها ولكنها تعتمد اعتماداً لا حد له على البرامج . فقطاع اتصالات المعلومات والترفيه هذا تدعمه السلع الصلبة ، التي لها فى واقع الأمر توابع لينة تعمل على محو مايميز بين ماهو صلب وماهو لين .

الفصل الخامس

من السلع اللينة إلى الخدمة

جهاز الووكمان نموذج صحيح لأثر التكنولوجيات الصلبة الجديدة على الاختيار والحرية . فبينما يبدو أنه يزيد من مساحة كل منهما نجده فى واقع الأمر يقلصهما . فالووكمان من أحد جوانبه ليس جديداً بالمرة : إنه أحدث صورة من صور تكنولوجيا حديثة شديدة القدم وهي الفونوجراف . ولكن إمكانية حمل الووكمان وملائمته للاستماع المنفرد والسهولة الشديدة فى التنقل به جعلت منه طابوراً خامساً زنة عشر أوقيات لعالم ماك يبث أفضليات أساليب الحياة بثاً مباشراً فى الأذن الداخلية ، بينما يعدل السلوك التقليدى بطرق لها أهميتها الاجتماعية . وتحول تكنولوجيا الووكمان الاستماع من عمل اجتماعي إلى عمل فردى . إنه يمسك بنشاط متقدم يعد غاية فى حد ذاته ويحوله إلى خلفية لسلوك يرغب فيه المجتمع والمستهلك كالهرولة (أجهزة الووكمان تبيع الأحذية الرياضية والأحذية الرياضية تبيع أجهزة الووكمان،) كما أنه يسمح لنشاط الاستماع إلى الموسيقى الذى يستمر لبعض الوقت أن يصبح عادة دائمة تتطلب إنتاج وبيع المزيد والمزيد من برامج الموسيقى .

وتكنولوجيا الكمبيوتر هي الأخرى لها توابع اجتماعية على نفس القدر من الخطورة (ونفس القدر من الخفاء) . فأى جهاز كمبيوتر لا ينقل المعلومات إلى المستخدمين وحسب ، بل إنه يجرهم إلى أشكال من التفاعل تتجاوز بصورة أو بأخرى أجسامهم المعزولة أمام الشاشات التي هي المدخل لأنواع جديدة وغريبة من المجتمع الوهمي الذى (بعكس الكتب مثلاً) يعيد بناء أجسامهم ليكونوا أعضاء فى الفضاء الإلكتروني ومن ثم يوحي بنوع من السياسة الوهمية . ويظل مجرد تحديد نوع السياسة أمراً مثيراً للجدل - رغم تأكدنا من أنه ستكون ثمة سياسة من نوع أو آخر . وحتى الشكل الذى تأخذه المعلومات - بالصورة والنص أو رقمية أو مبرمجة أو تتغير بمرور الوقت أو تعتمد على التكنولوجيا - سوف يؤثر حتماً على الثقافة والسياسة والمواقف التي تشكلهما . لقد ظهر أن من يمارسون ألعاب الفيديو يكتسبون مهارات يدوية بصرية ضرورية لبعض المهن - على سبيل المثال كالطيارين أو فنيي المعامل الذين يتعاملون مع مواد خطرة بالريموت كونترول . كما ظهر

أن بعض قدرات اللاعبين فى مجالات أخرى كالخيال والتعاطف الإنساني سوف تُدَّمر . وحتى الآن ليست هناك دراسات امبريقية حاسمة تتناول مثل هذه الروابط . ولكن يبدو من المؤكد أن مثل هذه الروابط قد تكون موجودة وسوف يكون لها مغزى سياسي مهم . وهؤلاء المهتمون بالديمقراطية والثقافة والحياة المدنية لا يسعهم ترك اكتشاف شخصيتهم للصدفة

وإذا وضعنا كل هذا فى اعتبارنا لوجدنا أنه من الصعب التعامل مع قطاع الإلكترونيات وأجهزة الكمبيوتر فى اقتصاد السلع الصلبة على أنه منفصل عن قطاع خدمة التكنولوجيا المتقدمة أو عن المواقف الاجتماعية الناتجة عن ذلك القطاع . والقيام بدور المقاول العام بالنسبة لطريق المعلومات السريع ، مع فرض رقابة على طبيعة ما يمر فيه ومحتواه رغم أن الطريق بمثابة قناة لها ، يعني الخطأ فى معرفة مكمن القوة فى عالم ماك . ولم يسقط رواد الصناعـــة أمثال آى بي إم وسوني وتوشيبا وماتشوى ونينتندو فريسة لهذا الاعتقاد الخاطيء . إنهم مشغولون فى البحث عن طرق من خلال الاندماجات وامتلاك الشركات وشراء الحصص لتوسيع أعمالهم في الأجهزة (تمهيد التكنولوجيا المتقدمة) لتشمل قطاع البرامج (مراقبة المرور والتحكم فيمن أو فيما هو داخل المركبــــات) . وترقب شركات التليفون (بيبى بيلز) وشركات الكابلات ومنتجو البرامج (ستوديوهات السينما) وشركات التوزيع (بلوكبستر فيديو) كل منها الأخرى بشهية زادت منها الداروينية الاجتماعية، والاعتقاد بأن الرأسمالية فى نهاية الأمر تعني الاحتكار، وأن عدداً محدوداً منها فقط هو الذى يمكنه الخروج من صراع البرامج المقبل فائزاً .

وعندما نرى هذا التحول ، من المنتجات إلى الخدمات، من منظور هذا التنافس الواقع داخل أمريكا، نجده يعكس اتجاهاً عميماً فى الاقتصاد ويصحح ذلك الانطباع الذى يعطيه تصنيع التكنولوجيا المتقدمة بأن أمريكا تهبط هبوطاً شديد الانحدار . والأمر المؤكد فيما يتعلق بالأدوات المعدنية ، أن ما كان فى يوم من الأيام حكراً على أمريكا قد أتاح الفرصة لمنافسة شديدة من جانب الأوروبيين واليابانيين . فعلى سبيل المثال كانت الولايات المتحدة سنة 1974 تحتكر إنتاج رقائق الذاكرة DRAM المتقدمة والضرورية لأجهزة الكمبيوتر احتكاراً تاماً . وبحلول سنة 1980 كان نصيب الولايات المتحدة قد هبط إلى 56 بالمائة بينما ارتفعت حصة اليابان إلى 40 بالمائة . وبعد سبع سنوات كانت الولايات المتحدة تنتج

أقل من خمس انتاج رقائق الذاكرة DRAMواليابان ما يزيد على ثلاثة أرباعه .[1] وهناك حكايات مماثلة يمكن أن تُروى عن أشباه الموصلات ، حيث هبطت حصة أمريكا من ضعف حصة اليابان سنة 1980 إلى ما هو دون حصة اليابان فى الوقت الراهن . وكذلك الحال فى معدات الاتصالات التي تقدمت فيها اليابان من المركز الرابع بين الدول المنتجة سنة 1980 إلى المركز الأول الذى تحتله الآن . هذا فى الوقت الذى تقبع فيه الولايات المتحدة فى المركز الثالث حيث تتقدم السويد بفارق ضئيل .[2] بل إن الإنفاق على الأبحاث والتطوير – الذى طالما كان حسنة من حسنات أمريكا – لم تطرأ عليه أية زيادة . وبعد أن بلغ ذروته سنة 1989 حين كان 94 مليار دولار هبط إلى مادون التسعين ملياراً .[3] وهناك العديد من التفسيرات لتلك الاتجاهات بما فى ذلك غياب جهد الدولة لمواكبة سياسة اليابان الصناعية، إلى جانب الممارسات التجارية غير العادلة وتكاليف الحفاظ على الدفا ع الذى أُعفيت اليابان من مسئولياته إلى حد كبير .

ومع ذلك فالخدمات والسلع اللينة توجد حيثما وُجد العمل . والقصة الأمريكية فى هذا الخصوص مختلفة بعض الشيء . فالخدمات لم تعد ابن العم الفقير بالنسبة للاقتصاد الكوني وأصبحت مواطنه الأول . وفى سنة 1990 انتهى الأمر بمجلة فورشن التي كانت ترقب الشركات الصلبة عدة عقود أن لاحظت أن الخدمة لم تعد تعني مجرد الطعام والسفر، وإنما تشمل التمويل والمعلومات والاتصالات وتمثل 60 بالمائة من إجمالي الناتج المحلي و يعمل بها ثمانية من بين كل عشرة عمال أمريكيين.[4] ومحصلة ذلك قائمة سنوية جديدة تستطلع "كبرى شركات الخدمات فى العالم" . وفى قائمة 1990 لأكبر خمسمائة شركة احتلت الولايات المتحدة الصدارة بـ150 شركة (تلتها اليابان بـ 106 ثم بريطانيا بـ49 وبعدها ألمانيا بـ41) . وفى سنة 1992 احتفظت أمريكا بالصدارة وإن فقدت تفوقها فى مجال البنوك التجارية (فقد كانت 8 من بين أكبر 10 بنوك و31 من بين أكبر 100 بنك يابانية ، مقابل 8 أمريكية من بين أكبر 100 بنك . وكان سيتيكورب أكبر البنوك الأمريكية يحتل المركز 27 فى القائمة،) وفى مجال شركات التأمين (حيث كانت 7 شركات يابانية بين أكبر 10 شركات) . وبعد أن بات لليابان 128 شركة من بين أكبر 500 شركة بدت وكأنها تحكم الخناق على الريادة الأمريكية .[5] ومع ذلك فأمريكا تحقق سبقاً فى مجالات البرامج والمعلومات والترفيه .

ويمكننا أن نرى الأهمية العظيمة التي يمثلها قطاع الخدمة المعلوماتية الترفيهية الجديد، بالنسبة للاقتصاد العالمى، من خلال أثره على العجز التجارى الذى طالما ناءت بحمله أمريكا . فعجز سنة 1992 الذى يقدر بـ40 مليار دولار هو فى حقيقة الأمر متوسط عجز السلع شديد السوء البالغ 96 مليار دولار وقد عوضه فائض الخدمات وقدره 56 مليار دولار . وفى قطاع الخدمات تتميز الولايات المتحدة باقتصاد فائض محطة توليد الطاقة . وحيث أن تجارة الخدمات العالمية تقدر حالياً بما يربو على 600 مليار دولار سنوياً ، فإن التفوق يصبح على قدر متزايد من الأهمية . وهاهم خبراء الإعلان ينافسون خبراء السيارات فى عائداتهم . يضاف إلى ذلك أن هناك تحفظاً فى كل هذه الأرقام . إذ تعترف وزارة التجارة بما دأبت عليه من "تحيز للسلع التجارية" ، وهو ما قد يعني أن تقديرات صادرات الخدمات أقل مما هى عليه فى الواقع .(6)

ويشير المنتقدون إلى أنه حتى فى قطاع الخدمات الذى تبدو فيه أمريكا صاحبة السيادة فإنها تتقدم العالم فى قطاع التجزئة وحسب ، حيث تظل محلات سيرز.ووال-مارت عملاقين لا منازع لهما . أما فيما يتعلق بالأعمال المصرفية والتأمين فقد تعدتها دول أخرى ممن تحتل المراتب العشرة الأولى . ومع ذلك فليست كل قطاعات الخدمات متساوية فيما يتعلق باقتصاد عالم ماك ما بعد الحداثي الناشيء . ومن وجهة نظر الاقتصاد الصلب قد تبدو البنوك والتأمين ضرورية . غير أننا إذا نظرنا من منظور الاقتصاد الوهمي نجد أن الاتصالات والمعلومات ومعها الترفيه هي المسيطرة . وواقع الأمر أن الأولى والثانية ، إن لم تكن الثالثة كذلك ، تدعم ما للبنوك وشركات التأمين من قوة حقيقية . وهنا تحتفظ الولايات المتحدة بسيادة غير ملحوظة بقدر كبير لا ينازعها عليها أحد - حيث تنعكس نتائج ذلك على الديمقراطية الكونية التي تتطلب فحصاً دقيقاً .

وقائمة مجلة فورشن المهمة لسنة 1992 التي تضم أكبر مائة "شركة خدمات متنوعة" تضم إحدى عشرة شركة متخصصة فى خدمات الترفيه والاتصالات والمعلومات ، منها ثمان أمريكية وواحدة فقط يابانية وأخرى بريطانية وثالثة كندية . ومن بين أكبر مائة شركة أمريكية للخدمات المتنوعة هناك سبع عشرة شركة فقط ذات صلة بالترفيه أو الاتصالات أو المعلومات . ولكن هذه الشركات تحقق 140 مليار دولار من المبيعات ، أو ثلث المبيعات

البالغ حجمها 5,421 مليار دولار وتحققها الشركات المائة مجتمعة .[7] ويكسب سدس الشركات المائة الكبرى ثلث العائدات . وفى الفصل التالي سوف نبين أن سيادة هذه الشركات تتعدى مجرد العائدات .

ورحلتنا القصيرة من اقتصاد ما بعد الحرب إلى اقتصاد ما بعد الحداثة تروى قصة غاية فى البساطة تنتقل من السلع إلى الخدمات ومن التكنولوجيا البسيطة إلى التكنولوجيا المتقدمة ومن الصلب للين ومن الواقعي للوهمي ومن الجسد للروح . والدرس الذى نتعلمه من ذلك اليوم هو أن غد عالم ماك سيرتبط بالموارد بصورة تقل عن ارتباطه بالسلع وبالسلع المصنعة بقدر يقل عن اهتمامه بالسلع المتعلقة بالاتصالات والمعلومات . سيكون اهتمامه بالسلع أقل من اهتمامه بالخدمات . بل إن اهتمامه بالخدمات على إطلاقها سيكون أقل من اهتمامه بخدمات المعلومات والاتصالات والترفيه . وسيهتم بالبرامج كبرامج بقدر يقل عن اهتمامه بالبرامج الثقافية من ذلك النوع الذى نجده فى تلك اللقطات المسموعة والمرئية التي تُصنع فى وكالات الإعلان وستوديوهات السينما . وبينما نتتبع هذا المنطق ونسير عبر النطاق الاقتصادى الذى يصفه، تبدو الولايات المتحدة أفضل وأفضل وأكبر وأكبر وتبدو حكاية سقوط الولايات المتحدة لأسباب اقتصادية أمراً مشكوكاً ففيه أكثر وأكثر . والأهم هو أن نتائج المنطق ضارة بالديمقراطية ، رغم كونها فى صالح ريادة الولايات المتحدة الاقتصادية . ففي يوم من الأيام ساهمت رأسمالية الدولة القومية فى تأسيس الديمقراطية . أما اليوم فرأسمالية عالم ماك الكونية قد تعلن نهايتها .

ومع ذلك تظل القصة الكاملة فى حاجة إلى أن تُروى . ذلك أن اقتصاد خدمات المعلومات الجديد يشكل التسويق والمبيعات الكونية . إنه يشكل أيديولوجيا عالم ماك الجديدة ، بل ويعد أساساً لها . وقديماً كانت الرأسمالية تضطر لأن تضع يدها على المؤسسات السياسية والصفوة كي تتحكم فى السياسة والفلسفة والدين ، الأمر الذى يتيح لها تنشئة أيديولوجيا تحقق لها منافعها . أما اليوم فهي تصنع هذه الأيديولوجيا بعينها ضمن أهم ما تصنعه من منتجات وأكثرها ربحية . وإذا كان انهيار الشيوعية يعود لأسباب اقتصادية وسياسية داخلية ، فقد وقعت عليها ضغوط خارجية فى الوقع ذاته . فنجد أن

هوليوود وماديسون أفينيو جعلا الثورة البورجوازية غير ضرورية من الناحية العملية والثورة البروليتارية تكاد تكون مستحيلة . فليس هناك "عمال" بل مستهلكون . وليست هناك مصالح طبقية، وإنما ثقافة دارجة كونية تبسط التلال الثقافية وتسوى ساحات اللعب الروحاني . والتلفزيون وآلات النسخ والفاكس والرحلات الدولية وأيديولوجيا المتعة جميعها ضمنت أن الأنظمة الشيوعية المنهارة سوف تختفي بأسرع ما يمكن .إلا أن هذه السلع الصلبة ليست سوى وسائل عديدة . وما تحمله هذه الوسائل لا ينتمي إلى قطاع السلع بحال من الأحوال وإنما إلى قطاع الخدمات .

قطاع الخدمات : نظرة شاملة

اقتصاد الخدمات هجين غريب يشمل أقدم الصناعات وأبسطها ، مثل توصيل الأطعمة والتعليم والرعاية الصحية . ولكنه فى الوقت ذاته يضم تكنولوجيات العصر الجديد من معلومات واتصالات يكاد يكون اختراعها وطرحها فى الأسواق يتم بصورة أسرع من وصفها . وبذلك نجد أن فئة الخدمات التي تسع كل شيء تجمع بين عمال المستشفيات غير النقابيين الذين يتقاضون أجوراً متدنية ومستخدمي الأطعمة السريعة الذين لا مستقبل لهم، من جهة،ومبرمجي الكمبيوتر والطيارين المدنيين وفنيى المعلومات ، من جهة أخرى . وهى تشمل البنوك التجارية، ذلك المجال الذى سحبت فيه اليابان منذ فترة طويلة البساط من تحت أمريكا وأوروبا ، وكذلك شركات الترفيه ، حيث تزداد الريادة الكونية الأمريكية زيادة حقيقية ويبدو أنها ستحافظ على ذلك فى القرن المقبل . وتفحص قطاع الخدمات يتيح الفرصة لإثبات الشكل الخطابي الذى جمعت فيه بين ماكدونالدز وماكنتوش وإم تى فى – وبين الأطعمة السريعة وبرامج الكمبيوتر وأفلام الفيديو –من خلال توضيح طريقة قيام عالم ماك بتصنيع فيديولوجيا القرن الحادى والعشرين الخاصة بها، مما فصلّه خصيصاً لذلك . فعندما تبيع ماكدونالدز أشرطة فيديو Dance with wolves وJurassic Park وبعض الأشياء المرتبطة بأفلام السينما فى احتفال غامض للتعددية الثقافية والحفاظ على البيئة أو الحفاظ على الزواحف المنقرضة ، أو يُستأجر مايكل جوردان كي يربط بين منتجاتها ومشاهير نجوم الرياضة ، فإني أرى أن خدمة الجسم البسيطة تحل محلها خدمة معقدة للروح . فماكدونالدز قبل كل شيء من نتاج الثقافة الدارجة التي تحركها التجارة

التوسعية . وهى تجارة قالبها أمريكى وشكلها الموضة وبضاعتها الصور . إنها عالم جديد من التوكيلات الكونية تُسمع فيه الصيحة الجديدة "يا مستهلكى العالم اتحدوا، فلدينا كل ما تريدون فى سلاسلنا !" بدلاً من الصيحة القديمة "يا عمال العالم اتحدوا ، فلن تخسروا إلا سلاسلكم !"

ولكي أركز على عالم ماك ، يجب علي فى باديء الأمر أن أفصل بين العناصر العديدة المشاركة فى قطاع الخدمات الحيوى . والواقع أن هناك ثلاثة قطاعات فرعية شديدة الوضوح يختلف الواحد منها فى أمور كثيرة عن الآخر بقدر يفوق اختلافها مجتمعة عن قطاعي الموارد الطبيعية والتصنيع . فمن ناحية التدريب والدخل وفرص النجاح ، نجد أن أية "طاهية" لدى برجر كنج ، تشوى أقراص اللحم المجمد سابقة التجهيز التي أُنتجت إنتاجاً كبيراً ، تشترك مع أية حائكة تجلس على ماكينة لحياكة الملابس الرخيصة فى ورشة ظروفها المعيشية سيئة فى أمور أكثر من تلك التي تشترك فيها مع أية مبرمجة كمبيوتر تبتكر ألعاب الواقع الوهمي ، رغم أن كلاً من الطاهية ومبرمجة الكمبيوتر تعملان فى قطاع الخدمات والحائكة فى قطاع التصنيع. وهذه هي ترشيحاتى الثلاثة لقطاعات الخدمات الفرعية طبقاً لمن يعملون فيها :

قطاع الخدمات التقليدية ، ويضم هؤلاء الذين يقدمون للناس مباشرة خدمات الطعام والمواصلات والصحة والإسكان التقليدية ، بمن فى ذلك هؤلاء الذين يعدون الطعام ويقدمونه وأصحاب الفنادق ومن يعاونونهم والطيارون المدنيون وكمسارية القطارات والأطباء والمشرفون الاجتماعيون وغيرهم ممن يخدمون الجسم البشرى الفرد خدمة مباشرة.

قطاع تسهيل الأنظمة ، ويضم هؤلاء الذين يقدمون البنية التحتية–أى تلك الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تجعل المجتمع الحديث ممكناً . ويشمل هؤلاء المحامين والمحاسبين ورجال الاقتصاد والمصرفيين وموظفى التأمين ومشغلي الكمبيوتر وعمال التليفونات والمتخصصين فى وضع السياسات وأى إنسان آخر يسهل عمل أنظمتنا القومية والكونية وتفاعلها ، أى كل هؤلاء الذين يخدمون جسم الشركات .

قطاع المعلومات الجديد ، وهو الذى سأطلق عليه قطاع الاتصالات المعلوماتي

الترفيهي ويضم هؤلاء الذين يخلقون عالم اللافتات والرموز ويتحكمون فيه . ذلك العالم الذى تُنقل من خلاله كل المعلومات والاتصالات والترفيه ويشمل الصاغة وراسمو الصور كأصحاب وكالات الإعلان والمنتجين السينمائيين والصحفيين والمفكرين ، بل ومبرمجي الكمبيوتر ، وكذلك المدرسين والوعاظ والنقاد -وهم إلى حد ما ينتمون إلى أعمال اللافتة.الصورة كذلك - وآخرين ممن يلبون احتياجات الروح البشرية الفردية وروح الشركات الجماعية .

هذه القطاعات الفرعية الثلاثة ، بما لكل منها من فئة حرفية (أو ليست على قدر كبير من الحرفية) من العاملين ، يمثل كل قطاع منها للآخر ما يمثله الواحد من القطاعات الاقتصادية الأساسية الثلاثة (الموارد الطبيعية والصناعة والخدمات) للآخر - فى تسلسل هرمي يُعد فى الوقت ذاته سلَّماً اقتصادياً . وقطاع المعلومات الفرعي الجديد يقع على حدود التنمية الاقتصادية . والشركات أو الدول التي تسيطر عليه ينتظر أن تقود العالم وقد تكون لها السيادة فى القرن المقبل . وقطاع الخدمات التقليدية الفرعي بمثابة العالم الثالث فى مجال الخدمات ، لاعتماده فى تحقيق غاياته على عمالة غير ماهرة وعمل غير معقد . وهو الدرجة الأولى على سلم القوة ، ولكنه فى الوقت ذاته قد يكون الدرجة الأخيرة . والشيء المؤكد أنه ليس تذكرة إلى السيادة الكونية . وحيث أن الأطباء وخبراء النقل جزء من القطاع الفرعي الأول بحكم الخدمات التي يقدمونها للمستهلك مباشرة ، فالأمر ينطبق كذلك على فنيي المعلومات الذين ينتمون ، جزئياً على الأقل ، لقطاع المعلومات الأكثر تقدماً فى الوقت ذاته ، من ناحية تدريبهم والعلم الذى تقوم عليه خدمتهم - تماماً كما يمكن النظر إلى عمال الأطعمة السريعة على أنهم عمال تصنيع على درجة منخفضة من المهارة (إنهم "يصنعون" الهامبورجر) . وفيما بين القطاعين الفرعيين اللذين يشكلان الحدود يقع ذلك العالم الجديد القوى الذى يضم المصرفيين والمحاسبين والمحامين والمبرمجين الذين يخدمون كيان الشركات الكبير وبعضه حقيقي والبعض الآخر وهمى . إنه سوق عالم ماك الكونية . ومع أن هذا القطاع شديد الربحية ومجز مهنياً ، فهناك ما يفوقه فى ذلك بكثير . إنه لا يقدم الخدمات مباشرة لجمهرة أهل الأرض ولا يتحكم فى خدمات المعلومات والاتصالات التى يعتمد عليها اعتماداً تاماً ويمكن أن تتحكم فى عقولهم وأرواحهم . وهو المسئول عن صيانة

الأعمال الكونية . إذ يُجزى أجره ويجعل الآلة تدور ، ومع ذلك فليس بإمكانه أن يقول لها إلى أين تتجه ولا كيف . فهذه هي مهمة قطاع الاتصالات المعلوماتي الترفيهي ، الذى يستمد منه عالم ماك المعايير العرفية الحاكمة غير المنطوقة فى أغلب الأحوال .

ويربط تحليل الطبقات الذى عفا عليه الزمن أنماط الإنتاج بالهيكل الطبقي : لذلك رأى ماركس أن علاقة العبد-السيد القديمة قامت على سيادة العمل البشرى (من يسيطر على العمل يصبح سيد عالمه ويكون فى نهاية الأمر السيد السياسي كذلك) وأن العلاقة الإقطاعية جذورها ضاربة فى السيادة على الأرض (من يملك الأرض يحكم العالم) وأن العلاقة الرأسمالية تقوم على السيادة على رأس المال (من يمول آلات المصانع ويشترى العمل يشترى الطبقة الحاكمة) . وإلى حد ما تقوم مثل هذه العلاقة بين السيادة على النمط الاقتصادى للإنتاج والوصول إلى السلطة السياسية (ورغم أن الأمر ليس بهذا النظام الذى رآه ماركس ، فمن المؤكد أن هناك علاقة ما) وقطاع الاتصالات المعلوماتى الترفيهى فى اقتصاد الخدمات هو الذى يكتسب سيادة ما بعد حداثية معينة . ومن يتحكم فى المعلومات والاتصالات الكونية يحتمل أن يصبح سيد الكوكب . إلا أن السيادة هنا سيادة تزداد ليونة وترث الحكم بالإقناع لا بالأمر ، كما أن تأثيرها يكون من خلال التلميح لا عبر القسر . وهذا الشكل من أشكال السلطة الذى لا يكاد يراه أحد ليس من السهل تفسيره . ومعانيه التي تنطوى على الديمقراطية تثير بشكل من الأشكال اضطراباً يفوق ذلك الذى ينجم عن الفوضى التى يحدثها الجهاد (انظر الفصل الثالث) .

وحيث أن الأمر حسبما جاء فى الإعلان الذى رعت به إم سي آى دورة أورانج بول لسنة 1994 هو " الكون معلومات " ، فإن شبه السيادة فى هذا الكون مهلك لفئةاختصاصيي المعلومات والاتصالات الذين يصنعون برامج حضارتنا الكونية - أى الكتب والأفلام السينمائية وبرامج الكمبيوتر والمجلات وأشرطة الفيديو وحدائق الملاهي وصفحات الإعلانات والأغاني والبرامج والصحف وبرامج التلفزيون - ويمتلكونها ويتحكمون فيها . وتد تيرنر Ted Turner وجين فوندا Jane Fonda هما زوجا هذا العهد الجديد النموذجيان، بينما المبدعون أمثال مدير ديزني مايكل أيزنر Michael Eisener والمخرج السينمائي ستيفن سبيلبرج Steven Spielberg ومدير وكالة الإعلان السوبر مايكل أوفيتز وقيصر

الاتصالات مايكل مالون Michael Malone هم بحق ربابنة الصناعة . فما يتحكمون فيه ليس هو المنتج الصناعي (أشرطة الكاسيت أو المخطوطات المجلدة أو ماكينة ألعاب الفيديو أو الفيلم الخام التي قد تخص العديد من الشركات متعددة الجنسية "الأمريكية" أو "اليابانية") وإنما الكلمات والصور والأصوات والأذواق الفعلية التي يتشكل منها المجال الخيالي المثير للعواطف ، الذى يفسر عالمنا الفيزيقي ذا الأشياء المادية ويتحكم فيه ويوجهه . وفكرة أن ما يشكل أى منتج يُفترض أنه يخدم "حاجة" ما هي ذاتها أمر يعرفه الجميع -ويخضع لخيالهم- وهؤلاء الذين يشغلون قطاع الاتصالات المعلوماتي الترفيهي من المحتم أن يرثوا أخطاءه . قد لا يسعون سعياً حثيثاً لممارسة السلطة أو حتى يتمنون ذلك تمنياً سلبياً ، ولكن هذا حتماً سيتحقق لهم .

وأنا لا أرى هنا أى متآمرين ولا أى طغاة مستترين يستغلون المعلومات لضمان الهيمنة . فهذه بالأحرى سياسة عدم القصد و النتائج غير المتعمدة التي يضع فيها سعي السوق ، الذى ظاهره البراءة ، وراء المتعة والإبداع والأرباح ثقافات بكاملها فى طريق الدمار ويقضي على استقلال الأفراد والدول على السواء . وحيث أن الواقع فاق الخيال العلمي ، فإن المجاز الأدبي الذى يلجأ إليه كتاب قصص الفضاء الإلكتروني يبدو أقل غلواً من أى وقت مضى : يقول بات كاديجان Pat Cadigan فى روايته Synnersللفضاء الالكتروني "فى أول الأمر تشاهد شريط فيديو ثم ترتدى شريط فيديو ثم تأكل شريط فيديو وبعد ذلك تكون [هكذا]شريط فيديو."(8) واللاعبون يفهمون الجوائز الاقتصادية لرؤية الفيديو وارتداءه وأكله وكونه فهماً جيداً . وهذا هو سبب تفوق هوليوود بصفتها موطن كولومبيا بكتشرز على طوكيو موطن الشركة الأم لكولومبيا سوني ، لدرجة أنه رغم أن سوني فعلت المستحيل لامتلاك سى بى إس ريكوردز سنة 1988 وكولومبيا بكتشرز سنة 1989 بقيمة إجمالية حوالي 7 مليارات دولار ، فقد اشترت ما لا يمكنها امتلاكه (كما سنرى بالتفصيل فيما بعد).

كانت سوني تأمل فى السيطرة على ما كان يُدار فى منتجاتها من أجهزة الووكمان والووتشمان ، التي بنت عليها إمبراطوريتها الاقتصادية المبكرة ، والاستفادة منه . ولكن الفيلم يمتلك الكاميرا على الدوام ، حتى عندما تدفع الكاميرا ثمن الفيلم وتأويه . المهم هو

الصور الحية وليست الآلة التي فى برودة المعدن ونعومة البلاستيك . وهوليوود هي معدة برامج عالم ماك وهي تهضم هؤلاء الذين يتصورون أنهم يبتلعونها . بإمكان طوكيو أن تشترى هوليوود ولكنها لن تمتلكها فى يوم من الأيام . ويتوقع المخرج الأمريكي روبرت ألتمان Robert Altlman أن " يختفي اليابانيون من هوليوود . جاء اليابانيون بأموال جمة إلى هنا . وسوف ينتهي الأمر بهم إلى بيع هذه الاستثمارات . لقد خُدعوا بهذا المكان وأعتقد أنهم بدأوا يدركون ذلك . وإذا كانوا يقولون إنه ليس لديهم أية مدخلات فنية أو ثقافية، فما الذى يقومون به هنا؟ إنهم رجال البنوك وحسب ويُعاملون على هذا الأساس . وفى آخر المطاف لن يرضيهم هذا الوضع ."(9) إنه لا يعجبهم بالفعل . ففي سنة 1995 أعادت ماتسوشيتا بيع إم سي ايه لشركة أمريكية شمالية (هي شركة سيجرام التي يمتلكها ادجار برونفمان Edgar Bronfman) . وسواء بقي المال الياباني أم رحل، فلن يمكنه سوى استئجار الثقافة الدارجة اليابانية وجني الأرباح منها: فليس بمقدوره أن يبدعها أو أن يحل محلها . كما أنه لا رغبة له فى ذلك . وفيما يتعلق بالفرنسيين فإن المعاني الأيديولوجية التي تنطوى عليها الهيمنة الأمريكية فى مجال المعلومات والترفيه ليست على هذا القدر من الغموض: يقول المنتج الفرنسى ماران كارميتز Marin Karmitz "صحيح أن صناعة السينما الأمريكية عمل كبير ، ولكن الجانب الصناعي يخفي وراءه جانب أيديولوجي كذلك، فالصوت والصورة يستخدمان دوماً فى الدعاية . والمعركة الحقيقية فى الوقت الراهن تدور حول من سيسمح له بالسيطرة على صور العالم ، وبذلك يبيع أسلوب حياة معين وثقافة معينة ومنتجات معينة وأفكاراً معينة ."(10)

وهناك مفارقة ما فى تفوق قطاع الاتصالات المعلوماتي الترفيهي فى وقتنا الراهن . فليس بين القطاعات الاقتصادية الثلاثة السابق استعراضها وقطاعات الخدمات الفرعية الثلاثة التي تحت البحث أى تأثير أيديولوجي وسياسي كوني كبير على الدولة القومية ومؤسساتها الديمقراطية . ومع ذلك فأى منها ليس أقل تأثراً من غيره بالقيود القومية أو الصالح العام المنظم الديمقراطي . كما أنه ليس فيها ما هو أشد ارتباطاً من سواه بضرورات السوق القومية . وحقيقة الأمر أن تنبؤى بهزيمة الجهاد على يد عالم ماك فى خاتمة المطاف (إن لم يكن عما قريب) يكاد يرتكز ارتكازاً تاماً على استطاعة المعلومات

الكونية والثقافة الكونية طويلة المدى التغلب على الإقليمية ضيقة الأفق أو دمج الكيانات الجزئية فى كيان واحد أو استئصال شأفتها . وإذا كان الخيار فى آخر الأمر (حسب قول الكاتب الفرنسي ديبراى Debray) "بين آية الله المحلي وكوكاكولا"[11] -إذا كانت "القنوات الفضائية [الدش] معادية بالفعل للنبي الكريم ومعادية بحق للقرآن"[12] - فالملالي هم الخاسرون، لأنهم لن يصمدون طويلاً فى وقوفهم فى وجه قنوات التلفزيون الفضائية وأشرطة الفيديو . فعلى المدى الطويل، هل سنراهن على القومية الصربية أم أفلام بارامونت؟ على الشيخ عمر عبد الرحمن أم شاكيل أونيل Shaquill O'Neal ؟ على الإسلام أم على ديزني لاند؟ هل يمكن للدين كقوة محركة أصولية أن ينجو من جعله محلياً وتسليعه والهبوط به إلى ما يشبه روايات التسلية أو أن يكون حكاية استهلاكية ؟ والواقع أن الدين نفسه يمكن أن يلجأ للتلفزيون . كما أن متعصبى الجهاد لم ينبذوا التكنولوجيا الحديثة قط. ولكن لغز "المذهب التلفزيونى" televangelism يحل نفسه دائماً على حساب الدين: فالواقع أن الوسيلة الإعلامية هنا هى الرسالة ويقاس قبولها بالتبرعات الدولارية بدلاً من الأرواح التي أنقذتها .

- وأخيراً، لا تتجاهل صناعتا الاتصال والترفيه الجديدتان الروح أو تدمرانها، بل تستوعبانها وتفككانها ثم تجمعانها من جديد . فهي بين أيديهما تصبح آلة استهلاك أكثر كفاءة من الجسم المحدود فسيولوجياً . فإذا كان إسكات الجوع وإرواء العطش أمر على قدر كبير من السهولة، فرغبات الروح لا حد لها بالمرة . وعندما تُجند الروح نيابة عن الحاجات الجسمانية الإصطناعية- بل والمتغيرة - فإنها تضمن سوقاً لا حدود لها .[13] وإذا أمكن توجيه السعي الدوب نحو مجتمع صلة الدم والخلاص الدائم ليصبح بحثاً عن كيفية تلبية رغبة تستثار إثارة اصطناعية، يمكن حينئذ تسليع الجهاد نفسه .

والمهمة المتبقية فى الفحص الموسع لكيفية عمل أسواق عالم ماك الكونية، التي تشكل الجزء الثاني، حينئذ هي فحص قطاع المعلومات فى اقتصاد الخدمات . ومواجهة هذا القطاع تعني رسم صورة لهيمنة أمريكية أحادية الثقافة (أو ذات ثقافة دارجة أحادية) . وسوف يميل البعض إلى إنكار أن ما لدينا هنا "ثقافة" بالمرة . فعندما طُلب من أريان منوشكين Ariane Mnouchkine مدير مسرح Theatre de Soleil توصيف مدينة

ملاهي يوروديزني، أنكرها واصفاً إياها بـ"تشيرنوبل ثقافية" . ولكن الثقافة المخربة أو الثقافة التجارية أو حتى الثقافة المشعة هى ثقافة أولاً وأخيراً : أى أنها مجموعة على قدر كبير من الانتشار تضم رموزاً وصوراً عامة ترتبط ببعضها . بل إنها في واقع الأمر قد تشكل معاً مجتمعاً ما .

ويصر آخرون على أن الثقافة الدارجة الكونية ليست أمريكية فى شيء وليست ثقافة أحادية بالمرة، ذلك أنها أصبحت دولية بفضل موسيقى البوب الإنجليزية والأزياء الراقية الفرنسية والموضة الإيطالية والفن الاسكندنافى والتكنولوجيا اليابانية . والواقع أن هؤلاء سيكون معهم الحق فيما يقولون . ولكن إذا كانت كلمة "عالمية" لا تعني أكثر من مجموعة صور أمريكية إنجليزية أوروبية جرت تعبئتها وتسويقها فى نيويورك وأودعت الأشرطة والأفلام الخام فى ممفيس وهوليوود، فـ "عالمية" ليست سوى عبارة أمريكية-كونية بصورة أخرى، وبذلك تكون أحادية الثقافة .

والأمر الأكثر أهمية هو أن الإنجليزية – أو بالأحرى الأمريكية – هي لغة الثقافة الكونية.[14] وحسب مصطلحات عالم ماك، فإن إنجليزية الملكة هذه الأيام تزيد قليلاً عن كونها لهجة ذات ألفاظ طنانة يستخدمها المعلنون الذين يرغبون فى الوصول إلى المستهلكين الأمريكيين من الطبقات العليا الذين يتأثرون بها . لقد أضحت الإنجليزية الأمريكية اللغة الأولى العابرة للقوميات فى العالم فى مجالات الثقافة والفن وكذلك العلوم والتكنولوجيا والتجارة والنقل والأعمال المصرفية . بل إن الجدل الدائر حول أى من أمريكا واليابان هي التي استولت على الريادة الكونية يجرى بالإنجليزية ، مثله مثل لوحات التلفزيون الخاصة بالموسيقى وهتافات المستمعين وأغنيات الراب بالإنجليزية . وكثيراً ما تكون إعلانات السينما الفرنسية هذه الأيام بالإنجليزية (حيث تمثل الإنجليزية الأمريكية للفرنسيين ما تمثله الإنجليزية البريطانية للأمريكيين) . ويهاجم منتقدو عصر المعلومات الجديد هيمنة سي إن إن والخدمة العالمية لهيئة الإذاعة البريطانية ، غير أنهم يهاجمونها بالإنجليزية . ويلعن أمريكا كل من زعماء العشائر الصوماليين ومن استولوا على السلطة فى هاييتي ، لمصلحة وسائل الإعلام ، باللغة الإنجليزية. والحرب ضد هيمنة الاستعمار الأمريكي القوية والسيادة السياسية والإمبراطورية الاقتصادية تجرى بطريقة تزيد من الهيمنة اللينة للثقافة الدارجة الأمريكية واللغة الإنجليزية .

وتتحدث ثقافة عالم ماك الإنجليزية فى المقام الأول . لكنها تمتلك لغة عالمية أكثر رسوخاً تعمل عندما تعجز الإنجليزية عن العمل . هل عالم اليوم فى مكان على درجة من البعد تحول دون فهم أى مسافر إن هو لجأ إلى استعمال معجم مفردات الماركات والعلامات التجارية؟ ما أن يقول "مارلبورو... أديداس ... مادونا ... كوكاكولا... بيج ماك ... سي إن إن ... بي بى سى ... إم تى فى ...آى بى إم" حتى يتراجع برج بابل . منذ زمن ليس ببعيد سئل قناص فى مكان يطل على سراييفو عما جعله قاتلاً عشوائياً فقال "أنا أحميكم من الأصولية الإسلامية : فلا بد أن يؤدى شخص ما الأعمال القذرة . وبالمناسبة، كيف حال مايكل جوردان؟" إن لغة عالم ماك العالمية، التي تجمع الناس، تتفوق على ما فى ميادين القتل الخاصة بالجهاد من كراهية تبعث على الشقاق.

هيمنة الثقافة الدارجة الأمريكية اللينة ليست مجرد كلام . إنك تراها حيثما ذهبت فى البيانات الصلبة الخاصة بأربعة عناصر أساسية من عناصر هذه الثقافة: الأفلام والتلفزيون والكتب ومدن الملاهي . ولكن الأمر لا يقتصر على مثل هذه العناصر، فهي ليست سوى أجزاء من علم وسائل الإعلام الكوني الساحر الذى ينشر الوعي فى كل مكان . وعلم وسائل الإعـــلام هــذا يستغــل المقـــالات الإعــلانية (advertotials) والإعـــلانات المعلــوماتية (informercials) ، ويستغل الصراع استغلاله للخيال ، كما يستغل صنع الأساطير وابن عم صنع الأساطير الحديث وهو التجارة فى الصور، لكي تحول الحياة الخارجية إلى استهلاك، والاستهلاك إلى معنى، والمعنى إلى خيال، والخيال إلى واقع، والواقع إلى واقع وهمي . وحتى تكتمل الدائرة، تحول الواقع الوهمي مرة أخرى إلى حياة واقعية، لكي لا يكون هناك وجود لما يميز الواقع عن الواقع الوهمى. والواقع أن هناك تحاشياً لأى شكل من أشكال التمييز: فهاهي محطة إيه بي سى تجمع قسمى الأخبار والرياضة فى قسم إدارى واحد . وتختلط مجلات الأخبار التلفزيونية مع البرامج الترفيهية لتخلق معاً صحفاً شعبية جديدة يتحداها الواقع (حسب المصطلح الجديد) . كما تعرض الأفلام شعارات الشركات (مقابل ثمن معلوم) ويقوم الرؤساء بتمثيل أدوارهم فى الحياة على الشاشة (الرئيس فورد فى برنامج تلفزيوني خاص) ، بينما يصور الحكام المخلوعون (كوومو Cuomo وريتشاردز Richards) إعلانات فى سوبر باول عن الأطعمة الخفيفة يسخرون فيها من

هزائمهم فى الانتخابات ، ويدخل نجوم هوليوود الانتخابات (سوني بونو Sony Bono، وهو ليس رونالد ريجان Ronald Reagan ، أنتخب عضواً فى الكونجرس سنة 1994) ويصبح نقاد التلفزيون ساسة يمارسون السياسة ممارسة فعلية (ديفيد جرجن Gergen David وبات بوكانان Pat Buchanan عبروا الشارع مرات ومرات فقط من أجل تخفيف النقد الصادر عن نظرائهما) . فالساسة لا يفعلون الصواب أبداً ، والمشاهير لا يخطئون بالمرة - بما فى ذلك جرائم القتل . لا شيء يتفق مظهره مع مخبره اتفاقاً تاماً .

واعترافاً بما يكمن فى هذه القوى من سلطان، تحارب الشركات، التي تنتمي لعوالم النشر وأجهزة الاتصالات والبث والبرامج والترفيه المتوازية، من أجل حق ابتلاع الواحدة منها الأخرى عن طريق تجميع كل منها مع الأخرى والاندماج فيها وشرائها بمجرد أن تجد التمويل اللازم والمساهمين الذين يمكن رشوتهم . ولا تتدخل المحاكم كي تحفظ الصالح العام أو تقف فى وجه احتكار يستفحل أمره، وإنما لتؤكد على أن ربحية المساهمين هي المعيار الأوحد لأى صفقة (كما حدث عندما أجبرت محكمة ديلاوير شركة بارامونت على رفض عرض شراء "ودي" منخفض تقدمت به شركة فياكوم وقبول عرض أعلى مقدم من شركة كيو فى سي) . وتحت راية التداوب synergy، وهي الطريقة التي يستخدم فيها ميكي ماوس القوة البدنية للفوز بالمسابقة، يُفعل أى شيء وتُنفق أية مبالغ من أجل ضمان السيطرة الاحتكارية على ماتراه الآن كياناً إعلامياً متكاملاً واحداً ذا تقنية متقدمة يمكنه السيطرة على الاقتصاد العالمي وعلى كل أسواقه التي كانت يوماً ما متنوعة . وبينما تخوض الشركات العملاقة الحرب، تقف الحكومات (بما فى ذلك حكومة الولايات المتحدة) موقف المتفرج وتصدر عنها أصوات واهنة بشأن الأسواق الحرة، وكأنه لا دخل للمصالح العامة فى الموضوع أو كأن أسواق عالم ماك التي شُوهت تشويها تاماً سوف تسوى الأمور بنفسها بطريقة تتسم بالعدل والإنصاف . ولكنها لايمكنها ذلك ولن تفعله .

من - على وجه الدقة - ينبغي أن يمثل الصالح العام أو المصلحة المشتركة فى هذا العالم الداروينى من الشركات الضارية التي تسيطر وحسب على تحديد الأصول الرمزية لمحاكمة بقايا الحضارة؟ قليلون من يثيرون مثل هذا التساؤل . إن تعددية البث وشبكات الكيبل جعلت مبدأ الإنصاف القديم لايصلح لهذا الزمان وهي توشك أن تخرج لجنة

الاتصالات الفيدرالية من الساحة . وكان هناك مشروع قانون تنظيمي متواضع يعي التقنيات الجديدة تركوه فى مهب الريح (ومعه كثير غيره من التشريعات) فى كونجرس 1994 . وحتى مشروع القانون هذا الذى رعاه السناتور ارنست ف. هولنجزErnest F. Hollings كان مهتماً بالتقليص قدر اهتمامه بسن تشريعات تتعلق بإنشاء طريق المعلومات السريع الجديد، بل إن شركة بيبي بيلز (وهي شركة تليفونات محلية) التي كانت ستخضع للوائحه شعرت بخيبة الأمل لفشله، حيث أنها كانت تعول عليه فى جواز دخولها مجال التلفزيون الكيبل واتصالات المسافات الطويلة .

ومع ذلك فإن التشريع نيابة عن الصالح العام فى مجال الاتصالات يكاد يصبح مستحيلاً . فتغير الحال عما كان عليه فى السنوات السابقة أمر واضح . فعندما حاولت محطة دابليو إن سي إن لإذاعة الموسيقى الكلاسيكية فى نيويورك أن تتحول إلى محطة لموسيقى الروك فى السبعينيات، وجد المستمعون الساخطون من يتعاطف معهم فى لجنة الاتصالات الفيدرالية وأُجبرت المحطة على أن تعود سيرتها الأولى وتذيع الموسيقى الكلاسيكية . وعندما نبذت المحطة الموسيقى الكلاسيكية مرة أخرى سنة 1993، لم يكن هناك وجود للجنة الاتصالات الفيدرالية فى أى مكان وتمكن أصحاب المحطة من طرح مقولة عبثية مفادها أن وجود محطتين للموسيقى الكلاسيكية فى مدينة واحدة بها عشرات المحطات وملايين المستمعين "أحدثت تشبعاً" فى السوق وأن واحدة تفي بالغرض . ما الذى سيحل إذن محل لجنة الاتصالات الفيدرالية أو إشراف الحكومة أو اللوائح والمساءلة الديمقراطية؟[15] هل هناك أى أمل فيما أسماه فريد فريندلي Fred Friendly منذ اثنتي عشرة سنة "مشروع قانون إلكتروني للحقوق" فى عصر يتجه فيه كونجرس جمهورى لإلغاء محطات الإذاعة العامة أو خصخصتها وتفكيك ما تبقى من الجهاز التنظيمي الفيدرالي؟ كيف يمكن أن تمثل الجمهور الأسواق التي تحابي الاستهلاك الفردي، كل مستهلك على حدة، ولكن لا سبيل لتمثيلها الصالح العام– وهو ما يشترك فيه الأفراد وبالتالى ما يجعلهم أكثر من مجرد مستهلكين؟ أين هي تلك البواعث التي تدفع السوق لحماية المصالح العامة؟[16]

هذه الأسئلة توحي بأنه بعد النظر فى العناصر المميزة الأربعة من أفلام وتلفزيون

وكتب ومدن ملاهي والطريقة التي أصبحت بها على الفور مدولة ومأمركة، سوف نحتاج إلى ملاحظة جنون الاندماج والامتلاك الجديد فى قطاع المعلومات- وهو جنون تكامل رأسي باسم حرية الاختيار والأسواق الحرة قد يسفر عن احتكار أشد خطراً على الحرية من أى احتكار حلم به عتاة المحتكرين فى مجالي المعادن والسلع المعمرة أمثال جون روكفلر الأب John Rockefeller Sr. أو أندرو كارنيجى Andrew Carnegie .

الفصل السادس

هوليوود: فيديولوجيا عالم ماك

قرن من أو ما ذلك القرن المنقضي؟ هل هو القرن الأمريكي؟ ربما . هل هو قرن الحروب العالمية؟ هذا مؤكد . هل هو قرن العلوم؟ لا شك فى ذلك . ولكني أرشح الفيلم الخام وابن عمه شريط الفيديو: فهو أكثر من شيء آخر قرن السينما، لأنه العصر الذى حلت فيه أفلام السينما والفيديو وماتحمله من صور محل المطبوعات والكتب والكلمات التي كانت يوماً تنقلها كوسائل البشر الرئيسية للاتصال والإقناع والترفيه . أصبحت المعلومات رقمية ويحملها الكمبيوتر وزيدت سرعة الاتصالات، ولكن الصوت والصورة هما الكيف الذى "يوصل" ما أُصطلح على أنه "معرفة" إلى معظم الناس فى أنحاء المعمورة . فقد انتقلت الأخبار من المطبوعات إلى الفيديو لدرجة أنه حتى الصحف تقلد الإخراج التلفزيوني . فهاهي صحيفة يو إس ايه توداى على سبيل المثال تعد تلفزيوناً فى شكل صحيفة شعبية، نجد صحيفة نيويورك تايمز الوقورة هي الأخرى اتجهت إلى استعمال الألوان فى طبعتها ليوم الأحد الزاخرة بالإعلانات . كما أن الكثير من المجلات متوفرة الآن على الإنترنت .

أعدت هوليوود المائدة لعالم ماك . وإذا كانت حروف الطباعة المعدنية (إلى جانب البارود والملاحة) قد عبرت بعالم العصور الوسطى، بما فيه من تقسيم طبقي وكهنوت وجهل شعبي، إلى إعادة تشكيل ضخمة لظروف البشر ودفعت البشرية للوقوف على عتبة الحداثة، فإن الكادرات الفوتوغرافية المتحركة (والتحليل الطيفي فى الوقت المناسب) تحدت عالم الطباعة لتدفعنا من الحداثــة إلى ما بعد الحداثة . لقد تغيرت الأشكـــال وأساليب التغليف (التلفزيون والفيديو وشاشات الكمبيوتر) وتطور المضمون (أشرطة الفيديو الموسيقية والمقالات الإعلانية والإعلانات المعلوماتية) وتطورت القنوات (الكيبل والأقمار الصناعية وخطوط التليفون المحولة والألياف الضوئية) ولكن ذروة الأمر مازالت تأتي على هيئة تلك الصور المتحركة التي تمر أمام عيون البشر . وهذه الصور، التي يعززها الصوت المسجل، حلت محل الكلمات والأرقام وغيرها من الرموز التي أَلِف البشر الاتصال من خلالها . أى أن حرفية الصور حلت محل تجريد اللغة-وثمن ذلك الذى لم يُقدَّر بعد دفعه الخيال، الذى

وهن العزم منه لوجود ما يقوم بعمله، والمجتمع، الذى تربطه الكلمات، والصالح العام، الذى يتطلب تفكيراً متروياً من المواطنين العقلاء المسلحين بمعرفةالقراءة والكتابة .

وكشأن غيرها من العناصر المساهمة فى ثقافة عالم ماك، تتحد أفلام السينما والفيديو فى مضمونها أكثر من أى وقت مضى، حيث أصبح توزيعها كونياً بصورة تفوق كل ماسبق. ففي أنحاء العالم هناك تزايد مطرد فى أعداد من يشاهدون الأفلام التي يقل تنوعها أكثر وأكثر . وأكثر ماتتضح الثقافة الأمريكية ويصبح بأسها أشد هو فيما تنتجه من أفلام سينما وفيديو . بل إنه فى الوقت الذى تلاشت فيه الفروق بين شركات التليفونات وشركات الكيبل ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية والشركات المنتجة للبرامج، واختلطت شركات الاتصالات العملاقة واندمجت، تترسخ الثقافة الأحادية ويستسلم التنوع للتماثل وتفسح المنافسة الطريق للإحتكار . ففي وجود بضع شركات ضخمة كونية تتحكم فيما يُبدَع وفيمن يوزعه والمكان الذى يُعرض فيه وفى طريقة ترخيص المزيد من استغلاله فيما بعد، تختفي فكرة أية سوق تنافسية بحق فى مجال الأفكار والصور ويبطل تأثير الأسواق الوحيد الذى لا يُنازَع على بُنى السلطة الديمقراطية–وهو تأثير ذلك الحشد من القيم المرتبطة بالتعددية والتنوع وبالاحتمال والصدفة وبالاختلاف والعفوية.

وخبراء التقنية أمثال جيف ميلر Jeff Miller الذين يسألون "هل ينبغي لشركات التليفونات أن تنتج أفلاماً؟"، ثم يردون على ذلك بالنفي من واقع الكفاءة أو التخصص، لا يدركون المقصد من ذلك .[1] فالذى يدفع إلى الاندماج ليس الاعتماد المتبادل القائم على التكافؤ ، وإنما واقع السيادة المطلقة للبرمجة: أى تلك السيادة التي تتحقق للمضمون على الأشكال العديدة فى عصر عالم ماك . لقد اشترى روكفلر خطوط السكك الحديدية وشبكة التوزيع كي يضمن تدفق البترول، الذهب الأسود فى زمانه . أما ذهب عالم ماك الأسود فهو المعلومات، ومن يملكون "أنابيب" المعلومات لهم الحق فى التقدم لشراء المادة التي تنقلها الأنابيب . وهذا ليس بالأمر الهين فى اقتصاد تحتل فيه صناعة الصوتيات والمرئيات المرتبة الثانية بين أكبر قطاعات التصدير–7.3 مليار دولار لأوروبا وحدها سنة 1992، وهو ما قد يشير إلى سبب خشية الأوروبيين (وخاصة الفرنسيين) الشديدة من تعريض اتفاقية الجات لسنة 1993 للخطر من أجل إعفاء المواد المسموعة والمرئية من لوائح التجارة الحرة

الجديدة .[2] ويعلق مراقب فرنسي على ذلك قائلاً:"كانت السينما سلاطة جانبية فى عالم التجارة فصارت الآن هي اللحم."[3]

والواقع أنه سواء انطوى الأمر على مقاومة أم لم ينطو، فإن الدول ذات التقاليد التي تفخر بها فيما يتعلق باستقلال صناعة السينما لفرنسا وإنجلترا والسويد والهند واندونيسيا واليابان تخضع شيئاً فشيئاً لإغراء لا يقاوم من جانب ذلك الإنتاج الذى لا يُعد أمريكياً قلباً وقالباً وحسب، ولكنه رغم كونه مايزال محلياً فهو مشدود بقوة إلى سحر ثالوث أسلوب الحياة المغرى الذى يضم الجنس والحب والمال وموسيقاه هي أنغام الروك أند رول الأمريكية . وبذلك فإنه حيثما وُجد الإنتاج السينمائي المحلى فى بلاد أخرى فهو مكرس فى المقام الأول لتقديم أفلام رخيصة التكلفة تحاكي ماتقدمه هوليوود . لقد اتضح أن الكونية الجديدة تزيد قليلاً عن الإقليمية الأمريكية الموجودة فى كل وجود وتتخذ لها أسماء بلغات شتى وتمولها شركات إنتاج مشترك متعددة الجنسية . فقد أدت الخصخصة إلى اختفاء الدعم الذى تقدمه الدولة لمنتجي السينما وتركتهم معرضين أكثر من أى وقت آخر للأفلام الأجنبية، فى نفس الوقت الذى تترك فيه التجارة الحرة صناعة السينما المحلية مكشوفة بلا أى شيء يحميها . ولا يسع منتجو الأفلام المحلية الدخول فى منافسة مع الشركات الاحتكارية الدولية العملاقة التي تسيطر على الإنتاج والتوزيع ودور العرض (متعددة القاعات) فى أنحاء العالم . وفى يوم من الأيام كان يُنظر إلى الإنتاج المشترك، الذى يسمح لقوى مالية وإبداعية من دول عدة أن تعمل معاً، على أنه بمثابة المخلِّص لصناعة السينما المحلية . وواقع الأمر أنه عجَّل وحسب بتصفية صناعة السينما المحلية الحقة . فتمويل محطة التلفزيون الفرنسية المستقلة سي آى بي واى 2000 لفيلم البيانو The Piano لا يجعل هذا الفيلم الحائز على جائزة أوسكار فرنسياً .

واكتشفت صناعة السينما المجرية، والمعروفة بأنها أكثر أسواق أوروبا الشرقية إنتاجاً وما تزال نشطة رغم تأثرها مالياً فى فترة ما بعد الشيوعية، أن الجمهور المجرى لن يدعم السينمائيين المحليين . فهناك العشرات من الأفلام التي تنتج ولايعرض منها سوى عدد ضئيل فى عدد صغير من الدور "الفنية" فى بودابست . إذ أن دور العرض الكبرى مكرسة بالكامل للإنتاج الأمريكي . ومن ثم نجد أن الأفلام الثمانية الأكثر نجاحاً (كما فى

سنوات عديدة سبقت) جميعها أمريكية (انظر الملحق ب) . ويقول السينمائيون الأمريكيون بكل ارتياح إن ذلك مرده إلى أن السوق هي التي تتكلم . ويخشى المتنافسون أن يكون ما أسكتهم هو المال وقوة السوق والطريقة التي ميزت بها الأسواق والمال الذوق الكوني (أو بالأحرى السيء) .

وحتى الدول التي تتبع سياسات حمائية متشددة، مثل إندونيسيا أو فرنسا، ليست بقادرة على الوقوف فى وجه المد الأمريكي . فلأسباب سياسية وثقافية حاولت إندونيسيا حماية السينما فيها . إلا أن صناعة السينما كانت رهناً مختاراً فى مفاوضات تجارية أوسع وباعتها حكومة جاكرتا مؤخراً أسفل النهر (و خارج البلاد فى المحيط الهادى) لضمان استمرار صادرات النسيج إلى أمريكا .[4]

وقد أصاب الفرنسيين الارتباك من جراء الزحف الأمريكي على جمهور السينما الفرنسي وتأجج الغضب فى نفوسهم سنة 1991 ، عندما لم يقتصر الأمر على تقدم الأفلام الأمريكية على مثيلاتها المحلية فى مسابقة السينما الجماهيرية، ولكنها -يتقدمها فيلم الأخوة كوين BartonFink- نجحت كذلك فى السيطرة التامة على مهرجان كان السينمائي، حيث أضافت أرفع جوائز نقاد الثقافة العليا إلى غنائمها . وفى غمرة اليأس، شنت صناعة السينما حملة ناجحة تطالب بوضع السينما فى نفس الفئة مع الفواكه والخضروات بصفتها صناعة قومية حيوية، أملاً فى إعفائها، كما هو الحال بالنسبة للزراعة، من شروط التجارة الحرة التي تفرضها عليها كل من دورة أوراجواى لمحادثات الجات والسوق المشتركة . وأعلن وزير الثقافة السابق جاك لانج Jack Lang "الحرب" الشاملة على غزو هوليوود الثقافي ووضعت القواعد فى أوائل التسعينيات حيث اشترطت أن يكون 60 بالمائة من برامج الفيديو التي يعرضها التلفزيون الفرنسي أوروبية و 40 بالمائة من الموسيقى التي تذيعها الإذاعة والتلفزيون الفرنسيان من أصل فرنسي . فلماذا هذا الفزع الحمائي؟ كانت الأفلام الأمريكية قد نجحت فى الثمانينيات على ما يبدو فى ضمان شراء ما لا يزيد على ثلث عائدات السينما الفرنسية، وكانت فى واقع الأمر تلقى احترام النقاد الذين كانوا لا يزالون يقدرون القديم من أفلام ميلودراما العصابات والعتيق من أفلام الفودفيل التي قام ببطولتها ممثلون كوميديون أمثال جيرى ليويس Jerry Lewis .

والآن ورغم أن فرنسا ما زالت تنتج 150 فيلماً فى السنة (مقابل حوالي 450 فيلماً من هوليوود) فإن 60 بالمائة من العائدات تذهب لأمريكا ومازال هناك قليل من التسامح . وتتحكم أمريكا حالياً فيما يزيد على 80 بالمائة من السوق الأوروبية، بينما لا يزيد نصيب أوروبا على 2 بالمائة من السوق الأمريكية .[5] وعند بدء عرض الفيلم الأمريكي الضخم Jurassic Park فى عطلة نهاية الأسبوع كان يُعرض تقريباً فيما يزيد على ربع دور العرض الفرنسية الثمانمائة بالمدن الفرنسية الكبرى، مما أدى إلى انطلاق صيحة المدافعين عن الثقافـــة المحلية أمثال خليفة لانج وزير الثقافة جاك توبو Jacques Toubon.[6] وكان لانج قد حظر الأفلام غير الناطقة بالفرنسية من دخول مسابقات الأوسكار الفرنسية (الـ"سيزار") رغم أن ذلك كان يعني استبعاد الكثيرين من المخرجين الفرنسيين الذين أخرجوا أفلاماً ناطقة بالإنجليزية (بمن فى ذلك جان جاك أرنو JacqueArnaud Jean وفيلمه Lover من إنتـــاج دورا ولوى مـــال Louis Malle وفيلمه Damage) . كما أنه أعلن الحرب على الممثلين التجاريين الأمريكيين وذهب بـ"المنتجات" السمعبصرية مرة أخرى إلى دورة الجات فى نهاية سنة 1993 . وفازت فرنسا فى اشتباك الجات فى الساعة الحادية عشرة منه، حيث حافظت على حصتها وعلى الدعم الذى تقدمه الدولة للسينما ومقداره 350 مليون دولار فى السنة . إلا أنه بعد استقرار مدينة يورو ديزني لأجل بعيد على أطراف باريس (رغم البداية المالية شديدة الاهتزاز) ولأن الأفلام والبرامج التلفزيونية الأمريكية المواد الأساسية فى شبكات التلفزيون "الفرنسية" القوية الجديدة التي تعمل بنظام الاشتراكات، مثل كنال بلاس وسي آى بي واى 2000، لا يبدو أنه من السهل العودة إلى سنوات المجد فى الخمسينيات والستينيات بالنسبة للسينمائيين الفرنسيين .

ومع إنتاج 150 فيلماً فى السنة يمكن تصدير أربعة وعشرين منها، ما زال لدى فرنسا واحدة من ثقافات العالم السينمائية العظيمة . فالواقع أنها ما زالت تتحكم فى مايقرب من نصف ما يظهر على شاشاتها، ومازالت تنتج أفلاماً إقليمية فرنسية توزع عالمياً وتلقي ترحيباً على المستوى الكوني . ومقارنةً ببرلين وبودابست اللتين تسيطر عليهما هوليوود، مازالت دور العرض فى باريس تقدم كماً كبيراً من الأفلام الفرنسية.[7] ولكن الاستوديوهات الكبرى تغلق أبوابها . ورغم كل الكلام الذى ينم عن بغض شديد، ليس هناك من يعرف كيف

يوقف موجة المد الأمريكي . وكتبت مجموعة من المخرجين الفرنسيين خطاباً مفتوحاً إلى "مارتان" Martin (سكورسيز Scorsese) و"ستيفن" Steven (سبيلبرج Spielberg) يلتمسون منهما الاعتراف بأن الأوروبيين كانوا "يقومون بمحاولة يائسة لحماية السينما الأوروبية من الفناء ." وقد توقعوا أنه إذا لم تعف الأفلام من التجارة الحرة "لن تكون هناك صناعة سينما أوروبية بحلول سنة 2000 ."[8] إلا أنه من المؤكد أن جاك لانج رأى الكتابة على الشاشة، ذلك أنه في الوقت الذي كان يخوض فيه المعركة باسم الثقافة ضد العملاق السليولوزي الأمريكي، كان يقلد سيلفستر ستالون Sylvester Stallone وسام جوقة الشرف .

" واستشرف المستقبل كذلك فنسان مال Vincent Malle شقيق لوي مال، وهو منتج. فعند استعراضه لذلك النجاح الذي حققه في فرنسا فيلم الأطفال الذي حول بيتهوفن إلى كلب من نوع سانت برنارد يتنهد قائلاً: "ما يصلح الآن في تشاتانوجا يصلح في الحي السادس من باريس ، وهذا أمر محزن بعض الشيء" .[9] وربما كان الأمر كما يقول منتج آخر، هو شارل جراسو Charles Grassot ، هو أن "على المرء أن يعترف بأن جمهور السينما الأمريكية طفولي الطابع" .[10] ولكن سائر العالم، باعتباره جمهوراً منتظراً للثقافة الدارجة الأمريكية، يبدو مجبراً على النكوص إلى الطفولة الكونية التي تصنعها هوليوود وفاين .[11] والطفولية حالة ذهنية عزيزة على عالم ماك، ذلك أنها تُعرف بـ"أريد، أريد، أريد" و"خدع، خدع، خدع" وهي كلمات مفضلة من كتاب المستهلكين لأناشيد الحضانة .وهذا الأمر ليس مجرد "محزن بعض الشيء"، فهو ينطوي على قدر كبير من الحزن .

وعند استعراض الناقد ديفيد ستراتون David Stratton للسينما الأوروبية التي كانت يوماً ما تفخر باستقلالها، قال بمرارة إن إثارة الستينيات واكتشافها، عندما كان بيرجمانBergman وأنطونيوني Antonioni وفيسكونتي Visconti وتروفو Truffaut وجودار Godard وبونويل Bunuel يقومون بعملهم في دول كانت لديها صناعة سينما محلية تتمتع بالحيوية، قد ذهبت مع الريح .[12] كما أنه شعر بالأسى لأنه "رغم احتمال ذهاب عدد كبير من الناس إلى دور عرض السينما في العالم، فالاحتمال الأكبر أنهم يشاهدون الأفلام الأمريكية السائدة بدلاً من مشاهدة الأعمال الجديدة التي يقدمها من

خلفوا بيرجمان وجودار ومن سواهم ."[13] وما يتبقى هو "القوة الأمريكية الماحقة" التى تنجح دائماً ليس فى التغلب على صناعة السينما المحلية وحسب، وإنما على المنافسين من الخارج كذلك . وهكذا نجد أنه بينما كان 86 فيلما فقط ، أى ثلث ما عُرض فى ألمانيا من أفلام أجنبية بلغ عددها 255 فيلماً سنة 1972، إنتاجاً أمريكياً، بلغ عدد الأفلام الأمريكية 162 فيلماً، أو ثلثى الأفلام الأجنبية، بحلول سنة 1991.[14] وحالياً تمثل الأفلام الأمريكية حوالى 85 بالمائة من العائدات فى أوروبا–أى حوالى 7.1 مليار دولار من بين دخل شبابيك السينما البالغ 2 مليار دولار .[15] وتبذل أوروبا ما فى وسعها: فبقيادة فرنسا ووفق على لائحة للجماعة الاقتصادية الأوروبية تطالب كل محطات التلفزيون القومية بالمحافظة على أن يكون 50 بالمائة من برامجها محلياً (بما فى ذلك الأفلام والمسلسلات) . إلا أن محطات التلفزيون التى تعمل بنظام الاشتراكات والقنوات الفضائية لا تعير ذلك الأمر اهتماماً كبيراً . وبينما استمر هذا الإجراء معمولاً به بعد دورة الجات لسنة 1993، فسوف يخضع فى آخر المطاف لقوى السوق عن طريق الأقمار الصناعية أو الفيديو المنزلي أو غيرهما من التقنيات الجديدة . ولن يمضي وقت طويل حتى تكون هناك صورة واحدة– الصورة الأمريكية عن أمريكا وهى أشبه باللقطة الافتتاحية لرونالد ريجان فى فيلمه الفيديو الشهير "إنه الصباح فى أمريكا"، أو بقرص هامبورجر "يطشطش" على إنامل سيارة شيفي V–8 ، اشتدت حرارته فى الصحراء–إنها صورة شديدة الحيوية وعلى قدر كبير من التأثير وكلية الوجود وفارغة جداً حتى إنه لن يكون هناك من يعترف بها على أنها أمريكية، وإنما ستكون موجودة وحسب .[16]

وقصة السينما المؤلمة فى أوروبا يمكن أن تتكرر مرات ومرات فى أنحاء العالم .ففي الهند سنة 1991، ورغم قوة صناعة السينما المحلية فيها، كان من بين 124 فيلماً مستورداً 78 فيلماً أمريكياً .[17] وفى إيران الثورة، حيث يمنع الرقباء المتحمسون معظم الواردات ويشجعون "الأفلام السطحية الانتهازية الكاذبة فى ثوريتها التي تزخر بلغة سياسية طنانة"، عُرض فيلما Dances with Wolves و Driving Miss Daisy وشاهدهما جمهور كبير .[18] قد يظن المرء أن هذا أمر محمود، ولكن فى بلد "كان حتى المسئولين فيه مشوشين فيما يتعلق بماهية السينما الإسلامية" (حسب قول المخرج الإيراني بهرام بيازاى

Bahram Bayaxai) قد تكون ركلة فى المؤخرة بالنسبة لثقافة إسلامية متعصبة تحاول الحفاظ على نفسها سياسياً وثقافياً فى مواجهة الغرب .[19]

وهذه الاتجاهات مؤكدة فى كل بلد تقريباً من بلاد العالم التي تنتج أفلاماً وتعرضها فى دور عرض أو على شاشة التلفزيون . إنها تميز الأسواق الكبرى مثل اليابان وألمانيا ذات التراث الثقافى المحلي القوي، وتميز الأسواق التي التي تظل مغلقة فى وجه الأفلام الغربية مثل الصين وكوبا، التي تنتج رغم عجزها عن استيراد الأفلام التافهة الأمريكية أفلاماً تافهة خاصة بها تحاكي نفس الهوس الأمريكي بالجنس والعنف والتمثيليات التلفزيونية الذى تدينه دعايتها ووضعت رقابتها كي تحول دونه . ولاحظ الأمريكيون أن هناك أفلاماً تنم عن موهبة مثل فيلم تشن كيج Chen Kaige "وداعاً عشيقتي" (وهو أول فيلم صيني يفوز بجائزة السعفة الذهبية فى مهرجان كان سنة 1993) وفيلم زانج ييمو Yimou Zang "ارفع الفانوس الأحمر" . ولكن أياً من هذين الفيلمين لم يشاهده الجمهور فى الصين كاملاً، حيث يبدو الرقباء أشد على الإنتاج المحلي الجاد من أفلام الكاراتيه التي تاتي من هونج كونج أو أفلام الميلودراما والتشويق الدموية الأمريكية، التي يُعاد إنتاجها وبيعها على هيئة نسخ مسروقة بالتواطؤ مع حكومة صينية معرضة لأن تُفرض عليها عقوبات تجارية أمريكية شديدة بدلاً من الاعتراف بهذه الممارسات . والمخرج الصيني تشن لي ليس متفائلاً: "منذ ربع قرن كنا مفتونين بالسياسة . أما الآن فنحن مولعون بتكوين الثروات . ولكن تفكيرنا لم يتغير تغيراً حقيقياً. وأخشى أن يأتي يوم نصبح فيه بلطجية يجرون وراء المال دون أن تكون لنا ثقافة ."[20] وحيث أن عالم ماك يتبع الرفاهية الاقتصادية، فلا يحتمل أن يكونوا بلا ثقافة تماماً: فقط سيكونون بلا ثقافة خاصة بهم . إذ سوف تحل محلها ثقافة بلطجية المال .

وتسيطر أفلام أمريكا على السوق العالمية بصورة تفوق ريادتها فى أى مجال آخر . وفى روسيا الجديدة يشكو بيتر شيبوتنيك Peter Shepotinik رئيس تحرير إحدى مجلات السينما الرائدة فى موسكو قائلاً: "أن تشترى فيلماً أمريكياً غير معروف من الدرجة الثالثة وتوزعه، أرخص من أن تنتج فيلماً روسياً هذه الأيام ."[21] ويتحدث جدول أكثر الأفلام دخلاً فى اثنتين وعشرين دولة لسنة 1991، وهو الذى أُعيد نشره فى الملحق ب، عن نفسه . فقد

حقق كل من Dances with Wolves (المركز الأول تسع مرات) Terminator 2. (المركز الأول ست مرات) المركز الأول فى خمس عشرة دولة من بين اثنتين وعشرين دولة شملها الاستطلاع . كما أن واحداً منهما احتل المركز الثاني فى ثماني دول أخرى . وهناك خمسة أفلام أمريكية أخرى احتلت المركز الأول، منها Robin Hood و Home Alone وهي تأتي كذلك فى المرتبة الثانية أو الثالثة بين اختيارات الجمهور فى دول كثيرة . ومن بين أكبر ثلاثة أفلام دخلاً فى كل من الدول الاثنتين والعشرين (إجمالي عددها ستة وستون فيلماً) هناك ثمانية وخمسون فيلماً أمريكياً . ومن بين 222 فيلماً احتلت المراكز العشرة الأولى، هناك 191 فيلماً أمريكياً .

ولم يحدث أى تغيير في سنة 1992، عندما كانت Basic Instinct و and the Beast Beauty وسلاسل مثل Lethal Weapon 3 و Home Alone 2 تحتل المراكز الخمسة الأولى (بمراتب مختلفة) فى كل الدول نفسها، حيث كانت المراكز من السابع أو الثامن وحتى نهاية قائمة أفضل عشرة أفلام من إنتاج هوليوود .[22] واحتكاراً للسوق المحلية، عملت أمريكا على القضاء على غيرها من المصدرين ومن ثم ساهمت فى إثارة المتاعب للمنافسين فى صناعتهم المحلية . ومن المفترض أن الإنتاج المشترك أضعف التأثير الأمريكي، غير أن ما حدث هو العكس .[23] فهل كان من المنتظر أن يفكر إنسان فى Total Recall، وهو الفيلم الذى قدم شوارتزنجر Schwartzenegger قبل عدة سنوات على أنه فيلم فرنسي التمويل أخرجه هولندى وبطله نمساوي؟ فالمال الأجنبي والموهبة المهاجرة وشركة التوزيع غير الأمريكية جميعها خيوط خفية فى ثوب يبدو لمن يرتديه أنه أمريكي .[24] ووجود هوليوود على نهر السين قد يحقق لأوروبا أرباحاً ضخمة بقدر ما تحققه كاليفورنيا، وإن كانت ستزيد من اتساع نطاق عالم ماك بدلاً من أن تحد منه .[25]

ومخرجو السينما الأمريكيون إجمالاً لا يبرحون بلادهم من أجل عمل أفلام . بل إن أفضل المخرجين وأنجحهم فى أي مكان آخر يهاجرون فى العادة إلى هوليوود .[26] فعلى سبيل المثال، جاء المخرج الصيني الشهير تشين كيج صاحب فيلم "وداعاً عشيقتي"، وهو الذى يشار إليه كثيراً على أنه نموذج لمقدار نجاح الإخراج السينمائي خارج هوليوود، وراء فيلمه إلى أمريكا حيث ذكر فى إحدى المقابلات التي أُجريت معه أن إخراج فيلم أمريكي

هو "ما أريد أن أفعله" واستشهد بفيلم God Father كمثال للفيلم الذى يمكنه إخراجه .(27)
وينبغي أن يكون بول فيرهوفين Paul Verhoeven نموذجاً يختذيه كيج: فهو مخرج أجنبي فتن هوليوود لزمن طويل بمجموعة من الأفلام ضمت Robocop و Total Recall وBasic Instinct و"غريزة أساسية" . ولذلك يشكو ميشيل سيما Michel Cement ، ولا مجيب لشكواه، من "الأفلام المتخلفة عقلياً الساذجة التي تكثر هوليوود من إنتاجها لتقدمها لجمهور المراهقين وتُلقى مثل القمامة على المئات من شاشات دور العرض الفرنسية فى موسم الصيف الجاف"، بينما يتجه المخرجون الأوروبيون إلى هوليوود طلباً للمال والشهرة .(29)

وهناك استثناءات واضحة من الهيمنة الأمريكية المتزايدة . فالمكسيك تتمتع بنهضة سينمائية يعد فيلم "حب الماء كأنه شوكولاتة" دليلاً عليها . وجزء كبير من صناعة السينما فيها مشغول بإنتاج أفلام عنف وعرى للمتحدثين بالأسبانية شرقي لوس أنجلوس، وكذا تمثيليات تلفزيونية لشبكة تليفيزا الخاصة وكذلك للمنافذ الناطقة بالأسبانية للكيبل الأمريكي التي تنتشرانتشاراً سريعاً. وكما هو الحال فى فرنسا وغيرها من الدول التي تحتفظ بصناعة محلية، تعتمد صناعة السينما المكسيكية على الدعم الحكومي القوى (من جانب Cinematografica [IMICINE] de Mexicana Instituto)-وهذا تجديد من جانب الرئيس جورتارى Gortari قد يكتب له الدوام وقد لا يدوم ويفترض أنه ضد مبادىء التجارة الحرة . إلا أن صناعة السينما الإندونيسية تعد هي المعيار بين صناعات السينما القومية القوية وليست صناعة السينما المكسيكية . فالصناعة المحلية هناك تُحتضر أو "يعتصرها العملاق الأمريكي"، بتعبير الناقد فيليب شينون Philip Shenon .(30) ففي أكتوبر 1992 كانت ست وستون داراً من دور العرض في جاكرتا البالغ عددها إحدى وثمانين تعرض أفلاماً أجنبية . ولا تستطيع الدرر المحلية مثل "سمائي، وطني" الذى حصل على جوائز فى ألمانيا وفرنسا، بل (للمفارقة) فى أمريكا، أن تجد منفذاً للعرض فى إندونيسيا . ويكتب شينون قائلاً: "كان وجود هذا العدد الكبير من الأفلام الأمريكية سبباً فى اعتقاد جيل بكامله أن إندونيسيا عاجزة عن إنتاج أفلام عظيمة ." و قال مواطن إندونيسي فى التاسعة والعشرين من العمر (اسمه فرانكي بويوه Frnky Boyoh): "أنا وأصدقائي نشاهد دائماً أفلاماً أمريكية . فليست هناك أفلام إندونيسية جيدة ."(31)

والتدليل على تزايد إطباق تلك المسكة المميتة التي تأخذ فيها الأفلام الأمريكية بخناق سينما السوق العالمية لا يعني، بعد، التنبؤ بمجموعة محددة من العواقب الثقافية: فالتواجد واسع الانتشار فى السوق ليس مثله كمثل الأثر الحاسم . ورغم ذلك فالأفلام الأمريكية فى كل مكان–فوجودها على التلفزيون الكوني أشد بأساً من ظهورها على شاشات دورعرض العالم .[32] ووضعها هو وضع التسالي ولكنها قد توحي كذلك برؤية للحياة وربما أثَّرت على العادات والمواقف .[33] إن هوليوود هي حكواتي عالم ماك وهي تلقن العلمانية والسلبية والاستهلاكية وإنابة الآخرين فيما نحتاجه من أعمال وشراء مدفوع وإيقاع متسارع للحياة، ليس نتيجة لموضوعاتها الإباحية وخطوط قصصها الصريحة وإنما بناء على ماهية هوليوود وكيفية استهلاك منتجاتها . فالقصص التي تُروى لقبيلة تجلس حول النار، مهما كان مضمونها، تزيد من تماسك الناس بعضهم ببعض وتعكس وجود تراث مشترك . والقصص التي تمر عبر الفانوس السحرى وتظهر من جديد على شاشة السينما أو التلفزيون يُعَد لها سياقها الإعلامي الخاص بها . وتربط شركة ديزني للسينما وديزني لاند خيوط من حرير تنسج قصصاً أسطورية حول شخصيات الكارتون التي يبدو أنها تحتفي بالتعددية الثقافية حتى وهي تزيل الفوارق الحقيقية . كما يبدو أنها تحول المشاركة الفعالة إلى شكل من أشكال رياضة المشاهدين الوهمية . ويبدو فى الوقت ذاته أنها تحيل ما يُفترض أنه حب استطلاع شديد إلى استهلاك بليد ورجعي . وفى نهاية سنة 1993 افتتحت شركة أفلام وارنر برازرز ماأطلقت عليه محل ستوديو وارنر برازرز بنيويورك مصحوباً بقدر كبير من الدعاية، حيث يمكن للمرء أن "يكتشف أحدث تجربة فى نيويورك لتسوق الترفيه ." والآن نجد محال الاستوديوهات فى كل مكان . فعالم ماك تجربة تسوق تجمع كل من المراكز التجارية ودور العرض متعددة القاعات ومدن الملاهي وحلبات رياضات المشاهدين وسلاسل الوجبات السريعة (وصلاتها التي لا حدود لها مع السينما) والتلفزيون (بما له من شبكات تسوق تنتشر انتشاراً سريعاً) فى مؤسسة ضخمة واحدة تعيد تشكيل البشر فى سبيل الوصول بأرباحها إلى الحد الأقصى .

الكثير من الناس، وهم الأغلبية فى الدول المتقدمة، وأقلية تصعد نحو الأغلبية فى الدول النامية، يقضون الكثير من أوقاتهم كل يوم فى مستوطنة من مستوطنات العالم الجديد

التجارية التي يجرى "تخيل شكلها" imagineered (كما يحلو لأهل ديزني أن يقولوا) في هوليوود وما يدور في فلكها-أمام شاشة تليفزيون ، أو في دار عرض بأحد المراكز التجارية، أو أثناء مضغ وجبة طعام سريعة أثناء مشاهدة إعلان ترويجي لفيلم متصل بذلك، أو شراء قطعة من التحف المرخص صنعها . هذا الوقت يزيد كثيراً عما يقضونه في المدرسة ، أو الكنيسة أو المكتبة ، أو أحد مراكز خدمة المجتمع أو إحدى القاعات الخلفية السياسية ، أو إحدى دور العمل التطوعي ، أو إحدى ساحات اللعب . ومع ذلك فهذه البيئات السابق ذكرها هي وحدها التي يصدر عنها السلوك الفعال والمشترك وتطلب منا أن نصف أنفسنا بأننا أعضاء مستقلون في مجتمعات مدنية تميزها الثقافة أو الدين أو أية قيم عامة أخرى . وبينما يستسلم خبراء الكلام لأصحاب الخيال Imagineers ، يُدفع القراء الذاتيون المتعلمون والمواطنون العامون المشرعون على السواء للشعور كأنهم أنواع معرضة للخطر. ويبذل رئيس الكونجرس جنجريتش Gingrich جهداً كبيراً لجعل الحكومة تتوقف عن دعم القطاع الخاص، ولكن من ذا الذى سيجعل القطاع الخاص يتوقف عن دعم المجتمع المدني؟

ويناشدنا عالم ماك أن نرى أنفسنا على أننا أفراد ذاتيون ومنفردون يتفاعلون في المقام الأول عبر المعاملات التجارية، حيث تحل "أنا" محل "نحن" . كما أنه يسمح للشركات الخاصة التي لا مصلحة لها إلا في سيل العائدات المادية أن تحدد غيابياً الصالح العام لمن تخدمه من الأفراد والمجتمعات . فالنافتا-وهي استراتيجية عالم ماك الكونية في هيئته الأمريكية الشمالية-تخدم الأعمال التجارية الأمريكية خدمتها للأسواق العالمية وهي ولا شك سياسة معدة للمستقبل: إلا أنها لاتخدم المصالح العامة الأمريكية أو الكونية مثل التوظيف الكامل وتقدير العمل والاستخدام المدني الخلاق لوقت الفراغ الإجبارى وشبكات الأمن الاجتماعي وحماية المعاش التقاعدى ولا تقدر على ذلك . وسوف يقول المدافعون عن عالم ماك إن "السوق تخدم" الأفراد بتمكينهم من "الاختيار"، ولكن الاختيار يتعلق دائماً بالأصناف التي تُشترى تُستهلك ولا يرتبط بالمرة بالشراء والاستهلاك وعدمهما، أو بالحق في كسب الدخل الذى يجعل الاستهلاك ممكناً، أو بكيفية تنظيم الاستهلاك واحتوائه كي لا يبتلع المصالح العامة الأكبر التي لا يمكن الارتقاء بها في غياب المؤسسات العامة

الديموقراطية . ويكمن التمكين فى سوق عالم ماك الكونية فى اختيار مايوضع على حبة بطاطس مشوية: أما ما دون ذلك فهو استهلاك سلبي . وعندما يصبح الربح المعيار الأوحد الذى نقيس به أى مصلحة وكل نشاط وكل موقف وكل منتج ثقافى، فسرعان ما لا نجد سوى الربح المادى . وفى إمبراطورية السوق يصبح بلطجية المال أمراء ويكون السخاء ملكاً .

وتحتل الأفلام مكانة رئيسية فى أيديولوجية السوق . فمشاهدتها تكشف عن ذلك التماثل الذى يعم عالم ماك ، ويبدو خانقاً مثل "الأثير" الخفى الذى كان الناس فى وقت من الأوقات يعتقدون أنه يغمر الكون بكامله ، وأنه أعطاه تلك البنية التحتية التي جعلت فيزياء نيوتن تلقى القبول . لتدخل كنيسة بروتستانتية فى إحدى القرى السويسرية أو مسجداً فى دمشق أو الكاتدرائية التي فى ريمز أو معبد من المعابد البوذية فى بانكوك . فرغم أنك فى كل مرة تزور مكاناً للعبادة يشترك مع غيره فى كونه يفوح بعبير التقوى والورع، سوف تعرف وأنت تنتقل من موقع ديني إلى آخر أنك فى ثقافة مميزة عما سواها . وبعد ذلك اجلس فى لوج واحدة من دور العرض متعددة القاعات–أو قم بزيارة لحلبة من حلبات الرياضات التي يشهدهاجمهوركبير ، أو لفندق حديث، أو لمؤسسة للوجبات السريعة فى أى مدينة من العالم على السواء– وحاول أن تحدد أين أنت . إنك لست فى أى مكان . فأنت فى كل مكان. موجود فى تجريد . تائه فى الفضاء الإلكترونى . إنك تطارد جزيئات الصور pixels فى جهاز نينتندو: العالم المحيط بك يتلاشى . إنك أمام شبكة إم تي فى أو فيها: الصور الكونية تشن هجوماً على العيون وتنافر الأصوات يشن هجوماً على الأذان فى صخب يجعل القلب يخفق بشدة ، ويخبرك بكل شئ عدا فى أى البلاد أنت . أين أنت؟ إنك فى عالم ماك .

اذهب إلى أحد المسارح التي تقدم عروضاً حية ، وخلال بضع ثوان من رفع الستار سوف تعرف بدقة فى أى إقليم وأية مدينة وأية ثقافة أنت . شاهد التلفزيون لعدة أيام وقد تظل بلا أى دليل يبين لك على أى الكواكب أنت–اللهم إلا إذا كان كوكب ريبوك . هناك اختلافات أسلوبية فى محال ماكدونالدز فى موسكو وفى بودابست وفى باريس وفى لندن يمكن أن تميزها عن امتياز ماكدونالدز الأصلي الذى افتتحه راى كروك Kroc Ray فى دى بلين بولاية الينوى سنة 1955 . ولكن دقق النظر قليلاً ، وسوف تتلاشى الاختلافات الصغيرة ولا يبقى سوى القوس الذهبى، ذلك الشبح الوهمى الذى لا يغيب عن ناظرينا حتى

فى الشانزليزيه بباريس، حيث لم يعد مسموحاً بعرضه الفعلي . لقد تحقق "العالم الذى ليس فيه إلا صورة واحدة" كما تنبأ المدير ألان كورنو Alain Corneau ..

والواقع أن الفضاء الإلكتروني داخل إحدى مؤسسات الوجبات السريعة ، أو حتى دار عرض سينمائية ، نوع من المجاز . ولكن عندما يتصل الأمر بالتلفزيون ، يكون الفضاء الإلكتروني هو الواقع بشكل وهمي-أى الواقع الوهمي .

الفصل السابع

التلفزيون وإم تي في:
روح عالم ماك الصاخبة

الأفلام هي برامج عالم ماك المفضلة . غير أن التلفزيون وليس السينما هو وسيلته المحببة . فبالتلفزيون يصبح تحرك عالم ماك مباشراً، حيث يواجه كل من الفرد الجالس مع نفسه والفضاء الإلكتروني الآخر مواجهة باشرة مكثفة-وتكون الشاشة الوسيلة (المباشرة) الصحيحة التي لا وسيط دونها .[1] وبينما تتميز السينما بأنها محدودة بالزمان والمكان، نجد أن التلفزيون تذكرة دائمة لمشاهدة الأفلام بلا توقف فى أى زمان وأى مكان . إنه نافذة خصوصية تطل على عالم ماك-حيث تتيح الاتصال الشخصي، عبر أجهزة الكمبيوتر والأقمار الصناعية والكيبل وخطوط التليفون، بمصادر المعلومات ومجموعات البيانات ومراكز التسويق والمنشآت المصرفية وشبكة الإنترنت التي ذاع صيتها هذه الأيام-ذلك البحر المتلاطم من أجهزة الكمبيوتر المتصلة ببعضها ولوحات النشرات التفاعلية وألعاب الفيديو وبنوك المعلومـــــات ومسوقي الفيديو والمستخدمين العاديين الذى سوف يحل (حسبما قيل لنا) بصورة أو بأخرى محل كل صنف آخر من أصناف التفاعل فى حياتنا. إننا نرى طريق المعلومات السريع على أنه طريق للانتقال من مكان إلى آخر . ولكن الصناعة تهدف إلى استبدال تنوع السيارات بصرامة القطارات الإلكترونية . ولذلك أبلغ راى سميث Ray Smith رئيس شركة بيل أطلانتك الصحفيين فى المؤتمر الصحفي الذى أعلن فيه فشله فى الاستيلاء على شركة تي سي آي، وهي أكبر شكات تشغيل الكيبل فى أمريكا:" نحن نوفر مرونة السيارة . سوف يمكنكم الذهاب حيثما شئتم وقتما تريدون ."[2] ولكنه كما هو حال الجوالة والمغامرين واللصوص فى الماضي، قد لا يعرف كثيرون منا إلى أين نريد الذهاب على وجه الدقة . وقد ينتهي بنا الأمر بالإقامة على الطريق قانعين بالسير على الطريق كما كان راكبو الدراجات النارية المنفردون يسيرون على الطريق رقم 1 يقطعون أمريكا طولاً وعرضاً دون الذهاب إلى مكان بعينه . أو إذا أردنا تشبيهاً أقرب، مثل شاشة السينما لشاشة الكمبيوتر المتصلة بالطريق الإلكتروني السريع كمثل الطائرة للطائر.

فالطائرة تفعل شيئاً واحداً بطريقة جيدة: إنها تطير من النقطة أ إلى النقطة ب وعليك أن تعرف بدقة أين تريد أن تذهب وموعد ذلك . والطائر يفعل ذلك أيضاً، ولكن يمكنه أن يبني عشاً، وأن يرقد على البيض، وأن يبحث عما يطعم به صغاره، وأن يهبط على أى سطح أينما كان، وأن يحلق فى الفضاء، وأن ينقض، وأن يسقسق، وأن ينقر وأن ينبش . وليس مطالباً بأن يكون له مقصد محدد . وشاشات السينما تعرض أفلاماً، لا أكثر ولا أقل . أما التلفزيون فجهاز نقال على طريق المعلومات السريع، وبطريقته الإلكترونية الخاصة يحلق فى الفضاء وينقض ويسقسق وينقر وينبش .

وعندما تعرض الأفلام على الشاشة الكبيرة فى إحدى دور العرض فإنها لا تصل إلا إلى نسبة مئوية صغيرة من سكان العالم لفترات زمنية معينة ومحدودة بعض الشيء . أما الأنظمة التفاعلية الجديدة فسوف تسمح للمستفيدين بطلب الأفلام-الترفيهية والمعلوماتية، الخاصة بالمعلومات الصعبة والإباحية، المسلية والعملية-وجميعها تحت الطلب لكي يتمكن أى إنسان من مشاهدة أى شئ وشراء أى شئ فى أى وقت يختاره . وبذلك يحتمل أن تتحدث الأفلام من خلال التلفزيون إلى كل شخص على وجه الأرض أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم .(3)

وبما أن السينما والتلفزيون يتبعان استراتيجيات برامجية مشتركة فقد زاد احتكار هوليوود الإبداعي للمادة: الواقع أن أمركة التلفزيون الكوني تمضي بمعدل أسرع من عولمة الأفلام الأمريكية . ففي إنجلترا التي كانت كرة القدم والكريكت فيها يسودان رياضات عطلة نهاية الأسبوع فى يوم من الأيام، يشاهد المشاهدون الآن مباراة الأسبوع NFL . بل إنه فى فرنسا برنامج كرة قدم أمريكية jeu de semaine ومعه مذيع أمريكي المولد يمضي وصفه اللاهث للمباريات، الذى يقدمه بلكنة أمريكية فيها رداءة متعمدة، وفيه سحر اليانكي الواثق من نفسه مع عبارات

Regardez le quarterbacksneak de Dan Marino ca marche vraiment, n'est-ce pas ?! alors finesse quelle En, oui, je, suis etonne ! Touchdown ! Tiens Quelle jeu ! Quel grand show !

وحب الإنجليزية الذى يميز قدراً كبيراً من الثقافة العليا الأمريكية يشارك فيه البريطانيون فى الثقافة الدنيا . فعلى شاشة التلفزيون، هوليوود هي النموذج من خلال محاكاة Gladiators (المصارعون) وأوبراه Oprah (فى شخص كريستال روز Crystal Rose) وبرنامج مجلة الشباب The Word المفتون بكل ما هو أمريكي بطريقة تثير الضحك وهو يقدم تحقيقات صحفية عن شخصيات مثل لاعب كرة السلة النجم شاكيل أونيل Shaquille O' Neal ونجم العرى جيف سترايكر Jeff Stryker وشرطي من ألبوكيركي أُجريت له عملية لزيادة حجم قضيبه (وإن كانت الكاميرا لم تنقل ذلك، بكل أسف) .[4]

وتجرى أوروبا الشرقية وراء جاراتها غرباً فى سباق اللحاق بأمريكا فى التلفزيون إلى جانب كل شيء آخر . وطبقاً لما ذكره الصحفي المجرى ميلوش فاموش Milos Vamos "يحاول المجريون والتشيك والبلغاريون محاكاة كل ما هو أمريكي–وأعني كل شيء. ... لم يعد هناك وجود لنظام الثقافة الذى تموله الدولة، غير أنه لا وجود لأى شبكة من المؤسسات وغيرها من الصناديق الخاصة التي يمكن الاستفادة منها لدعم الفنون والآداب، كما هو الحال فى الغرب . ولا يمكن لأفلام أوروبا الشرقية وأدبها أن تنافس مثيلاتها الأمريكية . وإذا استمر الحال بنا على هذا الوضع، سوف تفقد بلادنا الصغيرة ثقافاتها القومية شيئاً فشيئاً ."[5] وفى بودابست يشاهدون إعادة لبرنامج The Cosby Show –وإن كان مدبلجاً باللغة الألمانية لأن الدوبلاج المجرى ليس متوفراً بعد . وفى روسيا يلتسين يمكن لمشاهدى التلفزيون تقليداً لبرنامج Wheel of Fortune [عجلة الحظ] اسمه "ميدان العجائب" يحصل الفائزون المحظوظون فيه على أجهزة فيديو سوني يمكنهم أن يضعوا فيها ما لديهم من أشرطة فيديو تحمل نسخاً لأفلام أمريكية شائعة الانتشار نُسخت بطرق غير مشروعة .[6]

أما حال بولندا فأفضل، إذ أنها على اتصال ببرنامج Wheel of Fortune نفسه (مدبلجاً باللغة البولندية) إلى جانب نسختها هي المرخصة من Kolo Fortuna التي يشاهدها 70 بالمائة من الأسر البولندية مساء كل خميس . كما أن خمساً وعشرين بالمائة من الأسر البولندية تتصل بالكيبل أو القنوات الفضائية بتكلفة معتدلة نسبياً .[7] وعندما يصطدم الجهاد وعالم ماك على شاشات التلفزيون ، فهناك شك ضئيل بشأن من سيفوز:

ربما تؤكد الكنيسة الكاثوليكية وجودها فى مجالات مثل الإجهاض (المحظور فى بولندا منذ 1992) وقد تكون الشيوعية فى سبيلها للعودة سياسياً، ولكن التلفزيون الأمريكي يكسب الحروب الثقافية بسهولة ويسر . وقد اعترفت الكنيسة بذلك . وهي تعلن فى أماكن أخرى من أوروبا على شبكتي فى اتش وان وإم تي فى داعية للدخول فى سلك الكهنوت، الذى يُعد شكلاً جديداً من أشكال الهدوء العقلى الآمن .

وفى آسيا، حيث لم تتح الظروف المادية بعد توصيل الكيبل أو الألياف الضوئية للمنازل، تزحف القنوات الفضائية زحفاً كبيراً . وتصل شبكة القنوات الفضائيـة الأسيوية (ويملكها مردوخ فى الوقت الراهن) مئات الآلاف من الهنود الميسورين المتلهفين إلى البضاعة الغربية . وتنتشر أطباق القنوات الفضائية فى الصين كذلك، فيما يعد تجاهلاً صارخاً لقوانين الدولة التي تحظر استعمالها تمشياً مع الحرب على*"التلوث الروحي" . وفى سنة 1993 منع إعلان مجلس الدولة شراء الأطباق واقتناءها . ورغم ذلك ركّبها الملايين من الخارجين إلكترونياً على القانون وتشير التقديرات الحالية إلى أن مايربو على نصف المليون "خيط سماوي" (وهي الترجمة الحرفية لكلمة هوائي القنوات الفضائية بلغة الماندرين) يربط 15 مليون مشاهد بجانب من جوانب الرأسمالية لا يتعجل النظام الحاكم الترويج له . ويتخذ رئيس الوزراء لي بنج Li Peng خطاً متشدداً فى كلامه، غير أن أحداً لم يقم حتى الآن بإزالة أية أطباق ومن الصعب أن نتخيله يكسب حرباً ضد عالم ماك، خاصة وأنه يسعى حثيثاً فى مجالات اقتصادية أخرى للحاق به .(8) ومع ذلك فلديه سبب وجيه للقلق، ذلك أن مايراه الصينيون بعون من أطباقهم ليس سوى بضاعة غربية صرفة تشمل بي بي سي وسي إن إن وإم تي فى و شبكة رياضية باللغة الإنجليزية . ولم تغرالتوقعات غير المشجعة، الخاصة بمحاولة إيجاد برامج ملائمة للهند والصين، شركات الاتصالات التي تخدم آسيا على التنويع. وعلى العكس من ذلك نجد أنه بينما تمضي مساحة المشاهدين وقنوات التوزيع فى التزايد والتعدد والأسواق فى الاتساع، تزداد الرسائل والمنتجات التي تخرج بأعداد وفيرة تجانساً . ويهتم موردو القنوات الفضائية التجاريون فى أى حالة بالأرباح لا بالسياسة. فلم يجد روبرت مردوخ Rupert Murdoch غضاضة فى سحب برنامج بي بي سي الإخبارى من ستار تي فى إرضاء للحكومة الصينية .

وظهرت شبكة ستار للقنوات الفضائية التي تتخذ من هونج كونج مركزاً لها أول ما ظهرت كشركة أسيوية مستقلة منافسة للشركات الغربية، غير أن أربعاً من قنواتها الخمس تبث برامجها باللغة الإنجليزية . ومع اقتراب سنة 1993 من نهايتها بيعت لروبرت مردوخ بما يزيد قليلاً على نصف المليار دولار . ويمتلك مردوخ استرالي المولد أمريكي المنشأ، فى أمريكا وحدها، فوكس تليفيجن وشركة فوكس للقرن العشرين ومجلة تى فى جايد وشركة هاربر كولينز للنشر وصحيفة نيويورك بوست . وعلاوة على إمبراطوريته الكونية للصحف والمجلات، يسيطر كذلك على فوكس تليفيجن إلى جانب حصة قدرها 50 بالمائة فى بريتش سكاى برودكاستنج (وهي أكبر شركة بث للقنوات الفضائية فى أوروبا): وبوجود ستار تي فى فى جيبه، يضيف ثلاثاً وثمانين دولة أخرى تضم مشاهدين محتملين يقدرون بثلثي سكان العالم.[9] ويعني هذا أن عدة مليارات من الآذان الأسيوية مشدودة نحوه . ومع ذلك فإن الشئ الوحيد الذى نعرفه عن نوايا مردوخ هو أنها لا تشمل الحفاظ على الثقافات المحلية ولا الاستخدامات الديمقراطية والمدنية لشبكات وسائل الإعلام والاتصالات . قد يبدو بمثابة تهديد للصين التي تُحظر فيها أطباق القنوات الفضائية (بينما يصنعها الجيش وتستخدم على نطاق واسع)-كما هو الحال فى سنغافورة . ولكن مردوخ وافق على سحب أخبار بي بي سي العالمية من ستار مقابل تقليل المقاومة الصينية . وربما فعل ذلك وهو يعلم أن إم تي في، وليس سي إن إن أو بي بي سي، هي حصان طروادة الحقيقي الذى يستخدمه عالم ماك فى الثقافات الغربية والدول المعادية .

أشرطة الفيديو الموسيقية-روح عالم ماك الصاخبة

تقدم إم تي فى صورة ساحرة للتغيرات السريعة التي وفرت لتلفزيون أمريكا وموسيقاها سطوة على المشاهدين . ولم يولد تلفزيون الموسيقى إلا سنــــة 1981 وهو (لسخرية القدر) من ذرية فن الأداء والتلفزيون التجريبي على هامش الثقافة . إنه من صنف ذلك العمل الذى يقدم فى استوديوهات الأداء الإبداعي مثل Kitchen [المطبخ] فى نيويورك . وخلال خمس سنوات كانت شبكة إم تي فى قد أصبحت عملاق الاتجاه السائد ودفعت بمالكتها شركة فياكوم إلى دائرة الضوء الإعلامي التي استطاعت منها أن تلتهم سلسلة عريضة من المنافذ الإعلامية المنافسة . وعندما انتزعت مالكتها فياكوم، وصاحبها

سمنر ردستون Samner Redstone ، الانتصار فى الحرب من أجل الفوز بباراموينت من شبكة كيو فى سي للتسوق التلفزيوني، وصاحبها بارى ديلر Barry Diller ، خرجت فياكوم كواحدة من أكبر شركات الإعلام الضخمة فى العالم . وفى الوقت نفسه استمرت كيو فى سي كمركز تجارى تلفزيوني رغم ماألحقته بها فياكوم من هزيمة . ولكن أكبر مركز تجارى إلكتروني فى العالم ليس تلفزيون الشبكة ولا شبكة التسوق، وإنما إم تي فى نفسها الموجودة كأداة تسويق خالصة لصناعة الموسيقى . وطبقاً لما كتبه جون سيبروك John Seabrook فإن "أحد أسباب كون إم تي فى علامة بارزة فى تاريخ وسائل الإعلام هو أن الحد الفاصل بين الترفيه والإعلان قد اختفى اختفاء تاماً ."[10]

وبحلول منتصف الثمانينيات ، عندما استخدمت مجموعة داير ستريتس إم تي فى لطرح عملها الذى حقق نجاحاً ضخماً، وهو Money for Nothing (بصلاته الخفية التي يكتنفها الغموض)، كانت إم تي فى قد صارت عالمية . وفى مستهل سنة 1993 بلغ عدد مشاهديها الكونيين حوالي ربع مليار أسرة (بينها 60 مليوناً من الولايات المتحدة) تضم مايربو على نصف المليار مشاهد فى إحدى وسبعين دولة (انظر الخريطتين ص وص). وتتزايد الأرقام يوماً بعد آخر لتتفوق على سي ان ان، التي تتباهى بعدد من الأسر المشاهدة يقل كثيراً عن ذلك وتخاطب جيل الأمس الذى تعدى الأربعين وليس جيل الغد وهو تحت الثلاثين . وبدأت إم تي فى أوروبا إرسالها فى ألمانيا الشرقية قبل يومين من سقوط سور برلين، وهو ما يكاد يجعل ذلك الحدث من نافلة القول، إذا نظرنا للأمر نظرة ملتوية .[11]

وبرامج إم تي فى باللغة المحلية متوفرة في معظم الدول . ولكن رغم أن أورلاندو باترسون Orlando Patterson يود الاعتقاد بأن "التجانس الموسيقي العالمي لا يحدث" بكل بساطة، فالمشاهدون الشباب غالباً ما يفضلون الموسيقى الأمريكية، وهي أولاً وأخيراً ما تروجه إم تي فى . ويبدو سامنر ريدستون، صاحب إم تي فى الذى يبلغ عمره ثلاثة أضعاف متوسط أعمار العاملين فيها، مثل زيين رئيس مجلس إدارة جيليت عندما يصر على أن "الأطفال فى الشوارع فى طوكيو يشتركون مع الأطفال فى شوارع لندن أكثر مما يشتركون فيه مع آبائهم".[12] وفى بلجيكا أُلغي برنامج باللغة الفلمنكية من برامج إم تي فى

وحل محله آخر بالإنجليزية بسبب شكوى المشاهدين الفلمنكيين المحليين .[13] وتمثل موسيقى البوب الأنجلوأمريكية معظم موسيقى إم تي في . وبينما تحصل الفرق المحلية على وقت من البث ، فإنها فى الغالب تحاكي الأمريكيين . ويشكو الناقد هيلموت فيست HelmutFest من أن الفرق المحلية الأوروبية التي تظهر فى إم تي فى ملتزمة بـ"حيز الجيتو-وهو أحد أشكال مذهب ,انظر كم يتسم هؤلاء الأوربيون الغرابة, " .[14] وفى برلين، إذا مللت مشاهدة إم تي فى يمكنك كذلك مشاهدة أفضل الفرق الموسيقية فى برنامج ديفيد ليترمان David Letterman ، واسمه : Late Night على قناة أخرى .

وتتظاهر آسيا بأن لها أسلوبها الخاص، ثم ماتلبث أن تسير فى ركاب أمريكا . وتسعى شبكة التلفزيون الأسيوية (ايه تي ان) الجديدة من الناحية الاسمية إلى الحفاظ على الثقافة . وقد بدأت أول شبكة تذيع كل برامجها باللغة الهندوستانية فى شبه القارة، ولكنها فى الوقت ذاته تبث برامج إم تي فى أوروبا كي تنافس غريمتها ستار .[15] ولدى ستار نسختها الأسيوية من إم تي فى (بما فيها من أغنيات أمريكية كثيرة) . وبذا يمكن للهنود والباكستانيين والماليزيين أن يختاروا الآن من قناتي إم تي فى "المحليتين" اللتين تقدمان نفس البضاعة الأمريكية الشعبية اللطيفة-أو تقليدها المحلي . فما أن توجد وسائل الإعلام الحديثة فى مكان ما، بغض النظر عن نوايا المستفيدين المحافظة، يصبح الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام العالم الخارجي .[16]

و جمهور إم تي في، المتحد رغم اختلافاته الأيديولوجية والمقاومة الثقافية من جانب الأقمار الصناعية و ألوان بنيتون المتحدة، لايشمل تايوان وحدها وإنما الصين كذلك، ولا إسرائيل وحسب، بل إيران والمملكة العربية السعودية، ويضم جورجيا الرجعية مثلما يضم المجر التقدمية، والبرازيل بما لا يقل عن المكسيك، وبنجالاديش وفيتنام إلى جانب الهند وهونج كونج، وكوريا الجنوبية معها كذلك كوريا الشمالية (انظـر الخـريطتين ص وص) . الأقمار الصناعية لا تعطي اهتماماً كبيراً للجهاد وهي رسل عالم ماك فى أشد الجيوب العرقية عناداً . ويعترف شاب مسلم يكاد يصاب بالهستيريا لإحدى الصحف الإيرانية قائلاً "لم أعد قادراً على الاستذكار . فقدت صرت ملولاً وضعيفاً وقلقاً . أشعر أني

مشلول ... كم هي سوقية ومغرية" صور التلفزيـــون الغربـــــي وإم تي فى التي تُبث من الأقمار الصناعية .[17]

ويشعر الأمريكيون ، الذين ينتقدون أنفسهم، بالقلق من "الاستعمار الثقافي" لإم تي فى .[18] ولكن عندما تُحذر الأهداف المفترضة فى أوروبا الشرقية فإنها لا تلقي بالاً للتحذيرات وتصر على أن موسيقى الروك تتعلق بالحرية-فهي سلاح ضد كل من الشيوعية والقوميين الجدد . والواقع أنهم مصيبون على المدى القريب: ففي بلجراد الرجعية الحالية (صربيا) تذيع محطات الإذاعة المنشقة مثل B– 92 موسيقى الروك الغربية للإعراب عن ازدرائها للإقليمية العرقية الضيقة، مثلما كان المنشقون الروس فى يوم من الأيام يرتدون الجينز ويدخنون سجائر ونستون ويتحدثون بلغة الروك مع السلطة لإثارة أعصاب سادتهم الشيوعيين . ومنذ سنوات قليلة مضت كان بيل ريدى Bill Roedy مدير إم تي فى الأوروبي يكتب عن "كوننا جزء من التحول الديمقراطي فى أوروبا الشرقية" . وقد ذكر بحماس أن إم تي فى "أكثر من مجرد قناة تلفزيونية . فنحن بالنسبة لبعض المشاهدين حلقة الوصل التي تربطهم بسائر العالم . إننا نافذة على الغرب بما لدينا من تدفق للمعلومات وحرية تعبير ."[19] حرية تعبير، ربما، ولكن أية "معلومات"؟ وأى "تحول ديمقراطي"؟ وجماعات العنف العرقي الألمانية تستمتع هي الأخرى بموسيقى البوب . وأنشأ مؤيدو فلاديمير جيرينوفسكى Vladimir Zhirinovsky زعيم الحزب الديمقراطي الحر القومي المتشدد فى روسيا (وهو أبعد ما يكون عن الحرية والديمقراطية) "محل جيرينوفسكى لموسيقى الروك" من أجل "عشاق موسيقى الهــــارد روك المؤمنون بقضية القومية الروسية" .(20).

وفيديولوجيا عالم ماك لها بلاغتها التي يصعب فهمها . فقد كان السادة القدامى طغاة يراهم الناس وليس هناك أدنى شك فى عدم شرعيتهم . أما السادة الجدد فلا يراهم أحد ويغوون الناس بأغنيتهم عن الأسواق التي يردد فيها كل كورس اسم الحرية . وربما يكون هذا هو السبب فى أن السلطات فى صربيا لا تتغاضى عن B– 92 فحسب ، بل إنها تخصص مساحة لبث برامجها على موجات الإذاعة الرسمية . ويصر مديرو المحطة على أن تترك المحطة فى حالها كي تثبت السلطات للغرب ما لها من "ليبرالية" . ولكن قد تدرك

هذه السلطات قلة ما يمكن أن تفعله موسيقى الروك لخطها السياسي وبرامجها الإمبريالية . وإم تي فى تقدم العون لحرية ... من نوع واحد . فمن المؤكد أنها مفيدة لذلك النوع من الاختيار المتعلق بالاستهلاك . إلا أن كونها مفيدة للحرية المدنية بأية صورة من الصور أم لا، فهذه مسألة مختلفة تمام الاختلاف . إنها تجرى أحاديث مع الرئيس كلينتون Clinton وترعى حملة تسجيل وتصويت دورية للشباب باسم " Rock the vote " . وكأى من معلني الأغنيات الآخرين، تلعب لعبة قد يخطيء المتشائمون ويظنونها نسخة تفتقر إلى الإخلاص من النزاهة السياسية .

ويقول آخرون بأن مثل هذا الجدل يبالغ فى التعامل بجدية مع إم تي في: وهؤلاء يرفضون الشبكة بوصفها "empty-V " [فارغة]-حيث الموسيقى التي ليس فيها أى ذكاء وتخص جيل ما قبل سن المراهقة، الذى سيتركها يوماً ما إلى البي بي سي والسي ان ان والإن بي سي . ومع ذلك نجد أن إم تي فى لا تشارك فحسب فى فيديولوجيا عالم ماك بل تولدها . ويتساءل منتج روسي إن كانت الحياة الثقافية فى هوليوود أفضل من الحياة فى ظل الستالينية القمعية، ثم يعلق قائلاً:"كنت من قبل مضطراً لخداع الرقيب . أما الآن فأنا مجبر على البحث عن المال والمواد بنفسي ... وبدلاً من أن يكون للكاتب أو الفنان تأثير مبجل ومسيطر أصبح مجرد منتج للقيم الثقافية" .(21)

وخلق القيم الثقافية اللازمة للاستهلاك المادى أول واجبات تشغيل عالم ماك . ومنذ ثلاثين سنة مضت كانت مخلوقات المبيعات فى ديزني تغني لزوار مدينة الملاهي "إنه عالم صغير، على أية حال" . والآن ضاع صوت العالم المستصغر وسط موسيقى البيفيز والبات-هيد والهيفي ميتال . أما موسيقى الراب قاتلة الشرطة فتهمس لمستمعيها ممن دون العشرين فى أنحاء المعمورة قائلة إن قتل الشرطة أمرضروري، وإن ازدراء النساء شيء رائع، وإن التقدم فى السن مسألة غير ضرورية-وإن كان مسئولو التسجيل فى شركة بي سي يؤكدون لنا أن أحداً لا يعني ما يقول بحق . والشيء المؤكد أن إم تي فى وسيلة إعلامية معقدة لها عديد من الرسالات: فهي دون أن تدرى تقدم ومضات تمجد الحرية وتزدرى السلطة (وبذلك تلقى قبول حركات المقاومة)، وهي تحفز الاستهلاك (فتحظى باهتمام المعلنين)، وتعزز الهوية (نحن العالم ،) حتى وهي تبرز الاختلافات (ألوان بنيتون غير

المتحدة)، وتغازل بعنف وتمارس رياضة جنسية (وحشية أحياناً) (النساء "عاهرات وساقطات" والرجال ماكينات نكاح) . إنها تحتفي بالشباب وتشجع ذلك النسيان الصبياني دوماً الذى يُعَرِّف الحياة من خلال أسلوب اهمال الواجبات على أنها استهلاكية سلبية . وبقدر أكبر من اللاوعي تتورط فى حملات سياسية ليست عميقة وإن كانت على قدر من الاتساع وتتميز بأنها ليبرالية تُمَكِّن بصورة تتسم بالغموض، رغم كونها معادية للثقافة فى كثير من الأحيان، بل وتجلب الفضائح فى بعض الأوقات (كما هو الحال بالنسبة للبلاك راب والهيب هوب)، ولكنها فى نهاية الأمر سطحية مثل كلمات معظم أغنياتها الفاضحة والمنحازة بطريقة بلهاء .[22] إنها تلقي صيحة "Rock the vote " (اقلبوا موازين التصويت) وهي تلف مادونا Madonna بأحد الأعلام وتحث الشباب على التسجيل . عيشوا المعونة، حرروا عقولكم، اختاروا وإلا خسرتم-موسيقيو الروك يلينون العضلات السياسية المتخلفة باسم قضايا على قدر من الأمان والكونية ، بحيث تحدث الحملات ضرراً بسيطاً، وإن كانت نادراً ما تأتي بخير كثير كذلك . .

والشيء المؤكد أن المضمون السياسي ليس بحال من الأحوال مسألة مبدأ متعمد يحرصون عليه فى إم تي فى . الموضوع بالأحرى مسألة جماليات وذوق-ولتسمها نزوة الهيب هوب . فى صيف 1993 عندما بدأ شبان نيويورك الجامحون يتحرشون جنسياً بالفتيات فى مسابح المدينة المزدحمة، دعا العمدة ديفيد دينكنز David Dinkins فرق الراب إلى التغني بكلمات لينة وشاعرية مثل "Don't dis your sis" [لاتزعج أختك] .[23] وكلمات الأغاني يمكن أن تروج للحب أو الكراهية، ويمكن أن تدعو لحسن الجوار أو تحث على القتل، ويمكنها أن تدعو إلى عالم واحد، هو "نحن"، ويمكن أن تثير الخوف المرضي من الأجانب أو الشرطة أو السود أو البيض أو حتى اليهود (ذلك الخيار القديم) . وفى نفس اللحظة التي كانت فيها مادونا ترتدى علماً لقلب موازين التصويت كان أحد مغنيي الراب من منطقة الكاريبي يحث المستمعين على قتل الشواذ جنسياً، بينما كانت فرق حليقي الرؤوس فى ألمانيا تتمايل على إيقاعات كراهية الأجانب المعدلة . ويغني مغني الراب المشهور دكتور دري Dr . Dre للمستمعين المستغرقين: "Ratt-a- at-tat a and tat like that/Never hesitate to put a nigga on his back " . ويغني جاست -آيس

Just-Ice، وهو في شهرة دكتور دري، عن "حزم العيدان" و"العاهرات" وكيف أنهن عندما يرين "جاست آيس" يقترب "يذهبن قبل أن ينالهن ألم ...رصاصة أو هراوة/عليك أن تختار".

ومع ذلـك فكلمات الأغاني ليست هي بيت القصيد فى آخر الأمر (حاول فقط أن تتبعها): يظن مغنو راب العصابات gangsta rappers أنهم يستغلون موسيقى الروك ليتخذوا شكل الثقافة الرسمية . ولكن الواقع أن الثقافة الرسمية هي التي تملكهم موسيقياً وشكلاً ومضموناً وهم من يجرى استغلالهم . والمسألة ليست كلمات أو حتى موسيقى، وإنما الصور بالطريقة التي تجسد بها الموسيقى والخداع الضخم الذى يصاحب الصور . إم تي فى تتعلق بالأشياء الأمريكية الرائعة والمثيرة وبالموضة والاتجاهات حيث لا شيء كما يبدو لنا وحيث "السيء" جيد والحبيبات عاهرات والقتل يُحْيى وحيث السياسة لا أهمية لها بينما الصور هي السياسة . ويحاول فرانك بيوندى Frank Biondi المدير التنفيذى لشركة فياكوم التي يملكها ريدستون وفازت فى معركة الحصول على بارامونت سنة 1994 وتمتلك إم تي في، أن يقدم تفسيراً فيقول: "ستكون هناك أفلام لإم تي فى ومنتجات لإم تي فى . لما لا ؟ ترون أن ديزني تدخل مجال الرحلات البحرية . ربما تكون هناك رحلات بحرية لإم تي فى ومناسبات خاصة بإم تي فى . إن مهمة إم تي فى مرتبطة بالجمهور، بجيل إم تي فى ... نحن نرغب فى تقديم وجهة نظر لجيل إم تي فى . لماذا تقرأ التايمز بينما يمكنك أن تحصل على المعلومات نفسها على شاشة الكمبيوتر؟ لأنك ترغب فى وجهة نظر، وتريد إحساساً . وهذا هو مانبيعه ."[24] ومن الصعب أن نعرف على وجه الدقة كيف سيكون تأثير جو البيع بترويج موسيقى الروك فى أمريكا أو على المائة ثقافة التي يستمع شبابها إليها حالياً، فيما يتعدى مجرد الاستهلاك . ومن السهل إدانة كلمات الأغاني التي تنضح بالكراهية، ولكن بينما ينتهي الأمر بالكثير من الموسيقيين إلى الاعتداء والاغتصاب، بل والقتل، على أوراق الراب (rep sheets) فإن مثل هذه الكلمات ليست وراء ذلك الواقع الوحشي الذي تعكسه أو تقدمه فى صورة كاريكاتيرية . ومن الواضح أن توليد الفوضى والوحشية ليس ما يظن مسئولو إم تي في، الذين يتحدثون عن ترويج "الحرية والتحرر والإبداع الفردى والمتعة غير المقيدة والأمل فى مستقبـل أفضل بكثير" ، أنهم يقومـون به .[25]

وهناك حاجة ملحة إلى إجراء تحقيقات موسيقية شديدة الوضوح . فرغم عجزنا المحتمل عن التنبؤ بالتأثير النهائي، يتضح لنا أنه سيكون هناك تأثير لا يرتبط بكلمات بعينها . وربما يكون ذلك وبالاً على آمال الأمم الدول التقليدية، التي تسعى إلى ضمان رفاهيتها والحفاظ على ثقافاتها القومية، وسياساتها العامة التي تريدها . ولا ترتدى إم تي البنطلونات الجلدية ولا بلوزات الفلاحين . كما أنها لا تتحدث اللغة الصربو كرواتية ولا اللغة الصينية . ولا تعبد بوذا ولا المسيح . وهي لا تعير اهتماماً للأسرة ولا الدولة . إنها فى النهاية تتعامل فى الدولارات والربح هو الفيصل . وقد ينتهي الأمر بمن يغنون الروك والراب فى السجن، ولكن شركات التسجيل ومحطات الكيبل تمضي فى جنيها للأموال .[26] وكما قال روبرت شير Robert Scheer أثناء مناقشة ما ألم بمايكل جاكسون مؤخراً "الواضح أن (جاكسون) ليس صبياً ولا رجلاً بل منتجاً . وفيما عدا خمس من سنوات عمره الخمس والثلاثين يُسَوِّقه بحماس شديد بالغون جشعون كانوا يتغاضون عن أفعاله الشاذة، طالما أنها كانت قابلة للتسويق ".[27]

ويبدى بعض المراقبين ثقة تتسم بالسذاجة فى صفة التلفزيون الشعبية فى أساسها. ويتحمس مايكل ج. أونيل Michael J.O' Neill فى اعتقاده بأن التلفزيون شكل من أشكال "سلطة الشعب" . وهو مقتنع بأنه "لم يعدالساسة هم من يتحكم فى مسرح السياسة وإنما المسرح هو الذى يتحكم فى الساسة"، وهو محق فى هذا .[28] ولكن الاعتقاد بأن فقدان الدول السيطرة على التلفزيون يؤدى لحصول "الشعب" عليها وهم جد خطير . ففي إيطاليا وصل سلفيو بيرلوسكوني Silvio Berlusconi إلى السلطة عن طريق السيطرة على احتكار لوسائل الإعلام من خلال ما استطاع أن يبيعه من "أحلام ومعجزات" وتظاهر بأنه من بين الشعب.[28] ولكن الخطوط كانت واضحة: الشعب لم يسيطر على بيرلسكوني وإنما بيرلسكوني هو من سيطر على الشعب . ولم يسيطر بيرلسكوني على التلفزيون وإنما التلفزيون هو الذى سيطر على بيرلسكوني . وواقع الأمر أنه هو الذى أطاح به بنفس القدر من النزاهة الذى رفعه به عالياً . وفى أمريكا كثيراً ما يكون التلفزيون هو ما يقرر السياسات. صورة واحدة لجثة الجندى الأمريكي الذى أساءوا إليه فى الصومال عجلت بالانسحاب الأمريكي من هناك . والبنتاجون حريص أشد الحرص على إخلاء قتلاه، ليس فقط بسب صدمة فيتنام التي ماتزال تلح عليه، ولكن خوفاً من وسائل الإعلام . وليس هناك

مبدأ مجرد ولا معاداة للمبادىء الخارجية ولا ديمقراطية ولا معاداة الشيوعية بل ولا إمبريالية يمكنها أن تتحمل لقطة تلفزيونية يظهرفيها فتى أمريكي يُحْتَضَر .

قد يقول البعض إن هذا شيء طيب بالنسبة للسلام أو على الأقل لعامة الناس، طالما أن ما يقدمه التلفزيون هو وجهة نظرهم . إلا أن التلفزيون لا يقدم إلا صوره هو . وإذا كان "من يعرض التاريخ على الشاشة هو من يكتبه" كما كتب جور فيدال Gore Vidal فى ملحمته المتميزة من خلال السينما، فليس من يظهر تاريخهم على الشاشة هم الذين سيجلسون فى مقعد السائق وإنما من يعرضونه .(30) فهذه الوسيلة لها برنامجها الذى تقوده فيديولوجيا هوليوود وميزانيات شركات هوليوود وهي تعرض الجثث الأمريكية ليس بغرض التأثير على التاريخ ولا تعديل السياسة الخارجية الأمريكية وإنما لكي تبيع الإعلانات وتجعل المشاهدين ملتصقين فى مقاعدهم . ويكتب مارك كرسبن ميلر Mark Crispin Miller الناقد الإعلامي قائلاً: "هدف التلفزيون الأساسي هو أن يجعلك تستمر فى المشاهدة"، وبذلك تتجه هذه الوسيلة إلى "احتجاز" المشاهدين داخل البيت وخارجه وتستبدل واقعها بواقعهم .(31) وينشر التلفزيون مداً معتدلاً على سهل منبسط: مياهه فى كل مكان . ورغم أنه ينشيء بحراً ضحلاً، ومع أن هناك علامات تقليدية -أشجار صحف وأبراج كتب والكثير من الأسطح المطبوعة التي تصدر منها الإشارات-فالملايين يضلون طريقهم ويتضاءلون تحت الصور المتلألئة دون أن يلاحظ أحد، ولا حتى هم أنفسهم . والمعروف عن الأطفال أنهم يغرقون فى بضع بوصات من الماء: ومع ذلك فمياه التلفزيون الضحلة أشد خطورة .

فى السابق كانت الدول ترى أهمية التلفزيون فى كونه أداة للدعاية والأغراض الاجتماعية والتعليم المدني . (وهو مازال يفعله من هم على شاكلة بيرلسكوني ومردوخ وتيرنر فى عالم ماك .) وقديماً تحدث أعضاء المجالس النيابية عن "موجات الهواء العامة" وحاولوا تنظيم "البث العام" . وكان التلفزيون تحتكره الدولة، ليس فقط فى الدول الشيوعية، بل فى كثير من الديمقراطيات الغربية كذلك حيث قُدِّر لتأثيره المحتمل، التعليمي أو التخريبي، أن يكون من الأهمية بحيث لا يترك للقطاع الخاص-وهو ما أسفر عما لا يزيد كثيراً على اهتمام أحادى النزعة بالربح وذوق لا حد لسوئه تقدمه تلبية لإرادة الشعب . ففي الولايات المتحدة أُقر قانون لجنة الاتصالات الفيدرالية سنة 1934 الذى أوجد لجنة

الاتصالات الفيدرالية ومسائل التطوير الفقهية الخاصة بالإنصاف والوصول والمسئولية الاجتماعية (برامج الأخبار الإجبارية على سبيل المثال) . وأهاب التشريع بلجنة الاتصالات الفيدرالية أن "تدرس الاستخدامات الجديدة للراديو وتنص على وجود استخدامات تجريبية للترددات وتشجع بصورة عامة الاستخدامات الأكبر والأوسع انتشاراً للراديو فيما يختص بالمصلحة العامة" .

واليوم هناك القليل من الدلائل على أن أحداً، ولا حتى الحكومة الفيدرالية، يسعى إلى تشجيع الاستخدامات المدنية الأكبر حجماً والأكثر تأثيراً للكيبل والأقمار الصناعية والألياف البصرية وأجهزة الكمبيوتر وبنوك المعلومات فيما يختص بالمصلحة العامة . وخلق انفجار منافذ وسائل الإعلام المفترض عبر الكيبل والألياف البصرية حافزاً للحكومة كي تعتذر عن الدخول فى أعمال التنظيم التي تتسم بالفوضى . ورغم محاولة نائب الرئيس جور Gore تركيز الانتباه المدني على التقنيات الجديدة، فإن احتكارات وسائل الإعلام الجديدة (التي سيأتي وصفها لاحقاً) تتواجد دون أدنى التفاتة من السلطات الفيدرالية التي كان صوتها يوماً ما يتعالى بالصراخ داعياً إلى اتخاذ إجراء ضد الاحتكارات . وبينما اعتمد التنظيم السابق على "ندرة المجـــال" (طبيعة موجات البث وقنوات التوصيل التي تبدو نهائية)، فإن انفجار منافذ وسائل الإعلام وأدوات التوصيل-اتصالات الألياف البصرية التي يمكنها حمل ملايين المعلومات والصور الرقمية وأنظمة الكيبل التي تتسع لخمسمائة قناة إضافية والأقمار الصناعية-ومعه حبنا الحالي للأسواق وللخصخصة قضى على شرعية فكرة التنظيم العام ذاتها . إنهم يجعلون استغلالنا لاختراع عالم ماك الرئيسي-التلفزيون- فى الحفاظ على مصالحنا العامة وهويتنا فى مواجهة قيم عالم ماك أمراً مستحيلاً . بل إنه لا يسعنا أن نستغل موجات الهواء العامة فى غرض سياسي عام (الانتخابات) دون أن ندفع ملايين وملايين الدولارات للشركات الخاصة التي رخصنا لها استغلال موجات الهواء تلك . ويدرك كينيتشي أوماى Kenichi Ohmae ، أشهر رواد الإدارة فى اليابان، روح الفيديولوجيا إدراكاً تاماً عندما يؤمن بقدرة "العملاء على الانتصار على الإنسان بصفته منظماً"، طالما أن "المنظمين هم من يجب أن نخشاهم" .[32]

ويحاول عدد قليل من الدول الاحتفاظ ببعض السيطرة، وإن لم تكن سيطرة احتكار، على وسائل البث التقليدية . ولكن نجاحها يتلاشى فى مواجهة التقنيات المتنوعة التي تدعم وسائل الإعلام . وبينما تنتقل الاتصالات من مجالي البث والكيبل إلى فاكسات الكمبيوتر وخطوط التليفون والأقمار الصناعية، تفقد فكرة التنظيم الحكومي ذاتها-ناهيك عن السيطرة "الشمولية"-مصداقيتها . ويهدد الكونجرس حالياً بخصخصة البث العام أو إلغائه . ومن الناحية النظرية قد يبدو هذا شيئاً طيباً: فبتفكيك احتكارات الدولة تضع السوق نهاية للاحتكار برمته . وهو من الناحية العملية يلغي الاحتكارات العامة وحسب، ومعها المحاسبة والمسئولية المدنية، ويترك الساحة للاحتكارات الخاصة الجديدة الخفية نسبياً التي لا تخضع للمحاسبة ولو نظرياً، ناهيك عن الجانب العملي، على العكس من الحكومة. وهذه الاحتكارات تزداد وضوحاً هذه الأيام فى صورة شركات من ميادين كانت مميزة فى يوم من الأيام تشمل خلق البرامج (software) وتوزيع البرامج (الشبكات وشركات البث) وأنظمة التوصيل (الكيبل والتليفون والقمر الصناعي) ومعدات الإنتاج (من يصنعون أجهزة استقبال التلفزيون وأجهزة الكمبيوتر) ولكنها تلتهم بعضها البعض فى الوقت الراهن. ويقع مقر نيوز كوربوريشن التي يملكها مردوخ فى سيدني باستراليا، ولكنها تمتلك مجموعة كونية من الشركات المرتبطة بوسائل الإعلام والخدمات تشمل فى الولايات المتحدة: فوكس تليفيجن وفوكس فيديو ومجلة نيويورك وتي فى جايد وهاربر كولينز للنشر وديلفي انترنت سيرفسيز وسكوتس فورسمان لنشر الكتب التعليمية ونيوز أند إلكترونيك داتا لخدمات المعلومات وشركة كيسماى لتطوير ألعاب الفيديو وشركة ديجيتال لمعلومات الخرائط ومجلة "ميرابيلا" للموضة، إلى جانب العشرات من الصحف وكذلك محطات التلفزيون المستقلة . وفى غيرها هناك صحيفة "ذا تايمز" اللندنية إلى جانب الصحيفة الشعبية "ذا صن" . كما يملك شركة الشحن الجوى أنسيت ترانسبورت والشركة الإنجليزيةللبث عبر الأقمار بي سكاى بي وشبكة القنوات الفضائية الأسيوية ستار، وجاء ذكرها من قبل، وشركة جيوجرافيا للخرائط وشركات فوكس فيديو بأسبانيا واليابان وفرنسا وألمانيا ونيوزيلندة وأستراليا . ونيوز كوربوريشن التي يملكها مردوخ شركة تعد فى حد ذاتها قطاع اتصالات معلوماتي ترفيهي تابع لرجل واحد وشركة واحدة .

وتشير نظرية الأسواق الأساسية إلى أنه بتفكيك احتكار الدولة للاتصالات سوف يختفى الاحتكار بينما تبقى المصلحة العامة . وواقع الأمر أن المصلحة العامة هي التي اختفت والاحتكار هو الذى يصر على البقاء، فى الأشكال التي جرت خصخصتها مؤخراً، وبالتالي لا يمكن محاسبتها . وليس هناك مايعيب الربح . فبصفته محرك الرأسمالية، يُعد شيئاً طيباً للمساهمين والمستهلكين والمجتمع عموماً . ولكنه أصبح يمارس سيادة لا تقل قهراً عن سيادة الدولة ، ولكنه يقل عنها كثيراً من ناحية الروح العامة . إنه يفرض تماثلاً خاصاً به وحده، ولكنه تماثل يختفي وراء ساتر تنافس السوق الحرة . وقد لا يعترف أحد بالتأثير الكوني لمردوخ، إن كان هناك من يشعر به . وربما يكون الإحساس بهيمنة هوليوود إحساساً طيباً-فمن المؤكد أنه أفضل من الإحساس بهيمنة ستالين Stalinأو دينج Deng أو هونيكر Honnecker-ولكنها قد تكون فى أعمالها التي تعبر عن صيغتها بنفس القدر المحزن من التماثل الذى كانته الواقعية الاشتراكية فى تماثيلها البطولية . وعملة الجنس والعنف المشتركة قد تسكها سوق خاصة غير مقهورة (وإن كان التأثير عليها شديداً)، ولكن قيمتها تهبط بنفس سرعة هبوط العملة الورقية التي تسكها دولة لم تعد تعمل وفق معيار الذهب . وفى ظل الشيوعية السوفيتية كان شعر المنشقين لا يُنشر إلا خفية ولا يُقرأ إلا فى السر.وفى عهد روسيا الرأسمالية لا يُنشر شعر المنشقين بالمرة. ومن أسباب ذلك أنه ليس هناك شيء واضح يمكن الانشقاق عليه . ولكن السبب الرئيسي يعود إلى أن الشعر لا يدر ربحاً ولا يقوى على منافسة ستيفن كنج Stephen King. وتأسي عالمة السياسات الفرنسية دومينيك موازى DominiqueMoisi ينطبق على العالم بأسره: "يتقلص وجود فرنسا فى الخارج أكثر وأكثر بينما يتزايد ماهو أجنبي فى فرنسا".(33)

وطالما تلجأ معلومات التلفزيون والكمبيوتر إلى أسلاك التليفون، التي بدورها تتحول إلى ألياف ضوئية أو ترتبط بقدرات الشبكات "المحولة" التي تتيح لأسلاك التليفون القديمة حمل حركة ذات اتجاهين أشد كثافى بكثير، سيتاح لمنتجي البرامج قدر أكبر من الوصول إلى سكان العالم يزيد على أى وقت مضى .(34) وهم يرون أن الهدف هو شبكة وهمية فورية وتفاعلية ذات صور مجسمة وتحمل صوتاً محسناً وصوراً حقيقية، فيها كل إنسان على ظهر الأرض يمكنه الوصول إلى أى إنسان سواه وإلى كل من هو متصل بكل شركة لديها ماتقوله

أو تبيعه، سواء كان سلعة معمرة أم خدمة أم نوع من أنواع المعلومات أو الترفيه أو رسالة سياسية صريحة-مع أن ترفيه فيديولوجيا عالم ماك رسالة سياسية .هل يزيد هذا من الاختيار الحقيقي؟ إن تعدد طرق الوصول وتنوع نظم التوصيل لن يؤدى بالضرورة إلى زيادة تعددية المنتجات أو تنوع البرامج . فذلك قد يعني ألف طريقة جديدة لترويج منتج كوني واحد فقط وبيعه-كوكا أوعائلة سيمسون (أى من العائلتين: بارت Bart أو أو جي-اختر ماشئت) أومايكل جاكسون أو أحد المرشحين لتولي منصب سياسي .

كانت المسافة بين بارامونت بكتشرز وشبكة هوم شوبنج تنكمش قبل محاولة كيو فى سي غير الموفقة فى الحصول على بارامونت أو تقديم انترنت لخدمات التسوق بزمن طويل. وخمسمائة قناة لن تجعل المشاهدين بالضرورة يشعرون بحرية أكبر من خمسين أو حتى خمس. وفى أى الأحوال، ومع وجود نفس الموردين الثقافيين القدامى الذين يقدمون البرامج، لن يكون هناك بالضرورة قدر أكبر من التنوع: لن يكون هناك سوى احتكار مختلف وأكبر تأثيراً وتشعب جذرى لما سوف يظل الأسواق القديمة نفسها: الثقافة الدارجة الأمريكية بدلاً من الثقافة الدارجة الإندونيسية، وخطوط سياسية كونية تضعها الأسواق بدلاً من سياسة الدولة الفرنسية التي يضعها التكنوقراط، وجماليات إم تي فى غير الرسمية بدلاً من الخط الثقافى الهندوستاني الرسمي . ومثل هذه الاختلافات، بوصفها مدمجة فى برامج "بث ضيق الحدود" "narrowcast" من ذلك النوع الذى سوف يسهل وجوده تزايد القنوات، قد تُقَسِّم المشاهدين وحسب إلى أسواق مستهلكين متشعبة أفقياً-قناة للرياضة وقناة لمن يقضون أوقات فراغهم فى البيت، وقناة لحاملي أسهم شركات الاستثمار اللاتينية، وقناة لقاعدة الذهب اليهودية، وقناة للجمهوريين الشواذ جنسياً، وقناة للمدخنين الديمقراطيين .

ومن يختارون يُصنَّعون ولا يولدون . فلكي تتيح الأسواق الحرة خيارات حقيقة، لا بد أن يكون المستهلكون مثقفين يختارون ما يريدون ولابد أن تقدم البرامج تنوعاً حقيقياً وليس مجرد بدائل تسوق . ويعتمد جزء كبير من استراتيجية عالم ماك الخاصة بخلق الأسواق الكونية على رفض منظم لأى استقلال حقيقي للمستهلكين أو أى تنوع برامجي مكلف-وهو مايُقرن بمهارة بمظهر التنوع اللانهائي . ويعتمد البيع على أذواق ثابتة (أذواق يثبتها البائعون) ورغبات مركزة (أذواق يركزها التجار) . وقد رأينا أن شركات الكولا لم يعد بوسعها التشجيع على شرب الشاى فى إندونيسيا بما يزيد على قدرة فوكس تيليفيجن على

تشجيع الناس على قضاء الأمسيات فى المكتبة العامة يقرأون الكتب التي يستعيرونها بدلاً من شرائها . ورغم امتلاك بارامونت لسايمون أند شوستر، فهي لا تستطيع بحق جعل الناس يقرأون الكتب بالمرة، ما لم يكونوا يقرأون الروايات المأخوذة عن أفلام بارامونت . وبالمنطق ذاته، فإن ديزني لاند رغم كاتدرائياتها البلاستيكية لا يمكنها تشجيع المراهقين على قضاء عطلة نهاية الأسبوع فى معبد أو كنيسة أو جامع يدعون الله أن يهبهم القوة وأن يجعلهم يعيشون حياة أقل مادية ويكفيهم شر مدن الملاهي ويخلص حياتهم من الأفلام . والتنوع فى أحسن الظروف معناه منتج إنسان آخر أو ربح إنسان آخر، ولكن لا يسمح له أن يصبح لا منتَج بالمرة وبالتالي لا ربح لأى إنسان .

وعندما تأتي القناة الأولى بالإعلان إلى داخل حجرة الدرس، يتأكد المدرسون أن ذلك ليس من أجل تقديم أداة سمعبصرية لتفكير التدريس النقدي.(35) فبدون جهد بيداجوجى متفق عليه، لا يحتمل أن يعزز التلفزيون التعلم: إن قدرته على إبادة الملكات النقدية تفوق قدرته على الأخذ بيدها . والاستهلاك الخاص لا يمكن أن يساعد الصغار على تنمية حس التفويض الخاص بالحاجة إلى وجود صالح عام-وهو أمر قد يضع مقدمات عالم ماك المنطقية ذاتها موضع الشك. فالتلفزيون الواقع فى حبائل التجارة لا يمكنه إلا أن يرى تلاميذ المدارس كزبائن منتظرين وليس كنقاد ومواطنين منتظرين .(36)

وليس من المحتمل يوماً أن يفوز التعليم فى أى مسابقة لـ"السوق المفتوحة" مع الترفيه لأن "السهل" و"الصعب" لا يمكن أبداً أن يتنافسا على قدم المساواة . وبالنسبة لهؤلاء الذين لم يصبحوا منظمين بعد فى طقوس التعليم، سوف يكون معنى "الحرية" دائماً هو السهل . وربما كان هذا هو السبب فى اعتقاد توكفيل Tocqeville بأن الحرية هي "أشد أنواع التلمذة مشقة" . فلكي نشب لنصل إلى ذواتنا الأفضل الناضجة ، نحتاج إلى عون من ذواتنا الأفضل الناشئة، وهو ماتقدمه المعايير العامة والتعليم الرسمي والإحساس بالمصلحة العامة . والاستهلاك يأخذنا على علاتنا . وكلما ازددنا نهماً وتهوراً كان ذلك أفضل . أما التعليم فيتحدى نزواتنا ويشكل نهمنا بدروس مستقاة من تبادليتنا والمصالح العليا التي نشترك فيها فى مجتمعاتنا . وفى يوم من الأيام كانت الحكومة، سواء كانت محلية أم فيدرالية، التي تتحمل مسئوليـــة التعليم العام تأخذ على عاتقها (عندما كانت "ـها" هي

"نا") تسوية السوق ومد يد العون لذواتنا الأفضل . والآن تهدد السوق عن طريق مستندات القيد أن تقف على قدم المساواة مع التعليم . وليست الحالة السيئة للأمور من تدبير الأجلاف والسذج . إنها تنشأ نشوءاً طبيعياً أكثر من اللازم من داخل ثقافة عالم ماك فى حقبة عابرة للقوميات لم تعد فيها الحكومات تفكر فى الصالح العام أو تتولى الدفاع عنه .

الفصل الثامن

الأدب التلفزيوني وملاهي عالم ماك

الكتب ، باعتبارها مابقى على قيد الحياة من تقنيات الطباعة العتيقة، تُعد من مخلفات ثقافة الكلمة التى تختفي ببطء -إنها عملة الديمقراطية التى لا يمكن الاستغناء عنها وهي حصن متداع فى وجه ذلك العالم الجديد من الأطياف والصور التى تظهر عبر الشاشات بسرعة تتحدى كل تأن وترو . والديمقراطية، شأنها شأن أى كتاب، تحتاج إلى وقت . فالصبر هو أقل صفاتها وضوحاً، غير أنه قد يكون أكثرها ضرورة . أما التلفزيون والكمبيوتر فأسرع كثيراً كثيراً، وهما بذلك معاديان لتلك الخطى الثقيلة التى يسير بها التأني الحذر ويقوم عليها كل النقاش العام واتخاذ القرار نيابة عن الصالح العام . وأحد أسباب صعوبة وسيلة التلفزيون التى تعمل بسرعة الضوء للتعليم المدني هو أنه بينما يرغب التلفزيون فى الطيران، يمشي التعليم الهوينا بكل ذلك الملل المتأني الذى تتميز به أية طريقة تعليم تتسم بالتأني والحرص . ولا يشاهده أحد-مالم يكن ما يهدف إليه هو التعلم والنمو . وأخيراً، يعد التلفزيون التعليمي تناقضاً فيما يتعلق بالمصطلحات .[1] إذن، إلام تنتمي الكتب فى فوضى الفيديولاند [أرض الفيديو] ؟ إنها لا تنتمي لأحد بالمرة-مالم تذعن للاستيعاب والاستيلاء وتصبح جنساً آخر من أجناس الثقافة التجارية الخاصة بقطاع اتصالات الخدمة الترفيهية المعلوماتية، التى يمكن أن نطلق عليها الأدب التلفزيونى .

واستيعاب الجديد بالنسبة للناشرين يقتضي التعديل (أو بالأحرى: الغش) باستعمال نفس التقنيات التى تحل محلهم . والكتاب بصورة خاصة هدف سهل لتقنية الكمبيوتر . أحد مقالات صحيفة وول ستريت جورنال يصيح قائلاً: التكنولوجيا تهدد بتحطيم عالم الكتب الجامعية، وهو مايشبه ذلك التحذير الكئيب الذى يقول إنه "ما لم يفق ناشرو الكتب الدراسية ويتعلموا كيف يصنعون شيئاً مختلفاً عن الكتاب ويسوقونه ويوزعونه، فسوف يسحب البساط من تحتنا" .[2] كما أن نقابة المؤلفين تأثرت بالأمر بالقدر الذى جعلها تنبه أعضاءها . فهى تعلن فى "بيان حالة عن حقوق النشر الإلكترونية" أن "تقنية النشر تتغير تغيراً سريعاً وعمل أى كاتب يمكن أن يصبح متاحاً فى أكثر من صورة-على هيئة قواعد معلومات وأقراص مدمجة وأقراص تفاعلية (Cd – I) وغيرها كثير . فالتقنيات الجديدة تجعل من السهل

تجميع أعمال الصحافة والأدب والفن والتصوير الفوتوغرافى والموسيقى والسينما والفيديو فى الوسائل المتعددة multimedia والأشكال التفاعلية interactive formats " . ويضيف البيان أن التكاليف التى يدفعها الناشرون مقابل هذه الأشكال "تقل كثيراً عن النشر التقليدى" .(3)

والواقع أن صانعى الأقراص لا يرغبون فى دفع حقوق التأليف . وقد قامت شركة اسمها بيرو ديفيلوبمنت بتجميع مئات المقتطفات المجال العام العتيق (أى الذى لا يجب دفع حقـوق تأليف عنه) فى طبعـات من الأعمـال الكلاسيكية، التى كثيراً ما كانت من نوعية رديئة وكانت فى بعض الأحيان منقحة، ووضعتها على قرص مدمج أسمته " Great Literature" (الأدب العظيم) . وتذكرة القارىء مابعد الحداثي إلى الأدب الكلاسيكي تتطلب "كمبيوتر شخصي أو كمبيوتر PS/2 متوافق ومشغل أقراص يخضع لمعايير أيزو 9660 وكارت وكابل وبرنامج سطح بينى interface وبرنامج Extension Microsoft النسخة 0.2 أو ما بعدها وما لا يقل عن 640 كيلو رام منها 500 كيلو حاضرة وبرنامج DOS 1.3 أو مابعده" . والمسألة أعقد قليلاً من فتح أى كتاب، ولكن ما أن تمتلك المعدات حتى "يمكنك تشغيل من Great Literature مشغل الأقراص المدمجة مباشرة . ليس مطلوباً منك إلا أن تفتح مشغل الأقراص المدمجة وتكتب LIT " .(4) وقد يكون الأدب العظيم فى شكله الجديد مساوياً لمجموعات "Great Literature " ذات الأغلفة الجلدية التى تزين بيوت غير القراء من مشاهدى التلفزيون على مر العقود، من حيث قلة قراءتها ونفعها . ومن المؤكد أن إعطاء شكل القرص المدمج لا يستدعي تغيير المضمون الأدبي تغييراً مباشراً بما يزيد على الكتب الدراسية التى يعاد تشكيلها على هيئة نصوص تلفزيونية تستخدم كل شيء فيما عدا الكلمات للاتصال بالآخرين .

إلا أنه ما أن تحمل الأقراص المدمجة الكتب قديمها وجديدها على السواء حتى تتكالب عليها التقنيات المتحالفة . وتقول ميج كوكس Meg Cox من صحيفة وول ستريت جورنال إنه فى الوقت الذى تحل فيه تقنيات الكمبيوتر محل الكتب "سوف تشمل المهام مشروعات الوسائل المتعددة بشكل روتيني، حيث تختلط بالصوت وصورة الفيديو" .(5) وبرنامج Personal Library من إنتاج بيرو ديفيلوبمنت الموجود على قرص يحمل صوراً وصوتاً

تجعل من بعض الأعمال العظيمة عروض صوت وضوء وهمية . وعندما تصير الكتب خاضعة لمشروعات الوسائل المتعددة وتكون الكلمات مقيدة فى الصور الجميلة، تصبح الثقافة المطبوعة فى خطر .

ووضع الكتاب فى عالم ماك فى الوقت الراهن يقدم لنا دروساً محزنة عن الأثر المفسد لصناع الصور على عالم الطباعة، وعبرذلك العالم على عالم الديمقراطية . فعندما نسمح لكريس ويتل ChrisWhittle أن يضع إعلانات فى الكتب وأجهزة تلفزيون (بالإعلانات) في فصول المدارس العامة، فإن معنى هذا بكل وضوح أن القراءة والكتابة والمتعة الأدبية لم تعد غايتنا . وعندما تحتل صورة واحدة لجثة جندى يُساء إليها بوحشية مكان النقاش الواعي والخطاب العاقل اللذين تستخدم فيهما الكلمات لتحديد أولويات السياسة الخارجية، تصبح الديمقراطية نفسها، بصفتها ممارسة تشاورية، معرضة للخطر .

والشيء المؤكد أن التلفزيون والسينما لا يحلان محل الكتب حلولاً تاماً . بل إنهما يتطفلان عليه . ذلك أنه بدلاً من جعل التلفزيون متعلماً، ينزع التلفزيون إلى جعل الكتب أمية . و"يكتب" هوارد ستيرن Howard Stern و راش ليمبو Rush Limbaugh كتباً أكثر مبيعاً هي امتداد لشخصيتيهما الإذاعية والتلفزيونية . وتصبح القراءة شكلاً آخر من أشكال النميمة-كما هو الحال فى "كتاب" أو جي سيمسون الذى تزامن نشره مع المحاكمة التى أذاعها التلفزيون. وعلى فرض أن هناك ندرة فى القراء، تكون البراعة فى نشر الكتب التى يشتريها من لا يقرأون رغم أنهم كذلك، سواء قرؤوها بالفعل أم لم يقرؤوها: ففي عالم ماك لا يتطلب الاستهلاك سوى أن نشترى، لا أن نستغل المنتجات التى لا "نحتاج" الكثير منها بالدرجة الأولى استغلالاً فعلياً . وهناك وابل من كتب اصنعها بنفسك التى تحقق مبيعات ضخمة بصور محيرة، وهو ما جعل صفحة عرض الكتب فى النيويورك تايمز تستبعدها من قائمة الكتب الأكثر مبيعاً المنتظمة، ذلك أنها كانت تسيطر عليها بأعداد كبيرة مما أعجز الكتب "الحقيقية" عن المنافسة . ولكن كتب اصنعها بنفسك سرعان ما استبدل بها ليس كتب حقيقية وإنما روايات جديدة وضعت صراحة لتلبية شروط مبيعات السينما السريعة والمربحة. ففي خريف 1993 كانت قائمة أفضل عشر "روايات" فى صحيفة ذا نيويورك تايمز تضم

سبع روايات فيلمية تعتمد على التشويق والترقب لمؤلفين اثنين فقط هما مايكل كريشتون Michael Crichton وجون جريشام John Grisham اللذان تضم كتبهما السابقة الفيلمين اللذين حققا نجاحاً كبيراً مؤخراً وهما The Firm (جريشام) وJurassic Park (كريشتون) . والواقع أن المؤلفين باعا فى سنة 1994 فى ظهر الغيب - إذ لم تكن قد كتبت فى ذلك الوقت، ناهيك عن نشرها-مقابل ملايين الدولارات لهوليوود .

والأمر المؤكد أن روايات التشويق والغموض التى تُعدَّل لتتلائم مع السينما تقدمت قوائم أكثر الكتب مبيعاً زمناً طويلاً . إلا أن الزواج المحرم بين الوسائل آخذ فى التزايد ويسيطر فى الوقت الراهن على قائمة الأعمال غير الروائية كذلك . وتضمنت قائمة ذا نيويورك تايمز لأكثر الكتب الخمسة عشرة غير الروائية مبيعاً فى 28 نوفمبر 1993 خمسة كتب ترتبط بوسائل الإعلام، حيث تحتل "كتب" للتلفزيونى المحافظ راش ليمبو ونجم الإذاعة التافهة trash radio هوارد ستيرن Howard Stern والممثل الكوميدى جيرى سينفيلد Jerry Seinfeld المراكز الأول والثاني والرابع . ويليها كتاب ويليام شاتنر William Shatner واسمه Star Trek Memorries [ذكريات رحلة النجوم] فى المركز التاسع ومذكرات مايكل جوردان Rare Air [هواء نادر] فى المركز الخامس عشر على قوائم الكتب ذات الأغلفة المقواة وتحتل فى الوقت نفسه المركز الثاني على قائمة الكتب غير الروائية ذات الغلاف اللين عقب كتاب سابق من كتب ليمبو كان الأول بين الكتب ذات الأغلفة غير المقواة- مما يجعل ليمبو يحتل المركز الأول على القائمتين . وفى نفس الأسبوع، كان كتاب شبكة إم تي فى Beavis and Butt-head ، وهو كتاب رسوم متحركة مأخوذ عن مسلسل إم تي فى (الذى أجبرت القسوة المبتذلة وجهل المراهقة المنتجين على نقله من فترة الذروة إلى فترة متأخرة عنها) فى المركز الرابع على قائمة "النصائح واصنعها بنفسك" . ولم تكتف ذا نيويورك تايمز التى يصعب إرضاؤها بالكتابة عن هذا المشهد العجيب متوسط القيمة بل ساهمت فيه، حيث قدمت عروضاً فى أعدادها اليومية وفى عدد يوم الأحد لتمرين هوارد ستيرن فى العرى الاعترافى (مايربو على المليون كتاب مطبوع خلال أسابيع معدودة من النشر وربما أسرع كتاب فى تاريخ النشر من حيث البيع) بأقلام من كانوا على قدر مدهش من الأدب والاحترام، وكأن أمامهم عمل من أعمال الشك مابعد الحداثى من إنتاج

شخص لطيف غريب الأطوار ثقافياً يبعث بعض الشيء على الحيرة ولكنه ليس كريهاً- أوسكار ويلد Oscar Wilde إف إم للأوقات التى نستمع فيها إلى الإذاعة.[6] وأقر هوارد نفسه بمقدار الجبن الذى كانت تتسم به السوق "الأدبية" . فقد اعترف على الهواء لمستمعيه بأنه بالفعل سيد الإذاعة وأن كل شيء يعرفه عن الكتب والناشرين أقنعه بأنهم هدف سهل. وهذا ما أثبتوه هم . فعندما يصبح الأدب نقطة متقدمة من نقاط عالم ماك، فإن فرض حصار عليها يمثل بعض التحدى للمروجين التجاريين لجرأة ستيرن وغرور ليمبو .

والأهمية الأساسية للكُتّاب والمشاهير في عالم ماك (والذى يجب أن نوضحه هنا بكل دقة هو أن الفرق بين الفئتين آخذ فى الزوال)[7] مثل الطعام لشهية التلفزيون والسينما التى لا حد لها فى الحصول على "القصة" و"الخط الدرامي للقصة" والحدوتة والشخصية وللشخصيات الشاذة وأحداث فاضحة "من الواقع" يسهل تسويقها . وهذا هو السبب فى أن بارامونت التى كان كل من فياكوم وكيو فى سي يسعيان الحصول عليها كانت فى الوقت ذاته مطمعاً من مطامع سايمون أند شوستر، وهو كذلك السبب وراء شراء دار النشر الألمانية العملاقة برتلسمان ناطحة سحاب لنفسها فى مركز الصور والترفيه بنيويورك، وهو ميدان تايمز سكوير . كما أن هذا هو السبب فى أن تصبح الأفلام السياسية التى لا يقوم ببطولتها المسئولون المنتخبون وحدهم، وإنما العاملون فى الغرف الخلفية الذين يرسمون لهم مستقبلهم-فى أفلام مثل The War Room (الذى يتناول الدور الملون لجيمس كارفيل James Carville فى الانتصار الذى حققه كلينتون فى انتخابات الرئاسة)-أفلام تعظيم للمؤسسة . ويعلق نورمان أورنستاين Norman Ornstein المحلل السياسي المحافظ من واشنطن قائلاً: "فى الآونة الأخيرة تتسم الخطوط الفاصلة بين هوليوود ونيويورك وواشنطن بحق بأنها غير واضحة فيما يتعلق بمن هم المشاهير . فلدينا من الممثلين الذين يقومون بأدوار شخصيات السياسة العامة وشخصيات السياسة العامة التى تقوم بأدوار الممثلين، ولا يمكنني الاعتقاد بأن أياً من هذا يعد صحيحاً بالنسبة للجمهورية على وجه الخصوص ."[8]

وتزحف الكتب الأمريكية على النشر الكوني للكتب بشكل موازٍ لقصة الأفلام

والتلفزيون. فالكتب الأكثر مبيعاً في روسيا وسويسرا والبرازيل وإنجلترا وهولندا هذه الأيام تحاكي الأفلام الأكثر مبيعاً . وتحمل إحدى دور النشر الهولندية الرائدة، وهي دير بوكريي Der Bokerij ، قائمة 90 بالمائة من الكتب التى عليها ترجمات أجنبية أغلبها تقريباً كتب أمريكية . لقد قطعت الرحلة الطويلة من آن فرانك Ann Frank إلى ايمي فيشر Amy Fisher دون أدنى قدر من الحرج، حيث حققت فى نهاية 1993 مكسباً كبيراً بترجمتها الأكثر مبيعاً لمذكرات فيشر .[9]

بل إن مستقبل الأدب فى أوروبا الشرقية وروسيا أشد ظلمة . فقد كانت الواقعية الاشتراكية تحدياً أطلق شرارة شكلٍ من أشكال أدب المقاومة القوى . أما الواقعية التجارية فليست سوى شاهد على قوة السوق التى لا سبيل إلى مقاومتها . ويذكر أحد المعلقين الروس أن "الناشرين"-القدامى الذين تحرروا من نير سياسة الحزب والناشرين الجدد الخاصين أو الذين يعملون برأسمال مشترك-لا يتطلعون إلى نصوص تتسم بالروعة والأصالة، بل إلى سلع يمكن تسويقها" .[10] وتغمر الترجمات المسروقة لقصص الخيال العلمي والقصص البوليسية والروايات الإباحية أكشاك الكتب، حيث تطرد البضاعة المحلية، ما لم تكن محاكاة فاترة ، مثل كتاب عن الطعام اللذيذ والصحي وآخر بعنوان الجنس وحياة امرأة . وفى ظل المناخ الاقتصادى الروسي الذى يتسم بالفوضى تنشق الأرض عن ناشرين فى كل مكان (أربعمائة ناشر جديد خلال بضع سنوات) . ولكن القراءة آخذة فى التدهور وأذواق القراء تنحدر بتوافق يكاد يكون تاماً مع صعود السوق . وتقدم التجارة حوافز أشد وبالاً على الأدب من ذلك الحظر الذى كانت تفرضه من قبل الرقابة المنحلة . فقد اضطهدت روسيا الجسد فى ظل القياصرة والسوفيت على السواء . ومع ذلك فقد بدا أن الاضطهاد يغذى الروح . وذات مرة ذكر جان بول سارتر Jean –Paul Sartre أنه لم يشعر قط بالحرية كما شعر بها فى ظل الاحتلال النازى. ففي المعارضة يكون للأدب هدف ما . أما فى السوق فلا بد أن يكدح من أجل جلب الدولارات وأن يسترضي الذوق الشائع ويضمن الأرباح للناشرين . وما كانت وزارة الثقافة فى عهد السوفيت صارت وزارة الثقافة والسياحة فى عهد يلتسين .

وفيما كان يُعرف من قبل بألمانيا الشرقية، كان رد فعل أحد موزعي ليبزج عند قدوم

السوق الحرة هو حرق 10 ملايين مجلد رخيص طُبعت فى عهد النظام الحاكم القديم، بما فى ذلك أعمال شخصيات أدبية منشقة مثل شتيفان هايم Stefan Heym وكريستا فولف ChristaWolf (التى هربت إلى ماليبو، ربما لاعتقادها بأنه من الأفضل أن ترتمي فى أحضان عالم ماك طواعية بدلاً من أن يغتصبها هو عنوة) . وعلى أضواء فيديولوجيا عالم ماك، ليس هناك شيء مشترك بين حرق الكتب بغرض رفع الأسعار (وهو مايشبه دشت الكتب ذات الأغلفة غير المقواة غير المباعة فى الغرب) وبين حرق الكتب قهراً للأدب (مثل نيران النازى فى الثلاثينات) . ولكن الفرق بينهما قد يكون من الصعب على المؤلفين والقراء أن يدركوه . وبالنسبة للثقافى الأدبية، فإن ما حدث فى ليبزج سنة 1991 قد يكون أشد بأساً من مما حدث فى ليبزج سنة 1934 . وفى كلمات شديدة السخرية فى قصيدته "حرق الكتب"، يتوسل برتولت بريخت Bertolt Brecht ، الذى وجد أنه تُرك خارج النار، المحارق قائلاً "فلتحرقي كتبي كذلك، ما ضير كتبي التى لا تخرقينها ؟،" ولكن أى مؤلف حديث ذلك الذى يمكن أن يظن أن سلامته تقوم على الطلب بحيث يُحال أمر مؤلفاته إلى نار غايتها رفع أسعار الكتب؟ وفى حاشية حزينة لكومة حطب جنازة ليبزج، منحت جمعية جوتنجن الأدبية "إكليل جوتنجن" للكاهن مارتن ويسكوت MartinWeskott لجهوده فى انقاذ نصف مليون كتاب من "جامعي القمامة وصناديق الزبالة" وتوجيهها إلى "الاستخدام الذى جُعلت له" ببيعها فى مزادات خيرية والتبرع بريعها لـ"الخبز من أجل العالم" .[11] السيوف تصبح أسلحة محراث والكلمات خبزاً .

وإذا كان النشر يحاكي صناعة السينما التى يحذو حذوها فى أنماط توزيعه التى تهدف إلى العولمة، فهو كذلك يقلدها فى تحمسها للاحتكار الداخلي . ويعتمد أى مجتمع حر وديمقراطي على تنافس الأفكار وتغاير المنافذ . ومع ذلك فإن عدد مؤسسات نشر الكتب والمجلات والصحف وتنوعها يتقلص تقلصاً مطرداً منذ الستينيات على أقل تقدير ، بينما يتسع مدى ماتبقى من احتكارات اتساعاً عالمياً . ويتتبع بن باجديكيان Ben Bagdikian اتجاهات تكوين الشركات الكبرى فى مجال الإعلام على مدى عدد من السنين، حيث تشير إحصاءاته بما لا يدع مجالاً للشك إلى التجميع الذى يزداد دوماً .[12] ويشير باجديكيان إلى أنه بعد الحرب العالمية الثانية كان 80 بالمائة من الصحف الأمريكية مستقلاً . وبحلول

سنة 1989 كان 80 بالمائة منها تملكه سلاسل . وفى سنة 1981 كانت عشرون شركة تسيطر على ما يربو على نصف مجلات البلاد البالغ عددها أحد عشر ألف مجلة . وما أن حل عام 1988 حتى كانت هذه الشركات العشرون قد صارت ثلاثاً .[13] وطبقا لتقديرات باجديكيان، تسيطر ثلاث وعشرون شركة فقط على "معظم أعمال الصحف اليومية والمجلات والتلفزيون والكتب والرسوم المتحركة" .[14]

شركات باجديكيان الثلاث والعشرون المسيطرة:

1. برتلسمان (كتب)
2. كابيتال سيتيز/ايه بي سي (صحف وبث)
3. كوكس كوميونيكيشنز (صحف)
4. سي بي اس (بث)
5. أفلام بوينا فيستا (ديزني ورسوم متحركة)
6. داو جونز (صحف)
7. جانيت (صحف)
8. جنرال إلكتريك (تلفزيون)
9. بارامونت كومينيكيشنز (كتب ورسوم متحركة)
10. هاركورت بريس يوفانوفيتش (كتب)
11. هيرست (صحف ومجلات)
12. انجرسول (صحف)
13. انترناشونال طومسون (صحف)

14. نايت ريدر (صحف)

15. مجموعة ميديا نيوز (شركة مفردة: صحف)

16. نيوهاوس (صحف ومجلات وكتب)

17. نيوز كوربوريشن ليمتد (مردوخ: صحف ومجلات ورسوم متحركة)

18. نيويورك تايمز (صحف)

19. ريدرز دايجست أسوسيشن(كتب)

20. سكريبس-هوارد (صحف)

21. تايم وارنر (مجلات وكتب ورسوم متحركة)

22. تايمز ميرور (صحف)

23. تريبيون كومباني (مجلات)

ويسير كل من الدمج الرأسي والدمج الأفقي جنباً إلى جنب: بشرط أن تتسم أملاكك بالعمق وكذلك بالاتساع . فإذا كنت تمتلك أفلاماً سينمائية، اشتر شركات كتب ومدن ملاه وفرقاً رياضية (بارامونت تشترى سايمون أند شوستر وتحصل فياكوم على بارامونت). إذا كنت تمتلك المعدات، اشتر البرامج (سوني تبتلع كولومبيا) . إذا كنت تمتلك محطات تلفزيون، اشتر مكتبات أفلام (تيرنر يشفط مكتبة مترو جولدوين ماير) . إذا كنت تمتلك أسلاك التليفون، اشتر البرامج . إنها ليست مسألة قضاء على المنافسين الذين يحاولون تحقيق الأرباح عن طريق نفس النشاط الذى تقوم أنت به فحسب، بل هي مسألة شراء كل هؤلاء الذين يقومون بأنشطة لا تقوم أنت بها، ولكنها مع ذلك تؤثر على أعمالك . فإذا كنت تمتلك الأسلاك، اجعل البرامج تتدفع فى أسلاكك . وإذا كنت تمتلك ستوديو سينما، احصل على إحدى المحطات الفضائية كي يصبح بإمكانك السيطرة على حقوق البث التابعة . وإذا كنت تعمل فى مجال الصحف، اشتر أنظمة كيبل وأقمار صناعية وساعتها سوف تمتلك

الأخبار فى كل وسيلة . إذا كنت تنتج أفلاماً، اشنر شركات نشر ليكون لك تأثير على الكتاب. إذا كنت بمفردك ، اخلق كياناً ضخماً: قلد ستيفن سبيلبرج، أنجح مخرج في العالم، وجيفرى كاتسنبرج Jeffrey Katzenberg ، وهو منتج ثرى وقوى انفصل مؤخراً عن ديزني، وديفيد جيفين David Geffen ، وهو ملياردير من مديرى شركات التسجيلات . انضموا إلى بعضكم البعض وكَوِّنوا فيما بينكم اتحاداً تعاونياً صغيراً: اعقدوا صفقة مع بيل جيتس Bill Gates رئيس مجلس إدارة مايكروسوفت لإنتاج منتجات ترفيهية تفاعلية متعددة الوسائل . احصلوا على استثمار مقداره نصف مليار من جيتس واطلقوا على الشركة ذات رأس المال المشترك Dreamworks [أعمال حالمة] (هل هناك ماهو أفضل من ذلك ؟) . وقارنت الصحف الصفقة التى عقدها هذا الثلاثي بتأسيس مارى بيكفورد وأصدقائها لشركة يونايتد آرتستس قبل ستين سنة، ولكن ذلك أشبه بمقارنة أسطول من السفن الحربية بقاربي تجديف فيهما طفلان يحملان مسدسي صوت . وكان ستيفن سبيلبرج أقرب إلى الهدف عندما أساء فيما يبدو التعبير عن نفسه قائلاً إنه ينشيء "بلداً جديداً". (15)

سوف يصر المتشائمون، وعيونهم على سوء حظ سوني وماتسوشيتا فى أعمال الرسوم المتحركة، على أن الملكية لا تنال من الاستقلال وأنه لا يهم من الذى يملك شركات النشر . وهذا بالتأكيد ما قاله ريتشارد سنيدر Richard Snyder ،الذى رأس سايمون أند شوستر زمناً طويلاً، بدافع الواجب عندما استولت فياكوم على بارامونت الشركة الأم لسايمون أند شوستر . ولأنهم اعتبروه صعب المراس ولا غنى عنه، ومحصناً ولا يُقدَّر بمال بحيث لا يمكن فصله، صار سنايدر مفتوناً بعد سنة واحدة من الاستيلاء، الأمر الذى جعل بعض المراقبين الذين أصابتهم الدهشة مثل الوكيل مورت جانكلو Mort Janklow يقول إنه من المؤكد أن فياكوم كانت تعتقد أن بيع الكتب مثل بيع الفشار.(16) وما تعرفه فياكوم هو أنه فى أسواق عالم ماك الكونية يشبه بيع الكتب بيع الفشار: هذا كل مافى الأمر . وإلا فلماذا تشترى بارامونت؟ ففي ظل فياكوم استولت بارامونت كذلك على شركة ماكميلان للنشر، وهي دار نشر كبرى أخرى . وحتى قبل أن يكتمل الاندماج، أعلنت بارامونت أنها

سوف " تعيد تنظيم الأقسام وتحد من عدد المطبوعات والعناوين المنشورة وتستغنى عما يصل إلى عشرة بالمائة" من العاملين بالشركة وعددهم عشرة آلاف .[17]

وواقع الأمر أن أعمال الكتب، علاوة على كونها استثناء لجنون الاندماج، تتبع القاعدة. ففي أوائل الستينيات غزت الشركات الكبرى، وكان الكثير منها مقاولىدفاع بينها آى بي إم وآى تي تي وليتون وآر سي ايه وريثيون وزيروكس وجنرال إلكتريك وويستنجهاوس، قطاع الكتب الدراسية . ومنذ ذلك الوقت وشركات السينما والاتصالات، حتى وهي تسقط فريسة للشركات الصناعية الأكبر، تتغذى على شركات النشر . وتضم قائمة بوكر Bowker المعروفة باسم Books in Print حوالى26 ألف ناشر، بينما تشير تقديرات باجديكيان إلى أن 2500 أو نحو ذلك هم الذين ينشرون بالفعل كتاباً واحداً أو أكثر فى السنة . ومع ذلك هناك ست شركات فقط هي التى تستولىعلى مايربو على نصف إجمالىعائدات الكتب- هي بارامونت (وهي ماكانت من قبل سايمون أند شوستر التى يملكها سنيدر، وكانت قبلها جين أند كومباني) وهاركورت بريس يوفانوفيتش (أكاديميك بريس) وتايم وارنر (ليتل براون وسكوت فورسمان) وبرتلسمان (دبل داى وبانتاو وكذلك آر سي ايه ريكوردز وأريستا) وريدرز دايجست أسوسيشن ونيوهاوس (راندم هاوس وذا نيويوركر) .[18] وخمس من هذه الشركات لها ارتباطات بالوسائل الأخرى ، بما في ذلك التلفزيون ، ومنها اثنتان ترتبطان ارتباطاً مباشراً بانتاج الأفلام . كما أن واحدة منها، وهي تايم وارنر، تعد ببساطة أكبر شركة إعلامية فى العالم، إلى جانب كونها ثاني أكبر شركة كيبل ومن بين أكبر شركات النشر .

وتتشابه الاتجاهات عبر الأطلنطي حيث أصبح كل من برتلسمان فى ألمانيا ونيوز كوربوريشن التى يمتلكها مردوخ فى أستراليا وإنجلترا وهاشيت فى فرنسا جوليات كوكبي فى عالم لا ينتظر أن يكون فيه كثيرون ممن يعد الواحد منهم داوود نشر . وفى يوم من الأيام كانت برتلسمان شركة نشر ألمانية، مثلما كانت هوندا شركة يابانية لتصنيع الدراجات النارية . والآن، وقد بات لها مبناها الضخم البارز فى ميدان تايمز سكوير بنيو يورك، تدير نوادى للكتب فى إنجلترا وتنشر المجلات الأمريكية مثل بيرانس وتمتلك دابلداى وبانتام وديل كما استولت على النقابة الأدبية ، ولها نشاط فى مجال التسجيلات من خلال علامتي آر

سي ايه وأريستا التى تملكهما . وإضافة إلى أربع وسبعين مجلة حول العالم، تنشر هاشيت الفرنسية (التى تسيطر على مايقرب من ثلث كتب اللغة الفرنسية التى تُنشر إلى جانب بارى ماتش) دائرة المعارف Encyclopedia Americana وتسيطر على أكبر شركة توزيع فى العالم الناطق بالأسبانية وتوزع الصحف والمجلات فى ألمانيا وبريطانيا وبلجيكا والولايات المتحدة .[19] وقد انتهيت من وصف إخطبوط الرجل الواحد الإعلامى، الذى هو نيوز كوربوريشن ليمتد التى يملكها مردوخ، وسوف أضيف فقط أنه فى سياق الطباعة، بالإضافة إلى هاربركولينز وملكية جزئية لفايكنج وبنجوين ورويترز، تسيطر على ثلثي توزيع الصحف فى أستراليا ونصفه فى نيوزيلندا وثلثه فى بريطانيا . والمعروف كذلك أن مردوخ هو أكبر موزع لأشرطة الفيديو فى العالم–التى تدر أغلبية متزايدة من أرباح الأفلام ويتزايد اعتماد استمرارية أرباح نشره عليها .

وعندما تصبح الكتب فئة مميزة بالنسبة لأى إخطبوط إعلامي مثل مردوخ أو فياكوم لديه أذرع ترفيهية تجارية وأذرع معلومات سياسية (أخبار) وأذرع تلفزيون وأذرع نشر، دون أن يكون له جذع مدني أو أدبي، فإن مستقبل الكلمة والثقافات الأدبية والمدنية التى يقف وراءها يصبح مشكوكاً فيه بصورة كبيرة . وعنما تخضع الكلمات للصور (سينما وتلفزيون وأشرطة كاسيت) التى يخضع منتجوها للربح ، لا يحتمل أن يعود ذلك بالفائدة على الديمقراطية . تخيل (وهو ليس بالأمر الصعب اليوم) إحدى المحاكم ليس فيها من حجج سوى الصور: هل سيكون هناك أى احتمال للعدل؟ تخيل جدالاً يتم بصور إم تي فى الخاطفة: هل سيكون هناك أى قدر من التروى؟ تخيل خيالاً بلا كلمات: هل يزين أم يشين؟ أم أنه يتوقف وحسب ولا يكون له وجود؟ تخيل علم الوجود ontology ، ذلك العلم الذى يهتم بالواقع، وقد عُبِّر عنه بالفضاء الإلكتروني: الواقع نفسه يتحول إلى ابن عم وهمي، نوع من الموجودات يتكون من أجزاء متساوية من التظاهر والوهم والخداع . الوهم يحل محل الواقع، ويصبح كهف أفلاطون، حيث الأطياف المتمايلة التى ترقص على جدار كساه الدخان هي وحدها دليلنا إلى "الواقع"، هو كل عالمنا . الكلمات تفتح النافذة التى تطل منها الروح على الأفكار وخطاب الكلمات هو كيف نتحسس طريقنا إلى المحادثة . وعندما يُنتَزع من المحادثة عدم مساواتها وهيمنتها الخفية، كيف نصبح فى النهاية قادرين على التعاون

وعلى مشاركة الآخرين حياتهم، بل وعلى أن نعدل . وحيث تزدهــر الديمقراطية بالكلمات -مكيفات العقلانية والعمومية والمساواة-تفضل التجارة الصور . فالصور هي سائقو الحاجة، بل وحواتها وحيث إن الحاجة هي ما يخدع العقل، فالصور تخدع الكلمات، على الأقل في غياب التعليم والعمل الجاد . وتحويل الكتب إلى صور يعد تطوراً مدمراً بالنسبة للأدب . وشركات الصور التى تسيطر على الكتب تعد تطوراً مدمراً بالنسبة للديمقراطية .

عالم ماك كمدينـة ملاه

ليس هناك ما يمثل تحول الواقع على يد التجارة واستبدال المشاهد المتلقي السلبي بالقارىء المتخيل الإيجابى أفضل من مدن الملاهى التجارية، التى يتزايد تواجدها على أرضنا. إنها معابد للحداثة وهي كنائسنا العلمانية التى تقدس فيها قيم اللعب والصحة والمرح والرحلات ووقت الفراغ والطريقة الأمريكية ، فى طقوس دينية خالية من أى ألم تجمع بين الترفيه والمعلومات وإشارة خفيفة لا جهد فيها من التوجيه . والأفكار themes فى مدن ملاهى theme parks عالم ماك هى أفكار عالم ماك .

وأنا أقصد استعمال مدينة الملاهي بمعناها العام . ليس مجرد الإشارة إلى مدن سكس فلاجز ووالت ديزني ورلد وام جي ام ستوديوز، وإنما الأسواق التجارية على الطرق والمراكز التجارية وسلاسل المطاعم . وهناك حق فى اعتبار ماكدونالدز مدينة ملاه: فأى سلسلة مطاعم تعرض ميكي ماوس الخاص بها (رونالد ماكدونالد) وجولاتها غير الميكانيكية المصغرة فى "أرض الألعاب" فى الخارج ، وصلاتها التجارية بالمشاهير أمثال مايكل جوردان ولارى بيرد وبأفلام حققت نجاحاً جماهيرياً مثل :الرقص مع الذئاب وعودة الرجل الوطواط وحديقة الديناصورات ، واذعاؤها بأنها تقدم أسلوب الحياة الأمريكي-وجميعه يجعلها أكثر بكثير من مجرد سلسلة مطاعم تقدم الوجبات السريعة .[20] ويركز تقريرها السنوى ، بحق ، على دور "واحد من أقوى الأسماء التجارية فى العالم، مع اعتراف فورى" وهى تبحث لنفسها عن موقع بصفتها "محلات الخدمة الغذائية بالتجزئة الرائدة فى السوق الاستهلاكية الكونية" .[21] وهى تفتح سنوياً ما يصل عدده إلى ألف فرع جديد [22] ، ولها أن تفاخر بأن واحداً من أحدث فروعها يطل على تقاطع ميدان تيانانمن، حيث حدث منذ ما

يبدو أنه زمن سحيق أن استولى أحد الشباب على خيال العالم بإيقافه طابوراً من الدبابات فى طرقاته الصاخبة . وهي تنفق سنوياً 4.1 مليار دولار على الإعلانات وتخطط لأن تصل قدرتها الكوكبية إلى اثنيـن وأربعيـن ألـف مطعم أنشـئ حتى الآن خمسـة عشـرة مطعماً) [23]

ويفسر جيم كانتالوبو Jim Cantalupo رئيس العمليات الدولية كيف أن ماكدونالدز "أكثر من مجرد سعر .إنها تلك التجربة الكاملة التى بات عملاؤنا يتوقعونها من ماكدونالدز. إنها الحافز الجذاب ... إنها أرض الألعاب گ إنها الابتسامة عند طاولة الاستقبال .إنها كل هذه الأشياء مجتمعة ... التجربة" .[24] أسماء العلامات التجارية تبيع تجربة ما، وتصبح التجربة صفة مميزة لواحدة من أسواق الطعام التى هي فى الوقت نفسه مسرح للاستهلاك ومدينة ملاه لأساليب الحياة . والتجربة المباعة لا بد أن تكون أكثر من مجرد وجبة غداء سريعة . فالطعام السريع يناسب الحياة فى الحارة السريعة من عالم الكمبيوتر، حيث الوجبات السريعة bites ورموز الكمبيوتر bytes تدفع أجسامنا وعقولنا للحركة على مدار اليوم بسرعة رهيبة، بما لا يسمح بتضييع ثانية واحدة . تناول طعامك بسرعة واخدم إله الكفاءة في عالم الأعمال . اخدم نفسك وقلل عدد الوظائف المتاحة . قف وتناول طعامك أو خذه معك، وحَوِّل الأكل من نشاط اجتماعي إلى نشاط انفرادى . تحول (فى البلاد الشرقية) من الأرز أو الخضروات إلى اللحم وزد ماتتناوله من دهون وتكاليف العلاج والضغط على الزراعة (زراعة الحبوب لتغذية الماشية التى تتحول إلى لحوم نأكلها مسألة على قدر كبير من عدم الفاعلية، إذ أنها تستهلك ما يزيد عشر مرات عما يستهلكه البشر الذين يتخذون من الحبوب طعاماً لهم) . وطريقة عالم ماك فى الأكل هي أسلوب حياة: إنها أيديولوجيا مثلها مثل مدينة الملاهي أشد اقتحاماً من أى أيديولوجيا وضعها ماركس Marx أو ماو Mao (إن لم تكن أكثر منها غموضا) .[25] ويقوم مجاز مدينة الملاهي على واقع مدينة الملاهي .

ومدن الملاهى لها أصول فى أسواق العالم الكبرى ومعارضها الصناعية التى كان يُقصد بها فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أن تكون إعلانات تنوير من أجل مستقبل أفضل يقدمها هؤلاء الذين يحولون العلم إلى صناعة والتقنية إلى تجارة من أجل

سوق تتجه بالفعل نحو العولمة . وفى مقال له يتسم بالحيوية عنوانه "شاهد نفسك فى ديزني لاند" يستشهد مايكل سوركين Michael Sorkin بالخطاب الذى ألقاه الأمير ألبرت Prince Albert فى افتتاح معرض لندن سنة 1851، وليس لدى جنجريتش رئيس الكونجرس ما يزيد عما لدى الأمير ألبرت الذى يبدو عصرياً أشد ماتكون العصرية فى حماسه المستقبلي:

"إننا نعيش فترة من أشد التحولات عجباً تميل ميلاً سريعاً إلى تحقيق تلك الغاية العظيمة التى يشير إليها كل التاريخ بحق-ألا وهي وحدة البشرية ... المسافات التى كانت تفصل بين أمم الكرة الأرضية وأجزائها المختلفة آخذة فى الاختفاء بسرعة أمام منجزات الاختراعات الحديثة، ويمكننا عبورها بسهولة لا توصف ... الفكر يجرى إبلاغه بالسرعة، بل وبالقوة، قوة البرق ... منتجات كل بقاع المعمورة فى متناول أيدينا، وما علينا إلا اختيار ماهو أفضل وأرخص بالنسبة لغاياتنا، وقوى الإنتاج عُهِد بها إلى حافز المنافسة والرأسمالية ." (26)

وكما يرى سوركين، إذا "كان تخيل زوج الملكة لعالم أدت التقنية وتقسيم العمل إلى انكماشه هو الفكرة الأساسية وراء مدينة الملاهي"، فهي كذلك الفكرة المهيمنة التى تتكرر فى عالم ماك . والأمير ألبرت هو سلف رونالد ماكدونالد الطبيعي (ويطلق سوركين على الأمير " mouseketeer avant la lettre") وهو كـذلك بالنسبة لجنجريتش المتحمس للإلكترونيات .

ومهما كان نسب مدينة الملاهي، فهي فى هذا الزمان لا تجد أكثر منافذها شيوعاً فى ساحات الأسواق المتخصصة فى أناهايم وأورلاندو وإنما فى مراكز التسوق فى كل أنحاء البلاد .حيث أن هذه المراكز التجارية مراكز ترفيه أنشئت حول متع التسوق متعددة الوجوه. وفى يوم من الأيام وجدت المحال التجارية موئلاً لها فى مناطق وسط البلد بين الورش والكنائس والمطاعم والمسارح والمدارس ومجالس المدن كعناصر فى عمارة الفضاء العام الذى أدخل التسوق ضمن أنشطة عامة أخرى وأعطى فى الوقت ذاته للتجارة دوراً تكميلياً ونفعياً على نحو ملائم . وفصل الفضاء التجارى عن أى نوع آخر من الفضاء العام ألمحت

إليه أسواق العالم وأقره تطور المراكز التجارية سمح للاستهلاك التجارى بأن يهيمن على الفضاء العام، حيث يحول كل نشاط إنساني آخر إلى تنويع على الشراء والبيع . ولاحظت مارجريت كروفورد Margret Crawford ، وهي تلميذة نجيبة من تلامذة ثقافة المراكز التجارية، أن الهدف السريع للشركات العقارية هو حشد العالم بكامله داخل المركز التجارى . إنها تستشهد بواحد من بناة أكبر المراكز التجارية فى العالم، وهو الذى قال متفاخراً فى حفل الافتتاح: "ما فعلناه يعني أنكم لن تضطروا للذهاب إلى نيويورك أو باريس أو ديزني لاند أو هاواى . لقد أتينا بها جميعاً إلى هنا فى مكان واحد، فى ادمنتون بألبرتا فى كندا من أجلكم ." (27) واقترحت جوان ديديون Joan Didion أن المراكز التجارية فى واقع الأمر تدفع إلى الإدمان . فهي أماكن فيها "المرء يتحرك لبعض الوقت فى مزيج مائي، معلق، ليس من الضوء وحده، وإنما من الحكم كذلك، وليس من الحكم وحده، بل من الشخصية أيضا" .(28) والحدود التى تفصل المركز التجارى عن العالم الهدف منها إزالة كل الحدود القائمة بين ما يجرى داخل المركز التجارى وفى العالم: عدد قليل جداً من المخارج ولا وجود للساعات . وحيث أن الأطعمة السريعة تزود المستهلكين بالطاقة كي يتسوقوا ("تناول العشاء" يسرق الوقت من التسوق) ودور العرض متعددة القاعات توفر الحوافز الترفيهية للاستهلاك . لذلك فإن هندسة فراغات المركز التجارى-وضع السلالم وتجميع المحال التجارية حسب مستوى الدخل والتقسيم النوعي للمحلات وجعل حركة المشاة تسير ببطء-ليس لها هدف سوى تسهيل الاستهلاك .(29)

والمركز التجارى ليس جزءاً من الضواحي بالقدر الذى يجعله عنصراً جوهرياً من عناصرها، ذلك أن الضواحي تسعى جاهدةً للتخلص من جانب مدينة الملاهي . ويدعو كتيب صادر عن مكتب السياحة فى كاليفورنيا القراء إلى إلقاء نظرة لم تتح لهم من قبل على مقاطعة أورانج (وكان ذلك قبل أن تعاني المقاطعة من الإفلاس الشديد، الأمر الذى يجعل ما يأتي ينطبق عليه القول بأن شر البلية ما يضحك):

إنها مدينة ملاه-مدينة ملاه مساحتها سبعمائة وستة وثمانون ميلاً-وفكرتها الأساسية هي "يمكنك أن تنال ماتريد" .

إنها أكثر ما يشبه كاليفورنيا من كل مكان يسمى كاليفورنيا: الأفلام الأكثر شبهاً والقصص الأكثر شبهاً والحلم الأكثر شبهاً .

إن مقاطعة أورانج هي أرض الغد وأرض المنجزات مندمجتان معاً لا انفصال لهما.

هلموا إلى مقاطعة أورانج . ليس هناك من مكان أشبه بالوطن . (30)

المراكز التجارية مدن ملاه . ومدن الملاه مقاطعات بالكامل فى الضواحي . ومقاطعات الضواحي مراكز تجارية . ومحال المراكز التجارية تعزض بطبيعة الحال "أفكار أساسية" خاصة بها وتتخصص فى تسوق الحوافز . والمنافذ التى تقدم ضروريات الحياة اليومية مثل المعدات والطوابع والصناعات الدوائية ومحال البضائع الرخيصة المتنوعة التقليدية تكاد تكون غائبة غياباً تاماً . ويظهر مكانها محال الطبيعة ودكاكين الأنتيكات وبوتيكات العصـــر الحديث وستوديوهــات الألعاب والموسيقى وأســواق الاستهلاك المصغـرة martsmini مثل ذا شاربر ايميدج و بروكستون التى لا تبيع ما تحتاجه وإنما كل ما تريده- ما أن تطأ قدماك المحل . وإلى جانب الأسواق المصغرة، هناك محال العلامات التجارية والفروع التجارية التابعة لمدن الملاهي . فالمئات من محال ديزني، التى كانت من أوائل من دخلوا سباق المراكز التجارية، تواجه الآن منافسة من جانب محال الستوديوهات الأخرى مثل محال وارنر براذرز ومترو جولدوين ماير . وعرض الافتتاح العظيم لمحل مانهاتن وارنر ستوديو منافسي ميكي ماوس وهما بجز باني Bugs Bunny وتويتي بيرد Tweetie Bird حيث دعا عددا لا حد له من أهل نيويورك المعروفين (من الحيوانات والبشر)، وكانوا يرتدون قبعات رسمية من الحرير، إلى "اكتشاف أحدث تجربة للتسوق الترفيهي فى نيويورك" . وكان بذلك يقدم للسؤال "متى يكون محلاً من المحال مدينة ملاه؟" إجابة سهلة هي: "عندما يكون تجربة للتسوق الترفيهي" .

وضماناً لكون المراكز التجارية متعة من المتع، تضع الكثير من الشركات العقارية ألعاب الواقع الوهمي عالية التقنية التى تكلفها مبالغ كبيرة (تصل إلى مليوني دولار) . وهي بذلك تزيد من انهيار الحدود التى تميز بين ديزني لاند وماكدونالدز (وهو كذلك يجرب استخدام الألعاب) والمركز التجارى بالضواحي . ويتنبأ واحد من محللي الاستثمارات أن

"الأسواق التجارية قد تجد أنه من الضرورى أن يكون لديها هذا النوع من التسلية كي تبقى مقصداً للناس" .[31] وتحويل الأحياء إلى مراكز تجارية ثم تحويل المراكز التجارية فى الأحياء إلى مدن ملاه يجعل منها بكل تأكيد مقاصد لكل رجل ولكل امرأة كذلك، خاصة أنه فى الضواحي (حيث يعيش مايزيد على نصف سكان أمريكا فى الوقت الحالي) المركز التجارى هو "الحي" والفضاء التجارى هو الفضاء الاجتماعي الوحيد المنظور .

ومدن الملاهي، التى هي فى واقع الأمر مراكز تجارية للتسوق، والمراكز التجارية، التى هي فى الحقيقة مدن ملاه، موجودة فى كل مكان . فستوديوهات السينما تشيدها لتكون نصباً من العالم الواقعي لخيالاتها من العالم الآخر . ويقيمها منتجو السلع المعمرة لتكون أسلحة ترفيهية لاستراتيجيات البيع الخاصة بهم (مدينة نايك التى سبق ذكرها) . وترعاها الحكومات والدول أملاً فى أن تقدم صورة ما أو تحيي ماضياً أو تعود عليها بفائدة من الفوائد. والحكومة الفرنسية التى نجحت فى إعفاء صناعة السمعبصريات الفرنسية من دورة الجات الأخيرة. هي نفسها التى قامت بدور كبير قبل ذلك سنوات معدودات (ومعها مؤسسات مالية فرنسية رائدة) بتجميع الأملاك وبناء الفنادق ليورو ديزني . بل إنها مولت محطة على خط القطار السريع الذى هو من مفاخر فرنسا . ويحتفظ القطاع الخاص الفرنسي بـ51 بالمائة من يورو ديزني فى الوقت الراهن، وإن كان أداؤها الضعيف فى السنوات الأولى قد جعل المستثمرين لا يقبلون عليها وتسبب فى أول فشل متوقع لديزني .

وفى ظل روح إنكار الذات التى ميزت الحكومة المعرضة للهجوم، وقفت الدولة فى أغلب الأحيان موقف المتفرج . والسلطات المحلية من حقها أن تطلب من الشركة المستثمرة الامتيازات لكي تسمح بإعطاء تصاريح الحفر والبناء، غير أنها قامت بدور خاطب الود المتحمس للشركة المستثمرة، بدلاً من أن تكون المنظم العام لها، ووجهت إليها القليل من التساؤلات.. والواقع أن هـ . وين هويزنجا H .Wayne Huizenga عملاق الفيديو الذى يمتلك شركة بلوكبستر إلى جانب مجموعة من الأندية الرياضية المحترفى وأدمج مؤخراً بلوكبستر مع فياكوم، مشترى بارامونت الناجح، قد نجح كذلك فى إقناع المجلس النيابي فى فلوريدا بالسماح له ببناء "حديقة بلوكبستر" على مساحة ألفي وخمسمائة فدان من المستنقعات شمالي ميامي، باعتبارها المقاطعة الثامنة والستين من مقاطعات فلوريدا .

والتشريع الذى يُمكِّنه من القيام بذلك يسميها "مقاطعة خاصة متعددة التشريعات للسياحة والرياضة والترفيه" بينما تطلق السلطات المحلية عليها "عالم وين" . وسوف يحكمها مجلس يضم خمسة أعضاء يمثلون مُلاَّك المقاطعة . إلا أنه ليس هناك سوى مالك واحد، هو بلوكبستر . ويفسر رئيس مجلس لجنة مقاطعة ديد المؤيد لإنشاء الحديقة الأمر قائلاً: "نحن مشغولون بالحدود الخارجية للديموقراطية كما نعرفها-ألا وهي خصخة الحكم" .[32] ومنذ زمن ليس بالبعيد كان الاحتمال أن ينظر الناس إلى مثل هذه العبارة الحادة على أن ألفاظها متناقضة ، وربما اعتبروا أنها تنطوى على غباء وحسب . فإذا كانت هناك أية مؤسسة عامة بقدر لا يمكن انتقاصه حسب تعريفها فهي الحكومة . ولكن يبدو أن سيادة الدولة تنتهي عند أبواب مدينة الملاهي . وأن تكون بلا أى حدود ولا تخضع لمحاسبة أية سلطة عامة أياً ما كانت ، أمر لم يعد مجازاً على كوكب ريبوك .

وتحويل الواقع إلى مدينة ملاه له كثيرون ممن يتحمسون له فى الخارج . ففي الوقت الراهن يناقش رجال أعمال من الولايات الألمانية الشـرقية بقيادة فـرانك جـورجى Frank Georgi مدير الحفلات الموسيقية فى برلين (وكان قد فر من جمهورية ألمانيا الديمقراطية سنة 1989) إقامة مدينة ملاه باسم "حديقة أوسي" على أرض قاعدة عسكرية مساحتها خمسمائة فدان بالقرب من فاندليتس فى براندنبورج على جانبي ما كان يوماً المخبأ النووى للزعيم الألماني الشرقي ايريك هونيكر Eric Honnecker . وطبقا لما ذكره من يخططون لهذا المشروع، سوف يتمكن زوار حديقة أوسي (التى أخذت اسمها من الاصطلاح الدارج الذى عُرف به الشرقيون إبان الحرب الباردة) من:

> تجربة "عام نمطي" مكثف فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية [فى الحقبة الشيوعية] ، بما فى ذلك الاحتفالات الجماهيرية التى تنظمها الدولة، مثل احتفال الأول من مايو . وسوف يطلب من زوار اليوم الواحد أن يغادروا المكان بحلول منتصف الليل، وكأنهم فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية . وسوف يقوم الحراس بدوريات على الحدود . وسوف تؤدى محاولات الهرب إلى الحبس الذى يدوم ساعة أو ساعات . وسوف يُطلب من كافة الزوار أن يستبدلوا حداً

أدنى من العملات الصعبة مقابل الماركات الألمانية. ... وسوف يكون من المتاح الاستماع إلى التعليق السياسي عبر "القناة السوداء" التى يُعاد تركيبها كما كانت فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية . سوف يكون هناك كذلك بث مشوش للتلفزيون الألماني الغربي (و) تجار سوق سوداء ومعارضة تعمل فى الخفاء .[وسوف تُحاط الحديقة بالكامل بالأسلاك الشائكة وسور وسوف] تضم محال تجارية ليس فيها ما يكفي من سلع وأفراد الشرطة السرية (stasi) الذين يتشممون الأخبار وورق التواليت المنشى المعروف بـ"انتقام ستالين" الذى يضمن ملمسه، كما تقول إحدى النكات القديمة فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية، أن تكون "كل مؤخرة حمراء" .(33)

وليس مؤكدا إن كان هذا المشروع، وهو بحق مشروع سخيف وإن كان لا يزيد سخافة على بعض مشروعات ديزني الجارى تنفيذها، سيتحقق أم لا فى ظل الحالة المالية المضطربة فى ألمانيا . بل إن التفكير فيه يجعلنا نتساءل عن الشوط الذى قطعته مدينة الملاهي منذ بدايتها فى لندن سنة 1851 أو ظهورها الثاني (مع ديزني) فى أناهايم سنة 1955 .(34)

عالم والت ديزني هو قاعة الاستقبال فى عالم ماك . فتحويل الواقع إلى رسوم متحركة أسس بها والت ديزني أول مدينة ملاه خاصة به فى أناهايم منذ حوالىنصف قرن كان بشيراً بخليط عالم ماك المغرى الذى يضم التجارة والوهم والرغبة الموجهة والإشباع . وهذا هو ما جاء فى واحد من الإعلانات الترويجية الأولى:

سوف تقوم ديزني لاند على المثل العليا والأحلام والحقائق الثابتة التى قامت عليها أمريكا وستخلص لها . وسوف يكون لديها كل ما هو فريد من معدات لتحول هذه الأحلام والحقائق إلى واقع تنشره ليكون مصدر شجاعة وإلهام للعالم أجمع .

ستكون ديزنى لاند أشبه بسوق و معرض و ملعب ومركز اجتماعى و متحف للحقائق الحية وصالة عرض للجمال والسحر . وسوف تملؤها منجزات العالم الذى نحيا فيه ومباهجه وآماله . وسوف تذكرنا بالطريقة التى نجعل بها هذه العجائب جزءاً من حياتنا . وترشدنا إلى كيفية تحقيق ذلك .(35)

والواقع أن الأيام أثبتت أن "الحقائق الثابتة" لا وجود لها ، كما أنها لم تصبح جزءاً من حياتنا بشكل كبير . وتكتب إلين أورجينتز Eileen Orgintzما يفترض أنه تقريظ (فى صحيفة لوس أنجليس تايمز) قائلة "عالم ديزني مكان غير واقعى ولا تتوقع أن يقتحمه الواقع. الكل سعداء ويأكلون مأكلاً حسناً . كل شيء نظيف . كل إنسان لطيف . لا تشك فى أى شيء. انتظر حتى تعود إلى بيتك لتشعر بالذنب بشأن كل مشاكل العالم" .(36)

وكما كانت الشمس فى يوم من الأيام لا تغرب عن الإمبراطورية البريطانية، فاليوم بإمكان ديزني لاند أن تتباهى بأنها "المتعة التى تتعقب الشمس فى دورانها حول الأرض".(37) وديزني لاند التى فى أنهايم ،وتُعد نبراساً لكل ماتلاها من نماذج، يقترب عمرها من نصف القرن، وعالم والت ديزنى يزيد عمره على العشرين سنة، وديزني لاند طوكيو (بجبلها الجديد للتزلق إلى الماء) يزيد عمرها على عشر سنوات وفى سنة 1992 أضافت 16 مليون زائر آخر إلى زوارها البالغ عددهم 100 مليون أو يزيد فى السنوات العشر السابقة . والأزواج اليابانيون ضمن هؤلاء الذين يختارون مدن ملاهي ديزني مكاناً لإقامة حفلات زواجهم ما بعد الحداثية . ويورو ديزنى الواقعة خارج باريس هى الاستثناء من القاعدة ؛ فهي وإن كانت تتحاشى أن تصبح أول أرض إفلاس لديزني، سوف تواجه أوقاتاً عصيبة وهي تشق طريقها فى السوق الأوروبية التى تتسم بالصعوبة . ذلك أن أوروبا هي المكان الذى تموت فيه الأحلام . والحالمون كافة هاجروا إلى مناخ أمريكا الأكثر دفئاً.لقد أصبحت فلوريدا، وهى ملعب أمريكا، الموئل الطبيعي لديزني؛ وحتى فى اللحظة التى يشعر فيها بعض السياح الأوروبيون الحذرون إنها أرض القتل، نجدها ماضية فى تحقيق وعودها الخاصة بعالم والت ديزني ومدينة ملاهي ديزني وستوديوهات مترو جولدوين

ماير ومنتجع ديكسي لاندنجز وبونيت جريك جولد كلوب ومنتجع ديزني فاكيشن كلوب وايبكوت سنتر ومدينة ديزني الجديدة للاحتفالات المزمع إنشاؤها. وتدر مدن ملاهي ديزني فى أنحاء العالم 3.3 مليار دولار من إجماليدخل ديزني السنوى البالغ 5.7 مليار دولار، بينما تدر الأفلام 1.3 مليار دولار أخرى وتمثل السلع الاستهلاكية (المرتبطة بمدينة الملاهي والأفلام) 1.1 مليار دولار . وتستمد أقسام ديزني الثلاثة أفكارها من مجموعة واحدة من صور الرسوم المتحركة التى تشكل بتنويعات لا آخر لها من خلال القسم الهندسي المسئول عن تحديد واقعنا من جديد .

وفى السنوات القليلة الماضية شرعت شركة ديزني فى تحويل التاريخ الأمريكي إلى واقع وهمي وتحويل سياسته إلى رسوم متحركة . ومؤخراً أضاف عالم والت ديزني فى فلوريدا بيل كلينتون إلى قاعة الرؤساء فيه التى تحظى بشعبية كبيرة . وكما هو حال ابراهام لنكولن Abraham Lincolnمن قبله، "صُوِّر" الرئيس كلينتون على هيئة إنسان آلىيتحرك ويتكلم- حيث يلقي بعض الخطب التى على قدر مدهش من الإيجاز .[38] وكذلك نجحت الشركة تقريباً فى بناء "أمريكا ديزني" وهي مدينة ملاهي الحرب الأهلية فى ماناساس حيث كان من المقرر إحياء أشد حروب أمريكا دموية على هيئة مشاهد تقدم مقابل أجر معين على أن تقدم (بما يتفق مع الواقعية التى تتسم بقدر صارم من الصحة ونتنظرها من زماننا هذا) بكل ما فيها من عنف أخوى . وأوقفت المعارضة السياسية فى فيرجينيا ومقاطعة كولومبيا ومعهما حملة دعائية قومية نظمها المؤرخون الساخطون مشروع ماناساس فى آخر لحظة، ولكن مسئوليديزني مازالوا يسعون لإقامة مدينة ملاه أمريكانية. مع أن مدينة ملاه الحرب الأهلية التى لم يكتب لها الظهور، "بما فيها من قرى هندية مقلدة ونموذج لإحدى المزارع ومعارك تمثيلية من الحرب الأهلية وسوق " وكل هذا "فى إطار من قوافل هندية حقيقية ومزارع حقيقية وسوق المقاطعة وإحدى المدن الصغيرة التى نهبتها القوات الاتحادية " كان قد أقرها مؤرخون مرموقون .[39] ويناقش الباحثون ما تنطوى عليه مدن الملاهي هذه من مزايا الحفاظ على التاريخ، بينما تحاول شركة ديزني الوصول إلى معاييرهم الصارمة . ولكن المسألة ليست مسألة حفظ وكان هناك شيء مضحك بشان ضمان الشهادة العلمية المقدمة للواقع الوهمي الذى يوضع فى مصاف واقع الحرب الأهلية التى تمثلها .

إلا أن مبتكرات ديزني لا تبتغي الحقيقة وإنما ما يشبهها: مابعد الحقيقة أو الوهم . وكنه الواقع الوهمي هو أنه يشبه وحسب ذلك الواقع الذى ليس منه بشيء ولا يمكن أن يكونه بحال من الأحوال . فلا يسعك ممارسة الجنس فى كهف القراصنة أو الوصول إلى ألمانيا من خلال جولة فى حصن ديزني البافارى أو اغتيال لنكولن فى قاعة الرؤساء . كل ما يمكنك عمله هو شراء تذكرة للمشاهدة: المشاهدة بلا أية عواقب، والمشاهدة دون تحمل أية مسئولية . وربما كان هذا هو السبب فى أن ديكستر كنج Dexter King (الابن الأصغر لمارتن لوثر كنج) لقي مثل تلك المقاومة لمشروعه الخاص بتحويل متحف والده التذكارى إلى مدينة ملاه أشبه بديزني تُعرف بآلة زمن مارتن لوثر كنج الابن ومتحفه التفاعلي .[40]

عائلة كنج شيء وديزني شيء آخر . فلا يمكن أن نطالب ديزني بتحمل عبء أكبر مما تضمنه مسئوليات شركة من شركات الترفيه . فهدف الشركة على قدر كاف من البراءة، بل قل من الحب: ليس الأمر تعديل للواقع وإنما بضع ساعات أو أيام (وفى الأحوال المثالية أسابيع، إذا كان لا بد أن تظل فنادقها ممتلئة) من الاسترخاء الهروبي الذى تمارسه الجماهير المتعبة . ومدن الملاهي لا تشكل وحسب عالم ماك الأكبر الذى تعرض قيمه، ولكنه هو أيضاً يشكلها . فمن ناحية من النواحي يعد عالم ماك مدينة ملاه-مدينة تسمى أرض الأسواق حيث كل شيء فيها للبيع ، ودائما ما يكون هناك إنسان آخر مسئول وليس هناك مصلحة مشتركة أو صالح عام ، وحيث الكل متساوون طالما كان بإمكانهم تدبير ثمن تذكرة الدخول ويرضيهم أن يشاهدوا وأن يستهلكوا .

إلا أن عالم ماك باعتباره أرض الأسواق ليس كياناً طبيعياً جرى صوره قدرة إلهية محسنة . إنه مصطنع ومملوك . والطريقة التى يُمتلك بها تشي بقدر كبير من طبيعته .

الفصل التاسع
من يملك عالم ماك؟
جنون دمج وسائل الإعلام

قطاع التليفزيون الترفيهي المعلوماتي هو قلب عالم ماك . وهو يتخذ أكثر فأكثر مظهر الفرع الذي تملكه بالكامل حفنة صغيرة من الشركات القوية التي يقل عددها يوماً عن يوم، بينما تزداد شمولاً في طموحاتها . والمفهوم الذي يحرك جنون اندماج وسائل الإعلام الجديد يحمل اسم "synergy"[التداوب]الحديث الذي يصف ما يُفترض أنه الإبداع الثقافي والإنتاجية الاقتصادية الناشئين عن تجميع الصناعات المتنافرة التي كانت في يوم من الأيام تسيطر، رغم انفصالها التام، على شُعب قطاع الاتصال الترفيهي المعلوماتي الثلاثة كلها: عمل البرامج والقنوات والأنابيب التي توزعها والمعدات التي تُعرض من خلالها . وفي اقتصاد عالم ماك المثالي ، كل شركات الإنتاج التي تخرج المنتج ، وشركات التليفون والكيبل والمحطات الفضائية، إلى جانب الشركات التي تصنع أجهزة التلفزيون والكمبيوتر ودور العرض متعددة القاعات، في يدي شركة كونية واحدة . ويتضح أن التداوب طريقة مهذبة للتعبير عن الاحتكار . وفي مجال المعلومات تعد كلمة احتكار تعبير مهذب عن التماثل، الذي هو تعبير مهذب عن الرقابة الوهمية- الرقابة ليس بصفتها نتيجة للخيارات وإنما باعتبارها محصلة لأسواق غير المرنة والمنافسة غير الصحيحة واقتصادات المؤشر- السعي من أجل منتج واحد يمكن أن يكون له مالك واحد ،ويباع لكل ذي نفس على كوكب الأرض .

وقد حلت الرغبة في الاحتكار عبر وسائل الإعلام محل طموحات الشركات التقليدية التي كانت تهف إلى الاحتكار في إطار وسيلة بعينها . وطبقا لما يقوله باجديكيان، فإنه بحلول التسعينيات كانت سبع عشرة شركة إعلام ضخمة تحصل على نصف إجمالي العائدات "من كل وسائل الإعلام"، بما في ذلك التسجيلات الصوتية والكيبل والفيديوكاسيت .[1] وكان التجميع قد أدى إلى تقليص عدد اللاعبين من ستة وأربعين سنة 1981 إلى ثلاثة وعشرين سنة 1991 منها عدد قليل جدا يُعد إعلامياً بحق .[2] بل إن

باجديكيان كان يصف الموقف قبيل الشراء الذى قام به اليابانيون والتآكل الذى أصاب مؤخراً الحدود بين التليفون والكيبل والبث الإذاعي والتلفزيوني الذى أدى إلى تسريع عملية التجميع بصورة أشد عزماً.

وتهدف الشركات إلى فرض سيطرتها على كل خطوة من خطوات صنع الصورة من المنبع حتى وصولها إلى المستهلك . وبينما كانت العادة فى السابق أن يكتب المؤلف كتابه ثم يبيعه (ربما عبر أحد الوكلاء) للناشر الذى يطبعه، بينما يبيع حق نشره مسلسلاً لإحدى المجلات المستقلة ثم يجد بعد ذلك أنه مازال هناك موزعون مستقلون وباعة كتب يبيعه لهم، وفى حين كان المؤلف أو الوكيل أو الناشر قديماً يسوقه فى هوليوود، حيث كان يشتريه واحد من ستوديوهات السينما المستقلة ويحوله إلى فيلم، ومن ثم يبحث عن موزع مجهول ليوزعه وصاحب دار عرض أو سلسلة دور عرض مستقل ليعرضه، وفى الوقت الذى كان فيه ستوديو السينما يبيع الحقوق لمحطة بث مستقلة كي تعرضه على شاشة التلفزيون–بحيث تكتمل الدائرة التجارية وقد شارك ربما العشرات من الكيانات المستقلة فى العملية التنافسية المعقدة، الخاصة بالوصول بأحد الأعلام الإبداعية إلى جمهور الوسائل المتعددة الممتدة، بالطرق التى تسمح بدخول العديد من القوى الإبداعية والمالية وخروجها، فى الوقت الذى تزيد فيه الفرص والخيارات أمام المبدعين الثقافيين والمستهلكين الثقافيين على السواء–تسمح اليوم عجائب التداوب لكيان واحد بالسيطرة على العملية برمتها . ولايقتصر الأمر على احتمال قيام الشركة المالكة للشركة المجمعة بامتلاك مجموعة تسيطر عليها من دور النشر، بل بمقدورها كذلك أن تمتلك الوكالة التى تتولى بيع الكتاب والمجلة التى تنشره مسلسلاً وستوديو السينما الذى يشتريه ويحوله إلى فيلم والموزع الذى يوزعه وسلسلة دور العرض التى تعرضه وشركة تصدير الفيديو التى ترسله إلى السوق الكونية، بل وربما حويات الأقمار الصناعية أو الأسلاك التى يُبث من خلالها وجهاز التلفزيون وجهاز الفيديو الذى يُعرض عليه فى آخر المطاف فى مكان ما، وليكن إندونيسيا أو نيجيريا . هذا ليس تداوياً : إنه شمولية تجارية–فقيمة واحدة (الربح) ومالك واحد (المحتكر) يطغيان على كل الفروق ويجعلان كل الاختيارات عديمة النفع ويحيلان كل التنوع إلى خدعة . بل إنه لا عجب أن أنصار الحزب الجمهورى كانوا يشعرون بقلق بشأن الاجتماع بين نيوت جنجريتش وروبرت مردوخ . ولا عجب أن منتقدين آخرين لم يقتصر انتقادهم على صفقة الـ5.4 مليون

دولار (التى وضعت جانباً) مقابل كتاب لم يكتبه رئيس الكونجرس وإنما شمل كذلك الاجتماع نفسه .

وتبدو العملية التى تؤدى إلى التجميع على قدر كاف من الطبيعية: فالشركات الناقلة تريد أن تسيطر على الربح الناتج عما تنقله، والمبدعون الثقافيون يريدون السيطرة والربح من الكيانات (المحطات والشبكات) التى تنقل ما يبدعونه، وموزعو البرامج يريدون السيطرة والربح من المعدات التى تُوزَّع عليها بضاعتهم . كل طرف يريد قطعة من النواة الإبداعية، حيث يُصَنَّع "المضمون" الذى يحرك كل شيء سواه . لماذا تكون مزماراً لموسيقى غيرك، بينما يمكنك أن يكون لك مؤلَفك الموسيقي ومقطوعتك الموسيقية مثله؟ ولكن النتائج سوف تقضي على الفروق المفاهيمية التى كان التمييز بين عناصر هذا القطاع الرئيسية يتم بها- أى الأفلام والتلفزيون والكتب ومدن الملاهي-بينما تنظر الحكومة إليها نظرة سلبية . وتقول مجلة نيوزويك إن "الفكرة هي الحصول على قطعة من كل فطيرة فى العمل . فسوني تأتي لك الآن بماريا كارى Mariah Carey وجهاز الووكمان ماركة سوني الخاص بك، وببرنامج Wheel of Fortune [عجلة الحظ] على تلفزيونك طراز ترينيترون، وبمسرحية Sleepless in Seattle على مسارح ليوس التى تملكها بأنظمة صوت سوني".(3) أو كما يقول أليكس ج ماندل Alex J. Mandl (كبير المديرين التنفيذين فى مجموعة خدمات الاتصالات التابعة لايه تي أند تي) وهو يفسر شراء ايه تي أند تي المزمع لشركة ماك كو سيليولار كوميونيكيشنز مقابل 6.12 مليار دولار (الذى لم يتحقق) "نحن نريد أن نرى علامة ايه تي أند تي على قاعدة قومية . إن بإمكاننا أن نقدم خدمة من الباب للباب" .(4) ويظل أهم شيء لهذا كله النواة المعلوماتية/الإبداعية، أى البرنامج . وبكلمات سمنر ردستون الموجزة فإن "البرنامج هو اسم اللعبة" .(5)

والاندماج الرأسي لوسائل الإعلام ظاهرة جديدة نسبياً . وتوحي إدارة باجديكيان الحريصة للتسجيلات بأن معظم الصحف والمجلات ظلت مستقلة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى السبعينيات . وكانت الاندماجات الأولى داخل القطاعات، مما خلق إمبراطوريات الصحف وشركات الكتب المجمعة وستوديوهات السينما المندمجة- كان ذلك اقتحاماً لم يرحب به أحد للاحتكار، ولكنه كان يحترم الحدود الفاصلة بين الأنواع المختلفة من

المعلومات والترفيه وكان جاداً فى تحاشيه الدخول فى مجالات السلع المعمرة التى كان المشاهدون والمستهلكون يعتمدون عليها . وحتى السبعينيات كان هناك المئات من ناشرى الصحف والمجلات والكتب المستقلين، وكان لكل منهم نشاطه الطباعي الخاص به، وعشرات من ستوديوهات السينما (وصناعة سينما قادرة على البقاء فى عشرات من الدول فى أنحاء العالم)، وثلاث شبكات ضخمة إلى جانب عدد كبير من المحطات المستقلة، وشركة تليفون تغطي البلاد مسئولة عن خدمة التليفونات الدولية ولا شيء سوى ذلك، وعشرات من شركات المعدات التى كانت تنتج السلع المعمرة التى كان الجمهور يتلقى من خلالها البرامج المتنافسة التى ينتجها كل منتجي الترفيه والمعلومات-أجهزة التلفزيون وأسلاك التليفون وأجهزة الفيديو وأجهزة الراديو وأجهزة الكمبيوتر وخلافه .

إلا أنه مع بداية الثمانينيات، وفيما يعد فى جزء منه رد فعل لهوس الاندماج الذى كان أكثر عمومية، وإن كان فى أساسه نتيجة لبناة إمبراطورية وسائل الإعلام الطموحين ، وبعيدى النظر مثل روبرت ماكسويل Robert Maxwell وروبرت مردوخ-كانت نظرتهم استحواذية وكان طموحهم بلا حدود-عبرت الحدود من كل نوع . ومحاكاةً لسابقة استيلاء جلف أند ويسترن على بارامونت سنة 1966 مقابل 125 مليون دولار، استهدفت كل من نيوز كوربوريشن التابعة لمردوخ وماتسوشيتا وسوني شركات الترفيه، ليس كمجرد وسائل أخرى للتنويع ، بل كطريقة لدخول بيت حضارة عالم ماك الناشئة . وبحلول منتصف التسعينيات كانت شركات جديدة نسبياً مثل هوم شوبينج نت ورك و فياكوم وبلوكبستر فيديو قد دخلت فى عمليات استيلاء تنافسية ومتبادلة وكانت تنصب أنفسها شركات الألف سنة الجديدة المجمعة المهيمنة التى تتولى البيع والترفيه .

بدأ هوس الاستيلاء هذا فى أوائل الثمانينيات بمئات من اندماجات وسائل الإعلام وبيعها، بالمعنى الحرفى تقريباً لكلمة مئات، لم أورد منها إلا عينة تمثلها فى الجدول المصاحب عن اندماجات وسائل الإعلام (انظر قائمة اندماجات وسائل الإعلام) .

وبينما لا يتوقف حديث الناس جميعاً عن التداوب، نجد أن السهام مصوبة فى اتجاه واحد: فكل الاندماجات تقريباً استهدفت شركات تسيطر على المنتج الإبداعي ، الذى بدونه

لا يصبح لدى مصنعي المعدات ولا أجهزة التوصيل أى شئ تعرضه أو توصله . ولاحظت مارجو ل فينيولا Margo L. Vignola محللة وسائل الإعلام فى شركة سالمون برانرز ملاحظة ذكية مفادها أن "ضآلة الموهبة الإبداعية والمنتج المتاح مع وجود قدر ضخم من التكنولوجيا التى تطاردها" كان هو ما ذكّى نار هوس الاستيلاءات والاندماجات . وفى استطلاع للحرب الدائرة بين فياكوم وكيو فى سي للحصول على بارامونت، توصلت إلى أن "الشركات مثل شركات التليفونات الإقليمية وموردى الكابلات تكبلها حقيقة أنها لا تملك أى منتج، كما أن أى شركة لها هذا القدر الكبير من النتائج المختلطة مثل بارامونت تصبح درة مادونا . فالكل يريدها".(6)

اندماجات وسائل الإعلام

التاريخ	الهدف	المشترى	السعر (بالمليار دولار)
1966	بارامونت (الدورة الأولى)	جلف أند ويسترن (تغير الاسم إلى بارامونت سنة 1989)	.125
1982	كولومبيا بكتشرز	كوكا كولا	.750
1985	فوكس برودكاستنج	نيوز كوربوريشن التابعة لمردوخ (فوكس للقرن العشرين وفوكس تليفيجن وفوكس بودكاستنج كومباني)	.575
1985	مترو جولوين ماير يونايتيد آرتستس	تيرنر برودكاستنج(تحتفظ بمكتبة تضم 3 آلاف من أفلام متروولكنها تبيع الباقي بـ800 مليون)	1.5
1986	شبكة ان بي سي (آر سي ايه)	جنرال إلكتريك	6.5
1988	سي بي اس ريكوردز	سوني (كمقدمة لعرض شراء كولومبيا)	2
1989	كولومبيا بكتشرز	سوني (السعر–نقداً–لايشمل ديناً مفترضاً	3.8

		قيمته 1.3 مليار وشراء 49 بالمائة من أسهم كوكاكولا)	
1989	وارنر كوميونيكيشنز	تايم انكوربوريشن تنشيء تايم وارنر (بارامونت تحاول عرقلة هذه الصفقة عن طريق عرض عدواني لشراء تايم انكوربويشن ،)	14
1990	ام سي ايه	ماتسوشيتا (يونفرشال بكتشرز أند(باناسونيك) ميوزيك)بما في ذلك (باناسونيك: عملاق إلكتروني ياباني) ام سي ايه ريكوردز وجفن ريكوردز وموتاون ومجموعة ناشرين تشمل بوتنام وبيركلي وجوف وجروسيت أند دونلاب وكاورد–ماكان ومدن ملاه تشمل يونيفرستي سيتي ستوديوز بهوليوود بفلوريدا	6.1
1992	مترو جولدوين ماير (ستوديوهات السينما)	كريدى ليونيه (بنك فرنسي يستولىعليها من المشترى الإيطالي المفلس ولا بدب يعيد بيعها خلال 5 سنوات)	1.3
1993	تايم وارنر	يو اس ايه ويست (إحدى شركات بيبي بيل تشترى > الأسهم	2.5
1993	ماك كو سيليولار كوميونيكيشنز	ايه تي أند تي	12.6
1993	هاوزر كوميونيكيشنز (شركة كابلات)	ساوز ويسترن بيل	.650

1993	جروبو ايوساسل (ثاني أكبر شركة خلوية فى المكسيك)	بيل أطلانتيك	1.04
1993	ام سي آى (شركة اتصالات للمسافات البعيدة)	بريتش تليكوم (تشترى 5/1 الأسهم)	4.3
1993	سبرنت	فرانس تليكوم و دويتش تليكوم	2.1
1993	وومتكو أند جيورجيا تلفزيون كيبل	يو اس ويست	2.1
1993	كاسل روك فيلمز أند نيو لاين سينما	تيرنر برودكاستنج	.672
1993	ريببليك بكتشرز	بلوكبستر فيديو (سلسلة فيديو ومساند لعرض فياكوم لشراء بارامونت	.100
1993	ليبرتي ميديا	تليكوميونيكيشنز انكوربوريشن، كمقدمة لاندماج بيل-أطلانتيك	8.3
1993	تي سي آى (تليكوميونيكيشنز انك،، أكبر شركة كابلات في العالم تغطي 25٪ من أمريكا)	بيل أطلانتيك (صفقة فى خطر)	26
1994	نيكستل	موتورولا	1.76
1994	تايمز ميرور كيبل	كوكس كيبل	2.3
1994	بارامونت كيبل(الدورة الثانية)	فياكوم، إمبراطورية الكيبل التابعة لردستون بعد حرب عروض شراء مع هوم شوبنج نت ورك(كيو فى سي) التابعة لبارى ديلر	10
1994	بلوكبستر	فياكوم، لتضيفها إلى ملكيتها لبارامونت	7.6
1994	هيوستون اندستريز	تايم وارنر	2.3

انظر بنفسك: رغم أن الكثير من الصفقات تأخذ شكل الاندماج وليس الاستيلاء، ففي كل حالة تقريباً يكون الهدف شركة تسيطر على إنتاج إبداعي من أجل عالم ماك-ستوديو سينما أو مكتبة أفلام أو شركة توزيع فيديو أو شبكة بث أو شركة كيبل . وهذه لا تمثل سوى عدد مختار من أكبر الصفقات . وكانت كل شركة من تلك التى دخلت بالفعل فى اللعبة مشتركة فى عمليات امتلاك واندماجات أصغر حجماً، وهو ما يفسر هذا التنوع فى الكيانات التى يملكها ما يعد ستوديو سينما من الناحية العملية مثل بارامونت . فبارامونت بحق مهرجان لسلع عالم ماك ومنتجاته . وعندما حاولت فى سنة 1989 منع اندماج تايم مع وارنر كومينيكيشنز ، من خلال عرض عدائى لشراء تايم بمبلغ 7.10 مليار دولار، كانت قد أضافت بالفعل إلى أملاكها الضخمة من الأفلام والفيديو دار نشر سايمون أند شوستر (وهي نفسها شركة نشر مجمعة تضم برنتيس-هول) وكذلك ماديسون سكوير جاردن، إلى جانب فريقى كرة السلة والهوكى اللذين يلعبان هناك (تخلى المالك الجديد فياكوم عن فريقي نيكس ورينجرز لشركة ترفيمعلوماتية أخرى هي كيبل فيجين سيستمز التابعة لتشك دولان Chuck Dolan بدعم مالىمن آى تي تي) . وفى الوقت نفسه سيطرت تايم انكوربوريشن، التى كانت بارامونت تشن عليها ومعها مجلاتها التقليدية (ومنها لايف وبيبول وسبورتس إلاستريتد وفورشن وموني) غارة ناجحة، على شبكة الكيبل هوم بوكس أوفيس وعلى سينيماكس وشركة تشغيل الكيبل أمريكان تيليفيجن أند كوميونيكيشن كوربوريشن وتايم-لايف بوكس وليتل براون أند كومباني. وما أن دخلت تايم اللعبة فى أواخر 1993 حتى كانت هي نفسها هدفاً لمعركة عروض شراء بين طالب الود فياكوم (وقد تحقق لها النصر فى آخر المطاف) والغازى الذى لا يبدى وداً كيو فى سى، وتشمل أملاكه كذلك ترانس-لوكس ثييتر وفيماس ميوزيك كوربوريشن ومؤسسة ملكة جمال الكون ومدن ملاهي بارامونت . ولا تعد أى شركة مجمعة مكتملة بدون توقيعها الذى هو مدينة الملاهى .

ووسط محاولات بارامونت مع فياكوم و كيو فى سى ، توقف سعيها لامتلاك ما كانت لا تزال دار نشر كبرى-وهى ماكميلان ببليشنج كومباني، انكوربوريشن- لتفكر فى عقد

صفقة مع كريس-كرافت لبدء شبكة تليفزيون خامسة (حيث أن شبكة فوكس هى الرابعة). وأموال بارامونت تعكسها تلك الممتلكات التى بحوزة ذلك العدد من منافسيها ومنهم تايم وارنر وسونى-كولومبيا وماتسوشيتا-ام سي ايه ونيوز كوربوريشن التى يملكها مردوخ وأدفانس ببليكيشنز/نيو هاوس برودكاستنج التابعة لإس آى نيو هاوس وكابيتال سيتيز/ايه بي سى . أضف إلى ذلك ما تبقى من الشركات المستقلة (ام جى ام/يونايتد آرتستس، تحت وصاية بنك كريدى ليونيه المالية المؤقتة، وديزنى هى آخر الشركات المستقلة بحق) إلى جانب شركات التليفونات الإقليمية السبع وما امتلكته حديثاً من شركات الكيبل والشركات الأجنبية التى تسعى وراء شركات إنتاج البرامج نفسها، وكذلك حفنة من الشركات العملاقة الملتزمة بالنشر التزاماً شديداً مثل برتلسمان (التى حصلت مؤخراً على بانتام بوكس وآر سى ايه ريكوردز علاوة على إحدى ناطحات السحاب فى مدينة نيويورك) وداو جونز ونيويورك تايمز كومباني إلى جانب قوى رقائق الكمبيوتر وبرامجه مثل انتل وميكروسوفت . وما تزال هناك أربع وعشرون شركة تسيطر تقريباً على كل بكسل فى قطاع الاتصال المعلوماتى الترفيهى . وسوف نتحدث حديثاً مستفيضاً عن الأسواق الحرة ومزاياها وعيوبها فى الجزء الأخير من الكتاب، ولكن ليس هناك قدر كبير من أية سوق حرة فى قطاع الاتصال الترفيهى . وغياب اللوائح الحكومية لا ينتج عنه، وربما لن ينتج عنه، أى شيء مثل المنافسة الحقة أو التنوع الحقيقى للمنتج وللملكية . فهنا، كما هو الحال فى كثير من المجالات الأخرى، كان إلغاء القيود باسم التنافس يعنى تجميع الشركات والاحتكار فى الممارسة العملية .

وهياكل هذه الشركات المعقدة والمتداخلة لا يمكن أن تحجب ذلك الضوء الساطع الصادر عن حفنة من الشخصيات اللامعة التى سارت وراء سيسيل ب. دى ميل Cecil .B De Mille وسام جولدوين Sam Goldwyn حتى جبل الأوليمب فى هوليوود . وفى الوقت الراهن يقف على القمة على ارتفاع من مد وجزر الشركات الذى لا أمان له كل من مايكل أيزنر Michael Eisner وتد تيرنر وروبرت مردوخ وسمنر ردستون وبارى ديلر ومارتن س. ديفز Martin S . Davis وديفيد جيفن David Geffen وجورج لوكاس George Lucas ومايكل أوفيتز وبيل جيتس وجيفرى كاتزنبيرج Jeffery Katzenberg

وهـ. وين هويزنجا وجون ك. مالون John C. Malone وستيفن سبيلبرج . وهم (مع الفارق) أسماك قرش فى ماء خليج من الخلجان تحلم بعالم هي وحدها من يتصوره ويصوره والتحالفات تتبدل والمد يزحف ولكن اللاعبين لا يتغيرون: بعد أن أُحبط ايزنر كاتزنبرج.[7] انضم إلى جيفن وسبيلبرج . وبعد أن هضم ردستون بارامونت ، يتطلع إلى تناول العشاء مع هويزنجا . وبعدما أساء ديفز معاملة ديلر انضم إلى مردوخ ، لمجرد أن يحرر نفسه ثم يجرى فى آخر المطاف وراء بارامونت التى بحوزة ديفز .

وقصة هذه الشخصية الأخيرة، أى بارى ديلر صاحب كيو فى سى، يمكن أن تكون رمزاً لسياسة احتكارات وسائل الإعلام الجديدة المفترسة، التى رغم ما قد تقدمه من خدمة لمصالح المساهمين على المدى القصير (وهو مايبدو أنه المصلحة العامة الوحيدة التى تهتم بها المحاكم)، لا تخدم التنافس ولا الإبداع ولا الصالح العام ، سواء على المدى القريب أم البعيد . ويعد بارى ديلر أحد القوى فى هوليوود لسنوات كثيرة . وفى أوائل الثمانينيات، وبعد أن تتلمذ فى إنتاج الأفلام، انتهى به الأمر فى بارامونت حيث سرعان ما تولى منصباً فى الإنتاج، حيث كان معلماً للمنتجين الصغار مثل سكوت رودين Scott Ruden . وأدت التوترات مع مارتن ديفز، الذى كان وقتها رئيسا وما زال لبارامونت، إلى طرد ديلر . ذهب ديلر إلى شبكة فوكس تليفيجن التى حقق فيها نجاحاً كبيراً إلى أن اشترى روبرت مردوخ فوكس سنة 1992 . ورغم دعوته إلى البقاء، كان ديلر يريد حصة مالية فى فوكس لم يعطها له مردوخ . لذلك انتقل إلى ما يعتقد مراقبون كثيرون أنه طريق مسدود ينهي به حياته العملية–وهو كيو فى سي شبكة التسوق المنزلى. وكانت كيو فى سي قد توصلت إلى واحدة من أبسط حقائق عالم ماك وأرسخها قبل معظم اللاعبين: التلفزيون هو الاستهلاك، والإعلانات تشكل أكثر برامجه شعبية . دع المستهلكين يشترون ما يشاهدون، وأنت تملك التلفزيون المتحد وعالم المراكز التجارية–وهما أشد مجالات عالم ماك بأساً . وكما تبين ام تي فى والإعلانات الأحدث ذات الشعبية الكبيرة والربحية العالية التى تستغرق نصف الساعة أو الساعة، لا يكاد الجمهور يعرف متى تنتهي البرامج االإعلانية ومتى تبدأ الإعلانات المبرمجة . وفى حدود معرفة المشاهدين للفرق ، فإنهم قد يفضلون النوع الثاني على الأول . وكيو فى سى فيما يراه ديلر لم تجسد فلسفة الشركات الخاصة بحساب

المكسب والخسارة التى كانت وراء الاندماجات فحسب، بل إنها وفرت له منبراً يمكنه منه خلق إمبراطوريته هو . وعندما تقدم سمنر ردستون بعرض ودى لشراء بارامونت فى صيف 1993، رأى بارى ديلر أن هناك فرصة كي يناور بشركته الرمزية لتصبح إحدى قوى عالم هوليوود ويصفي فى الوقت نفسه حساباته مع مارتن ديفيز، خصمه العنيد السابق فى بارامونت . وأسفر الطموح الشخصي بدعم من تداوب الاتصالات عن تداوب أعلى مكّن بارى ديلر تقريباًمن إنهاء الصفقة غير الودية التى كانت ستسمح له بضم أكبر ستوديو مستقل خلاف ديزني، بمساعدة من قرارات المحكمة التى انتقدت تحيز بارامونت لفياكوم .

وفى هوليوود ، حيث لا يوجد إنسان منعزل عن الآخرين ، يتطلب كُل استيلاء أرخبيل شركات على أقل تقدير، تلقى ديلر العون . فقد قدم رد ستون صاحب فياكوم دعماً مالياً يقدر بـ600 مليون دولار من بلوكبستر فيديو بتخويل من هـ. وين هويزينجا (الذى اندمج معه فى آخر المطاف وكان يسيطر بالفعل على ريببليك بكتشرز وسبيلنج انترتينمنت بالإضافة إلى امتياز ثلاثة أندية رياضية فى ميامي) و2.1 مليار دولار من نينيكس، التى كانت قد أبرمت للتو صفقة تداوبية أخرى مع تومم كوربوريشن فى اليابان لإنشاء تليفزيون كيبل وتفاعلي هناك-وكانت شركات التليفونات Baby Bells تبحث عن منتج كي تضخه فى أسلاك تليفوناتها وأنظمتها الخلوية . لذلك أهاب ديلر بكل من كوكس انتربرايزس وأدفانس ببليكيشنز التابعة لإس آى نيوهاوس (وهي تسيطر على ست وعشرين صحيفة ونظام كيبل وراندم هاوس انكوربوريشن وغيرها) بأن تتعهد كل منها بدفع مبلغ 500 مليون دولار . وفى الوقت نفسه تحرك ديلر، وإن كان ذلك التحرك متردداً بعض الشي، للاعتماد على جون مالون، وهو أحد أغنى أغنياء أمريكا و"ملك الكيبل" الذى يعترف به الجميع، وعلى قوة مسيطرة فى أكبر نظام للكيبل فى البلاد وهي تيليكوميونيكيشنز (وهي نفسها مشتركة فى خطة عملاقة للاندماج مع بيل أطلانطك مقابل 33 مليار دولار، وإن كان هناك احتمال لفشل هذه الصفقة) وليبرتي ميديا، وهي منتجة برامج تلفزيونية تمتلك بلاك انترتينمنت تيليفيجن وفاميلي تشانل وتملك 5.22 بالمائة من كيو فى سي . ومع تايم وارنر (التى تملك حصة قدرها 25 بمائة) وتيليكوكوميونيكيشنز التابعة لمالون (وتملك حصة قدرها 23 بالمائة) تسيطر كذلك على تيرنر برودكاستنج سيستم التى أُضطرت للجوء إلى التمويل

الخارجي عندما فاقت عمليات الامتلاك المزدهرة التى قام بها تيرنر قدراته المالية . وفى ذلك الوقت كانت كيو فى سي نفسها، باعتبارها المشترى العدواني المحتمل لباراموينت، ملكاً ليس فقط لبارى ديلر نفسه (6.12 بالمائة) بل كذلك لجون مالون (من خلال ليبرتي ميديا التابعة لمالون وتمتلك 2.22 بالمائة من كيو فى سي) وكومكاست كيبل التابعة لبريان روبرت Brian Robert التى تمتلك 5.12 بالمائة أخرى . وتسيطر تايم وارنر، التى تمتلك مع تيليكوميونيكيشنز التابعة لمالون تيرنر برودكاستنج، على 9 بالمائة أخرى . لا شيء فى حقيقته كما نراه بالضبط . كل إنسان يمتلك قطعة فى إنسان ما وليس هناك من هو بحق خارج تلك اللعبة . فكما هو الحال فى المراكز التجارية، كل الخارج موجود فى الداخل .

وليست تفاصيل التربيطات والعلاقات هي المهم فى هذا المقام . فبعد سنة أو نحو ذلك من الآن سوف تتبدل الاندماجات والتحالفات من جديد وسوف يصبح بعض المُلاَّك الناجحون فريسة لبعض الشركات الأخرى . إلا أن اللاعبين لن يتغيروا والذى سيتغير فقط هو توقيت دخول كل منهم أرض الملعب . سوف يكون هناك قدر كبير من هياكل الشركات المتداخلة التى تتبدل بصورة خطيرة على أرض غير مستقرة . ومن بين فجوات تلك الهياكل ليس هناك إلا عدد محدود من الأفراد الأقوياء الذين سيمضون فى الدوران–وحفنة ضئيلة فقط منهم سيكونون لاعبين مؤثرين ، إما على الجانب الإدارى أو الإبداعي . فمالون مدير لديه الكثير من الأموال (وهو يطلق على نفسه، فى دوره الجديد كنائب رئيس مجلس إدارة بيل أطلانطك، "الخادم المليارديرا") ويفترض أن ديلر عبقرى مبدع .[8] وأثناء حرب عروض الشراء التى دارت بين كيو فى سي وفياكوم كان ديلر ومالون المفضلين وكانت هناك ميزة مؤقتة لسمنر ردستون ومارتن ديفيز . ولكن أثناء العملية ضاقت مساحة اللاعبين من جديد، كما أن المصلحة التى كان الجمهور بشكل عام يجدها فى الوصول وصولاً تاماً إلى طريق المعلومات السريع، بأقصى قدر من اختلاف البضاعة والتنوع الثقافى وبحرية اختيار وتعبير حقيقية، قد تلاشت أكثر وأكثر فى كل حالة .

إن انتصار الدولار على ما عداه من مصلحة يمكن تصورها، عامة كانت أم خاصة، لم يأت فقط بنظرة تجارية فظة لتحتل المكان الذى ينبغي أن تشغله معلومات راقية وترفيه متنوع، بل جاء كذلك باحتكار مناهض للمجتمع الديمقراطي والحضارة الحرة، إن لم يكن

للرأسمالية نفسها كذلك . وإذا كان انضمام "العباقرة المبدعين" مثل سبيلبرج وكاتزنبرج وجيفين يعد كابوساً لمنافسيهم، فهو لن يزيد من المنافسة بالضرورة-ولا حتى الإبداع، وإن كان المراقبون سوف يحتفون مرة أخرى بالتداوب . ومع ذلك كيف يتسنى لرجل يدعى ادجار برونفمان Edgar Bronfman (سيجرام) أن يستولى على شركة تدعى ماتسوشيتا/ام سي ايه/يونيفرسال بكتشرز دون أن يخلق احتكاره الضخم؟ وبغض النظر عن أى شيء آخر قد تقدمه احتكارات عالم ماك فى قطاع الاتصال الترفيهي المعلوماتي الحيوى، فهي لا تقدم الثقافة ولا الحرية ولا الديمقراطية .

وهذا الاستنتاج المحزن يعود بنا إلى نفس الأسئلة التى أثارها فى الفصل السابق أثر الأسواق الاقتصادية عامةً فى عالم ماك . ويمكن أن يصوت المشاهدون بدولاراتهم وكذلك برؤيتهم الخاصة بأهوائهم عن الشراء، ولكن من ذا الذى يتحدث فى نطاق عالم هوليوود باسم الجمهور؟ هل هناك ما يقابل على المستوى الكوني ولو مؤسسة شديدة الضعف مثل لجنة الاتصالات الفيدرالية؟ وإذا كانت مدن الملاهي تتحدث الآن عن "خصخصة الحكم" وتولى الكثير من وظائف الدولة، فهل من سبيل أمام المواطنين للقيام بعكس ذلك و"جمهرة الأسواق الخاصة" وإجبارها على أن تكون خاضعة للمحاسبة ومطالبتها كحد أدنى بقدر من مراعاة المصلحة العامة؟ أية مؤسسة يمكنها ممارسة ضغوط مماثلة على المراكز التجارية أو مدن الملاهي أو احتكارات وسائل الإعلام باسم المساواة أو التنوع أو المجتمع؟

وأى من الدول التى جربت فى الفترة الأخيرة جرعة معتدلة من التقنين يُنظر إليها على أنها بعبع تجارى وتجد نفسها عرضة لاضطهاد من جانب التجار الأحرار والمتحمسين لحرية العمل فى السوق-حسب العبارة القديمة laissez – faire. وفى الوقت الحالى هناك عدد قليل من الحكومات الديمقراطية، التى ليست بكل تأكيد فى أمريكا أو إنجلترا، تبدى قدراً كبيراً من تقبل التقنين أو الرقابة باسم المصلحة العامة . لقد باتت الحكومات أهدافاً للزبائن المغربين ومنزوعي الولاء ولا يُنتظر أن يعتبرها أحد أدوات يمكن للمواطنين أن يروضوا بها الرأسمالية المتوحشة بعضاً من الوقت . لقد خرجت الأسواق منتصرة من حرب ضد الدولة القومية والمصالح العامة التى تمثلها وكانت قد شُنت على أقل تقدير منذ آدم

سميث Adam Smith . وفى سنة 1990 اتفق كل من كينيتشي أوماى من اليابان وهربرت هنزلر Herbert Henzler من ألمانيا الغربية وفريد جلوك Fred Gluck من الولايات المتحدة-وهم ثلاثة متنافسين يسعون إلى الاتفاق-على "إعلان اعتماد متبادل نحو العالم فى سنة 2005" . وكان أقصى ما فيه من تجديد هو المطالبة بدور الحكومات المركزية فى "التغيير من أجل: السماح للأفراد بالوصول إلى أفضل السلع والخدمات وأرخصها من أى مكان فى العالم، ومساعدة الشركات على توفير الوظائف المستقرة والمجزية فى أى مكان فى العالم بغض النظر عن الهوية القومية للشركة، وتنسيق الأنشطة مع الحكومات الأخرى بغرض الحد من الصراعات الناشئة عن المصالح الضيقة، وتحاشي التغييرات المباغتة فى الأسس الاقتصادية والاجتماعية" .[9] فهل التغييرات المباغتة كالتحول الديمقراطي؟ وهل المصالح الضيقة مثل سياسات البيئة والتوظيف القومية؟ إن الإعلان يهيب بالدولة القومية المساهمة فى تصفية نفسها . وفى أقاليم كثيرة من العالم الغربي يبدو أن الدولة على استعداد لتقديم العون، فى ظل تورط الساخطين من الرجال والنساء الذين يفضلون بكل وضوح حقوقهم كزبائن ومستهلكين على مسئولياتهم وحرياتهم كمواطنين .

ربما تحيل بذلك الضرورة إلى ميزة . فحيثما لا تزال هناك حكومات تسعى إلى التقنين أو الرقابة أو الدعم أو التدخل يقل نفع جهودها يوماً بعد يوما، لأن سوق الترفيه والمعلومات أصبحت على قدر كبير من الكونية، ولأن التقنيات باتت تستعصي على الرقابة المحلية، ولأن أيديولوجيا التجارة الحرة أمست على درجة كبيرة من الشيوع والانتشار . ففي الولايات المتحدة يضغط المؤيدون للتقنين مثل نائب الرئيس جور Gore من أجل "الخدمة الكونية" على الطريق السريع الجديد للمعلومات ويحثون على أن "التلميذ فى قرطاج بولاية تنيسي ينبغي أن يكون قادراً على التوصل إلى مكتبة الكونجرس والعمل وهو فى بيته بسرعته هو ... بغض النظر عن دخله" .[10] بل إن رئيس الكونجرس جنجريتش اقترح طرقاً لإيصال أجهزة الكمبيوتر إلى أيدى الفقراء . إنها أفكار لا بأس بها، ولكنها تدور حول أشياء غير محتملة الحدوث مثلها مثل أى شيء يمكن تخيله فى ذلك المناخ العدواني من الشعور المناهض للحكومة والأسواق الانتقالية التى تسود زماننا .

وهكذا يعاود السؤال الأصلي الظهور: فى عالم يجرى فيه تمزيق الدولة القومية ومؤسساتها الديمقراطية وإضعافها على أيدى قوى الجهاد الباعثة على الشقاق والخلاف، فى نفس اللحظة التى ترى فيها قوى عالم ماك المتآزرة أنه أمور عفى عليها الزمن ومن نافلة القول، كيف للديمقراطية أن تبقى؟ فى أى جزء من طريق المعلومات السريع الذى يتباهون به تقع تلك الطرق المؤدية للعدالة والأنابيب التى سوف تنقل رأى الشعب؟ والآن وقد فككوا إمبراطورية الحكام المطلقين والأيديولوجيات السياسية الدولانية، ومنها الديمقراطية، كيف تتمكن المجتمعات من الدفاع عن مصالحها المشتركة فى مواجهة إمبراطورية الأرباح والاحتكار الثقافي؟ أية أيديولوجيا ديمقراطية تلك التى تستطيع المقاومة فى ظل ادعاء أن هناك "اختيار" فى الأسواق "الحرة" بحيث يمكننا استعادة القدرة على اختيار الصالح العام بصورة مشتركة، وبالتالى نحرر أنفسنا من النتائج العامة غير المقصودة لكل خيارات السوق الخاصة التى تتنكر فى هيئة الحرية غير المنتقصة؟ هل الجدل العام المتروى حول مثل هذه المسائل ممكن حيث تخفي أنظمة اتصالات عالم ماك خيارات تحد من المواقف العامة وتعجل بالسلوكيات الخاصة، دون أية مناقشة على الإطلاق؟

من السخافة بمكان أن نقول إن التآمر أو بعض الطموحات السياسية التى لا ترحم لها دخل فى ذلك . إن عالم ماك يسير بالطيار الآلي: وهذه هي النقطة الأساسية فى السوق. فما تأتي به من تأثيرات بغرض الترويج لها لا تفرضه حاجتها إلى السيطرة، بل تدفعها إليه حاجتها إلى البيع . فالمنطق العبثي للمبيعات هو شركة تصنع منتجاً واحداً يفي بكل الحاجات: حذاء رياضي مزود بلصقة تغذية متصلة بنظارة شمسية تحقن الكوكاكولا مباشرة فى عروق الأذن الداخلية بينما تعرض أفلام الفيديو مباشرة على مقلتي العين بحدقتيهما المتسعتين . والتبعات السياسية لهذا المنطق ليست متعمدة: إنها نوع من شمولية الحاجة دون أن تكون هناك حكومة شمولية: الكل رعية وليس هناك حاكم . النساء والرجال تحكمهم شهيتهم وليس هؤلاء الطغاة الأقل شأناً الذين جرى العرف على أن يخافهم الناس باعتبارهم "حكام بأمرهم" أو "أحزاب راسخة ومتماسكة" .

وأصبحت فكرة الجمهور ذاتها شديدة الارتباط بالدولة القومية ، ذلك أن فكرة وجود جمهور كوني على قدر من القوة يكفي لمواجهة أفراد عالم ماك الكونيين تبدو غير واردة،

خاصة في ظل التفتيت المتزايد للكيانات العامة المحلية على أيدى الكثير من قبليات الجهاد الجديدة . وفي الواقع الوهمي الأناني للفضاء الإلكتروني يبدو أن العامة في خطر . فكيف تكون هناك أرض مشتركة في حين تختفي الأرض نفسها ويسكن الرجال والنساء كل ما هو مجرد؟ قد يكون هناك شكل جديد من أشكال تطوير المجتمع بين تلك الأعداد التي لا حصر لها ممن يجلسون على انفراد أمام شاشاتهم ويتصلون فقط من خلال أطراف أصابعهم بالشبكة الوهمية الجديدة المعروفة بالإنترنت . ولكن سياسة ذلك "المجتمع" لم تُخترع بعد، ولا يحتمل أن تكون سياسة ديمقراطية . فمن هم على الشبكة يثرثرون حول المجتمع، ولكن متى كانت آخر مرة تحدثوا فيها مع جار من جيرانهم ؟ وإذا كان السياج الجيد يصنع جيراناً جيدين، فالجيرة الوهمية تصنع سياجاً جيداً–في وجه الجيران الحقيقيين .

واحتفاء بالجمهور المنتظر في أمريكا، غنى وودى جوثرى Woody Guthrie ذات مرة، ليس من باب ماهو واقع بالفعل بقدر ماهو الأمل الذى يعتمل داخله، "هذه الأرض أرضك، هذه الأرض أرضي" . أرض من هي ديزني لاند؟ أو من يملك "بلد" سبيلبرج الـ"جديد"؟ ولمن ينبغي أن يكون عالم ماك، وهل سيكون في مقدورهم انتزاعه من هؤلاء الأفراد غير المسئولين شديدى العشوائية أو الشركات غير المسئولة واحتكارية الذين يملكونه في الوقت الراهن؟ إن الشعراء الذين يقلون موهبة عن جوثرى يقدمون إجابتهم عن هذا السؤال: حيث يغنون "نحن العالم" . ولكن عالم من نحن؟ أين "نحن" في عالم ماك؟ إنه يعترف بخليط مضطرب من الأنوات التي تعمل بدوافع شخصية في سوق مجهولة الهوية، ولكنها لا تقدم خيطاً واحداً يوصل إلى هوية مشتركة أو إلى مكان المجتمع في السوق . وليس مستغرباً أن القبائل الجديدة التي تلحق الهزيمة بالدولة القومية لا ترى في عالم ماك سوى دمار كل شيء يشكل هويتها المشتركة. ويبدو أن الديمقراطية هي الخاسر أولاً وأخيراً . فلدى الجهاد مزايا أخرى يجرى وراءها، وهي ما تستبعده أولويات عالم ماك استبعاداً تاماً . وفي ظل هذه الظروف، هل يمكن للديمقراطية أن تجد تعابير جديدة ومؤسسات جديدة ومواقف جديدة تسمح لها بالبقاء؟

هذه االتساؤلات من الناحية الفنية البحتة تساؤلات خاصة بالنظرية السياسية والعلوم السياسية . إنها تشير إلى الحركة الأخيرة من صورتنا عن الجهاد وعالم ماك بإثارة السؤال التالي: هل الديمقراطية ممكنة فى ظل ظروف أى من الجهاد أو عالم ماك؟ إلا أننا قبل الإجابة عنها علينا أن نتفحص ما أطلقت عليها قوى الجهاد بنفس الاهتمام الذى أوليناه عالم ماك . فالجهاد هو التحدى الآخر الذى يواجه الديمقراطية فى الألف الثالثة وربما لا تزال خطورته على المؤسسات الحرة أعظم على المدى القصير .

الجزء الثانى

عالم الجهاد القديم

الفصل العاشر

الجهاد ضد عالم ماك

أم الجهاد عبر عالم ماك؟

الكائنات البشرية على قدر كبير من الفقر النفسي، والاعتماد الشديد على المجتمع، وتملؤها كذلك رغبة غامرة في أخوة الدم التى يحرمها منها الاستهلاك التجار، ولديها ميل قوى نحو الأخوية التي لا تسمح بها متطلبات الشخصانية، مما لا يجعل أمام عالم ماك أى خيار إلا أن يخدم الجهاد، بل وأن يتولى تعبئته وتسويقه . فقد رأينا كيف أن تسويق الأحذية الرياضية يدور حول بيع الثقافة الفرعية السوداء، وكيف أن أمريكان اكسبريس تتعامل مع السفرات الكونية (وهي إحدى ميزات عالم ماك) على أنها رحلات سفارى إلى ثقافات غريبة ما تزال على ما هي عليه بطريقة أو بأخرى، بالرغم من الزيارات وأعمال السلب التى أتاحتها أمريكان اكسبريس، وكيف أن "التعديلات" التى أدخلها ماكدونالدز على الأجواء الأجنبية، حيث النبيذ في فرنسا ولحم البقر المحلي في روسيا، حتى وهو يفرض أسلوب حياة يجعل أنواع النبيذ المحلية ولحم البقر المحلي أشياء غير مناسبة . عالم ماك إذن لا يمكنه العمل بدون الجهاد: إنه بحاجة إلى إقليمية ثقافية ضيقة كى يغذى شهيته التى لا حدود لها . ومع ذلك فالجهاد هو الآخر لا يمكنه العمل بدون عالم ماك: فأين ستكون الثقافة بدون المنتجين التجاريين الذين يسوقونها، وأنظمة المعلومات والاتصالات التى تجعلها معروفة؟ وبذلك يمكن للأصوليين المسيحيين (وهما لفظان لم يعد بينهما أى تناقض) المُحْدَثين الوصول إلى المنتدى الديني على خدمة Compu Serve Information، بينما يمكن للمسلمين التجول في أنحاء الإنترنت حتى يجدوا مستندات مسعود كاجي Cajee Mas' ood الإسلامية الإلكترونية Cypermuslim. وهذه ليست غلطة كمبيوتر: فالعنوان هو Cypermuslim.[1] إن الدين والثقافة على السواء بحاجة إلى تقنيات عالم ماك وأسواق عالم ماك . فبدونها لا يمكنهما البقاء على المدى البعيد .

ولتتأكدوا الآن من أنني قد ربطت بين عالم ماك وبعض التطورات المهمة التى باتت ممكنة بفضل الاختراعات في مجالات التكنولوجيا والاتصالات التى لم تظهر إلا عندما

أشرف القرن العشرون على نهايته. إلا أن عالم ماك، بشكل أو بآخر، مجرد تراكم طبيعي لعملية تحديث-بدأت منذ مولد العلم الحديث في عصر النهضة وما صاحب ذلك من نموذج للمعرفة فُسِّر على أنه قوة. وإذا أعملنا النظر، لن نجد في عالم ماك الكثير مما لم يُشر إليه فلسفياً في عصر التنوير، إن لم يكن في عصر النهضة: ثقته في العقل، وعشقه للحرية، وولعه بالسيطرة (وهو لا ينفصل عن ذلك العشق)، وتصوره للعقل البشرى على أنه صفحة بيضاء يُكتب عليها لتصبح بذلك وقد شفَّرتها صفوة فنية وتعليمية، وثقته في السوق، وتشككه بشأن الإيمان والعادة، وازدراؤه العالمي للثقافة الإقليمية. لقد احتقر فولتير Voltaire التاريخ، حيث استبعده لكونه لا يزيد إلا قليلاً عن كونه كتالوجاً لأخطاء البشرية وحماقاتها، بينما تفترض سيكولوجية التنوير أن هناك طبيعة بشرية عامة متأصلة في العقل ومثبتة في ذلك الانسجام الأعظم لسلسلة الوجود. ويقول الكسندر بوب Alexander Pope في ذلك الخيال الناضج في قصيدته "مقال عن الإنسان":

ما هذا كله إلا أجزاء من كل واحد عظيم الحجم،

جسده الطبيعة والرب روحه . ...

انظر في أنحاء عالمنا، ولتر سلسلة الحب

تربط كل ما هو أسفل وما هو فوق.

انظر إلى الطبيعة الجميلة وهي تعمل لغايتها،

والذرات المنفصلة تميل كل واحدة للأخرى .

لا شيء غريب: الأجزاء مرتبطة بالكل،

روح واحدة تشمل الجميع وتحفظ كل شيء

وتربط كل كائن، الأعظم بالأدنى.

لقد جعلت البهيمة في عون الإنسان، والإنسان في عون البهيمة.

الكل مخدوم، والكل خادم، لا شيء يقف بمفرده.

السلسلة متصلة، ولا أحد يعرف منتهاها.

إن بهرجة عالم ماك اليقظة وتجاريته المخدِّرة، علاوة على غرائب الوهمية المثيرة، التى أثارت الإشكاليات حول معنى الواقع، قد تبدو أمراً مستحدثاً. إنها على سبيل المثال تثير أسئلة عما إذا كانت المجتمعات الوهمية التى نُظِّمت حول الإنترنت مجتمعات سياسية أم عامة بأى منطق مقبول، وعما إذا كانت شبكات المعلومات تحسن من استطاعة الجمهور الوصول إليها ومن القدرة المدنية أم تقضي عليهما. وسواء كان ذلك مستحدثاً أم لا، فليس هناك الكثير في ما بعد حداثتنا ما يدهش تنوير الحداثة وأبطال ما بعد التنوير من أمثال بوب وفولتير وج.س. ميل J. S .Mill وماكس فيبر Max Weber ، أو ما قد يفرح أحد أنبيائها مثل روسو Rousseau ونيتشه Nietzsche اللذين لمحا أكثر من مرة إلى كيف أن التنوير سوف يكتب نقيضه المظلم. وبذلك استطاع آلان بلوم Allan Bloom إنجاز الجزء الأكبر من شكواه بشأن عالمنا الباهت في الوقت الراهن، عن طريق إجراء "بروفة" على شكاوى القدماء من عالمهم في ذلك الوقت.(2)

وما أسميته قوى الجهاد قد يبدو إذن رِدة إلى عصور ما قبل الحداثة: أى محاولة لاستعادة عالم كان قائماً قبل الرأسمالية العالمية وكانت تحدد معالمه الغوامض الدينية، والمجتمعات الكهنوتية، والتقاليد الفتانة، والكسل التاريخي. بل إنها قد تبدو مضادة بشكل مباشر لقوى عالم ماك. ومع ذلك فالجهاد لا يقف موقف المعارض المطلق كأنه النقيض الغامض لعالم ماك، وهو في حد ذاته صدى للحداثة التى تعكس ملامحها حسنات العالم الحديث وسيئاته وتعززها–فهو الجهاد عبر عالم ماك وليس الجهاد ضد عالم ماك. وقوى الجهاد لا يتذكرها أو يستدعيها أعداء عالم ماك فحسب، بل إن أصدقاءه ومؤيديه يتخيلونها ويستدعونها كذلك.

الحداثة هي السابقة، وهي بذلك ترعى منتقديها وتجعلهم في حالة جيدة. ومع أن هؤلاء المنتقدين–وهم في طريقهم لمكافحة الحديث – قد يحاولون إحياء استعمالات عتيقة ومعايير

كلاسيكية، فإن مثل هذه الاستعمالات والمعايير-وهي العرقية والأصولية الدينية والقومية والثقافة على سبيل المثال-هي نفسها، ولو جزئياً، من اختراع العقل الحديث المثار.[3] الجهاد ليس نقيض عالم ماك فحسب، بل إنه ابنه. وبذلك يكون الاثنان مربوطين فيما يشبه اللحظة الفرويدية في الصراع الثقافي القائم، إذ لا يرغب أي منهما في التعايش مع الآخر ولا أن يعيش بدونه. وقد فهم بنديكت أندرسون Benedict Anderson الأمر فهماً صحيحاً حينما أدرك أن الآلة المحركة للجهاد، وهي الدولة، ما هي إلا "مجتمع سياسي متخيل".[4] وهو ما يصل بنا إلى مسألة القومية المهمة ودورها في كفاح الجهاد ضد عالم ماك.

معنى القوميـــة

من بين القوى التى تحرك الجهاد الحديث، قد يكون الدين هو الأكثر رفعة والأكثر ضرراً في وقت واحد. ولكن أى من هذه القوى ليس في شهرة القومية، كما يقول والتر راسل ميد Walter Russell Mead وكثيرون غيره، ذلك أنها "أقوى القوى السياسية على الأرض في الوقت الراهن".[5] والمشكلة هي أن هؤلاء الذين يتفقون على قوة القومية لا يتفقون على معناها. فهناك قومية قديمة وقومية جديدة، وقومية حسنة وقومية سيئة، وقومية مدنية وقومية عرقية، وقومية تصنع الأمم العظيمة وقومية تكون بمثابة نعش لها، قومية شرق أوروبية (نظمت لمواجهة الإمبراطوريات الأجنبية [التركية والروسية والنمساوية]) وقومية غرب أوروبية (نُظِّمت لمواجهة القوى الإقليمية التى تقف في وجه بناء الأمة)، وقومية الدولة القومية الليبرالية وقومية "العرق": التى تقوم على السياسة الإقليمية الضيقة والقبلية.[6]

وكلحظة في حياة الجهاد المعادية للحداثة، توحي القومية بضيق الأفق والعداوة والانفصال وتبدو كأنها تعيش في الأساس في صورة سلبية-تلك الإقليمية الثقافية الضيقة التى تهدف إلى تقويض دعائم الدولة القومية وتحطيم الكيانات متعددة الثقافات باسم الشذرات أحادية الثقافة. أما التجار الأحرار وأنصار وجود عالم ماك واحد فيستعملون القومية على أنها لفظ مبتذل ضار يدل على القبلية التفتيتية المعادية للعالمية، التى تفوح منها أخوة الدم إلى جانب جرعات سامة من الإقليمية الضيقة والبدائية.

إلا أن هذا يشوه ما هو في واقع الأمر مفهوم أكثر جدلية بكثير عن الفكرة القومية في التاريخ. فبينما يبدو أن القومية تقوض دعائم الدولة المتكاملة في الوقت الراهن، فقد ساعدت في يوم من الأيام في تكوين الدول التى أوجدت التنوير. ونتيجة لذلك، اكتسبت قوة دفع لا بأس بها وملمحاً تحديثياً خاصاً بها وثورات عقلانية (وإن كانت في كثير من الأحيان غير معقولة) أشعل نارها التنوير في فرنسا وأمريكا وألمانيا. التطلع إلى "قومية ليبرالية" وحد المثل العليا العالمية للحرية والمساواة مع المثل العليا الشيوعية للإخاء والتضامن، وحرك اليعاقبة والمؤسسين الأمريكيين على السواء، سمح رغم ذلك للشعوب التى تربطها الثقافة والتاريخ بوضع دساتير تقوم على الحقوق والعقل. وعلى سبيل المثال ، نالت الثورة اليونانية ضد الحكم العثماني التى قادت اللورد بايرون Lord Byron إلى حتفه سنة 1924، تأييداً قاطعاً من الرومانسيين الإنجليز والليبراليين الإنجليز، لأن تقرير المصير القومي كان ينظر إليه على أنه شرط لتقدم الحرية، وكان السائد أن الحرية هي أنبل مطامح القومية. ولم يكن هناك ليبرالى أقل من ج. س. ميل أقام ما رأى أنه رابطة ضرورية بين الحرية والهوية القومية، وهو ما يعكس تأكيد روسو على أن الأمة المتكاملة وحدها هي القادرة على صيانة أى دستور جمهورى. (7) واتفق القوميون الليبراليون والرومانسيون من هيردر Herder حتى ماتسيني Mazzini في وقت واحد على ديانة الإنسانية التى تؤله مفهوماً عالمياً واحداً للطبيعة البشرية وكذلك قومية ذات عزم: ففي لغة ماتسيني البليغة "القومية هي الدور الذى رسمه الرب لكل شعب ليقوم به في مهمة الإنسانية".(8)

وخلال فترة سماح لم تدم طويلاً (أثناء الثورة الفرنسية وفي أعقابها) عندما كانت الوطنية تعني حب أبناء الوطن بما لا يقل عن حب البلد (روسو)، ولم تكن إشارة كتاب la patrie إلى الجمهورية الديمقراطية بأقل من إشارته إلى الأمة، ظهر ذلك المزيج الرائع من المثل العليا الفردية وسياسة الهوية الشيوعية – وهو تركيبة من ديانة الإنسانية وقصة الأمم العلمانية – ليمكن العقل من مد جذوره، ويضمن بالتالي التميز الشخصي المشروع في أية هوية ذات أسس قوية من اللحم القومي والدم الثقافي. لقد انضمت الخصوصية إلى العالمية في أيديولوجيا للتقدم والثورة، وكان العالمي الحق، كما اعترف به بول هازار Paul Hazard ، هو "الشخص الذى كان يفكر a la francaise [على الطريقة الفرنسية]".(9)

ومكّن هذا الفهم الأمة من خلق دولة دستورية خاضعة لسيادة "شعب"[people] (volk أو gens أو peuple أو nation)-أي الدولة القومية - الذي أوجد بدوره الأرضية الشرعية كي تعمل عليها الديمقراطية. وفي الحدود التي ترتبط فيها مؤسساتنا الديمقراطية الحديثة بفكرة الدولة القومية، هناك ميراث من التحالف بين القومية والليبرالية على وجه الدقة.

إلا أن التزاوج كان من نوع خاص، حيث كان منذ اللحظة الأولى شراكة يحددها عدم التوازن. وإذا كان التاريخ ابتداءً قد ساهم في ذلك وشهد النصف الأول من القرن التاسع عشر استقرار الدول القومية الليبرالية الطموحة في كندا وأمريكا (وفي فرنسا بطريقة ما) وكذلك ظهورها في إيطاليا وبروسيا، وبحلول نهاية القرن كانت الليبرالية والقومية في طريقهما للانفصال. ومع أن هذا التزاوج كان يقوم على الاتساق بين الحرية والهوية الإقليمية، في حالات أمريكا وفرنسا وكندا، فقد أُدمجت التعددية في الهوية القومية لتكون الغراء الذي لا يمكن الاستغناء عنه. غير أنه في إيطاليا وألمانيا واليونان ودول البلقان لم يكن الأمر كذلك. وفشل الزواج قبل الأوان وكانت له عواقبه الوخيمة. وحسب وصف ايريك هوبسبوم Eric Hobsbawm ، في أواخر القرن التاسع عشر، كانت القومية قد "تبدلت من مفهوم يرتبط بالليبرالية واليسار، إلى حركة شوفينية إمبريالية ومعادية للأجانب تنتمي لليمين ... اليمين الراديكالي."(10)

إلا أن انتهاء القومية الليبرالية كتجربة تاريخية لم يكن نهاية لحياتها كنظرية اجتماعية. والنقاش الدائر من أجل الوصول إلى المثال الليبرالي التضميني للقومية يقوم به حتى الآن المثاليون الذين يجدون في التميز الشخصي المشروع أساساً واهياً ومجرداً للهوية، إلا أنهم ينظرون إلى السجل الفعلي للقومية التاريخية على أنه شديد الدموية والاستبعاد بحيث لا يمكن أن يكون أساساً للمواطنة المتكافئة. وأشار أورتيجا اى جاسيت Ortega y Gasset في العشرينيات، خلال فترة كان يجرى فيه القضاء على الإمبراطوريات والطموحات "القومية" التي سبقت بلقنة الشرق-وهي فترة تختلف عن فترتنا-إلى أن القومية، وقد حققت انتصاراتها القومية الموحدة، كان لزاماً عليها أن تغير استراتيجيتها: لاحظ أورتيجا أنه "في فترات التوحيد، يكون للقومية قيمة إيجابية وتصبح معياراً عظيم الأهمية. ولكن في أوروبا كل شيء أكثر من متحد، والقومية ليست إلا شكل من أشكال الهوس."(11) وفي

عصرنا الموحد توحيداً جيداً، بينما لا يبدو أن القومية الجديدة قد أصبحت نوعاً من الهوس المؤذى لتقويض الدول، ما تزال هناك أصوات تدعو إلى المثال التضميني. وبذلك تنتقد يائيل تامير Yael Tamir "التراث الليبرالي، باحترامه للحكم الذاتي الشخصي، والتفكير المتروى والاختيار،من جهة، والتراث القومي، الذى يؤكد على الانتماء والولاء والتضامن، من جهة أخرى . فواقع الأمر أن كلاً منهما يمكن أن يأوى الآخر، رغم أنه كثيراً ما ينظر إليهما على أن كلاً منهما مانع للآخر". وهي متأكدة من أن "الانضواء والاختيار ليسا متضادين بالضرورة".(12)

ربما لا يكون الأمر كذلك بالضرورة: ولكن التاريخ يشهد على أن ذلك حدث كثيراً. وفي هذا القرن، كان تناقض الواقع مع النزعة إلى الديالكتيك أكثر كثيراً من عدم تناقضه معها. وكانت الحرية والإخاء من مكونات أخوة الثورة الفرنسية، غير أنهما كانا مثل قابيل وهابيل اللذين ولدا ليقتتلا. وإن لم يكن الانضواء يعني على وجه الدقة الخضوع لهوية طائفية ممتدة، فهو يعني عضوية الهويات التى تحد من الاختيار. وعلى العكس من ذلك، يرى ج. س. ميل أن أشجار البلوط العتيقة الراسخة لا تطير-وهو ما يحتمل أن ادموند بيرك Burke Edmund كان قد ذكَّره به. فقد عرف بيرك أن "الرجال ليسوا مربوطين الواحد منهم في الآخر بالأوراق والأختام. إن ما يقودهم إلى الاتحاد هو ما بينهم من تشابه واتساق وتعاطف".(13) وخلافاً لذلك، يرى روسو أن الفراشات لا يمكنها أن تغرس جذوراً بقدر يزيد عما يمكن به للأشخاص الشرعيين المربوطين برباط العقد من رعاية الحب. وكما يشهد أى مواطن مُنح حق المواطنة، فإن اختيار المرء لجذوره ليس مثل كونه ذا جذور ثابتة بالمولد والدم. وربما تأتي العضوية التطوعية معها بإحساس خاص من التذوق-"لقد أصبحت أمريكياً"-ولكنها لا يمكن أن توفر الإحساس بهوية النسب: "أنا أمريكي". وإذا كانت "الأمة دائماً تُفهم على أنها عضوية أفقية عميقة" ترتكز على اللغة تسمح بتصور ماض مشترك، فإن الحرية والانضواء قد يكونا في أحسن الظروف ملمحين من ملامح صورتها الطبيعية الطارئة، و في أسوأ الظروف قد ينظر إليهما على أنهما ضاران.(14)

وفي الدراسة المبدعة التى قام بها عالم الاجتماع من القرن التاسع عشر فرديناند توينيز Ferdinand Toennies في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، بعنوان "الطائفة والمجتمع"

(Gemeinschaft und Gesellschaft) ، توصل إلى أن أسس طوائف الدم والعشيرة التقليدية تميل بصورة حتمية إلى الاستسلام لأسس المجتمعات التطوعية والتعاقدية في ارتقاء يتجه فقط للأمام. إنه ارتقاء بعيد عن التراث والدين والغموض فيما يتعلق بالعقد والعلمانية والعقلانية، ويمكن أن يكون مقصده النهائي ليس سوى ما أطلق عليه ماكس فيبر تحرير العالم من الأوهام. والشوق إلى طائفة أعيد تشكيلها وتلغيزها قد شجعها وعارضها في آن واحد عقلانية المجتمع الحديث الباردة، تماماً مثلما لقى الجهاد مؤخراً كلاً من تشجيع ما بعد حداثة عالم ماك ومعارضتها.

والواقع أنه بحلول نهاية القرن الماضي كانت تجربة القومية الليبرالية، رغم بقائها فى فرنسا وأمريكا، قد فشلت فى أماكن أخرى وحل محلها ما سماه أورتيجا "هوس" التفتيت. فقد جعلت الإمبراطورية القومية أشد تعصباً ومعارضة على الصعيد الإقليمي، بينما أبعدتها الرأسمالية عن الأفراد الليبراليين–عملاء السوق البرجوازية–وقربتها من أخوة الدم: ورثة العشائر القديمة المتخيلة. وكانت الحداثة تعني التجديد، وهو ما كان يعني التوسع الجرىء لعقليات العقلنة وترسيخ البيروقراطية والعلمنة العملية. وهذه الظروف بدورها لم تؤد فقط إلى تحرير العالم من السحر والأوهام والأساطير، بل خلقت بمرور الوقت سيكولوجية وجود حل فيها تقرير المصير الفردى والاستهلاك التجارى محل هوية الطائفة والانتماء للجماعة. وربما يكون المستهلك أبرز منجزات الحداثة. والمستهلك فى نهاية الأمر كائن فردى. وبينما ادعت جويل كوتكين–وقد مدت التشبيه إلى نقطة الانكسار–أنها وجدت "قبائل" مولعة بما هو جديد فى الشعوب التى تدير البنية التحتية الاقتصادية لعالم ماك (وهم اليهود واليابانيون والهنود والأمريكيون[كما قالت])، فالباعة والمشترون لا يتم فهمهم بشكل خاص من خلال النظر إليهم على أنهم ينتمون إلى إقليم واحد وتجمعهم أخوة الدم.(15)

ويحاول الكثيرون من ما بعد الحداثيين إعادة إنشاء الطائفة فى الجانب المظلم من علاقات العقد. وهم جميعاً يستغلون التاريخ. ولكن حسبما لاحظ ايريك هوبسبوم، "التاريخ هو المادة الخام للأيديولوجيات القومية أو العرقية أو الأصولية، مثلما أن زهور الخشخاش هي المادة الخام لإدمان الهيروين". وطالما أنه "من طبيعة الأشياء أنه ليس هناك فى العادة ماض ملائم تماماً، فدائماً يمكن اختراعه" عندما تستدعي الحاجة ذلك.(16) والطائفة فى

كثير من الأحيان اختراع من اختراعات السخط المرغوب فيه ، مما يجر إلى ماض مخترع. ويرى توني يوت Tony Judt أن "معظم المجريين لم يكونوا يعرفون أن أمتهم ولدت سنة 896 ، حتى أبلغهم بذلك وطنيو أواخر القرن التاسع عشر".(17) وذلك الشكل من أشكال التعدد الثقافى الذى يسلل "الكثير" التعددى بأيديولوجيا جديدة، ولنقل أيديولوجيا البروتستانت البيض، أو ثقافة الأمريكيين الأفارقة الأحادية، يمثل نموذجا للمجتمعات التاريخية المخترعة –خرافات ماكس فيبر عن الأصل المشترك –التى اخترعت كي تخدم الحاجة إلى قاعدة سياسية حديثة لهوية الجماعة. وتقدم "القومية" العرقية مثالاً آخر أشد إيذاءً بكثير. ويشير المحرر والمنظر الاجتماعي البولندى آدم ميتشنك Adam Michnik بسخرية إلى أنه فى بولندا، التى يُفترض أنها خالية من المشاكل العرقية، "يمكننا خلق صراع بولندى لتواني، وصراع بولندى أوكراني، ناهيك عن النزاع البولندى الألماني فى أوبلن، وبرنامج ضد الغجر فى ملاوا، وحملة معادية للسامية فى بلد ليس فيه يهود بالمرة".(18) ففي الأمور التى تتعلق بالقومية، يبدو أن الحاجة تظل أم الاختراع.

ومنذ أكثر من مائة سنة مضت، لاحظ ماركس أن تحطم القيود الإقطاعية على يد الرأسمالية الحديثة قد قضى قضاءً مبرماً على الطائفة التقليدية. وقد تحدث عن تحطيم كل القيود وتنبأ بذوبان الثقافة القائمة: إذ حذر من أن "كل ما هو صلب يذوب فى الهواء".(19) وبعد نصف قرن أضحت مشاعر القلق الحداثية على قدر من الشيوع جعل أحد شخصيات الكاتب المسرحي الأمريكي ويليام سارويان William Saroyan تكرر مراراً وتكراراً فى المسرحية الكلاسيكية التى ظهرت قبل الحرب بعنوان The time of Your Life أنه "لا أساس، دائماً أبداً"، ويتوقع تعاطفاً من الجمهور الذى كان يشعر بضيق من الحداثة، حتى قبل أن تنتج المحارق والقنبلة الذرية.

وفي ألمانيا لم يشكوا منها فحسب: إذ أنه كرد فعل لما اعتبروه تسوية مُحبطة (Gleichscaltung) للمجتمع البرجوازى، أحيا الحزب النازى خرافات الأخلاق التيوتونية التى تعود للعصور الوسطى (وهي صورة إقطاعية للقيم الأسرية) وخرافات الهوية الألمانية (ومن المفارقات أنها لا تصل فى قدمها إلى ما تُدعى إمبراطورية الأمة الألمانية الثانية فحسب). وفي نهاية الأمر وصل إلى السلطة على أيديولوجيا رجعية خاصة بالسخط تقوم

على ادعاءات تتعلق بماض مخترع، بطريقة لا تختلف كثيراً عن تلك الطريقة التى يقوم برسمها حالياً اليمين فى فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة، وكذلك فى ألمانيا مرة أخرى. وكون النازيين لم ينجحوا إلا فى زيادة دمار الجماعات الوسطى، من ذلك النوع الذى جعل تكوين الطائفة الحقة ممكناً، يُعد استهزاءً بتورطهم غير المقصود فى التحديث الذى أدانوه. وتتكرر المفارقة هذه الأيام فى ظهور سيلفيو بيرلسكوني المدهش وسقوطه السريع فى ساحة السياسة الإيطالية: وهو الملياردير الإعلامي العالمي صاحب فريق كرة القدم الأول فى إيطاليا، ايه سي ميلانو، الذى استغل بروزه الذى حققته له وسائل إعلامه فى . إعطاء صوت ديماجوجى لنفس الدوائر الانتخابية الإقليمية التى تدمرها وسائل إعلامه تدميراً منظماً. وبعد ذلك تسقطه تهم الفساد التى كانت وراءها وسائل الإعلام وجعلته مثل أى سياسي آخر. والمفارقة ذاتها نجدها فى ذلك التجاور المذهل فى ألمانيا التى توحدت من جديد بين إيقاعات الميتال روك الثقيلة التى تعد المادة التى تختص بتقديمها شبكة ام تي فى وأغاني البانك التى قد يفخر بها النازيون الشباب. وهذه قطعة من الجهاد الرجعي المزينة فى موسيقى الهيب هوب الموزونة المنتمية لعالم ماك، كما كتبها فريق فاينال ستيدج الألماني:

الوقت عصيب على الشعب الألماني

فما زالت القوات الأجنبية تحتل أرضنا

أربعون عاماً من المصائب والفساد

الوقت شتاء فى جمهورية ألمانيا الاتحادية

- هل ستكون هناك مرة أخرى ألمانيا

تستحق العيش فيها؟

ثقافة ألمانية–أين هي هذه الأيام؟
إننا نلتقي في مقلب قمامة اسمه ماكدونالدز
شهوة الربح والسلطة تسمم بيئتنا ..
هذه الدولة تخجل من التاريخ الألماني...
لدينا من الأجانب بعدد حبات الرمال
قوادين ومدمني مخدرات–كل هذا محرم
صدقوني يا مسيحيين، لن تجدى الصلوات
الوقت شتاء فى جمهورية ألمانيا الاتحادية
هل ستكون هناك ألمانيا مرة أخرى
تستحق العيش فيها؟[20]

واليوم، تطالب القوى التى أسميها بالجهاد مطالبة حثيثة بمعرفة إن كانت ستقوم قائمة لصربيا من جديد، وهل ستعود الفلاندر مرة أخرى، وكذلك الحال بالنسبة لكيبيك وأوسيتيا وتسوتسيلاند وقطالونيا ، التى تستحق العيش فيها. ويريد المهاجرون من أورليانز القديمة إلى نيو أورليانز، ومن إنجلترا القديمة إلى نيو إنجلاند، ومن زيلاند القديمة إلى نيو زيلاند معرفة إذا ما كان بالإمكان جعل بلادهم الأصلية التى تقدح زناد خيالهم حقيقة. وهم يجتمعون، الواحد منهم فى معزل عن الآخر ، وإن كان يجمعهم الكفاح ضد التجارة والعالمية، حول مجموعة من الهويات العرقية والدينية والعنصرية التى لا يكادون يذكرونها ولكنها شديدة الوضوح فى خيالهم، وهم يقصدون بذلك تأصيل روح ما بعد الحداثة الهائمة، ويعدونها لمجابهة نظيراتها فى عالم ماك. وتغني فرقة Stoerkraft (القوة المدمرة) قائلة:

"هيا نفك قيود الكلاب المقاتلة" ونطلق "وحش الدم الألماني الشرس" على كل "الرعاع".[21] وليس كل نصير من أنصار الجهاد على هذا القدر من التهديد (أو الفظاظة)، وهذه الفرقة بالتحديد خانت اليمين بعد ذلك وتغني اليوم أغنيات تحث على التسامح والانسجام الاجتماعي.[22] ولكن إذا كانت الديمقراطية لا تبدو دائماً بالضرورة كخصم، فهي نادراً ما تكون حليفاً. وحتى بين القوميين الجدد الذين لا يعلنون أي عداء ضدها، فقد تمت الصفقة: إذا أردت التغلب على الحداثة، فلا بد من القضاء على الدولة الليبرالية الحديثة ومعها مؤسساتها الديمقراطية، وهو ما سيكون ثمناً له ما يبرره لحرب إحياء الطائفة وعزلها عن عالم ماك.

وتظل اللغة الأكثر شيوعاً في لفت الانتباه إلى غايات القبائل التي أعيد اختراعها في ترسم صورة لنفسها معلنة الجهاد-سواء أطلقت على نفسها الأصوليين المسيحيين أو المتمردين الرونديين أو المقاتلين المقدسين الإسلاميين-لغة القومية. وربما يمثل الدين قوة أشد عمقاً في النفس البشرية، ولكنه باعتباره سياسة يجد في القومية وعاءً له.[23] ومع ذلك يمكن أن تكون القومية محيرة وتتعدد التغييرات التي تطرأ على استعمالاتها الكثيرة، بحيث لا يتضح إن كانت هناك لغة مشتركة يتكلمها الناس بالفعل. وكما يرى مايكل اجناتيف Michael Ignatief ، إذا كانت "قصة النظام العالمي الجديد هي تفكيك الدول" و "اللغة الأساسية" لذلك التفكيك هي القومية العرقية، فهل نفترض أن هذه هي قومية ماتسيني ويائيل تامير؟ [24] أم هي قومية النازيين وفلاديمير جيرينوفسكي؟ ويتحدث اجناتيف بحذر عن قومية "جديدة". ولكن الواقع أن معارضي عالم ماك العديدين ليسوا قوميين ولا متحمسين دينيين. فلغتهم شديدة العلمانية بحيث لا تدل على أي دين حقيقي، وهي كذلك على قدر كبير من الطائفية وتبعد عن كونها قومية. كانت الحروب الصليبية قاتلة في تعصبها، ولكنها كانت عالمية وتوسعية في مطامحها-إذ كانت إمبريالية أكثر منها رجعية-وهو ما يفسر ما اتسمت به من دموية. والمثل العالمية يمكن أن تخلق دماراً عالمياً، بينما تتميز آثار النظام الإقليمي بأنها أكثر اعتدالاً. وقبائلنا الجديدة قاتلة ومتعصبة، ولكنها أصغر عقلاً وتتخذ موقف المدافع: فهي تحاول تأمين جزر من الأخوة الإقليمية في بحر لا يرحم في استنزافه للجوهر وجرفه للروابط الأخوية.

والسؤال المهم هو هل تماثل قومية ما بعد الحداثة "الجديدة"، التى تستهدف الدولة القومية، القومية التقليدية، التى قامت عليها الدولة القومية . بدلاً من تقديم إجابة فينومينولوجية (كلا النوعين يحسب على أنه قومية) أو إجابة وجودية (هذه فقط أو تلك فحسب تعد قومية)، أود أن أقترح فى هذا المقام رداً أكثر جدليةً. من الواضح أن القومية لها الآن، وربما كان لها دائماً، أهميتان : واحدة خاصة بهوية الجماعة، وأخرى، تساويها فى القدر، خاصة بالتكامل والانضواء. وتتباهى "قوميات" هذه الأيام بقدرتها التفكيكية وتبتهج بالعداء للدولة وغيرها من الدوائر التى تشكل الدولة. إلا أن القومية فى مظهرها الحديث السابق سمحت لأوروبا بالخروج من الإقطاع وسهلت بناء الدولة القومية. والأطالس الأوروبية الأولى مثل أطلس Cosmography الصادر فى القرن السادس عشر تظهر المقدونيين والبلغار، والدنمركيين والفاندال، والصقليين والهنغار على أن كلاً منها جزء من جسم أكبر (إمبراطورية إقطاعية) وكيانات قومية ضامة جمعت القبائل الإقليمية فى كيانات قومية مثل إيطاليا و جيرمانيا.

وبذلك تعكس أهميتاالقومية أهميتى الإقطاع اللتين تفاعلت ضدهما القومية الأولى.[25] واضطرت الكيانات السياسية التى قضت على الإقطاع خَلَفَته أن تقسم أوروبا تُجَمِّعها فى آن واحد: أن تقوم فى نفس الوقت بتفكيك إمبراطورية الكنيسة وتوصيل المناطق الإقليمية ببعضها. كان الولاء العشائرى وروابط الدم أقل من أن تكون قاعدة للدول القومية الجديدة، كما كان العقد الإمبراطورى والإخلاص اللاهوتي أكبر من أن يكون كذلك. بدت الدولة كلاً تاماً يجمع القبائل فى كيانات أكبر سمحت رغم ذلك بما يشبه الثقافة المشتركة والتبادلية المدنية.[26] ولم تكن العلاقة الجديدة قائمة على الولاء وإنما على التعاقد. كانت علاقة تصور بلغة توماس هوبز اوف مامزبرى Thomas Hobbes of Malmesbury المستحدثة نفوذ الملك على أنه يجسد رغبات الناس الذين يُنظر إليهم باعتبارهم أفراداً وليسوا أخوة فى الدم. وكانت سيادة السلطة مستمدة مباشرة من عقد فيما بين رعاياه، الذين يصبحون بذلك موجديه والممتثلين لأوامره، ولكنهم أولاً وأخيراً رعايا ذوو سيادة. وبعد تحررهم من الولاء الإقليمي للعشيرة، وكذلك من تبعية الانتساب للسادة أصحاب الإقطاعيات، أصبح رعايا النفوذ البريطاني ومعهم رعايا الأمة الفرنسية الذين ظهروا حديثاً

قادرين شيئاً فشيئاً على تحويل أنفسهم من رعايا أفراد إلى أحرار أفراد تنبع طاعتهم للتاج ومسئوليتهم تجاه الآخرين من الحقوق التى باتوا يفهمون أنهم يملكونها بالمولد، والحريات التى أدركوا أنها حق لهم بالطبيعة. حددت ايسكس أخوة إقليمية: وحددت إنجلترا حريات الإنجليز. وأُقيمت الأسوار حول مدينتي بورجوندى والباسك الإقطاعيتين: كانت فرنسا فكرة انفتحت أمام المدينة العالمية. وكان نظام الالتزام الإقطاعي قد خلق شبكة معقدة من الولاءات سيطر فيه المولد بعناد على الشخصية التى كُيِّفت بدورها الحرية (الحرية باعتبارها سمة وراثية لطبقة بعينها). وحولت الدولة القومية الجديدة العبيد إلى مواطنين. وبوضعها الناس على قدم المساواة، أعدت المسرح لنظرية سياسية جديدة للحقوق والمقاومة والعقد الاجتماعي، وبالتالي لممارسة سياسية سوف تصبح فى آخر الأمر قائمة على المساواة والديمقراطية.

والقومية ضرب من تذكر الجماعة لقصص التأسيس العتيقة، وغالباً ما كان مولد التأسيس على يد قتل الأخ لأخيه. ولكن كما عَلِم المؤرخ ميشيليه Michelet من الدروس الدامية فى المذبحة الدامية لبارثولميو Bartholomew (التى ذُبح فيها الهوجينوت البروتستانت فى فراشهم)، فهي تتطلب كذلك النسيان الجماعي الواعي: ليس التذكر المشترك فحسب، وإنما النسيان المشترك كذلك.[27] والخلافات تُعلق فى الطوائف الناجحة ذات الاختلاف – وهو ما تكون عليه الأمم المدنية عندما يكتب لها النجاح –ويستدعي ذلك قدراً معيناً من النسيان التاريخي المدروس. والجراح التى تعيها الذاكرة وعياً جيداً لا تندمل. والخطر الأعظم الذى تواجهه الثقافة المدنية الأمريكية فى الوقت الراهن هو ذكرى العبودية التى بقيت حية بسبب ما هو قائم الآن من تحامل وعنصرية مؤسساتية دائمة. وما لم تكن هناك فرصة لنسيان العبودية، فلن يكون هناك مجال للانسجام العنصرى. ويقع العبء بطبيعة الحال على ورثة مالكي العبيد، وليس على ورثة العبودية.

وفي التحول الغريب الذى شهدته القومية فى القرن التاسع عشر، كان للإمبريالية دور تخفيفي خاص. فالإمبراطوريات الكبرى التى أقامتها النمسا والمجر وروسيا والعثمانيون (وعلى مستو أقل، إمبراطوريات ما وراء البحار التابعة لفرنسا وأسبانيا وبريطانيا وهولندا) قمعت التعبير السياسي للشخصية الثقافية وفرضت تحولية مكنت من وجود تضامن أكثر

شمولاً. ومع ذلك وفرت الإمبراطوريات للثقافة منطقة خاصة بها، وبدت كأنها تقضي على مفعول السم دون أن تزيل طعمه. وربما بالغ اجناتيف وغيره في إبراز الطرق التى جعلت بها الإمبراطورية الصراع الثقافى kulturkampf خفياً وأوقفت بها العرقية عند حدها، وإن كان هناك بعض الشك في أنها احتوت الجهاد.

وما زال القول بأن إمبراطورية الشيوعيين الأيديولوجية أو إمبراطورية الرأسماليين الاقتصادية فعلتا الشيء نفسه أم لا موضع خلاف. فالشيء المؤكد أنه فى ظل الشيوعيين كانت مسألة القومية التى أربكت لينين Lenin وأفزعت ستالين Stalin تحت السيطرة، وإن لم يحدث ذلك إلا بالدعاية والقوة الغاشمة.(28) ومثلما عجل انهيار إمبراطوريات القرن التاسع عشر الأوروبية الكبرى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بالبلقنة التى أقلقت أورتيجا قلقاً شديداً، يبدو أن انهيار الإمبراطورية الشيوعية أطلق قوى الجهاد الجديدة التى نراها الآن تمارس نشاطها فى شرق أوروبا وآسيا الأوروبية. وهل كان ذلك لأن القهر الشيوعي زاد الأمور سوءاً (إذ يؤدى القهر حتماً إلى الانفجار)، أم أنها احتوت القوى بطريقة ربما أدت إلى القضاء عليها فى نهاية الأمر، سؤال قائم لا سبيل لنا للإجابة عنه. الشيء الواضح هو أنه رغم تأجيل صيغة الإمبراطورية الشيوعية للمسألة لعدة أجيال، فإن تجنيب الآباء والأجداد إراقة الدماء يدفع ثمنه الأحفاد حالياً (وإن كان مؤكداً أن الشيوعية انتزعت ثمنها دماً).

كانت الإمبراطورية الرأسمالية أقل نجاحاً بصفتها حاكماً على دراويش القومية العرقية المندفعين، حيث كانت قبضتها أقل وضوحاً فى قهرها . ولأن التجارة والأسواق ، كما رأينا هنا، يمكن أن تثير العرقية وحماسها المعادى للمادية أو تكبتهما. وهذا على وجه الدقة كل ما يدور حوله الجهاد.

غير أن الزمن يتغير بسرعة. فمنذ سنوات قليلة مضت؛ حذر المعلقون الأذكياء مثل كونور كروز أوبريان Conor Cruise O, Brien من الشرق الأوسط وجنوب أفريقيا وأيرلندا باعتبارها موضوعات بارزة فى نشرات الأخبار. فمن ذا الذى يرغب فى المطالبة بذلك الآن؟ بالأمس كانت ليبيا المصدر الأساسي لصداع أوروبا. واليوم تتسبب الجزائر فى قدر أكبر من القلق، رغم أنها كانت بالأمس "أنجح" مستعمرة فرنسية سابقة. قد يكون

الضرر فى التفاصيل، ولكن فى السياسة العالمية يتلون الضرر ويتخفى ولا ينتظر أن تظل النظرية التى تنطبق على حالة معينة أو غيرها قائمة بعد المفاجأة السياسية التالية.(29)

ومن ثم فإني آمل أن أرسم فيما سيأتي صورة لتيبولوجيا الجهاد مع ما يمكن اعتباره فى أحسن الظروف دليلاً توضيحياً عابراً. فالمعلومات تتغير تغيراً سريعاً بحيث لا يمكن أن تكون دقيقة. والأحداث تتعرض بشدة للتشويه بنفس المقاييس التى يمكن أن تفسرها، بحيث لا يمكن فصلها عن الأطر المعيارية التى نحاول أن نمسكها بها. وهذه هي المشكلة العامة فيما يتعلق بالادعاء بأن النظرية الاجتماعية والسياسية يمكن أن تكون "علمية". ورغم عدم استطاعتي إعطاء دراسة الحالة التى أرسمها ولا الإشكاليات التى تثيرها ما يوفيها حقها بالكامل، فإني أركز، دون تجرؤ على العلم، على أربع صور مختلفة لرد الفعل تجاه الحداثة تمثل أربع وجهات نظر مميزة بشأن الجهاد.

الفصل الحادي عشر

الجهاد في إطار عالم ماك:

"الديمقراطيات"

في الديمقراطيات الأوروبية ذات الأسس المتينة، نجد أن إغراء مقاومة الحداثة هو تعليق الحداثة القلِق على نفسها. والصورة الباهتة بعض الشيء للجهاد التي نجدها في أوروبا تتخذ شكلين متعارضين: الإقليمية provincialism ، التي تمثل المحيط مقابل المركز، والإقليمية ضيقة الأفق parochialism ، التي تزدري كل ما هو عالمي. وكلاهما تناصب العاصمة وكل ما تمثله العداء. وتفهم كل منهما السلطة اللامركزية على أنها أقل تهديداً للحرية وأيسر إخضاعاً للسيطرة من السلطة المركزية. وتشترك الإقليمية في روح جيفرسون Jefferson الديمقراطية. إنها تقدر قدسية حكومة البلدة أو الحي، وتفهم مع توكفيل الحرية على أنها بالضرورة فكرة محلية أو بلدية لا يمكن أن تزدهر في ظل ضغوط الحكم واسع المدى والعلاقات الاجتماعية التي تقوم بالكامل على التعاقد. وبهذا المنطق، قد تكون كل من برشلونة وليون أكثر حرية من مدريد وباريس، كما أن القرى الواقعة على أطرافهما ستكون بدورها أكثر حرية من برشلونة وليون.

وتضيف الإقليمية الضيقة إلى الإقليمية نقداً ثقافياً، حيث تجد في عالمية العواصم وتجاريتها قوى شديدة التخريب للرابطة الإنسانية: الذرية atomism واللاأدرية agnosticism والفوضوية anarchy والاغتراب anomie –وهي سلسلة من الاصطلاحات يؤكد حرف a الذي تبدأ به جميعاً على استئصال أو "استبعاد" "withoutness" أي مجتمع حديث أُختزل إلى أدق جزيئاته، ليصبح بذلك بلا تماسك جمعي لأنه بلا إله وبلا نظام، بلا قانون وبلا عدالة. والصورة اللاذعة التي رسمها روسو عن عواصم القرن الثامن عشر تقدم لنا قوة النقد الإقليمي الضيق المتأصلة: إذ يصرخ روسو قائلاً "في أي مدينة كبيرة مليئة بالتآمر والعاطلين الذين لا دين لهم ولا مبدأ، ممن لا يسفر خيالهم، الذي خربه الكسل والخمول وحب المتعة والحاجات الضخمة، إلا عن مسوخ ولا يوحي إلا بالجرائم".(1)

فرنسا الأوكسيتان

كانت فرنسا التى هي باريس وفرنسا التى هي الأقاليم ("la France profonde ") على خلاف فى معظم تاريخ البلاد، حيث كانت "البرلمانات" الإقليمية ضد ملكية البوربون، وكانت الأرستقراطية المالكة للأراضي والكنيسة المؤيدة لها ضد اليعاقبة. وعندما انهار المركز القومي الفرنسي فى الحرب العالمية الثانية، واحتلت جيوش الرايخ الثالث باريس والشمال، كانت المنطقة الخاضعة لنظام فيشي المتواطئ هي التى تولت مهام الحفاظ على فرنسا، حيث حددت تعريف روحها من جديد أثناء ذلك. وحيث أن الزراعة كانت وحدها الثقافة الخالصة التى أتيح للفرنسيين التعرف عليها فى ظل الاحتلال النازى، فإن الباريسيين، الذين كانوا يعافون حياة الريف فى العشرينيات والثلاثينيات، اكتشفوا فجأة فى الأربعينيات أقاربهم فى الأقاليم الذين طال ابتعادهم عنهم، أبناء العمومة الريفيين الذين أمكن بهم تأكيد هوية ثقافية أُكتشفت حديثاً.

وحتى فى وقتنا الحالي، يبحث الباريسيون عن بيت ثان فى القرى المحيطة التى يمكن أن يهربوا إليها، ليس فقط من الحداثة الفرنسية، ولكن من تدخلات عالم ماك الرخيصة فى باريس، أو من وجه ميكي الضاحك الذى يسخر منهم من داخل يورو ديزني الواقعة على بعد عدة أميال إلى الشرق. والمفارقة هي أن القطارات السريعة والطرق السريعة، التى يجعل بها من يتمسكون بقضاء عطلات نهاية الأسبوع الوصول إلى المناطق المحيطة سهلاً من باريس، تدمر المناطق الريفية التى يتمنون الاحتفاء بها، تماماً كما أصاب احتلالهم الحضرى السابق للقرى الهادئة تلك الدساكر بعالمية مدمرة، رغم أنه يوهم العالميين بتأجيل الدخول فى عالم ماك. هنا يتداخل الجهاد وعالم ماك: فزبائن عالم ماك المنهكون الذين لا يسعهم القيام بما يزيد على عطلة نهاية أسبوع طويلة بدون استهلاكية القرن العشرين وتكنولوجيا القرن الحادى والعشرين اللتين لا تفترقان، ينأون بأنفسهم من حين لآخر عن المدينة وضواحيها لكي يعيشوا فى هويات الجهاد العرقية المصطنعة "dans la compagne " أو " auf das land " .

ولكي يوفر عالم ماك وهم الهوية الثقافية، نجده يدخل عالم الجهاد بغرض التسلية، بينما مواطنوه الذين لا أصل لهم يتظاهرون، بطريقة تكاد تكون زائفة ومنتحلة ولا حق لهم

فيها بالمرة، بأنهم "محليون". ففي أوروبا، حيث تتعايش هذه الهويات المحلية بصورها التى لم تتغير جنباً إلى جنب مع السلطة القومية المركزية، نجد أنها تتخذ شكلاً لغوياً فى الغالب الأعم وما زالت المقايضة بعالم ماك قيد التفاوض. وحسبما يرى اجناتيف، إذا كانت "لغة العصر الأساسية هي القومية العرقية"، فإن اللغة هي مفتاح القومية العرقية.[2] ففي جهاد غرب أوروبا المعتدل، اللغة هي وسيلة الأجزاء فى الانفصال عن الكل. وليس الأمريكيون وحدهم المنشغلين بلغة أساسية أو أم. ففي فرنسا، كما فى أى مكان آخر من أوروبا، أعادت الأقاليم اكتشاف لغتها (لهجتها) وجعلتها طيلساناً لقوميتها الثقافية الفرعية التى بُعثت من جديد، تاركة الوطنيين الفرنسيين المحدثين يتساءلون ماذا سيبقى لفرنسا إن هي انقسمت إلى سابق أجزائها النورماندية والبريطونية والباسكية.

المفارقة هي أن فرنسا نفسها محاصرة وتدعو وزارة الثقافة القومية فى باريس بالفعل إلى سن تشريع لتجريم المصطلحات الأجنبية الشائعة، وخاصة أمركة عالم ماك متعددة الوجــوه . فمن بين الكثير من العبــارات ، أصــبح يشـــار إلــى talk show وgum chewing و software وtime prime و cheeseburger بعبارات فرنسية بديلة هي causerie وmacher a gomme و logiciels و ecoute grand de heures و... Quelque chose (شيء ما) "a la fromage" (ولابد من اختراع مقابل)، وإلا أصبحت مثل هذه السلع بكماء (ليست مقبولة بصورتها هذه كسلعة). والإعلانات التى تستخدم العبارات الإنجليزية الشائعة سوف تترجم. وسيكون على المصطلحات العلمية من التكنولوجيا العالمية الجديدة أن تجد لها منحوتات فرنسية، إذا كان العلماء الفرنسيون يريدون أن يكتبوا أو يتحدثوا عنها.[3] فى ظل مثل جهاد الحكومة الفرنسية الأصغر هذا ضد اسبرانتو عالم ماك (التى خففت مؤخراً بالحلول الوسط)، يمكن أن نرى على المستوى القومي تلك الروح الإقليمية الخاصة بالجهود المحلية لإقامة خط إقليمي فى مواجهة اللغة الفرنسية. خطان فى الرمال: أحدهما خطَّته فرنسا لتبقى خارج عالم ماك، والآخر خطَّته الأقاليم الفرنسية لصد اللغة الفرنسية.

وإقليم الباسك هو أشهر كيان انفصالي (ويقع على الحدود المشتركة الفرنسية الأسبانية، حيث كانت إلى عهد قريب جداً تُشن حملات إرهابية). إلا أن هناك أمثلة أخرى

للجهاد الثقافى واللغوى الذى تقل سمعته سوءاً، وهي بالتالي ذات أثر أكبر. ففي بريتاني، رغم اختفاء الانفصاليين الذين يرمون القنابل ولم يعد الانفصال قضية مثارة، قد تكون القومية الثقافية البريطونية "أقوى هذه الأيام من أى وقت مضى فى هذا القرن".[4] هل هناك موسيقى قرب "فرنسية"؟ لا وجود لها: ولكن هناك موسيقى قرب "بريطونية" فى بلدة كيمبر الكلتية الصغيرة. واليوم تتباهى بريتاني، التى لم يكن فيها بعد الحرب العالمية الثانية سوى مائة عازف لموسيقى القرب، بأن لديها خمسة آلاف منهم.[5]

وفي البروفانس تتشابه القصة كثيراً. فمروجو الجهاد المعتدل يسعون على الأقل إلى إزالة بعض ملامح أربعة عشر قرناً من التاريخ الفرنسي وإعادة الشرعية للهجات إقليم أوكسيتان القديم وثقافاته. وكان أوكسيتان يضم أقاليم البروفينسال وقطالونيا والباسك الواقعة فى جنوب فرنسا على امتداد جبال البرانس والبحر المتوسط ويضم لهجات "OC" ("نعم") المميزة تماماً عن صورة "oui" الخاصة بالفرنسية التى يتحدثون بها فى الشمال. والآن، نجد أن الحكومة الفرنسية، شأنها شأن الكثير من مواطني عالم ماك الذين يسعون إلى إثبات صحة مسوغاتهم الإقليمية متعددة الثقافات دون التخلي تخلياً فعلياً عن مكانهم على مأدبة الحداثة، تدعم اللغات المحلية. ربما تفعل ذلك لأنها تقدّر أن لغة عالم ماك الأمريكية الكونية سوف تستغل كل الأعداء الذين ستجدهم.

قد تهدد اللهجات المحلية الثقافة الفرنسية المركزية، ولكنها فى الوقت ذاته تشكل فرنسا متعددة الثقافات. لذلك فهي فى الوقت نفسه سلاح من أسلحة القومية الفرنسية وسلاح مصوب نحو قلب القومية المتكاملة. وأوروبا، التى تعد منافس فرنسا على حب المحليات التى أُعترف بها حديثاً، تؤيد ذلك أيضاً. إذ يشجع مكتب لغات غرب أوروبا، الذى أنشئ سنة 1982، الأقاليم فى تصوراتها الثقافية. وهو لا يؤيد البروفنسال أو أى من لهجات فرنسا الجنوبية فحسب، بل يشجع كذلك الفريزيان فى هولندا، والغيلية فى أيرلندا، والمذاق اللغوى السائد حالياً فى أى مكان آخر.[6] وأدت أنشطته والواقع الذى يعترف به إلى جعل بعض المنتقدين يشيرون إلى أوروبا الجديدة على أنها "برج بابل جديد".[7] كما أن هناك من يرون فى عمله استراتيجية غامضة للتفكيك القومي يغذى بها الكيان الكلي الأوروبي الشظايا القومية الفرعية، لكي يحد، على أحسن الفروض، من مقاومة الدول القومية

للكلية. ووضع المركزيين الفرنسيين فى وضع حرج قد يجعل البروفانس يرحب بالدعم من أوروبا.

ومهما كانت الاستراتيجيات المعمول بها، لا تنهض الثقافة الإقليمية كثيراً. فرغم الدعم وافتتاح مدارس جديدة ثنائية اللغة فى مدينة نيم وفي غيرها، لم تصبح البروفنسال لغة حية بعد. وهناك أقل من خمسين ألف شخص يتحدثون البريطونية، وأقل من نصف هذا العدد فقط يمكنهم كتابتها. وللأسف أن النموذج ليس الفلمنكية التى يتحدثون بها فى دنكرك، ولا الصورة الفرنسية من القطالونية، ولا الألمانية المستخدمة فى ألتو أديجي بإيطاليا أو الألزاس بفرنسا أو كالييننجراد بروسيا. ففي كل من هذه الحالات تعيش لغة محلية لأنه يتحدث بها عدد كبير من السكان عبر حدود شديدة القرب. من ناحية أخرى، نجد أن البريطونية والبروفنسال، شأنهما شأن الكورسيكية واللادنية تعيشان فى عزلة تامة، حيث أنهما من بقايا ميراث ثقافى بائد مختلف. وسواء كان هناك ما يصل عددهم إلى 3 ملايين، كما يزعم البعض، ممن يتحدثون بعض كلمات واحدة من لهجات الأوكسيتان أم لا، وسواء كان للبرامج الإخبارية الاسمية التى تذاع من تولوز أو مرسيليا مستمعين بحق أم لا، فإن التركيز على إحياء الأوكسيتان جزء من حملة أكبر لتنشيط الأقاليم وإعطائها الشرعية فى مواجهة مركز عالم ماك الباريسي، وتوازيها جهود مماثلة فى بلجيكا وسويسرا. ففي جبال الألب، على سبيل المثال، هناك من يقل عددهم عن أربعين ألفاً ممن يتحدثون الريتو رومانتش اللادنية ما زالوا موجودين فى كانتون جراوبندين. ورغم الجهود الرسمية نيابة عن التعددية، يبدو أن اللهجات اللاتينية الموجودة حتى الآن لا تزيد عن كونها ثقافة متحفية كانتونية.(8)

قطالونيا الأسبانية ؟

المثقفون المشاركون فى إحياء الثقافة المحلية الأوروبية الغربية غامضون أشد الغموض فيما يقومون به. فهم من ناحية لا يرون أنفسهم بالضرورة أعداء للعالمية، كما ينكرون أن هناك أية علاقة بين ما يدافعون عنه وتلك الأشكال من الحرب العرقية التى تدور رحاها إلى الشرق منهم.ويرى بعضهم أنهم خطوط دفاع عن الديمقراطية المحلية، ومنبت

للمشاركة الحقيقية فى الاتحاد الأوروبي الذى يفترض أن يظهر للوجود، إن لم يكن فى الوقت الحالي، فسيكون فى وقت ما من الألف المقبلة. وتتباهى قطالونيا بأنها "بلد فى أوروبا" . وبناءً عليه يمكنها أن تزعم بأنها تخدم كلاً من الجهاد وعالم ماك: ذلك أنها تلحق نفسها بأوروبا على وجه الدقة بفصل نفسها عن أسبانيا. لسنا أسبان، ولكننا قطالونيون. ولكن القطالونيين أوربيون-أن نكون أوربيين أفضل من أن نكون أسبان !

وفي حملة إعلانية مستمرة بدأت قبل دورة الألعاب الأولمبية فى برشلونة سنة 1992 وظلت حتى وقتنا هذا، نجحت حكومة قطالونيا الإقليمية فى تحقيق هدف مزدوج. فقد أثارت غضب مدريد بطبع خرائط تبرز قطالونيا على أنها جزء من أوروبا بينما تحذف أسبانيا بالمرة. ويشبه هذا قيام كاليفورنيا بعمل حملة دعائية فى اليابان تصور فيها نفسها على أنها جزء حيوى متصل بساحل المحيط الهادى وُضع خطأً على قارة أمريكية شمالية لا اسم لها.[9] وقام القائد القومي القطالوني والرئيس الإقليمي خوردى بوخول Jordi Pujol بدور مزعج فى السياسة الأسبانية وخلق ضغوطاً دفعت العاهل الأسباني الداهية خوان كارلوس إلى إلقاء كلمة الافتتاح فى دورة الألعاب الأولمبية لسنة 1992 باللهجة القطالونية. ومجاملة للسنيور بوخول، انطلقت صيحات الاستهجان قبل ذلك بثلاث سنوات ضد العاهل المحبوب عند افتتاح إستاد برشلونة، وطالب الكثير من القطالونيين بأن يُسمح لرياضييهم بالتنافس منفصلين عن الفريق الأسباني.[10] وبوخول نفسه قومي خبيث لم يساعد فقط على جعل القطالونية اللغة الرسمية فى المدارس والجامعات (ولا بد أن يستعملها غير القطالونيين الراغبون فى العمل بالتدريس فى قطالونيا) ولكنه أصر على "أن تكون قطالونيا دولة مثلها مثل سلوفينيا وايستونيا".[11] وكما هو الحال بالنسبة لكثير من قوميات غرب أوروبا الفرعية، فإن ميل القطالونيين الاسمي نحو أوروبا وعالم ماك يصاحبه انسحاب من السيادة القومية- وهي فى هذه الحالة سيادة أسبانيا. وبعيداً عن مقاومة أسواق عالم ماك، تسعى قطالونيا لأن تكون لها علاقة خاصة معها.

وخلافاً لقطالونيا، لم تدرك أقاليم الأوكسيتان بحق أنه يمكنها محاصرة العاصمة دون أن تعطي ظهرها لعالم ماك. ويؤكد جيرار جويران Gerard Gouiran أستاذ الأوكسيتان فى جامعة مونبلييه على أن اهتمامه باللغة المحلية يخلو من أى دافع انفصالي. ولكنه يفسر

ذلك بأن "تقوية اللغة المحلية أمر حيوى للحفظ على شخصية الإقليم، لأن جنوب فرنسا يتغير تغيراً على قدر كبير من السرعة. فالآن تستقر صناعات التكنولوجيا المتقدمة الجديدة فى الجزء الجنوبي والجنوبي الغربي sun- belt [حزام الشمس] الفرنسي. وهاهم الأجانب يشترون قرى بأكملها كأماكن لقضاء العطلات، بينما يمطر التلفزيون الشباب بصور لا يظهر فيها عالمهم".[12] ولا يشير جويران بالتحديد إلى أن العدو هو عالم ماك، ولكنه واضح بشأن "احتواء" أمركة فرنسا وأوروبا. وهو على عكس بوخول، لم يدرك بعد أن صناعات "حزام الشمس" التى تتأسس فى جنوب غربي فرنسا يمكن أن تحفز الكبرياء المحلي وتوفر الدعم الاقتصادى للمطالبة القومية بالاستقلال. ومع ذلك، فإن جويران، شأنه شأن أنصار الثقافة المحلية فى أى مكان آخر، يواجه عالم ماك بتلك الازدواجية العميقة الواضحة فى سويسرا وكذلك فى أشد حالات الانفصال دراماتيكية فى أمريكا الشمالية، وهي كويبك.

سويسرا الألمانية

تعد سويسرا نموذجاً لما تواجهه أوروبا مجتمعة من مشاكل، ذلك أنها كدولة اختارت أن تتحدى أوروبا وضغوط أسواق عالم ماك، التى يفترض أنه لا راد لها، انطلاقاً من ذلك الموقف المتناقض الخاص بممارس حقق قدراً كبيراً من النجاح فى اقتصاديات السوق. وهي بعملها هذا نجحت كذلك فى شق شقوق داخلية عميقة تهدد بزعزعة استقرار توازن سويسرا الفيدرالي. وحيث أنه مضى زمن طويل على تكوين الاتحاد المحايد على أساس الفيدرالية الفضفاضة، يرى السويسريون أنفسهم (شأنهم شأن الأمريكيين) على انهم دولة استثنائية – Sonderfall Schweiz ! – وعلى أساس من موقعهم الجغرافي الفريد المطل على أوروبا وحيادهم المسلح طويل الأمد، قاوموا جهود ضمهم إلى أوروبا الكبرى، ورفضوا دخول الأمم المتحدة من خلال استفتاء قومي أجرى سنة 1967. وفي أواخر 1992، وفي أعقاب "لا" دنمركية غير مشجعة لاتفاقية ماستريخت، صوّت السويسريون كذلك ضد عضوية اتحاد التجارة الحرة الأوروبي (توطئة لعضوية السوق المشتركة). واتبع تصويتهم السلبي خطوط الصدع الثقافى بتصويت السويسريين الفرنسيين بالإجماع لصالح أوروبا، والسويسريين الألمان بالإجماع ضدها.[13] وقد كان من الصعوبة بمكان على السويسريين الألمان أن يسلموا ما لديهم من شبه سيادة ثمينة لحكومة فيدرالية جديدة فى سنة 1848

عندما أتى الدستور "الحديث" على بعض الامتيازات الكانتونية المهمة. وفي سنة 1992، لم تكن مجرد سويسرا، التى أيدت صفوتها-الحكومة الفيدرالية، والحزبان الرئيسيان المحافظ والحر، وكذلك الشركات والبنوك، بل والكثير من زعماء النقابات-أوروبا تأييداً تاماً، هي التى تزعمت المقاومة العنيدة، وإنما الكانتونات والكوميونات هي من فعل ذلك. فقد أنفقت الصفوة الملايين فى محاولة لحث المواطنين على الخروج من إقليميتهم الديمقراطية، محذرة إياهم من أن أى تصويت بـ "لا" قد يضع أبناء سويسرا متعددى القوميات خارج الأعمال التجارية (أو على الأقل خارج سويسرا) ويحول سويسرا إلى "نيبال أوروبا".[14]

وكان المراقبون المؤيدون لأوروبا، أى الجزء الأكبر من الصحافة الأوروبية، فى حيرة شديدة، وكانوا يتهامسون بغموض حول "تقليدية" سويسرا "الانعكاسية" وما تتسم به من "انعزالية جديدة" تلحق الضرر بأهدافها ومصالحها، وتوقعوا أنه ما لم تسمح لنفسها بأن توقظها "الصدمة الكهربية" الاقتصادية الأوروبية، فسوف يكتب عليها أن تصبح "دولة من العالم الثالث".[15] ومع ذلك فالسويسريون يتمتعون بواحد من أعلى مستويات المعيشة فى العالم (أعلى من الولايات المتحدة)، وملتزمون بالتجارة الحرة، ويشاركون فى بناء الهيكل المالي لعالم ماك. وهم ليسوا بأغبياء. وما كان فى خطر بالنسبة لـ "أوروبيي" سويسرا المترددين لم يكن جهاداً رجعياً فى مواجهة الحداثة. بل السويسريون الألمان على وجه الخصوص. و كذلك السويسريون الإيطاليون فى كانتون تيتشينو، الذين صوتوا بنسبة 62 بالمائة تقريباً بلا، كانوا يكافحون ضد أوروبا باسم الاستقلال الثقافى والديمقراطية الإقليمية-وهما قيمتان كثيراً ما تتضادان أدت الظروف التاريخية الفريدة إلى تداخلهما فى سويسرا. والواقع أنه فى أقدم ديمقراطيات أوروبا وأكثرها مركزية، ليست الكانتونات وحدها هي التى تتمتع بامتيازات يوفرها عدد قليل من الدساتير الأخرى فى العالم للناس بصفة محلية، وإنما تتمتع بذلك الكوميونات أيضاً. ومن الواضح أن Gemeindefreiheit (الحرية الكوميونية) و kantonligeist (روح الكانتون المحلية) تظلان قيمتين تستحقان القتال من أجلهما، حتى وإن كان ذلك على حساب مكافآت التكامل الاقتصادى. ولكن التراث الذى يتعلق به السويسريون هو الديمقراطية المحلية، وربما يعود ولاؤهم فى بعضه إلى انطباع قوى تركه التكنوقراط الأوروبيون ومسوقو عالم ماك بأن الديمقراطية ليست ببساطة جزءاً من اللعبة الكونية التى يلعبونها.

وبذلك نرى أن الكفاح ضد عالم ماك فى سويسرا يعد إلى حد ما كفاحاً يدل على وعي بالشخصية الخاصة ويجرى نيابة عن ثقافة إقليمية تصادف أنها وثيقة الارتباط بالاستقلال والحرية الإقليمية. وربما كان السويسريون وحدهم من بين أنصار الجهاد الذين يقاتلون من أجل الحفاظ على ثقافة تقليدية ضد الحداثة باسم الديمقراطية. ذلك فى الوقت الذى نجد فيه الانعزاليين فى أماكن أخرى يقاتلون ضد الأسواق والديمقراطية معاً باعتبارهما توأم من منتجات ما يخشونه من حداثة تعمل على التجانس، فإنهم فى جبال الألب يحاربون التجانس لأنه يعرض الديمقراطية للخطر. وحيث أن الديمقراطية وصلت سويسرا قبل التنوير بزمن بعيد، فإن أشد منتقدى التنوير شراسة يمكنهم أن يعتبروا الديمقراطية حليفاً لهم وليس عدوهم.

وفهم رفض السويسريين للدخول فى عالم ماك، الذى أعدهم نجاحهم الاقتصادى له، مرة أخرى فى فبراير 1994 عندما صوتوا، فى عناد استفتائي آخر، مع حظر مرور شاحنات النقل الثقيل فى جبال الألب، حيث أقروا أنه بحلول سنة 2004 لا بد أن يكون الشحن بالكامل بالسكك الحديدية. وقد أعادوا بذلك عقارب الساعة قرناً تقريباً إلى الوراء إلى ذلك الوقت الذى أصدر فيه مواطنو كانتون جراوبوندين تشريعاً يقضي بفرض حظر على مرور كل أنواع السيارات من أراضي ذلك الكانتون الشاسعة (ربع مساحة سويسرا) التي ما تزال بكراً حتى الآن. وكان مواطنو دافوس وسانت موريتس وكور قد اتفقوا على أن السيارة خطر على الاستقلال الإقليمي والحرية المحلية.[16] وتظل سويسرا بالنسبة لمعظم الأوروبيين شذوذا لا تفسير له: فهي أمة غنية تبدو مستعدة لأن تعرِّض ثروتها للخطر من أجل المبادئ. إنها أمة عنيدة يشبه عنادها فى بعض الأحيان التنبؤ بحدوث ما سوف يحدث، وكثيراً ما يُغض النظر عن تنبؤها باعتباره عناداً.

إلا أنه رغم حكمتها الشجاعة قبل عصر التنوير فى مقاومة عالم ماك، فإن السويسريين يعرضون فى الوقت ذاته توازنهم العاقل متعدد الثقافات للخطر. فالفرانكوفونيون السويسريون أقل ارتباطاً بالتقاليد المحلية السويسرية الألمانية، وأكثر رغبة فى اتباع فرنسا فى دخول أوروبا كبرى، من أبناء عمومتهم الألمان أو الإيطاليين أو اللادنيين. وحيث أن بعض الأجزاء فقط هي التى ترغب فى القتال من أجل استمرار

الاستقلال القومي للكيان الكلي، يخاطر الكيان الكلي بالتفكك-وهو التطور الذى سوف يأتي على الديمقراطية الفيدرالية السويسرية تماماً مثل الاستسلام المهين لأوروبا.

كيبيك ذات سيادة داخل كندا؟

هذه الازدواجية نفسها نجدها على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي بين الانفصاليين الكيبيكيين، حيث تواجه كندا الاتحادية إقليم كيبيك، الذى تضخمت فيه الميول الانفصالية تضخماً فعلياً بما حققه مؤخراً من نجاح اقتصادى. وعلى أية حال فواقع الأمر أن الجزء المقاوم من الكل فى هذه الحالة على نفس القدر من الانسجام الذى عليه الكل، الذى تمثله الحكومة الكندية، مع عالم ماك وتقاومه كيبيك، بل أكثر منه.[17] ويبدو أن كيبيك تريد الأمر بوجهيه: "كيبيك ذات سيادة داخل كندا متحدة" كما تقول العبارة الساخرة المعبرة. وربما كان سبب ذلك أن أهل كيبيك قد ينظر إليهم (وأحياناً يرون هم أنفسهم) على أنهم حوالى سبعة ملايين فرانكوفوني كندى (إلى جانب مليون آخر خارج إقليم كيبيك)، ولكن باعتبارهم شتات فرنسي فى أمريكا الشمالية. والكفاح من أجل الاستقلال الثقافى من جانب الشتات-تلك الطوائف التى تحدد نفسها بالإشارة إلى وطن بعيد نشأت منه أصولهم ذات يوم-يبدو مختلفاً بعض الشيء عن كفاح الشعوب الأصلية التى غزاها كيان أكبر أو ابتلعها.

وشتات الأقلية مثل الفرنسيين فى كندا، والهنود فى أعالى البحار، واليهود خارج إسرائيل، أقاموا مع عالم ماك علاقة أكثر وداً وتقدماً من الناحية الاقتصادية أكثر من غيرهم، ربما لأنهم يعتمدون على التجارة فى الحصول على رزقهم وعلى طرق التجارة الخارجية فى الحفاظ على هويتهم الثقافية. وأى كيبيكي يحاول التظاهر بأن فرنسا لا تهمه فى شيء، مثل اليهودى البولندى الذى يعيش وكأنه لا وجود لإسرائيل، عرضة للانتقاد. ويكمن الأمن فى التعلق بعالم ماك الذى يعتمد بعضه على بعض، ويمكن للثقافات الأم أن تثبت جذورها فى إطاره.[18] وبذلك تفضل كيبيك جذورها الثقافية الفرانكوفونية فى نفس الوقت الذى تحتفي فيه بوضعها الاقتصادى الناشئ كشريك اقتصادى على درجة كبيرة من الإنتاجية- لم تعد مجرد شريك لسائر أقاليم كندا، بل لذلك العملاق الذى فى الجنوب وكذلك الشركاء العديدين فيما وراء البحار. و "Quebic libre " ["كيبيك الحرة"] لم تعد كياناً

فرانكوفونياً يعاني من الفقر والتخلف أُضطر للانسحاب من كندا أنجلوفونية منتعشة اقتصادياً إلى انعزالية جديدة. بل إنها جيب فرنسي يزهو بنفسه على قارة إنجليزية ينشر اقتصاداً قوياً ومتنامياً بالنيابة عن روابطه المزدهرة بالعالم الواقع خارج كندا. وهنا يتعلق الجهاد بالحداثة الاقتصادية رغم رفضه للدولة – الأمة متعددة الثقافات.

وموقع كيبيك فى الجهاد معقد بسبب المآزق التى تخلقها لشعبين على صلة ببعضهما: سكانها الأصليون من هنود الكرى، ومليون أو نحو ذلك من الفرنسيين غير الكيبيكيين وغير الانفصاليين الذين يعتمدون فى وضعهم على كيبيك اعتماد كيبيك على فرنسا. فقد أثار السكان الأصليين من هنود الكرى الأمريكيين قضية انفصالهم فى إطار كيبيك، وإن استخدموا فى ذلك لغة شعب ينظر إلى نفسه على أنه ضيف على الأرض، وليس بصفته "صاحب" هذه الأرض. وكانت مكافأتهم على ذلك هى عدم التعاطف الذى ينطوى على النفاق من جانب أهل كيبيك، الذين لا يمكنهم إدراك العلاقة بين قضيتهم ضد كندا وقضية الكرى ضدهم. وقضية المليون أو نحو ذلك من الكنديين الفرانكوفونيين الذين يعيشون خارج كيبيك قد تكون أشد حرجاً. وبالنسبة للثلاثين ألف أكادى فى إقليم نيو برونسويك، تعد كيبيك جزءاً من كندا يضمن معاملة تساوى بين كل الفرانكوفونيين. ويعيش الأكاديون عيشة ناجحة على شواطئ خليج سانت لورانس منذ ما يقرب من أربعمائة سنة، ونجوا من تشتيتهم على أيدى الإنجليز فى أعقاب الهزيمة التى ألحقتها الجيوش الإنجليزية بفرنسا فى أمريكا الشمالية سنة 1763 (عندما عرف الكثيرون من الأكاديين طريقهم إلى نيو أورليانز، حيث أقاموا، باعتبارهم "كاجون"، ملاذاً آخر لهم). واليوم يواجهون مفارقة: قبلية كيبيك تعرض قبليتهم الخطر.[19]

وغالباً ما يتضح أن الجهاد، حتى فى أكثر مظاهره مسالمة، ليس مجرد كفاح بالنيابة عن إحدى الشظايا العرقية من أجل تقرير المصير، ولكنه كفاح مركب داخل تلك الشظية المعرضة لقدر أكبر من التشظي إلى جانب الكثير من الاضطراب. إذ ما أن تشعر الأجزاء بأن لديها ما يبرر نبذها للكل، فإن منطق الجهاد لا يتوقف بالضرورة عند أول وأهم طبقة من الشظايا . فإذا ابتعدت كيبيك عن كندا، فقد يخسر الفرانكوفونيين غير الكيبيكيين مكانهم القائم على المساواة فى نيو برونسويك. وإذا ابتعدت كيبيك عن كندا، فلما لا يبتعد

الكرى عن كيبيك؟ وفي ذلك الوقت، لما لا ينبغي على القرى الأنجلوفونية أن تبتعد عن كيبيك أو تختار قيام دولة كرى تقرر مصيرها بنفسها، إذا كان هذا هو ما وجدوا أنفسهم يعيشون فيه؟ وإذا كان بضعة فرانكوفونيين يقيمون في القرى التي أغلب سكانها من الإنجليز، في الإقليم الذي أغلب سكانه من الكرى، الواقع في كيبيك التي أغلب سكانها من الفرنسيين، ماذا يكون وضعهم؟ مثل هذا العبث هو ما توجه إليه الدولة القومية الدستورية المدنية متعددة الثقافات جهودها. وما أن تتفكك حتى تأخذ المفارقات في التراجع بسرعة للوراء بحماس يتساوى مع القمع الذي تعرضت له على مر القرون.

الألمان: شرق وغرب، قديم وجديد

يمين وحمر، مذنب ومستقيم

قد تبدو ألمانيا مرشحاً غير قوي للجهاد. فهي ما تزال عالقة في ذنب تاريخي. كما أن لديها، أكثر من أي أمة أخرى في العالم، الأسباب التي تجعلها لا تطلق القومية من عقالها. فالقومية، باعتبارها مصدر العديد من الكوارث التاريخية التي حلّت بألمانيا، تظل مصدر شك أبدي. بل إن ألمانيا توحدت حديثاً، وهي ديمقراطية، ولها من الاستثمارات الضخمة في عالم ماك والثقافة الدارجة الأمريكية، التي تروج لعالم ماك، ما لأي بلد آخر. إلا أن الجهاد يتفشى في ألمانيا الجديدة بسرعة مذهلة، ربما لأنها حليف عالم ماك وتوءمه، وكذلك خصمه.(20) ومن يريدون في ألمانيا الحالية أن تُحيي Deutschland [ألمانيا] echt Deutschland [ألمانيا الحقة]، في شوق إلى تمزيق كل الرايات الأجنبية، والرايات التجارية، وكل الرايات المادية، وفي مكانها:

أعطوا أدولف هتلر جائزة نوبل

ارفعوا الراية الحمراء، ارفعوا الراية الحمراء

ارفعوا الراية الحمراء ذات الصليب المعقوف

فهو مثلما كان على الرايات الألمانية قديماً

يهديني إلى طرق الصواب

فبالنسبة لى ما يهم لم يتغير:

العنصر والكبرياء والصليب المعقوف ![21]

والقوميون الجدد لا يخيفهم ذلك العار الرسمي المرتبط بهزيمة ألمانيا هزيمة خطيرة، شديدة الخطورة. بل إن مثل هذا الجبن يدفعهم إلى أن يشعروا بالعار من الشعور بالعار. وهم يسألون أين تُعامل أكثر مظاهر الشعور القومي براءة على أنها إثارة لا تستحق سوى الإبعاد؟ لما يجب أن يكون التاريخ القريب محرماً الخوض فيه؟ حتى اليابانيين مسموح لهم بتناول إمبراطورهم وتفوقهم الثقافى واحتفائهم بتاريخهم الذى يخضع معظمه للرقابة، بما فى ذلك الصورة الخاصة بهم عن "يوم الخزى". ولذلك يقدم مغنو الروك حليقو الرؤوس صورة فجة ولكنها شديدة الصراحة لوجهات النظر التى يضعها حزب فرانتس شونهوبر Franz Schoenhuber الجمهورى اليميني المتطرف فى إطار أكثر دبلوماسية قائلاً إن "هذه الدولة تخجل من التاريخ الألماني."[22] وقد اعتبر الكثير من الجماعات اليمينية المتطرفة مثل "الخيار القومي" خارجاً على القانون. ولكن هذا فى حد ذاته يقوى فيهم الشعور بالاغتراب المقاوم.

وأنا أرى أن الفقر يزيد من عمق غضب المحاربين المقدسين ويجعل منهم أعداء أشد يأساً لعالم ماك الذى رفض تدعيمهم. والساخطون الألمان هم فى أغلب الأحيان، إن لم يكن دوماً، من العاطلين أو من يعملون فى مهن أقل من مؤهلاتهم ذات أجور متدنية. وهم كذلك فى أغلب الأحيان، إن لم يكن دوماً، من الشباب ذوى الحظ القليل من التعليم والمطامح المحدودة. كما أنهم فى أغلب الأحيان، إن لم يكن دوماً، Ossi`s أو شرقيون من جمهورية ألمانيا الديمقراطية القديمة حرموا بين عشية وضحاها من الوظائف وشبكات الأمان الاجتماعي التى قد تحمي بطالتهم.[23] وربما انضم هؤلاء إلى عالم ماك إن أمكنهم

ذلك، وهم سعداء باستعمال أدواته (سواء اتخذت شكل بيانات الموضة الإنجليزية، أو فرق الروك المربحة تجارياً، أو نشرات الإنترنت مثل The Thule Network) كأسلحة فى كفاحهم.[24]

والفاشيون الجدد الألمان هم إلى حد ما رد فعل للتوحيد، الذى ملأ الفراغ عندما فشلت الثورة الأساسية المضادة للشيوعية. ولو كانت الحركات السياسية المحلية، التى ساعدت أولاً على هدم الستار الحديدى ثم سور برلين من بعده، قد خرجت سالمة من الطريق المليء بالجراح وصولاً إلى توحيد ألمانيا، ونجحت ولو بعض الشيء فى الانتخابات التى سيطر عليها الغربيون وأعقبت ذلك مباشرةً، لكان من المحتمل تفادى التطرف الشرقي. ولكن حركة المواطنين، التى وصفت نفسها بأنها Neues Forum(المنتدى الجديد)، والمثقفين والعمال الذين كانوا يبحثون عن "طريقة ثالثة"، وهي صورة من صور المجتمع المدني بين شيوعية الدولة القسرية ورأسمالية السوق الخاصة، غرقت فيما قد نسميه موجة الحرية الثانية.[25] فسرعان ما استولت الخصخصة على مكان التحول الديمقراطي فى جدول الأعمال الألماني، وهو ما كان يعني بالنسبة للألمان الشرقيين أن الثمن الذى كان عليهم أن يدفعوه لقاء الحرية الشخصية كان خسارة تامة للحكم الذاتي الإقليمي. وبعد مرور أربع سنوات على تلك التجربة، ليس مستغرباً أن الكثيرين من الألمان الشرقيين، الذين أثار الغرب استياءهم ويخشون اليمينيين بينهم، قد انتظموا من جديد فى صفوف الحزب الشيوعي الذى تكوَّن من جديد. وبما أن طريقة المجتمع المدني الثالثة لا محل لها، والطريقة (الرأسمالية) الثانية مخيبة للآمال، فهم يتفاوضون من جديد على الطريقة (الشيوعية) الأولى. وفي الانتخابات المحلية الألمانية التى أجريت فى يونيو 1994 (كما هو الحال فى المجر ولاتفيا وعدد من الدول الأخرى) برز الشيوعيون الذين دخلوا الانتخابات على قائمة الحزب الاشتراكي الديمقراطي كأقوى كيان فى عدد من المحليات وفازوا فى انتخابات العمدة فى بلدة هويرزفيردا السكسونية (التى شهدت عنفاً من جانب حليقي الرؤوس ضد الأجانب فى وقت سابق من تلك السنة.[26]

وبينما يتجمع اليسار القديم من جديد حول معارضة مساوئ الرأسمالية، يشن اليمين

الجديد، الذى تحول ازدراؤه إلى حالة مرضية، حرباً ثقافية معادية للمادية وللأجانب. واليوم يبدو أن معظم النازيين الجدد وحليقي الرؤوس يخدمون كلاً من عالم ماك والمعارضة الاشتراكية الديمقراطية له. فبالنسبة لمن هم ألمان شرقيين، ويعيشون فى فقر ويحنون إلى الماضي، ويعانون من معدل بطالة مقداره 16 بالمائة أو يزيد (وهو ما يزيد على ضعف المعيار القومي، وإن كان أسوأ بين صغار السن)، من السهل النظر إلى الألمان الغربيين على أنهم "آخر"-أى عملاء عالم ماك المعادون وخونة لألمانيا الحقيقية (وهو ما يشبه النظرة إلى اليهود فى العشرينيات). ويعتقد أن ما يصل إلى 25 بالمائة من الألمان الشرقيين دون الخامسة والعشرين يعتنقون أفكاراً يمينية. وبالنسبة لهؤلاء الذين لا يرغبون فى الإساءة إلى أبناء عمومتهم الألمان الغربيين، تعطي عمالة ألمانيا الوافدة (العمال الأجانب من تركيا ومناطق فى الشرق والجنوب) "الآخرية" صفة شديدة الغربة-عادات مختلفة، علاوة على اللكنة الأجنبية وألوان البشرة الأكثر سمرة-وكذلك تجسيداً يستثير العقاب العنيف.(27) ويزيد الفقر من صلابة حواف الاغتراب الشائكة بالفعل. ويمكننا أن نعود مرة أخرى إلى أغاني الروك اليمينية التى تتسم بالحقد (المثال السابق) لنسمع الجانب الاقتصادى من القصة:

الوقت عصيب على الشعب الألماني
فالقوات الأجنبية ما زالت تحتل أرضنا
أربعون عاماً من المصائب والفساد...

المحاربون المعادون هم الخضر ذوو القمصان السود-الذين يئنون قائلين "شهوة الربح تسمم بيئتنا"-ومع أن سلوكهم مبالغة مراهقين ويقصدون به أن يصدم أقرانهم المراهقين، لا أن يلقى قبول أسلافهم (إذ لا وجود لأية سراويل جلدية تقليدية أو قبعات الإخاء التى يرتديها الطلاب،)، فهم يعرفون أن ماكدونالدز "مقلب قمامة"، ويشعرون باستياء من غزوات الثقافة الكونية التى قد يرون أنها ربما تتضح أشد ما تتضح بطريقة متناقضة فى عجزهم عن مقاومتها.

والأجانب بحق (كمقابل للأجانب الرمزيين: وهم الألمان الغربيون الأغنياء والأمريكيون

وتجار عالم ماك) مسألة أخرى. "اخرجوا أيها الأجانب،" شعار أسهل من "اخرج يا ماكدونالدز!" وهناك 2 مليون تركي فى ألمانيا، منهم 140 ألفاً فى برلين وحدها، ولا يمكن مقاومتهم فحسب، بل يمكن سحقهم ومهاجمتهم وحرقهم فى ثكناتهم القذرة.[28] وفي سنة 1990 وقعت بضع مئات من الهجمات. وبعد ذلك بسنتين، وقعت عدة آلاف من الهجمات- 1636 "هجوم يميني" من يناير حتى أكتوبر 1992 فقط.[29] والآن، يحتمل أن يكون هناك أكثر من 50 ألف متطرف يميني فى ألمانيا، بينهم أكثر من 6500 نازى جديد.[30] ولكن مثلما يسبح رجال حرب العصابات فى بحر من البشر، فاليمين الراديكالى فى ألمانيا يعبر عن الاستياء المكبوت الذى يشارك فيه الكثير من الألمان (وإن كان من المؤكد أنهم أقلية فحسب). وواقع الأمر أن هناك من المصاهرات بين الأتراك والألمان ما يزيد كثيراً على عدد الاعتداءات.[31] ومع ذلك عرضت مجلة دير شبيجل الأسبوعية الألمانية استطلاعاً يوضح أن 73 بالمائة من الألمان يعتقدون أن الأجانب "مشكلة" يجب على البلاد أن تحكم قبضتها" عليها،[32] رغم أن 85 بالمائة من الألمان يتفقون على الشعور بالأسف لاستخدام العنف ضد العمال الوافدين. وليس كل من يقومون بالاعتداءات من حليقي الرؤوس، كما أن ليس كل الضحايا من الأجانب. فقد هوجم اليهود والصحفيين والليبراليين كذلك.

والاعتداءات التى وقعت على النُزُل التركية فى المدن الشرقية، مثل مجدبورج أو زولينجن أو مولن أو روستوك، وسيلة تهدف إلى غاية. وتماماً كما نجحت بولندا فى زرع معاداة جديدة للسامية دون أن يكون هناك يهود، يستطيع حليقو الرؤوس الألمان تنمية استياءهم من الأجانب بدون الأتراك؛ الذين لا يزيدون على كونهم رموزاً واضحة تسهل إصابتها تنتمي إلى الطبقة الدنيا من عالم ماك وتمثل الطبقة العليا منه (وبصورة خاصة الطبقة العليا الألمانية) التى باعتهم. ولأنهم ليسوا مجرد مراهقين محبطين، وإنما محاربون سياسيون، فإن هدفهم النهائي ليس فى واقع الأمر الأتراك أو اليونانيين بحال من الأحوال، بل ألمانيا: ألمانيا التى استسلمت لعالم ماك.[33] وترد ألمانيا بدورها على مهاجميها، ليس فقط بالحديث عن العدالة وحقوق الإنسان: فهي عوضاً عن ذلك تؤكد جزءاً من الانتقادات اليمينية بقلقها على صورتها وجاذبيتها للمستثمرين وتتساءل إن كان العنف سوف يلحق الضرر بعرضها الأولمبي (أو بالأحرى الخاص بعالم ماك) لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية سنة 2000.[24]

ولست بين هؤلاء الذين يظنون أن الألمان عرضة للانتقاد على نحو متميز، بسبب أسوأ ما فى تاريخهم. كما أشك فى أن مئات الآلاف من المواطنين الألمان، الذين ساروا فى مواكب فى ضوء الشموع تدين العنف اليميني والعنصرية، سوف يفوزون فى الصراع من أجل روح ألمانيا ما بعد الحداثة. ولكني أقل تفاؤلاً بشأن قدرة الألمان (أو غيرهم) على احتواء عالم ماك-أو جعله ديمقراطياً. وربما كان الكفاح ضد عالم ماك هو ما سوف يوفر للفاشيين المراهقين ومغنيي الروك النازيين فى ألمانيا أكثر الأتباع أهمية وأشدهم خطورة.

الفصل الثاني عشر

الصيـن وساحل المحيط الهادى

الذى ليس ديمقراطياً بالضرورة

فى المناطق الواقعة خارج أوروبا وأمريكا الشمالية التى حققت نجاحاً نسبياً فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية والسياسة، أكثر ما يثير حفيظة زعماء الجهاد المحليين بشأن عالم ماك هو عدوانيته الثقافية. والواقع أن فى كثير من الدول الآسيوية يمضي الجهاد دون خوف من الديمقراطيين المزعجين، حيث أن الديمقراطية لا ترتبط كثيراً بالتحديث. وتكمن البراعة فى ذلك الجزء من العالم فى معرفة كيفية استغلال فوائد التحديث الاقتصادى والأسواق الرأسمالية، دون الإذعان لأى من القيم السياسية (الانفتاح والحقوق والحرية والديمقراطية) أو العادات الثقافية (الضواحية والمادية والاستهلاكية) المرتبطة بها. وعلى وجه العموم، كانت مواجهة أفكار الغرب السياسية أسهل من أساليب عالم ماك المعيشية المغرية. والتجارب السلطوية، الشيوعية وغير الشيوعية على السواء، فى فيتنام وسنغافورة وكوريا والصين لدليل على مدى سهولة فصل الأسواق الحرة عن المؤسسات السياسية الحرة. أما اليابان والهند الديمقراطيتان فدليل على مدى صعوبة فصل الأسواق الحرة عن طريقة حياة عالم ماك.

وفي آسيا غير الديمقراطية، اتسم الترحيب بالأسواق بالحذر فى جو من التجارية المتعقلة، حيث تنشئ الحكومات فى بادئ الأمر القوى التى تطلقها الأسواق من عقالها ولا شكل لها، وإن كانت منتجة، ثم تحاول بعد ذلك السيطرة عليها. وتظل المؤسسات الديمقراطية الضرورية (حسب قول الغربيين) لعمل الأسواق لا تلقى أى ترحيب بالمرة. ويؤكد لنا ليبراليو السوق، ممن ينحون نحو ملتون فريدمان Milton Friedman أو جيفرى ساكس Jeffrey Sachs ،أن الاثنين لا يمكن أن ينفصلا على المدى الطويل. غير أن المدى الطويل فى هذه الحالة قد يطول لأعمار عديدة-أطول من أن يمكنه المحافظة على مصداقية مقولتهم.[1] وواقع الأمر أنه ليس هناك تفنيد للمقولة الليبرالية أفضل من تلك الاقتصادات الرأسمالية المحكومة التى حققت نجاحاً منقطع النظير فى فيتنام والصين وسنغافورة

وإندونيسيا. ويقول دبلوماسي غربي في الصين إن "حلم الصين هو أن تصبح سنغافورة أخرى" حيث أن الجاذبية تكمن في "أنها حققت مستويات المعيشة الغربية دون أن تصيبها عدوى المعايير السياسية الغربية".(2)

وتتمتع الصين في السنوات الأخيرة بأسرع اقتصاد في العالم نمواً رغم-أم إنه بسبب ذلك؟-القهر الوحشي لحقوق الأفراد والحرية السياسية خلال الأحداث الرهيبة في ميدان تيانن من وحتى الآن.(3) وتقاوم الصين، مثلها مثل جاراتها، التغريب في نفس الوقت الذى تكافح فيه من أجل الوصول إلى إنتاجية السوق ومن أجل التجارة مع سائر عالم ماك. وبعد أن فهمت أولويات شركائها التجاريين في اليابان والولايات المتحدة، وكذلك منطق الأسواق، الذى يتطلب الاستقلال عن السياسة ولا يعير بذلك اهتماماً لتنظيم الدولة، نجدها ترفض تغيير موقفها فيما يتعلق بمسألة الحقوق السياسية. ذلك أن الحقوق، ومعها أيديولوجيا الفردية السياسية التى تصاحبها، ينظر إليها على أنها توابع الثقافة التى يمكن مقاومتها (ويسهل فصلها عن السوق التى لا تُقاوَم). وسعي الصين الموفق في الوصول إلى الثانية دون الاستسلام للأولى دليل على دقة إدراك زعمائها. وطبقاً لما قاله بيرى لنك Perry Link فإن الصفقة السعيدة التى قدمها دنج شياو بنج Deng –Xiao ping للصينيين كانت في المقام الأول "اخرسوا وسوف أجعلكم أثرياء"(4)، وهي الصيغة التى لم تفلح مع رعاياه فحسب، بل مع وزارة الخارجية الأمريكية كذلك.(5) ففي ربيع سنة 1994 حصلت الصين على تجديد لوضعها كدولة أولى بالرعاية بالنسبة للولايات المتحدة (وهو الوضع الذى بدونه تصبح صادراتها إلى الولايات المتحدة خاضعة لتعريفة جمركية ضعف ما هي عليه الآن على أقل تقدير) دون جعلها تقدم أى تنازل سياسي ذا أهمية. ومن المفارقات أن تحديها الصارخ فيما يتعلق بحقوق الملكية الفكرية (حيث رفضت وقف عمليات القرصنة الخاصة بأشرطة الفيديو والكاسيت) هو الذى أدى في النهاية إلى رفع العقوبات التجارية الأمريكية وتقييد حركة القراصنة سنة 1995.

وربما يكون توماس ب جولد Thomas B . Gold المتخصص في الشئون الصينية محقاً في اعتقاده بأن "الحزب الشيوعي سوف يركز على الأشياء التى يظن أنها يمكن أن تكون الأفضل-وهي ما يُفترض أنها المراقبة السياسة ووسائل الإعلام والتعليم-ويسمح

للاقتصاد بأن يعمل بشيء من المنطق الخاص به".[6] ومع ذلك فمن المفارقات أنه بينما تحقق قدراً كبيراً من النجاح فى مقاومة الديمقراطية، فالفشل حليف مقاومة أسلوب الحياة والثقافة. وهذا يرجع بالتحديد إلى أن "المنطق الخاص" بالاقتصاد هو منطق عالم ماك ويبدو أكثر احتمالاً لأن يأتي معه بشرور الغرب (أى صوره الثقافية وأيديولوجيا الاستهلاك وكذلك التغاضي "المنطقي" عن الظلم الاجتماعي وعدم المساواة)[7] وقيمه (أى الديمقراطية وحقوق الإنسان). لقد أصبح لدى روسيا مافيا قبل أن توجد صحافة حرة بزمن طويل. ومازال حزب شيوعي مهيمن يحكم فيتنام، ولكنها تتباهى كذلك بفندق هيلتون خمس نجوم وسبعة ملاعب جولف يحصل أعضاؤها البارزون على عضويتها مجاناً. ويمكنك أن تشترى أى شيء تريده فى العالم، ما عدا المحاكمة العادلة، من سنغافورة. والشيء الوحيد الذى يمكن أن يقال بكل تأكيد بشأن صين ما بعد دنج هو أن كنتاكي فرايد تشيكن سوف تستمر فى فتح فروع لها بسرعة قياسية. فهناك بالفعل ثمانية وعشرون فى أكثر من ست مدن.

فى هذه الحالة، فإن الكفاح بالنسبة لأنصار الاستقلال الثقافى ، داخل الدوائر الحاكمة وبين الصفوة الثقافية التى وراءها، لا يمكن أن يكون فقط ضد ديمقراطية شنت بضع غزوات، بل يجب أن تكون ضد ثقافة أجنبية شنت الكثير من الغزوات فالتهديد الحقيقي الذى يمثله "البرابرة"-وهو التعبير الذى يستخدمه الصينيون للدلالة على الأجانب منذ مئات السنين-هو البرنامج الخفي من أجل عالم ماك، أكثر منه حملتهم العلنية من أجل الديمقراطية. واليوم يعج سور الصين العظيم، الذى شُيد منذ آلاف السنين لصد البرابرة، بورثة هؤلاء من السائحين الأكثر انتشاراً الذين يتحولون إلى قاعدة لصناعة صينية حيوية. ورد الصينيون على تحدى عالم ماك بما يحبون أن يسمونه "اشتراكية السوق"، وهو ما سماه مدير مكتب صحيفة نيويورك تايمز السابق فى بكين "Market -Leninism" [الماركتية-اللينينية].[8] ويمكن للمؤسسات السياسية اللينينية أن تتعايش بشكل لطيف فى البداية مع رأسمالية السوق. فلم تهز الثلاثون أو الأربعون سيارة رولز رويس التى استوردت فى كل سنة من السنوات القليلة الماضية الحاكمية الشيوعية. إلا أن القيم الثقافية الصينية-الشيوعية أو الصينية-ما قبل الشيوعية عرضة للرسائل التى تدار فى مشغلات الاسطوانات المدمجة وللصور التى ينقلها الفرش الداخلي لسيارات الرولز رويس (واللاندروفر

والمرسيدس) التى يأتون بها. ويأمل الصينيون فى أن يجعلوا الواردات الثقافية الأجنبية ملكاً لهم، حيث يلحمون مصنوعات عالم ماك وصور الشيوعية التقليدية معاً-كما فعل الفنان وانج جوانجيي Wang Guangyi فى لوحاته بإدخاله شعارات الإعلان الغربية فى الملصقات الثورية، أو فنج منجبو Feng Mengbo فى عمله الذى يحمل اسم "سلسلة ألعاب الفيديو" الذى يظهر فيه أوبرات ماو الثورية على قماش اللوحات كأنها ألعاب فيديو.[9]

والتمثيليات التلفزيونية هي الأخرى لها شعبيتها. لذلك بدأ الصينيون فى إنتاج تمثيلياتهم بنجاح لا بأس به. وفي سنة 1991 خلق مسلسل "التطلع" المكون من خمسين جزءاً جواً من الإثارة والاهتمام وكان يمثل منافسة خطيرة لمسلسلات هونج كونج وتايوان والمكسيك التى كانت تذاع فى ذلك الوقت. وفي مدن الانتعاش الاقتصادى مثل شنغهاى، هناك بضع دلائل خاصة بالثقافة المحلية التى تذكي نار الجهاد، سواء كانت غامضة أم لا. فشنغهاى ليست "مثل" هونج كونج أو سنغافورة: إنها هونج كونج وسنغافورة، غير أن المرور فيها أسوأ. وقد عادت تشو تشيا تشيين Chu Chia Chien من منفاها فى نيويورك إلى المدينة التى عاشت فيها شبابها، حيث تقول عن جيرانها: "إنهم شديدو الاهتمام بالموضة، ولكنهم يودون الآن أن يكون لهم اسم تجارى-وهذا مهم جداً لأن معناه 'معي مال'." [10] وفي الوقت نفسه أصبحت صحيفة تشينا كلتشر جازيت لسان حال وزارة الثقافة تتسم بالأناقة وتساير الموضة وتضم صوراً عارية غربية ذات صدور ممتلئة ومناقشـات صـريحة للجنس والشهوة. ويستخدم رئيس تحـريرها جـانج زومن Zhang Zuomin لغة الحرس الأحمر الخاصة بالثورة الثقافية للترويج لمصالح السوق. وهو يقول "أعتقد أن علينا أن نفتح الثقافة الصينية على مصراعيها ونطبق 'الروح العظيمة التى لا تخاف' على عملنا فى الصحف."[11]

بهذه التطورات التى جعلها الدعم الرسمي للأسواق تستشرى، لا يصعب علينا تقدير أسباب إصرار السلطات الآسيوية، فى الدول الشيوعية وغير الشيوعية على السواء، على مراقبة الإعلام ووسائل الإعلام رغم أن ذلك لا جدوى منه فى غالب الأمر. وفي السنوات الأخيرة أظهرت إندونيسيا تسامحاً كبيراً مع وسائل إعلامها الخاصة. وكان الهدف الأساسي وراء ذلك إحباط مخططات المعارضة السياسية. إلا أنه من الواضح كذلك أن

الحكومة تشعر بقدر من الحاجة إلى استغلال مراقبة وسائل الإعلام فى مقاومتها الثقافة الأجنبية. وعلى أية حال، أعلنت شركات الكولا الحرب على ثقافة الشاى الإندونيسية. وبينما تحث فلسفة السوق الحرة على حرية الإعلان، فهي لا أدرية فيما يتعلق بالتدخل عبر الرقابة ضد ذلك النوع من أساليب الحياة الثقافية الحرة التى يروج لها الإعلان.

والصين، التى لا تقل عن فرنسا فى اتخاذها موقفاً ثقافياً دفاعياً، تشدد مراقبة إنتاج الأفلام وعرضها بحماس يفوق حماس الفرنسيين. وقد قيدت الأفلام الأجنبية بنسبة 30 بالمائة من إجمالى السوق. إلا أنه رغم محاولة الحكومة استعادة السيطرة المطلقة على الأفكار السياسية، فهي بتركها الصور الثقافية والمعلومات التجارية للسوق، تضرب الناموس بشبكة الفراشات. وعلى المدى الطويل، يصبح احتمال هدم الناموس للنظام الحاكم أكبر من حدوث ذلك على يد الفراشات السياسية التى يمسك بها. فقد تعلم الفنانون اللجوء إلى التورية بدلاً من إبداء الغضب. كما أن المطبوعات مثل كلتشرجازيت تتأكد من أنه ليس هناك أى نقد سياسي يتسرب بين الصور العارية والقيل والقال. وتفهم السلطات أن ما تحتجزه عبر الأقفال والقضبان على الباب الأمامي الذى يحمل لافتة السياسة، غالباً ما يتسلل من خلال الباب الخلفي المفتوح على مصراعيه ويحمل لافتة الأسواق. ولكن ما العمل؟ على سبيل المثال، فإنهم، رغم علمهم بمدى ما بلغه بث القنوات الفضائية الخاصة بعالم ماك من انتشار، يفرضون حظراً مشدداً على استخدام أطباق القنوات الفضائية لاستقبال أى شيء غير الإشارات الصينية، وذلك بحظر الأطباق نفسها-وهي التى تُرى فوق أسطح العمارات السكنية التى غطاها السناج فى بكين أو شنغهاى. وهذا يشبه تماماً تجريم النظر إلى الصور العارية المعلقة على الجدران، بينما يُرخص ببيع مجلة بلاى بوى. ربما كان عليهم بطبيعة الحال أن يحظروا بيع الأطباق واستخدامها معاً. ولكن هذا كان سيؤدى إلى الإضرار بصناعة عالية الربحية تصنع فيها وزارة الإلكترونيات الأطباق، وتبيعها إدارة الأركان العامة بالجيش وكذلك وزارة الإذاعة والسينما والتلفزيون للجمهور العام. وهكذا نجد أنه بينما يهاجم المسئولون الحكوميون الثقافة الغربية الفاسدة فى أحاديثهم، ينشغل زملاؤهم فى بيع أدوات الفساد. النجاح اقتصادى لصنعة وليدة-طبق فى كل بيت- سوف يكون إعلاناً عن الفشل الثقافى : فعالم ماك موجود فى كل بيت.

الحروب الساخنة تُستعمل فيها قوة السلاح. أما الحرب الباردة فتستخدم الدعاية والصور في خدمة الأفكار السياسية خدمة مباشرة في كفاح من أجل استمالة قلوب الناس وعقولهم. وحرب عالم ماك تمضي بيقظة، وقلب وعقل مخادعين لصالح الأحشاء، والحواس الخمس، وتغوى الشعوب بنداء المصلحة الذاتية والرغبة الساحر، حيث تُعرَّف الذات جملةً بالحاجة والرغبة والقدرة على الاستهلاك. وكان "ينبغي" على المشاهدين الصينيين في أعقاب ميدان تيانن من أن يكونوا مهتمين بالصحافة الصادقة. ولكنهم، بعد تعرضهم لفيديولوجيا عالم ماك، يعترفون بأنهم "أكثر اهتماماً بالحلقات المسلسلة أو أفلام العسكر والحرامية من البرامج الإخبارية". وطبقا لما يقوله جانج زيدونج Zhang Zedong الذى يدير متجراً تابع للدولة لبيع أطباق القنوات الفضائية، فإن "ما يريده الناس هو الترفيه".[12]

وكذلك هناك مشكلة أخرى تواجه الصين: وهي كيف تفرض قراراتها المركزية ذات الدوافع الأيديولوجية على أقاليم تتمتع بقدر كبير من الاستقلال الجغرافي يحركها (حسب التوجيهات) الاقتصاد أكثر من الأيديولوجيا وغالباً ما تتجاهل القرارات السياسية لصالح قرارات السوق، طالما أن الاثنين يأتيان من نفس الحكومة المركزية، غير أنهما على قدر من التناقض الحاد. وفي مناطق الانتعاش الاقتصادى في جنوب الصين، في شنغهاى ونهر يانجتسي ومنشوريا، ليس لـ "جهاد" الحكومة المركزية ضد التغريب أى أثر، إلى حد كبير. وكما هو الحال في قطالونيا أو لومبارديا، تحقق هذه المناطق شيئاً من الاستقلال عن النظام الحاكم المركزى الصيني من خلال المشاركة المباشرة في عالم التجارة. فالأوامر التى تصدر في بكين بوقف دخول البنوك في المضاربات تلقى تجاهلاً تاماً. كما أن الأوامر الخاصة بتحديد استهلاك البترول، التى تفرضها قيود الإنتاج المحلي، يجرى التحايل عليها بزيادة الواردات من الخارج. وقد ألغت مؤخراً إحدى عيادات تنظيم الأسرة التابعة للحكومة الأحادية الأيديولوجية (طفل واحد لكل أسرة) التى فرضتها السلطات، عندما اكتشفت أنها يمكن أن تكسب أكثر كعيادة للخصوبة.[13] ويتوقع البعض أن الأقاليم الواقعة على الأطراف البعيدة، كالتبت وإقليم شين جيانج الغني بالبترول، قد تحاول أن تكون كيبيك صينية وتنفصل عن الصين انفصالاً تاماً، رغم أن القهر الوحشي في التبت يوحي بمدى التزام القيادة بالاحتفاظ بالسيطرة.[14] وكما يحدث في الغرب، يمكن أن يعني انهيار

الشيوعية المركزية الفوضى-وهي مقولة كل المسئولين الحكوميين على استعداد لاستغلالها في معارضة الديمقراطية منذ عهد الأباطرة. وحسبما يقوله أحد المسئولين: "على امتداد التاريخ الصيني، عندما لا يكون هناك حكم قوى، تكون الفوضى وقادة العسكر. وإذا حاولنا الحصول على قدر أكبر من اللازم من الديمقراطية، سوف ينفرط العقد مرة أخرى. سوف تتفكك الصين، وسيكون الحال أسوأ مما هو عليه في الاتحاد السوفيتي".(15)

وأى مراقب حصيف لا يريد بطبيعة الحال أن يقول إن الصين تواجه جهاداً داخلياً ضد الحكم المركزى التحديثي بالشكل الموجود فى شرق أوروبا وأقاليم الاتحاد السوفيتي السابق. فإن ما يقل عن 10 بالمائة من السكان (أقل من مائة مليون نسمة) يعدون أفراد خمس وخمسين أقلية عرقية فى الصين، ويتركزون فى الغرب. ومع ذلك فهناك مخاوف من أنه كما تقاوم الدولة الصينية التغريب، فإن الأقاليم النائية، كالتبت، ومنغوليا الداخلية سوف تبدأ كفاحها ضد "التصيين". ففي شين جيانج الذى تسكنه أغلبية مسلمة، على سبيل المثال، يزيد ما تشترك فيه مجموعة الأويغور العرقية مع جيرانها عبر حدود الاتحاد السوفيتي السابق عما يربطها بالكوادر فى بكين. وقد اعتمدت الحكومة المركزية على القوة فى الماضي فى أماكن مثل التبت. ولا شك فى أنها سوف تفعل الشيء نفسه مرة أخرى، وخاصة فى الأقاليم المتخلفة. إلا أنه فى الجنوب، حيث يخلق النجاح الاقتصادى المقترن بالاستقلال الإقليمي محفزاً طبيعياً لاستقلال أكبر، قد يكون الموقف أصعب على الاحتواء. بل إن الخوف من أن "ينفرط العقد مرة أخرى" جذوره عميقة فى تاريخ سيطرة قادة الجند والنزاعات العشائرية فى تاريخ الصين فيما قبل الشيوعية. وقد ظهر التنازع من جديد فى الأقاليم مع تقلص سيطرة الحزب الشيوعي.(16) والخطر الثلاثي الذى يشمل انفصال الأقاليم النائية، والنزاعات العشائرية على مستوى القرية، والاستقلال الاقتصادى النسبي فى الأقاليم المزدهرة، لا يمكن إلا أن تزيد الحكومة المركزية قلقاً-سواء استعملت لغة الجهاد فى وصف خصومها المحتملين أم لا.

والحق أن الصين حالة شديدة الخصوصية: فهي ضخمة، وقديمة، وعلى قدر كبير من التحضر، وشيوعية، وجبلت على معاداة الأجانب وثقافاتهم البربرية، ولم تكن فى أى لحظة من تاريخها الطويل ديمقراطية بحق، وإن كانت من الناحية التاريخية لا مركزية وذات ثقافة

قروية قوية. وربما كانت لتنويعاتها على الجهاد وعالم ماك شكلها المتميز. والمدهش أنه حتى فى هذا السياق، حيث قد يُعتقد أن ثقافة محلية ما لديها فرصها العظمى ضد أبناء التنوير الغربي، يبدو أنه لا سبيل لمقاومة عالم ماك. وكما هو الحال بالنسبة لقطالونيا وكيبيك، فإن الأقاليم التى تخوض أنجح كفاح، للحصول على الاستقلال من تدخل الحكومة المركزية ودس الحزب الشيوعي أنفه فى شئونها، هي تلك التى ارتبطت بعالم ماك وليس التى تخاف منه. ويتضح أن سوجو يشبه نانجنج، ونانجنج يشبه شنغهاى، وشنغهاى تشبه هونج كونج. وهكذا تبدو الصين أكثر وأكثر بمرور الأيام وكأنها تحقق ما وصفه الدبلوماسي الذى ذُكر من قبل بأنها حلمها: أى أن تصبح صورة ضخمة من سنغافورة، حيث يمكنك أن تفعل ما تريد، وتكسب علاوة على ذلك أموالاً طائلة، طالما أغلقت فمك وكانت سياستك محايدة.

والشيء المؤكد هو أن الصين كانت أكثر نجاحاً فى احتواء كل من الجهاد الداخلي وعالم ماك الخارجي من سرى لانكا، على سبيل المثال، حيث شُغلت حكومة ما كانت يوماً سيلان الجنة الجزيرة بتمرد جماعة التاميل العرقية فى الشمال (ما تسمى بنمور التحرير)، وبجهاد متطرف مضاد بين أغلبيتها السنهالية،[17] أو من إندونيسيا، وهي يوغوسلافيا آسيوية تغلي، حيث توجد 350 مجموعة عرقية مميزة، أغلبها له لغته الخاصة به، تشغل ثلاثين ألف جزيرة فى أرخبيل يربطه فى المقام الأول قوة عسكرية تابعة لنظام سلطوى حاكم تحت قيادة مؤسسه سوهارتو Suharto.[18] وسوهارتو هو الدكتاتور الكفء، الذى يُعرف كذلك بتصفيته فيما مضى لنصف مليون شيوعي فى الستينيات، وبغزوه الدموى لتيمور الشرقية فى السبعينيات (الذى يقابل استيلاء العراق على الكويت)، وبنجاحه الملحوظ فى جعل الاقتصاد الإندونيسي يقفز قفزة كبيرة فى الثمانينيات. وفي الوقت الذى قد تكون فيه إندونيسيا معروفة بأنها موقع العمالة الرخيصة التى تصنع الملابس والأحذية الغربية (دخل العامل 700 دولار فى السنة)، تحت قيادة ب ج حبيبي B. J. Habibie وزير البحث العلمي والتكنولوجيا الذى تلقى تدريبه فى ألمانيا، فقد قررت كذلك السعي وراء التكنولوجيا المتقدمة الخاصة بعالم ماك. وهي بالفعل تصنع الطائرات الخاصة الصغيرة وطائرات الهليكوبتر وتأمل فى اللحاق بالدول الصناعية الأخرى بالدخول بذكاء فى مجالات تكنولوجيا القرن الحادى والعشرين المتقدمة. ورغم ثقافات إندونيسيا المتعددة المتباينة،

نجدها أقل انشغالاً بشأن قيم عالم ماك الثقافية من المثل السياسية الغربية متعددة الثقافات والديمقراطية. وحيث أن كلاً من الديموجرافيا والطبوجرافيا فى صالح التفتيت، فإن الكفاح فى نظر سوهارتو هو ربط الأجزاء ببعضها من خلال التقدم الاقتصادى والقوة العسكرية.

والديمقراطيات الآسيوية فى اليابان والهند وكوريا(مؤخراً) حالات خاصة ترجع إلى سبب مختلف عن الصين. وبصفتها ديمقراطيات ملتزمة، اعترفت بالفعل بقوة الأيديولوجيا الغربية التى تحتفي بمُثُلها –ربما لأنها كانت فى يوم من الأيام مستعمرات غربية أو هُزمت فى قتال مع الغرب. وكفاحها على النقيض تماماً من كفاح الصين. فهي لا ترتاب فى الأفكار السياسية الغربية، وإنما فى نوع الثقافة الغربية التى تروج لها التجارة، والاقتصاديات الحرة التى تعززها الأسواق الحرة. وتواجه الهند جهاداً داخلياً من كل من الأصوليين الهندوس والمسلمين الذين يكرهون بعضهم بعضاً، ربما أكثر مما يخافون عالم ماك الزاحف إليهم. وكذلك من الانفصاليين فى ولاية آسام.

وتبدو اليابان الدولة الآسيوية التى نجحت أكثر من غيرها فى تحديث اقتصادها، ثم اتخذت لنفسها موقعاً فى القيادة الاقتصادية العالمية دون الخضوع للتغريب بالجملة. وقد اتسمت الديمقراطية بلمسة يابانية. بل إنهم عززوا الاقتصاد بسياسات خففت من حدة رأسمالية السوق الغربية الخام بخليط من دعم الدولة التجارى وأبوية الشركات. والواقع أن طبيعة أسلوب الشركات اليابانية الأكثر جماعية وتراضٍ، بل وعائلية، يقلدها فى الغرب من أذهلتهم من المعجبين بالمعجزة الاقتصادية اليابانية التى كانت فى يوم من الأيام. ومع أن اليابان ليست على هذا القدر من التجانس العرقي الذى يتخيله البعض، فقد نجحت اليابان كذلك فى تحاشي حتى تلك الأشكال الأكثر اعتدالاً من الجهاد التى نراها فى فرنسا أو إيطاليا أو الصين. وكما أوضح جيمس فالوز James Fallows بإقناع، فإن ثقافتها القوية والمعزولة أدت إلى القضاء على أثر النظرية الاقتصادية وخلقت مسافة تحول بينها وبين منتجات عالم ماك الثقافية التى نراها فى أماكن أخرى.(19)

ومع ذلك فاليابان ليست معفاة إعفاءً تاما، وقضية مناعتها المفترضة ضد عالم ماك قد تعكس مخاوف الغرب من التفوق الياباني وليس التقدير الواقعي لاستقلالها الثقافى .

فاليابان على أية حال تتمثل الثقافة الأمريكية على الأقل منذ الاحتلال الأمريكي الطويل والمؤثر لها بعد الحرب العالمية الثانية. ويقدم كارل تارو جرينفيلد Karl Taro Greenfeld صورة مذهلة لـ "رجال العصابات وموسيقيي الروك ونجمات أفلام الجنس والسرقة بالكمبيوتر ورواد الملاهي الليلية وتجار المخدرات وراكبي الدرجات النارية"، وهو ما يوحي بأن الجيل س الموجود حالياً فى اليابان–الذى يسميه جرينفيلد "قبائل السرعة"–قد يمثل نقطة فاصلة بين الماضي الياباني التقليدى الانعزالى والمستقبل الكونى (المنتمي لعالم ماك) الذى يتسم بقدر مذهل من التمثل.[20] وتتزايد أعداد فرق الروك اليابانية (التى تحمل أسماء مثل Hearts blue و B.O.S). ولكنها فى تفسير الناقد الموسيقي نيل ستراوس Neil Straus "إسفنجة ثقافية تمتص موسيقى البوسا نوفا البرازيلية، وموسيقى الهارد كور البريطانية، وموسيقى الروكابيلي الأمريكية ... وتستعير اصطلاحات موسيقى البوب من كل مكان ماعدا اليابان."[21] وينبغي أن يترك الأمر لمن هم أدرى باليابان كي يحكموا على مدى صحة تغلغل التغيرات التى يدل عليها ما نراه مؤخراً من موسيقى يابانية، وأدب ياباني، وثقافة دارجة يابانية، وكي يقدروا إذا ما كان التعديل فى السلوك الناتج عن تسلل ماكدونالدز و كنتاكي فرايد تشيكن (بالترتيب) إلى المرتبة الأولى والثانية فى صناعة المطاعم اليابانية سوف يتسرب إلى الأسس الثقافية اليابانية وتحلل الحجر العتيق أم لا.[22]

وكشأن الكثير من الأمم التى تواجه عالم ماك بشك يدفعها إلى الكفاح دبلوماسياً (وهو ضرب من الجهاد اللين) ضد زحفه الثقافى ، تواجه اليابان احتجاجاتها الداخلية من جانب الأقليات التى تأمل فى الانفصال عنها. وتبدو اليابان لهذه الأقليات مثلما يبدو لها عالم ماك. ويصبح عالم ماك حليفها ضد اليابان. وعلى سبيل المثال، أثارت أوكيناوا، التى ضمتها اليابان إلى أراضيها سنة 1879 وأعادتها لها الولايات المتحدة (التى كانت قد استولت عليها فى الحرب العالمية الثانية) سنة 1972، القلق فى اليابان بمحاولاتها لإحياء اللغة الأوكيناوية وممارسة العادات المحلية. وتتبع الحركة الأوكيناوية تلك الديناميكيات الإقطاعية الفريدة التى نراها فى حالات أخرى، حيث تستخدم شريحة عرقية فى دولة –أمة متعددة

الأعراق الثقافة العالمية والاقتصاد الكوني للمطالبة بتقرير مصيرها من الوطن، الذى قد يعارض باسم استقلاله الثقافة العالمية والاقتصاد الكوني. فقد لجأ أبناء أوكيناوا، فى كفاحهم من أجل هوية منفصلة عن اليابان، إلى هجين من موسيقى الروك يقوم على أغنيات بوب ديلان Bob Dylan وجون لينون John Lennon و بوب مارلى Bob Marley ، لكي "ترقى" بالموسيقى الفلكلورية المحلية "إلى سياق الفرقة الموسيقية".[23] وبعودة أوكيناوا الصغيرة بإصرار إلى تاريخها، تبدو كأنها تسير بثبات إلى الأمام لتدخل عالم ماك. وتلك هي تناقضات الجهاد.

ما توحي به قضية اليابان العامة، حتى للمراقبين العابرين، هو آن سياق الجهاد الياباني-بتناقضاته أو بدونها-لا يدل فقط على أن هناك كفاح داخلي من جانب الأقليات ضد ثقافة أغلبية يابانية، بل يدل على وجود كفاح من جانب اليابان الرسمية ذاتها ضد تأثيرات الثقافة الكونية المخربة، التى قذف بها نجاحها الاقتصادى إلى داخلها. ولكن ما ينطبق على كثير من الشعوب التى تكافح بتناقض ضد عالم ماك ينطبق بصورة خاصة على اليابانيين: إذ أن حاملي الفساد ليسوا فى النهاية أغراباً ولا برابرة، وإنما شباب اليابان نفسها الذين أثبتوا أنهم تلامذة نجباء لممارسات عالم ماك الكونية، فى الوقت الذى تعمل فيه الثقافة المحلية على تهيئتهم كيابانيين أصليين.

وواقع الأمر أننا ونحن نكمل هذه الجولة المختصرة من الكفاح ضد عالم ماك داخل الأمم التى حققت فيها الرأسمالية نجاحاً يفوق ما حققته فى أى مكان آخر، ما يتضح لنا هو أن مواجهة الجهاد وعالم ماك ليست حلبتها الأولى المدينة ولا الريف، ولا المدن الداخلية المضغوطة ولا الضواحي المزدهرة، وإنما روح الجيل الجديد المتصارعة. وقد تتعرض الأمم للعدوان، ولكن الجمهور المستهدف هو الشباب. ففي أوكيناوا، وفي طوكيو، وفي كل دولة فى أنحاء العالم، يجرى تكسير الجيل الصغير من جراء التنازع بين الماضي والمستقبل. ذلك أن الصغار هم الذين يحملون البنادق فى الجيش الجمهورى الأيرلندى، وفي المليشات الصربية. والصغار هم الذين يضعون سماعات الرأس الخاصة بسوني كوربوريشن ونينتندو. إن الصغار هم الذين يرقصون على أنغام موسيقى الهارد روك التى تبثها شبكتا ام تي فى وستار تيليفيجن. والصغار هم الذين يتمايلون على أنغام أغنية الهوية

العرقية وغيرها من أشكال الكراهية الأشد بأساً. إنهم يهرعون للدخول فى معركة مع الاستعماريين التجاريين المخربين على وسائد اصطناعية سريعة من صنع نايك وريبوك. إنهم يتوقفون وسط المذابح القبلية لينعشوا أنفسهم بمشروب عالمي مثل البيبسي أو الكوكا. إنهم يعزفون ألاتهم الموسيقية الشعبية فى مواجهة ثقافة مركزية فرنسية أو ألمانية أو يابانية زاحفة يزدرونها، وبعد ذلك تعلو أصوات آلاتهم العتيقة بألحان ثقافة كونية زاحفة أكثر مركزية. إنهم يحيكون المؤامرات ضد الأجانب المهاجرين عبر مودم الكمبيوتر الدفترى الذى صنعه أجانب جمّعه مهاجرون فى بلادهم. إنهم يتوقون إلى ألفة القبيلة والعصبة الجماعية، إلا أنهم يجدون متعة كبيرة فى عدوانية الفضاء الإلكتروني وعزلته. إنهم مفتونون على حد سواء بالدم الذى يربطهم والدم الذى يريقون. وهم رغم ذلك يديرون دفة عالم الترويج والمنتجات الخالى من الدماء كأنهم وُلدا له (وهم كذلك). وسواء كانوا من أعضاء Cripps Bloods or فى الجنوب الأوسط من لوس أنجلوس، أو ينتمون إلى الخيار القومي للنازيين الجدد فى برلين، أو ينتسبون إلى قبائل السرعة فى طوكيو، وسواء كانوا يطلقون النار على المراهقين الذين يحاولون الخروج من المناطق الميتة البوسنية أو كانوا المراهقين الذين تُطلق عيهم النار، وسواء كانوا القُصَّر الهوتو الذين يقتلون التوتسي أو أفراد القوات شبه العسكرية الفرنسيين أبناء العشرين الذين يحاولون الفصل بين الأخوة القتلة، فإنهم سيكونون صانعي القرن الحادى والعشرين—وضحاياه. إنهم يحتفظون بكل من الجهاد وعالم ماك معلقين فى نفوس ممزقة، لا يمكنها لفظ أى منهما ولا استيعاب الاثنين معاً. ولأنهم سُحبوا بعد تردد من ماض حددته الثقافة والقبيلة إلى مستقبل تصبح فيه السرعة هوية فى حد ذاتها، فإنهم يلهثون كي يصلوا إلى حدود الطبيعة—سرعة الضوء التى تحدد تفاعلات الفضاء الإلكتروني—سعياً وراء ما يقلل شعورهم بالقلق (أم ما يزيده؟). ومن المحتمل أن تؤدى محصلة ذلك داخل نفوسهم المتصارعة إلى تحديد محصلة الحضارة الكونية، التى لا تبدو أن توقعاتها، تبعاً لذلك، واعدة بقدر كبير.

الفصل الثالث عشر

الجهاد داخل عالم ماك

"الديمقراطيات التحولية"

لا تتضح الحدود المشتركة المتناقضة بين الجهاد وعالم ماك في أيّ مكان أفضل من "الديمقراطيات التحولية" أو "الناشئة"-التى رغم خروجها المؤكد من الشيوعية، وتحولها إلى مكان ما، ليست فى الغالب ديمقراطية ولا يحتمل أن تصبح كذلك عما قريب. وإذاكان هناك ما يحدث، فهو أنها تتقهقر بدلاً من أن تتقدم. ويعترف دراجوسلاف بوكان Dragoslav Bokan، وهو مونتير ومخرج سينمائي أصبح زعيماً لميليشا صربية خاصة معروفة باسم "النسور البيض"، قائلاً: "أنا لا أؤمن بالديمقراطية، لأنني لا أؤمن بأن أية جماعة فى أى زمن يمكنها تغيير مسار أهداف أسلافها بمحض إرادتها."[1] ويصل أكاديمي محلي آخر أُنهكت قواه إلى أن: "... هناك تاريخ كثير جداً فى حيز صغير جداً. ولا يوجد هنا ليبراليون. ليس هناك سوى القوميين. إننا ضحايا فكرة قومية طال وجودها ويستحيل التخلص منها."[2] والفكرة القومية، التى يمكن للكثير من الأوروبيين الشرقيين أن يخشونها ويقدرونها فى آن واحد، ليست هي نموذج التكامل وبناء الأمة الذى يعود للقرن التاسع عشر. ويؤكد زاركو دومليان Zarko Domljan ، رئيس مجلس كرواتيا الذى انتُخب سنة 1991، أن يوغوسلافيا "ليست أمة-إنها خليط من قبائل قديمة"، وقد اعتادت عناوين الصحف أن تصف المنطقة بأنها "زوبعة أحقاد".[3]

وداخل العالم المتقدم، الذى تدعي مِزَق الإمبراطورية السوفيتية السابقة المهلهلة أنها تنتمي إليه، ليس هناك من إقليم إلا وللجهاد فيه وجود أشد قبحاً وأكثر تفكيكاً. والجهاد، باعتباره كفاحاً ضد الدول القومية متعددة الثقافات، تلك الدول التى نجحت يوماً فى إخماد النزعة العرقية، مثل يوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتي، ومعركةً لاحتواء الغزو الثقافى الذى تشنه أسواق عالم ماك الذى لا يمكن صده، وجد موطنه الطبيعي فى وسط أوروبا وغرب آسيا. ويوصف مجاله بأنه ذلك القوس الضخم من القبائل المتحاربة الذى يبدأ من قبالة البحر الأدرياتيكي ويمر بألبانيا ويوغوسلافيا ثم يتجه إلى الشمال الشرقي-حيث

تحيط به بلغاريا فى الجنوب والمجر فى الشمال-عبر رومانيا وترانسلفانيا إلى مولدافيا وبيساريبيا إلى أوكرانيا والقرم، حيث يدور حول البحر الأسود، ليهبط فى آخر الأمر مرة أخرى إلى جنوب جبال القوقاز، حيث يتقاتل الأذريون والأرمن عند بحر قزوين فى الموضع الذى تنتهي عنده أوروبا وتبدأ آسيا. وهذا الهلال الدامي كان دائماً قلب منطقة القلاقل فى أوروبا. وأعلاه قوس ثانوى، لا يقل عنه دموية، يبدأ مساره المنحني من تشيكوسلوفاكيا وبولندا ويتجه لأعلى عبر دول البلطيق التى تشمل ليتوانيا ولاتفيا وايستونيا فى الشمال، ثم يهبط إلى روسيا البيضاء وروسيا الكبرى نفسها وأوكرانيا، وهو ما يميز كوابيسه متعددة الثقافات.

وفي ظل الإمبراطوريات العظمى العثمانية والمجرية النمساوية والروسية، كانت تلك الأقاليم المشبعة بالقبائل مقسمة تقسيماً منظماً إلى مناطق تعددية من التسامح، ازدهرت فيها الثقافة المحلية تحت عين الممالك اليقظة التى لم تكن لتطيق إراقة دماء غير ما أُريق من دماء نتيجة لسياساتها. وفرض الأباطرة الجدد من الشيوعيين مذهباً خاصاً بالقوميات تميز بالقهر وعدم التهاون مع الإقليمية. أما اليوم، فقد تهاوى هذا الإنجاز الإمبراطورى بالكامل، مخلفاً صورتين عنيفتين من صور الجهاد-معاداة التعددية ومعاداة الحداثة-حولتا هزيمة الإمبريالية الشيوعية إلى انتصار مبدأ التحرير الوحدوى والإبادة وترك الديمقراطية فى العراء.

فى هذا القوس الدموى، عالم ماك هو هدف الجهاد، الذى لا سبيل للسيطرة عليه، وقضيته. ويوفر انتشار الجريمة، التى لا يمكن تمييزها فى بعض الأحيان من الأسواق الجديدة الفوضوية، المتهورين المعادين للغرب، والسلالة الجديدة/القديمة من القوميين-الشيوعيين المسلحين بذخيرة أيديولوجية قوية. وقد أصبحت السوق الحرة فى روسيا مرتبطة بمشروعات الإستثمارالهرمية التى ابتلعت مدخرات الملايين وجعلت من الناس معارضين أبديين لما يرون أنها رأسمالية مفسدة وتبعث على الفوضى-وهي ما سماها سولجينتسين Solzhenitsyn بـ "المتوحشة".[4] وفي أوكرانيا، يشير أحد التقديرات إلى أن تصف "كل النشاط الاقتصادى غير مشروع".[5] فقد تفشت الجريمة فى بلدان الاتحاد السوفيتي السابق، حتى أن معلقاً واحداً على الأقل يرى أنها تأخذ مشروعيتها من أعلى

المستويات، "حيث أن الروس اعتادوا السيطرة الصارمة من القمة. وإذا كانت سيطرة بيروقراطية المافيا قد أتاحت عودة النظام النسبي الذى كان الكثيرون ينعمون به فى ظل الحكم الشيوعي، فإن كثيرين سوف يرحبون بها."[6]

وحيث أن الكثير من الشعوب "الحرة" حديثاً لا ترغب فى أن تعهد بحكمها لمجرمي القطاع الخاص، فقد أعادت زمام قيادتها لمجرمي القطاع العام: أى للشيوعيين السابقين والقوميين الذين تولوا الحكم فى العهد الشيوعي القديم، واستغلوا أموال كوميسارهم فى الحصول على موقع متميز فى النظام الرأسمالي الجديد، واستبدلوا المبادئ القبلية الأقدم باللينينية القديمة، وكانوا أكثر استعداداً لإعادة يد البطش، التى بات الناخبون الساخطون الذين أصابهم التعب يتوقون إليها. كما أن الحساب السياسي الجديد يساوى بين الجريمة وعالم ماك (وفي بعض الأحيان بين الجريمة والديمقراطية). وعليه، فإنه يعطي الجهاد القَبَلى ضده وضع الحرب نيابة عن اللياقة والأمانة. ونجد أن ليتوانيا وروسيا البيضاء وأوكرانيا وبولندا والمجر وصربيا وكرواتيا وبلغاريا ومنغوليا من بين الدول التى انتخب فيها المواطنون المحبطون، فى الموجة الثانية من الانتخابات الحرة، حكومات "جديدة" شكلها الشيوعيون ذوو المذاهب القومية والعرقية من نوع أو آخر. وحتى فى الأماكن التى تميزوا فيها بقدر كبير من الاعتدال، فإن القوميين اليمينيين الراديكاليين- أمثال اشتفان سوركا Istvan Csurka فى المجر، وهؤلاء الأعضاء فى البرلمان الروماني الذين صوتوا لصالح تكريم الزعيم الفاشي الروماني فى زمن الحرب أيون أنطونيسكو Ion Atonescu – عرضوا كلاً من المعتدلين ونظامهم البرلماني للخطر، مثلما عرض هتلر Hitler مدينة فايمار للخطر فى يوم من الأيام.[7] إنهم ينتظرون حتى يتغلب الجزع الشعبي على المؤسسات السياسية الضعيفة والمستأصلة. لأنه فى كثير من الأحيان ليس هناك ذلك المجتمع المدني الذى يؤصلها ويضمنها.

وفلاديمير ف جيرينوفسكي -وهو من أشهر متعصبي العالم القديم الجديد، يعزف على نفس الوتر اليميني بخلقه انسجاماً بين المصالح الإقليمية الضيقة للقومية الروسية المتعصبة والكفاح ضد عالم ماك، وهو ما يتضح بجلاء عندما يصيح قائلاً: "كان الأمر سيان بالنسبة لهؤلاء [القوى الغربية] الذين حكموا روسيا، قياصرة كانوا أم شيوعيين. فقد

كان هدفهم هو تدمير روسيا." ويصرخ جيرينوفسكي بأنه بينما جاء الألمان فى حربين عالميتين سابقتين بقوة غاشمة وحرب خاطفة، يغزو المعتدون الجدد بـ "شعارات جميلة تتعلق بالديمقراطية وحقوق الإنسان ... إن الأمريكيين أذكياء." وهو فى هذه النقطة محق بكل تأكيد: "إنهم يعرفون أنه من الأفضل أن يأتوا إلى هنا باللبان والجوارب وماكدونالدز."[8] وهو غير عصرى بعض الشيء فى إشارته الخاصة بالحرب العالمية الثانية إلى النايلون والحلوى. ولكن لتدع ماكدونالدز وتستبدل أجهزة ماكينتوش وأحذية نايك باللبان والجوارب، وسوف تكون طليعة عالم ماك قد ذُكرت باسمها الدقيق.

ولم تثبت أى من دول شرق ووسط أوروبا أو جمهوريات الاتحاد السوفيتي القديم أن لديها مناعة ضد عدوى الجهاد، أو أنها لم تعاني سياسياً واقتصادياً بسببه.[9] ولأن بعض أنواع الجهاد الصغيرة، والضارة فى الوقت ذاته، كانت نتاجاً للخوف وعدم الشعور بالأمان، ويحركها فشل المحاولات الهوجاء والطائشة لفرض المؤسسات الاقتصادية والسياسية الغربية على مجتمعات ليست مستعدة بالمرة لاستقبالها، فقد انتعشت تاركة المنطقة بلا أية قصة نجاح مقنعة. لم تثبت ذلك جمهورية التشيك، رغم ثورتها غير الدموية (وإن لم تكن "مخملية" تماماً) ورئيسها الشاعر، الذى لم يمكنه منع طلاق بلده من سلوفاكيا، رغم شرعيته المنشقة . ولم تثبته المجر، رغم اقترابها من كونها أحادية الثقافة من الناحية العرقية، وهو ما يفترض أن يجعلها فى مأمن من أخطار القبلية.[10] ولم تثبته بولندا، رغم نجاحها الاقتصادى النسبي وما فيها من تقاليد كاثوليكية ووحدوية (تضامن) تربطها بالغرب. ومن المؤكد أن روسيا لم تثبت ذلك. وفي كل من هذه الدول، تُعَرِّض التوترات العرقية، أو العصبيات التى أوقظت من نومها، أو القلاقل الانفصالية، أو الحماس القومي، الحكومات الملتزمة نظرياً بدساتير الغرب وأسواق عالم ماك للخطر.

وفيما يتعلق بالتناقض المأساوى، ليست هناك الدولة التى يمكنها منافسة يوجوسلافيا، التى يستحضر اسمها فى حد ذاته المعنى الكامل للجهاد داخل نطاق عالم ماك، بصورة أكثر بلاغة مما يمكن أن يفعله ملء مكتبة كتباً. ففي هذا المكان كانت هناك الدولة الشيوعية الوحيدة التى تستحق الإعجاب، ولو بقدر قليل من جانب الديمقراطيين اليساريين والمثاليين فى الغرب. فقد كانت دولة على قدر من الشجاعة جعلها ترفض ستالين، وعلى قدر من

الخيال جعلها تحول نظامها الاشتراكي إلى نظام فيدرالى وتخول السلطة لعمالها، ولديها من الموارد ما أدى إلى السيطرة على شظاياهاالعرقية المعادية، وكانت من الحرص بحيث تمكنت من تشكيل جيش تعددى قوى وموالى ليوجوسلافيا.[11] وكان سقوطها – أى غزو التاريخ المتخيل للإنجاز الواقعي–هو العار الذى يشعر به الغرب منذ ذلك الوقت. وتمت مقايضة الوعد بالمستقبل فى بلجراد بذكريات جرى إحياؤها لأحلام عموم السلافية التى تعود للقرن التاسع عشر، مثل أحلام نيكولاى دانيلفسكي Nikolai Danilevsky الذى طالب بروح روسية أرثوذكسية تخالف الغرب الكاثوليكي، مما أطلق العنان ليس فقط لخيال الروس، بل وخيال البلغار والمقدونيين والصرب كذلك. والواقع أن روسيا القيصرية أرسلت متطوعين سنة 1877 لدعم انتفاضة الصرب وأهل الجبل السود ضد الأتراك، و(زيادة فى التبسيط) ردت صربيا الجميل سنة 1914 بجر روسيا إلى الحرب العالمية الأولى بسبب استقلالها عن الإمبراطورية النمساوية المجرية. واليوم تبرر صربيا اعتداءاتها العرقية فى المنطقة باللجوء إلى المشاعر المعادية للفاتيكان والألمان وتستاء من "خيانة" الروس لها (رغم أن مجموعة من المتطوعين الروس تسمى "ذئاب القيصر" شاركت فى حملة صربيا فى البوسنة).[12]

ومع ذلك فلن أحاول إنصاف الرواية المأساوية لذلك القتال الذى سرعان ما أصبح مصير يوغوسلافيا. فهذه القصة تحتل الصدارة فى نشرات الأخبار طوال الثلاث أو الأربع سنوات الماضية. ونظرة سريعة على أكثر الخرائط عبثاً ، التى رسمها اليائسون ممن يرغبون فى حفظ السلام فى محاولة للبقاء خارج ذلك الحريق الهائل، دون أن يستسلموا تمام الاستسلام للقوة الغاشمة، سوف يوضح مدى تقهقر يوغوسلافيا المسكينة وسقوطها فى ماض وحشي نَكِد ، إن لم يكن متخيلاً بصورة كبيرة. ومن الصعب القول بأى الاقتراحات أكثر سخرية من غيره: هل هي روح خداع الذات والإسترضاء التى يرسم بها الأغراب "المهتمون" الذين تنقصهم الشجاعة خرائطهم المتتابعة، أم النفاق والخداع اللذان يلهو بهما الأبطال فى الداخل ويرفضونهما فى آخر الأمر. ربما لا يهم ذلك. إذ أن سخرية كل المفاوضات فى المنطقة فى النهاية تعد رداً مناسباً على عدم جدواها.

ولكى أوفى يوغوسلافيا، ناهيك عن عشرات الشظاياالقبلية الناشئة، حقها هنا، فإن عَلَيَّ أن أجمع موسوعة وسط أوروبية عن العرقية والحرب الأهلية التى سوف تبلغ بالتأكيد عشرات المجلدات. والأمر ببساطة هو أنه ليست هناك طريقة فعالة لإنصاف الجهاد المتعدد الذى برز داخل عالم ماك ولكنه ضده، من منطقة داخل حدود عالم ماك دون أن تكون من عالم ماك. دعوني أقدم حالة واحدة فقط، كمثال يتمركز حول دولة، وإن كانت دولة قومية قوية، فى وسط الوسط موجود فيها كل سمة ضارة من سمات الجهاد المفكك أو تهددها: إنها أوكرانيا. و هذه الدولة، التى تُعَد أكبر دول الاتحاد السوفيتى السابق غير الروسية التى حصلت على استقلالها حديثا وأقواها، ويرى الكثيرون أنها "رجل المنطقة العجوز"،[13] تتباهى بالأسلحة النووية (التى يُفترض تفكيكها)، وبأسطول (يُفترض أنها قايضته مع روسيا مقابل ديون الوقود والغاز)، وبوضع القوة الكبرى (محل تفاوض).[14] ويُقَسِّم نهر الدنيبر، الذى تقع عليه العاصمة الأوكرانية كييف، البلاد إلى إقليم شرقي، يكثر فيه السكان الروس (حوالى 11 مليون أو أكثر من 20 بالمائة من سكان أوكرانيا البالغ عددهم 52 مليوناً) يقترب بشدة من روسيا، خاصة فى القرم التى يسكنها ما يزيد على 60 بالمائة من الروس، وإقليم غربي "عاصمته" فى لافوف، حيث يعتز الأوكرانيون العرقيون باستقلالهم، حتى وهم يواجهون خصوماً عرقيين فى رومانيا على الجانب الآخر من نهر الدنيبر غرباً، وفي المجر وسلوفاكيا وروسيا البيضاء فى الشمال الغربي. ووضع أوكرانيا لقوة كبرى يخفي وراءه هشاشة مدنية: فهي ليست فى صراع فقط مع معظم جيرانها، ولكنها منقسمة انقساماً شديداً من الداخل. ويحذر دبلوماسي كبير قائلاً: "إذا انفجرت أوكرانيا، فسوف ينفجر معها كل وسط أوروبا ومنطقة البحر الأسود."[15]

وهكذا تواجه أوكرانيا مخاطر مزدوجة من الجهاد: الانفجار من الداخل والصراع مع جاراتها. وكان أول رئيس لها بعد السوفيت هو ليونيد م كرافتشوك Leonid M . Kravchuk، الشيوعي الأيديولوجي الذى تحول، شأنه شأن ميلوشيفتش فى يوغوسلافيا، إلى القومية القاتلة عقب الاستقلال. وهو ما أثار مخاوف الأحد عشر مليون روسي الذين يعيشون بشكل أساسي فى الشرق وفي شبه جزيرة القرم فى البحر الأسود. وفي عهده ازداد التضخم بمعدل يصل إلى 40 بالمائة شهرياً (في الوقت الذى هاجم فيه المنتقدون معدل 25 بالمائة

فى روسيا)، ورغم ما لدى أوكرانيا من قوة عاملة متعلمة تعليماً رائعاً وموارد صناعية وطبيعية، هبط الإنتاج بما يتراوح بين الثلث والنصف (فيما بين 1991 و1993) وهو ما سماه مسئولو البنك الدولى "hyperdepression" [كساد مفرط].[16] وفي سنة 1994 أزاح الإصلاحي ليونيد د كوتشما Leonid D.Kuchma كرافتشوك عن السلطة وبدا كأنه يتقرب من الروس مرة أخرى، مما أثار مخاوف الأوكرانيين العرقيين فى الغرب. فلم ينس الأوكرانيون القوميون كيف أن ستالين شن هجوماً شرساً على القوميين وقتل الملايين منهم وقضى على المفكرين بلا تمييز، عقب فترة أولية من "الأكرنة" Ukrainization عندما احتُفى بالثقافة الأوكرانية واعترف الاتحاد السوفيتي رسمياً باللغة الأوكرانية.

ومن ثم، ورغم أن كوتشما كان رئيس وزراء كرافتشوك (تخاصما فى نهاية الأمر)، فهوْ الآن لا يحظى بالثقة فى أى من غرب أوروبا (حيث يعيد النظر بشأن توقيع معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية ويبدو أنه سيثير رد فعل قوى معاد للروس) وغرب أوكرانيا- الذى لم يُضم إلى الجمهورية الأوكرانية السوفيتية إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وهو أقل فائدة لحكومة موسكو من ذلك الجزء الذى تعرض للتجاوزات الستالينية المعادية للقومية. وهناك اكتسب لقب الخائن. فكم من السهل أن تصل لغة الخيانة إلى مقاتلي الجهاد، ومن ناحية أخرى، يقدر البعض أن حوالي نصف الأوكرانيين عموماً لا يوافقون على الاستقلال الأوكراني، وإيصال كوتشما للود مع موسكو يلقى تأييداً قوياً فى الشرق، وفي القرم بشكل خاص.

وتعرضت القرم، التى كانت يوماً موطن التتار، للتطهير العرقي الروسي سنة 1944 عندما قتل ستالين سكانها الترك أو هجَّرهم إلى تتارستان على نهر الفولجا (التى تُعد بما فيها الآن من حوالي 5 ملايين تترى أكبر مناطق الحكم الذاتي بالجمهورية الروسية)، مما جعل القرم روسية صرفة. إلا أنه بعد انهيار الإمبراطورية الشيوعية، عاد ربع مليون تترى إلى القرم التى يقيمون فيها حالياً. وثلاثة أرباع هذا العدد من العاطلين عن العمل، مما يعقد وضع القرم غير المستقر فى ظل السيادة الأوكرانية. وربما فضَّل روس القرم الاتحاد من جديد مع روسيا. ولكن الأقلية التترية، بمطالبها التاريخية الخاصة بوطن قرمي، لا تؤيد أياً من السيادة الأوكرانية أو الروسية. وما نجم عن ذلك كان سياسة إقطاعية شرقية (أى

بيزنطية)غامضة. والرئيس الإقليمي القرمي الحالي يورى ميسخوف Yuri Messkov يسير وراءه الحراس حاملو الكلاشينكوف أينما ذهب (حيث أُردى ستة على الأقل من السياسيين قتلى فى المنطقة). وهو وإن كان يستند إلى موسكو، فقد يرجع ذلك إلى قلة المتاح أمامه من خيارات.

وعلى الجانب الآخر من أوكرانيا، حيث القليل من الروس وحيث يواجه الأوكرانيون المحليون الغرب، يوشك صراع آخر أن ينشب. وهو هذه المرة مع رومانيا. فالرومانيون والأوكرانيون يتنازعون على إقليم يسمى مولدافيا (ويشمل بيساريبيا) منذ عدة قرون. وفى الحرب العالمية الثانية، وبعد توقف قصير سنة 1940 (معاهدة ستالين-هتلر) عندما خسرت ترانسلفانيا، التى استولى عليها المجريون، ومولدافيا الرومانية، التى استولى عليها السوفيت، اقتطع النظام الحاكم الروماني كلاً من بوكوفينا فى الشمال وبيساريبيا فى الشرق (حيث يتحدث الناس باللغة الرومانية) ليضم كل مولدافيا إلى وولاتشيا من جديد. كما سيطر كذلك على الإقليم الواقع عبر نهر الدنيستر بما فى ذلك أوديسا، وهو إقليم أوكراني صرف. وبعد الحرب، استعيدت أوكرانيا بينما تأسست مولدافيا من جديد باعتبارها جمهورية روسية مستقلة، لتكون منطقة عازلة بين أوكرانيا ورومانيا. ولكنها كانت كذلك نقطة ملتهبة. وأثار استقلالها سنة 1989 التوترات، خاصة بعد أن قصف الأوكرانيون على الضفة الشرقية من نهر الدنيستر المولدافيين الناطقين بالرومانية على الضفة الغربية. وتستمر الحملة من أجل إقليم يتمتع بالحكم الذاتي عبر الدنيستر، مما جعل كلاً من رومانيا وأوكرانيا فى حالة من الغضب. ورغم ما أكده الرئيس الروماني أيون ليسكو Ion Lliescu قائلاً "إن أولوياتنا هي التكامل التام مع الغربيين وعالم الاقتصاد"، يبدو أن رومانيا تركز على الخصومات العرقية أكثر من تركيزها على خصمها، أوكرانيا.[17] وفي إقليم ترانسلفانيا فى الشمال الغربي، يمثل مليون ونصف من الناطقين باللغة البلغارية (من بين 23 مليوناً من السكان الرومانيين) جيشاً قوياً فى حملة سوركا من أجل "المجر الكبرى". ورغم استرضائهم مؤخراً بقوانين جديدة تسمح لهم باستعمال لغتهم الخاصة، فما زال الرومانيون القوميون يسمونهم الفاندال المغوليين.[18]

وما زال الرومانيون يضطهدون كذلك الغجر، الذين عانوا بنفس القدر الذى عانى منه اليهود من السياسات العنصرية المؤيدة للفاشية فى رومانيا إبان الحرب. وليست رومانيا الدولة الوحيدة التى تضطهد الغجر أو "روماني" ("روما")–ويوضح استطلاع أجرته صحيفة التايمز ميرور أن "الشعور الذى يربط شرق أوروبا بغربها هو كراهية الغجر" [19]–ولكنها الدولة الوحيدة التى يبدو الرأى الرسمي فيها مؤيداً للتحامل الدارج. وطالبت مجلة رومانيا مارى، وهي كبرى المجلات الأسبوعية الرومانية، مؤخراً بطرد كل الغجر من البلاد (عددهم مليونان ونصف) وأُحرق عدد من مساكن الغجرْ وقُتل العديد من الغجر.[20] وعلى عكس مجلة الديمقراطيين الأحرار فى المجر، التى تحتوى بياناً بشأن المعاملة النزيهة للغجر فى البيان السياسي لحزبها، نجد أن الأحزاب السياسية الرومانية صامتة صمتاً تاماً عن هذه المسألة.

ورئيس الوزراء رومان Roman يهودى (شأنه شأن السفير السابق لدى الأمم المتحدة سيلفيو بروكان Sylviu Brucan). ولكن حزب الرئيس ليسيكو، جبهة الخلاص الوطني، لا يقوم بأى شيء للتنصل من الزعيم الروماني فى زمن الحرب أيون أنطونيسكو، الذى ساعد حرسه الحديدى فى فيلق القديس ميكائيل النازيين فى إبادة الغجر واليهود على السواء.[21] وواقع الأمر أن رومانيا كانت القوة الوحيدة خارج ألمانيا التى أقامت معسكرات الإبادة وأدارتها. وفي غرب أوكرانيا، دفن أتباع أنطونيسكو الأطفال أحياء توفيراً لطلقات الرصاص. وفي النهاية أثاروا غضب أدولف آيخمان Adolph Eichmann [حقاً]الذى أفزعته وحشية المعسكرات الرومانية الهوجاء التى لا جدوى منها.[22] وفي فترة متأخرة من الحرب، وبسبب الكتابات التى ظهرت على الجدران، غير أنطونيسكو طريقته. ولكن ذلك لم يكن بالسرعة الكافية للحيلولة دون إعدام الروس له سنة 1946. ولكن سمعته اليوم أُزيل عنها ما أُلصق بها (حيث يبدو كـ "وطني عظيم")، بينما يتهم اليهود مرة أخرى بخيانة المصالح القومية الرومانية بالوقوف إلى جانب الروس أثناء الإبادة، ليصبحوا بذلك مسئولين عن التعجيل بتصفيتهم، ويلقي التاريخ المحرف باللوم على الروس وحلفائهم اليهود فيما يتعلق بالمذابح الجماعية التى حدثت فى أوكرانيا.

وكتب برام ستوكر Bram Stoker مؤلف "دراكولا" عن هذه المنطقة المضطربة التى تضم مائة من الشعوب المتحاربة والمتصاهرة والمتداخلة فى بعضها بطريقة معقدة قائلاً: "كل خرافة معروفة فى العالم تجمعت فى حدوة سكان جبال الكربات، وكأنه مركز ما يشبه زوبعة خيالية ... وتتميز الحياة السياسية بالغموض والزيف."[23] وما ساهم به الخيال هو فى الغالب تاريخ أسطورى ينوع مناسبات العداء، ويمد الاختلافات الغامضة المتغيرة، التى كثيراً ما لا يدركها أحد، بالقوة القاتلة اللازمة لكراهية الآخر. ويبدو أن ايريك هوبسبوم يردد مقالة ستوكر عندما يقول إن "التاريخ ليس ذاكرة سلفية أو تراث جماعي. إنه ما يتعلمه الناس من الكهنة، والمدرسين، وكُتَّاب كتب التاريخ، وكُتَّاب المقالات فى المجلات، وبرامج التلفزيون".[24]

وأحقاد المنطقة كثيرا ما تقوم على التعلم إلى جانب التذكر. وهي من وحي برامج الإذاعة العرقية التى تبث الكراهية، أكثر منها ميراثاً من النزاعات القديمة. والهويات الفعلية فى أغلب الأحيان متعددة الثقافات. وكتب هوبسبوم قائلاً: "من الشائع بالنسبة لكبار السن من سكان أية مدينة فى وسط أوروبا أن يحتفظوا بمستندات هوية تخص ثلاث دول متعاقبة. وأى رجل فى مثل عمرى من ليمبرج أو تشرنوفيتس عاش فى ظل أربع دول، ناهيك عن احتلال زمن الحرب. وربما عاش رجل من مونكاتش فى ظل خمس."[25] ومما يؤسف له أن شكوك النسب هذه المولدة للتسامح يخترعها الخطاب الإرهابي. فبعد أن تخلصت الشظايا القومية الفرعية الحالية من القيود الإمبراطورية التى قضت على الهويات الإقليمية القائمة فى ظل الإمبراطوريتين النمساوية المجرية والعثمانية، نجدها تسعى إلى التقليص إلى أقل الأشكال حجماً. حيث يمكن للهجة المحلية، والديانة الطائفية، والهوية العرقية أن تختلط معاً وتشكل، بناء على منطق تقرير المصير العرقي المقيد، قومية ضيقة تقوم على كراهية "الآخرين" التى أُرضِعت بعناية-إن لم تكن على التاريخ. فأى بوسني ناطق بالبوسنية الكرواتية، اعتنق جده الأكبر الإسلام فى ظل العثمانيين، يستحق الطرد. ووجود دين مشترك وشراكة اقتصادية فعالة لا يكفيان لمنع استثارة التشيك والسلوفاك، الذين أثارتهم المشاعر "التاريخية" التى نُفخ فيها من جديد، من تدمير كل ما يشتركون فيه. وعلى أية حال، "إذا لم يكن هناك ماض مناسب، فدائماً يمكن اختراعه".[26] وتوحي قصص كل الأقاليم

الواقعة فى هذه المنطقة جميعها بأن الماضي المخترع يوظف فى شن الحرب على الحاضر، بطريقة لا يمكن إلا أن تؤثر على المستقبل.

وقد فقد المتشائمون الأمل فى المنطقة قبيل خروجها من الشيوعية. ففي سنة 1990 قال يانوش فورساك Janos Vorzsak نائب رئيس اتحاد المجريين الديمقراطي فى رومانيا متعجباً "أغلب الرومانيين غير مستعدين للديمقراطية. فقد عاشوا زمناً طويلاً فى ظلام دامس، بحيث تسهل قيادتهم. كما أن لهم نفسية بدائية."[27] ولكن صحة هذا مرجعها فقط إلى رغبة القادة فى أن تكون صحيحة، لأن آلات عالم ماك الإلكترونية والرقمية توضع كي تعمل نيابة عن الجهاد، لأن الذاكرة مقيدة بالاستياء. وهو ما يعني، كما سأوضح لاحقاً، أنه لا خلاص لها منه. ذلك أنه إذا أتى الجهاد على الظروف اللازمة للديمقراطية ، فإن الديمقراطية سوف تأتي على الظروف اللازمة للجهاد.

الفصل الرابع عشر

الجهاد الأساسي: الإسلام والأصولية

ليس هناك من مكان يتضح فيه التوتر بين الديمقراطية والجهاد أكثر من العالم الإسلامي، حيث موئل فكرة الجهاد، وإن لم يكن بالتأكيد محتكره الوحيد. ذلك أنه مع أنه من الواضح أن الإسلام دين مُركَّب ليس مرادفاً للجهاد بحال من الأحوال، فهو مْن الناحية النسبية لا يرحب بالديمقراطية. وعدم الترحيب هذا يهيئ الظروف الملائمة للإقليمية، ومعاداة الحداثة، والانغلاق، والاستبعاد، ومعاداة "الآخرين"-وهذه هي السمات التى تشكل ما أسميته بالجهاد.

وبينما يرتبط "الجهاد"، كاصطلاح، بكفاح المؤمنين الأخلاقي (وأحياناً المسلح) ضد الكفر والكافرين، فقد استخدمته أنا هنا للحديث عن شكل عام وشامل للمعارضة الأصولية للحداثة الموجودة فى معظم أديان العالم. وفي الدراسة الضخمة التى ضمتها خمسة مجلدات وأعدها كل من مارتن مارتي Martin E . Marty وسكوت أبلباى Scott R. Appleby ، يتناول الباحثان السنة والشيعة، وإن أعارا اهتماماً مساوياً للبروتستانتية والكاثوليكية، بمختلف أشكالهما الأوروبية والأمريكية الشمالية والجنوبية، وللهندوسية، ولطائفة السيخ، ولبوذية التيرافادا، ولإحياء الكونفوشية، وللصهيونية. ويعتبر مارتي وأبلباى أن الديانات الأصولية تشارك فى الكفاح، بصورة من صور "القتال" الدائم: فهي "مقاتلة، سواء باستخدام الكلمات والأفكار، أو الاقتراع، أو القضايا المتطرفة ، أو الطلقات."[1] إنها تقاتل قتالاً مضاداً، حيث تكافح بصورة مضادة ضد الحاضر باسم الماضي. وهي تقاتل من أجل مفهومها الديني عن العالم ضد العلمانية والنسبية. كما أنها تقاتل بأسلحة من كل نوع، تستعيرها أحياناً من عدوها، وتختارها بحرص ضماناً لهويتها. وهي تقاتل الآخرين من أعوان الفساد. وهي تقاتل فى ظل الإله من أجل قضية لا يمكن أن تخسرها وإن لم يحن أوان كسبها بعد، لأنها قضية مقدسة. والكفاح الذى هو جهاد ليس أحد ملامح الإسلام فحسب، وإنما سمة من سمات كل الأصوليات. ورغم ذلك فـ "الجهاد"

مصطلح إسلامي ولم ينل قوته المحركة من ارتباطه بالأصولية عامة فحسب، وإنما بالأصولية الإسلامية بشكل خاص، وبجماعات الكفاح المسلح مثل حماس والجهاد الإسلامي التى شاركت فيه. وهناك بعض الاتجاهات المعتدلة والليبرالية فى الإسلام، ولكنها أقل بروزاً فى الوقت الراهن من الاتجاه الجهادى.

والإسلام كدين له ميول كونية. ومع أنه ليس عالمياً، فقد أبدى تسامحاً مع الأديان الأخرى، حتى وإن اتبعتها أقليات تقيم فى الدول الإسلامية. ومن الناحية التاريخية، أبدى الإسلام تردداً أكبر من المسيحية فى نشر الدعوة. كانت له إمبراطورياته، ولكنه لم ينافس الصليبيين أو الإمبراطورتين الاستعماريتين البريطانية أو الفرنسية. ومع ذلك فهو يشكل عالماً نشأ فيه الدين الإسلامي والدولة الإسلامية ولا سبيل لفصلهما. ويقول بعض المراقبين إنه يتيح مساحة للعلمانية تقل عما يتيحه أى من أديان العالم الكبرى. وبذلك، وبينما توجد اتجاهات أصولية فى كل الأديان، فقد كان لمثل هذه الاتجاهات فى الإسلام دور سياسي رائد منذ القرن الثامن عشر. وخلق هذا مشاكل من نوع خاص للديمقراطية وحقوق الإنسان فى الدول التى تسكنها أغلبية مسلمة فى أنحاء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وآسيا. بل نجد فى مثل هذه البلاد أن كفاح الجهاد ضد عالم ماك أكثر من كونه مجازاً للتعبير عن القبلية أو معاداة الحداثة القلقة. فهو حرب بمعنى الكلمة ضد القيم والثقافة والمؤسسات التى تشكل المجتمع الليبرالي. وحتى أصدقاء الغرب من العرب يجدون أنفسهم مضطرين لإثارة الشكوك حول القيم الغربية. وفي إعلان قُصد منه تهدئة مخاوف الأمريكيين من حليفتها العربية السعودية، شعر السفير الأمير بندر بن سلطان رغم ذلك أنه مضطر لأن يكتب قائلاً: "إن الواردات الأجنبية كـ 'الأشياء' الواضحة أو التكنولوجية المتقدمة لا بأس بها. ولكن المؤسسات الاجتماعية والسياسية غير المنظورة قد تكون قاتلة."[2] إلا أن مسئولاً بوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي الإيرانية أمكنه أن يكون أقل مواربة. وهو يقول عن برامج القنوات الفضائية التى تبث إلى طهران: "هذه البرامج، التى تعدها الإمبريالية العالمية، جزء من مؤامرة موسعة لمحو قيمنا الدينية والمقدسة."[3] ومع بث مسلسلات مثل Dynasty وdanhue و dinky Dog و The Simpsons عن طريق ستار تي فى لمنافسة ما يسميه المتشككون الإيرانيون "الرجل الذى فى الشرفة" (الزعيم الثورى الراحل آية الله

الخميني وهو يلقي خطباً مطولة)، ليس مستغرباً أن تعتقد الدولة الإيرانية أن "القمر الصناعي ضد النبي الكريم نفسه" وتسعى إلى حظر استيراد أطباق المحطات الفضائية وتصنيعها واستخدامها.[4]

والجهاد فى هذا الكتاب مجاز للكفاح المضاد للعالمية والمعادى للغرب. والسؤال المطروح هنا هو إن كان أكثر من مجرد مجاز فى الثقافة الإسلامية التى صاغت المصطلح أم لا. ويؤكد استطلاع امبريقي تناول الحكومات الموجودة فى الدول الإسلامية أن هناك قدراً من عدم الألفة بين الإسلام والديمقراطية. ففي كل الدول الإسلامية تقريباً، لم تُجرَّب الديمقراطية قط، أو استُبعدت فى أعقاب تجارب لم تكلل بالنجاح. فهي فى الجزائر، وبعد الانتخابات التى أُلغيت بسبب الانتصار الذى حققه الأصوليون، فى خطر كبير. وفي مصر، حيث لم تُجرب الديمقراطية تجربة كاملة، يتلاشى الحد الأدنى من الحريات على يد حكومة خائفة تسعى إلى تعقب الأعداء الأصوليين. وفي الكويت، وحتى بعد "حرب تحريرها" من الظالمين العراقيين، لا أثر للديمقراطية. وأصبحت دول مثل باكستان وأفغانستان والسودان، أو من المحتمل أن تصبح، أقل ديمقراطية عما كانت عليه من قبل. لأن الأصوليين الإسلاميين أضحوا أشد قوة ونفوذاً. بينما حليفات أمريكا، كالعربية : السعودية والأردن وإمارات البترول مضغوط عليها بشدة كى تواصل التظاهر بكونها ديمقراطية، بينما تمضي فى كفاحها المضاد للأصوليين، مع أنها تخوض هذا المعركة باسم الديمقراطية.

والواقع أن الأصولية لها سجل كعدو للطغاة فى الشرق الأوسط أفضل من سجل الأنظمة العلمانية التى جئ بها لإسقاط الأصولية ولتحقيق المطامح الغربية. إلا أنه رغم تصدى الأصولية فى كثير من الأحيان للطغيان، فهى لم تخلق الديمقراطية قط. فالسجل التاريخي فقير بالقدر الذى جعل بعض المراقبين مثل جون ووتربيرى John Waterbury يصدقون فرضية "استثنائية" تقول إن الإسلام يخلق مجموعة استثنائية من الظروف التى تجعل الدول الإسلامية غير كفء لأن تصبح ديمقراطية ، وتكتب عليها الدخول فى كفاح لا ينتهى ضد التنوير وضد أبنائها الليبراليين والديمقراطيين.[5] ويقول هلال خاشان Hilal Khashanببساطة إن "كل شروط الديمقراطية مفتقدة فى العالم العربي.والديمقراطية العربية بالشروط الغربية تفكير رغبي."[6]

ورغم ذلك، وحسبما قد نتوقع، هناك تفسيرات منافسة للإسلام داخل العالم الإسلامي. وليس هناك جدل واحد ذو طابع موحد إلا وتواجهه التحديات. ورغم أن الإسلام ليس فيه كلمة تعني ديمقراطية ويستخدم المصطلح اليوناني (وإن كان هذا ما نفعله نحن كذلك)، ورغم أنه ينظر إلى الأنظمة السياسية الديمقراطية على أنها قاصرة على الغرب-وهو ما يُسمى بالعربية "الغرب" الغريب، المظلم، الموحي بالخوف، الذى تغيب فيه الشمس على موطن شعوب غريبة ومعتدية-فلديه مصادر التنوير الإسلامية الخاصة به. فالإسلام كذلك، فى رواية واحدة على الأقل لتاريخه، قصة كفاح بين العقل والإيمان، وبين الإجماع والتسلط، وبين مقاومة الطغيان والطغاة. وتؤكد عالمة الاجتماع المغربية فاطمة مرنيسي أن "الإسلام على امتداد تاريخه اتسم باتجاهين: اتجاه فكرى يُعمل الفكر فى الأسس الفلسفية للعالم والبشرية، واتجاه آخر جعل التحدى السياسي عنيفاً بلجوئه إلى القوة." وأوجد الاتجاه الأول تأملاً فى العقل يشبه الخيرية الغربية. أما الآخر، [فإن أصحابه] "اعتقدوا بكل بساطة أنه بالتمرد على الإمام، وقتله فى بعض الأحيان، يمكنهم تغيير الأمور."[(7)] وكلا التقليدين "يثيران نفس القضايا التى يُقال لنا اليوم إنها مستوردة من الغرب"، أى قضايا المقاومة والمحاسبة – أى الديمقراطية.

وبذلك تكون هناك وجهة نظر الأصوليون الإسلاميون فيها مقاومون بحق السلطة السياسية الدنيوية الفاسدة، مثلما كان المسيحيون الأوائل. والمتحمسون الذين اغتالوا أنور السادات سنة 1981 كانوا أعضاء فى جماعة اسمها بالحرف "الجهاد". وعندما انتهوا من فعلتهم الدموية وصاحوا "لقد قتلت فرعون، ولا أخشى الموت"، كانوا يتحدثون لغة شهداء التحرير.[(8)] وفي الجزائر، وصل الأصوليون للحكم عن طريق الانتخابات سنة 1991، وكان حزب التحرير الوطني العلماني هو الذى أغلق المؤسسات الديمقراطية بتأثير من الجيش، بدلاً من تسليمها لمنافسيه، الذين تغلبوا عليه فى الانتخابات. وبذلك يستمر المراقبون فى اعتقادهم بأن الإسلام والديمقراطية سيجمعهما المستقبل. وفي مؤتمر عقده معهد الولايات المتحدة للسلام سنة 1992، تحدث الحضور عن "تركيبة جديدة يمكن لتصارع الآراء" يمكن فيها "أن يسفر تصادم الآراء عن رؤية مركبة جديدة، تعزز فيها الدول الإسلامية المفاهيم الديمقراطية وتعطيها معنى جديداً يتعدى استخداماتها الحالية، التى يغلب عليها الطابع الغربي."[(9)]

ما هو نصيب هذا الوعد من الواقع؟ هل الديمقراطية فى البلدان الإسلامية ضحية للقهر الاستعمارى واستغلال ما بعد الكولونيالية، وليست ضحية للقوى الإسلامية المخلية، كما يرى بعض النقاد مثل إدوارد سعيد؟ [10] أم أن الإسلام "استثناء" يرفض أى مجتمع مدني حر، وبذلك يحول دون الديمقراطية الحقة؟ وإذا كانت الديمقراطية تعني الديمقراطية الغربية، والتحديث يعني التغريب، فسيبدو أن الأمل ضعيف فى التصالح، طالما أن الإسلام يعتبر الثقافة العلمانية الغربية والقيم المصاحبة لها مخربة ولا تتسق أخلاقياً مع ثقافته وقيمه. ولكن إذا اتخذت الديمقراطية أشكالاً عدة، وكانت مظهراً قديماً وحديثاً، فى الوقت ذاته، من مظاهر السعي للوصول إلى المجتمعات التى تحكم نفسها بنفسها، ساعتها قد يمكن تعديلها لتلائم الأفكار الواردة فى القرآن مثل "الأمة" و "الشورى" و "المصلحة". وكما أشار بعض الباحثين الإسلاميين الآخرين، فإن الإسلام، إذا فُهم بهذه الطريقة، فقد لا يكون "مناقضاً لما تستهدفه القيم الديمقراطية."[11] وربما يؤكد الأصوليون الإسلاميون أنه طالما أن إرادة الله هي الغالبة، فلا وجود لإرادة البشر. إلا أن المعتدلين يشيرون إلى أن هذا يترك رغم ذلك فسحة كبيرة للأغلبية قد تمارس سلطتها السياسية، طالما أنها تفعل ذلك فى إطار يقر بالهيمنة التامة للقوة الإلهية. وليس فى أى من فرنسا أو إيطاليا فصل رسمي بين الكنيسة والدولة. إلا أن الدولتين أقامتا ديمقراطيتين قابلتين نسبياً للتطبيق. والامتثال التام للرب يمكن أن يكون بمثابة كابح للحكم الدنيوى المتسلط الذى لا يراعي أى قيم. بينما يتيح لأى شعب معتدل، يقيده الإيمان، الفرصة كي يحكم نفسه بطريقة ديمقراطية بأسلوب جنيف الكالفنية أو ماساتشوستس البيوريتانية قبل الثورة.

المشكلة التى تقف فى طريق المصالحة ليست بالدرجة الأولى هي معارضة الإسلام الأصولي للديمقراطية، وإنما معارضته للتحديث، وخاصة كما يظهر فى التغريب. والديمقراطية لها سوابقها القديمة. وهي فى أشكالها ما قبل الحداثية وما قبل الليبرالية ليست بالضرورة على خلاف مع الإسلام الأصولي أو المسيحية الأصولية. إن "مدينة الرب" بالنسبة للمسلمين والمسيحيين على السواء تضم الأخوة المؤمنين المتساوين فى وضعهم البنوى أمام الرب. ولكن الحداثة، على عكس الديمقراطية التى يمكن أن تتسق مع الدين (الواقع أن توكفيل كان يعتقد أنها تقوم على الدين)، مساوية للعلمانية. وهي بالتحديد تكاد

تخرب كل الأديان، وعلى رأسها ذلك الدين الذى يتخذ " الصورة الجامعة والعالمية لرسالة الله كما جاءت فى القرآن.[12] وسيادة الرب الجامعة والعالمية هذه تخلق مشاكل شائكة بالنسبة للإسلام، بينما تحايلت عليها المسيحية بالتسليم بوجود مذهب "ذى سيفين" فيه الرب يحكم فى ملكوته ويحكم الإنسان، من خلال المَلَكِية ، فى مملكته. وكان استخدام البابا جريجورى Gregory للمبدأ التكييفي الذى فى العهد الجديد، "أعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر"، يمثل فصلاً سابقاً على الدساتير بين الكنيسة والدولة. وهو ما لا مثيل له فى الإسلام، الذى يفضل أن يعطي الناس كل شيء، دينياً كان أم دنيوياً، وروحياً كان أم مادياً، لله. ومثل هذا الترتيب الموحد قد يحبط الديمقراطيين، رغم إحباطه كذلك للملوك (طالما أن أياً منهم ليس له مجال خارج مُلك الله يمارس فيها سيادته أو طغيانه. والله لا يسامح الخصوم).

ورغم ذلك، فالديمقراطية دائماً تجد طريقة لخدمة الدين. وحرب الجهاد مع الديمقراطية تقل عن حربه مع عالم ماك. ففي العشرينيات، كان حسن البنا مؤسس جماعة الأخوان المسلمين يشكو من "موجة الإلحاد والفسق" التى غمرت مصر. تلك الموجة التى "بدأت تخريب الدين والأخلاق بدعوى الحرية الفردية والفكرية."[13] يمكن أن يوبخ البنا روبرت مردوخ أو بارى ديلر عندما يهاجم الغربيين لاستيرادهم "نسائهم العاريات الكاسيات إلى هذه البلاد، إلى جانب خمورهم، ومسارحهم، ومراقصهم، وقصصهم، وجرائدهم، وروايتهم، ونزواتهم، وألعابهم السخيفة، ورذائلهم." لقد حدد أبعاد عالم ماك، قبل زمن طويل من تبلور عالم ماك بالقدر الذى يتيح له تحديد أبعاد نفسه. وبعد أن أدرك تفوق المعرفة على السلاح، وتفوق الاتصالات على الجيوش، حذر فى العشرينيات من أن ثقافة الغرب "كانت أشد خطورة من الحملات السياسية والعسكرية إلى حد كبير". ويبدو بذلك أنه تنبأ بأن عالم ماك سوف ينجح حيثما فشلت الإمبراطوريات الاستعمارية.

ويتجه غضب البنا إلى صميم حملة الجهاد ضد ما هو حديث وعلماني وعالمي. إنه يضع يده على جوهر الأصولية بالصورة التى هي عليها منذ القرن السابع عشر. حيث نمت جنباً إلى جنب مع الحداثة الشريرة، التى رأت أنها تقوم بدور المدافع عن المُلاَّك من أجل البيوريتانيين والمسلمين، والبوذيين والمعمدانيين على السواء. ولنقارن خطاب البنا النارى

بذلك الوعظ الجنوني الذى كان يلقيه البيوريتاني البريطاني برين Prynne. ففي كتاب لبرين عن أنساب الرذائل المسرحية يكاد يتسم بالهستيرية اسمه Histriomastix، يدين الروايات المسرحية بأنها "نفس خيلاء الشيطان التى نستهجنها فى المعمدانية .. المناظر الأثيمة والوثنية والفاسقة والكافرة، وأشد أشكال الفساد وبالاً". ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذم طائفة من الأعمال الحديثة باعتبارها "لهو شرير مخالف للمسيحية" وتشمل "الرقص المختلط المخنث، ولعب النرد، والصور المثيرة للشهوة، والموضات الخليعة، وطلاء الوجوه، وشرب الأنخاب، والشعر الطويل، خُصَل الحب، والشعر المستعار، وعقص النساء وقصهن لشعورهن، وإيقاد النار فى الهواء الطلق، وهدايا العام الجديد، وألعاب مايو، وأشعار الحب الرعوية، والموسيقى المخنثة الخليعة، والضحك الزائد عن الحد، والاحتفال بالكريسماس الذى يتسم بالفوضى والترف.." ومجموعة غيرها من التسالي التى تشكل معاً كتالوجاً لأسلاف عالم ماك.[14] هل هناك صنف واحد بين هذه الأصناف لا يمكن أن يدينه أى مُلا متعصب كذلك؟ ويمكننا فى الوقت نفسه أن نسمع صوت البنا الغاضب فى غضب جان جاك روسو المحسوب ضد العواصم، باعتبارها توابيت للعدالة والأخلاق الحقة. فهي مدن زاخرة بتدبير المكائد، والعاطلين الذين لا دين لهم ولا مبدأ.[15] وشكاوى روسو هي نفسها شكاوى فلاحي البروفانس ضد رجال البلاط الباريسيين العجزة، واليعاقبة الباريسيين المحدثين وهي احتجاجات مزارعي ألاباما المريرة ضد الصفوة الثقافية فى هوليوود ونيويورك و "الساسة" الذين لا صلة لهم بأحد ممن يلعبون ألعاباً ذات مصالح خاصة "داخل الطريق الدائرى". ذلك أن الثورة على الحداثة تمرد على العالمية وثقافتها الحضرية ووسائل ترفيهها المنمقة. فبلا أى سبب وجيه، أصبح العداء للعالمية الذى وراء كل ردود الأفعال الأصولية لا يثق فى التنوير: فالنمو الاقتصادى يأتي معه بالحاجات الدنيوية المزدهرة مع وسواس الترضية، بينما تدمر الفنون والعلوم البساطة والإيمان الطبيعي لدى البسطاء من الرجال والنساء. والتنوير يولد العلمانية، والعلمانية لا تدمر الدين الرسمي فحسب، بل كذلك الأخلاق التى يقوم عليها. وبذلك تدمر النسيج الاجتماعي الذى يربط المجتمعات بعضها ببعض.

وأخيراً، ليس البنا ببعيد كثير البعد عن بات باترسون Pat Paterson، وبات بوكانان Pat Buchanan، وحملة اليمين المسيحي من أجل العودة للقيم الأسرية فى القرن التاسع

عشر-تُفهم القيم الأسرية على أنها نتائج مباشرة للذهاب إلى الكنيسة، والصلاة فى المدرسة، وأمريكا المسيحية البروتستانتية. وكما أن الإخوان المسلمين رأوا فى المسيحية مخرباً صليبياً، كان البروتستانت الأمريكيون أعضاء جماعة Know Nothing فى ثمانينيات القرن التاسع عشر يرون فى المهاجرين الكاثوليك القادمين من منطقة البحر المتوسط شراً مستطيراً على الجمهورية الأمريكية، تماماً مثلما يشعر به أهل كاليفورنيا الخائفون حالياً نحو المهاجرين غير الشرعيين القادمين من أمريكا اللاتينية، باعتبارهم عبئاً ليس فقط على مواردهم المالية، وإنما على النظام الأخلاقي لمجتمعاتهم المتماسكة ، وبالنسبة للأمريكيين، غالباً ما يُنظر إلى الجهاد على أنه ظاهرة أجنبية، وملمح من ملامح السياسة الشرق أوسطية، والحرب المقدسة بين الشتات المسلم والمستوطنين الصهاينة، حيث تسيطر على كل منهما فكرة الأرض المقدسة. ولكننا اليوم يمكننا كذلك الحديث عن جهاد أمريكي. وهو ليس الجهاد الأمريكي الذى نشرته وسائل الإعلام وتركز فى الذين فجروا مركز التجارة العالمي، أو فى مؤيدى حماس من الأمريكيين العرب-إنه الجهاد الأمريكي الذى كتب عنه ستيفن باربوزا Stephen Parboza كتابه الأخير.[16] والجهاد الأمريكي الذى له مغزاه هو بالأحرى أصولية اليمين المسيحي المعادى للقيم المتعارف عليها، وجهاد الأصوليين البروتستانت المعادين عداءً شديداً للحداثة ممن يتمردون على ثقافة الكفر التى يولدها عالم ماك الذى بين ظهرانيهم.[17] عالم ماك الذى يخرجونه من تحت الأرض على برامجهم التلفزيونية التى تُذاع فى ساعات الذروة، ويعيدون دفنه فى أحاديثهم الإذاعية الصاخبة، وفي الفضاء العام العلماني، حيث يقوض الساسة "الليبراليون" المكروهون أنظمتهم العقائدية بالكتب الدراسية التى تدعو إلى الارتقاء والتطور، وبالمدارس التى تحظر الصلاة.

إن للحداثة أعداء آخرين بخلاف الحرب المقدسة الإسلامية، بينهم موطن عالم ماك الأمريكي ذاته. فمنذ ثلاثينيات القرن الثامن عشر على الأقل، عندما عاشت أمريكا "الصحوة الكبرى" الأولى لها فى الأصولية البروتستانتية، وهذا البلد يشعر شعوراً دورياً بحماس الدين الرجعي. واليوم يقدم زعماء الائتلاف المسيحي الرئيسي ما يُعد نسبياً صورة معتدلة من صور الجهاد. وهكذا نجد أن جيرى فالويل Jerry Falwell ، رئيس "الأغلبية الأخلاقية"،

يلقى مواعظ مضادة للمحكمة العليا التى "اغتصبت الدستور، واغتصبت العقيدة المسيحية، واغتصبت الكنائس"، ويحث أتباعه على "القتال ضد تلك الأقليات الراديكالية التى تسعى إلى إزالة الرب من الكتب الدراسية، والمسيح من أمتنا . ويجب ألا نسمح لأطفالنا بأن ينسوا أن هذه أمة مسيحية. ولا بد أن نستعيد ما هو بحق لنا."[18] وفي سنة 1992 يبلغ بات بوكانان المؤتمر القومي الجمهورى أن البلاد تواجه حرباً ثقافية من أجل بقائها . وفي أعقاب انتخابات 1994،يتهم الجمهوريون المنتصرون الرئيس كلينتون باتخاذ مواقف معادية للثقافة وغير أمريكية. أما المحـــاربون الأقل تقليدية، مثل راندول تيرى Randall Terry المعارض بشدة للإجهاض، فأكثر صراحة: "أريدكم منكم فقط أن تدعوا موجة من عدم التسامح تغسلكم. أريدك منكم أن تدعوا موجة من الكراهية تغسلكم.نعم،الكراهية مفيدة . غايتنا أمة مسيحية. إن علينا واجب توراتى، وقد دعانا الرب لفتح هذا البلد."[19] وهؤلاء الجنود المسيحيون يأتون إلى حملتهم الحماسية ضد الزمن والعالم الحديث بكل السخط، وبكل عدم الصبر مع الفتور الأخلاقي، وبكل الكراهية المطهرة، التى تميز المتعصبين فى طهران والقاهرة. وهم يتساهلون مع عالم ماك فقط من أجل استغلال اتصالاته متقدمة التقنية لتنظيم ناخبيهم، أو موسيقى الروك الخاصة به لتكون طبقة حلوة تغطي أغاني الخلاص. فجماعات مثل Gospel Gangstas أو T.F.I.W.S 1-A. تكره طلقات القنص على أن تُكون فى خدمة يسوع:

فى هذه المعركة كلمة الرب هي بندقيتي

المصوبة على رأسك

لأن هدفى واضح،

تريد أن يُطلق سراحك

وبعد ذلك يجب إنقاذك

من الأفضل أن تفعل ذلك الآن

تحرك بسرعة

وإلا فسوف أضربك بـ

شاهد القنص.[20]

رعاة البقر الإنجيليون المتدينون هؤلاء قد لا يكونون ملائكة،[21] ولكنهم ليسوا مجانين كذلك: فهم سيفوزون فى الانتخابات المحلية، وساعدوا الجمهوريين سنة 1994 على الفوز بالكونجرس، وسيدفعون الحزب الجمهورى أكثر وأكثر نحو اليمين. لقد جمعوا الملايين من أجل حملة الكولونيل أوليفر نورث Oliver North للحصول على عضوية مجلس الشيوخ فى فيرجينيا وكاد أن يفوز. كما أنهم يتميزون بالدهاء، ليس فقط فى تكتيكاتهم السياسية، بل فى حكمهم على عالم ماك كذلك. فهناك الكثير فى عالم ماك مما يسبب الشعور بالغثيان، والكثير مما يثير غضب العدالة والأخلاق، والكثير مما يحط من قدر الدين والمعتقدات الدينية، والكثير مما يقلل من شأن كل من الكائنات البشرية والروح العظمى التى يشعرون بوجوب الانتماء إليها—إن هم أرادوا الشعور بأنهم بشر. وتلهف سكان الضواحي الأمريكيين لحقائق العهد الجديد بمعناه الحرفى ، التى لا ريب فيها، لا يقل بساطة عن تلهف الشهداء العرب لحقائق القرآن بمعناه الحرفى ، التى لا ريب فيها. فكلاهما يريد أن يُولد من جديد، لكي يُولد بالأمس. لكي يُولد فى عصر يسبق محاولة نيتشه إقناعنا بأن الرب قد مات. إنهم يريدون الاستشهاد قبل أن تتحقق نبوءة فيبر بأن العقلانيين والحكومات البيروقراطية سوف يحررون العالم من الوهم. البعض ينضم للجماعات الأصولية، والبعض الآخر يضع بذرة عزلة رائدة، حيث يخرجون "من الملعب" لمقاومة "النظام العالمي الجديد" الذى يعتقدون أنه يعرض القيم المعادية للحداثة التى يعتزون بها للخطر.[22] وربما يناطحون الزمن نفسه. ولكن الزمن لم يكن صديقاً للدين ولا للأخلاق فى القرون الأخيرة. وحتى البراجماتيين، المستعدين للعيش بما يجود به التاريخ، قد يسعون إلى التخلص من الحياة التى ورّثها لهم من قبلهم.

بل إن هناك نوع جديد من البراجماتيين الأمريكيين: إنه براجماتي الحرب المقدسة المخيف الذى يتصرف من منطلق الغضب الذى نبت من بذور الاستياء الشديد التى لقيت

كل رعاية. قد يكون محارباً قديماً، وإن لم يكن هذا بالضرورة. وربما لا ينتمي فقط إلى "رابطة البندقية القومية"، وإنما إلى جماعة عنصرية مثل "المقاومة الآرية البيضاء"، أو "النظام"، أو إحدى "المليشات" التى تنتشر انتشاراً سريعاً وتتكون فى كل ولاية تقريباً من أمريكا. إنه مفتون بتكنولوجيا عالم ماك المدمرة-أى أسلحتها ومتفجراتها الهجومية-حتى وهو تُعَرِّف كونية عالم ماك بأنها ضياع لحريته "القديمة" من ذلك الطراز الأمريكي. ويعكس غضبه نوعاً من القلب المدروس للديانة المدنية. والدستور بالنسبة له يعني التعديل الثاني (الحق فى حمل السلاح). كما أن الحرية معناها القانون الذى ينتهي حيثما تبدأ أملاكه (الضباط الفيدراليون عملاء للشمولية). والحكم عفريت يمثل واجهة للشيوعيين والأمم المتحدة، ولا بد من تنظيم حرب دفاعية وشنها لمنعه من الاستيلاء على البلاد. واتساقاً مع الأسلوب الهذائي، فإن أبطاله من الانعزاليين المقهورين مثل روبرت جاى ماتيوز Robert Jay Matthews، وهو أحد زعماء "النظام" الذى قتل سنة 1984 آلان بيرج Alan Berg مقدم برنامج التوك شو Denver، وقتل هو فى وقت لاحق فى معركة بالنيران. وهناك أيضاً راندى ويفر Randy Weaver وهو ممن يؤمنون بسمو الجنس الأبيض. وكانت زوجته وابنه قد قُتلا فى مواجهة بالأسلحة النارية مع السلطات سنة 1992. وكذلك ديفيد كورش David Koresh، "الشهيد" الداوودى الذى أصبح مقتله فى واكو فى الغارة التى شنتها الحكومة سنة 1993 دعوة للانتقام بالنسبة لآلاف من منبوذى عالم ماك. ومنهم كذلك ريتشارد وين سنيل Richard Wayne Snell، الذى يصف نفسه بالنازى وقتل جندياً أسود من جنود ولاية أركانسو وأُعدم فى 19 إبريل سنة 1995.

وكان يوم 19 إبريل سنة 1995 - بعد عامين بالتمام والكمال من مأساة واكو-هو نفس اليوم الذى تولت فيه حفنة من المتعصبين، الذين كانوا "يكرمون" هؤلاء السابقين، تفجير المبنى الفيدرالي فى أوكلاهوما سيتي، فيما يعد أكثر الأحداث الإرهابية تكلفة فى التاريخ الأمريكي. وعلى الفور وجهت السلطات أصابع الاتهام إلى الجهاد. وهم على حق فى ذلك، وإن كانت مخطئة فى اعتقادها بأن الجهاد خارجي: إسلامي، أو عربي، أو إيراني. ولكن الجهاد كان قد رجع إلى أمريكا بكل سرعته المحلية. ولأنه ينمو فى موطنه، فهو يتفشى فى قلب البلاد.

وإذا كان عالم ماك فى أشد أشكاله السلبية جوهرية ضرب من الجشع الحيواني- ذلك الجشع الذى يتحقق بطاقة عدوانية لا يمكن مقاومتها، فإن الجهاد فى أشد أشكاله السلبية جوهرية ضرب من الخوف الحيواني الذى يثيره القلق فى مواجهة الشك، ويزيله التعصب الذى يضحي بالنفس-الذى هو هروب من التاريخ.[23] ولأن التاريخ على الدوام تاريخ الوجود الفردى، والاستحواز، والتحول العلماني، والعدوانية، والتفتيت، والفسق، فهو يتحول فى عيون أتباع الجهاد إلى عربة الشر الدنيوية. إلى حامل الفساد الذى يجب رفضه هو والزمن. والمدافعون عن الأخلاق، سواء فى أمريكا، أم فى إسرائيل، أم فى إيران، أم فى الهند، ليس أمامهم خيار سوى شن الحرب على الحاضر، لضمان مستقبل أقرب شبهاً للماضي: الماضي غير التعددى، أحادى الثقافة ، الخالي من الشك، المفتون. إنها تلك القيم المتجانسة التى نشأ عليها فى يوم من الأيام الرجال والنساء الذين يحيون حياة منظمة وبسيطة فى مثل هذه الظروف. واليوم أصبحت حياة كل منا رواية جيب. و "رواية جيب" كرواية، أو كفيلم سينمائي، أو كحياة، لا تعد بأية معجزات. وعالم ماك طعام لا يُسْمِن بالنسبة للأخلاقيين الجائعين، ولا يبدى إلا اهتماماً عابراً بالروح. ومهما كان مقدار العنف الذى تتسم به الأعمال المرتبطة بالجهاد، فإن التمرد الذى تكشف عنه تلك الأعمال رد فعل للتغيرات العنيفة فى حد ذاتها.

ويشير هذا المسح لطبوغرافيا الجهاد الأخلاقية إلى أن عالم ماك- أى فقر الأسواق الروحي-قد يتحمل قدراً من اللوم فيما يتعلق بتجاوزات الحرب المقدسة ضد الحديث. كما أن الجهاد باعتباره شكلاً من أشكال الرفض يكشف عن الجهاد كشكل من أشكال الإثبات. فالجهاد يخدم النفس، التى ينأى عنها عالم ماك، ويكافح من أجل السعادة الأخلاقية التى يزدريها عالم ماك، المشغول بخيارات المستهلكين الذين فهموها خطأً على أنها الحرية. وبذلك يدخل الجهاد فى حرب مع عالم ماك. ولأن كلاً منهما مشغول بالآخر فسوف يقف فى وجه غاياته ويحول دون تحقيقها وفى النهاية تصبح الحرب بينهما حرباً مقدسة. والخطوط فى هذه الحالة لا تُرسم على الرمال، وإنما تُبنى بالحجارة. وليس من السهل إخضاع لغة الكراهية للتسوية. فـ "الآخر" باعتباره عدواً لا يمكن تحويله بسهولة إلى محاور. ولكن بما أن عالم ماك "آخر" بالنسبة للجهاد، فالجهاد كذلك "آخر" بالنسبة لعالم ماك.

ويصعب الاتصال القائم على العقل بين الاثنين عندما يبدو لأنصار الجهاد أن كلاً من العقل والاتصال من أدوات الشيطان التى يستعملها فى الغواية، بينما تبدو لأنصار عالم ماك من أدوات النزعة الاستهلاكية التى تستعملها فى الغواية. ورغم تفاعل الجهاد وعالم ماك الديالكتيكي فهما نقيضان أخلاقيان. فلا مكان للننتيندو فى المسجد، ولا مكان ليسوع فى الإنترنت– رغم القنوات "الدينية" التى تنتشر انتشاراً سريعا". ولا يمكن أن تكون الحياة لعباً وجداً. ولا يمكن أن تعني تلبية حاجات الجسم الأدنى، وتعني فى الوقت ذاته مجد الروح الغيرية الأعظم. فإما أن يقول القرآن الصدق، أو أن يكون الصدق برنامجاً من برامج المسابقات التلفزيونية. لقد قدم لنا التاريخ الجهاد وعالم ماك وجعلهما لا ينفصلان. ولكن الأفراد لا يسعهم أن يعيشوا فى كلتا المنطقتين فى آن واحد. وهم مضطرون لأن يختاروا بينهما. ومما يؤسف له أنه ليس من الواضح أن الاختيار، مهما كان، يحمل فى طياته أملاً كبيراً للديمقراطيين الذين يبحثون عن مجتمع مدني حر.

هل ينبغي على الديمقراطيين المرتقبين، والحال كذلك، أن يجربوا حظهم مع عالم ماك الذى يشاركونه الطريق إلى الحداثة، وإن أظهر القليل من الاهتمام بهم؟ أم يحاولون التكيف مع الجهاد، الذى يخدم هدفه الأخلاقي السامي جدية الديمقراطية، وإن لم يترك سوى مساحة صغيرة ثمينة لحرياتها؟ والواضح أنه لا الجهاد ولا عالم ماك – ولا المعركة الدائرة بينهما بالتأكيد–تسمح للديمقراطية بمساحة كبيرة.

الجزء الثالث

الجهاد في مواجهة عالم ماك

الفصل الخامس عشر
الجهاد وعالم ماك
فى الاضطراب العالمي الجديد

يدور الحديث بين الدول المتحاربة حول نظام عالمي جديد. ولكن الاشتباك الدائر بين الجهاد وعالم ماك يثير اضطراباً عالمياً جديداً تُحبس فيه الديمقراطية. ومن المؤكد أن الدولة القومية فى حد ذاتها لا تضمن وجود المجتمع المدني الديمقراطي. وربما كانت شيئاً يقل عن كونها شرطاً لا يمكن الاستغناء عنه لازدهار الأحرار من الرجال والنساء. وعلى أية حال، فإن الديمقراطيات من أى نوع نشأت فى نظم حكم الدولة المدينة الصغيرة-التى تبدو مناسبة لها بصورة مثالية - قبل أن تكون هناك الدول القومية ، وكذلك فى ظل الإمبراطوريات التى ابتلعت الدول القومية. إلا أنه فى القرون الأخيرة العديدة، كانت المؤسسات الديمقراطية والمساواتية فى أغلب الأحيان شديدة الارتباط بالدول القومية المتكاملة. وكانت المواطنة (الضرورية للديمقراطية) من سمات العضوية فى هذه الدول. والواقع أن الهجوم المزدوج على المواطنة الديمقراطية ، من جانب قوى الجهاد العنيدة وأسواق عالم ماك الآخذة فى الانتشار، قوض أسس المؤسسات الديمقراطية. والسؤال المهم هو هل باستطاعتهما ضمان وجود أسس جديدة، سواء فى الإقليمية الضيقة أو الهوية العرقية (وسياسة الاستياء التى تصاحبها)، أو فى عالمية دافع الربح (وسياسة السلع التى تصاحبها).

والإجابة عارية العظام، التى آمل الآن أن أكسوها ببعض اللحم، هي ببساطة كالآتي: لا يبشر أى من الجهاد أو عالم ماك بمستقبل على قدر كبير من الديمقراطية. بل على العكس، توحي نتائج التفاعل الدياليكتيى بينهما بأشكال مرعبة من الطغيان غير المتعمد الذى يتراوح بين النزعة الاستهلاكية، التى تفرض قيودها بطريقة خفية، والبربرية شديدة الوضوح والصراحة. وتتصل يد السوق الخفية بذراع متحكمة تُترك لعوارض الجشع العفوية، ما لم ترشدها رأس ذات سيادة. والطغيان هنا غير مباشر. بل كثيراً ما يكون له فى النفس وقع حسن. وأدرك ألكسيس دى توكفيل Alexis de Tocqueville طبيعته لأول مرة منذ 160 سنة عندما كتب قائلاً: "كانت الأصفاد والجلادون الأدوات الشائعة التى

استعملها الطغيان فيما مضى. ولكن حضارة عصرنا وصلت بالاستبداد نفسه إلى الكمال. ... وكان الملوك گ يجسدون القهر. أما الجمهوريات الديمقراطية فى الوقت الراهن فتقدمه كشأن من شئون العقل. حيث تُرك الجسد حراً واستُعبدت الروح."[1] وتبدو أيديولوجيا الاختيار كأنها تحرر الجسد (فبإمكانك الاختيار من بين ست عشرة علامة تجارية من معجون الأسنان، وأحد عشر موديلاً من الشاحنات الصغيرة، وسبع ماركات من أحذية الجري)، ولكنها تقيد احتمال حرية الروح الحقيقية تقييداً مميتاً (فلا يمكنك أن تختار ألا تختار. أى لا يمكن أن تختار الانسحاب من السوق أو رفض مطالب الجسد).

تتنازل أسواق عالم ماك عن الحكم وتجتنب الإرادة المشتركة، تاركةً المصلحة العامة والجماعات التى تفرض التبعية وسلعها للأفراد ومصالحهم. والواقع أن توسيع مجال خيارات المستهلكين يقلص مجال الخيارات الاجتماعية ويفرض تغييرات فى البنية الأساسية لا يختارها المجتمع العام أو يرفضها عن وعي. فعلى سبيل المثال، حرية الأمريكي فى الاختيار من بين عشرات الماركات من السيارات ضمنتها التضحية بحرية الاختيار بين النقل العام والنقل الخاص، وتطلبت عالماً أصبحت فيه المراكز التجارية المقامة على الطرق السريعة، والضواحي، ومعدل استهلاك البنزين المرتفع، وازدحام حركة السير (وهذا قليل من كثير) أمراً حتمياً وكثير الشيوع، دون أن يكون اختياراً متعمداً لإحدى هيئات صنع القرار الديمقراطية–أو أن الأمر متعلق بالأفراد الذين أحبوا قيادة السيارات واختاروا أن يشتروها. وسيادة السلعة هذه تتيح توسعاً سطحياً للخيارات داخل إطار مقرر سلفاً مقابل التنازل عن الحق فى تحديد الإطار. وهي تتيح الشعور بالحرية، بينما تقلل مساحات الخيارات والقدرة على التأثير على العالم الأكبر. فهل هذه حقاً حرية؟

ويحدث الشيء نفسه على المستوى العالمي. فعالم ماك يتحدث بلغة الاختيار، ولكنه يقتطع "حرية" البيع والشراء من حق الرجال والنساء فى الاشتراك فى اختيار سلعهم المشتركة أو الطبيعة الاجتماعية لعالمهم المشترك. ويروج صندوق الدولي والبنك الدولي للأسواق، ولكنهما مهتمان اهتماماً قليلاً، إن كان هناك اهتمام بالمرة، بالترويج للديمقراطية. وحقيقة الأمر أنهما أبديا استعدادهما للتضحية بالتوازن المدني والمساواة الاجتماعية

لصالح أهداف اقتصادية صرفة مثل الخصخصة والتجارة الحرة. فهما يفرضان على الديمقراطيات الجديدة الهشة خططاً اقتصادية مكثفة. تلك الخطط التى تتناسب مع الاستراتيجيات الاستثمارية الخاصة بالدول أعضائهما (والأهم بالبنوك أعضائهما)، كما تضمن الاستياء العام وتولد الحنين إلى الماضي حيث شبكات الأمان الشيوعية. وغالباً ما تكون القبلية الجديدة والجهاد هما المستفيدان فى النهاية. وعلى المدى القريب، قد تبدو اتفاقيات مثل الجات ذات أثر منظم ، حيث تضع القوة فى جماعية الدول-منظمة التجارة الدولية التى أنشأتها الجات، على سبيل المثال- وتفرض أغلبية عالمية internationalist majoritarianism على الدول منفردة. ومع أن هذا يشكل قدرة الدول المنفردة على تنظيم اقتصاداتها، فمن المفترض أنه يفعل ذلك باسم عدالة التوزيع الكونية والمصلحة العامة العابرة للقوميات.[2] إلا أنه على المدى البعيد، ومع ضعف السيادة القومية، تضفي الترتيبات الجديدة قوة على الأسواق غير الخاضعة لأى إشراف ديمقراطي كائناً ما كان، كما تقلص الاحتمالات الكونية الخاصة بالاختيار العام باسم القيم الاجتماعية الأساسية.

ويشكو جاك هينكمان Jack Heinkman رئيس نقابة عمال الملابس والنسيج الموحدة من أن اتفاقية الجات تبيح استغلال حوالى 200 مليون طفل، بينما استنكرت العواقب البيئية الوخيمة للتنازل عن السيادة استنكاراً واسع المدى فى أوروبا وأمريكا.[3] إلا أننا نجد بعد ذلك أنه ليست الدول التى تقل سيادتها باستمرار هى التى تتقاتل فيما بينها، وإنما الشركات متعددة الجنسية وأسواقها الكونية هي التى سوف تملى على أمريكا وغيرها من الدول ما هو ممكن وما هو غير ممكن: إن كان الأطفال أبناء الخامسة فى باكستان سيعملون فى ورديات مدتها ثلاث عشرة ساعة مقابل 20 سنتاً أم لا، وإن كان سيُسمح للمصانع التى تعتمد على العمالة الرخيصة فى إحدى الدول الآسيوية بالقضاء على العمل الجيد فى المنشآت لبتى أجقيمت بجهد كبير (وبتكلفة كبيرة) فى دولة أخرى أم لا.[4] وحتى الشركات الأمريكية المسئولة مثل ليفاى ستراوس كومباني، التى وضعت من تلقاء نفسها "دليل الموارد الكوني"Global Sourcing Guidelines لمنشآتها فيما وراء البحار، تضطرها المنافسة والأرباح إلى البحث عن أسواق العمالة الرخيصة، حيث يستوطن الاستغلال ويُعد التقنين فكرة جاءت بعد فوات الأوان تقتضيها العلاقات العامة.[5]

أما الجهاد فيتصرف بطريقة أفضل قليلاً. فهو يحدد الذات بوضعها مقابل "آخر" غريب، ويجعل من السياسة تدريباً فى الإبعاد و الاستياء. وهو يروج للطائفة، ولكن ذلك يحدث على حساب التسامح والتبادلية، ومن ثم يخلق عالماً الانتماء فيه أكثر أهمية من التفويض، وتحل الغايات الجماعية التى يفترضها الزعماء الجماهيريين محل الأسس المشتركة الناتجة عن التشاور الديمقراطي. فالجهاد يتحدث لغة تقرير المصير، ولكنه يقتطع الاستقلال الجماعي من حرية المواطنين الأفراد الإيجابية. وتشترى صربيا البوسنية صورة معينة من صور "تقرير المصير" بمصادرة حريات شعبها.

وفى وسط أوروبا وفى آسيا، أدى سقوط الستار الحديدى إلى فتح شعوب عديدة على كل من الجهاد وعالم ماك. ولم تعن نهاية الماركسية نهاية التاريخ، وإنما نهاية الإمبريالية السوفيتية فحسب. وكان من الطبيعي أن تفتح بعض الأبواب فى مجموعة دول الإمبراطورية الشيوعية السابقة المهلهلة. فالماركسية كممارسة سياسية عملت على قمع الحرية التى قامت ثوراتها باسمها. ولكن نهاية الماركسية تمثل كذلك انتصاراً بالنسبة لبعض قيم التنوير الأكثر تجويفاً-مثل المادية والأنانية والفردية الراديكالية-على بعض مطامحها الأكثر نبلاً: مثل الفضيلة المدنية، والمجتمع العادل، والمساواة الاجتماعية، ورفع النير الاقتصادى عما كانت تعرف فى الماضى بالطبقات العاملة. وهذه المطامح جاءت من إيمان عصر العقل بقوة الاقتصاد التحريرية وقوة الدفع الديمقراطية التقدمية للتاريخ. فقد أوحت بالثورات الاجتماعية فى فرنسا وألمانيا وروسيا، لبتى لم تحقق أى منها نجاحاً ملحوظاً. وإلى حد أن فشل ثورات الماركسية (لبتى بدأت بفشل ثورة الماركسية الأم فى فرنسا اليعاقبة) هو فشل للتنوير. فقد أفسد الفشل التام مثالية التنوير وإيمانه بالتقدم ، بحيث تركنا فى عالم أكثر تشاؤماً وأنانية تقلصت فيه مطامحنا لكي تتماشى مع المعيار الضئيل لجشعنا الحقير والإدراك القاصر ليد مستهلكنا المرئي. وفى بعض الأحيان يبدو أن الإيمان العام بالديمقراطية ضاع فى العفش الذى أُلقى به من على سطح السفينة عندما جرى التخلص من الإيمان العام بالاشتراكية.(6)

وأنا أفهم أن الديمقراطية لا تعني فقط حكم الشعب بالشعب ومن أجل الشعب، وإنما حكم المواطنين بالمواطنين ومن أجل المواطنين. فالمواطنة هي عملة السلطة السياسية،

وهي ما يوفر للديمقراطية ملاعتها المدنية. فلا الجهاد ولا عالم ماك لديه مثقال ذرة من الاهتمام بمصلحة المواطنين. وقد رأى توماس فريدمان Thomas Friedman، فى صورة من صور جدل عالم ماك، أن المحاربين الذين يقتل الأخ منهم أخاه، حيث يواجه الواحد منهم الآخر فى أيرلندا وجنوب أفريقيا والشرق الأوسط، ربما تكون السوق الكونية قد أغرتهم بالابتعاد عن الصراعـــــات الداخلية التى ليس لأحد سلطان عليها، فجميعهم "أجبرتهم القوى السياسية على تحويل سيوفهم إلى أسلحة محاريث". (7) ولكن السلام ليس ديمقراطية. فمواطني عالم ماك مستهلكون وزبائن تتكون حريتهم من الحق فى الشراء فى أسواق لا يمكنهم السيطرة عليها، وهويتهم تفرضها عليهم النزعة الاستهلاكية التى لا يلقون لها بالاً. وسوف يكون الفلسطينيون والزولو وكاثوليك أيرلندا الشمالية أكثر حرية فى القيام بأعمال تجارية داخل بلادهم المستقرة وخارجها، ولكنهم لن يكونوا بالضرورة أكثر حرية فى غير ذلك.

.ولم يكن قد مضى وقت طويل على انتهاء الحرب العالمية الثانية حين اعترف فيكتور ليبو Victor Lebow بأن "اقتصادنا غزير الإنتاج ...يتطلب منا أن نجعل الاستهلاك أسلوب حياتنا، وأن نحول بيع السلع وشراءها إلى طقوس، وأن نبحث عن رضانا الروحاني، ورضانا الذاتي، فى الاستهلاك".(8) أما اليوم، وحسبما يقول آلان ديورنج Alan During، فإن "كلمتي مستهلك وشخص قد أصبحتا مترادفين وهميين." ويصل ديورنج إلى أن "الاقتصاد العالمي يجرى تنظيمه فى الوقت الحالي لكي يزود 1.1 مليار من البشر بأسلوب حياة استهلاكي، تتسم أشياؤه بالطول ووقته بالقصر... وارتفاع معدل الاستهلاك ليس شرطاً مسبقاً للتوظيف الكامل أو القضاء على الفقر."(9) وهذا هو العالم الذى لمستهلكي أيرلندا وفلسطين وجنوب أفريقيا الحرية فى الانضمام إليه الآن. أما التوظيف الكامل والعدالة الاجتماعية، أو أسلوب الحياة الذى يترك وقتاً للاستمتاع بثروة السلع ومنتج التعليم، فهي شغل المواطنين الشاغل، وليس المستهلكين. والتخلي عن الجهاد لن يجعلهم مواطنين بصورة آلية. وإلى أن يجد عالم ماك طريقة لتنشئة المواطنين بنفس النجاح الذى يحققه فى تنشئة المشترين والبائعين، فإن تلك الأهداف سوف تُهمل إهمالاً متعمداً، بغض النظر عن المؤسسات التحولية الإبداعية التى يجرى طرحها. كما أن هذه المواطنة لا تزدهر فى ظل ظروف الحرب الأهلية القومية اقتتال والأخوة العرقي.

وحقيقة الأمر أن الجهاد يستفيد بالمواطنين أكثر من استفادة عالم ماك بهم. فمواطنوه أخوة وأخوات فى الدم، تحددهم هويات هم أيضاً ليس مسموح لهم أن يختاروها لأنفسهم. من الممكن أن تكوني أختاً ومنتجة، أو أن تكون أخاً ومستهلكاً. إلا أن أياً من الهويتين لا توفر للأفراد أية سيادة حقيقية على خطط حياتهم، التى تنظمها لهم بكل همة الجذور والدم من ناحية، والإنتاج والاستهلاك من ناحية أخرى.فالسيادة هي أصل المواطنة. وسيادة الدول الديمقراطية، التى تعطي للسياسية وظيفة تنظيمية فيما يتعلق بكل المجالات الأخرى، ليست شيئاً مختلفاً عن سيادة المواطنين، الذين تتيح لهم مقدرتهم المدنية اتخاذ قرارات مشتركة يقظة تنظم نتائج سلوكهم اليقظة باعتبارهم أفراداً ومستهلكين ذاتيين. وفى عالم المستقبل الذى ستكون الهوية الوحيدة المتاحة فيه هي هوية الأخ فى الدم أو المستهلك المنعزل، وحيث تدخل هاتان الصفتان اللتان لا قيمة لهما فى معركة على النفس البشرية، لا يبدو أن الديمقراطية فى موضع يسمح لها بالمشاركة فى الانتصار، بغض النظر عمن سيكون من نصيبه. ولا تبشر أى من سياسة السلع ولا سياسة الاستياء بالحرية الحقيقية. إن خليطاً منهما معاً ينتج عن التفاعل الدياليكتيكي للجهاد فى مواجهة عالم ماك–ولتسمه تسليع الاستياء–لا ينذر إلا بعبودية جديدة، إن لم تكن غامضة.

ومع ذلك، ورغم كل شكوكي فيما يتعلق بدياليكتيك الجهاد وعالم ماك، فأنا لا أظن أن الديمقراطية مستحيلة فى حقبة تأتي عقب أفول الدولة القومية. وتوحي قصص النجاح الديمقراطي بأن الديمقراطية عملية تنموية بطيئة لا تأتي إلى الوجود من خلال لحظة اكتشاف سحرية واحدة. وإنما من خلال تطور طويل يكون الاكتشاف فيه عادة مجرد لحظة الذروة الرمزية. وهؤلاء الذين يشيدون شكلاً من أشكال الديمقراطية الكونية بحاجة إلى الصبر. إلا أنهم كذلك بحاجة إلى العناد. ذلك أن الحفاظ على الديمقراطية، ناهيك عن توسيع رقعتها، فى ظل هذه الظروف التى تتطور تطوراً سريعاً، سوف يقتضي القيام بأعمال الخيال السياسي الجريء والإرادة السياسية الواعية، التى لا يُنتظر منها فى حد ذاتها أن تنبثق عن التفاعل الدياليكتيكي. الصبر، والإرادة السياسية، والجرأة: توليفة من السمات ليس من السهل غرسها، خاصة عندما تعاني الديمقراطية من القهر.

الإجابة السهلة عن السؤال الصعب الخاص بكيفية تنظيم عالم يتعدى القوميات فى كثير من الأحيان هي: عولموا القانون،-أقيموا مؤسسات عالمية جديدة لتقوية المؤسسات التقليدية كالأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية. وبدءاً من الإيمان بانسجام السلطات فى القرن التاسع عشر وميزانه الخاص بسياسة السلطة، حتى نقاط وودرو ويلسون Wilson Woodrow الأربع عشرة وعصبة الأمم (التى لم تنضم إليها أمريكا) التى أسفرت عنها الحرب العالمية الأولى التى أعقبتها، وحتى الأمم المتحدة التى تأسست بعد الحرب العالمية الثانية كمظهر من مظاهر تعاون الحلفاء فى التغلب على الفاشية، كان الأمل فى تغلب الدول ذات السيادة بطريقة أو بأخرى على مصالحها القومية وسياساتها الطائفية. أى أن تتخلى عن قدر من سيادتها للهيئات العابرة للقوميات القادرة على ضمان السلام والتعاون فيما بينها. ومع أن القانون يعبر عن صوت السلطة ذات السيادة، فالسعي إلى نظام عالمي آمن بالقانون الدولي قد وضع ثقته فى قانون كونى لن يخفت صوته بغياب السيادة الدولية. إلا أنه من حسن الحظ أنه فى الوقت الذى يجعد فيه القانون صوت السلطة المبجل الذى يقنن قوتها الغاشمة، فالسلطة هي شرط القانون الذى لا يمكن الاستغناء عنه وبدونها لا تكون لشرعيته أية قوة. ونتيجة لذلك، القانون دائماً هو التابع المعدم لجيوش عبور القوميات الزاحفة –وكان من قبل تابعاً لجيوش الإمبريالية والشيوعية والتجارة والأسواق الدولية، أما اليوم فيتبع جيوش الاتصالات، والبيئة، والأسواق المالية والنقدية، والثقافة الدارجة الكونية. إنه يسهل السلطات التى يخدمها بدلاً من تقييدها. فحيثما اتجهت مصالح الدول القومية اتجهت مصالح القانون الدولي.

ومن المفارقات أن هذا الارتباط يعرقل القانون عندما تكون الدول قوية، ذلك أنها ترفض السَماح للقانون الكوني بتقييد سيادتها. إلاأنه عندما تكون الدول ضعيفة ، يترك القانون الدولي بدون من يفرضه. فالقانون لا يقود، وإنما يسير متعثراً خلف السلطة الحقيقية بطريقة مخالفة لادعاءاته بأن له قدرة تنظيمية عابرة للقوميات. والمؤيدون يشيرون إلى قانون البحار، ومواثيق حقوق الإنسان، ومعاهدات الفضاء، والاتجاه الجديد نحو التنظيم البيئي الكوني (معاهدتي مونتريال و ريو دى جانيرو على سبيل المثال). إنهم

يتباهون، ومعهم بعض الحق، بالدور الذى قامت به محكمة العدل الأوروبية فى تدعيم التعاون الأوروبي. إلا أن الأحداث فى أوروبا منذ ماستريخت - أو بالأحرى منذ تأسيس عصبة الأمم (10) - توحي بأن استمرار أولوية السلطة على القانون، سواء كانت سلطة السيادة الوطنية لتعويق القانون الدولي أو إبطال مفعوله، أم سلطة الأسواق الدولية لتقليل أهمية التشريعات البيئية وتشريعات الصيد الدولية والتحايل عليها.

وعندما يتم التوقيع على الاتفاقيات الدولية الإيجابية، فهي إما أن تعكس اتفاقاً نادراً على المصالح فيما بين الدول الموقعة عليها (مثل قانون البحار)، أو مصالح الكيانات العابرة للقوميات ذات الأولوية مثل الشركات الكونية التى أقنعت الدول الراعية لها بدعمها. ولنأخذ مثالاً قريباً، هو الاتفاقية العامة للتجارة والتعريفة الجمركية، وهي فى واقع الأمر تستغل شروط معاهدتها لمنع الدول من اتخاذ الإجراءات البيئية التى تتعارض مع التجارة، باستخدام "القانون" كستار لتعزيز المصالح الاقتصادية البحتة التى تجبر المعاهدة الدول ذات السيادة على الإذعان لها. والقانون فى أحسن الأحوال يهدف إلى المنفعة-فهو خادم لمصالح الدول أو الأسواق - وفى أسوأ الظروف مجرد تسويغ لقوة خفية. واليوم يظل درس هوبز العظيم حقيقياً: "الاتفاقيات بلا سيف" ليست سوى كلمات لا تفيد بالمرة فى ضمان أمن الناس والدول. والمنظمات الدولية لا سيوف لها إلا سيوف الدول ذات السيادة الأعضاء فيها. وبذلك لا طاقة لها على فرض القانون على الأقوى منها. والشركات متعددة الجنسية ليست مسلحة، ولكنها تعمل فى ظل ظروف الفوضى السياسية العابرة للقوميات، حيث فى القوة الاقتصادية ما يكفي.

وفى أية حالة من الحالات، فقد تعدى القانون الخيال الهوبزي. ويرجع هذا فى المقام الأول إلى أن العلاقات الدولية لم تعد فى المقام الأول مسألة علاقات بين الدول. فدوريات القانون الدولي اليوم قد بح صوتها فى التأكيد على أن الدول وحدودها قد باتت نهباً للقوى البيئية والتجارية والتكنولوجية، التى تتحدى بالضرورة التنظيم الدولي، رغم أنها تدعو إليه. فعلى سبيل المثال، يكتب موريس سترونج Maurice Strong قائلاً: "المطلوب هو الاعتراف بالواقع الذى يقول إنه فى ميادين كثيرة، وخاصة ميدان القضايا البيئية، ليس مجدياً أن تمارس الدول القومية المنفردة السيادة من جانب واحد."(11) فطالما أن الأمور

تتعدى مقدرة الدول القومية، فليس هناك ما يحل محلها من الأجهزة التنظيمية الفعالة. ويشكو أوسكار شاختر Oscar Schachter من أن قانون البيئة مازال "رخواً-حيث يتكون من مبادئ ومعايير سلوكية ليست مقبولة قبولاً واضحاً باعتبارها إجبارية، كما أن تطبيقها غير مؤكد."(12) إلا أن جيفرى بالمرGeoffrey Palmer يبدوأكثر يأساً حين يقول: "تنقصنا الآليات المؤسسية والقانونية كي نتعامل بفاعلية مع إفساد البيئة والمحيط الحيوى العابر للحدود.وكما هو واضح، ينقصنا الكثير من القواعد والوسائل اللازمة لتنفيذها كما تنقصنا المؤسسات القادرة على ضمان فاعلية ما لدينا من قواعد."(13) والاحتكام إلى المؤسسات الدولية التقليدية احتكام باسم الضعفاء لنوايا من لا حول له ولا قوة الحسنة.

وما يصدق على القضايا البيئية، حيث يهدد عبور القوميات والقومية الفرعية بحدوث فوضى، يصدق أكثر فى المجالات الأخرى. وهاهي تقنيات الاتصالات الجديدة تعبر الحدود كيفما تشاء، دون أن تتعرض لأى نوع من التقنين العابر للقوميات-حتى إذا كان هناك منظمون دوليون فاعلون على الساحة. والشبكات الوهمية التى تخلقها مثل هذه التقنيات فى صورة أسهم وسندات وعملات، تتعدى هي الأخرى السيطرة العقلانية لأى كيان، قومياً كان أم دولياً. وإذا كانت الدول الشمولية مثل الاتحاد السوفيتي وألبانيا قد عجزت عن السيطرة على قرصنة أفلام الفيديو، وشبكات الكمبيوتر المنتشرة فى كل مكان، وماكينات تصوير المستندات والفاكس، وبث القنوات التلفزيونية الفضائية (وهي جميعاً ساعدت على انهيار تلك الدول)، فهل ينتظر أن تفلح فى ذلك الدول التابعة للسوق التى ليس لديها أى دافع قوى للقيام به، مثل بريطانيا أو كندا؟ وهل ينبغي أن نتوقع من الكيانات الأضعف التى تعد منظمات دولية، ولا تزيد فى كثير من الأحيان عن مروجي الأسواق والتعامل فى أسعار الفائدة الخاصة، أن تملأ الفجوة التى خلفتها الدول الجبانة ذات السيادة؟(14)

واللغز الذى قامت عليه فكرة أى مؤسسة دولية أو عابرة للقومية، هو أن المؤسسة الكونية بحق تعتمد على تعاون الدول ذات السيادة، التى لا بد لسيادتها أن تحيط بكل تحرك من تحركاتها. إلا أن تخلي تلك الدول عن سيادتها القومية الكابحة لجماح هذه المؤسسة، قضت قضاءاً مبرماً على قدرتها على العمل بصورة دولية، لعدم وجود مصدر بديل للشرعية السياسية أو التنفيذ الفعلي. والنتيجة أننا نجد المؤسسات الدولية عاجزة ككيانات مستقلة

بسبب السيادة القومية، وإن كانت عاجزة كذلك فى غياب السيادة القومية. فبدون القوة والنوايا الحسنة، و قدرة المسيطرين الذين تعتمد عليهم فى التدخل المسلح -وهو الأكثر أهمية-لن يمكنها العمل بالمرة. ولا يمكن للمنظمات الدولية أن تحيا بأعضائها المشاكسين ولا أن تحيا بدونهم، كما يوضح ذلك الشلل الذى أصاب المم المتحدة وحلف الناتو فى البوسنة .

يدعو روبرت كتنر Robert Kuttner فى كتابه المتشدد، الذى يحث على القضاء على أيديولوجيا عدم التدخل فى الاقتصاد الكوني، إلى إنشاء "بنك مركزى عالمي بحق يتطلب التخلي عن قدر كبير من السيادة النقدية. وهو ما يعني بالتالي التخلي كذلك عن قدر كبير من سيادة وضع السياسات".(15) ولمن يتم التنازل عن السيادة؟ أهي تلك المجموعة من الدول التى تمول البنك؟ أم البنوك الوطنية (صاحبة التمويل الفعلى) ؟ أم رجال البنوك الأفراد، من أبناء دولة أو أخرى الذين لديهم مصالحهم وأيديولوجياتهم الخاصة بهم؟ ويتحدث كتنر عن الحاجة إلى مؤسسات دولية منظمة، دون أن يتناول مسألة الشرعية الديمقراطية. من الذى تمثله هذه الكيانات فى واقع الأمر؟ مصالح من تلك التى يفترض أنها تدعمها؟ بل إنه ليس من الواضح لمن ترجع مثل هذه الكيانات الجماعية التى تشكلت مثل "أوروبا" الجديدة ؟ هل للحكومات القومية الأعضاء؟ أم للمواطنين الأفراد الذين تمثلهم الحكومات القومية ؟ أم للشظايا الإقليمية والكونفيدرالية فى الدول القومية، كما تؤكد ذلك الولايات الألمانية وغيرها من الكيانات الإقليمية القوية مثل لومبارديا وقطالونيا؟(16)

وحيث أن الاتحاد الأوروبى جرى تنظيمه منذ فترة وجيزة، فهو يخضع لمساءلة الصفوة: أى لحكومات الدول الأعضاء فيه، من خلال مجلس الوزراء، وللتكنوقراط وغيرهم من المسئولين ذوى المعايير والمصالح الخاصة بهم، من خلال أنظمته البيروقراطية المزدهرة. وربما يمثل البرلمان الأوروبي فى نهاية الأمر الناس تمثيلاً مباشراً، ولكنه فى الوقت الحالي نتاج انتخابات محلية على قدر كبير من التسييس، مازالت الصفوة والأحزاب الأيديولوجية تقوم فيها بدور مهم. إلا أن هناك بضع أعضاء مستقلين جرى إختيارهم ويمثلون وجهة نظر ديمقراطية مميزة (هي فى العادة خضراء وليست حمراء أو سوداء-مثل ايفا كويستروب Eve Questrop من برلين التى تعمل منظمة لإحدى الحركات الخضراء

المحلية وفازت بمقعد فى البرلمان الأوروبي. ولكن حالتها فى هذه المرحلة استثناء وليست قاعدة. وفى نهاية الأمر سوف يخرج شكل من أشكال السيادة عابر للقومية من أحد أشكال الكيان الجماعي والوطنية العابرة للقومية. إلا أنه ليس هناك شكل مناسب للمجتمع المدني العابر للقومية قد تزدهر فيه مثل هذه المواطنة، سواء كانت خضراء أم جماعية أم فيدرالية عالمية. وإذا كانت المواطنة تأتي فى المقام الأول على المستوى القومي، ولا تليها سوى المؤسسات المدنية، فأين يكون بمقدور المواطن الكوني الكفاح من أجل ديمقراطية كونية؟ مازال على العالمية الرزينة أن تثير خيال العامة من الرجال والنساء وتلهب مشاعرهم، بحيث تجعل المقترحات الخاصة بالحكومة الكونية تبدو فى أحسن الأحوال أحلاماً رائعة لا يمكن تحقيقها.(17) والكثير من النشطاء فى أوروبا يبحرون عكس رياح التكامل.

ومنذ ما يزيد على عشرين سنة، اقترح جيمس توبين James Tobin فرض ضريبة على تعاملات العملات الدولية التى يمكن تخصيصها لتنمية الدول المتخلفة. ومنذ فترة قريبة تقدم روبرت رايخ Robert Reich ، وهو وزير العمل حالياً، باقتراح رائع بشأن "نوع من الجات من أجل الاستثمار المباشر" ينظم تقدم الدول المنفردة بعروض شراء "الاستثمارات ذات القيمة المضافة العالية التى تعرضها الشركات الكونية" ووضع "تكتيكات عادلة" تحول دون "التهديدات التى يحتمل أن تغلق السوق المحلية، ما لم تكن هناك استثمارات معينة يجرى التعهد بها داخلها".(18) ولكن لكي تنجح هذه المقترحات، كان لا بد من حصولها على دعم كل الدول التى تستفيد من الممارسات غير العادلة التى تتم فى الوقت الراهن. وهذه الممارسات تقدم مكافآت على هيئة عقود سمينة، لدى الدول استعداد للتضحية بها فى سبيل العمالة الرخيصة، والدعم المرتفع، والضرائب المنخفضة، والحرية البيئية. وهي فى واقع الأمر تجبر الشعوب على مقايضة العدالة الاجتماعية والمصلحة العامة بحصة فى الاقتصاد الدولي. وممارسات رايخ العادلة تحول دون هذه المنافسة. ولكن لكي تؤتي هذه الممارسات ثمارها، لا بد أن تضمنها مؤسسة دولية قادرة على التنفيذ. وقد كان من الصعب على حكومة الولايات المتحدة القومية فى ظل حكومتي الرئيسين روزفلت أن تحتوى احتكارات البترول والفحم والصلب والسكك الحديدية الأولى فى أمريكا وتنظمها. أين نجد الدعم السياسي والمواطنين الذين عُبئوا من أجل منظمات دولية على نفس القدر من القوة

يمكنها احتواء وتنظيم ميكروسوفت أو ايه تي أند تي أو كوكاكولا (التى تقوم بـ 80بالمائة من أعمالها خارج الولايات المتحدة) على سبيل المثال، فى مشروعاتها التجارية الدولية ؟ الواقع أن القانون الأساسي فى ألمانيا فى أعقاب الحرب، شأنه شأن الدستور الدنماركي، يضع فى واقع الأمر شروطاً للتخلي المنظم عن بعض الاختصاصات السيادية للمؤسسات الدولية. ولكن الشيء المؤكد هو أن هذه الشروط لم تعف ألمانيا من سياسة الدولة الألمانية ذات السيادة التى اتسمت بالفوضى فيما يتعلق بأمور تؤثر على علاقة ألمانيا بأوروبا. كما أنها لم تعط الاتحاد الأوروبي أية سلطة مميزة على صناع القرار الألمان.(19)

ما تتطلبه العدالة والمصلحة العامة الكونية واضح وضوحاً كافياً: وهو، من بين أشياء أخرى، السلام والوقاية من الإبادة الجماعية وانتهاكات حقوق الإنسان، والتوظيف الكامل فى إطار هيكل أجور عادل، وسياسات التنمية المستدامة كونياً داخل حدود ايكولوجية بعينها، وملعب متكافئ للدول ذات الموارد الطبيعية المختلفة التى تعيش مراحل متباينة من التطور الاقتصادي. والمعاهدات الممكّنة كتلك التى يقدمها توبين ورايخ، هي الأخرى لا يصعب تخيلها. ولكن المشكلة تكمن فى الإرادة السياسية، التى تتوقف بدورها على المواطنة الإيجابية والبُنى التحتية المدنية والتعليمية (أى المجتمع المدني والتعليم المدني) التى تصونها. وعلى أية حال، فالدول الموقعة على معاهدة الإبادة الجماعية تضم كل الدول الغربية التى تقف مكتوفة الأيدي، بينما تجرى أعمال الإبادة الجماعية فى أماكن مثل رواندا–وهي نفسها من الدول الموقعة على المعاهدة، ولا تخلو اتفاقيتهم، التى قد يكون من الأفضل الإشارة إليها بالأحرف الأولى منها:KEGFAC(" Keep an eye From Afar on Convention") [معاهدة مراقبة الإبادة الجماعية عن بعد]، من الفهم. فالكل يعلم ما هي الإبادة الجماعية ويدرك جيداً كم هي خاطئة. ولكن معاهدة الإبادة الجماعية كقطعة ورق لا يمكنها تشكيل الإرادة والقدرة على فرض الكثير من أى شيء بالمرة.(20)

وفى الدول التى تتمركز بها قوات تابعة للأمم المتحدة فى الوقت الراهن–تتصدرها فى أغلب الأحيان القوى الكبرى كالولايات المتحدة وفرنسا–كانت المرات التى تحقق فيها النجاح قليلة جداً، والشقة بين الواحدة والأخرى بعيدة. والصومال والبوسنة خير شاهد على

ذلك. ويشير سكرتير الأمم المتحدة بطرس بطرس غالي إلى أن معظم المشاكل المحلية فى العالم حالياً يمكن حلها من خلال تدخل الأمم المتحدة الذى له أهميته، باستخدام جزء يسير من تكاليف الحرب الباردة التى كانت تدور رحاها بالأمس. إلا أنه يبدو على قدر كبير من الواقعية حين يعترف بأنه "ليست هناك الإرادة السياسية لتحقيق ذلك".(21) وتدخل الأمم المتحدة فى الصومال، شأنه شأن التدخل الأمريكي الموازى ("عملية استعادة الأمل")، كان سيبدو أقل هزلاً فيما يتعلق بعدم جدواه، لولا اتساع حجم المأساة بهذا القدر. وأظهرت المنشورات الأمريكية، التى ترجمها إلى اللغة الصومالية منفيون غير أكفاء وأُلقيت قبل التدخل الأمريكي، الأمم المتحدة على أنها "أمة مستعبدة". والواضح أن الجزء الوحيد من الصومال الذى يتوفر فيه قدر نسبي من السلام والنظام هو الشمال الشرقي والشمال الغربي، حيث لا وجود أجنبي ذو مغزى من أى نوع.(22)

وأخيراً فإن مهمة المؤسسات الدولية التقليدية تسعى إلى التدخل فى المواقف المتأزمة ما تزال على قدر كبير من التعقيد بسبب غياب أية نقطة ضغط واضحة، فى كثير من الحالات. فحيثما لا يكون الجناة، الذين هم فى حاجة إلى التعبير عن احتجاجهم، دولاً ولا قبائل، قد تكون الأزمة حقيقية بينما الجناة غير مرئيين. والإبادة الجماعية على أقل تقدير توفر هدفاً يتخذ شكل جيش قاتل أو من ينوب عنه من المقاتلين غير النظاميين. إلا أن الأمر ليس بهذه السهولة فيما يتعلق بالإرهابيين. وفى الأسواق الدولية التى يوليها روبرت كتنر اهتمامه، أين تقع نقاط القوة؟ الكثير من القوة العابرة للقومية لبتى تنحر فى المجتمعات المدنية القومية ليست قابلة للمنع بأى حال من الأحوال. وما أطلق عليه روبرت رايخ منذ عدة سنوات "لا علاقية جنسية الشركات المنتظرة" لم يعد أمراً منتظراً، بل أمراً قائماً بالفعل.(23)

وتحذير توماس جيفرسون من أن التجار ليس لهم بلد قد أصبح حقيقة بالمعنى الحرفى للكلمة ، بالنسبة لشركات عالم ماك متعددة الجنسية. والأسواق التى تعمل من خلالها فى هذه الأيام مازالت مجهولة الهوية. كيف يتسنى للدول السيطرة على السوق فيما يتعلق بالبرامج المسروقة أو البلوتونيوم المهرَّب؟ من الذى يراقب صرف العملات فى العالم؟ بل هل لها عنوان؟ ولكي نواجه الجهاد، لمن نكتب؟ "عزيزى الإرهابي النووي، الذى ربما تتلقى

الدعم فى الخفاء من إيران، وربما تدربت فى أيرلندا (أم فى ليبيا؟)، وربما تشترى من روسيا أو أوكرانيا، وربما تربطك علاقة ما بحماس، (وربما لا ؟) نرجوك أن تتوقف عما تقوم به وإلا فإننا سوف ". وهنا يتبقى السؤال المحير الخاص بما يمكن أن نفعله أو سوف نفعله على وجه الدقة. فبينما الشركات لبتى تلوث البيئة الكونية لها عناوينها المعروفة ، فمن الصعب تحديد أفعالها والتعرف عليها، وهي تعتمد على التفاعلات البيولوجية مع منتجات غيرها. وهو ما يعني أن المسئولية لا يمكن تحميلها للفاعل الحقيقي ولا يمكن فرض أية عقوبات.

وفى النهاية يبدو أن هناك أملاً كبيراً فى المؤسسات الدولية التقليدية كمخلِّصين للديمقراطية على المستوى العالمي فى عصر يتنازعه الجهاد وعالم ماك. وما زالت أوروبا، التى حققت قدراً كبيراً من التكامل الاقتصادى الذى نُظم حول المجالس والبرلمانات والمحاكم الإقليمية، تفتقر إلى المصداقية الديمقراطية مع المواطنين فى الدول الأعضاء. فمعظمهم لا يشارك فى سياستها الوليدة ولا يشعر بأن شيئاً مثل الهوية المدنية الأوروبية يقابل هوياتهم التجارية والسلعية العابرة للقومية التي يشعرون بها شعوراً قوياً، ناهيك عن هويتهم كبافاريين أو والونيين أو باسك أو لومبارديين. إذن فسؤالنا هو هل يمكن للجهاد وعالم ماك نفسيهما، أو أى منهما، أن يعدا بحماية الحرية المشتركة فى حقبة ما بعد القومية أم لا؟ هل بمقدورهما تقديم حلول سياسية فرعقومية أو عابرة للقومية للمعضلات الفرعقومية أو العابرة للقومية التى يثيرانها؟ قد يبدو أن الإجابة هي أنه بينما تتلقى العرقية والإقليمية من ناحية، والأسواق من ناحية أخرى، الدعم من ظروف ليست دائماً معادية للديمقراطية، بل و قد تشجع الديمقراطية فى بعض الظروف، فإن أياً منهما ليس صنواً للديمقراطية ويقف بطريقته فى وجه الحرية الإنسانية.

الجهـاد فى الاضطراب الكوني

فهمنا أن الجهاد هو كفاح الشعوب المحلية لصون التضامن والتراث فى مواجهة الأفكار المجردة التعددية، وكذلك فى مواجهة إمبريالية عالم ماك التجارية الجديدة. والحال كذلك، فهو لا ينفر بالضرورة من الظروف التى تدعم الديمقراطية، وهي أولاً وأخيراً أقد م

بكثير من الدولة القومية. فقد قامت الديمقراطية الإغريقية على سياسة المدينة المتجانسة- تلك الدولة المدينة التى تربطها اللغة المشتركة، والديانة المشتركة، والتاريخ المشترك. وخرجت الديمقراطية الأوروبية من العصور الوسطى فى الكانتونات الهلفتية والمدن التجارية الإيطالية والألمانية. وكانت ذات صبغة محلية، بل وعشائرية، قبل زمن من عثورها على موئل فى المدن القومية الأكبر حجماً. وتبدى العشيرة القبلية تضامناً أخوياً وإخلاصاً للنقاش الذى يتخذ شكل المجلس ويشير إلى الديمقراطية الأولية المباشرة. وكانت "جمهوريات الأحياء" ward republics التى تحدث عنها جيفرسون نماذج ديمقراطية يوتوبية نظمتها حكومات محلية، واعتقد البعض أنها كانت محاكاة لاتحاد ايروكواز، بينما كان السوفيت الروسي الأصلي، قبل أن يستوْلي عليه البلاشفة، مجلساً محلياً يمثل مصالح العمال المختلفة. وتعود جذور بلدة نيو إنجلاند كذلك إلى ميول الإقليمية التشاركية.(24) ويكتشف روبرت بوتنام Robert Putnam فى روايته المضللة عن التراث المدني فى إيطاليا أن هناك علاقة بين المجتمعات الكورالية التقليدية فى القرى الإيطالية والميل فيما بعد إلى الديمقراطية. حيث يوضح أنه فى وجود المؤسسات المدنية المناسبة، تكون المجتمعات المتجانسة أكثر قدرة على ابتكار أشكال ديمقراطية للحياة.(25)

وخلاصة القول هي أن المدى المحدود والتجانس النسبي للكيانات، التى ينحو بها كفاحها المعادى للدولة والحداثة نحو الجهاد، يمكن أن يميل بها ميلاً شديداً نحو الديمقراطيات التشاركية المحلية. بل إن مقصوريتها، التى تقوم على رفض "الآخرين"، يمكن أن تساهم فى الموافقة الداخلية اللازمة لتشكيل الإرادة المشتركة. وحيث أن الحداثة خلقت مؤسسات على مدى أكبر من أن يحافظ على التشاور وتفاعل المجتمع بصورة مباشرة، فإن القوى المضادة للحداثة المرتبطة بالجهاد تقف فى سبيل الأمل فى معيار لحياة جماعية أكثر قدرة على التوصيل إلى الديمقراطية.

إلا أنه بتيسير وضع معيار ضعيف للحياة السياسية، يمكن أن يدمر الجهاد فى الوقت ذاته النسق العقلي الذى يسمح للديمقراطية بالعمل. ورغم ذلك كانت المجتمعات الجماعية Gemeinschaft فى قرى سويسرا وإيطاليا فى أغلبها أبعد ما تكون عن الديمقراطية: إذ كانت منغلقة، وممتثلة، وتقوم على التسلسل الهرمي. وكانت مقصوريتها تعني أنها كانت

مغلقة فى وجه الأغراب ولا تحتمل الاختلاف. كما أن قاعدة النسب لديها فى هوية "بعينها" (الدم أو الجنس أو الدين) جعلها تتقبل الهويات الطوعية على مضض وتكبح جماع أية فكرة تقول إن الرجال والنساء قد يختارون علاقاتهم الاجتماعية أو الانضمام إلى التجمعات الاجتماعية المخترعة بحرية متى شاءوا. وأدى التسلسل الهرمي والاعتماد على القيادة الكاريزمية فى المجتمعات التقليدية إلى جعلها غير قائمة على المساواة ومقاومة للحراك الاجتماعي. يضاف إلى ذلك أن نمط علاقاتها الشخصاني غير التعاقدى جعلها عرضة للأهواء، والقيل والقال، والولع بالجدل، والفساد. والقرى فى ويسكونسن هي الأخرى ما أسهل أن تصبح مأوى للانتحار وغشيان المحارم والموت، بينما تصبح مدن فيرمونت المشهورة بحريات نيو انجلاند توابيت امتثال.(26)

وتحصر إقليمية الجهاد كذلك وصولها إلى السلطة الحقيقية فى العالم المركزى الذى يقوم على الاعتماد المتبادل. فبإمكان الهوتو ذبح التوتسي، ولكن لا يمكن أن يتعاملوا مع النهب البيئي فى عموم أفريقيا. وبإمكان صرب البوسنة أن يشنوا من جانب واحد حرباً على المسلمين، إلا أنهم لا يستطيعون من جانب واحد زيادة واردات أجهزة الفيديو. فى عالم ماك، شئت أم أبيت، تزداد السلطة مركزية، وإن ظلت المشاركة محلية. ومقولة الخضر "فكر كونياً واعمل محلياً" يتناقض معها الواقع، حيث نادراً ما يستطيع العمل المحلي المساس بالمشاكل الكونية بحق. فالقبائل التى تتبع تكتيكات NIMBY ("ليس فى فنائي الخلفي،") فيما يتعلق بالسياسات الإقليمية (أين نقيم معمل تكرير البترول؟ أين نقيم مركز تأهيل مدمني المخدرات ؟ أين نضع اللاجئين ؟) هي فى حد ذاتها ضحايا عاجزة للسياسات الإقليمية والقومية والدولية الخاصة بمنظمات أخرى ليس للمجتمع المحلي أو المؤسسات القبلية قدر كبير من السيطرة عليها، حتى وإن كانت ديمقراطية.

إذن فالقبائل العرقية والعشائر الدينية لا تعوزها الإمكانيات الديمقراطية. إلا أنه من غير المحتمل أن يوفر الجهاد تلك الأنواع من القيم والمؤسسات الديمقراطية التى وفرتها فى يوم من الأيام الدول القومية الديمقراطية التقليدية، من ذلك الصنف الذى يساعد على تخريبه. وهل هناك اليوم كيان واحد خلقه انهيار الدول القومية المرتبطة بعرقيات الجهاد المتعددة، واقتتال الأخوة، والحروب الأهلية، يبدو ديمقراطياً إلى حد بعيد؟ بل إنه حيثما

يستوردون هياكل الديمقراطية السياسية -كالنظام البرلماني القائم على تعدد الأحزاب، أو القضاء المستقل، أو الانتخابات المنتظمة، أو حرية الصحافة الاسمية-تنقصهم الموارد لبناء ذلك الضرب من المجتمع المدني الديمقراطي، الذى يجعل بدوره المواطنة الديمقراطية ممكنة ويسمح للمؤسسات السياسية الديمقراطية بالعمل بشكل فعال. والقبلية تقل بعض الشيء فى معاداتها للمجتمع المدني عن النزعة الاستهلاكية. وبدون المجتمع المدني لن يكون هناك مواطنون، وبالتالى لن تكون هناك ديمقراطية ذات معنى.

ونحن معجبون بجهود المحامين الدستوريين الغربيين الذين يصدرون تقاليدهم التشريعية إلى الدول ما بعد القومية الوليدة فى شرق أوروبا والاتحاد السوفيتي السابق. فقد وضع مركز دراسات الحكم الدستورى فى شرق أوروبا، الموجود فى كلية الحقوق بجامعة شيكاغو وجامعة وسط أوروبا (التى مولها فى أول الأمر الخبير المالي ورجل البر جورج سوروس George Soros ولها مقر فى براغ وآخر فى بودابست)، بناء الدساتير فى موضع القلب من أعماله. وهو يمثل نقيضاً يلقى الترحيب للاختزال الاقتصادى لدى هؤلاء الذين يعتقدون أن الأسواق الحرة والخصخصة جاءت من أجل الديمقراطية. إلا أنه ليس من المحتمل أن يحقق المنهج التشريعي الصرف نجاحاً يزيد عما يمكن أن يحققه المنهج الاقتصادى الصرف. وأية طبقة رقيقة من النظام البرلماني توضع فوق مجتمع قبلي جديد غاضب لا يمكن أن تؤدى إلى الديمقراطية.

ويدرك ستيفن هولمز Stephen Holmes ، وهو أحد المسئولين بمركز دراسات الحكم الدستورى فى شرق أوروبا، هذه الحدود ويعترف بأن من بين عوائق التحول الديمقراطي "عقبة النصائح الغربية اليومية التى تقل عما شاع عنها"، بما فى ذلك نصائحه هو. ويرى هولمز أن شرق أوروبا قد يستفيد من قدر معين من "التأجيل الدستوري" الذى تجفيضگيل فيه المرونة والتكيف مع الظروف المحلية على التطبيقات الصيغية للمبادئ الدستورية المجردة.(27) إلا أنه فى الوقت الذى يأسو فيه على زوال الحركات المحلية العفوية مثل تضامن والمنتدى المدني، مازال يعتقد أنه من الممكن إقامة المجتمع المدني من أعلى لأسفل بالتجديد الدستورى المناسب، إن لم يكن المرن والمدروس، مما يقلل الحاجة إلى إقامة قاعدة من أسفل لأعلى فى المدارس، والروابط التطوعية، والمؤسسات

الخيرية وغيرها من المؤسسات الجماعية التى قد تدعم بدورها البناء الدستورى الديمقراطي. والغربيون بين آسف على غياب المجتمع المدني فى روسيا ومتجاهل له، غافلون عن انتشار المنظمات غير الحكومية التى ظهرت وتشكل وميض "القطاع الثالث" ما بعد السوفيتي الجديد.

وركزت وسائل الإعلام على العلاقة المتفجرة بين مسئول الرئيس يلتسين Yeltsin إصلاحي النزعة والبرلمان الشيوعي المحافظ القومي: فكيف يتسنى للمراقبين المهتمين، والحال كذلك، أن يعرفوا أن عشرات المنظمات التي لا تستهدف الربح تغطي البلاد وتثير الشك فى ثنائية الخصوم الحزبيين؟ وهذه المنظمات التى لا تستهدف الربح لا تشمل فقط المؤسسات الأجنبية ذائعة الصيت مثل Big Brother /Big Sister ، وإنما تضم كذلك (وهي قليل من كثير) مؤسسات محلية مثل "رابطة قوس قزح البيداجوجية" و "مؤسسة روح الإنسان الخيرية" و "مؤسسة عموم روسيا للحماية الاجتماعية والقانونية للمعاقين" و "الاتحاد البيئي الاجتماعي" و "البنك الدولي للأفكار" و "وجمعية الرحمة الخيرية المسيحية" و "مؤسسة الدبلوماسية والتعاون الدوليين" و "أنيكا" (رابطة المدنيات العاملات فى المؤسسة العسكرية) و "رابطة حقوق الإنسان الروسية آباء وأخوة" و "منتدى المرأة المستقلة" و "رابطة أولياء أمور الأطفال الصم" و "المركز الخيرى للتنمية الاجتماعية" و "انترليجال: *المؤسسة الدولية للدراسات السياسية والقانونية*".(28)

ويشير ظهور هذه البنية الأساسية غير الحكومية الجديدة فى روسيا إلى أن التنظيم المحلي والمجتمع الإقليمي ليسا قادرين على توليد الجهاد المحلي فحسب، بل على توليد أشكال محلية جديدة من المجتمع المدني. إلا أن مثل هذه التطورات لا تحدث بشكل عفوي. فلو ترك الجهاد لأجهزته الخاصة به، لن يولد ديمقراطيته الخاصة به، ولن يسمح للآخرين بأن يمقرطوه بمجرد استيراد الآليات الدستورية التى وضعها الآخرون على مدى قرون عديدة فى الدول القومية ذات المجتمعات المدنية الموجودة منذ زمن طويل وحققت قدراً كبيراً من التطور. وعلى العكس، فهو يميل إلى تقويض المؤسسات الوليدة فى المجتمع المدني الفتي الذى بدأت روسيا للتو فى احتضانه ورعايته.

الفصل السادس عشر

الرأسمالية المتوحشة
فى مواجهة الديمقراطية

بما أنه قد يكون من الصعب استثارة الإمكانيات الديمقراطية من بين حطام الدول القومية التى خلَّفها وراءه الجهاد، فمن الأصعب إدراك كيفية كسب الديمقراطية من خلال الدعوة بعزم قوى إلى أسواق عالم ماك، التى أسماها سولجنتسين "الرأسمالية المتوحشة". فالأسواق لا تظهر بأية صورة واضحة بحيث تكون أدوات مثالية للتقنين وسيطرة المصلحة العامة. وفى أول وهلة سوف يبدو الراغبون فى الديمقراطية، الذين ينظرون إليها على أنها مصدر للمعايير المنظمة والقيم الديمقراطية، وكأنهم فقدوا عقولهم. ويتساءل المؤرخ جون بوكوك John Pocock "إن كان إخضاع جماعة المواطنين ذات السيادة لعمل قوى السوق ما بعد الصناعية خطوة ضارة أم مفيدة، فى بنية سياسة ما بعد الحداثة ".[1] وإجابتي عن ذلك هي : ضارة. لا، ليست ضارة، بل فادحة.

هذا لا يوحي بأن قوى السوق وأيديولوجيا حرية الإرادة لا تدخل ضمن السلوك الفكرى الخاص بما بعد الحداثيين فى عصر ما بعد الصناعة، أو أنها لا تخدم الإنتاجية طويلة المدى وخلق الثروة. إلا أن أيديولوجيا حرية العمل، كما قدمها ما بعد حداثيون مثل فردريش هايك Friedrich Hayek وملتون فريدمان Milton Friedman ، تفترض أن هناك "معركة" لا تنتهي "بين الجماعية والفردية، أى توسيع للحكم" فيها، سواء كان من خلال استبداد ستاليني أم مدينة ديمقراطية، هو "جماعي". ومن البديهي أن يكون بذلك اعتداء على الحرية.[2] ومن هذا المنظور، فالحكم، بما فى ذلك الحكم الديمقراطي، موضع شك دائماً، بينما الأسواق لا خطورة منها على الدوام. ويرى أنصار الحرية أن توسيع الديمقراطية لا يعني سوى وضع حدود للحكم، كما يفهمون أن اعتمادها على إقامة المجتمع المدني المستقل يقل عن اعتمادها على توسيع الأسواق عبر تفكيك الحكم، وخصخصة الصناعة، وتوسيع مجال التجارة الحرة. وعندما يفكر الإصلاحيون الاقتصاديون فى الحكم بشكل عام، فإن ذلك يكون بلغة الحكم الدستورى السلبي-أى السياسة باعتبارها معادية للسياسة، والقانون باعتباره مجموعة من القيود على الحكم الشعبي، بدلاً من أن يكون مجموعة من المبادئ الشعبية الممكِّنه.[3]

وسوف تكون هناك رغبة لدى الدارسين الجادين للسوق، الذين يفرقون بين الجماعية الشمولية والبحث الديمقراطي عن المصلحة العامة، فى منازعة هذه المبادئ التحررية الشبيهة بالفوضوية.(4) ورغم تجدد شعبية مبدأ حرية العمل فى إنجلترا وأمريكا على مدى العقود القليلة الماضية، التى ضخمها ذلك الشعور القوى بكراهية السياسة والساسة، هناك تراث طويل ومحترم لا هو بالجماعي ولا حتى بالدولاني الرفاهي الذى ينازع كفاية الأسواق المزعومة ويتحدى ما تتباهى به من قدرة على التنظيم الذاتي الاقتصادي.(5) والنقاد المعاصرون مثل أندرو بارد شموكلر Andrew Bard Schmookler وروبـرت كتنر ينتقدون بشراسة التكاليف الاجتماعية لسياسات حرية العمل فى حقبة ريجان-تاتشرReagn-Thatcher. إلا أن آدم سميث Adam Smith نفسه لم يعتقد أن بإمكان السوق أن تفعل كل شيء. (6)

وعلاقات السوق ليست ببساطة بديلاً للعلاقات الاجتماعية، ناهيك عن العلاقات الاجتماعية الديمقراطية. وليس المتحمسون من مؤيدى الرأسمالية فى صورة حرية العمل المفرطة (وهو ما يطلق عليه روبرت كتنر المثال اليوتوبي لها) هم وحدهم من يدعى غير ذلك. فرغم وجود ارتباط تاريخي ملموس بين الديمقراطية والرأسمالية، فالديمقراطية هي التى أفرزت الرأسمالية وليس العكس. فإنجلترا المركنتلية فى القرن السابع عشر تحولت إلى الديمقراطية فى غضون القرن الثامن عشر. وفى القرن التاسع عشر فقط شرعت إنجلترا الممقرطة فى سياسات التصنيع الشامل، والتجارة الحرة (إلغاء قانون الذرة الصادر فى 1846) ، والإمبراطورية الاقتصادية. وحتى يومنا هذا، تعتمد اقتصادات الدول الرأسمالية على الحكومات المدافعة عن الديمقراطية، التى لا تقتصر على القيام بدور حيوى مواز فى كبح جماح تجاوزات السوق والحفاظ على القيم العامة والمدنية التى لا توليها الرأسمالية أى اهتمام بالمرة. غير إنها تستمر كذلك فى رعاية الأسواق. والدول "الرأسمالية" الأكثر نجاحاً، ذات الاقتصادات المعجزة ذائعة الصيت، زينت فى واقع الأمر أسواقها بطبقة رقيقة، ولكنها شديدة القوة، من المركنتلية.

وتحت غطاء من ثورات "السوق الحرة" التى أعقبت الحرب العالمية الثانية فى كل من اليابان وألمانيا، اتبعت الدولتان فى واقع الأمر سياسات اقتصادية قومية جريئة. وكان لـ

"الاتفاق الجديد" الذى أعلنه فرانكلين ديلانو روزفلت Franklin Delano Roosevelt أثره الكبير فى إنقاذ الرأسمالية من تدمير نفسها بنفسها، كما أنقذ الشعب الأمريكي من بطش الرأسمالية الاجتماعي. وما كان لأمريكا ريجان ولا إنجلترا تاتشر أن تجرى وراء وهم العودة إلى حرية العمل الصرفة لولا كل فوائد الأجيال العديدة من الحكم التدخلي والاقتصاد المختلط (وهو ما عرفه ريجان عندما عبث بعض الوقت بتعديل لنظام الضمان الاجتماعي). والاقتصادات الحرة بصدق فى هذا القرن كانت دوماً اقتصادات مختلطة وازنت فيها الحكومات الديمقراطية بين مصالح المنفعة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية. وصور نورمان برينباوم Norman Brinbaum اقتصاد ألمانيا الغربية الخاص بالمعجزة الاقتصادية على أنه، فى حقيقة الأمر، سوق "مربوطة بالدولة برباط لا انفصام له بالدولة. والدعم والحوافز الضريبية، والقطاع العام الضخم، ودعم الدولة الكبير للبحث العلمي، ودور الدولة الكبير فى التدريب المهني، وتوفير قروض التصدير، كانت جميعاً عوامل متسقة فى السياسة الاقتصادية القومية. وعمل كل من البنوك الخاصة الكبرى والحكومة والبنك المركزى معاً..[وكان الكثير من ذلك مجرد] استمرار لتقاليد دولة الرفاه التى حدثّها بسمارك Bismarck."(7)

وما يصدق على الألمان يصدق على كل الدول الرأسمالية الناجحة بعد الحرب. فقد وعت هذه الدول جيداً أن اقتصاد حرية العمل الصرف سرعان ما ينكسر ثم يدمر نفسه بنفسه، بسبب تلك الصدوع التى يحدثها النزاع العمالي، والبطالة، ودورات التجارة، والاحتكار. والديمقراطيات التحولية الجديدة هى وحدها التى حثها المستشارون الأجانب، أو أجبرتها البنوك الدولية، على الاعتقاد بأن الاقتصاد الرأسمالى الحر نظام اجتماعي يحقق الاكتفاء الذاتي. وكما هو متوقع، كانت نتائج ذلك وخيمة. وكما سنرى فيما بعد، فإن ما أسماه ألكسندر سولجينتسين "الرأسمالية المتوحشة"-نظام "مفعم بأنماط السلوك العقيمة والمتوحشة والمنفرة، ونهب ثروات الأمة"-قد حوّل روسيا الجديدة إلى مكان فيه "الاستخدام الوقح للميزات الاجتماعية وسطوة المال التى لا كابح لجماحها" (وهما نفس المشكلتان اللتان كان من المفترض أن يؤدى انهيار الشيوعية إلى علاجهما،) أسوأ مما كانا عليه فى أى وقت مضى. (8)

وحتى فى ظل الظروف المثالية، حيث يمكن السيطرة على ما تقوم به الرأسمالية المتوحشة من استلاب ويحقق الاقتصاد قدراً من التنظيم الذاتي، تتمتع الأسواق بقدرة محدودة على توليد ما يحتاجه المجتمع.(9) ولا تعني الظروف المثالية إلا أن البائعين والمشترين يتفاعلون بالتوافق مع الأسعار التى تدفع مستوياتها المتذبذبة السلع والمستهلكين والعمال يتفاعلون تفاعلاً منتجاً. وهذا فى أفضل الظروف لا يؤدى إلا إلى زيادة الفاعلية الاقتصادية فى إنتاج السلع الصلبة (المعمرة) وتوزيعها. لا شيء غير ذلك. إلا أن أنصار حرية العمل، باعتبارها استراتيجية سياسية، يطالبون بما هو أكثر من ذلك. وهنا تكمن المشكلة.

هذه الأيام نجد أن هناك خلطاً شديد الخطورة بين الادعاء المعتدل، الذى يقوم على أساس متين، بأن الأسواق التى يتسم تقنينها بالمرونة تظل هي الأدوات الأكثر فاعلية للإنتاجية الاقتصادية وتراكم الثروة من ناحية، وبين ذلك الادعاء المضحك، الذى يتسم بالتزيد، بأن الأسواق العارية التى لا تخضع لأى تقنين بالمرة هي الوسيلة الوحيدة التى يمكننا بها أن ننتج كل شيء يهتم به البشر ونوزعه توزيعاً عادلاً، من السلع المعمرة إلى القيم الروحية، ومن استثمار رأس المال إلى العدالة الاجتماعية، ومن الربحية إلى البيئات المستدامة، ومن الثروة الخاصة إلى الثروة العامة الأساسية. ودفع الادعاء الثاني هذا أصحاب المؤسسات الخاصة ممن يجرون وراء الأرباح إلى التأكيد على تسليم السلع التى تتسم بالتنوع والعمومية الواضحة، مثل التعليم والثقافى وإدارة السجون والتوظيف الكامل والرفاه الاجتماعي والتوازن البيئي، إلى القطاع الربحي لتحكيمها وتنظيمها.(10) كما أنه حثهم على رؤية الخصخصة ليس على أنها مجرد سكين قشر لنزع الدهون عن بيروقراطيات الدولة شديدة الانغماس فى الترف، بل ساطور يمكن أن تُقطع به الديمقراطية تقطيعاً ثم تُسحق بعد ذلك.

وفى أمريكا، تحولت الثقة فى سطوة الأسواق إلى سياسة أجنبية تفترض أن تدويل الأسواق يتساوى مع مقرطتها من حيث القيمة والأهمية، وأن الحرية الإنسانية تكون مضمونة فى اللحظة التى توقع فيها الدول أو القبائل على مبادئ التجارة الحرة. ويدعو توماس وملتون فريدمان احتفاءهما بالأسواق حرية الاختيار، وكأن اختيار العلامات

التجارية أو الماركات واختيار طرق الحياة أو المعايير الثقافية الشائعة نشاطان لهما طبيعة واحدة.[11] ومنذ فترة قريبة، قال جيفرى ساكس، وهو نسخة متعصبة من فريدمان وقنصل الإصلاح الرأسمالي الأول الطموح فى المجتمعات التحولية، أن أوروبا الشرقية "نضت عن نفسها النظام الشيوعي" لا لكي تخلق مجتمعاً مفتوحاً، بل لكي "تتبنى الرأسمالية". والأمر كذلك، لا بد أن يكون هدفها هو "التناغم الاقتصادى مع غرب أوروبا" -وهو ما يتطلب إصلاحاً اقتصادياً جذرياً ("انفجار كبير" حسب تعبير البولنديين) و "علاج" اقتصادى مستمر "بالصدمات".[12] ويمكن أن تضر مبادئ حرية العمل الدولة القومية، إلا أن الدولة القومية تمتلك على الأقل سلطة ذات سيادة قادرة على مواجهة عواقب الرأسمالية المادية المؤدية للخصخصة. ومبادئ حرية العمل قاتلة فى الاقتصاد الدولي. ففي هذا المجال تختفي السيادة وتسعى الأجهزة العابرة للقوميات من أجل تحقيق استراتيجيات السوق، فى غياب الأجهزة التنظيمية الموازية كائنة ما كانت. ويلاحظ كتنر أنه "طالما أن أخلاقيات حرية العمل اكتسبت أرضاً جديدة، فقد فعلت ذلك تقريباً فى أعقاب الانهيار النسبي الذى حدث لراعيها الأساسي "-الولايات المتحدة.[13] وبينما سمحت الأمثلة المبكرة للمؤسسات الدولية مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي بتقوية العضلات الأمريكية فى الحلبة العالمية، ترك نفوذ أمريكا المتلاشي مثل هذه المؤسسات تحت رحمة المؤسسات متعددة الجنسية بحق فى عصرنا هذا، وهي الشركات العابرة للقوميات والآلاف المؤلفة من المجموعات والاتحادات الربحية غير الحكومية التى تشكل السوق الدولية.

وإذا نحينا العلاقات العامة جانباً، نجد أن البنك الدولي على سبيل المثال أقل اهتماماً بخلق بيئة مستدامة أو تشكيل اقتصادات قومية مستدامة فى الدول المدينة التى يقدم لها خدماته من ضمان ملعب مفتوح (وإن لم يكن مستوياً بحال من الأحوال) للأعمال الدولية. وغالباً ما تؤدى قروضه إلى إفلاس عملائه: كان إجمالي ديون بولندا سنة 1993 يربو على 60 بالمائة من ناتجها القومي الإجمالي السنوي، بينما كان إجمالي ديون المجر 80 بالمائة من ناتجها القومي الإجمالي.[14] و 62 بالمائة من ديون أوغندا الخارجية للبنك، بينما يمثل سد تشيخوى فى جواتيمالا المثير للجدل ،الذى يموله البنك ، 40 بالمائة من ديونها الخارجية. ومعروف عن البنك كذلك أنه يفرض إعادة توطين السكان على الشعوب التى لا

دور لها فى تقرير مشروعات الرى أو النقل التى يجرى تنفيذها باسم "تنميتها".(15)

وهؤلاء المؤمنون بحيوية الدولة القومية المستمرة قد لا يشعرون بأى قلق. فما زال روبرت كتنر على سبيل المثال يعتقد أنه رغم أن "الإنتليجنسيا الكونية قد تعتقد أنه لا دولة لها، وأن رأس المال الكوني قد يرى الدول القومية على أنها عوائق تنطوى على مفارقة تاريخية... تظل الدولة موضع نظام الحكم" الذى "يظل الهيكل الأكثر ملاءمة للموازنة بين تجاوزات السوق."(16) ومن المؤكد أن الدولة "أكثر ملاءمة" للموازنة بين الرأسمالية، ولكن السؤال هو إن كانت لا تزال قادرة على القيام بذلك أو لديها الرغبة فى المحاولة أم لا. ويبدو أن الحقيقة، كما لاحظها بول كروجمان Paul Krugman ، أستاذ الاقتصاد بجامعة ستانفورد، هي أن "الحكومات أذعنت لنظام يسمح للأسواق بأن تصدر لها الأوامر".(17) وتتباهى حكومة جمهورية التشيك الجديدة بأنها تريد خلق "ملعب مستوى للمستثمرين، المحليين منهم والأجانب" وتقوم بدور فعال فى "الدعوة إلى أدنى قدر من التدخل الحكومي".(18) وهذه الدول الجديدة التى اقتيدت ببطء إلى اكتشاف "الاستخدامات الإيجابية للسلطة"، "فى الوقت الذى استعمرت فيه الجريمة المنظمة المجتمع المدني بشكل متزايد"، لا بد أن تدخل فى صراع مع كل من ضحايا الشيوعية القدامى الكارهين للدولة ومستشارى حرية العمل الجدد الكارهين للدولة، الذين يحثونهم على تحويل مؤسسات الدولة ذاتها، التى قد يمكنهم السيطرة بها على الأسواق الشرهة، إلى خصمهم الأساسي.(19)

وحتى عندما تشارك الدولة باسم المجتمع المدني، لا يكون هناك بديل لنظام الحكم فى الميدان الدولي لديه سلطة الموازنة بين الشركات متعددة الجنسية والأسواق التى تعمل فيها—ومن المؤكد أن مقلدى الدولة الضعاف المتخطين للسلطة القومية ليسوا هذا البديل. ويشير رائد الأعمال والتر ب. ريستون Walter B. Wriston إلى أن الحكومات لم تعد قادرة حتى على "قياس" تكون رأس المال، لأن الكثير من رأس المال الجديد فكري.(20) كيف يتسنى لها والحال كذلك أن تقنن رأس المال هذا وتسيطر عليه ؟ وكما يقول هو بسخرية، فإن أى ساحر من سحرة الكمبيوتر لديه برنامج جسور جديد فى عقله يمكنه أن يعبر الحدود دون دفع أية رسوم عبور أو رسوم جمركية، حاملاً معه فى رأسه من الأصول الرأسمالية ما يزيد عما قد تحويه ألف سفينة شحن. وكما رأينا فيما سبق (الجزء الأول)،

فالسلع الجديدة وهمية أكثر منها معمرة، ومنتجوها-الذين أسماهم روبرت رايخ "المحترفين المحللين الرمزيين"-يمثلون طبقة جديدة عابرة للقومية تقع بمنأى عن السيادات القومية المحددة. ويمكن للجنة البنوك بمجلس الشيوخ أن تغض الطرف عن بنوك البلاد (وإن كان ذلك غير مستحب ولا محمود). ولكن من لديه السلطة (أو البصيرة) كي يغض الطرف عن رجال البنوك والمتعاملين فى النقد على مستوى العالم؟ أو عن المبرمجين والمحللين الذين يشغلون الأعمال المصرفية وأسواق النقد؟ إن أسواق النقد تتعامل يومياً فى تريليون دولار: ولا يمكن لأى بنك قومي أو مجموعة من البنوك القومية أن يكون لها قدر كبير من التأثير عليها. وفى صيف 1994،عندما حاول أكبر سبعة عشر بنكاً فى العالم (بينها بنك الاحتياط الفيدرالى الأمريكي) مساندة الدولار، لم تقدم سوى 5 مليارات دولار. (وحسب الصورة الرائعة التى رسمها توماس فريدمان) كان لجهودهم نفس أثر "حارس حديقة الحيوان الذى يحاول تهدئة الغوريلا الجائعة بتقديمه الزبيب لها فى وجبة الغداء".(21)

وأنصار السوق الحرة مثل ريستون يتباهون بفشل معاهدة بريتون وودز (التى حاولت بها الدول ذات السيادة أن تحكم أسعار صرف العملات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية)- وهذا دليل على أن "الأخ الأكبر" [الحكومة] (وصوره المقلدة من الدول جميعاً، الديمقراطية والاستبدادية) قد أجبر على الخروج من الأعمال. ومما يؤسف له أن دور الأخ الأكبر كحارس للعدالة الاجتماعية قد استُغنى عنه، وأن الكثيرين من الأخوة الأصغر الذين حلوا محله قد أضحوا أكثر ترهيباً وأقل محاسبة بكثير. بإمكان اللجان التنظيمية القومية الحد من استغلال العمالة فى الداخل عن طريق قوانين الحد الأدنى للأجور، والتأمين ضد البطالة، ولوائح السلامة. ولكن من الذى يمكنه أن يضع مثل هذه المعايير ويفرض تطبيقها بالنسبة للسوق الكونية، حيث تستطيع الشركات التى لا أصل لها أن تطارد العمالة منخفضة الأجور من بلد لآخر كما يحلو لها؟ والشيء المطلوب الآن أكثر من القرن التاسع عشر هو أن يتحد عمال العالم، لمواجهة عواقب رأس المال الاحتكارى الاستغلالية على المستوى الكوني. غير أنه ليس هناك أقل قدر من احتمال أن يمكنهم ذلك.

وليس هناك من يلوم الشركات متعددة الجنسية على ترويجها للأرباح المرتفعة على حساب معدل البطالة المرتفع، أو التضحية بالبيئة المحلية من أجل منافع التجارة الحرة

الاقتصادية. فمهمة المجتمع الديمقراطي والحكم الديمقراطي، وليس السوق، هي رعاية المصالح العامة والتأكد من أن هؤلاء الذين يجنون الأرباح من الكوكب المشترك يدفعون لمُلاكه المشتركين نصيبهم العادل. وعندما تتنازل الحكومات عن الحكم لمصلحة الأسواق، فهذا إقرار منها بذنبها فى حلبة يفترض فيها أن تكون المتحدى الأساسي، إذ أنها تقايض بحقوق شعبها عل طول الخط.

وليس المقصود من الأسواق أن تقوم بما تقوم به أنظمة الحكم الديمقراطية.(22) فهي تفرض أنماطاً خاصة لا عامة للخطاب. حيث تسمح لنا كمستهلكين بالتحدث إلى منتجي السلع المادية عبر تداولنا للاستهلاك، بينما تتجاهلنا كمواطنين يتحدثون إلى بعضهم بشأن أمور مثل النتائج الاجتماعية لخيارات سوقنا الخاصة (قدر أكبر مما يجب من المادية؟ قدر أقل مما يجب من العدالة الاجتماعية؟ عدد أكبر مما يجب من الاحتكارات؟ عدد أقل مما يجب من فرص العمل؟ ماذا نريد نحن؟). إنها ترفع من شأن الأهداف الفردية ولا الجماعية، وتسمح لنا، الواحد تلو الآخر، بأن نقول "أريد زوجاً من أحذية الجري" أو "أريد جهاز فيديو جديد" أو "بع الين واشتر ماركات ألمانية،"، ولكنها تمنعنا من أن نقول بصوت جعله التفاعل والتشاورصوتاً مشتركاً "مجتمع مدينتنا الداخلية بحاجة منشآت رياضية جديدة" أو "هناك قدر أكثر مما يجب من العنف على شاشات التلفزيون والسينما" أو "لابد أن نكبح جماح البنك الدولي ونمقرط صندوق النقد الدولي." والأسواق تحول دون تفكير "نحن" وعمل "نحن" مهما كان، حيث تثق فى قوة الخيارات الفردية المجمعة (اليد الخفية) التى تضمن المصلحة العامة إلى حد ما. ويتحدث المستهلكون لغة "أنا" الأساسية، بينما يخترع المواطنون لغة "نحن" المشتركة.

والأسواق تقوم على الاتفاق لا الجماعية، بمعنى أنها تداعب ذواتنا المنفردة ولا تلبي حاجتنا الشديدة إلى الجماعة. فهي تقدم لنا السلع المعمرة والأحلام التى سرعان ما تتلاشى، وليس الهوية المشتركة أو العضوية الجماعية – وهو ما تفعله بشكل أفضل بكثير مجتمعات الدم التى كونها الجهاد وزادت من قوتها هشاشة علاقات السوق. ولأن الأسواق تلقائية وآلية، وليست متعمدة وطوعية بحق، فهي تؤدى إلى نتائج جماعية، لا يمكن التنبؤ بها فى دوائر الاسترجاع البسيطة التى أنشأها المستهلكون، تجعل الخيارات الفردية

والأسواق تستجيب لها. وما أسماه لودفيج فون ميزيز Ludwig von Misisبفرح "التصويت اليومي الذى فيه كل قرش" يعطي المستهلكين الحق فى "تحديد من ينبغي أن يمتلك المصانع والمتاجر والمزارع ويديرها" خداع ساحر. فدوافع المصالح الذاتية التى ينفق على أساسها المستهلكون قروشهم لا علاقة لها بمن يدير أى شيء، ناهيك عن نوع المجتمع المدني الذى يأمل هؤلاء المستهلكون أنفسهم فى العيش فيه، أو الأهداف المدنية التى يضعونها معاً كمواطنين فى حلبات سياسية ديمقراطية، من أجل التحكم فى العواقب العامة والسياسية التى تتمخض عن خياراتهم الاستهلاكية الخاصة.(23) ونتذكر فى هذا السياق تحذير فيليكس روهاتين Felix Rohatyn من أن الأسواق يستتبعها "منطق داروني وحشي ..إنها تتسم بالقلق والجشع (و)...مردودها ليس دائماً الشكل الذى نفضله من أشكال الديمقراطية".(24)

الديمقراطيات تفضل الأسواق، ولكن الأسواق لا تفضل الديمقراطيات. فبعد أن تخلق الديمقراطية الظروف التى تجعل الأسواق ممكنة، فلا بد لها كذلك أن تفعل كل الأشياء التى تدمرها الأسواق أو لا تفعلها. لا بد أن تثقف المواطنين كي يمكنهم استغلال أسواقهم بحكمة واحتواء سوء استغلال السوق بطريقة جيدة. وعليها كذلك أن تدعم القيم والثقافة المشتركة التى ليس للسوق أية مصلحة فيها ولا تسعى إلى مكافأتها. كما أنها ملزمة بنشر الآليات التى تمنع السوق من تدمير نفسها بنفسها من خلال الفوضى أو عن طريق الاحتكار. وهي مطالبة بأن توفر بديلاً للخيارات يسمح بالاختيار المشترك كعلاج للعواقب الاجتماعية العفوية الناجمة عن الاختيار الفردي.

لنأخذ مثلاً القضية التى أُثيرت من قبل بشأن المواصلات. فعندما أختار أن أشترى سيارة، فأنا أختار أن أذهب من نقطة إلى أخرى بأقل وقت وجهد ممكنين، وربما وأنا أشعر بسرور. ومع ذلك فقد يكون من بين ما اخترت تلوث الهواء، واستنفاد الموارد، وإلحاق الضرر بالنقل العام، والضغط على منشآت المستشفيات، ونهب البيئة الطبيعية عن طريق نظام الطرق السريعة. وباعتبارى مستهلكاً، فإن الطريقة الوحيدة التى يمكنني بها تجنب هذه العواقب هي أن أرفض شراء سيارة-وهذا عمل غير عقلاني من المنظور الاقتصادى الضيق، وله كذلك تأثيره السيئ على اقتصاد السوق. وبذلك أقوم بدور المستهلك وأشترى

السيارة. وفى ذلك خدمة للرأسمالية وخدمة لي أنا-باعتبارى مستهلكاً. إلا أنه فى أى مجتمع ديمقراطي، أنا لست مجرد مستهلك. إنني مواطن. وبصفتي مواطناً، يمكنني مشاركة الآخرين فى تعديل النتائج العامة غير المرغوب فيها الناجمة عن خيارى الخاص. فأنا كمواطن يمكنني الانضمام إلى الآخرين ومعالجة الآثار السيئة لشراء سيارتي: يمكننا تجريم استعمال الوقود الذى يحتوى على الرصاص، وتمويل أبحاث المحركات التى تعمل بالكهرباء، ودعم المواصلات العامة، والمطالبة بتأمين العلاج بالمستشفيات للسائقين، ووضع حد معين للطرق السريعة فى المناطق ذات المناظر الطبيعية الجميلة. هذه الأنشطة المدنية لا تنتقص شيئاً من حريتنا الخاصة بالسوق، بل إنها تسهلها. والديمقراطية تجعل الأسواق تعمل من خلال السماح لنا بحرية خياراتنا الاستهلاكية وهي تعلم أن بإمكاننا التصدى للشرور المصاحبة لها. إلا أننا ونحن نقوم بذلك لابد أن تكون لدينا مؤسسات بديلة غير سوقية، فى الوقت الذى تغيب فيه هذه الأدوات الديمقراطية غياباً تاماً عن الحلبة الدولية.

إننا حتى فى داخل الدول القومية نتحاشى ما لدينا من أدوات. فمبادئ رأسمالية حرية العمل التى سادت سياسة أمريكا وأوروبا فى العقود القليلة الماضية عززها استياء الناخبين المبعدين الذين فقدوا الثقة فى مؤسساتها الديمقراطية. فقد أقنعتنا بأن حكوماتنا الديمقراطية لا تنتمي لنا ولا تعمل عملاً مفيداً لوضع حد للأسواق أو لمساعدتها على أن تعمل. وانتهاء المبادئ الماركسية ومبادئ الاقتصاد الموجه وهب حياة جديدة للسوق الحرة ولمبادئ حرية العمل وأجبرنا على العودة لخيار فريدمان الخاص بالجماعية الراديكالية أو الفردية الراديكالية. ونحن ندين الساسة وكأننا لم نخترهم من بيننا، ونهاجم الحكومات وكأننا مازلنا نعيش فى ظل حكم ملوك القرن الثامن عشر أصحاب السلطة المطلقة-وكأن وضع الدستور كان يهدف فقط إلى القضاء على الاستبداد، وليس كذلك إلى تيسير العمل الديمقراطى المشترك. ويجتنب المواطنون الضمير "نحن" الدال على المشاركة ويسمحون بأن يتولى تحديده الساسة الفاسدون أو المستبدون الشموليون دون سواهم. وتصبح السلطة الديمقراطية وسوء استغلال السلطة الديمقراطية مترادفين.

عندما تصيب الرأسمالية المتوحشة الشعوب التى خرجت من الشيوعية، فإن تلك

الشعوب لا تلجأ إلى المؤسسات البرلمانية المشكوك فيها وإنما تعود إلى الأعضاء الأكثر تشدداً فى الحركات السرية ممن ظلوا موجودين بعد اختفاء الأنظمة الشيوعية نفسها التى لم تعط الشرعية للنظام البرلماني.(25) وتعني هذه التطورات أن الديمقراطية تعيش فترة غاية فى الصعوبة داخل الدول القومية التى تأثرت بأيديولوجيا السوق الراديكالية. وقد دعا المحللون الغربيون حثيثاً إلى الأسواق لدرجة أنهم "ألقوا بالرضيع الذى تسيطر عليه الدولة مع ماء الحمّام".(26)

وإذا كانت أيديولوجيا العمل الحر قد أدت إلى أنه بات من الصعوبة بمكان وضع ديمقراطية غير جماعية، فكيف يمكننا تخيل نظام حكم ديمقراطي عابر للقوميات؟ وحتى فى حالة تغلبنا على حيائنا السياسي، أى من الآليات يمكنها أن توفر لنا الفرصة كمواطنين كي نقضي على شرور الأسواق الكونية الطارئة ؟ إن اختفاء "نحن" القومية وراء ظلال كل من الجهاد وعالم ماك فيه ما يكفي من المشاكل. ونحن الآن نواجه عواقبهما فى غياب أى "نحن" كونية مستعدة للعمل فيما وراء الحدود القومية. وعندما تكون "نحن" العابرة للقوميات الوحيدة المتاحة يجب انتزاعها من بين المجموعة الفوضوية من "الأنوات" الشرهة، فإن السوق تفشل فى آخر المطاف حسب شروطها هي. فنحن نحصل على السلع وليس على الحياة التى نريدها. الرفاهية لبعض الناس، بينما اليأس لكثيرين والكرامة ليست لأى إنسان. إن روابط عالم ماك غير الحكومية البالغ عددها ستة وعشرين ألفاً أو يزيد لا تتساوى بحال من الأحوال مع قائمة مجلة فورشن التى تضم الخمسمائة شركة الكبرى متعددة الجنسية. ولا تبدى الاتحادات الاحتكارية ترحيباً كبيراً بالمواطنين. فعالم ماك لا ينظم نفسه بنفسه ولا يمكنه أن يفعل ذلك. كما أنه من غير المحتمل أن تصدر عنه تلك الأنواع من الأجهزة المدنية الديمقراطية التى يحتاجها كي يظل يعمل. وهذه هي مفارقة عالم ماك. فهو لا يمكنه البقاء بعد انتهاء العالم الذى يتحتم عليه خلقه فى الغالب، فى حالة عدم تصدى القوى المدنية والديمقراطية، التى يتحتم عليه أن يقضي عليها، له.

هذه العيوب قد لا تُعد عيوباً بالمرة فى الوقت الراهن حسب معايير الاقتصاد الكلي.(27) إنها عيوب بمعايير السياسة وحدها. إلا أنها تصبح عيوب السوق عندما يسمح للاقتصاد الكلي والأسواق بأن تستلب دور السياسة. والعواقب الوخيمة التى تنجم عن

تنميط الإصلاحات السياسية طبقاً لنظريات الاقتصاد الكلي شديدة الوضوح فى دول تقع فى أنحاء أمريكا اللاتينية وأفريقيا، حيث "كلما انتعش القطاع الخاص ... انكمش القطاع العام". ويرى جويرمو.أودونل 'Guillermo ODonnell' ، وهو أحد علماء السياسة الرواد فى أمريكا اللاتينية، أن الأمر بسيط: "الخصخصة لا تعني التحول الديمقراطي."(28)انتهى.

ولا يسعني البدء فى إنصاف ذلك البلاء الذى أتت به محاولة فرض حل اقتصادى على مشاكل الديمقراطية فى أقاليم العالم النامية. غير أني أريد تقديم صور مختصرة لاثنين من بلاد ما بعد الشيوعية حيث أصبحت الرأسمالية المتوحشة-نتيجة لربط الخصخصة بالديمقراطية-الحكم الأول للقيم المدنية طوال السنوات الخمس الماضية، وحيث نتج عن ذلك أن الديمقراطية القديمة (فى ألمانيا التى توحدت حديثاً) والديمقراطية المنتظرة (فى روسيا القديمة) تواجه كل منهما تحديات قاسية لآمالها الديمقراطية.

الفصل السابع عشر
الرأسمالية فى مواجهة الديمقراطية فى روسيا

هناك قدر كبيرٌ من الأدلة التجريبية التى تبرر ذلك النقد الحاد من جانب مراقبين مثل سولجنتسين لتجارب روسيا مع التحول الديمقراطي بين عشية وضحاها عبر الرأسمالية على عَجَل. وهناك من المشاركين فى العملية ممن ليسوا فى الوقت الراهن على قدر كبير من الانشغال بأثر رأسمالية "العلاج بالصدمات" على دستور روسيا-"وثيقة ذات قدر شديد المحدودية من الشرعية، وكذلك من السلطة"[1] -ومعه مستقبل الديمقراطية الروسية، "الذى لم يكن فى يوم من الأيام غير مؤكد مثلما هو الآن".[2] ويعتقد جون هـ. فيربانكس الابن John.H . Fairbanks.jr أن "الكثير من الشروط المهيئة للفاشية موجودة الآن فى روسيا، أو سرعان ما ستوجد فيها: التضخم الجامح، والبطالة واسعة النطاق، والاستياء الذى بلغ حد الغليان، وخيبة الأمل فيما يتعلق بالديمقراطية، والمجتمع الذى "خرج عن المسيحية" وإن كان لا يزال متلهفاً إلى "الروحانية"، والصراعات الحدودية المريرة، والقتال الذى لا يتوقف ولا تشنه جيوش الدول بل المجموعات المتطوعة الشبيهة بالفيالق الحرة freikorps، والمشاعر الاشتراكية والقومية المترسبة."[3] وليس كل مراقب على هذه الدرجة من الإثارة. إلا أنه حتى علماء الاقتصاد الجادين مثل بادما ديساى Padma Desai توصلوا إلى أن استراتيجية الصدمات "لم تفلح-ولن تفلح".[4] وهو يقدر أن هناك هبوطاً سيحدث فى الناتج المحلي الإجمالي الروسي مقداره 19 بالمائة، يعقبه هبوط آخر مقداره 11 بالمائة، فى سنة 1993. هذا بالإضافة إلى تضخم مقداره 500 ،2 بالمائة سنة 1992. ويستمر التضخم بعد ذلك بمعدل 25 بالمائة. وفى أماكن أخرى من شرق أوروبا، فإنه حتى الاقتصادات التى أُعلن أنها "ناجحة"، سوف يستمر إنتاجها الصناعى رغم ذلك فى الهبوط هبوطاً حاداً (بما يزيد على 50 بالمائة فى المجر وجمهورية التشيك وسلوفاكيا [مثلها مثل روسيا]، وبما يزيد على 75 بالمائة فى بلغاريا). فى الوقت الذى يحدث فيه ارتفاع حاد فى أسعار التجزئة، ويستمر التضخم، ويتراوح معدل البطالة بين 10 و20 بالمائة فى دول لم تشهد أياً من هذا من قبل.

وفى روسيا نفسها، حيث المستشارون مثل مؤسسة هوفر المحافظة، ورجال البنوك

الاستثمارية مثل جولدمان ، واقتصاديو السوق الحرة الراديكاليون مثل جيفرى ساكس ، يحثون على اتباع تكتيكات الصدمات، هبط الإنتاج الاقتصادى بمقدار 25 بالمائة فى الربعين الأولين من سنة 1994 (أى أسرع مما حدث فى الكساد الأعظم فى أمريكا)، بينما هبط الإنتاج الزراعى إلى أقل معدل له منذ ثلاثين سنة.(5) وتصنف بعض التقديرات ربع الشعب الروسي على أنه بلغ حد الفقر، إضافة إلى 40 بالمائة ممن يعيشون دون حد الكفاف.(6) وبينما يشترى الأثرياء التليفون المحمول، والاستاكوزا الواردة من مين، والمخدرات المحرمة، فإن متوسط الأجر الصناعي مازال يتراوح بين 40 و70 دولاراً فى الشهر الواحد، وهو ما يزيد قليلاً عما تدفعه لإيجار سيارة لمدة ساعة فى واحد من الفنادق الجيدة.(7) وتُباع السيارات الليموزين التى يبلغ سعر الواحدة منها 150 ألف دولار وساعات كارتييه التى يبلغ ثمن الواحدة منها 30 ألف دولار من خلال تعاملات بالدفع الفورى فى بوتيكات كانت فى يوم من الأيام تستهدف الأجانب، بينما تقدم اليوم بضائعها فى المقام الأول للروس–إذ أن مليوناً منهم تقريباً (من إجمالي 150 مليوناً) يمكنهم شراء السلع الكمالية. وبانتهاء سنة 1993 كانت حوالى أربعين ألف سيارة أجنبية قد سُجلت في موسكو.(8) وعلى أرض معرض المنجزات الاقتصادية، الذى كان فى يوم من الأيام يحتفي بعجائب الصناعة والعلم الروسيين المأمولة، هناك الآن سوق تجارية ضخمة: احتفاءً بعالم ماك، حيث "يتخاطف أهل موسكو أجهزة تلفزيون سوني وباناسونيك التى اشتُريت حديثاً بسرعة كبيرة يبدو معها الأمر وكأنهم منهمكون فى عملية سلب ونهب". وهناك يتعجب أحد الزوار الروس قائلاً: "أنا مصدوم. أنا مصدوم. أظن أننا أصبحنا الولاية الواحدة والخمسين فى أمريكا."(9) وقد حلت كلمة "ناجلوست" (وهو مصطلح معناه "أى شيء يصح" وينطوى فى باطنه على معان تنم عن الوقاحة والغطرسة) محل "جلاسنوست" باعتبارها صيحة العمل الخاصة بالرأسمالية الجديدة، حيث تُعد المضاربات الهرمية فرصاً استثمارية، ويُعبأ الخمر المغشوش الذى يحرق الأمعاء فى زجاجات "شيفا ريجال"، وأصبحت أموال الحماية وحراس الأمن الثمن الذى يجب دفعه للعب فى أى عمل كان.

وفى الوقت ذاته هناك أكثر من 15 مليون عاطل (مقابل ما يقل عن نصف المليون فى الاتحاد السوفيتي القديم). ويقول المنتقدون–وليسوا جميعاً محافظين أو قوميين أو

شيوعيين عابسين-إن العلاج بالصدمات أضحى صدمة بلا علاج. ويعبر ألكسندر بروخانوف Alexander Prokhanov عن أساه قائلاً "إن الاقتصاد يُحتضر، والأواصر الاجتماعية تتمزق. وعما قريب سوف لا يمكن السيطرة على المجتمع."(10) وأعلن فيكتور تشرنوميردن Viktor Chernomyrdinرئيس وزراء يلتسين الجديد فى أعقاب فشل الإصلاحات الراديكالية: "عصر رومانسية السوق ولى وفات". إلا أنه مازال عليه أن يجد وسيلة للتعامل مع الديون الخارجية المجدولة التى تبلغ 5.2 مليار دولار، معظمها لصالح المستثمرين الأجانب الذين حصلوا على الائتمانات الاستثمارية.(11) كما أن الأحد عشر مليار دولار الخاصة بالمساعدة الثنائية التى وعدت بها الدول الغربية فى عامي 1993 و1994 كانت تستهدف مساعدة المصدرين الغربيين. أما الـ 5.4 مليار دولار الخاصة بالمساعدة العينية، التى وعدت بها المنظمات الدولية، فجاهزة للتسليم على هيئة مبالغ صغيرة متفرقة-كما هو حادث فى أنحاء شرق أوروبا، حيث مازال الوفاء بالوعود الغربية واجباً.(12)

وفى تقرير عن القمة الاقتصادية فى اليابان سنة 1993، كتب جيمس ستيرنجولد James Sterngold الصحفي بالنيويورك تايمز يقول إن برنامج المساعدات الروسية التى جرت مفاوضات بشأنه هناك "بلغت حداً أقل مما يجب ...مجرد إعادة تخصيص لمبالغ تعهدوا بها" من قبل.(13) وبينما تنتظر روسيا المستثمرين الجادين فى اقتصادها، يدخل عالم ماك. إن أكبر مطاعم ماكدونالدز فى العالم يعمل الآن على مقربة من الميدان الأحمر-ورغم أنه يقدم خدماته للموسرين، حيث تكلف وجبة الغداء من سندوتشات بيج ماك (التى يمكن طلبها بالإنجليزية أو الروسية) أجر أسبوع كامل. وقد وصلت مطاعم بن أند جيريز إلى الأقاليم، حيث ابتعدت عن موسكو، على العكس من بيتزا هت. وتبيع آفون مستحضرات التجميل لربات البيوت اللائي تستثير كبريائهن وسائل الإعلام الجديدة، التى تعرض أفلام العصابات الغربية، والمسلسلات التلفزيونية، وبرامج الألعاب. وكل شركة من شركات الإلكترونيات والبرامج تحتجز لنفسها موقعاً فيما يؤمل أن يكون سوق نمو استهلاكي رئيسية فى القرن الجديد.

أما الشركات العملاقة القديمة الجماعية والتابعة للدولة فآخذة فى الاختفاء ببطء. إلا

أننا نجد مكانها، بالإضافة إلى الشركات الروسية الجديدة المكافحة، شركات الاستيلاء على الطراز الأمريكي التى تتهافت على الشركات الروسية التى تشترى المواد الخام بالروبل وتعيد بيعها بالدولار فى الخارج بأسعار تفوق ثمن شرائها بكثير. ويحتفي المراقبون الغربيون بصفقات الاستيلاء غير الودية، وكأنها ضربات لا بد منها فى الكفاح من أجل التحول الديمقراطي. ويروى جوزيف بالزى Joseph Balsi أستاذ الاقتصاد بجامعة روتجرز بسعادة قصة مصنع فلاديمير للتراكتورات القريب من موسكو حيث "خلع رجل أعمال روسي حاصل على ماجستير إدارة الأعمال من جامعة هارفارد المدير العام للمصنع بعون من مجموعة استثمارية فى نيويورك كانت تمتلك سدس الأسهم".(14) وما هو جشع فى نيويورك، يُعد تحديثاً اقتصادياً فى موسكو التى قد يكون الجشع فيها مباحاً. والكثير من شركات الاستثمار الروسية الوطنية تتعامل فى الكوبونات التى كانت قد أعطيت فى وقت سابق فى سياق عملية الخصخصة لكل روسي، كسند لحصته فى الثروة الجماعية السوفيتية القديمة، مستغلة فى ذلك حقيقة أن معظم الروس لا يسعهم الاحتفاظ بكوبوناتهم ومستعدون لبيعها بأسعار رخيصة للمضاربين، يأساً من تسييلها لدفع إيجار المسكن والاستمرار فى الحياة. وهذه الشركات، مثلها مثل نظيراتها الأمريكية، لا تصنع شيئاً سوى الأرباح غير المكتسبة. كما أن عوائد شركات أخرى، مثل إم إم إم سيئة السمعة التى سقطت سقوطاً مريعاً سنة 1994، ولا تزيد إلا قليلاً على المضاربات الهرمية التى يجرى من خلالها سلب الجدات اللائي يسهل خداعهن تحويشة العمر، تُستغل فى إغراء الآخرين كي يشتروا حصة فى منشأة لا تنتج أى شيء سوى إلا أمل مستثمريها المخدوعين الذى وضعوه فى غير موضعه.(15) وبالنسبة لمن هم على قدر من الثراء يجعلهم يرغبون فى المقامرة بشكل مباشر، هناك اثنا عشر كازينو قمار جدد فى موسكو. وبالنسبة لمن هم أقل ثراءً، تتوافر ماكينات الروبلات الآلية فى كل متجر بقالة للعمال بكل حي تقريباً.(16)

لقد جعلت الرأسمالية المتوحشة الأعمال التجارية والجريمة على صلة وطيدة ببعضهما، فلا نعرف على وجه الدقة متى ينتهي أحدهما ولا متى يبدأ الآخر . وما جريمة الشوارع والإعدامات التى تتم على غرار ما تفعله المافيا إلا قمة جبل الثلج القابع تحت

مياه الأعمال التجارية والحكومة. وفى كثير من الأحيان نجد أن نفس الأشخاص الذين كانوا يديرون المنشآت المملوكة للدولة هم الآن مُلاَّكها "الخاصون". بينما يساعد المديرون الشيوعيون السابقون فى تصفية الأعمال التى كان من المفترض أن يخصخصوها، مما يسرب السلع إلى الخارج فى السوق السوداء ويهرب البترول والنيكل والسكانديوم من البلاد بغرض الحصول على الأرباح التى لا تستفيد منها روسيا ولا حاملو الكوبونات الروس.(17) ويقبع المضاربون الهواة فى مترو موسكو رافعين لافتات تحمل عبارة "أشترى كوبونات"، بينما يصيح المحترفون المتحمسون، الذين لا تعوقهم بورصة مركزية، ولا لجنة التجارة الفيدرالية، ولا لجنة البورصة والأوراق المالية، ولا لوائح من أى صنف، قائلين: "نحن نأتي بالأموال من الهواء."(18)

ولكن أحداً لا يأتي بالأموال من الهواء، وإنما ينتزعها من جيوب الروس الذين لا تتيح لهم دخولهم رفاهية المضاربة. وما أدانه روبرت رايخ باعتباره "انسحاب الأثرياء" عن القطاع العام الأمريكي مسألة تتزايد فى روسيا كذلك: هناك مجتمعان آخذان فى الظهور، أحدهما غني وخاص و معزول، والآخر فقير وعام ومُعرَّض لمحاكمات الأمة الروسية (أى السوق الروسية) بأكملها. وفى الوقت الذى يحقق فيه المجتمع الأول النجاح، بالتواطؤ مع مستثمرين من الخارج-أفراداً ومؤسسات-فإن الثاني (ويشمل الـ40 بالمائة "المعوزين" فنياً) متروك أمره لقطاع عام مفلس عاجز عن تقديم الضمان الاجتماعي، وفرص العمل، والأجر المعقول. بل إن المدافعين عن الخصخصة فى الوقت الراهن يعترفون بأن دعم الأجور ربما كان سيحمي العمال مما يسمونه بسحر الممارسات "الطاردة للعمال" التى يتبعها المخصخصون الذين يأملون فى جعل المؤسسات التابعة للدولة تبدو أكثر جاذبية للمستثمرين، الذين قد لا تتوفر لديهم روح المبادرة السياسية لفصل نصف العاملين فى الشركات التى امتلكوها حديثاً.(19) أما من الناحية العملية، فهناك نسبة كبيرة من الطبقة الجديدة التى تشكل القطاع الثاني من الفقراء والمعوزين والعاطلين، ممن يُعدون أشياء عديمة النفع والأهمية فى مواسم الخصخصة: إنهم العمال الذين يستغني عنهم نظام يحقق قدراً من الأرباح لأصحابه الجدد فى غيابهم. ومن المحتمل أن يتضح أن القصة الحقيقية للتحول الديمقراطي فى روسيا وغيرها من دول شرق أوروبا نتاج للتوترات بين هذين القطاعين المتعارضين.

وربما كان من الأفضل أن تُحكى قصة الاعتلال المجتمعي الناجم عن اعتناق روسيا المندفع للرأسمالية الأولية من خلال رواية مختصرة لما أصبح هجوماً مزدوجاً على الجسم الروسي (والأمة كوحدة سياسية) والروح الروسية. ويتضح انهيار الأمة فى كل من تدني معدلات المشاركة السياسية وظهور الزعماء القوميين والشيوعيين الجدد المعادين للغرب، الذين يُعد فلاديمير جيرونيوفسكى أشهرهم، من جديد. والخطر الذى تتعرض له الأمة الروسية بالمعنى الحرفى للكلمة أكثر رعباً: إذ تظهر إحصائيات السكان أن هناك انخفاضاً حاداً فى كل من معدلات الولادة ومتوسط الأعمار-الأمر الذى يعكس قسوة الحاضر ويأس المستقبل-بينما أصبحت الجريمة بمثابة مجاز لكل من الحكومة غير الأمينة والأسواق الفاسدة وما بينهما من علاقات مضطربة. والروح الروسية فى خطر لأن الثقافة والتاريخ الروسيين يتعرضان فى الوقت الراهن لثقافة عالم ماك الدارجة الرخيصة وماديته الموجودة فى كل مكان، اللذين يبدو أن تقدمهما هو مؤشر النجاح بالنسبة للرأسمالية ما بعد الصناعية فى روسيا. واسمحوا لي أن أقول كلمة عن كل من هذين قبل أن أختتم استعراضي للنموذج الروسي.

ترك اقتصاد الدُش البارد السياسة الروسية مبتلة وقد أصابتها رعشة. وفى الانتخابات البارزة التى أُجريت فى نهاية 1993، عبَّر الناخبون عما يشعرون به من إحباط نحو الاقتصاد أول ما عبروا بالوقوف بعيدا فى تجمعات: لم يدل ما يزيد على النصف بأصواتهم بالمرة، حيث حققوا فى أول خروج لهم معدل مشاركة ينم عن عدم الاكتراث، احتاجت أمريكا إلى قرنين لتحقيقه. أما هؤلاء الذين أدلوا بأصواتهم فقد عبروا عن استياءهم بتوجيه ضربة إلى حزب يلتسين الإصلاحي، خيار روسيا، الذى كان يلتسين ذكياً فى عدم الدعوة له وحصل على 15 بالمائة فقط من أصوات الناخبين. لقد آثروا إعطاء حوالى نصف أصواتهم لأكثر منتقدى يلتسين راديكالية: 23 بالمائة لحزب جيرونيوفسكى القومي المتشدد "الديمقراطي الحر"، وما يربو على 12 بالمائة للحزب الشيوعية الذى ظهر من جديد حديثاً، و8 بالمائة للحزب الزراعي.[20] وقد يبدو حصول الشيوعيين على اثنين وثلاثين مقعداً بجعيد توجيه يلتسين دباباته نحو البيت الأبيض وترحيله القادة الشيوعيين أمثال روتسكوى Rutskoi إلى البرية أمراً مذهلاً، ما لم يكن الشيوعيون قد استعادوا أو

ضمنوا نصيباً فى السلطة فى سائر دول الإمبراطورية السوفيتية السابقة ما عدا خمس.(21) قد تحرر الأسواق، ولكن ما حررته فى الشرق كان الاستياء الرجعي.

لقد استُغلت ظاهرة جيرينوفسكي استغلالاً كافياً فى وسائل الإعلام بالقدر الذى يجعلها تستحق بعض التعليقات هنا. إذ قارنه ايجور جايدار Yegor Gaidar الإصلاحي الاقتصادى بحزب خيار روسيا بهتلر. ويبدو أن هناك دليلاً كبيراً على هذا الاتهام فى مُليحمة السيرة الذاتية لجيرينوفسكي "الاندفاع الأخير إلى الجنوب". وتبيع أكشاك الكتب المرتبطة بمكتب حزبه كتاب جوبلز Goebbels "مذكراتي" وكتاب Mein Kampf [كفاحي]. كما أنه فى كلٍ من كتاباته وخطبه كان يسرف فى استخدام اللغة الملتهبة من نوع "قد أضطر إلى إطلاق النار على مائة ألف شخص، ولكن الثلاثمائة مليون الآخرين]فى روسيا الكبرى التى بُعثت من جديد[سوف يعيشون فى سلام."(22) وبعض المراقبين يعتقدون أنه رمز لتهديد الفاشية الروسية، ولكنه ليس خطراً فى حد ذاته (فمن المفترض أن له بعض الأصول اليهودية وأنه انتهازى سياسي من الطراز الأول). ولأنه على قدر كبير من الحمق والحديث بلا مواربة، ومعزول الآن فى البرلمان الذى همَّشه يلتسين وحكومته، فيبدو ترشيحه لانتخابات الرئاسة لسنة 1996 أقل احتمالاً مما كان عليه فى يوم من الأيام. إلا أنه يمثل الإجهاض المحتمل للحياة السياسية الديمقراطية فى روسيا. وبذلك يكون تحذيراً للمتفائلين. ولا يمكن القول بأنه نتاج الأسواق، غير أنه من المؤكد أن آثارها المدمرة على الكثير من الروس هي التى جعلته يطفو على السطح.

والدمار الذى أحدثه التحول المحموم إلى الرأسمالية واضح فى الأمة، غير أنه أشد وضوحاً فى وهن الجسد الروسي الفعلى. فنهب البيئة، الذى كان مدمراً فى ظل الحكم الشيوعي، مازال قائماً بنفس القوة.(23) بل إن من يعيشون فى البيئة المتدهورة أشد سوءاً. والجداول الاكتوارية حالياً تعطي الروسي ما هو أدنى بقليل من الستين سنة من الحياة، حيث يقل متوسط عمر الذكور عن مثيله فى إندونيسيا أو الفلبين. كما أن الروسيات يحملن أطفالاً بمعدل فاجع مقداره 4.1 للفرد (مقابل 17.2 أثناء الفترة السوفيتية الأخيرة، ومقابل المعدلات شديدة الانخفاض فى الشطر الشرقي من ألمانيا.(24) ومجتمع فيه معدلات وفاة العالم الثالث ومعدلات مواليد العالم الأول لمجتمع ليس فقط لا يعلم شيئاً عن الديمقراطية، وإنما عن مستقبله ذاته.(25)

ومعدلات الجريمة المتفاقمة تبرز الأخطار المحدقة بالجسد الروسي. وتقديرات أكثر المراقبين تشاؤماً تشير إلى أن حوالى 40 بالمائة من الناتج القومي الروسي له علاقة بالجريمة، وأن حوالى أربعين ألف متجر ومنشأة صغيرة يُشاع أنها مملوكة لألف ونيف من المنظمات الإجرامية أو مخترقة منها . ومن بين عدة آلاف من العائلات الإجرامية، هناك 150 أو نحو ذلك تتباهى بعلاقاتها الدولية البارزة. وطبقاً لما ذكره يلتسين نفسه، فإن 80 بالمائة من البنوك والمنشآت الخاصة تدفع إتاوة للمافيا الروسية الجديدة (26) –وهو المصطلح الذى اختاره المجرمون الروس لأنفسهم، إذ أنهم يلبسون ويتصرفون كجزء من العصابات التى يشاهدونها فى أشرطة فيديو The Godfather وGoodfellas [الأولاد الطيبون]، وكذلك الأفلام السوداء التى تعود إلى الثلاثينات وتصور شخصيات كابوني Capone وغيره من المجرمين المزهوين بأنفسهم التى أداها جيمس كاجني Cagney James وإدوارد ج. روبنسونEdward .G Robinson (دليل آخر على تداخل الجهاد وعالم ماك).(27)

وفى كل يوم يعالج مستشفى فيرست سيتي بموسكو أربعين ضحية إصاباتها خطيرة نتيجة التعرض للضرب بغرض السرقة . وليست الضحايا مجرد مصابين فى أعمال العنف بالشوارع.(28) ففيما بين 1989 و1992 قُتل ما يزيد على ألف شرطي روسي فى أعمال عنف مرتبطة بالجريمة. وفى سنة 1993 وحدها قُتل عشرة من مديرى أكبر البنوك التجارية الروسية.(29) وفى سنة 1994 تحركت حكومة يلتسين تحركاً مباشراً ضد ما أسمته "القذارة الإجرامية". ولكن يبدو أن العلاج ليس أكثر توصيلاً للديمقراطية من المرض، ذلك أنه يتضمن بنوداً خاصة بتعليق الحريات المدنية، واعتقال المشتبه فيهم دون توجيه اتهامات رسمية لمدد تصل إلى الشهر، وإضفاء الشرعية على إجراءات البحث والمصادرة غير الدستورية.(30)

ويظل الجهاد يعيث فساداً فى المجتمع الروسي من خلال شخصيات مثل جيرينوفسكي. ولكنه بالنسبة للروح الروسية، فقد يبدو الدفاع عن تفوق الثقافى السلافية وغيره من المشاعر القومية نيراناً ضرورية لتدفئة الشتاء البارد الطويل فى عالم ماك. الأغاني الشعبية القومية تزيحها موسيقى الروك الغربية بانتظام من على خريطة الإذاعة. بل

إن موسيقيي الروك الروس المحليين لا يمكنهم الصمود أمام هذا الهجوم العنيف. وفى يوم من الأيام كان بوريس جريبنشتشيكوف Boris Grebenshchikov يبيع ألبومات الروك بالملايين: وبعد أن تعرض لمنافسة "الشيء الأصلي" يكون محظوظاً هذه الأيام إذا باع خمس عشرة ألفاً.(31) هل من العجب إذن أنه حتى الروس الكوزموبوليتانيين يعبرون عن حنين ما إلى روسيا الكبرى التى كانت بالأمس؟ أم أن هذا الحنين إلى الماضي لا بد أن يتنافس مع الرغبة الشديدة فى أسواق الغد الكبرى وتحتل منزلة أدنى منها بكثير؟ القوميون يقاومون الثقافي الغربية، غير أن الشعارات تظهر فى كل مكان بالنيابة عن السيجارة الشعبية الجديدة West حيث تصيح "! Test theWest " [اختبروا الغرب] وما يقوله الكاتب المسرحي يانوس جلوفاتسكي Janusz Glowacki عن بولندا يصدق على روسيا وعلى كل دولة شيوعية سابقة: "الآن تغلق المسارح أبوابها الواحد تلو الآخر. المستودعات تمتلئ بالكتب التى كان الناس يخاطرون بحريتهم كي يقرؤوها. المجلات الأدبية الأسبوعية فى طريقها للإفلاس. الكتب المرقشة موجودة فى كل مكان، وكذلك الأفلام التى يقوم ببطولتها شوارتسنيجر أو ستالوني."(32)

واليوم تبيع موسكو من الدمية باربي أكثر مما تبيعه من دمى البابوشكا، ومن الدمية فيرونيكا (وهي صورة روسية مقلدة من باربي) أكثر من الدببة الروسية.(33) هل هذا معناه أن هناك خيار أكثر أم أقل؟ لقد طردت لعب "ليجو" والمحاربون البلاستيك والـ "جيمبويز" [أولاد الألعاب] اللعب الخشبية التقليدية من على الرفوف. إن الـ "جيمبويز" شبكات ثقافية خفية تصل إلى داخل البيوت الروسية وداخل عقول الأطفال الروس ومعها قدر مطرد من اللعب الغربية، والشخصيات الكارتونية ، والمواقف الخاصة بالتنافس والعنف والاستهلاك والكسب التى لا غنى عنها بالنسبة لاستراتيجية التسويق الخاصة بعالم ماك. ووزارة الثقافة الشهيرة فى روسيا، وتُعرف الآن بوزارة الثقافة والسياحة، فى سبيلها لتحويل التراث الفني للبلاد إلى مدينة ملاه-والواقع أن هذا يحدث باسم الحفاظ على قطاع لم يعد بإمكانه الاعتماد على دعم الدولة. وهناك ست فرق تحمل أسماء مثل "البجع" و "الدببة" تلعب فى دورى لكرة القدم على النمط الأمريكي فى موسكو، وتستخدم كوكاكولا عقد احتكارها لجعل الكوكا والفانتا والسبرايت مشروبات روسيا الوطنية.(34) وما زال جيرينوفسكى يجتذب

انتباه الصحافة ، بينما نجد أن مدافعاً محافظاً بحق عن الثقافة السلافية مثل مؤلف "يوم فى حياة ايفان دينوفيتش" يُقابل بالسخرية أو التجاهل من جانب الجمهور العام. كما أن عودة سولجنتسين إلى روسيا سنة 1994 اجتذبت من اهتمام وسائل الإعلام الغربية ما يفوق اهتمام الصحافة الروسية، وإن كان يظهر الآن فى برنامجه الجماهيرى التلفزيوني. وهو ما يمثل الكثير بالنسبة للروح الروسية.

وفى النهاية، فواقع الأمر أن هناك خدعة كبيرة فى التقدير المنصف لما تكلفته الديمقراطية الروسية، بعملات الجسد والروح، نتيجة لدخولها المندفع فى مجال رأسمالية عالم ماك وأسواقه. فالمجتمعات فى التحول السريع تتعرض دائماً للضغط العصبي. كما أن خمساً وسبعين سنة من البلشفية كانت قد تركت الدولة الروسية مكبلة بطرق سوف يدفع شعبها ثمنها لفترة طويلة فى المستقبل، بغض النظر عن النظام الخلف الذى ينجحون فى إقامته. بل إن خلق الديمقراطية ذاته يتطلب ثمناً وكثيرا ما يصاحبه العنف والفوضى وفترة من الشك، بل والفوضى. ولذا يكون من الظلم أن نلقي باللائمة فيما يتعلق بكل علة من العلل الروسية الحالية على مخاضها الاقتصادى لتحولها إلى الأسواق. ومع ذلك، فقد أثبتت الأسواق أنها عاجزة فى روسيا عن إنتاج تعديلات اجتماعية للتعويض عن العواقب العامة المؤلمة لخيارات السوق الخاصة. وهذا معناه أن الدلائل الديمقراطية تبشر بأقل مما ينبغي أن يكون. والمتشككون، الذين شاهدوا مزايا الصبر عند وضع الدساتير الديمقراطية، ويفهمون العلاقة بين السلطة العامة والحرية الناشئة، قد يتساءلون عما إذا كانت الصين لن تنجح فى تحقيق المجتمع المدني الديمقراطي الحقيقي قبل روسيا أم لا.

ومن المؤكد أن هناك القليل مما يشير إلى أن التحول المفاجئ لروسيا من الاقتصاد الموجه إلى اقتصاد السوق الجذرى يفعل فى حد ذاته الكثير لرعاية الديمقراطية. فالمواقف المدنية التى خربتها الجريمة، والرضا الذاتي، واليأس، تؤدى إلى ما قال عالم الأنثروبولوجيا ديفيد لمبرت David Lempert أنه قد يكون ظهور عقلية "طائفة الشحن" cargo cult فى روسيا الجديدة، حيث يرنو "أبناء البلاد" بأبصارهم عبر المحيط كي يأتي لهم الأجانب الغرباء وأشباه الآلهة بغنائم الأسواق الغربية السحرية والثقافة الدارجة الأمريكية.(35) وتشبيه لمبرت فيه تطرف، بل قد يكون مهيناً. ولكن الذى يعاود الظهور فى

روسيا ليس مجرد الديانة المنظمة، وإنما ما يصفهم هو بأنهم معالجو العقيدة، ومنومو التلفزيون المغناطيسيون، وطوائف الأطباق الطائرة، والتطرف السياسي الذى تحركه وسائل الإعلام الذى يُلام الغرب فيه على كل خطيئة روسية قديمة وجديدة تشير إلى الجبرية القاتلة. وقد حذر أحد علماء الاجتماع الروس قائلاً: "هذا البلد فيه من السلبيين تمام السلبية من يزيد عددهم عما فى سائر دول العالم مجتمعين. وإذا لم يكن فى عزمهم أن يقتلوا بعضهم بعضاً، فذلك مرجعه إلى أنهم من السلبية بحيث لا يشغلون أنفسهم بهذا الأمر."(36)

إذن فالحالة المزرية التى عليها المجتمع الروسي ليست مجرد مسألة شكاوى قومية أو استياء الكوادر الشيوعية المطرودة، ووجهات نظر جيرينوفسكى أو أحد المدافعين عن الثقافة السلافية الغامضين المحافظين مثل سولجنتسين لا ينبغي أن تكون معياراً. فعندما يصيح ألكسندر ج. نيفزوروف Aleksandr .G Nevzorov، وهو شخصية تلفزيونية فى السادسة والثلاثين من سانت بطرسبورج الليبرالية قائلاً: "لم يعن الإصلاح شيئاً سوى رجال العصابات والشحاذين والدم، ولا شيء بالنسبة لأرباب المعاشات الذين يعيشون بجوار المحال التجارية التى تبيع طعامكم المستورد،" ويُنتخب بصفته قومياً لعضوية البرلمان الجديد (فى 1994)، فقد يمكن التقليل من أهمية ملاحظاته باعتبارها مغالاة انتخابات ودعاية يمينية–رغم أننا قد نفاجأ بعض الشيء، عندما نرى أن مثل هذا الغلو يكافأ فى معظم المناطق البرجوازية والموالية للغرب.(37) بل إنه حتى المنشقين الذين يعيشون فى المنفى، ولا يشعرون بالود نحو النظام السوفيتي ولا نحو منتقدى النظام الحالي، يشعرون بالقلق. فهاهو نيكولاى بترادوفNikolai Petradov يشكو مؤخراً فيقول: "إننا نريد إصلاحاً ذا صبغة إنسانية. وإذا ظلت الإصلاحات على ما هي عليه من قسوة تجاه الناس، فسوف يدخل جيرينوفسكى الكريملين وقد بذل أقل جهد لدخوله."(38) أو لنستمع إلى إدوارد ليمونوف Edward Limonov ، وهو منشق يعيش فى باريس ومعروف بوجهات نظره الكوزموبوليتانية وقد عاد إلى روسيا سنة 1992 ليكون معارضاً ليلتسين:

أنا قومي رغماً عني ... ذلك أنه رغم حبي لكوزموبوليتانية الثقافة الرفيعة، ليس لي أى خيار. وأن يكون المرء قومياً فى روسيا فى الوقت الحالي يعني أن ينسى الأنانية وأن

يساعد أسرته ...[كما فعلت عندما سافرت إلى سيبيريا ورأيت] مكتبات البلدية مغلقة لنقص التمويل ، والفرق الموسيقية التى أُسكتت أصواتها والبؤس الذى أمسى مأساة قومية. ومن يدعون الديمقراطية فى السلطة لا يخاطرون بما هو أدنى من انتحار حضارة."(39)

هذا أشبه بالجهاد. فما يشغل بال ليمونوف هو أن "69 سنة من دكتاتورية الحزب أضاعت الثقة فى الشيوعية،" مثلما "أضاع يلتسين الثقة فى الديمقراطية الغربية. ولا يجب السماح للديمقراطية بأن تلحق الضرر بالناس." وعندما يبدأ الكوزموبوليتانيون فى الاعتقاد بأن الديمقراطية هي الشيطان، وعندما يؤكد رئيس وزراء يلتسين الجديد الذى جاء بعد الإصلاحات فيكتور تشرنوميردن أن "عصر رومانسية السوق ولَّى وفات ... النقل الآلي للأساليب الاقتصادية الغربية إلى أرض روسيا كان ضرره أكثر من نفعه"، تكون الرأسمالية قد انتزعت ثمناً غالياً جداً.(40) وربما كان هذا هو السبب فى تأكيد بوريس يلتسين نفسه على أن "روسيا ببساطة لا تصلح لـ [الرأسمالية]. فروسيا بلد فريد من نوعه. وهي لن تكون اشتراكية ولا رأسمالية."(41)

ومع ذلك فالقصة لم تنته بعد. كما أن المسألة ليست إن كانت روسيا ستصبح اشتراكية أم رأسمالية، بل إن كانت ستصبح ديمقراطية أم لا. وقد باتت ظروف روسيا من السوء الحد الذى جعل بعض المراقبين ممن يُفترض تعاطفهم معها يقترحون جعل سيادة الجريمة الواقعة بالفعل على الحكومة أمراً معترفاً به، ويلومنا مايكل سكامل Michael Scammell أستاذ الأدب الروسي بجامعة كورنل لكوننا "شديدى الحساسية" بشأن "تدهور دور النشر والدوريات والمسرح وأندية الفنانين أو انهيارها وافتقار المؤسسات الأكاديمية، لتقليل دعم الدولة أو سحبه بالمرة". فهذه المؤسسات كانت متضخمة أكثر من اللازم فى العهود السوفيتية. ولا ينبغي أن نخاف مما لا يعدو فى أى الأحوال كونه صدى لـ "ما تميزت به أمريكا من خشونة وعدم مراعاة للقواعد والنظم منذ قرن مضى" حيث كانت "طبقة جديدة من رجال الأعمال والمستثمرين والمغامرين لا تخضع لأى سلطة إلا سلطتها هي" تدير المشروع برمته لمصلحة الكل. ويرى سكامل أن "وجود المافيا بارومتر لا يخطئ فى بيان درجة التحول الديمقراطي فى مجتمع ما... وخروج المافيا معناه خروج حرية روسيا التى عثروا عليها مؤخراً..."(42) وفى نفس الخط، ذكر نيكولاى زلوبين

Nikolai Zlobin، أن المجرمين من الصنف الأعلى فى روسيا ومعهم "المسئولون الفاسدون ممن لديهم رغبة حقيقية فى التحول إلى الديمقراطية واقتصاد السوق الحرة ."، الذين تجمعهم بهم المنافسة، لا يمكن القول بأنهم "راغبون فى السلب العشوائي لبلادهم. بل هم يرغبون فى خلق نسق منظم يمكنهم السيطرة منه على الأحداث، وبالتالي يكونون فى موقف قوى على المدى البعيد." وينتهي زلوبين إلى أنه طالما أن "السيطرة فى روسيا قد انتقلت بطرق شتى إلى الشبكة الإجرامية الجديدة، التى حلت محل البنية الشيوعية القديمة"، وحيث أنه "بعد التحول يفترض أن تقل حاجتهم إلى التكتيكات العنيفة والمزيد من الاستثمارات للحد من الفوضى أكثر وأكثر،" فإن المرء قد يتبع كذلك منطق الضرورة ويدع المافيا تتولى الحكم.(43) وليس هناك ما يدعو إلى التفضيل بين المافيا والسوق الحرة: فالمافيا هي السوق الحرة. المافيا هي الديمقراطية.(44)

*

ومن حسن الحظ أنه لا عالم ماك ولا المتعاطفين معه من المجرمين هم القوى الوحيدة التى لها تأثيرها فى روسيا الجديدة. فهناك عوامل مهمة أخرى من بينها الإطار الناشئ للمجتمع المدني والبنية التحية المدنية الجديدين اللذين يركزان على الجمعيات التى لا تنتمي للدولة ولا لساحة السوق (انظر القائمة الموجودة فى نهاية الفصل الخامس عشر). طبقة مهنية فتية من الأكاديميين والمحامين والمهنيين المدنيين الذين كرسوا حياتهم للمجتمع المدني وحكم القانون، واهتمام متزايد بـ "قطاع ثالث" لا يذوب فى الرأسمالية أو اشتراكية الدولة، وانشغال بالأمور الدستورية التى تتعدى السياسة، وإحساس متنام بضرورة دعم السلطة التشريعية (حتى وإن كانت فى الأيدى "الخطأ") ضد امتيازات السلطة التنفيذى التعسفية (وإن كان يتولاها متحمسون للسوق يعملون على التغريب).

وفى خطابه الرسمي أمام المجلس الاتحادى سنة 1994، وضمن فصل عنوانه "الفرد فى الدولة الديمقراطية" وتحت العنوان الفرعي "دعم الدولة لمؤسسات المجتمع المدني"، نطق بوريس يلتسين بهذه الكلمات—وهي أكثر أهمية مما قاله عن الديمقراطية: "فى غياب المجتمع المدني المتطور، تصطبغ سلطة الدولة حتماً بالاستبداد والشمولية. وفى وجود المجتمع المدني فقط تخضع هذه السلطة لخدمة الفرد وتصبح آلية تحمي الحرية."(45) ومع وجود مثل هذه الآراء فى السجلات الرسمية، وما يجسدها من مؤسسات لا تزال قيد

التكوين، قد يكون استبعاد روسيا كموئل محتمل للديمقراطية خطأ متوقع حدوثه سلفاً. إلا أنه طبقاً لما تشير إليه الأدلة التى تجمعت هنا، قد يكون من الخطأ كذلك الاعتقاد بأن الأسواق وحدها، وخاصة بعد أن طوَّرها من يتميز بالشجاعة والإقدام من المستثمرين الغربيين الذين يستفيدون منها، تقدم ذرة من الدعم الحقيقي لمثل هذه المؤسسات المدنية أو الديمقراطية التى تستهدفها.

ويتساءل ستيفن كوين Stephen Cohen ، وهو أحد أمهر مراقبي روسيا الجديدة وباحث ينفرد بعدم تأثره بالقول بأن هناك طريقاً اقتصادية توصل للديمقراطية، إن كانت هناك بالفعل ديمقراطية بأى صورة من الصور فى روسيا الجديدة. وهو يشعر بالقلق من أن هجوم يلتسين على البيت الأبيض ورغبته الشديدة فى الحكم بالمراسيم-تلك المراسيم التنفيذية التى استخدمها الحكام السوفيت والقياصرة على السواء للتحايل على مجالسهم الشعبية ومجالس الدوما التى انتُخبت انتخاباً جماهيرياً-يعززان الميل الروسي إلى إعلاء شأن السلطة التنفيذية على حساب المجلس التشريعي، الذى هو على الدوام موئل الديمقراطية الأساسي، حتى عندما لا يعجبنا الذين يشغلونه ممن انتُخبوا ليجلسوا فيه. وهو يطرح ذلك السؤال الصعب الذى يكاد يكون محرَّماً: "هل ينبغي رفض كل شيء جاء إلى الوجود فى العهد السوفيتي باعتباره إجرامياً ولا قيمة له، وعليه يُبنى كل شيء من الصفر؟" وهو السؤال الذى يمحل فى طياته إجابة بالنفي.(46)

وعند وصف سنوات البلشفية بأنها "محظورة"، يكون الروس وأصدقاؤهم قد تركوهم أمام خيار صعب، بين القومية المتربصة التى تدافع عن تفوق الثقافة السلافية والمحتجبة وراء غموض الماضي معلنة "فسيجدا روسيا،" (روسيا دائماً)، والشعار الجديد الذى لُصق فى كل أنحاء روسيا، فى إطار "مهرجان كوكا 94" احتفالاً بافتتاح أول مصنع لتعبئة زجاجات كوكاكولا، معلناً "فسيجدا كوك،" (كوكا دائماً). تلك هي النكتة على وجه الدقة-خيار مستحيل بين الجهاد وعالم ماك، ولا بد لروسيا أن تتحاشاه كي تبقى دولة ديمقراطية.

والسوق من الناحية النظرية قد تكون حرة وربما لا تكون. أما السوق من الناحية العملية، على الأقل فى أمة واحدة تسعى إلى الهروب من ظلال البلشفية التى سقطت، فكانت

طريقاً إلى أشكال جديدة وغامضة من التبعية أكثر منها سبيلاً إلى الحرية. نفس اللحن، الذى يُغنى من مقام مختلف، يمكننا سماعه إن نحن أصغينا إلى قصة "تكامل" ألمانيا الشرقية فى ألمانيا "ديمقراطية" موحدة.

الفصل الثامن عشر
استعمار عالم ماك لألمانيا الشرقية

في الشهور السابقة لتحطيم سور برلين، وكذلك للانهيار المفاجئ للحكومة التى كان السور رمزاً لاستبدادها، تعاونت جماعة مدهشة من مثقفي ألمانيا الشرقية وطلابها وزعمائها الدينيين، بل والعمال-بعضهم، وليس كلهم، من المنشقين-لتكوين مجموعة معارضة فضفاضة لحكم جمهورية ألمانيا الديمقراطية المتداعي اسمها Neues Forum [المنتدى الجديد]. وكان توقيع الجماعة معرضة شجاعة لـ "ديمقراطية الشعب". وذات مرة قال برتولت بريخت Bertolt Brecht بطريقته التى تنم عن بعد نظر إن الديمقراطية بالنسبة للحزب الشيوعي تعني أن الوقت قد حان لحل الشعب وانتخاب شعب جديد. وكان المنشقون يأملون فى تصحيح العلاقة من جديد، وهو ما لم يكن يعني مع ذلك مجرد استيراد المؤسسات من الغرب. وكان تمسكها بانشقاقها الجريء فى الوقت نفسه شكاً قوياً فى البدائل الغربية السهلة. كان هدفها نظاماً مدنياً جديداً، قد يمكن من خلاله تخليص بعض مُثُل الديمقراطية الاجتماعية التى لم تتحقق من ستالينية النظام الحاكم المنهار، حيث يطعم بها المجتمع المدني المنفتح انفتاحاً حقيقياً ويقوم على مثل الغرب التى لا تتحقق بالكامل دائماً. وتحت اسمها، المنتدى الجديد، لم يقتصر ما قامت به على تقدم الجماعة (مع أنها لم تُمنح أية سلطات شرعية بمفردها) الحركة الشعبية التى لم تسقط النظام الشيوعي الألماني الشرقي، بقدر ما نظمت انهياره العفوي. وفى الوقت ذاته، وهو ما قد يكون أكثر أهمية، سعت وهي تقوم بذلك سعياً حثيثاً لرعاية طريقة جديدة على ألمانيا الشرقية فيها المجالس النيابية، ووسائل الإعلام المحلية، والنشرات الشعبية، والمجتمع المدني الذى عاد له الوعي، والانتليجنسيا النشطة التى تسعى للتعاون مع العمال الصناعيين (وإن لم يكن النجاح حليفها دائماً)، قد تقيم مجتمعاً مدنياً له نكهته الألمانية اليسارية المميزة. وكان ينبغي إرجاء التوحيد إلى أن يصبح بمقدور ألمانيا الشرقية أن تقدم قدراً أكبر من الشراكة المتكافئة والإصرار على مؤسساتها الديمقراطية المميزة.

وليس هناك ما يدعو إلى التعامل بشكل رومانسي مع المنتدى الجديد. فواقع الأمر أن

له أخطاء خطيرة، من بينها إساءة التقدير الفكرى التقليدى لما لدى الألمان الشرقيين من شغف إلى سلع الغرب التى كان يجرى الإعلان عنها باعتبارها مكاسب التوحيد الفوري. كما أنه عانى من وجهة النظر الرومانسية الخاصة بالطبقة العاملة التى لم تشارك قط مشاركة كاملة فى الجوانب المهمة من البرنامج، ومن تلك السذاجة القاتلة بشأن قوة ما كان يجعبد الصيغة الألمانية من عالم ماك: الأحزاب الألمانية الغربية التى على قدر كبير من النشاط، الشركات الإعلامية الألمانية والدولية ذات القوية، المصرفيون والمديرون المتلهفون الذين كان الشطر الشرقي بالنسبة لهم مساوياً لما كان يعد منذ قرون خلت القارة المفقودة المكتشفة حديثاً، وصانعو الآراء ومصلحو العقول القادرون على تعبئة طموحات الآخرين جميعاً فى عبوات ديمقراطية السوق ذات الشكل المغري.

ما أعقب ذلك لم يكن ذروة الكفاح. إذ سقط السور فى 9 نوفمبر 1989: وبعد ذلك بأربعة شهور فقط، أى فى 18 مارس 1990، حقق تحالف من الأحزاب السياسية الألمانية الغربية المحافظة بزعامة حزب المستشار هيلموت كول Helmut Kohl الديمقراطي المسيحي انتصاراً هائلاً، مما أدى إلى سحق الديمقراطيين الاجتماعيين-الذين كان مقدراً انتصارهم قبل ذلك بأشهر معدودة، لولا اتضاح أن التوجس من التوحيد كان أمراً مبالغاً فيه-حيث لم يحصلوا إلا على 22 بالمائة من مجموع الأصوات.(1) والأمر الأكثر أهمية هو أن بقايا المنتدى الجديد شكلوا ائتلافاً جديداً تحت شعار "تحالف 90 " مع غيرهم من مجموعـات الخضر والديمقراطيين المحلية ، ومنها "الديمقراطيـة الآن" و "مبادرة من أجل السلام" و "حقوق الإنســان" التى نظمهـــا المنشق السابق روبرت هافمان Robert Havemann الماركسي. غير أن تحالف 90 كان قد رفض رفضاً باتاً المشاركة فى حزب سياسي تقليدى وحصل على أقل من 5 بالمائة من مجموع الأصوات.

وإذا استعدنا ما سبق من أحداث، لوجدنا أن ما وقع لم يكن فى يوم من الأيام أمراً مشكوكاً فيه: كان تحالف 90 يدعو إلى "النهج الثالث" الصعب الذى يحتاج إلى جهد شاق، باعتباره بديل الاستهلاكية الرأسمالية والدكتاتورية الشيوعية الذى يحافظ على وجود كيان ديمقراطي ألماني شرقي. وكان أتباع كول من الديمقراطيين المسيحيين يقدمون البيرة والموز والسجق فى الاجتماعات السياسية، مبشرين بالتوحيد الفورى وإشباع الرغبات

العاجل. وطبقاً لما قاله ينز رايخ Jens Reich زعيم المنتدى الجديد، فإن "فرس النهر الألماني الغربي داس بأقدامه براعم الديمقراطية الألمانية الشرقية الوليدة." وقال ناخب آخر خاب أمله: "كنت أحلم طوال حياتي باليوم الذى ينهار فيه سور برلين. غير أنه لحظة أن فتحوه ، عرفت أن الثورة انتهت."(2) وفى صحيفة تاجيتسايتونج اليومية التى تصدر فى برلين، كتب رئيس التحرير آسفاً على ما حدث يقول "إن الألمان يحققون نجاحاً فى تحويل فرصة تاريخية عظيمة إلى تجربة من اليأس والخوف والحرمان".(3) وتساءل عمن سيتحمل ثمن ذلك الفشل التام.

الجميع يتحملونه بصورة أو بأخرى. ذلك أن ما حدث بعد ذلك لم يكن انتصاراً لديمقراطيي المنتدى الجديد المهزوم، ولا لفرس النهر التابع لرأسمالية السوق الألمانية الغربية الذى داس كل شيء. وبدأ التوحيد على نحو متسرع، حتى أنه قبل أن يرتد لأحد طرفه كان الشطر الغربي قد ابتلع الشطر الشرقي بكامله. والآن، وبعد مرور خمس سنوات، مازالت ألمانيا تعاني من عسر الهضم الاقتصادى المزمن. وفى الوقت نفسه، كانت هناك سلسلة من أعمال التطهير، التى امتدت إلى أعماق كبيرة، وعقوبات بالجملة، استهدفت تطهير جامعات جمهورية ألمانيا الديمقراطية السابقة ومحاكمها ومصالح الدولة من كل أثر للشيوعية، نُفذت بصورة عقابية شديدة الدقة بدا بجوارها برنامج القضاء على النازية بعد الحرب العالمية الثانية وكأنه استحمام بالإسفنج. ولو كان المتعاونون مع هتلر قد اجتُثوا بنفس الكفاءة التى اجتُث بها المتعاونون مع نظام جمهورية ألمانيا الديمقراطية والمتعاطفين معه، لكانت ألمانيا ما بعد الحرب قد حُرمت من طبقاتها المهنية والتجارية بكاملها.(4) ولو كانت ألمانيا بقيت بدون هؤلاء الموظفين، لكان عليها أن تستورد الكوادر القضائية والسياسية والإدارية من الخارج، خاصة وأن معظم الألمان المعادين للفاشية الذين تصدوا لهتلر، وربما كانوا بمثابة جماعة لم ينلها التلوث تتشكل منها حكومة ألمانيا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية، قد انضموا إلى النظام الشيوعي فى الشرق-ذلك النظام الذى يجرى حالياً إبعاد أبنائه وأحفاده عن مناصبهم.(5)

وخضعت ألمانيا الشرقية كذلك لحمّام الخصخصة الحمضي الاقتصادي، وهو السبب فى أنها تقدم مع روسيا دروساً مهمة بشأن الأثر المزعزع للاستقرار الذى يحدثه العلاج

بالصدمات. فطبقاً لتوجيه وكالة الائتمان التى تكونت خصيصاً (ترويهاند أنشتالت) (Truchandanstalt) ، قلصت ألمانيا الغربية الكثير من المصانع فى ألمانيا الشرقية أو أغلقتها-وهو التغيير الجذرى للوضع الصناعي الذى بلغ ثمنه فى نهاية الأمر ضياع 3 ملايين فرصة عمل، من بين 5.4 مليون فرصة عمل كانت موجودة فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية. والمرأة، التى توقعت معاملة متساوية وأجراً متساوياً كعاملة واهتماماً خاصاً كأم فى ظل الشيوعية (التى نجحت رغم كل طغيانها فى إنجاز القليل مما تتباهى به)، وجدت نفسها تحت رحمة سوق ليس لها اهتمام خاص بنوعية الجنس.

وفى الوقت الذى توقف فيه ترويهاند أنشالت عملياتها فى وقت ما من سنة 1995، تكون قد باعت أو صفَّت ما يقرب من خمس عشرة ألف شركة، بينها كل صحف ألمانيا الشرقية ومجلاتها الكبرى، التى استولت عليها منافساتها الغربيات وحولتها إلى منافذ للصحافة والرأى من الطراز الألماني الغربي. ولم يتبق إلا القليل من الأملاك المعروضة للبيع، منها بلدة أميريكا السكسونية (تعدادها مائة فرد) التى تروج ترويهاند لها-فمن الواضح أنها تعي قدرة عالم ماك الخاصة بمدن الملاهي-باعتبارها الموقع المناسب لـ "المنتزه الغربي البري". ويكاد يقتصر مشترو كل المواقع الصناعية فى ألمانيا على ألمانيا الغربية أو الخارج، وسوف يدفعون 122 مليار دولار ثمناً لأملاكهم الجديدة، بينما تكلفت ترويهاند 217 مليار دولار، الأمر الذى يحمِّل دافعي الضرائب الألمان ديوناً ضخمة.(6) ويقدر البعض أن يصل العجز إلى 275 مليار دولار قبل انتهاء الخصخصة.(7) ومن المنتظر أن يؤدى هذا، ومعه عجز فرص العمل ذو الآثار الاجتماعية السيئة، إلى المزيد من تأجج سياسة الاستياء التى أثارت الشرق على الغرب، والصغير على الكبير، والألماني على العامل الأجنبي، فى ألمانيا التى توحدت حديثاً.(8)

والواقع أن نظام الضرائب فى ألمانيا الموحدة به تفرقة ضد الولايات الشرقية الخمس التى تحصل بلدياتها على 85 بالمائة فقط مما تحصل عليه المناطق المناظرة فى الغرب . وطبقاً للوائح الاتحادية ، فواقع الأمر أن الولايات الغربية بإمكانها منع الولايات الشرقية من المشاركة فى عائدات الدولة التى أُعيد التى توزيعها .(9) ويبدو هذا وكأنه صورة ألمانية من سياسة الضم الخاصة بالطبقة الوسطى التى تحدث عنها رايخ ، حيث بات القطاع العام مفلساً نتيجة لانسحاب الأثرياء من المسئولية المدنية .

وإذا ما وضع هذا السجل المظلم فى الاعتبار، لما كان عليك أن تكون شيوعياً سابقاً كي تتفق مع زعم حزب من أجل الاشتراكية الديمقراطية بأنه "لم يحدث قط فى أيام السلم

أن دُمر هذا القدر الكبير من الثروة الاجتماعية". وهناك ما يكفي من الألمان الذين اتفقوا على دفع هذا الحزب الشيوعى الألمانى الشرقي الذى بدأ من جديد، لكى يحقق أداء مدهشاً فى الانتخابات الألمانية المحلية لسنة 1994، عندما فكر 40 بالمائة من ناخبي برلين الشرقية فى الأمر وصوتوا لمصلحة الحمر وانتُخب أحد الشيوعيين، وهو هورست ديتر براميج Horst Dieter- Brahmig ، عمدة لهويرزفيردا ليفوز على قوى كل الأحزاب الأخرى مجتمعة.(10) .

وقبل عامين من نتائج الانتخابات المذهلة هذه، كان الكثيرون من غير الشيوعيين قد انضموا إلى الشيوعيين السابقين لتكوين لجنة العدل التى أعلن برنامجها: "إن تدمير صناعتنا وزراعتنا، والبطالة الضخمة، والزيادة غير المحتملة فى قيمة الإيجارات، وإغلاق المؤسسات الاجتماعية والعلمية والثقافية والرياضية، وبيع ما كان فى يوم من الأيام ملكية 'الشعب'، وعدم الاعتراف بحقنا فى شغل الشقق والمنازل والأراضي، وتدمير الروح المعنوية لدى الناس فى الشرق، وخاصة النساء، قد أتى على الكثير من الآمال التى بعثها توحيد ألمانيا."(11) ومع أن اللجنة ضمت اشتراكيين ديمقراطيين (شيوعيون سابقون) مثل جريجور جيزى Gregor Gysi ، فقد شملت كذلك الزعيم الديمقراطي بيترام ديزتل Peteram Diestel ،وعمدة برلين الغربية السابق هاينريش لابيرتس Heinrch Labertz ، رئيس تحرير صحيفة برلين تاجيتسايتونج ، ميشائيل زونتهايمر Michael Sontheimer ، بالإضافى إلى بعض المنشقين الألمان الشرقيين السابقين مثل الكاتب شتيفان هايم Stefan Heym ومغنية الروك تمارا دانتس Tāmara Dantz .(12) ولم تنضم للجنة الفنانة باربل بولي Barbel Bohly ، التى لقبت بـ "أم الثورة" وقت انهيار النظام الألماني الشرقي، ولكنها مع ذلك احتجت قائلةً: "على مدى نصف قرن لم يكن مسموحاً لنا بتقرير ما نريده لأنفسنا. وفى تلك الأيام الخوالي، كنا إذا سألنا عن السبب وراء ضرورة أن تتم الأمور بطريقة بعينها، كان يُقال لنا 'ذلك لأنها تتم بهذه الطريقة فى الاتحاد السوفيتي المجيد'. والآن، ومنذ إتمام التوحيد، يُقال لنا انه لا بد من عمل كل شيء بالطريقة التى يتم بها فى ألمانيا الغربية."(13)

إن الألمان الشرقيين الذين تسلقوا السور، فى تلك الأيام التى تبعث على النشوة من عام 1989 ، يقيمون الآن فى تلك الأنحاء من برلين الشرقية التى لم توقع فيها البارات والبوتيكات الغربية عقود إيجار بعد. فهناك مازالت بارات الطبقة العاملة وبقالاتها القديمة لم يطرأ عليها تغيير كبير، سوى ماكينات القمار القريبة من الأبواب والبضائع الغربية غالية

الثمن، التى تزيح المنتجات المحلية الرخيصة شيئاً فشيئاً عن الرفوف. وكما حدث فى أماكن أخرى من أرض عالم ماك، حيث أدى توسع القطاع الخاص إلى استنفاد الدعم السياسي للقطاع العام، لم تعد الأموال العامة متوفرة لمشروعات التوحيد الحقيقي. وقد تم التخلي عن الأرض الفضاء الشاسعة فى ميدان بوستدامر بلاتس، التي كانت فيما مضى تضم السور وميادين الرماية الخاصة به القريبة من بوابة براندنبورج، للشركات الخاصة متعددة الجنسية مثل سوني ومرسيدس بنز من أجل الاستغلال التجارى الصرف، بينما نُحِّيت التنمية والمنافع العامة جانباً. ويتحدث سائقو التاكسيات عن "Kopf im Mauer" (سور داخل رؤوس الناس) يفصل الشرق عن الغرب فصلاً أكثر فاعلية (لأنه بدون أى قسر مرئي) مما كان عليه السور الحقيقي فى يوم من الأيام. ويتباهى أهل الغرب المعتدون بأنفسهم بقدرتهم على تمييز الألماني الشرقي السابق من مشيته". وهم يشترون سيارات الترابانت القديمة ذات العجلتين الشبيهة باللعب ليضموها إلى مجموعاتهم المرتبطة بالحنين إلى الماضي.(14)

والحنين إلى الماضي nostalgia –الذى حرف إلى ostalgia (الحنين إلى الشرق)– أدى إلى استرجاع الماضي استرجاعاً مستفزاً فى الشطر الغربي من ألمانيا، كما يتضح فى خطة فرانك جريجورى Frank Gregory المجنونة التى تستهدف إنشاء مدينة ملاه ألمانية شرقية ("Ossipark"). ويشعر الكثيرون من الألمان الشرقيين بنوع من العاطفة القومية تجاه السلع المحلية، بغض النظر عن رداءتها إذا ما قورنت بمثيلاتها الغربية. ويزعم 80 بالمائة أنهم يفضلون منتجاتهم التقليدية. والمشروبات التى تعود إلى العهد الشيوعي مثل Club Cola [كلاب كولا] و"Beer from Here" [بيرة من هنا] تتحدى منتجات شركات عالم ماك العملاقة، حيث تقول إعلاناتها "وفرحتاه، مازلت أحيا. كلاب كولا: هي الكولا الخاصة بنا." وتعرض المتاجر فى ألمانيا الشرقية سجائر ألمانية ديمقراطية "صنع الشرق" (F-6) التى مازالت تحتفظ بعلبتها وتوليفتها القديمتين.(15) إلا أنه من المفارقة أن F-6 تملكها فيليب موريس، وهي واحدة من عمالقة عالم ماك المتلهفة إلى تعويض سوق التبغ المتدنية فى أمريكا. وفى مذكرة تسويق خاصة بـ F-6 تتخللها سياسة تسليع الهوية، ذكَّر مدير فيليب موريس موظفيه أن العلامة التجارية "جزء من التاريخ الثقافى الألماني الشرقي وتمثل جزءاً مهماً من تكوين الهوية."(16)

بل إن الـ "Jugendweihe" عادت هي الأخرى: هذه الشعيرة المعادية للاكليروس الخاصة بمراسم الانتقال، التى كان الرواد الشيوعيون الصغار قديماً يحتفلون من خلالها بشبوبهم عن الطوق، جرى إحياؤها بناء على مطلب شعبي. وفى النصف الأول من سنة 1994 شارك ما يربو على سبعة عشر ألف من أبناء الرابعة عشرة فى عملية تثبيت التعميد. وخلافاً لما هو متبع فى أى مكان آخر، حيث يُسمح لهوليوود بطرد الإنتاج المحلي من على شاشات العرض، فإن الأفلام الألمانية الشرقية مثل "أسطورة بول وبولا" الذى أُنتج سنة 1973 تُعرض من جديد. ويمثل جزء كبير من هذه العقلية الإحيائية رد فعل مقابل للصلف الغربي الملحوظ يرتبط بالاستياء الذى تتميز به قبائل الجهاد الغاضبة. وحذرت إحدى شركات أبحاث السوق من أن "الصورة التى لدى الألمان الشرقيين عن الألمان الغربيين على قدر من السلبية يجعل كلمة الرفض لا تصفها حق الوصف. وقد تكون الكراهية هي الأقرب."(17) هل فى الأمر ما يدهش حقاً لأنه فى سنة 1991 عندما أجرت صحيفة "فرانكفورتر ألجماينه" استطلاعاً بات مشهوراً الآن حول ما هو الشكل الأفضل للحكومة، أجاب ثمانية من بين عشرة ألمان غربيين بأنه الديمقراطية، بينما لم يقل ذلك سوى ثلاثة من كل عشرة ألمان شرقيين؟ قال 82 بالمائة من الشرقيين إنهم يعتبرون أنفسهم مواطنين من الدرجة الثانية فى وطنهم الديمقراطي الجديد. وهي نسبة مفزعة.

وتتحالف التحيزات والتجارة العدوانية الألمانية الغربية لتدمير الثقافةالألمانية الشرقية المنشقة والتقليدية. ففي صيف 1990، وبُعيد الانتخابات وبعد ستة أشهر من انهيار النظام الألماني الشرقي، اكتشف الصحفيون الذين ذهبوا إلى كوميليتس القريبة من لايبزج حريقاً ضخماً للكتب. فقد أضُرمت النار فى عشرة ملايين كتاب، بينها مجلدات لمؤلفين منشقين أمثال فولف Wolf وشتيفان هايم وهيرمان كانط Heermann Kant وأنا سيجرز Anna Seghers –ليس كعمل من أعمال القمع السياسي، وإنما كنوع من التخلص الفورى والنهائي لمخزون الكتب التى لم يشأ الناشرون التعامل فيها. كانت الكتب القديمة رخيصة وجادة. أما الجديدة فغالية وتافهة. المكتبات الجديدة فى الشرق فيها مما كتبه ستيفن كنج Stephen King أكثر مما لشتيفان هايم، وهي تفضل الأدلة السياحية وأدلة الضرائب على

المؤلفين الكلاسيكيين. الكتب التى كانت فى يوم من الأيام تساوى 4 دولارات، قيمتها الآن 30 دولاراً (إيجار شهر كامل فى ألمانيا الشرقية السابقة).[18]

وعلى عكس النشرات الراديكالية والمجلات السياسية التى ينشرها الكُتّاب السريون، تتحاشى المجلات الجديدة المملوكة للغرب الموضوعات السياسية بالمرة. ويصف لوبوس بنياك Lubos Beniak رئيس تحرير مجلة "ملادى سفيت" الأسبوعية التشيكية التغيرات الشائعة فى وسط أوروبا قائلاً: "سئم الناس السياسة. إنهم يريدون أن يُرَفَّه عنهم، ويريدون صحافة شيك، بل يريدون كتابات تافهة."[19] وكان روبرت مردوخ قد اشترى أشهر صحف المجر الراديكالية "ريفورم"، التى يصل توزيعها إلى 400 ألف نسخة سنة 1990. وفى سنة 1992، اعترف بيتر توكى Peter Toke قائلاً: "كان الأمر مثيراً فى ظل الشيوعيين، وكان أسهل مما هو عليه الآن، لوضوح ما يجب أن يهاجَم. إننا نعيش فى أزمة هوية منذ الثورة، ومستر مردوخ ليس سعيداً بحال من الأحوال." ويتطلع رؤساء التحرير الألمان الجدد إلى "نقاد موسيقى الروك المقروئين،والعناوين المسلية، والكلمات المتقاطعة الجيدة ...والإعلانات المبوبة."[20] وينبغي أن يهدئ هذا مستر مردوخ.

إن استمرار وجود الصدع الشرقي-الغربي داخل ألمانيا، ومعه التكاليف التى فرضتها الخصخصة على الشرق، حيث تشير الإحصاءات الرسمية إلى أن معدل البطالة تعدى 16 بالمائة، بينما المعدل الحقيقي يزيد على 30 بالمائة، له آثاره الخطيرة. وكذلك الحال بالنسبة لمعدلات المواليد المتدنية، التى هي أشد انحداراً من مثيلاتها فى روسيا. ففي ألمانيا الشرقية فيما بين عامي 1989 و 1993 هبط المعدل بالنسبة للألف بمقدار 60 بالمائة، فى حين زاد معدلات الوفيات زيادة كبيرة، مما دفع عالم الإحصائيات السكانية نيكولاس ايبرشتات Nicholas Eberstadt إلى التحذير من أن التحول من الاقتصاد الموجه إلى نظام السوق الحرة سوف يستلزم إجراء "تعديلات واسعة النطاق وغالباً ما تكون مؤلمة."[21] إلا أن هذه الإحصائيات المفزعة لا تروى كل الحقيقة. فالخصخصة سوف تؤدى فى نهاية الأمر إلى تحسين المنتج الصناعي، وسوف تتيح الأسواق لمن لم تكن لديهم سلع فى يوم من الأيام الفرصة كي يحصلوا عليها. وسوف يفرض التوحيد شيئاً فشيئاً واقعاً لا قِبَل للاستياء بمقاومته. غير أن ما يوحي به الوضع فى ألمانيا هو على وجه الدقة

ما يثبته الوضع فى روسيا: وهو أن أسواق عالم ماك، المرتبطة هنا بالعملاق السياسي والاقتصادى الألماني الغربي، لم تخلق مجتمعاً مدنياً ديمقراطياً، وربما لن يكون فى مقدورها أن تخلقه. وواقع الأمر أنها ساعدت فى ألمانيا الشرقية على تدمير مجتمعاً مدنياً ديمقراطياً وهو بعد فى مهده. إن عالم ماك هو المشكلة وليس الحل.

الفصل التاسع عشر
ضمان الديمقراطية الكونية
داخل عالم ماك

الدليل الذى نستخلصه من روسيا وألمانيا يبرز مثالب الأسواق كأوعية للتحول الديمقراطي. غير أن الأسواق ليست سوى جزء من المسألة. وقد أتى عالم ماك معه كذلك بالتجديدات التكنولوجية فى قطاع الاتصالات الإعلامى الترفيهى، وهي أقل ضرراً للديمقراطية. وما قاله بيكون Bacon قديماً عن أن المعرفة هى القوة، وأنه من خلال العلم يمكننا السيطرة على العالم، ذلك الاعتقاد بأن تحسين عقول الناس وتحسين نصيبه هما فى نهاية الأمر الشيء نفسه، كان فى صميم إيمان التنوير الثابت بأن العقل الذى يجسده العلم والتكنولوجيا يمكنه تحرير الجنس البشرى من الهوى والجهل والظلم – ويمكنه فى آخر المطاف أن يحرر النساء الرجال ويمقرط مؤسساتهم الاجتماعية. وما والتر ب. ريستون إلا آخر حشد علماء المستقبليات المتفائلين الذين جاد بهم عصر التنوير، من كوندورسيه Condorcet إلى ألفين توفلر Alvin Toffler ، ونظموا قصائد غنائية للقوى التحررية الديمقراطية الخاصة بالتكنولوجيا الجديدة المذهلة، التى تحرك عالم ماك وحولت الرأسمالية من نظام يلبي الحاجات إلى نظام يخلقها ويوجهها. وفى كتابه "أفول السيادة" جعل ريستون عنوان الفصل الأخير "السلطة للشعب". وفيما يبدو تصديقاً منه للميثولوجيا الخاصة به، يمضي قائلاً إن "عصر المعلومات يعطي السلطة للشعب على نحو سريع..." وهو ما يسرع بنا فى "رحلتنا نحو المزيد من الحرية الإنسانية."(1)

ومن المؤكد أن كبار المسئولين عن التكنولوجيا مصيبون فى رؤيتهم للمعلومات والاتصالات التى شهدت تحسناً على أنها لازمة لتحسين الديمقراطية. فمنذ أيام الإغريق، الذين كانوا يؤمنون بأن سرقة بروميثيوس للنار من الآلهة أضاءت الطريق للحضارة البشرية (وإن كان للمآسي كذلك)، والأدوات التكنولوجية تُصنع لدعم التحول الديمقراطي. ففي أثينا القديمة، كانت الآلات الصغيرة، التى تختار كريات بيض وسود اختياراً عشوائياً، تُستخدم فى اختيار المحلفين. وفى عصر النهضة (كما لاحظ بيكون)، غيرت حروف

الطباعة والبارود والبوصلة المجتمع من خلال مقرطة العلم (حيث استطاع الناس جميعاً القراءة، ولم يحتفظ أى من رجال الدين أو الأمراء باحتكارهم للكلمة ذات السيادة)، وتسوية النزاع (لم يعد درع الفارس الأرستقراطي ضماناً للسيادة على الرجل العادي، طالما أن كل إنسان لديه بندقيته)، ويفتح عالم جديد من الاستكشاف أمام الجميع (وفرت الملاحة للجميع تأشيرة خروج من العبودية الموثقة والاضطهاد السياسي). وفى الوقت المناسب، وقد مر زمن طويل على وفاة بيكون، أتاح الراديو والتلفزيون وأخيراً أجهزة الكمبيوتر التى تُنتج إنتاجاً ضخماً مقرطة الكلمة التى تتلقى تعزيزاً تقنياً مستمراً، مما أدى إلى نشر العلم والمعرفة السياسية وزاد من كفاءة الناخبين الديمقراطيين ذوى الأسس المتينة وقوة إرادتهم.

وفى إطار التراث نفسه، يمكن لطريق المعلومات السريع المقترح أن يتيح بقوة لكل امرأة ورجل على ظهر الكرة الأرضية الوصول إلى ما لا حد له من بنوك المعلومات، ويمكنهم من تبادل الآراء مع كل أرجاء العالم. ويمكن أن تجمع لوحات النشرات الإلكترونية الأفراد ذوى الأفكار المتشابهة حول اهتماماتهم المشتركة، وتقدم بُنى للمناقشات الجماعية لمن تنقصهم القيم المشتركة. وتسمح إمكانيات التحاور من خلال أجهزة الفيديو لاجتماعات المدن المحلية بالتفاعل مع الاجتماعات المشابهة عبر منطقة من المناطق، أو دولة من الدول، أو على مستوى العالم، محطمة بذلك إقليمية التفاعل وجهاً لوجه دون التضحية بشخصانيتها. كما أن التلفزيون التفاعلي يحول وسيلة سلبية كانت تستهدف مستهلك الترفيه والإعلان الراغب فى التسلية إلى مسرح فعال للخطاب الاجتماعي و استرجاع المعلومات السياسية، مما يتيح إمكانية إجراء استفتاءات عالمية للخيارات المتعددة من البيت. وقد وضعت أطباق القمر الصناعي التى فى حجم صحون العشاء أذناً كونية تحت أمر الشعوب التى حُبست فى أشد الأنظمة الحاكمة استبداداً، كما أثبتت أن لها قيمة فى أماكن مثل الصين وإيران، حيث لم تتوقف عن الانتشار رغم الحظر الحكومي الرسمي- وتنشر فى الوقت ذاته صوراً شديدة الجاذبية للمستهلكين المتعطشين للمعلومات.(2)

وهذه التقنيات مجتمعة قادرة على تعزيز الاتصال الجانبي فيما بين المواطنين، وفتح سبل الوصول إلى المعلومات على إجماعها، وتزويد المواطنين بحلقات الاتصال عبر

المسافات التى كانت من قبل تحول دون الديمقراطية المباشرة أو التفاعل من أى نوع كان. وإذا كان مجال الديمقراطية القديمة محصوراً فى المنطقة التى يمكن للإنسان أن يجتازها سيراً على قدميه خلال يوم وهو فى طريقه لحضور الاجتماع، فإن الاتصال عن بعد بسرعة الضوء أحال الكرة الأرضية بأسرها إلى بلدة من الجيران المحتملين تربطها الأسلاك-إنها قرية ماكلوهان McLuhan الكونية.والواقع أنه إذا فهمنا الديمقراطية على أنها نشاط يقوم على التروى والمشاركة من جانب مواطنين مسئولين، فهي لا بد أن تقاوم أشكال الديماجوجية المبتكرة المصاحبة للتكنولوجيا المبتكرة. إذ قد يؤدى التصويت من البيت عن طريق الفيديو إلى مزيد من خصخصة السياسة، ويستبدل التعبير الفورى غير المتروى عن الإحن الخاصة بالمناقشة المتروية التى تتم فى العلن. فالديمقراطية لا تدعو إلى التصويت فحسب، وإنما إلى الأسباب الوجيهة، ولا إلى رأى ما وكفى، بل إلى الجدل العقلاني باسمها. إن راديو الأحاديث وتلفزيون الصراخ قد خفضا قيمة عملتنا السياسية. وقد تعزز التقنيات الجديدة هذا الاتجاه وقد تحول دونه، ما لم نخضعها لاختبار الكفاءة المتروية.

وفى هذه الحالة، لا بد من التعامل مع المثالية المستقبلية بشيء من الريبة. فتاريخ العلم والتكنولوجيا فى أفضل الأحوال تاريخ التناقض الوجداني. وفى كل الأمثلة التى أخضعناها هنا للبحث، يمكننا الحديث فقط عن الاحتمال وليس عن الواقع. إن سيف التكنولوجيا ذا الحدين معروف لدينا على الأقل منذ الوقت الذى روت فيه مارى شيلي Mary Shelly قصة مسخ الدكتور فرانكنشتاين. والتقنيات التى لدينا اليوم لها احتمالات بنفس القدر الذى تخيلته من الفظاعة.

إن تكنولوجيا الاتصالات قادرة على تقوية المجتمع المدني، غير أنها فى الوقت نفسه يمكنها القيام بأعمال مراقبة لم يسبق لها مثيل، ويمكن استخدامها للإعاقة والسيطرة وكذلك للوصول إلى المعلومات. ولو تُرك أمر هذه الوحوش للسوق، حيثما يترك عالم ماك التكنولوجيا، فقد ينتهي بها الأمر إلى أن تصبح ذات نفوذ غير مقيد يحقق لها أرباحاً طائلة. وكما لاحظنا من قبل، ليس للسوق أى مصلحة بعينها فى إمكانيات التكنولوجيا المدنية- ما لم تدر ربحاً لا باس به (وهي فى العادة لا تفعل ذلك). وعندما تكون الربحية هي الهدف الأساسي، فقد يعزز الابتكار التكنولوجي ما هو قائم من عدم مساواة، مما يجعل فقراء

الموارد والدخول فقراء معلومات كذلك. إن معرفة الكمبيوتر أصبحت فى أهمية معرفة اللغات والحساب فى سوق الوظائف، وقد تصبح مهمة للمعرفة المدنية أيضاً. وتقسيم العمل إلى عمال تحليل رمزيين وعمال سلع معمرة تقليدية وخدمات، قد يعجل فى واقع الأمر بنمو عدم المساواة الاجتماعية فى أمريكا.

وقد رسم روبرت رايخ صورة أمريكية تثير القلق فيها عمال المعلومات/الاتصال المميزون يسحبون الدعم من المجتمع الكبير أكثر وأكثر. وتحليله القاتم هذا يصورهم وهم ينتقلون إلى الضواحي المنعزلة ويشترون لمجتمعاتهم خارج المدن خدمات الترويح والتعليم والأمن والصحة الخاصة، التى يعجز الجمهور بصفة عامة عن توفيرها. وهم بذلك فى وضع يجعلهم يرفضون دفع الضرائب للخدمات العامة المتدنية التى لم يعودوا فى حاجة إليها. ويؤدى انسحابهم (الذى يسميه رايخ سياسة الانفصال) إلى جعل الفقراء أشد فقراً، وتعطل القطاع العام، ويصبح المجتمع أكثر تمزقاً بسبب التفاوت الاقتصادي.(3) ونرى نمطاً مشابهاً من "الانفصال" خاصاً بالصفوة الرمزية على المستوى الكوني، حيث تتنصل الدول الصفوة من مسئولياتها العامة الكونية بنفس السرعة التى يتنصل بها الصفوة من المهنيين من مسئولياتهم العامة داخل الدول الصفوة. ويصبح العالم الثالث سلسلة من الجيتوهات الحضرية داخل كل مجتمع عالم أول، وكذلك سلسلة من جيتوهات الدول الفقيرة داخل المجتمع الدولي. إن "إعادة هيكلة" الاقتصاد الكوني لتلبية حاجات قطاع معلومات/ترفيه العصر الجديد يعزز الحدود بين المميزين وسواهم أكثر وأكثر.

وحتى عندما ننحي القضايا الاجتماعية والطبقية جانباً، فإن السوق التى تعمل بالتكنولوجيا يمكن أن تكون لها عواقب وخيمة. فالتكنولوجيا يمكنها بنفس السهولة أن تصبح أداة قهر وذلك أداة تحرير. وشعر تورو Thoreau بالقلق من مدى سهولة أن نصبح "أدوات لأدواتنا". والأدوات الجديدة الخاصة بعصر إلكترونيات ما بعد جوتنبرج تؤكد مخاوفه. فالتلفزيون التفاعلي أداة مراقبة شديدة البأس: حيث يبلغ المشترون شبكات التسويق بما يريدون شراءه، ويبلغون البنوك كيف توزع أموالهم، ويبلغون رأيهم فى الإجهاض لمن يجرون استطلاعات الرأي، ويصل من يتلقون المعلومات إلى كتالوج موسع يحتوى على معلومات بشأن عادات المستهلكين الخاصة ومواقفهم وسلوكياتهم. وهذه

المعلومات بدورها تُستخدم لإعادة تشكيل هذه العادات والمواقف بطرق ترضي المنتجين والبائعين الذين يتحكمون فى السوق. وهذه الحمى الحالية المعادية للتنظيم تعني أن بنوك المعلومات الجديدة، التى يجرى تجميعها من التفاعل والمراقبة، لا تخضع للتمحيص الحكومي، ولا للتحديد، ولا للإشراف (كأن يجرى تدمير المعلومات بشكل دوري). وكان قانون الاتصالات الفيدرالى لسنة 1934 قد وعد بـ "تشجيع استخدام أكبر وأكثر فاعلية للراديو للمصلحة العامة"، ولكن تزايد قنوات البث عبر المجال الإلكتروني جعل الحكومة تسحب وجودها التنظيمي.

وينادى فريد فريندلي منذ عدة سنوات بـ "مشروع قانون إلكتروني للحقوق"، غير أن الحكومة تسير فى الاتجاه المعاكس، حيث التزمت حكومة كلينتون، رغم إيمانها الظاهر بفتح سبل الوصول، بالسماح للسوق بالتحرك دون أن يكون هناك حد أدنى من التنظيم. وما زالت "موجات الهواء العامة" تباع بالمزاد للبائعين الخاصين الذين يعيدون بيعها بأثمان باهظة للجمهور أثناء الحملات الانتخابية–مما يزيد تكاليف الديمقراطية واعتماد الانتخابات على المال، فى نفس اللحظة التى ابتعدت فيها الحكومة عن التنظيم. ويعطي قانون الكيبل لسنة 1984 مانحي الامتياز المحليين (المدن الكبيرة والصغيرة) وليس الحكومة الفيدرالية أو حكومات الولايات حق الإشراف على الكيبل، وهو ما يعني فى حقيقة الأمر التخلي عنه لقوى السوق التى أظهرت قدراً ضئيلاً من الاهتمام بالاحتياجات العامة.(4) وفى سنة 1994، تقدم السيناتور اينوى Inouye للكونجرس بمشروع قانون يوجه لجنة الاتصالات الفيدرالية إلى المطالبة بعمل "حجز للاستخدامات العامة لسعة شبكات الاتصالات". وكان هدفه أن يضمن للجمهور صوتاً ما فى تطوير طريق المعلومات السريع. ولقي مشروع قانونه القليل من اهتمام الصحافى ولم يتلق موافقة فى نهاية دورة الكونجرس رقم 103. وأدى الخوف من الحكومة إلى تعجيز الممثل الوحيد للجمهور عن توجيه التقنيات الجديدة إلى القنوات العامة. ونموذج القناة واحد، وهي شبكة خاصة بقاعات الدرس (بدأتها ويتل كوميونيكيشنز وتسيطر عليها الآن كيه ثرى كوربوريشن) تبتز وقت الإعلان فى قاعات الدرس من المدارس التى بحاجة إلى المال مقابل تقديم المعدات التى تحتاجها بشدة، يوحي بأن الجمهور قد تخدمه التقنيات الجديدة فقط إذا كان هناك من يحقق مكاسب مالية كبيرة من وراء ذلك.(5)

ربما تكون القضية قضية إشباع رغبة، حسبما يؤكده والتر ريستون. ذلك أن المواطن هذه الأيام هو الذى يراقب الأخ الأكبر وليس العكس. ومن المؤكد أنه فى معظم المجتمعات ما بعد الشيوعية، كما فى مجتمعات السوق التى نعيش فيها، لم يعد الأخ الأكبر يراقبك. غير أنه فى الوقت نفسه لا يراقب من يراقبونك. بل إن المعارضين للتنظيم قد يجدون سبباً لانزعاجهم من تلك اللامبالاة. وإذا كان *السؤال الليبرالى التقليدى الذى كنا* نسمعه هو من الذى سيراقب الشرطة وينظم عملها، فإن السؤال الليبرالى وثيق الصلة بما هو عليه عالم ماك فى وقتنا الحالي ينبغي أن يكون من الذى سيراقب هؤلاء الذين يراقبوننا؟ من الذى سيمنع وسائل الإعلام من السيطرة على زبائنها ومستهلكيها؟ من الذى سيكون بمثابة بديل للحكومة التى تقاعست عن تمثيل مصالح الجماهير؟

ربما كانت أسباب شعورنا بالقلق أقل لو كانت أسواق التكنولوجيا والاتصالات متنوعة بحق ومتنافسة بالفعل. إلا أن ما نراه هو أن تجميع الشركات متعددة الأنشطة الذى ركز على عمل البرامج، والمعلومات، والاتصالات، والترفيه، يوحي بأن ما كان يوماً الأخ الأكبر قد تقزم حجمه بفضل "ماما بيل" [شركات الاتصالات] وأطفالها الذى فاق نموهم الحد ويشترون الآن سوق الكيبل، ويحاولون شراء شركات الترفيه وإنتاج البرامج بأسرع ما يمكن. وهم يهدفون من ذلك إلى أن يظلوا قادرين على منافسة شركات مثل تايم وارنر. وبناء على ذلك اشترت شركة يو إس ويست حصة أقلية لها أهميتها (ومعها توشيبا و سي ايتوه) فى ستوديو وارنر براذرز للسينما و هوم بوكس أوفيس ، لمجرد أن تجعل تايم وارنر تمتلك كيبل فيجين (2.2 مليار دولار) وهيوستن اندستريز (3.2 مليار دولار) فى سنة 1995، وبذلك تكون لها السيطرة. وكلما اشتد إصرار الحكومة الأمريكية على الابتعاد عن فتح طريق معلومات سريع للسوق الحرة، كان عزم الشركات متعددة الجنسية أقوى على محاولة الدخول. وإذا لم تتمكن من الاستيلاء بالكامل على الطريق الرقمي الرئيسي، فأضعف الإيمان أنها تطمح إلى السيطرة على مداخله ومحطات تحصيل الرسوم الواقعة عليه.

ولا ينبغى أن يكون الديمقراطيون محطمي ماكينات، على غرار ما صار إليه المحاربون القبليون المتلهفون التابعون للجهاد. فهم لا يسعهم جعل التكنولوجيا والحداثة أعداء لتقرير المصير والحرية. إن التكنولوجيا أداة محايدة: فهى إن تحالفت مع الديمقراطية أمكنها

تعزيز الاتصال المدني وتوسيع مدارك المواطنين. أما إذا تُرك أمرها للسوق، فقد تؤدى إلى تضخيم ضرورات عالم ماك الأقل قيمة، ومنها مراقبة الرأى والسيطرة .عليه، ورعاية الحاجات الاصطناعية المتأصلة فى "خيارات" أسلوب الحياة دون أن يكون لها أية صلة بالحاجات الاقتصادية أو المدنية أو الروحية الأصيلة.

ومن وقت ليس بالبعيد رأى المؤرخ بعيد النظر ج. ج. أ. بوكوك A .G .JPocock. أن[اليوم نجد] أنفسنا فى عالم ما بعد صناعي وما بعد حداثي، كثر فيه من هم بيننا من مستهلكي المعلومات وقل منا من ينتجون أو يعدون أى شيء، بما فى ذلك هوياتنا. وعندما يصبح عالم من الأشخاص والأفعال والأشياء عالماً من الأشخاص والأفعال والتراكيب اللغوية أو الإلكترونية التى لا مؤلف لها، يصبح من الأسهل على الأشياء-التى صارت أشد بأساً لأنها لم تعد أصيلة-أن تتكاثر وأن تتولى مسئولية الأشخاص والأفعال الذين لم يعودوا يسيطرون عليهاهى، أو يقررونها، أو حتى ينتجونها، وتسيطر عليهم وتقرر مصيرهم.(6)

العـالم الذى وصفه بوكوك هو عـالم ماك - وهو ما أسمـاه نيـل بوستمان Neil Postman ، الذى انتقد كذلك الطغيان الذى مارسته التكنولوجيا على صانعيها، technop-oly [استبداد التكنولوجيا]. وتوحي كلمة technopoly بـ "خضوع كل أشكال الحياة الثقافية لسيادة التقنية والتكنولوجيا". (7) وبوستمان ليس مؤمناً بالحتمية التكنولوجية ويعترف بأن التكنولوجيا يمكن أن تكون صديقاً وعدواً فى آن واحد. ولكن بتحررنا من خياراتنا الديمقراطية المشتركة وتسليم أمورنا للسوق، يزداد احتمال مواجهتنا للعدو على لقائنا بالصديق. وربما كان هذا هو السبب فى اعتقاد جون بوكوك بأن المفتاح إلى العيش فى العالم ما بعد الحداثي ما بعد الصناعي هو العثور على "وسائل تؤكد أننا مواطنون ...وأننا أشخاص ونشارك الأشخاص الآخرين ليكون لنا صوت وفعل فى صنع عوالمنا". (8)

والكثيرون الذين يتشككون فى عالم ماك هاجموا ماديته الطاغية على وجه الخصوص. ومن هؤلاء المؤيدون التقليديون للجهاد الأخلاقي ضد ثقافة الغرب الاستهلاكية، مثل الكسندر سولجنيتسين أو إخوانه الإسلاميون الأكثر نضالاً، وكذلك بعض أشد منتقدى الجهاد غلظة مثل زبجنيو بريجنسكي Zbigniew Brezezinski الذى ألقى باللائمة فيما يتعلق بإغراءات القبلية على "وفرة" الغرب "المباحة" التى تولد إشباع الذات المادى و "واقعاً

ثقافياً مهيمناً" يحدده "التصاعد الديناميكي للرغبة فى المتعة الحسية والمادية".(9) والأطفال الأمريكيون من أبناء المدن الصغرى الواقعة فى الحزام الزراعي، الذين تميل آذانهم نحو أغنية السيرانة المغوية الآتية من مراكز التسوق والمراكز التجارية الحضرية الواقعة على بعد أميال، لا يختلفون عن الروس الذين عاصروا الشيوعية ويستسلمون للتنويهات التجارية المُلحّة التى تأتيهم متلاحقة مما لديهم من أجهزة التلفزيون اليابانية الجديدة. "إن والدى يأبى حتى أن نستقبل ام تي فى ." تلك هي شكوى مراهق من نبراسكا أصدقاؤه "يرون المركز التجارى على أنه المزار العظيم الذى يؤمه سائر الناس، وليس لديهم واحد مثله".(10) وبذلك ينتهي الحال بالطفل القادم من نبراسكا والطفل القادم من سمولنسك فى لوس أنجلوس أو سانت بطرسبورج، حيث أُزيلت الثقافة المميزة، التى ربما ارتبطت بشبابهما، وحلت محلها فيديولوجيا عالم ماك التى تختلف اختلافاً تاماً عن التنوع والديمقراطية.

ومثل هذه المواقف والسلوكيات ناتجة عن استراتيجيات عالم ماك وتتسبب فيها بالقدر نفسه. كما أنها تفسر التحالف ضد ثقافة عالم ماك الكونية الذى شكله محاربو الجهاد- ذلك التحالف الذى يجعل من القبليين ما قبل الحداثيين والمتطهرين ما بعد الحداثيين علة مشتركة. فهل هؤلاء الذين يسيرون فى ركاب الجهاد، من المتحمسين الثائرين، مجانين بحق فى استهجانهم للمادية، ودعوتهم لأنماط من العيش تتناسب مع الروح الإنسانية؟ كم هي مختلفة تلك اللغة التى يستخدمونها عن ذلك الجدل المتقشف والعلماني الذى يروج له بحماس شديد فاتسلاف هافيل Vaclav Havel ، الذى لم يدع شهرته ككاتب ساخر تطغى على التزامه الصريح بإقامة رابطة قوية بين السياسة وخدمة الآخرين؟ فهافيل يدعو إلى الوعي بـ "النظام السرى للكون" الذى يجعل "الوعي الحقيقي والمسئولية الحقيقية...قابلين للتفسير باعتبارهما تعبيراً عن الافتراض الصامت بأننا نراقَب من أعلى"".(11)

وتمثل الشكوى من عالم ماك جزءاً، ليس من أسواقه ذات الدوافع الاستهلاكية وأوامره التكنوقراطية، بل من فضائه كأساس لوجود أخلاقي له مغزاه. ومثل هذا الغياب يتحول إلى اغتراب مدني شديد، يفصل الأفراد عن مجتمعاتهم، ويعزلهم عن مصادر وجودهم غير المادية. إن المواطنة ليست علاجاً للعلة الروحية، وإنما العلة الروحية هي التى تقف حجر

عثرة فى سبيل المواطنة . ذلك أنها تعوق القدرة على خلق مؤسسات الاجتماعية التى يجب أن يرتكز عليها أى مجتمع مدني وأى ثقافة ديمقراطية.

وكما رأى روبرت بوتنام، وكان حصيفاً فى رؤيته، فإن "معايير الارتباط المدني وشبكاته تؤثر فى الوقت ذاته تأثيراً قوياً على أداء الحكومة النيابية". ذلك أنه عندما يبدأ الناس لعب البولينج منفردين، بدلاً من أن يلعبوا معاً فى منافسات، فإن مثل هذا النشاط، على بساطته، قد يمثل مشكلة للديمقراطية.(12) لهذا قال هارى بويت Harry C.Boyte وغيره من مؤيدى تجديد المواطنة إننا نتعلم كيف نكون مواطنين أول ما نتعلم ليس فى السياسة، وإنما فى "الفضاءات الحرة" بالمدرسة، والكنيسة والنادى ورابطة الشبان المسيحيين.(13) أما ثقافة الإعلان، وبرامج الكمبيوتر، وأفلام هوليوود، وام تي فى ، ومدن الملاهي، والمراكز التجارية، التى يربطها جميعاً ببعضها رابطة طريق المعلومات السريع، فتغلق الفضاءات الحرة. ومثل هذه الثقافة تدخل بلا جدال فى عملية تشكيل شيء كوني: ومهما كان هذا الشيء، فلن يكون الديمقراطية. ولأن الديمقراطية تقوم على المجتمع المدني والمواطنة، وحيث أن تقنيات الاتصالات الجديدة لا تبغض بالضرورة أياً منهما، فهي لا تنتج أياً منهماً ما لم يوجهها لذلك المواطنون الذين يعيشون بالفعل فى مجتمع مدني ويخلصون له.

أمجتمع مدني كوني؟

الدولة القومية ، باعتبارها إطاراً للديمقراطية، أصابها الوهن من جهتين: فتحديات عالم ماك الكوني والجهاد الإقليمي لا تقبل منها أى تدخل. كما أن تكنولوجيا حرية العمل المصاحبة لعالم ماك، وأصبحت وصفة سحرية بالنسبة لمؤيديه داخل الحكومة القومية، تدمر ما تبقى من قدرات قد تكون لديها لتستخدمها فى العمل باسم المصلحة العامة. وواقع الأمر أن السيادة تتضاءل ، حيث يدفع بها إلى عالم الظل ما لا يُحصي من نقائص الحكم ما بعد الحداثية – الشيوعية السابقة وما بعد الصناعية على السواء. وفى الشرق ما بعد الشيوعي، يرتبط الحكم ارتباطاً قوياً بالاستبداد الشمولي : فالحديث عن المواطنين ما زال يعيد إلى الأذهان لغة الرفاق وكتّاب الحزب المخلصين. وفى الشرق الديمقراطي، مازال

الحكم يُعرف بالبيروقراطية والعجز والطبقة السياسية المحترفة التى فقدت الشعوب فى كل مكان ثقتها فيها، وقد يكون من أسباب ذلك أنها فقدت الثقة فى نفسها. وإلى أن نستعيد مؤسساتنا العامة ونعيد لها سلطاتها كبدائل لنا، فسوف يكون الحكم وتقنيات اتصالاته جزءاً من العالم الغريب الذى نواجهه - أو بعضه بالأحرى -بدلاً من أن يكون أداة يمكننا بها مواجهته. وجعل الحكم خاصاً بنا يعني إعادة تشكيل مواقفنا المدنية ، الأمر الذى يمكن حدوثه فقط فى مجتمع مدني نابض بالحياة، وترتبط فيه المسئوليات والحقوق ببعضها فى شبكة غير موصولة من الحكم الذاتي المشترك.

وفى الوقت نفسه، تتطلب الديمقراطيــة مؤسســـات جديدة ما بعد دوليـــة state-post -nation ومواقف جديدة أكثر اهتماماً بالمسئولية المباشرة التى يتحملها الناس من أجل حرياتهم. ومن المؤكد أن الحكم الكوني، والحكم الكوني الديمقراطي فى المقام الأول، يظل حلماً بعيد المنال. غير أن أنواع المواطنة الكونية اللازمة لنموه أقل بعداً. فالمواطنة تنمو أول ما تنمو فى المجتمع المدني الديمقراطي. وأى مواطنة كونية بحاجة إلى منطقة نفوذ موازية لمنطقة عالم ماك، التى تقوم فيها مجتمعات التعاون بوعي ومن أجل المصلحة العامة بما تقوم به الأسواق فى الوقت الراهن دون قصد بالنيابة عن المصالح الخاصة المجمعة. وهذه ليست بالمهمة السهلة. فمنذ ما يزيد على الستين سنة، رأى جون ديوى John Dewy أن المشكلة هي تعريف الجمهور الديمقراطي. وقد كتب يقول "ليست المسألة هي عدم وجود جمهور، أو عدم وجود مجموعة كبيرة من الأشخاص الذين يجمعهم اهتمام مشترك بعواقب التحولات الاجتماعية. هناك جمهور غفير. جمهور شديد التشتت، والتبعثر، وتعقيد التركيب. وهناك كذلك الكثير من الجماهير. ذلك أن الأعمال المشتركة التى لها عواقب غير مباشرة وخطيرة وباقية، هي أعمال تحتشد فيها أعداد لا مثيل لها."(14) فإلى أى حد يعد "الجمهور" الكوني أكثر تعقيدا من "جمهور" ديوى القومي-ليس فقط شبكة من المنظمات غير الحكومية، بل سلسلة مدنية متصلة عبر كل الحدود، وليس مجرد مجموعات مثل "أطباء بلا حدود" Medecins sans frontieres ، وإنما عالم من المواطنين بلا حدود؟

إن خلق الجمهور مهمة المجتمع المدني. غير أن هناك مواقف قد تظهر مؤيدة للديمقراطية ومضادة لغوايات عالم ماك. و هناك كذلك مجتمعات يمكن أن تلبي الحاجة

الإنسانية إلى التفاعل الإقليمي بطرق تظل معها مفتوحة أمام الانضواء وأمام الأفكار المدنية الكوزموبوليتانية. ولكن كيف السبيل إلى تشكيل المجتمع المدني فى الحلبة الدولية؟ إن هؤلاء الذين يرغبون فى التجربة-ليس فقط فى روسيا وألمانيا، حيث الصبر والدهاء المدني أمران لازمان، بل فى أمريكا وغرب أوروبا اللذين يشعران بالرضا عن نفسيهما بشأن المجال المدني-عليهم بتذكر قصة تأسيس الديمقراطية. وعليهم فى الوقت نفسه اختراع مؤسسات جديدة تتماشى مع الظروف الكونية المستجدة. وكثيراً ما يعاني الديمقراطيون القدامى من جراء أقدميتهم المدنية. فهم ينسون الدروس المستفادة من تاريخهم، وينسون مدى ما يمكن أن يحدثه التحول الديمقراطي من عنف واضطراب، وكم يحتاج الأمر من وقت لإقامة مجتمع حر مؤسسي قبل أن يكون هناك دستور ديمقراطي يحكمه. وكشأن السناتور الحريص الذى لا يتذكر ذلك الصبي المخاطر الذى كانه فى يوم من الأيام، يكبت الديمقراطي المحدَث ذاكرة الثورة والقلاقل التى وصل فيها أول ما وصل إلى أغلبيته غير المؤكدة، مدعياً أنه كان دوماً عاقلاً وحكيماً، وأن الأمر لم يستغرق طفولة مؤلمة طال أمدها كي يتعلم فنون الحرية (إن كان قد تعلمها بحال من الأحوال).

ويبدو أن المتخصصين على اقتناع بأن إقامة ديمقراطية جديدة، سواء فى روسيا، أم فى الصومال، أم فى الأرض قاطبة، لا تحتاج لأكثر من تصدير الدساتير سابقة التجهيز والأنظمة البرلمانية المصنوعة حسب الطلب. إن جوشوا مورافتتشيك Joshua Muravchik نموذج كامل تبدأ مشاكله من عنوان كتابه الجديد: "تصدير الديمقراطية".(15) ابعثوا بالأوراق الفيدرالية إلى روسيا البيضاء، أرسلوا نظام التعددية الحزبية إلى نيجيريا بالطرود البريدية، أرسلوا قانون الحقوق بالبريد الإلكتروني إلى الصين، اشحنوا إلى الأمم المتحدة قوة حفظ سلام يشرف عليها المدنيون، وكل من فيها من المتطوعين، وتتسم بالطاعة ولكن ضميرها يقظ، من بلد يتمتع بقدر كبير من تقبل الخسائر وليس له أية مصلحة خاصة به ... وعلى شعاع من الليزر: أرسلوا الديمقراطية، وفيما يتعلق بالحكم الكوني، افعلوا الشيء نفسه، على المستوى الكوني.

لا، ليس الأمر بهذا الشكل. فالديمقراطيات تُبنى ببطء، ثقافة بعد ثقافة ، لكل منها قوتها واحتياجاتها عبر القرون. و هذا هو السبب فى أن الألمان كان عليهم أن يكونوا أكثر

حرصاً قبل إزالة المؤسسات المدنية الوليدة الخاصة بحركة المقاومة فى ألمانيا الشرقية، مثل المنتدى الجديد. وكان حرياً بالروس أن يبدوا قدراً أكبر من الاهتمام بالمؤسسات المحلية مثل المير الروسية (كوميونة القرية) أو السوفيت (المجلس) وأن يقللوا من استيراد المؤسسات الغربية. ذلك أن درس التاريخ الديمقراطي الغربي هو الصبر ومراجعة الذات. وبين أول تأكيد للماجنا كارتا على الحقوق من قبَل نواب الملك، و "الثورة المجيدة" فى سنة 1688 التى كانت بداية حقبة السيادة البرلمانية، كانت هناك 450 سنة زاخرة بالحروب. وربما مرت 150 سنة أخرى قبل أن يصبح البرلمان "ديمقراطياً" ولو بالاسم. إن نظام سويسرا الفيدرالى الديمقراطي القديم خطا أولى خطواته سنة 1291، غير أنه لم يصبح له دستور ديمقراطي بالكامل إلا سنة 1848 (وهو ما نُقح تنقيحاً تاماً سنة 1874)، أى بعد خمسمائة سنة. وشرعت فرنسا فى تجريب البرلمانات الإقليمية الأرستقراطية قبل ثورتها فى سنة 1789 بمئات السنين، حيث احتاج الأمر إلى مائة سنة أخرى ليكون هناك ما يشبه الجمهور الديمقراطي القادر على العمل.

وفى المائة والخمسين سنة التى مرت بين التأسيسين اللذين تما فى جيمس تاون وبلايموث وتأسيس الولايات المتحدة فى 1789، كانت هناك ستة أجيال من المستوطنين الأمريكيين ذات خبرة بالمواثيق الملكية، وحكم الكومنولث، واجتماعات المدن، والمجتمع الصحراوى الحدودى الذى زاد من شدة إحساسهم بالاستقلال وخلق فيهم مواهب الحكم الذاتي التى كانت أمراً لا غنى عنه بالنسبة لوضع الدستور الفيدرالي. بل إن الجمهور الديمقراطي الأحدث احتاج إلى خمس وسبعين سنة أخرى وحرب أهلية دامية لمواجهة قضايا العبودية وسيادة الدولة التى تركها دستور 1689 بلا حل.(16)

واستعداد أى شعب خربته القبلية، وخدره عالم ماك، لتلقي دستور ديمقراطي سابق التجهيز ليس بأكثر من استعداد شعب يخرج من تاريخ طويل من الاستبداد والطغيان. كما أن الديمقراطية لا يمكن أن تكون هبة يعطيها شخص من الأشخاص لمن لا حول لهم ولا قوة. فهولاء يجب أن ينتزعوها انتزاعاً، لأنهم يأبون العيش بدون الحرية، ولأنهم يصرون على أن يكون العدل من نصيب الكل. ولكي نعد الساحة للديمقراطية فى زماننا هذا، فى المجتمعات التحولية أو على المستوى الكوني، يجب أول كل شيء إعادة خلق المواطنين

الذين سوف يطالبون بالديمقراطية: وهذا يعني وضع أساس المجتمع المدني والثقافى المدنية. فالديمقراطية ليست وصفة طبية عامة من أجل شكل من أشكال الحكم يتميز بالتفرد، بل هي تذكير للناس بأن يعيشوا بطريقة معينة: أى بتحمل المسئولية، وباستقلال وإن كان على أرض مشتركة، وفى مجتمعات تقرر مصيرها بنفسها وإن ظلت مفتوحة أمام الآخرين، وبالتسامح والاحترام المتبادل وإن كان لديهم إحساس قوى بقيمة أنفسهم. وعندما دعا جون ديوى الديمقراطية أسلوب حياة-حيث أكد أنها هي نفسها فكرة الحياة المشتركة- وليس أسلوب حكم، فقد حث على الاهتمام بأولويتها كأسلوب معيشة مرافق فى أى مجتمع مدني. والديمقراطية الكونية القادرة على مواجهة الاتجاهات المعادية للديمقراطية لدى الجهاد وعالم ماك لا يمكن استعارتها من مخزن يخص دولة من الدول، أو نسخها من أحد القوالب الدستورية المجردة. إن المواطنة، كونية كانت أم محلية، تأتي فى المقام الأول.

هذه الدروس قد لا تكون على قدر كبير من الصعوبة بالنسبة لمواطني عالم ماك الذين يشعرون بالرضا ولإخوان الجهاد الغاضبين، ما لم تكن فكرة المجتمع المدني قد استعادت رواجها بين من يسمون أنفسهم ديمقراطيين فى الوقت الحاضر. ولكن المجتمع المدني، الذى سحقه التاريخ واعتصره قطاعان عام وخاص على نفس القدر من الضخامة، قد تلاشى بعض الشيء كنظرية وكممارسة ديمقراطية. حتى فى أمريكا، التى ينبغي أن يكون ميراث جون لوك John Locke قد جعلها قادرة على التغير، تحجرت فكرة المجتمع المدني وتفتتت-ووضعت بقاياها الجافة جانباً بسهولة لمصلحة مجموعة من المتضادات المتداخلة البسيطة: الدولة ضد الفرد، والحكم ضد القطاع الخاص، والبيروقراطية العامة ضد الأسواق الحرة، والساسة الفاسدون ضد الناخبين الغاضبين. أما المغتربين سياسياً ومن أرهقهم الاستهلاك، ولا يشعرون بالراحة فى الوقت نفسه نحو ما يرون أنه حكم مغتصب وغير متعاطف وقطاع خاص شديد الاهتمام بشئونه الخاصة، فيجدون أنفسهم بلا مأوى. ويبدو أنه لا السوق ولا بيروقراطية الدولة تتحدث إليهم أو تخدمهم باعتبارهم هوية عامة. ومع أن الحكم يخضع فى النهاية لمحاسبة الناس تبعاً لقدرتهم كناخبين، فهم يكادون ينظرون إليه على أنه جسم غريب: أى مجال يتهددهم من القهر شبه الشرعي يديره نواب غير مستجيبين، وساسة محترفون، ومدراء بيروقراطيون فقدوا الكثير من سلطتهم كأصوات

صادقة بالنسبة للجمهور الذى يفترض أنهم يمثلونه. والتصويت فى أحسن الظروف قد تقلص لمجرد عمل من أعمال الغيظ أو العقاب ضد الخارجين على القانون الذين يتخفون فى ثياب المرشحين.

وعلى الجانب الآخر، فإن القطاع الخاص، الذى يمثل الأسواق التجارية، ويضم الأفراد والشركات الخاصين، لا يعبر عن الجمهور إلا باعتباره تجمعاً لرغبة الأفراد والشركات-أما الأهواء الخاصة والمصالح ذات الطبيعة الخاصة التى تُعطى وضعاً "عاماً" فلا يسعون إلى كسبها. و "الشركة العامة" لا تقوم بما تستحق معه الاسم الذى تحمله. إنها خاصة فى كل شيء إلا اسمها. ولا يقتصر الأمر على ترك الجمهور الحقيقة بلا صوت ولا مأوى، ولكن هؤلاء الذين فى سدة الحكم، ولا يزالون يحاولون بعزم صادق تلقي النصح من الجمهور الذى أضحى وهماً، فلا يعرفون فى واقع الأمر أين يولون وجوههم، حيث أن ما تُسمى باستطلاعات الرأى العام تستطلع المصالح ذات الطابع الخاص التى تمثل نفسها ونفسها فقط. وفى أمريكا ومعظم الديمقراطيات الأخرى، تحول الساسة، الذين كانوا فى يوم من الأيام مواطنين يتولون مناصبهم بشكل مؤقت، بقوة السلطة إلى "محترفين" لا صلة لهم بدوائرهم الانتخابية، بينما تقلص المواطنون بسبب عجزهم إلى خصوم يئنون بالشكوى من الرجال والنساء الذين ينتخبونهم للمنصب، أو إلى زبائن بائسين لخدمات الدولة التى يستهلكونها دون أن تكون لديهم الرغبة فى دفع ثمنها. ذلك أن الشعوب على قدر من بلادة الإحساس بمؤسساتها الديمقراطية يجعلها لا توصي أبناء عمومتها فى الدول التحولية بالديمقراطية. كما تعتقد أن أى ديمقراطية كونية فى العالم خارج حدود السيادة لهي موضع شك فى أحسن الأحوال. إذ أن مواطني هذه الأيام الذين لم يكتمل نضجهم يوصون بالديمقراطية دون أن يثقوا بها: فهم يتنازلون عن قوى أغلبيتهم لمصلحة أدوار الانعقاد، والتعديلات الدستورية، والأغلبيات البرلمانية العظمى. وبالمثل، فهم يوصون بالأسواق دون أن يؤمنوا بها: دون أن يقتنعوا ولو للحظة بأن الأسواق تضمن المواطينة، أو الحرية المدنية، أو أى شيء يتعدى السلع المادية التى لم تعد تلبي حاجة أرواحهم المتعطشة.

وفى هذه الحالة، فإن تخيل كيان مدني ديمقراطي يمكِّن المواطنين من حكم أنفسهم يقتضي الخروج من نموذج الحكم ثنائي الخلية لمواجهة القطاع الخاص الذى أصبحنا

نعتمد عليه. وبدلاً من ذلك فإننا، بلغة المجتمع المدني، ينبغي أن نبدأ التفكير في المجالات التى يشغلها الناس وهم يقومون بأعمالهم اليومية ولديهم على الأقل ثلاث حلبات أساسية، سواء فى إطار الملاذات القبلية الآمنة، أم الدول القومية، أم المجتمع الكوني: إنها بكل تأكيد الحكومة والقطاع الخاص وكذلك المجال المدني، أو الفضاء المدني، أو ما اعتاد الأوروبيون الشرقيون والروس الإشارة إليه على أنه المجتمع المدني قبل أن يصبحوا "ديمقراطيين"، وكان موجهوهم الغربيون يقنعونهم بأن المؤسسات التى توفر فرص المشاركة الفردية لا تتلاءم مع طموحات السوق الخاصة بالديمقراطية.

إن المجتمع المدني، أو الفضاء المدني، يشغل أرضاً وسطاً تقع بين الحكومة والقطاع الخاص. فهو ليس موجوداً حيثما ندلي بأصواتنا، ولا نجده فى أماكن بيعنا وشرائنا. إنه حيثما نتحدث مع جيراننا حول أحد حراس العبور، أو نخطط لإقامة حفل خيرى لمصلحة مدرسة الحي، أو كيفية إيواء كنيستنا أو معبدنا للمشردين، أو ننظم دورة صيفية للكرة يشارك فيها أطفالنا. فى هذا المجال نحن كائنات "مدنية" ونشارك الحكم الإحساس بالعمومية والاهتمام بالمصلحة العامة والمال العام. ولكننا، بعكس الحكم، لا نطالب بأى احتكار للقهر المشروع. بل إننا نعمل هنا طواعية، وبذلك نشغل منطقة "خاصة" مكرسة للسعي التعاوني (غير القسرى) من أجل المصالح العامة. وهذا المجال الجوارى والتعاوني الخاص بالمجتمع المدني يشارك القطاع الخاص نعمة الحرية: فهو تطوعي ويتكون من أفراد وجماعات اجتمعوا برغبة منهم. إلا أنه على عكس القطاع الخاص يستهدف أرضاً مشتركة وأنماط عمل تقوم على التراضي (أى أنها تكاملية وتعاونية). وبذا يكون المجتمع المدني عاماً دون أن يكون قسرياً، وتطوعياً من غير أن يكون مخصخصاً. إنه ذلك المجال الذى تنتمي إليه مؤسساتنا المدنية التقليدية كجمعيات البر، والمدارس، والكنائس، والمصلحة العامة، وغيرها من الجمعيات المدنية التطوعية، انتماءً حقيقياً. ووسائل الإعلام هي الأخرى جزء من المجتمع المدني، إن هي تحملت مسئولياتها العامة بجد وأخضعت احتياجاتها التجارية لالتزامات المجتمع المدني.

ومما يؤسف له أن قطبي الحكم والسوق قد حجبا المجتمع المدني. كما أن قواه التوسطية قُضى عليها لمصلحة تعارض الدولة والفرد السطحي: أى الاقتصاد الموجه ضد

السوق الحرة. وقد أجبر هذا التعارض من يأملون فى شغل الفضاء المدني غير القسري- سواء فى الديمقراطيات التقليدية، أم الديمقراطيات الجديدة، أم المجال المدني الكوني- على العودة إلى القطاع الخاص، حيث يعاودون الظهور كمؤيدين لـ "المصالح ذات الطبيعة الخاصة" التى يُفترض أنها لا تتميز بأى هموم مشتركة أو معايير عامة، وهو ما لا يصح. إننا مجبرون على أن نكون ناخبين أو مستهلكين فى كل ما نقوم به. فإن نحن أردنا أن نكون مواطنين، أو إن أردنا المشاركة فى الحكم الذاتي بدلاً من مجرد انتخاب من يحكموننا، لن نجد ملجأً نلجأ إليه.

وعلى مدار القرن التاسع عشر، وفى أمريكا توكفيل وما بعدها، كان المجتمع الأمريكي يبدو وكأنه مجتمع مدني. وما لم نحاول تفسير الظروف الاجتماعية الخاصة بتلك الفترة اللامركزية تفسيراً رومانسياً، يمكننا أن نرى كيف أنهم سمحوا للحرية بأن يكون لها مظهر أكثر محليةً ومدنيةً، فى الوقت الذى غطت فيه شبكة مدنية موسعة تربط أطرافها المدارس، وروابط المزارعين، والكنائس، ومجالس المدن، ومزارع القرى، والمتاجر الريفية، والجمعيات التطوعية من صنف ولون، على ما كان هناك من نفوذ حكومي متواضع وقطاع خاص رقيق الحال. كانت تلك الجمعيات "البلدية" هي ما قدح زناد فكر توكفيل. وكان الحكم، وخاصة على المستوى الفيدرالي، أمراً متواضعاً (وربما شديد التواضع فيما يتعلق ببعض المهام اللازم إنجازها) لأن الدستور كان قد ترك أمر كل السلطات التى لم يفوضها له على وجه التحديد للولايات وللشعب. وكانت الأسواق هي الأخرى أموراً متواضعة. إذ كانت ذات طبيعة إقليمية وتسيطر عليها ارتباطات ومشاعر أخرى.

وعندما بدأ الأفراد الذين يظنون أنهم مواطنون يرون أنفسهم على أنهم مستهلكون، وحلت محل الجماعات التى كانت تعد جمعيات تطوعية شركات اتخذت وضعها القانوني باعتبارها "أفراد شرعيين"، ساعتها فقط بدأت قوى السوق فى غزو المجتمع المدني وسحقه من جانب القطاع الخاص. وما أن بدأت الأسواق فى الاتساع بشكل جذرى حتى رد الحكم بحملة جريئة نيابة عن المصلحة العامة ضد الاحتكارات الجديدة، حيث دمر المجتمع المدني دون أن يدرى من جانب الدولة. وبسحق المجتمع المدني بين منطقتي النفوذ

المتناحرتين لكل من الاحتكارين الذين كانا يزدادا اتساعاً، أى احتكار الدولة واحتكار الشركات، فقد مكانته البارزة فى الحياة الأمريكية. وما أن حل زمن الرئيسين روزفلت حتى كان قد تلاشى أو يكاد، واضطر مواطنوه المدنيون إلى البحث عن ملاذ فى ظل الوصاية الإقطاعية لأى من الحكم الكبير (حُماتهم وموظفوهم) أو القطاع الخاص، حيث يمكن أن تنتحل المدارس والكنائس والنقابات وجمعيات البر وغيرها من الجمعيات صفة الشركات ولا تتطلع إلى أن تكون أكثر من مجرد مجموعات مصالح ذات طبيعة خاصة تكونت من أجل غايات أعضائها شديدة الخصوصية. وسواء كانت تلك الغايات، على سبيل المثال، ربحية السوق أو الحفاظ على البيئة، فإن أياً منهما لم يكن مناسباً، طالما أنه من الواضح أن كل الجمعيات الخاصة كانت لها بالضرورة أهداف خاصة. فقد أصبحت المدارس مجموعات مصلحة بالنسبة لمن لديهم أطفال (أولياء الأمور) لا أماكن يتشكل فيها المجتمع المدني. أما الكنائس فقد أضحت جماعات مصلحة ذات طبيعة خاصة للاعتراف تسعى وراء برامج منفصلة، بدلاً من أن تكون مصادر للطبيعة الأخلاقية اللازمة للمجتمع الكبير (وهو ما اعتقد توكفيل أنها ستكونه). وباتت الجمعيات التطوعية تنويعاً على جماعات الضغط الخاصة، عوضاً عن كونها فضاءات حرة يتدرب فيها الرجال والنساء على الحرية.

ومن المفارقات أنه ما أن تخصخص المجتمع المدني واتخذ الشكل التجارى حتى وجدت الجماعات التى تأسست من أجل الدفاع اليائس عن المصلحة العامة نفسها مجرد نماذج لجماعات الضغط ذات المصالح الخاصة التى تقوم بأعمال النهب. فرغم أن النقابات، على سبيل المثال، كانت مهتمة بالتعويض العادل، والتوظيف الكامل، وكرامة العمل بالنسبة للجميع، أصبحت نظيرة للشركات وتعلمت فى الوقت المناسب كيف تقوم بهذا الدور على أحسن وجه. وعندما حاولت فك الخناق الذى تفرضه الشركات على العمال، صارت مجموعة "مصلحة ذات طبيعة خاصة" أخرى ليست أفضل من هؤلاء الذين تكافح ضدهم، بل ربما أسوأ منهم (حيث أن الشركات التى هاجمتها كانت تساهم فى تكوين ثروة أمريكا). ومرت جماعات البيئة بنفس التحولات فى وقت قريب. فرغم أنها تعمل من أجل ما هو بالنسبة للعالم أجمع يشبه برنامجاً عاماً للهواء النقي للجميع، بمن فى ذلك من يلوثونه، فقد بدت صورة طبق الأصل للملوثِين-وهي بذلك مجموعة مصلحة ذات طبيعة خاصة أخرى

يجب الحكم على مصالحها مع مصالح من يتخلصون من النفايات السامة. وتخلت وسائل الإعلام عن مسئوليتها كي تتولى الإعلام بأصحاب الديمقراطية وأصبحت بائعة للقيل والقال وامتلكت بالكامل فروع شركات قطاع خاص ليس عليها أية مسئوليات كانت سوى هوامش أرباحها. فى ظل هذه الظروف، لا يمكن لـ "المصلحة العامة" أن تبقى مثالاً معقولاً، ولم تكن كذلك. لقد كتب خطاب تأبينها ديفيد ب. ترومان David Truman الذى ذكر فى عجالة سنة 1951 ضمن ما ذكره فى كتابه بالغ الأثر The Governmental Process [العملية الحكومية]، الذى ساعد على وضع النموذج السائد فى العلوم الاجتماعية طوال الستينيات والسبعينيات، أننا فى تعاملنا مع نظام الضغط التعددى للمصالح الخاصة، الذى هو أمريكا، "لا ينبغي لنا تفسير المصلحة الشاملة، إذ لا وجود لها".(17) وما فعله عالم ماك لا يعدو كونه إضافى المزيد من القوى لما أكده ترومان.

لقد تركنا هذا التاريخ المحزن فى موقف عصيب فى حقبة توارى فيها المجتمع المدني، ولم يعد لدى المواطنين ملجأ للمؤسسات المدنية ولا صوت يتحدثون به، حتى فى داخل الدول القومية التى تلتزم اسمياً بالديمقراطية. ولتتلق خدمة سلبية (أو تضطهد اضطهاداً سلبياً) من الدولة البيروقراطية الضخمة التى تدس أنفها فى كل شيء، ولا صدى فيها لكلمة مواطن، أو لتوقعوا بموافقتكم على أنانية القطاع الخاص وفرديته الذى لا صدى فيه لكلمة مواطن. صوتوا لمصلحة خروج الأوغاد العامين من المناصب العامة، وصوتوا لمصلحة وصول مصالحكم الخاصة إلى تلك المناصب، من خلال التصويت بدولاراتكم من أجل الأوغاد الذين يرغبون فى العمل من أجلكم، أو افعلوا أياً من الاثنين: فتلك هي ما تبقى من التزامات منصب مواطن، الذى تلاشى الكثير منه داخل ما يُفترض أنها ديمقراطيات قامت على أحسن ما تكون الأسس.

وإذا كانت هذه الملاحظات المحزنة لها جميعاً أسسها القوية، وإذا كانت الديمقراطية تعاني من تأثيرات اختفاء المجتمع المدني المستقطبة ، فى أمريكا وغيرها من الديمقراطيات الغربية، فمن المؤكد أن هؤلاء الذين يتطلعون إلى خلق ديمقراطيات جديدة، فى ظل أى من الجهاد أو عالم ماك، يواجهون تحديات جمة. ومما لا شك فيه أن إعادة

هيكلة المجتمع المدني لابد أن تأتي على رأس أولوياتهم، باعتبارها إطاراً لخلق المواطنة الديمقراطية من جديد. إنهاذلك المجال الثالث الذى يتوسط القطاع الحكومي بالغ النمو، وإن كان شديد العجز، وقطاع السوق الخاص سريع التحول. ولا ينبغي أن تقتصر خياراتنا على مباراة الربح المعدوم بين الحكومة والأسواق التجارية، التى يعني فيها نمو أحدهما غزواً بالنسبة للآخر: فإما بيروقراطية دولة ضخمة أو عالم ماك ضخم. ومع أن هذا هو على وجه الدقة الخيار الذى كان متاحاً لشعبي روسيا وألمانيا الشرقية، فلا ينبغي أن نختار أياً منهما لحكومة ما مبالغ فى وصفها من حكومات الأخ الأكبر التى تطبق العدل، ولكنها فى المقابل تقوم بدور الطاغية، ولا لسوق حرة ما مبالغ فى وصفها ولا يسيطر عليها أحد وتكفل الحرية، ولكنها فى المقابل تفشي عدم المساواة والظلم الاجتماعي وتتخلى بإصرار عن المصلحة العامة. لذا لا يترك لنا ذلك سوى الخيار بين عالم ماك والطغيان. والواقع أنه فى الوقت الذى تفقد فيه الدولة القومية سيادتها، فإن الاختيار لم يعد بين الطغيان وعالم ماك، وإنما طغيان عالم نفسه الذى أصبح قدرنا. وليس هناك سوى شكل من أشكال المجتمع المدني الكوني يمكنه أن يأمل فى مواجهة خصمه الاستبداد.

ويفسر المجتمع المدني الديمقراطية على أنها شكل من أشكال الحكم الذى يستخدم فيه شعب متمكن القوة الشرعية كي يكسو عظام حرياته لحماً، وليس فيه سياسيون وبيروقراطيون. كما أن الحرية فيه تحمل معها التزامات المسئولية الاجتماعية والمواطنة، وكذلك حقوق الأفراد الشرعيين. إن المجتمع المدني يقدم هوية مدنية واحدة لا تنتمي لبيروقراطيي الدولة ولا للمستهلكين الخاصين، وإنما للمواطنين وحدهم، حيث تجمع الحقوق والمسئوليات معاً وتسمح لنا بالسيطرة على حكوماتنا وعلى أسواقنا. والمجتمع المدني كذلك هو مجال المواطنين: فهو مجال وسط بين الأسواق الخاصة والحكم الكبير. ولأنه يقع بين الدولة والسوق فهو قادر على أن يتضمن حكماً يتدخل فى كل شيء دون أن يتنازل عن المصلحة العامة للقطاع الخاص. وهو فى الوقت ذاته قادر على أن يبدد تشويش الانعزال والجشع المحيطين بالأسواق، دون أن يكتم دخان العادم الصادر عن الحكم الكبير النشط. وفى المجال الدولى، حيث الدول ضعيفة والأسواق مهيمنة، يمكن للمجتمع المدني أن يعطي هوية بديلة لمن هم فى غيبته ليسوا سوى زبائن ومستهلكين-أو متفرجين سلبيين يشاهدون

الاتجاهات الكونية التى لا يمكنهم أن يفعلوا أى شي لتحديها. كما يمكن أن يجعل العالمية شكلاً من أشكال المواطنة. وفي داخل الدول القومية، يمكن تقليص حجم كلٍ من الحكم والقطاع الخاص بعض الشيء بزيادة حجم المجتمع المدني الذى يمتص بعضاً من الآمال العامة فى الحكم الذاتي، دون التخلي عن طبيعته الحرة كرابطة أكفاء لا تقوم على الإكراه. ولأن المواطنين الذين يعيشون فى مجتمع مدني يتولون أمورهم بأنفسهم، ويحملون أنفسهم المزيد من المسئولية، فهم أقل قلقاً فيما يتعلق بالانتخابات والقادة وفترات الحكم والفضائح. وهم فى الوقت نفسه يحررون أنفسهم من الأسواق "الحرة" التى لولا ذلك لحبستهم داخل العقلية التجارية التى لا تترك متنفساً للمجتمع ولا للروح.

وإعادة خلق المجتمع المدني على أساس هذه الوصفة لا يستتبع أية بنية مدنية مستحدثة. بل إنه يعني إعادة وضع مفاهيم للمؤسسات الموجودة بالفعل وتغيير مواضعها، أو إيجاد وسائل لإعادة خلقها فى إطار عالمي.(18) ففي الولايات المتحدة على سبيل المثال، يعني هذا العودة مرة أخرى إلى المدارس، وجمعيات البر، والجمعيات التطوعية، والكنائس والمعابد والمساجد، والحركات الاجتماعية، ووسائل الإعلام، إلى جانب العديد من الجمعيات المدنية الأخرى، وسحبها من القطاع الخاص وإعادتها إلى المجتمع المدني. كما يعني كذلك مساعدة المواطنين على استعادة صوتهم العام الشرعي وشرعيتهم السياسية فى مواجهة هؤلاء الذين قد يستبعدونهم باعتبارهم لا يمثلون سوى المصالح الخاصة غير الصادقة. ففي روسيا وغيرها من المجتمعات التحولية يعني هذا دعم البُنى المدنية الجديدة والاهتمام بإدخال الناس فى الروابط المدنية المحلية بقدر يفوق الاهتمام بنتائج الانتخابات أو تَعاقُب الأحزاب القومية والاشتراكية والرأسمالية والإصلاحية المشاركة فى السياسة البرلمانية. وبالنسبة لعالم ماك، يعني هذا البحث عن مؤسسات موازية، ليس فى القانون والتنظيم الدوليين، بل فى نسق جديد من الروابط المدنية التحولية التى توفر فرصاً للمجتمعات المدنية ذات الأسس القومية كي تترابط مع بعضها، وللمواطنين الأفراد من مختلف الأقطار كي يتعاونوا عبر الحدود القومية فى الحركات المدنية الإقليمية والكونية. إن المجتمع المدني بحاجة إلى موطن. إذ لا بد أن يصبح مكاناً حقيقياً يوفر للفكرة المجردة الخاصة بالصوت العام جغرافيا ملموسة، فى غير أطلسي الحكم والأسواق المتطابقين.

إن ما ضاع فى الصراع بين الجهاد وعالم ماك، أكثر من أى شيء سواه، هو فكرة الجمهور، باعتباره شيئا يزيد على مجرد مجموعة من المستهلكين، أو حشد من المصالح السياسية ذات الطبيعة الخاصة، أو نتاج لسياسة الهوية. لقد ثبت أن الصوت العام هو صوت المجتمع المدني، صوت ما يمكن أن نسميه مسميات مختلفة، فنقول المنتدى المدني الأمريكي، أو المنتدى المدني الروسي، أو المنتدى المدني الكوني-أى المجلس النيابي التفاعلي الخاص بالمجتمع المدني. وقد أشرنا من قبل إلى أن المواطن الديمقراطي لا بد أن يسبق مقرطة الحكم. ويتضح الآن أن المجتمع المدني يوفر الظروف لخلق المواطنين الديمقراطيين. فالمواطن،رجلاً كان أم امرأة، فرد اكتسب صوتاً عاماً ويدرك أنه ينتمي إلى مجتمع أكثر اتساعاً، وتدرك أنها تشارك الآخرين الخير. والعمومية هي السبيل إلى المواطنة. وبذلك تكون طبيعة الصوت العام ضرورية لتعريف المواطنين. فالصوت العام ليس أى صوت قديم يخاطب الجمهور. وما الصخب الصادر عن الراديو الذى يذيع الأحاديث، ووابل النيران المتقطعة التى يقذف بها التلفزيون الذى يوجه الانتقادات، إلا نماذج من كل شيء إلا الخطاب العام.

والكثير مما يحسبه الناس صحافة ، ما هو فى واقع الأمر إلا مجرد دغدغة للعواطف، أو شائعات متنكرة أو أهواء متحضرة. فقد ابتعدت وسائل الإعلام عن المجتمع المدني، من أجل ما تجنيه من أرباح عظيمة من القطاع الخاص، حيث لم تعد المسئوليات العامة تعوق تفضيلها للنجاح التجاري. كم تستغرق الرحلة بالنسبة للرجال والنساء الذين نُشئوا فى القطاع الخاص، واعتادوا على التعاطف مع بعضهم البعض فقط من خلال عقد التسديد من ناحية، أو على أساس من أخوية الدم الخاصة بالجهاد من الناحية الأخرى، كي يسلكوا سبيلهم إلى المجتمع المدني ويتحدثوا بصوته العام المنتظم، وخاصة إذا كان على هذا الصوت أن يكون كذلك صدى عابراً للقوميات أو عالمياً. وكلمة "العام" تغير درجة "الصوت" بطريقة ملحوظة يتضح فى آخر الأمر أنها تفتح السبيل إلى المجتمع المدني والمواطَنة. والصوت الذى هو بحق عام-أى صوت المجتمع-يمكِّن من يتحدثون بقدر يفوق ما يوفره لهم صوت الحكم الموحد بطريقة رسمية، أو اللغة المفرطة فى تناقضها الصادرة عن اختلاط الأصوات فى القطاع الخاص. وصوت المجتمع المدني، أى الصوت الذى يستخدمه

المواطنون فى الأحاديث المتروية، يتحدى مقصورية صخب الجهاد ولا عقلانيته، إلا أنه فى الوقت نفسه يتناقض مع أسواق عالم ماك الخاصة بأنها تمثل بعضاً من المصلحة العامة الجمعية. ولا يدرك أى من الجهاد أو عالم ماك معنى "العام". وتوفر فكرة تحقيق العام علاجاً ناجعاً للتأثيرات المخصخصة والماحية للديمقراطية الخاصة بالقبائل المعتدية والأسواق المعتدية.

وإذا كان المجتمع المدني أحد السبل إلى الديمقراطية، ففي هذه الحالة تحتاج الديمقراطية القوية الكونية إلى عولمة منهجية للمجتمع المدني وتتوقف عليها. ولا بد للمجتمع المدني بدوره أن يكتشف من جديد نماذج مناسبة على المستوى القومي كي تصبح قابلة للعولمة. وفيما يتعلق بالنموذج التاريخي، قد نعود القهقرى إلى جمعيات المراسلة الأمريكية التى أسسها إبان حقبة الحرب الثورية مواطنون لم تكن لهم أية منافذ سياسية شرعية (إذ سيطر البريطانيون على مؤسسات الحكم الرسمية). وسمحت تلك اللجان لهم بأن يجتمعوا بصورة غير رسمية فى أجهزة ليست بالحكومية ولا بالخاصة، ولكنها شكلت فيما بينها الذخيرة المدنية التى حوربت الجمهورية الجديدة فى أول الأمر بها ومن أجلها وفازت، وبعد ذلك قامت واتخذت شكلها القانوني. فهل يمكن إنشاء لجان مراسلة وهمية على الانترنت؟ وهل يمكن للمواطنين الدخول على لوحة نشرات مدنية عبر الحدود القومية؟ هذه نقطة البداية للوصول إلى اتصالات مدنية بحق.

لم يكن قد مضى وقت طويل على بدء لجان المراسلة لثورتها الناجحة ضد الطغيان الإنجليزى حين اقترح توماس جيفرسون Thomas Jefferson عقد مجالس مدنية محلية كاستمرار للحكم الذاتي المباشر اللامركزي: فقد كتب يقول "حيثما كان كل إنسان يشعر بأنه يشارك فى توجيه جمهورية الحي الخاص به، ويشعر بأنه يساهم فى السيطرة على الأمور، ليس بمجرد المشاركة فى الانتخاب مرة واحدة فى السنة، ولكن فى كل يوم، وعندما لا يكون لا يكون فى الولاية رجل ليس عضواً فى واحد من مجالسها، كبر أم صغر، فسيكون إخراج قلبه من بين ضلوعه أهون عليه من سلبه سلطته."(19) فعلى المستويات المحلية والإقليمية وحدها حيث يلعب الجهاد لعبته، يمكن اكتساب شكل بديل من أشكال الهوية التى تتضمن فى آخر الأمر عالم ماك على المستوى الكوني. ولا يمكن للدائرة القبلية

أو الطريق الدائري، ولا للعشيرة أو المركز التجاري، أن يقدم الفضاء العام المناسب لنوع المجتمع الديمقراطي القادر على أن يوفر للمواطنين الهوية والانضواء. ويجب ألا تعترض الألفة الناشئة عن الترابط المحلى سبيل المشاعر الإقليمية، والتماثل القومي، والتحالفات الكونية، مثلما تفعله القبائل والعشائر (سواء أكانت تاريخية أم مخترعة) فى أغلب الأحيان. وقد تتيح لنا التكنولوجيا إعادة إنشاء الأحياء الإلكترونية والمجالس التى تجتمع من خلال وسائل الاتصال لتربط الجيران ممن بعدت بينهم الشقة بعضهم ببعض. ولكن هذا لن يحدث إلا إذا لم يُترك الأمر للأسواق كي تقرر كيفية تطوير هذه التقنيات، وإذا فرض التروى المتعقل والمدنية النظام على الاتصال الكوني. إن كيفية تشكيل المجتمع المدني فى بيئة عالمية يُعد تحدياً غير عادي. إلا أن الاعتراف بأنه ينبغي تشكيله هو الخطوة الأولى نحو استخلاص مكان للديمقراطية القوية فى دنيا عالم ماك.

وهناك خطوة تالية مهمة من الناحية المؤسساتية كذلك. فالأجزاء يمكن أن تكون أكثر مدنية ومشاركة، وأفرادها أكثر مدنية، غير أنهم لا بد أن ينظمهم شكل من أشكال التنظيم الكوني الذى يسمح بالتعاون دون أن يقضي على استقلالهم. والمجتمع المدني الكوني يُعد أحد أسس الحكم الديمقراطي الكوني، غير أنه ليس الشيء نفسه بعد.

الديمقراطية والفيدرالية

كيف السبيل إلى ربط أجزاء عالم تجمعه الأسواق، بينما نجده مفككاً تمام التفكك فيما عداها ، ما لم يكن ذلك عن طريق حكم كوني وقانون دولي ليس فيه وساطة – وقد قلت إن أياً منهما لا يمثل أملاً واقعياً؟ إن الشكل الذى اتخذه إعادة التنظيم فى السنوات الأخيرة كان التقسيم. الفضل فى ذلك يعود لسياسة الجهاد. فما عسى أن يكون البديل؟ الفيدرالية حل ينطوى على قدر كبير من المغامرة والمركزية بالنسبة لأقطار متشظية مثل كرواتيا أو أفغانستان، ولا يمكن أن يضمن سلامة أراضي سويسرا أو الهند أو ألمانيا، على سبيل المثال. إلا أن الكونفيدرالية تقدم استراتيجية تبشر بقدر أكبر من الخير، ذلك أنها تتيح للدول القومية القائمة بالفعل خلق وإقامة ترابط كوني. ويتطلب البديل، الذى هو إطار حاكم مركزى تنازلي، يتطلب سيادة دولية – سلطة تشريعية كونية ما–كي تقيمه. والسيادة الدولية هي ذلك الكيان المفقود.

إن "الأوراق الاتحادية" The Federalist Papers مطلوب أن تقرأها الحكومات اليائسة الساعية إلى الحد من سرعة التقسيم والتفكيك المدني. في حين أن "مقالات الكونفيدرالية" Articles of Confederation أدعى للقراءة. والمقال الثالث من المقالات، إلى جانب تنشيط المجتمع المدني محلياً،يقدم أبسط إطار لجمع الشظايا القومية المتنافسة في تحالف فضفاض، يشبه بعض الشيء ذلك التحالف الذى "وحّد" كانتونات سويسرا الأصلية سنة 1291 في روتلي. ويوفر المقال الثالث الاستقلال التام للدول الأعضاء ويراعي استقلالها (وهو أمر لا غنى عنه وهم يسعون إلى سياسة الهوية) ، إلا أنه يعلن كذلك ما يلي :

وبموجب ذلك تدخل الدول المذكورة واحدة تلو الأخرى في عصبة قوية من الصداقة مع بعضها البعض، من أجل دفاعها المشترك، وسلامة حرياتها، ورفاهيتها المتبادلة والعامة. مجمعة أنفسها كي تساعد الواحدة منها غيرها ضد كل قوة تعرض لها، أو هجمات تشن عليها، أو على أى منها، فيما يتعلق بالدين، أو السيادة، أو التجارة، أو أى مظهر آخر.

ربما يبدو أن هذا يوفر نقطة بداية للتصدى لما يقوم به كل من الجهاد وعالم ماك من استلاب ويفترض المقال أن هناك مواطَنة جذرية ما داخل كل دولة من الدول، وهي التى قد لا تكون فعالة إلا في ظل الظروف التى يضع المجتمع المدني فيها تلك الجذور في اعتباره. ويشترط المقال الرابع أن "السكان الأحرار في كل" دولة "سوف يُمنحون كل الامتيازات والحصانات التى يتمتع بها المواطنون الأحرار في الدول المختلفة، وسوف يمنح شعب كل دولة حق دخول أى دولة أخرى والخروج منها، وسوف يتمتع فيها بامتيازات التجارة وتبادل السلع." وقد يُحال دون التطهير العرقي واللجوء الإجباري، وتُفرض المواطنة المتكافئة والحركة الحرة.

هناك بنود مشابهة تجمع الكونفيدرالية الهلفيتية معاً وجعلت من السويسريين مثالاً غير عادى من الترابط الديمقراطى (إن لم يكن من المواطنة الانضوائية) قبل زمن طويل من معرفة المؤسسات البرلمانية في أماكن أخرى طريقها إلى الحكم النيابي الحق. والفصائل المتشظية في الكثير من الدول الممزقة قد تفعل ما هو أسوأ من إعادة التعبير عن نفسها

بلغة "عصبة قوية من الصداقة" فيما يتعلق بحرياتها العامة (إن كان لها أية حرية عامة). فكيبك والمقاطعات الأنجلوفونية في كندا قد تضطر إلى مثل هذا الحل ، إن هي أرادت تحاشي الصراع الذى يكلفها الكثير. والكونفيدرالية ليست البلسم الشافي لكل الأدواء، إلا أنها قد توفر بديلاً قادراً على الاستمرار لتلك الحلول الأكثر مركزية وقسراً، وبالتالي أقل نفعاً، للتفكيك القومي. وهذا الحل، الذى لم يوضع على غرار الدستور الفيدرالى الأمريكي، وإنما سلفه الكونفيدرالي، الذى أعطى المستعمرات الوقت الكافى كي تعيش معاً لتكتشف الحاجة إلى العلاجات الأكثر تكاملية-ولكي تكتسب الثقة والقبول اللذين تعتمد عليهما مثل هذه الحلول-يقدم استراتيجية القومية العظمى التدريجية، الطوعية، التى تزيد من الثقة. وهذه الأشكال الانضوائية الخاصة بالترابط الكونفيدرالي، شأنها شأن الديمقراطية نفسها، ذات طبيعة ارتقائية وتعتمد على نجاح الروابط التى كانت من قبل أكثر تسيباً. والنموذج على ذلك هو سويسرا قبل سنة 1800، وليس الاتحاد الأوروبي. ذلك أن سويسرا أكدت الحيوية المدنية الخاصة بأجزائها قبل تجميعها فى كيان أكبر. فقد تعاملت مع المواطنين باعتبارهم نسقاً من الصفات الخاصة المحلية (فلكي نكون سويسرا، يجب أن نكتسب أولاً المواطنة الجمعية أول ما نكتسب. أما جواز المرور القومي فيأتي بعد ذلك). وبعد أن اطمأنت إلى دخولهم فى مؤسسات تقوم على المشاركة، ضمنت أن الكيان الكونفيدرالى سوف يكون ديمقراطياً.

والواقع أن أوروبا الجديدة لا تبدو الأكثر ديمقراطيةً بسبب تمثيلها الصارم للدول القومية وحكوماتها، وليس بالتأكيد لاعتمادها التكنوقراطي على قوى السوق، وإنما لتمثيلها الأقاليم. ورأينا كيف أن الولايات الألمانية والأقاليم الأسبانية جاهدت من أجل الحصول على عضوية أوروبية لديها ذلك الإحساس الكونفيدرالى القوى بهذا التمثيل. ولأن هذا الترابط مع أوروبا أقرب إلى شعوبها (إذا سمحت به يوماً حكوماتها القومية) فمن الممكن أن يوجد تلك الأواصر قد يعتبر المواطنون الأعضاء أنها ملائمة لهم.

***

إن مشكلة الديمقراطية فى ظل الظروف الجديدة على قدر شديد من التعقيد. وفى سياق التداخل الدياليكتيكي الخاص بالجهاد وعالم ماك، يميل الجدل الإصلاحي إلى تعقب

آثارهما. فالديمقراطية القوية بحاجة إلى مواطنين، والمواطنون بحاجة إلى مجتمع مدني، والمجتمع المدني يقتضي شكلاً من أشكال الترابط لا صلة له بسياسة الهوية، وهذا الشكل من أشكال الترابط هو الديمقراطية. أو لنقل: الديمقراطية الكونية بحاجة إلى الكونفيدرالية، أى ذلك الشكل غير القسرى من أشكال الترابط النابع من الصداقة والمصالح المشتركة، وتعتمد الكونفيدرالية على الدول الأعضاء التابعة كذلك من المجتمع المدني، وعلى المواطنين الذين لا يرون الآخر مرادفاً للعدو، والمجتمع المدني والمواطنة نتاج لأسلوب حياة ديمقراطي. إلا أن دائرة الديمقراطية متصلة غير منقطعة، وربما كان أول الدروس التى يعلمها هذا الكتاب وآخرها والدرس الوحيد، هو أنه إلى أن تصبح الديمقراطية هدف من يتصارعون مع رعب الجهاد وعجز عالم ماك وغاية ما يرجونه، هناك فرصة ضئيلة يمكننا الاستعانة بها فى رحلة الخيال الطويلة التى تنتقل بالرجال والنساء من الكائن الحيواني البسيط (ضعف الاقتصاد) إلى الكائن البشرى التعاوني (حيوية الديمقراطية القوية). لذلك فإننا فى رواندا، أو فى البوسنة، أو فى تيمور الشرقية، أو فى هايتي، قد نسيء فهم التحدى عندما نسأل عن كيفية تقسيم دولة مفككة أو تدويلها أو إعادة السلام إلى ربوعها. إذ ربما كان التحدى الحقيقي هو كيف نجعلها ديمقراطية. فمن المؤكد أن الديمقراطية بالفعل هي المحصلة النهائية التى نسعى للوصول إليها فى محاولة لإنقاذ هذا الكوكب: غير أنها يجب أن تكون كذلك المبدأ الذى نسترشد به فى سبيل ذلك.

وإذا بدا الخيار الديمقراطي غير محتمل كرد على الجهاد (وهو كذلك)، فلنفكر فى الحلول "الواقعية" التى هي محل مناقشة فى الوقت الراهن-أى السلام والاستقرار من خلال الغزو الأجنبي، أو الطرد، أو التقسيم، أو إعادة التوطين، أو وصاية الأمم المتحدة، أو التدخل العسكري، أو التمزيق البسيط. هل تتضمن تلك الحلول نشر نيران الجهاد الكونية؟ وإذا بدا الخيار الديمقراطي يوتوبياً باعتباره رداً على قطاع الاتصالات المعلوماتي الترفيهي، بما له من فيديولوجيا سريعة الانتشار، وأصابع إلكترونية تلتف بقوة حول العقول والقلوب البشرية حيثما أمكن استقبال بث الأقمار الصناعية، فلنفكر فى البديل: أى الاستسلام للأسواق، وبالتالي لأقل مطامح الحضارة البشرية نبلاً التى تخدمها، وتقلص

حريتنا التى نتباهى بها بحيث لا تتعدى ذلك الخيار البائس الذى تحدث عنه ريجيس ديبراى Regis Debray "بين آية الله المحلى وكوكاكولا."(20)

وفى أمة كانت فى حالة حرب، رأى ابراهام لنكولن Abraham Lincoln فى الديمقراطية الأمل الأخير. وفى كوكبنا الذى يمتلأ هذه الأيام بالمفارقات، حيث تتباعد أمم وتتقارب أُخر فى ذات اللحظة ولنفس الأسباب، وحيث الحكومات القومية ترتعد فرائصها رعباً والقانون الدولي الذى لا أسنان له عاجز عن النباح، ناهيك عن العض، قد تصبح الديمقراطية الآن هي أملنا الأول والوحيد.

الملحق أ

مؤشر عدالة توزيع الطاقة

الجدول (١)

استخدام الطاقة وعدد السكان (١٩٩٠)

الترتيب	الدولة	سكان العالم (بالمائة)	طاقة العالم (بالمائة)	مؤشر عدالة التوزيع ١
١	تشاد	,١١	,٠٠١	,٠٠٩
٢	إثيوبيا	,٤٩	,٠١	,٠١
٣	موزمبيق	,٢٩	,٠٠٥	,٠٢
٤	بنجلاديش	٢,٠٦	,٠٧	,٠٣
٥	زائير	,٦٦	,٠٢	,٠٣
٦	سريلانكا	,٣٣	,٠٢	,٠٦
٧	العراق	١،٠٢	,١٢	,١٢
٨	باكستان	٢،٠٧	,٢٧	,١٣
٩	بوليفيا	,١٤	,٠٢	,١٤
١٠	الهند	١٥،٦٧	٢،٢٤	,١٤
١١	إندونيسيا	٣،٤٤	,٤٩	,١٤
١٢	الفلبين	١،١٥	,١٦	,١٤
١٣	تايلاند	١،٠٧	,٢٨	,٢٦
١٤	مصر	١،٠٢	,٣٦	,٣٥
١٥	الصين	٢١،٧١	٨،٤٩	,٣٩
١٦	البرازيل	٢،٨٤	١،١٣	,٤٠
١٧	زيمبابوي	,١٧	,٠٧	,٤١

١٨	ألبانيا	,٠٦	,٠٤	,٦٧
١٩	ماليزيا	,٣٣	,٢٢	,٦٧
٢٠	كوبا	,٢٠	,١٥	,٧٥
٢١	فيتنام	١,٢٦	١,٠٨	,٨٦
٢٢	المكسيك	١,٦٣	١,٤٣	,٨٨
٢٣	كوريا الجنوبية	,٨٢	,٧٦	,٩٣
٢٤	الأرجنتين	,٦٣	,٦٣	١
٢٥	هونج كونج	,١١	,١١	١
٢٦	منغوليا	,٠٤	,٠٤	١
٢٧	أسبانيا	,٧٧	,٨٥	١,١٠
٢٨	يوغوسلافيا	,٤٦	,٥٩	١,٢٨
٢٩	بويرتو ريكو	,٠٧	,٠٩	١,٢٩
٣٠	كوريا الشمالية	,٤٣	,٦٠	١,٤٠
٣١	إسرائيل	,٠٩	,١٣	١,٤٤
٣٢	جنوب أفريقيا	,٥٨	,٨٥	١,٤٧
٣٣	ليبيا	,٠٨	,١٢	١,٥٠
٣٤	فرنسا	١,١٠	٢,١٥	١,٩٥
٣٥	المجر	,٢٠	,٤٢	٢,١٠
٣٦	اليابان	٢,٤١	٥,١٢	٢,١٢
٣٧	المملكة المتحدة	١,١٢	٣,٠٣	٢,٧٠
٣٨	السويد	,١٦	,٤٤	٢,٧٥
٣٩	الدنمرك	,١٠	,٢٩	٢,٩٠
٤٠	بلجيكا	,١٩	,٥٧	٣
٤١	السعودية	,٢٨	,٩٠	٣,٢١
٤٢	الاتحاد السوفيتي	٥,٥٨	١٩,٥٦	٣,٥١
٤٣	أستراليا	,٣٣	١,١٦	٣,٥٢

٤٤	النرويج	,٠٨	,٣٠	٣،٧٥
٤٥	الكويت	,٠٤	,١٨	٤،٥٠
٤٦	الولايات المتحدة	٤،٨٤	٢٤،٢٤	٥،٠١
٤٧	كندا	,٥١	٢،٦٥	٥،٢٠

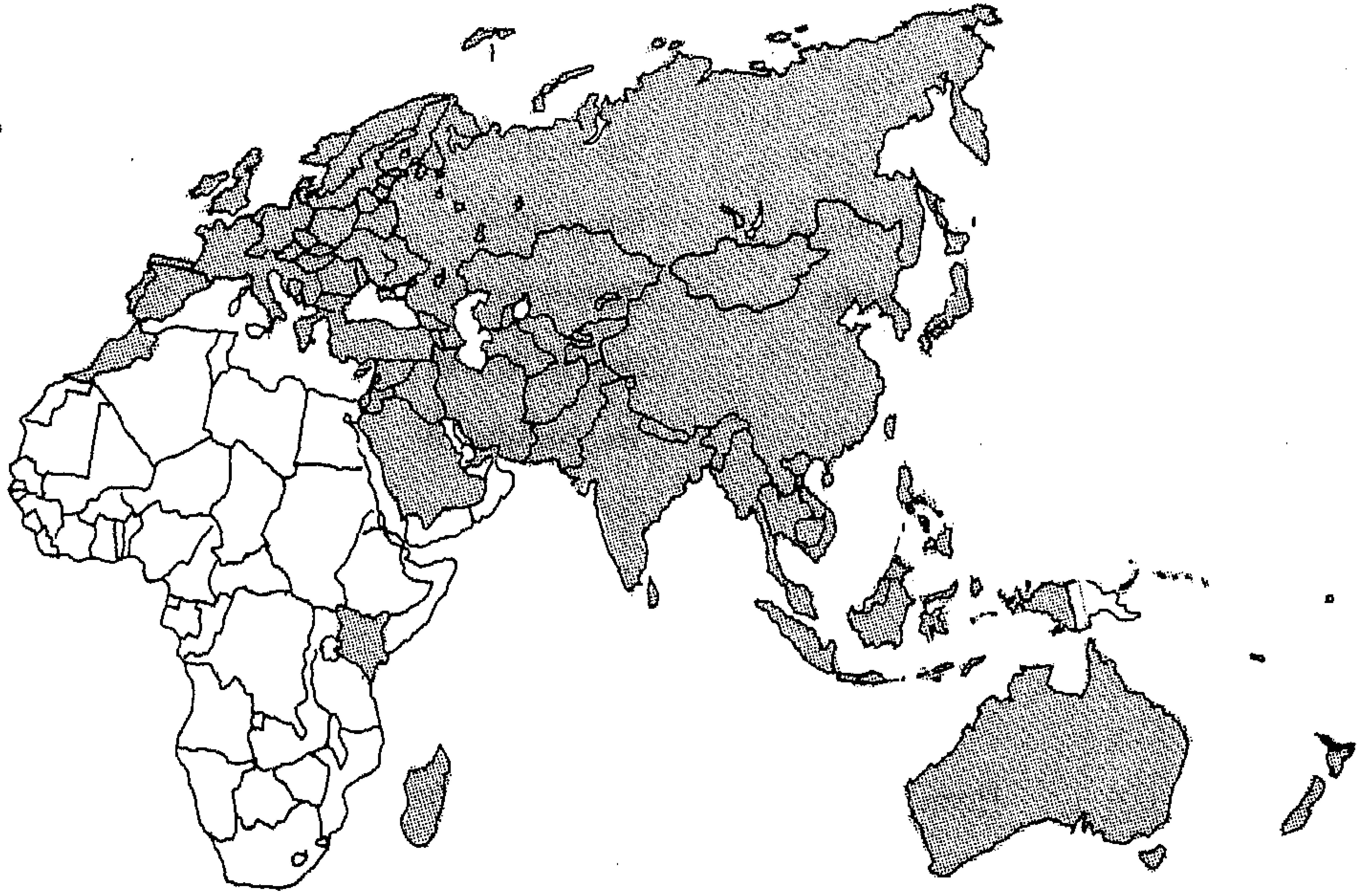
الملحق ب

أكثر الأفلام دخلاً فى أثنتين وعشرين دولة (١٩٩١)

الدولة	١	٢	٣
الأرجنتين	Terminator 2	Dances/Wolves	Godfather III
النمسا	Dances/Wolves	Home Alone	Robin Hood
البرازيل	Terminator 2	Dances/Wolves	Robin Hood
شيلى	Terminator 2	Dances/Wolves	Wild Orchid
الدنمرك	Dances/Wolves	**The Crumbs**	Robin Hood
مصر	Dances/Wolves	Ghost	Lethal Weapon 2
فنلندة	**Mr. Numbskull**	Naked Gun 2	Terminator 2
فرنسا	Dances/Wolves	Terminator 2	Robin Hood
ألمانيا	Home Alone	Dances/Wolves	Robin Hood
اليونان	Hook	Silence/Lambs	Robin Hood
المجر	Look Who's Talk 2	Terminafor 2	Kindergarten Cop
آيسلندا	Dances/Wolves	Home Alone	Naked Gun 2 1/2
إيطاليا	**Johny Stecchino**	Robin Hood	**Women in Skirts**
اليابان	Terminator 2	Home Alone	Pertty Woman
ماليزيا	Terminator 2	The Banquet	Armor of God II
المكسيك	Terminator 2	Robin Hood	**Pelo Suelto**
هولندا	Dances/Wolves	Robin Hood	Kindergarten Cop
بولندا	Dances/Wolves	Robin Hood	Pretty Woman
أسبانيا	Dances/Wolves	Terminator 2	Roboin Hood
السويد	Pretty Woman	The Little Mermaid	**The Gas Station**
سويسرا	Dances/Wolves	Home Alone	Robin Hood
المملكة المتحدة	Robin Hood	Terminator 2	Silence/Lambs

أفلام بحروف سوداء = إنتاج محلى

المصدر Variety International Film Guide, 1993



أقطار تستقبل بث التلفزيون الموسيقى

أقطار لاتستقبل بث التلفزيون الموسيقى فى الوقت الراهن



أماكن يصل إليها التلفزيون الموسيقى فى أنحاء العالم

الهوامش

المقدمـــة

(1) Francis Fukuyama في The End of History and the Last Man, (New York: Free Press,1992) رغم أنه أقل رضا عن تكهناته في كتابه عما بدا في المقال الأصلـي National Interest الذي تسبب في كل هذا الجدل، و(Walter B. Wriston, Twilight of Sovereignty .New York: Scribner's, 1992)

(2) انظر Georgie Ann Geyer, "Our Dsintegrating World: The Menence of Global Anarchy," Encyclopedia Britannica, Book of the Year, 1985 (Chicago: University of Chicago Press, 1985. Pp. 11-25. Daniel Patrick Moynihan, Pandemonium: Ethnicity in International Politics (New York: Oxford University Press, 1993); and Zbigniew Brezezinski, Out of Control: Global Turmoi on the Eve of the Twenty First Century (New York Scribner's, 1993). وانظر كذلك، Tony Judt "The New Old Nationalism," The New York Review of Books, May 26, 1994,pp. 44-51.

(3) كتابان صدرا مؤخرا ، أحدهما من تأليف زبجنيو بريجنسكي، وهو المذكور أعلاه، حول "الاضطراب الكوني" الخاص بالقومية العرقيـة (الجهاد)، والآخر من تـأليف كيفن كيلـي حـول أجهـزة الكمبيوتر و "نشأة الحضارة البيولوجية الجديدة [عالم ماك]" وكلاهما يحملان نفس العنوان "Out of Control". انظـر Brezezinski, Out of Control kevin Kelly, Out of Control: The Rise of Neo-Biological Civilization (Reading, Mass.: Addison-Wesley, 1994). الصـور البلاغيـة فـي كـل مكـان: فعلى سبيل المثال فكتاب براد شموكلر The Illusion of Choice (Albany: University of New York at Albany Press,1993,) Part III عن أسواق الهروب يحمل كذلك عنوان "Out of Control".

(4) في "new tack on technology" بصحيفة نيويورك تايمز كتب ادموند أندروز مراسل الصحيفة أن حكومة كلينتون لا تريد سوى تحاشي عمل أي شيء "لترويع المستثمرين بصياح تنظيمي أخرق"، آملة بدلاً مـن ذلك أن تقلل "الحواجز التنظيمية التي حالت دون المنافسة". Edmund L. Andrews, "New Tack on technology," The New York Times , January 12, 1994,p. A 1. وفـي نهايـة دورة الكونجرس لسنة ١٩٩٤، رُفض مشروع قانون الاتصالات الذي سيفرض بعض القيود على طريـق المعلومـات السريع في هدوء.

(5) نقل توماس فريدمان عن روهاتين قوله "عندما يتحدث المـال، تسكت الحكومـات" The New York Times, July 24, 1994,p. E 3.

(6) كتب ستاينر قائلاً إن الثورة الديمقراطية الجديدة في شرق أوروبا التي شهدتها السنوات الأخيرة لم تكن "ملوثة بشيء من عاطفة الحرية المجردة والعدالة الاجتماعية". إن ثقافة المستهلكين و"أشرطة الفيديو وأفلام الجنس ومستحضرات التجميل أمريكية الطابع والمأكولات السريعة ، وليس طبعات ميل أو توكفيل أو سولجنتسين. كانت المكافآت التي تخاطفها المحررون من كل رف غربي". وفي *Granta* نقل أنتوني ليويس عن جورج ستاينر قوله "زلزال يضرب القمة" *International Herald Tribune*, June 203,1990.

(7) نقله Aleksa Djilas, " A House Divided," *The New Republic*, January 25, 1993, p. 38.

(8) في فبراير ١٩٩٤ كان هناك حوالي ثمانين ألف جندي تابعين للأمم المتحدة تم نشرهم في ثماني عشرة دولة. فكان هناك عدد قليل على الحدود بين اسرائيل وجاراتيها المعاديتين (سوريا ولبنان) وعلى الحدود التي تفصل بين الهند وباكستان وبين العراق والكويت. ولكن الأعداد الأكبر منها تحاول (دون أن يتحقق لها النجاح) الفصل بين الفصائل المتنافسة في الصومال (ما يزيد على العشرين ألفاً) ويوغوسلافيا السابقة (أكثر من خمسة وعشرين ألفاً)، وكذلك في جورجيا وقبرص وليبيريا وأنجولا وموزمبيق ورواندا والصحراء الغربية وهايتي والسلفادور وكولومبيا. للإطلاع على تقرير حول هذا الموضوع، انظر Brian Hall, "Blue Helmets, Empty Guns," *The New York Times Magazine*, January2, 1994, pp. 18-25, 30, 38. 41.

(9) David Binder, "Trouble Spots: As Ethnic Wars Multiply, U.S. Strives for a Policy," *The New York Times*, February 7, 1993, p. A 1.

(10) تعمد المستخدمون المسلمون في بعض الأوقات التعتيم على الفرق بين المعاني: وبذلك فإن ياسر عرفات في كلمته إلى جمهور من المشاهدين العرب الفلسطينيين في منتصف ١٩٩٤ بُعيد سريان العمل باتفاق غزة وأريحا تحدث بقوة عن الجهاد من أجل استعادة القدس-و "فسر" بعد ذلك للإسرائيليين والغربيين الذي أغضبهم هذا الكلام أنه لم يكن يقصد إلا الكفاح السلمي.

(11) انظر Arthur Schlesinger, Jr., *Disuniting America* (New York: Norton, 1993).

(12) قائمة دول الحد الأدنى تشمل هولندا والدنمرك وأيسلندا ولوكسمبورج والنرويج والبرتغال تمثل أقل من ١ بالمائة من سكان العالم. وفي بعض الأحيان تُضاف اليابان إلى هذه القائمة، مما يرفع النسبة إلى ٥ بالمائة.

(13) *The Washington Post*, National Weekly Edition, December 21-27, 1992, p. 28.

(14) نقله ديفيد بايندر "Trouble Spots". بالطبع لم يكن لانسنج مؤيداً لرؤية، وقد عمل في الواقع على تقويض أركان سياساته. وهناك من أقنع دانييل باتريك موينيهان أن ويلسون نفسه جاء ليرى أخطار تقرير المصير، حيث أنه قرب النهاية اعترف ويلسون بأنه ابتكر لغة تقرير المصير "دون معرفة أن القوميات موجودة" وبالتالي لم يتنبأ بالقوى المدمرة التي يمكن أن تطلقها هذه الفكرة من عقالها، *Pandaemonium*, p. 85.

بل إن أميتاي إتسيوني. وهو مؤيد أمريكي متحمس لقيام المجتمع الشيوعين يشعر بالقلق من "شرور تقرير المصير." Amitai Etzioni,"The Evils of Self-Determination," *Foreign Policy*, No. 89, Winter, 1992-93, pp. 21-35.

(15) الخريطة التي اتفقت عليها الأطراف المتحاربة لفترة قصير سنة ١٩٩٤ كانت لا تزال في غاية السوء لاستسلامها للمعتدين الصرب، رغم أنها حاولت على الأقل ربط النقاط العرقية المعزولة بخطوط الإمداد القريبة. وعند كتابة هذا الكلام، يبد أن كلا من الناتو والولايات المتحدة قد استسلما لمنطق القوة استسلاما تاماً.

(16) يقدم الدبلوماسي والمؤرخ البريطاني هارولد نيكلسون رواية مضحكة مبكية عن واحد من تلك الاجتماعات التي تمت في سنة ١٩١٩ عقب الحرب العالمية الأولى التي جرى فيها تمزيق دول البلقان، وفيه فيها رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج اللونين الأخضر (للدلالة على الأودية) والبني (للدلالة على الجبال) على أنهما يرمزان إلى اليونانيين والأتراك. وفي إشارة إلى سكالا نوفا، ذات اللون الأخضر، يتحدث إلى المندوبين الإيطاليين قائلاً: "لا تنالوا ذلك–إنها مليئة باليونانيين!" ويقول نيكلسون لرئيسه إنها مليئة بالأودية الخضراء، ولكن هناك القليل جدا من اليونانيين. وتستمر المناقشات حتى نهايتها المحزنة التي أدى كونها "غير أخلاقية وغير عملية" إلى دخول أوروبا في حرب أخرى. Harold Nicholson, *Peace-Making: 1919* (New York: Harcourt an Brace & Co., 1939).

(17) في كتابه الأخير *Blood and Belonging* عن القومية التي صاحبت المسلسلات التلفزيونية وتؤثر عليها، لا ينظر مايكل اجناتيف فقط إلى مشاهد قتل الأخوة بعضهم بعضاً شديدة الوضوح في شرق أوروبا، بل ينظر كذلك إلى أيرلندا وكيبيك وألمانيا كذلك، مدركاً أن أكثر الحالات ضرراً يمكن تقديمها ببساطة كأمثلة لمرض يصيب بالعدوى الدول الصحيحة كذلك. Michael Ignatieff,*Blood and Belonging: Journey into the New Nationalism* (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1994).

(18) نقلته مارلا ستون عن جونتر جراس، "Nationalism and Identity in (Former) East Germany," *Tikkun*, Vol. 7, No. 6, November/December 1992, pp. 41-46.

(19) انظر "Orlando Patterson, "Global Culture and the American Cosmos, Paper No. 2 in the Andy Warhol Foundation for the Visual Arts Paper Series.

(20) هذه فكرة والتر ريستون *Twilight*. ويسأل ريستون "كيف تقيس إحدى الحكومات القومية تكوين رأس المال، إذا جزءاً كبيراً من رأس المال الجديد فكرياً؟" (p. 12) . والإجابة هي: لا يستطيعون. وريستون الذي كان في السابق رئيساً لمجلس إدارة سيتي كورب، يعد في الوقت رغم ذلك واحداً من المتفائلين التقنيين، وظنه أن الأمر كله سوف يتضح في النهاية سوف، طالما أننا نعترف بالواقع الجديد، يبتعد بعض الشيء عن تحليله الواعي لذلك الواقع. وهو يعتمد اعتماداً كبيراً على كتب سابقة عن ثورة المعلومات وتأثيرها على فكرة الأمة، مثل كتب إيتيل دي لا سولا *Technologies Without Boundaries* (Cambridge: Harvard University Press, 1990 وكتاب بيتر دراكر *The New Realities* (New York: Harper & Row, 1989) وكتاب جورج جيلدر *Mirocosm* (New York: Simon & Schuster, 1989). وهناك دراسة سابقة F.A. Hayek's *Denationalisation of Money* (London: Institute of Economic Affairs, 1976).

(21) كلام وزير الخارجية الأسبق جورج شولتز كما أورده ريستون في *Twilight*, p. 10

(22) عودة الحزب الديمقراطي إلى السلطة التنفيذية في الولايات المتحدة لم تغير شيئاً فيما يتعلق بأيدلوجيا السوق. وكان الرئيس كلينتون وثيق الارتباط بمجلس القيادة الديمقراطي، الذي كان الجناح البحثي فيه حريصاً على التخلي عن الخطاب الديمقراطي التقليدي المعادي للأعمال وعلى جعل الأسواق والحكومة يخدم كل منهما الاخر. وفي بيان مهم عن السياسة الخارجية من أجل حكومة كلينتون نوقش على نطاق واسع، شارك مستشار الأمن القومي أنتوني ليك في احتفال حقيقي بزواج الأسواق والديمقراطية، حيث استخدم عبارة "ديمقراطية السوق" وكأنها صيغة أصلية يمكن أن نجدها في الماجنا كارتا أو الأوراق الفيدرالية. وقال في حديثه أمام جمع من الأكاديميين في جامعة جونز هوبكنز "لقد احتوينا تهديدا كونيا لديمقراطيات السوق". وعلى أمريكا أن "تدعم الديمقراطيات الجديدة واقتصاديات السوق..." و "تساعد الديمقراطية واقتصاديات السوق على مد جذورها في المناطق ذات الاهتمام الإنساني العظيم". إن "قوى التحرير هذه" هي ما "يخلق الثروة والديناميكية الاجتماعية". ومن ناحية أخرى فإن "الدول الرجعية" التي تقاوم هذه القوى "غالبا ما تتحلل من الداخل من الناحيتين الاقتصادية والروحية." "ما أعنيه بالتحديد هو: دعوة إلى توسيع مجال الديمقراطية"، *The New York Times*, September 26, 1993, Section 4,p. 3.

(23) تعهد بذلك وزير خارجية الرئيس كلينتون في سنة ١٩٩٣ بأن اجتماعه مع بوريس يلتسين يجب اعتباره "توثيق للديمقراطية وإصلاحات السوق الحرة في روسيا". كلام وارين كريستوفر كما نقلته إلين سيولينو *The*. ' Clinton will visit Yeltsin,' *New York Times*, October 23,1993,p. A 1.

(24) نشرت النيويورك تايمز موضوعاً من قسم الأعمال كتبه فيليب هينون يحث فيه حكومة كلينتون على فتح السوق الفيتنامية تحت العنوان الذي لا لبس فيه: Missing Out on a Glittering Market,"September 12, 1993, Section 3, p.1. وهو ما حدث لاحقا.

(25) Aleksander Sogzhenitsyn, "To Tame Savage Capitalism," *The New York Times*, November 28, 1993, p.E11.

(26) تتباهى جمهورية التشيك بأن ثورتها المخملية حولت "نظاماً شموليا [إلى] نظام ديمقراطي واقتصاد يقوم على الربح"، ولكن من على وجه الدقة سوف يستفيد، هذا ما سوف يتضح فيما بعد. نقلاً عن إعلان نشرته جمهورية التشيك في *The New York Times* (January 7, 1994) قبيل لقاء الرئيس كلينتون مع الرئيس هافيل في براغ في يناير ١٩٩٤.

(27) Robert McIntyre, "Why Communism Is Rising from the Ash Heap," *Washington Post*, National Weekly Edition, June 20-26, p.24.

(28) "يشعر بريجنسكي بقلق مما يسميه "الوفرة المباحة" الخاصة بعالمنا الحديث، وإن كان على عكس الآن بلوم يقضي وقتا أطول في إطلاق جرس التحذير بدلاً من دراسة مسببات الخطر. وعلاجه المبهم هو إعادة فرض "ضبط النفس" الفرويدي الذي سوف يكبح جماح العالم الغربي الذي هو على نفس القدر من "الانفلات" مثل العالم الثالث الذي يواجهه.

(29) IRAN FIGHTS NEW FOE; WESTERN TELEVISION and FOR CLERICS, SATELLITES CARRYING MTV ARE DEALEARE THAN GUNS كانت

تلك هي الصرخة التي حملتها عناوين الوول ستريت جورنال، The Wall Street Journal, August8, 1994على مقال بقلم بيتر والدمان متضمناً ما قاله رجل دين إيراني يشكو من أن أطباق الأقمار الصناعية تنشر "الأمراض التي تدمر الأسرة في الغرب"، p.A 10 .

(30) Jon Pareles, Striving to Become Rock' s Next Seatle, *The New York Times*, July 17, 1994, Section 2,p.1.

(31) من بين حوالي ١٥ ألف مطعم لماكدونالدز، هناك ما يقرب من أربعة آلاف وخمسمائة مطعم، أو الثلث، في الخارج. وهناك مايزيد على الألف في اليابان وحدها. Gary Hoover, *Hoover' s Handbook of American Business* (Austin: Reference Press, 1994), pp. 746-747.

(32) جاك لانج وزير الثقافة في الحكومة الاشتراكية الذي خرج من الوزارة في ١٩٩٣ كان متضارباً في آرائه، وكان هو نفسه يتزعم حملة ضد دخول الإنجليزية في لغة الفرنسيين "Franglais" وتشويهها للغة الفرنسية الأصيلة ويدعو إلى إصدار التشريعات التي تحمي اللغة الفرنسية (وهو التشريع الذي سُن في عهد الحكومة المحافظة التالية) وكذلك الكفاح لحماية صناعة السينما الفرنسية من هوليوود في دورة الجات، إلا أنه في الوقت نفسه يعلن حبه للأمريكيين وثقافتهم.

(33) National Public Radio, *All Things Considered*, December 2, 1993, من تفريغ لحديث مذاع.

(34) Slavenka Drakulic,"Love Story: A True Tale from Sarajevo," *The New Republic*, October 26, 1993, pp. 14-16.

(35) هناك كذلك دمية لمايكل جاكسون تتحول شيئاً فشيئاً إلى قط بري ثم إلى شمبانزي.

الجزء الأول: دنيا عالم ماك الجديدة

الفصل الأول: الاقتصاد القديم ومولد عالم ماك الجديد

(1) ويضيف :"قررنا عدم تعديل المنتجات حسب أية سوق من الأسواق، ومعاملة كل الأسواق بالمثل." اقتبس هذا الكلام في Louis Uchitelle, "Gillette s World View; One Blade Fits All," *The New York Times*, January 3, 1994, p.C3.

(2) يبلغ تعداد سكان اليونان حوالي ١٠ ملايين نسمة، وأيرلندا ٣,٥ مليون، وسويسرا ٦,٥ مليون. ولماكدونالدز حالياً حوالي ١٥٠٠٠ مطعم فيما يزيد على سبعين دولة، ويكسب ٤٥ بالمائة من أرباحه من خارج الولايات المتحدة، Andrew E. Sewer, "McDonald's Conquer the World," *Fortune*, October 17, 1994, pp. 101-116.

(3) في سنة ١٩٨٩ عمل في جنرال موتورز ٧٧٥ ألف فرد، مقابل ٨٧٦ ألفاً في سنة ١٩٨٦. وما تزال القوة العاملة فيها تدور حول ٧٠٠ ألف، حتى بعد خفض عدد العاملين في السنوات الأخيرة.

(4) كانت النفقات الحكومية حسب أحدث الأرقام المتاحة (١٩٨٥-١٩٨٨) بالنسبة للسنغال ٦٨٦ مليون دولار، وأوغندا ٣٢٧ مليون دولار، وبوليفيا ٦١٩ مليون دولار، وأيسلندا ٨٦٧ مليون دولار، والإجمالي ٢,٥

مليار دولار. The Economist Book of Vital World Statistics (New York: Times Books, 1990), p. 136 أما أرقام الدومينجو فمن: Gary Hoover, *Hoover s Handbook of American Business* (Austin: Reference Press, 1994), p. 243. وكان نفقات البرتغال ١٧,٤ مليار دولار وإندونيسيا ١٧,٢ مليار دولار.

(5) في الفترة من ١٩٨٥-١٩٨٨ كان متوسط الإنفاق في الأرجنتين ٢٧,٥ مليار دولار؛ *Vital World Statistics*, p. 137.

(6) Reebok, 1992 Annual Report. حيث أن المركز الرئيسي في بولتون بإنجلترا، فإن بيع الأحذية المصنعة في ست دول أسيوية بينها تايلاند والصين والفلبين وتباع في ١٤٠ دولة في أنحاء العالم. فإن هذه الشركة التي كانت فيما مضى بريطانية تعد أمريكية فقط لأن مبيعات أحذيتها في الولايات المتحدة هي التي تجعلها كذلك في أي سنة من السنين (١,٣ مليار دولار علاوة على ٣ما يزيد على مليارات دولار من المبيعات الكونية سنة ١٩٩٢).

(7) ما يزال المحرك والقطارات يابانية. وهذه الاتجاهات يمكن رؤيتها في مختلف جوانب الصناعة: ففي سنة ١٩٩٣، أعلنت شركة هوندا لصناعة السيارات في اليابان أنه بينما كانت الجيل الأول من السيارة "أكورد" (المصنوعة في ميريزفيل بولاية أوهايو) ليس فيه أجزاء أمريكية، فإن موديل ١٩٨٢ كان ٥٠ بالمائة منه أمريكيا، بينما الجيل الخامس من "أكورد" الذي يجري إنتاجه حاليا فأكثر من ٨٠ بالمائة من أجزائه أمريكية. Doron P. Levin, "Honda Star Gets Another Sequel." *The New York Times*, August 27, 1993, p. D 1.

(8) James Bennet, "Want a U.S. Car? Read the Label." *The New York Times*, September 18, 1994, p. E 6. وتتباهي متسوبيشي في إعلاناتها الأمريكية بأن سياراتها "مصنوعة في أمريكا" وتباع من خلال "شركة أمريكية كاملة النمو-هي متسوبيشي موتور سيلز أوف أمريكا انكوربوريشن" وأن سبعة وثلاثون ألف أمريكي يعملون بصنعها الثلاث ماسات التابع لها في أمريكا-وكل هذا جزء من "تراث الأمركة"!

(9) يشير روبرت رايخ إلى أنه عندما يشتري أي أمريكي السيارة بونتياك لو مان مقابل ٢٠ ألف دولار من جنرال موتورز، فإن ٦ آلاف دولار تذهب إلى كوريا الجنوبية مقابل العمالة وعمليات التجميع، وتذهب ٣٥٠٠ دولار لليابان ثمناً للمحرك وجذع نقل الحركة، ١٥٠٠ دولار لألمانيا ثمنا لمهندس التصميم، و ٨٠٠ دولار لتايوان وسنغافورة واليابان ثمناً للأجزاء الصغيرة، و ٦٠٠ دولار لبريطانيا وأيرلندا وباربيدوس مقابل الخدمات. ويتبقى بعد ذلك ٨٠٠ دولار لحاملي أسهم جنرال موتورز والمحامين وشركات التأمين الأمريكيين، بما في ذلك الخدمات الصحية. انظر Robert Reich, *Work of Nations* (New York: Alfred A. Knopf, 1991), pp. 113-114.

وهناك صناعات أخرى تعيش التجربة نفسها: تعتزم حاليا بوينج، التي قد تكون الشركة الأمريكية التي يفخر بها الأمريكيون أكثر ما يفخرون، إنتاج طائرتها 777 Twinjet التي تأمل أن تسيطر بها على سوق

الطائرات متوسطة الحجم مع بداية القرن الحادي والعشرين. ومع ذلك فإن ٢٠ بالمائة من الطائرة من صنع المصانع اليابانية في اليابان (متسوبيشي وكاواساكي وفوجي للصناعات الثقيلة)، وسوف تأتي المحركات من رولز رويس (ومن شركتين أمريكيتين أخريين)، وسوف تُصنع آلينا بإيطاليا الأجنحة، بينما ستتولى إيمبراير البرازيلية صنع الجنيح وتجميعات الجناح؛ وستشارك مئات من الشركات الأخرى في كوريا وسنغافورة وايرلندا الشمالية وغيرها من دول العالم بقدر أقل. Harvey Elliot, "Flying Foreign," *The Economist: The World in 1993*, special edition of *The Economist*, London, December 25, 1993/January 7, 1994, pp. 6-7.

(10) تمتلك آساهي جلاس أوف جابان ٤٩ بالمئة من فرع كورننج، وتمتلك تيبون الكتريك شركة أويتز-اليتوي. وهاتان هما الشركتان الأمريكيتان اللتان تنتجان غالبية أجهزة التلفزيون. Keith Bradsher, "In Twist, Protectionism Used to Sell Trade Pact, *The New York Times*, November 7, 1993, Section 1, p. 26.

(11) وبقدر أكبر من ضيق الأفق، فإن الذين تنبأوا بانهيار صناعة السيارات الأمريكية في السبعينيات أو الثمانينيات-وكانوا يسيرون في ذلك وراء مؤرخين مثل بول كينيدي الذي توقع انهيار الولايات المتحدة كقوة اقتصادية--اضطروا لسحب كلاميم. فقد عادت ديترويت واليابان الآن هي "الزعيم" الذي يرغب في الإرضاء، لكونها مضطرة للدخول في لعبة الملاحقة. انظر Paul Ingrassia and Joseph B. White, *Comeback: The Fall and Rise of American Automobile Industry*(New York: Simon & Schuster, 1994).

(12) أقيم مؤخراً نصب تذكاري في مكان السيارة في آلاينس بنبراسكا، حيث أُعدم نموذج لستونهينج في السيارات الخردة وسُمي "كارهينج" حيث يجتذب السائحين في الوقت الحالي؛ وتتوفر البطاقات البريدية في محلات ماكدونالدز المحلية. انظر Fossil Fuels في *U. Magazine*, September 1994.

(13) Mondialisation et segregation, *Le Monde diplomatique: Les Frontieres de l'economie globale*, May 1993, p. 7.

(14) Robert Kutner,"Brave New Corporate Workplace of the Future," *The Berkshire Eagle, August 1,1993, Swction E, p. 1.* وكان كتنر يقدم تقريرا عن مؤتمر معهد أسبن تحت عنوان "شركة الغد".

ونجد في *Liberation Management* نموذجاً ليوتوبيا شركة العصر الجديد، حيث يكتب توم بيترز قائلا إن "تعريف كل منتج وخدمة يتغير آخذ في التغير. إذ يصبح ليناً، فألين، ثم أكثر ليناً. فهو متقلب، ويزول سريعاً، وحسب الموضة...وظهور أعداد ضخمة من المنافسين الجدد... والتقنيات الجديدة الخالدة تتقدم المسيرة". Tom Peters, *Liberation Management: Necessary Disorganization for the Nano-second Nineties (*New York: Alfred A. Knopf, 1993), p.6.

(15) قدم ويليام جيبسون بثلاثية أعماله التي صدرت في بداية الثمانينيات (*Neuromancer, Count Zero, Mona Lisa Overdrive*) فكرة الطريق الإلكتروني السريع (من الدراسة الكلاسيكية التي كتبها نوربرت فينر عن تكنولوجيا الاتصالات التفاعلية وعلم الاتصال والتحكم sybernetics في أواخر

الأربعينيات) إلى طريقة التعبير العامة general parlance. ويشير المصطلح من الناحية الفنية إلى الفضاء المعلوماتي الإلكتروني الخفي بين لوحة مفاتيح الكمبيوتر (الإدخال) وشاشة الكمبيوتر (الإخراج). وخصصت نيويورك تايم عدداً بالكامل تقريباً من ملحق عرض الكتب للكتب المتعلقة بالكمبيوتر والثقافة الأدبية الخاصة بالطريق الإلكتروني السيع سنة ١٩٩٤، ومنذ ذلك الوقت وهي تعرض كذلك "كتبا" مطبوعة على اسطوانات الليزر.

(16) Julie Edelson Halpert, "Technology: On Car, Worldwide, with Strings Pulled from Michigan," *The New York Times*, August 29, 1993, Section3, p. F 7.

(17) تعتزم أي بي إم إجراء عملية إعادة هيكلة ضخمة سوف تؤدي إلى الاستغناء عن ستين ألف موظف. ومع أنها سوف تكلف حوالي ٩ مليارات دولار، فمن المفترض أنها سوف توفر ما يزيد على ٤ مليارات دولار في السنة على المدى البعيد. وكانت آي بي إم تخسر مبالغ طائلة.(خسارة الربع الثاني من ١٩٩٣ كانت ٤٠ مليون دولار وكانت العائدات ١٥,٥ مليار دولار)، إلا أن بروكتر آند جامبل كانت في حالة جيدة عندما أعلنت في نفس الفترة تقريباً في صيف ١٩٩٣ عن الاستغناء عن ثلاثين ألف فرصة عمل، أو ١٢ بالمائة من قوتها العاملة (ثلثها في الولايات المتحدة). وبعض الشركات الأخرى، مثل جنرال إلكتريك وإيستمان كوداك وريثيون قلصت حجم العمالة في سبيل المنافسة في المستقبل. وقطع الدعم البحري في سنة ١٩٩٧، كما تعتزم حكومة كلينتون، سوف يؤدي في حال حدوثه إلى ضياع عشرين ألف فرصة عمل بحرية. Don Phillips, Pulling the Plug on American-Flag Ships, *The Washington Post*, National Edition, May 24-30, 1993, p. 33.

(18) حصل العراق على قدراته من دول مثل الولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا وبريطانيا والعربية السعودية، وجميعها يفترض أن لها مصالح قومية حيوية في منع انتشار الأسلحة النووية. Robert J. Samuelson, The Global Village Revisited في *Vital World Statistics*, p. 4.

(19) تُعد ألمانيا الغربية بصفقاتها البالغ عدده ١٠٢ صفقة المتهم الرئيسي، أما الولايات المتحدة وسويسرا وبريطانيا فقد حصلت كل منهما على حوالي أربع وعشرين صفقة، في الوقت الذي حصلت كل من البرازيل وإيطاليا والنمسا وفرنسا واليابان على خمس صفقات لكل منها. Douglas Jehl, "The World: Who Armed Iraq" Answers the West Didn't Want to Hear," *The New York Times*, July 18, 1993, p. E 5. إلا أنه ليست الدول وإنما الشركات التي تحمل اسمياً أعلام الدول هي التي تقوم بالأعمال. وكما لاحظ خبير شئون الشرق الأوسط أنتوني كوردسمان، "طلبية أجنبية كبيرة واحدة تعد حافزاً يكفي لجعل بعض هذه الشركات تتجاهل القانون"، وأظن كذلك عن المصالح المنية المتصارعة لأوطانها "الأم". المرجع السابق.

(20) انظر "Gillette s World View"

(21) Laser Brown et al., eds., *Vital Signs 1993: The Trends That Are Shaping Our Future* (Washingto, D.C.: World watch Institute, 1993), pp. 74-65.

(22) Andrew Pollack, "Hond Set to Increase U.S. Output," *The New York Times*, September 20, 1993, p. D 1.

Andrew Pollack, "Today's Corporate Game Plans Know No Boundaries: (23) Mabouchi Motors: an Un-Japanese Model for Japan." *The New York Times,* January 3, 1994, p. C1.

الفصل الثاني

حتمية الموارد: موت الاكتفاء الذاتي وسقوط الغرب

(1) خارج دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD وكوريا (التي تعد شركة سامسونج فيها الثامنة عشرة على مستوى العالم) هناك عدد قليل جداً من الدول الأخرى تضم بعضاً من الشركات الكبرى الخمسمائة في العالم. والشركات السبع عشرة الكبرى في هذه الدول هي في الغالب من شركات البترول (حسب ترتيب ١٩٩٢)، مثل بي دي في اس ايه من فنزويلا (رقم ٦٥)، وبيمكس من المكسيك (رقم ٥٧)، وإنديان أويل (رقم ١٨٨) و بتروناس الماليزية (رقم ٢٢٦)، أو شركات التعدين التي تعد الشركات الوحيدة من جنوب الصحراء الكبرى على القائمة–اثنتان من شركات جنوب أفريقيا وشركة انستريال أند ماينتج من زامبيا (الشركة الوحيدة من أفريقيا السوداء على القائمة وتحمل الرقم ٤٥٧). *Fortune,* July 26, 1993, pp. 191-204

(2) اعتبارا من ١٩٥٠ كانت الأسمدة وليست الأرض الزراعية العامل الذي يزداد الاعتماد عليه لإطعام سكان العالم المتزايدة أعدادهم. وبينما تقلص نصيب الفرد من الأراضي الزراعية المنتجة للحبوب مع نمو عدد السكان، كان نصيب الفرد من الأسمدة يتزايد باطراد، حيث كان يتقدم على الزيادة السكانية حتى سنوات قليلة مضت. تلك الاتجاهات كانت في مصلحة الاقتصادات الزراعية المتقدمة وضارة لتلك الاقتصادات في الدول التي يتزايد فيها عدد السكان.

إن الدور الذي تقوم به الزراعة في الاقتصاد بشكل عام وعدد العاملين في القطاع الزراعي ليسا متعالقين مع الناتج الزراعي الإجمالي. وتخصص منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية أقل من ٣ بالمائة من ناتجها القومي الإجمالي للزراعة، ومع ذلك تتمكن من إنتاج ٢٨ بالمائة من حبوب العالم. *The Economist Book of Vital World Statistics* (New York: Times Books, 1990), p. 56.

يعمل بالمزارع الأمريكية أقل من ٢،٥ بالمائة من القوى العاملة، إلا أن أمريكا ظلت في سنة ١٩٨٨ الدولة رقم ٢ في العالم فيما يتعلق بإنتاج الحبوب (بعد الصين التي يعمل ٧٠ بالمائة من قوتها العاملة في الزراعة)، وهي كذلك الدولة رقم ٢ في إنتاج الفاكهة (بعد البرازيل التي يعمل ربع قوتها العاملة في الزراعة)، والدولة رقم ٤ في إنتاج الخضر (بعد الصين والهند والاتحاد السوفيتي السابق). *Vital World Statistics, ibid., pp. 62-66.* والإحصاء الأساسي هنا هو "الكفاءة الزراعية، حسب قياسيا بالسماد واستعمال التراكتور" ibid, pp. 58-59 : and *Vital Signs 1993: The Trends That Are Shaping Our Future,* (Washington, D.C.: Worldwatch Institute, 1993), p. 19.

Vital World Statistics, pp. 36-38. (3)

(4) هناك عدد قليل من الحالات مثل ألبانيا التي هبطت من العالم الثاني إلى العالم الثالث نتيجة لسقوط الشيوعية.

(5) Paul Kennedy, *Preparing for the Twenty-First Century* (New York: Vintage Books, 1994, p. 193.

(6) Christopher J. Schmitz, *World Nonferrous Metal Production and Prices: 1700-1976* Totwoa, N.G.: Frank & Co., Ltd., 1979. Pp. 48-53. كانت فرنسا المنتج رقم واحد في السنوات الأولى التالية للتصنيع، ومنذ فترة قريبة احتلت القمة جامايكا وسورينام وغيانا ثم أستراليا.

(7) *Historical Statistics of the United States: Colonial Times to 1970,* Parts 1and 2 (Washington, D.C.: Department of Commerce, Bureau of the Census), 1975.

(8) إحصاءات ما بعد ١٩٧٠ من *Metal Statistics Annual Reports (1960-1993),* (Frankfurt: Metllgeselschaft AG, 1993) وهي ليست محسوبة بالطن المتري وإنما بوحدات كل منها ألف طن.

(9) Schmitz, *World Nonferrous Metal,p. 53.* وبذلك تظل ثلاث شركات أمريكية بين ست شركات ألمونيوم كونية ذات سيطرة. إلا أن المخاوف البيئية وارتفاع تكاليف الإنتاج تدفع مصانع التجهيز ببطء إلى الخارج، مما يزيد اعتماد أمريكا على الاستيراد أكثر وأكثر. لمعرفة المزيد عن الشركات الأمريكية، انظر Steven Kendall Holloway, *The Aluminum Multinationals and the Bauxite Cartel* (New York: St. Martin s Press, 1988) ولمزيد من المعلومات الإحصائية المفصلة عن الإنتاج الأمريكي، انظر U.S. Bureau of Mines, *Aluminium, Alumina and Bauxite Annual Reports* (Washingto, D.C.: Department of Interior, Bureau of Mines, 1994).

(10) القصة متشابهة بالنسبة لمعظم تكرير المعادن، أي أن "تكلفة الإذعان للوائح البيئية الفيدرالية ستة سنتات للرطل من الرصاص، وبين تسعة وأحد عشر سنتاً لرطل النحاس-حوالي ٢٠ بالمائة من سعر كل معدن في سنة ١٩٨٦، رغم أن أسعار المعادن المتزايدة قللت ذلك إلى ١٠ بالمائة في الوقت الحالي." National Research Council Cooittee on the Competitiveness of the Minerals and Metals Industry, 1990, p. 14.

وإعادة التصنيع يمكن أن تحدث فرقا. فأكثر من نصف القمامة في الكثير من المجتمعات يمكن حرقها (بعد فرزها) واستخدامها لإنتاج الطاقة (انظر Barry Meier, "Finfing Gold, of A Sort, in Landfills, *The New York Times,* September 7, 1993, p. 1993,p. A 14). وخلال استخدام الأمريكيين للمعادن في السنوات الأخيرة كان ربع ما يستهلكونه منها من المعادن المعاد تصنيعها. ولكن في كثير من الحالات، كالرصاص، تجعل الاعتبارات البيئية واعتبارات السلامة إعادة التصنيع أمراً صعبا. انظر *Lead Annual Review: 1993* (Washingto, D.C.: Department of Interior , Bureau of Mines,1994).

(11) Rocco Michael Panoe, *Strategic Nonefuel Mineral and Eastern Security* (Lanham: University Press of America, 1992), p. 57.

Clyde S. Brooks, *Metal Recovery from Industrial Wastes* (Chelsea: Lewis (12) Publishers, 1991), p. 5. إلا أن هناك حدوداً لذلك. فالمنجنيز على سبيل المثال، وهو ضروري للحديد وإنتاج الصلب، لا يمكن استعادته من النفايات. كما أنه ليست هناك بدائل لها قيمة كبيرة. انظر *Manganese Annual Report: 1991* (Washington, D.C.: U.S. Department of Interior, Bureau of Mines, 1992), p.3.

(13) بينما كانت المعادن النفيسة وحدها هي التي يعاد تصنيعها فيما مضى، نعيد الآن تصنيع النحاس وسبائك النحاس والكروم والكوبالت والكادميوم والمنجنيز والموليبدينوم والرصاص والتيتانيوم والزنك، وإن كان كل منها بكميات متفاوتة. فبالنسبة للكادميوم والمنجنيز والموليبدينوم، على سبيل المثال، الكميات ضئيلة جداً، بينما التيتانيوم (وهو ضروري للعناصر الهيكلية الخاصة بالطيران والفضاء كالأجزاء الخارجية من الأجنحة والدعائم وريش الكباس والأجزاء الدوارة في الطائرات الهليكوبتر) فإن ما يصل إلى ٨٠ بالمائة من هذا المعدن يعاد تصنيعه. أما في صورته المعدنية، حيث يُستخدم لإنتاج الأصباغ المستخدمة في مجموعة كبيرة ومتنوعة من السلع منها البويات والورق والبلاستيك والمنسوجات وغير من السلع شائعة الاستعمال مثل حلوى توينكيز ومعجون الأسنان، فمن المستحيل إعادة تصنيعه، ونتيجة لذلك فنحن نعتمد على الاستيراد. انظر Panoe, *Nonefuel Minerals*

(14) الألمونيوم الذي روينا قصة تدني عائداته فيما سبق، أصبح في العقود القليلة الماضية جزءاً من عملية إعادة التصنيع. ففي سنة ١٩٧٥ استخلصنا ما يقل عن ١٠ بالمائة من استهلاكنا من إعادة التصنيع. واليوم ارتفع الرقم إلى ٤٢ بالمائة من الاستهلاك، وهذا في المقام الأول نتيجة لإعادة تصنيع القمامة. ويتضح أن مليوني طن من الألمونيوم توجد كل سنة في نفاية البلديات، وهو ما يعني أن عادات الاستهلاك المسرفة التي أدت إلى اعتمادنا على الغير أدت لحسن الحظ إلى منتجات فرعية تقوم على القمامة وتقلل تكاليف الاعتماد على الغير. انظر Brooks, *Metal Recovery*

(15) Panoe, *Nonfuel Minerals*, p. 227 من الطبيعي ألا يكون إيجاد بديل أمراً سهلاً. فالكروم والكوبالت، على سبيل المثال، معدنان غاية في الأهمية بالنسبة للتكنولوجيا الحديثة. فالاستنليس ستيل (الصلب المقاوم للتآكل) يمكن صنعه بدون النيكل، ولكن ليس بدون الكروم، والجهود الخاصة بالكروم لم تسفر عن النتائج المرجوة بعد. ومع أن الأمر يحتاج إلى "سنين من البحث المكثف والتطوير لاكتشاف البدائل وإنتاجها بمستويات ذات قيمة،" فإن جهود البحث والتطوير في الولايات المتحدة واليابان وغيرهما من الدول الصناعية المتقدمة تنتج معادن مخلقة، وبلاستيك وسيراميك عالي الأداء، وسبائك متطورة وغيرها من المركبات التي قد تحل في نهاية الأمر محل المعادن الطبيعية التقليدية في تقنيات العالم الجديدة.

(16) تشير التقديرات إلى أن العقد الموجودة على قاع المحيط الهادي وحده تحتوي على ما يزيد ٣٥٩ مرة على الكوبالت، و ٨٣ مرة على النيكل، و٩ مرات على النحاس الموجود في أي مستودعات أخرى في العالم.ويجري حالياً تطوير الغواصات المقاومة للضغط العالي التي يمكنها الغوص إلى أعماق بعيدة على أيدي الفرق القومية العديدة.،ويتوقع كونسورتيوم من الشركات اليابانية يضم هيتاشي وسوميتومو وميتسوبيشي أن

تكون غواصاته في مواقع العمل بحلول سنة ١٩٩٦. Tony Emerson with H. Takayama, Into the Challenger Deep, *Newsweek*, July 5, 1993, pp. 62-63.

(17) الأرقام الدقيقة موجودة مع تعليق مفيد في *Vital Signs, pp. 46-63.*

(18) تحصل الولايات المتحدة عل سبيل المثال ٧٥ بالمائة من كهربتها من الفحم والبترول والغز الطبيعي. وعلى ١٧ بالمائة من الطاقة النووية، وعلى ٩,٥ بالمائة من الطاقة المائية، وعلى ٠,٥ بالمائة فقط من الطاقة الحرارية. ويحصل عدد قليل جداً من الدول على معظم حاجته من الكهرباء من أنواع الوقود غير الأحفوري. وتعتمد كل من فرنسا وبلجيكا اعتماداً كبيرا على الطاقة النووية (ما يزيد على ٦٠ بالمائة لكل منهما)، بينما تحصل كل من نيو زيلندا وكندا والنمسا وسويسرا على غالبية ماتحتاجه من المساقط المائية. وفي الوقت نفسه، تحصل العشرات من الدول (وخاصة في أفريقيا والشرق الوسط) على ١٠٠ بالمائة من كهربتها من الوقود الأحفوري. انظر *Vital World Statistics*, pp. 80-81

(19) حتى وقت قريب كانت نسبة عدد الدراجات إلى عدد السيارات في الصين ٢٥٠ إلى ١. إلا أنه، ورغم استمرار استخدام الدراجات كوسيلة نقل أساسية، مما يقلل الاعتماد على البترول والصلب والمطاط والألمونيوم ومعدات التنظيم. ويوفر في الوقت نفسه على الكوكب المزيد من تلوث البيئة. فهي تعتزم في الوقت الحالي التوسع في إنتاج السيارات توسعاً جذرياً.. *Vital Signs*, p. 21.

(20) C.A.S. Hall C.J. Cleveland, and R. Kaufmann, *Energy and Resource Quality: The Ecology of the Economic Process* (New York: John Wiley and Sons, 1986, p. 161.

(21) The Energy Information Adminstration, *Annual Energy Review: 1991* (Washington, D.C.: Department of the Interior, 1991).

(22) الأرقام من R. Samuelson, The Global Village, وهو مقال تمهيدي *Vital World Statistics*

(23) The Energy Information Adminstration, *Annual Energy Reports* (Washington, D.C.: Department of Interior, 1992)

(24) في سنة ١٩٨٩ كانت قطر والإمارات العربية المتحدة والبحرين والكويت وعمان تحتل بالترتيب المراكز الأول والثاني والثالث والثامن والتاسع فيما يتعلق بنصيب الفرد من استهلاك الطاقة في العالم. ومهما كانت عادات الاستهلاك السيئة لديها، فالاعتماد على الغير ليس من بينها.

(25) بعض الدول الغربية ممن ليس لديها وقود أحفوري انتقلت إلى مصادر بديلة: فدول الألب كسويسرا والنمسا تحصل على معظم الطاقة التي تستخدمها (فيما يتعدى المستخدم منها كوقود للسيارات) من المساقط المائية والباقي من الطاقة النووية (٣٧,٧ بالمائة). وتحصل فرنسا بما لديها من صناعة نووية هي الأكثر تطوراً في أوروبا، على ٦٤,٢ بالمائة من طاقتها المحلية من الوقود النووي، ولا تبعد بلجيكا كثيراً عن فرنسا في ذلك. كما أن كوريا الجنوبية (٤٩ بالمائة) واليابان (٢٧,٢ بالمائة) كذلك تعتمدان اعتماداً كبيراً على الطاقة النووية.. *Vital World Statistics, p. 81.*

(26) تستورد حوالي سبعة أثمان ما تستهلكه من طاقة-الفرنسيون يعشقون قيادة السيارات! وذلك رغم إنتاجها النووي، لأنها تصدر الكثير مما تنتجه وتضطر للاستيراد لتلبية الطلب المحلي.

(27) انظر الملحق أ.

(28) *International Petroleum Encyclopedia* (Tulsa: Penwell Publishing, 1993), pp. 284-285.

(29) Jane Perlez, Ukraine Miners Bemoan The Coasts of Independence, *The New York Times, pp. A 1,5*

الفصل الثالث: القطاع الصناعي وقيام الشرق

(1) Paul Kennedy, *The Rise and Fall of Great Powers* (New York: Random House, 1988); and Kennedy, *Preparing for the Twenty-First Century* (New York: Vintage Books, 1993); David P. Calleo, *Beyond American Hegemony: The Future of the Western Alliance* (Brighton: Wheatsheaf, 1987).

(2) بالإضافة إلى الصين، حسب اختيارات الإيكونومست لسنة ١٩٩٣. *The World in 1993*

(3) *The Economist Book of Vital World Statistics* (New York: Times Books, 1990), p. 39. وقد تضم القائمة كذلك دولا مثل بويرتو ريكو وكوبا والسويد والبرتغال وأوراجواي وزيمبابوي والمكسيك والبرازيل وتركيا التي تخصص مالا يقل عن ربع إجمالي ناتجها القومي للتصنيع. ولم أضع دول أوروبا الشرقية في الثمانينيات في هذه القائمة رغم أنها تحتل مرتبة متقدمة، لأن أهمية قطاع الصناعة هناك مبالغ فيها لأن الخدمات (وغالبا ما تقوم بها الدولة في ظل الشيوعية) مستبعدة.

(4) يقدم جوزيف ناي عرضا لكتاب *International Regimes* , Stephen D. Krasner (Itchaca, N.Y.: Cornell University Press, 1983) في كتابه Joseph Nye, *Bound to Lead: The Changing Character of American Power* (New York: Basic Books, 1991), p. 33.

(5) يعتقد ناي وهنتنجتون وآخرون أن هناك مبالغة في التوقعات الخاصة بانهيار أمريكا. وإذا كان قطاع الخدمات الناشئ في صورة معلومات العصر الحديث اتصالاته -سوق اتصالاته الترفيهية المعلوماتية-هو المعيار الجديد للنمو، فإن دولا مثل الصين واليابان أقل خطراً مما يبدو. ومن خلال الصورة التي رسمها ناي نجد أن اليابان "قوة اقتصادية أحادية البعد" رغم قوتها الاقتصادية. فهي تفتقر إلى الموارد المؤسساتية والثقافية-القوة اللينة الموجودة في قطاع الخدمات-التي تحافظ على ريادتها الحالية. Nye,ibid., p. 166.

(6) لا بد أن نتذكر ونحن نقيم رحلة أمريكا عبر القرن العشرين أن هيمنتها في زمن الحرب على التصنيع والإنتاج الصناعي في العالم كانت تمثل صورة مصطنعة، نتيجة للزوال المصطنع لقوة سائر دول العالم. ويرى ناي أنه ابتداء من سنة ١٩٣٨، وليس ١٩٤٥ كما يشير المؤرخون، لم يحدث انهيار أمريكي حتى في قطاع التصنيع-إذ لم يحدث سوى انهيار غير حقيقي مقارنة بذلك التفوق المصطنع في زمن الحرب. انظر

Nye, ibid., pp. 5-6 واليوم اكبر ثمانية بنوك من اليابان وليس للولايات المتحدة سوى بنكين ضمن أكبر خمسين بنكا في العالم-هما سيتي كورب وكيميكال بانك ويحتلان المرتبتين ٥٢ و٤٢ بالترتيب.

(7) يظل قطاع الصناعات الثقيلة مهما بطبيعة الحال. وكان إنتاج الصلب الأمريكي، الذي كان حتى سنة ١٩٧٠ يمثل ٢٠ بالمائة من الإنتاج العالمي، قد هبط إلى ١١ بالمائة سنة ١٩٨٥، إلا أنه استقر أو زاد زيادة طفيفة منذ ذلك الوقت. *Statistical Abstrct of the United States-1992,*(Washington, D.C.: U.S. Bureau of the Census), p. 751, table 1266.

(8) تحتل اي بي إم المركز رقم ٧ وجنرال إلكتريك رقم ٩. وما زالت ثمان من الثلاثين الكبرى أمريكية. وتأتي اليابان في المرتبة الثانية، اذ أن لها ١٢٨ من الشركات الخمسمائة الكبرى في العالم، تليها بريطانيا بأربعين شركة، ثم ألمانيا باثنتين وثلاثين شركة، وفرنسا بثلاثين شركة. *Fortune*, July 26, 1993, p. 188

Business America, April 6, 1992, p. 5. (9)

(10) هذه الأرقام من Gary Hoover, *Hoover's Handbook of World Business* (Austin: Reference Press, 1994), pp. 158-161

(11) كما أن أمريكا تتعامل في الجزء الأكبر من تجارتها مع جيرانها من أعضاء النافتا. فإن السوق المشتركة والدول المطلة على المحيط الهادي تتعامل في ٦٠ بالمائة من تجارتها داخل الكتل التي تجمعها. *Vital World Statistics* , p. 152 وهذه الأرقام الخاصة بالتجارة فيما بين دول أوروبا زادت زيادة منتظمة منذ بداية السبعينيات.

(12) التعليق التاريخي للرئيس النيجيري السابق الجنرال أولوسيجون أوباسانجو وآخرين واقتبسه كنيدي في *Preparing fo the Twenty-First Century,* p. 210

Forbes, July 19, 1993,,pp. 182-184. (13)

(14) كل الأرقام الواردة في هذا القسم من Gary Hoover, *Hoover's Handbook of American Business* (Austin: Reference Press, 1994), and the *Hoover's Handbook of World Business.*

Richard W. Steveson, IKEA s New Realities, *The New York Times*, April 25, 1993, p. F4. (15)

الفصل الرابع: من السلع الصلبة إلى السلع اللينة

Bill Keller, "Transition in Africa, *The New York Times*, September 25, 1993, Section 1, p. 1. (1)

(2) *Fortune*, July 26, pp. 188-204 تتفاوت التقديرات تفاوتاً كبيراً لأنها تعكس حال العديد من وسائل الإعلام-الطباعة والإذاعة ولوحات الإعلانات والبريد المباشر.

Ben H. Bagdikin, *The Media Monopoly,* fourth edition (Boston: Beacon Press,1992, p. 246. (3)

-Lewis Cole. "Screenplay Culture," *The Ntion,* November 4, 1991, pp. 560-566. (4)

(5) Bernard Weinraub, "Ovitz Firm Gets AT&T Executive," *The New York Times*, June 17, 1994, p. D 1.

(6) Lester Brown et al., eds., *Vital Signs 1993: The Trends That Are Shaping Our Future* (Washington, D.C.: Worldwiatch Institute, 1993), pp. 80-81.

(7) Ibid. انظر كذلك Jackson Lears, *Fables of Abundance: A Cultural History of Advertising,in America* (New York: Basic Books, 1994)..

(8) Fortune, July 26, 1993, pp. 188-204 إن ضياع سمعة الاسم التجاري التقليدي يمكن أن يدمر أية شركة، كما حدث مؤخراً مع أوفالتين و وايت كلاود لورق التواليت وسجائر أولد جولد و وغسول الفم لافوريس.

(9) لوتشيانو بنيتون في مقابلة بعنوان Krieg ist Realitat [الحرب هي الواقع] في *Der Spiegel*, September, p. 127. وهو يضيف أن الأمانة لم تفقد بنيتون أي جزء من السوق.

(10) الواقع أن إعلان الإيدز كان طلقة البداية في حملة تستهدف تقديم مجلة جديدة تصدر تحت شعار بنيتون اسميا (بالطبع) *Colors* [ألوان]. لماذا تصدر شركة ملابس مجلة موضة دولية؟ إنه السبب نفسه الذي وراء وضع شركة سوني لمجلة *Sony Style* في أكشاك الصحف: لاستغلال استراتيجية تجارية جديدة هي المجلة الكتالوج magalog. "إنها من ناحية كتاب لأنماط الحياة، ومن ناحية أخرى كتالوج، وهناك حاليا أكثر من ١٠٠ من هذا الهجين الذي تقوم استراتيجيته على الوصول إلى المستهلك مباشرة والتعامل مع كل صفحة على أنها فرصة تسويق." Charles Lee, "Trends: Advertisers Move into Publishing," *Newsweek*, November 1, 1993, p. 69.

(11) اضطرت رونيك مؤخراً للتراجع عن بعض دعاواها البيئية.

(12) حصلت كوانتم سيستمز انكوربوريشن برامزي بولاية نيو جرسي على براءة اختراع جديد يضع مكان جرس التليفون والإشارات الدالة على انشغال الخط إعلانات مدتها ١٥ ثانية. Theresa Riordan, "Patents," *The New York Times*, June 27, 1994, p. B 2.

(13) "حدث هياج شديد عقب الإعلان في الشهر الماضي عن قيام سبيس ماركتنج انكوربوريشن من روزويل بولاية جورجيا، بالتعاون مع مكتبة لورانس ليفرمور الوطنية في كاليفورنيا وجامعة كولورادو، بالتخطيط لإطلاق قمر صناعي للعرض مداه ميل واحد في مدار حول الأرض. و المركبة الفضائية المصنوعة من رقائق البلاستيك سوف تعكس أشعة الشمس على الأرض من حروف مضاءة أو شعارات." Malcolm W. Browne, City Lights and Space Ads May Blind Stargazers, *The New York Times*, May 4, 1993. P. C 1.

(14) اقتبسته Donella Meadows, "The Global Citizen," *The Berkshire Eagle, July 5, 1993*

(15) يقول اعلان إم تي في الموجه للمعلنين "اشتر ابن الأربع والعشرين هذا وخذ معه كل أصدقائه مجانا بلا أي مقابل. وإذا كان هذا الشخص لا يعرفك، فأنت المحتفى به. إنه يوجه الآراء. إنه يشاهد إم تي في . وهذا معناه أنه يعرف أكثر بكثير مما يُشترى من الأسطوانات المدمجة وما يُشاهد من أفلام. وهو يعرف أي السيارات يقود، وأي ملابس يرتدي، وأي بطاقة ائتمان يشتري. وهو ليس وحيدا. إنه على رأس مجموعة من

الأشخاص." اقتبسه Adbusters, Vol. 3, No. 2, Summer 1994. وأدباسترز "مجلة البيئة الذهنية" غير العادية ربع السنوية التي تصدر من كندا وتخصص لإعادة هيكلة صناعة الإعلان.

(16) قدم إعلان نايك منذ عدة سنوات لقراء المجلات النسائية "مسرحية عاطفية من ستة فصول" وهي جنسية وتقع في اثنتا عشرة صفحة واسميا Falling in Love [الوقوع في الحب] وفيها مشاهد تحمل عناوين مثل "الرغبة الجنسية" و "الانتعاشة" و "الامتعاض" و الحقيقة"، وكانت الأحذية تقوم بالأدوار الثانوية.

(17) Ann Miller and Seema Nayyar, "Ads of Our Lives," *Newsweek*, September 26, 1994, pp. 48-50.

نينتندو، وهو بطل من رعاة البقر على حدود الفضاء الإلكتروني، يعرف ذلك جيداً. في حملة إعلانية جديدة بدأت في سنة ١٩٩٤ وتستهدف سوقها الرئيسية، وهي سوق المراهقين، لا تبيع ماكينات اللعب والبرامج، وإنما تعيد بيع الأطفال للأطفال أنفسهم، حتى انهم طبقاً لما قاله مدير إعلانات نينتندو دون كويئر سوف يعرفون نينتندو وهو يتحدث "لغة الأطفال" بـ "طريقة يمكنهم الارتباط بها ارتباطا تاما به." وإعلانات نينتندو التي تقول Play It Loud [ارفعوا صوتها] "متوحشة ومخيفة وتسخر من الأم التي ترنو إلى 'طبيب في الأسرة' وحارس أمن يقول 'ممنوع الجري، ممنوع البصق، ممنوع الموسيقى الصاخبة، ممنوع اللعب بلوح التزحلق، ممنوع اللعب بأحذية التزحلق'" ويصرخ طفل قائلا "نريد أن نكون أحراراً في عمل ما نريد أن نعمله." ويقول صوت للمشاهدين hock a loogie at life (ابصق على الدنيا) و give the world a weggie (اعط العالم الملابس الداخلية الملفوفة في بعضها). انظر: Stuart Elliot, The Media Business: Advertising: Nientendo Turns Up the Volume, *The New York Times*, July 1, 1994, p. D 15.

(19) Stuart Elliot, "In Search of Fun for Creativity's Sake," *The New York Times*, January 3

., 1994, p. C 19.

(19) نقلاً عن مجلة تايم في Stuart Elliot, "Advertising," *The New York Times*, June 1, 1994, p. D 15.

(20) The LOOK برنامج خاص تقدمه البي بي سي عن صناعة الأزياء والموضة.

(21) Sallie Hoffmeister, "In the Realm of Marketing, the Lion King Rules," *The New York Times*, July 12. 1994, p. D 1. هذا هو نفسه المنطق الذي جعل ديزني تستثمر أموالها في برودواي (حيث جددت مسرح Forty-second Street الذي تحقق فيه مسرحية "الجميلة والوحش" أرقاما قياسية: وتبحث عن موقع تاريخي لمدينة ملاه أمريكية جديدة–في غير فيرجينا، التي أفسدت مشروعها الخاص بمدينة ملاه الحرب الأهلية بعد ماساتشوستس، وإنما في مكان يقع بين أورلاندو والفضاء الإلكتروني.

(22) انظر Frank Deford, "Running Man," *Vanity Fair*, August 1993, p. 54 وانظر كذلك Donald Katz, *Just Do It: The Nike Spirit in the Corporate World* (New York: Random House, 1994)

(23) Christian Brennan, The Athletic Shoe Company That Won t Tread Softly, *The Washington Post*, National Weekly Edition, May 31-June 6, 1993, p. 20.

Nike 1992 Annual Report. (24)

(25) من بين الشركات التي يزكيها جنرال ميلز (ويتيز) وويلسون سبورتنج جودز وسارا لي التي تضعه في محافظ هينز وتضع بول بارك فرانكس فيه وتدفع كل منها له ٢٠ مليون دولار سنوياً. فهل نايك مجنون؟ ربما ليس كذلك: فاير جوردون ماركة تحقق ٢٠٠ مليون دولار سنوياً، أي ما يساوي ٥ بالمائة من عائدات نايك في ١٩٩٢. Curry Kirkpatrick, "Up, Up, and Away," *Newsweek*, October 18, 1993, pp. 56-67. السبب الذي أبداه لعودته إلى كرة السلة سنة ١٩٩٥ يمكن أن يزيد هذه الأرقام.

للاطلاع على عرض رائع لتاريخ الإعلان، انظر Jackson Lears, *Fables of Abundance*

وللإطلاع على عرض يهتم أكثر بروح الإعلان نفسه، انظر Randall Rothenberg, *Where the Suckers Moon: An Advertising Story* (New York: Alfred A. Knopf, 1994).

وهكذا يتباهى تقرير نايك السنوي بأن "الناس ينتظرون بلهفة المرة الأولى التي يُعرض فيها الإعلان الجديد، وهم في الوقت نفسه يبدون رد فعل متحمس. فعلى سبيل المثال، نجد أن حملة إعلانات المجلات النسائية الأمريكية [التي يُفترض أن المسرحية العاطفية جزء منها] قد حازت على قبول حماسي من أجل رسالتها الخاصة بالأمانة وتمكين الذات." وهذه الغاية "تخلق روابط عاطفية مع المستهلكين وتتيح لهم فرصة الإيمان بمنتجات ودوافعه."

Michael Lev, "Store of Future: It Also Sells Shoes," *The New York Times*, June 17, 1991, p. D 1. (27) حسبما ذكره ب. ك. أندرسون مؤلف محرر كتاب *Visual Merchandising and Store Design* "ليس هناك الآن ما يكفي من وقت الفراغ، الأمر الذي يجعل الناس بحاجة إلى اللهو. انك لا بد أن تستخدم كل حيلة في هذا الكتاب كي تجعل هؤلاء المتسوقين يبقون أطول وقت ممكن."

وبالإضافة إلى محلها في بورتلاند، تعتزم نايك أربع عشر مدينة نايك مشابهة بحلول نهاية العقد الحالي. كما أنها أنشأت عشر مدن نايك صغيرة–"محلات عرض"–في أمريكا وتعتزم إنشاء ثمانين أخرىفي أنحاء العالم. وافتتحت نايك مؤخراً مكتباً في فيتنام وعيناها على إمكانيات المبيعات في شرق أوروبا. Ken Hmburg, Nike Planning Lay-offs Globally, *The Oregonian*, September 21, p. B 180

(28) يقول المدير التنفيذي نايت "هناك أزمة في أمريكا في الوقت الراهن" وترغب نايك في تقديم العون. لدى ريبوك النسخة الخاصة بها من P.L.A.Y. وتسمى Reebok Foundation حيث ترعى برنامج جوائز حقوق الإنسان الذي يأمل في "إحداث فرق في العالم الأكبر." (Paul Fireman, Reebok CEO, Reebok 1992 Annual Report)

الأعمال الخيرية التي يقوم بها أصحاب الملايين الذين ابتلعوا الأسواق تقليد أمريكي قديم كما هو معروف. والجهود التي تتم اليوم تكمن حداثتها في القضايا التي توجه إليها–وهي من الناحية المثالية صحيحة سياسيا

وتهدف إلى خلق مستهلكين جدد لمنتجاتهم (النساء والأطفال). بنى كارنيجي المكتبات ولم يدعم أجيالا جديدة من مشتري الصلب.

(29) تخلصت حملة بيبسيكو الجديدة لسنة ١٩٩٣ من الشعار القديم Gotta have it! ليحل محله الشعار الجديد Be young, have fun, drink Pepsi [كن شابا واحصل على المتعة واشرب بيبسي] ويفترض أن هذا مرجعه أن المديرين بعيدي النظر يعتقدون أن المستهلكين سوف يعيدون ترتيب الكلمات لتحمل الكلمات المنطقية في عقولهم التي خفت بالمشروبات الخفيفة ويشربون البيبسي لكي يحصلوا على المتعة ويصبحون شبابا.ويقول فيل دزينبري مدير الإعلانات والمسئول عن الحملة الجديدة "نريد المحافظة على فكرة أن بيبسي من أجل يريدون أن يشعروا أنهم شباب ويكونون كذلك." Patricia Winters, "Pepsi Harkens Back to Youth," *Advertising Age*, June 25, 1993, pp. 3. 43.

Coca-Cola 1992 Annual Report. (30)

يناقش ايرك شوريس الأثر العام للإعلان على الثقافة في *A Nation of Salesmen: The Tyranny of the Market and the Subversion of Culture* (New York: Norton, 1994)

(31) حسب القصة التي يرويها مارك بيندرجراس في كتابه *For God, Country and Coca Cola* (New York: Scribner s , 1993), فإن كوكا تفعل أي شيء يساعدها على اختراق الأسواق منذ إكرامها للنازيين (الذين كانوا يزعمون أن كوكا شركة يهودية أمريكية لأنها كانت تبيع زجاجات تحمل كلمة كوشير) عن طريق توزيع عينات في اجتماعات شباب هتلر الجماهيرية، وإكرامها لستالين بعدم إضافة الكرامل إلى "الكوكا البيضاء" وشحن خمسين صندوقا في زجاجات شفافة تحمل أغطيتها النجمة الحمراء طمعاً في موافقته. ومؤخرا كانت كوكا موجودة عند انهيار سور برلين حيث وزعت عبوات ذات ستة زجاجات. ويلخص بيندرجراست الأمر بلا أية عواطف قائلاً "في الحرب العالمية الثانية كانت كوكا رمزاً للإمبريالية الأمريكية، وطعام كوشير، ومشروب شيوعي مقلد، ومشروب شباب هتلر. كان معظم الناس يظنون أن الحرب كانت على الخير والشر والأيديولوجيات المتنافسة وغير ذلك، ولكن الأمر بالنسبة لكوكاكولا أبسط من ذلك بكثير." انظر Mark Pendergrasst, ibid.,and his short piece "A Brief History of Coca-Colonization, in *The New York Times*, August 5, 1993, p. F 13.

(32) إليك مثلا من منطقة استهلاكية أخرى: هل أفران الميكرو ويف "ضرورية"؟ في الولايات المتحدة، ٤٤ بالمائة من السكان يعتقدون أنها كذلك، وفي المكسيك يعتقد ١٩ بالمائة أنها كذلك. فإذا أمكن إقناع ٢٥ بالمائة أخرين في المكسيك بأنهم "يحتاجون" أفران الميكرو ويف. فإن سوق الميكرو ويف الأمريكية- خاصة في حقبة النافتا-تنتعش انتعاشا كبيرا. الأرقام من Anthony de Palma, "Mexico's Hunger for U.S. Goods Is Helping to Sell Trade Pact," *The New York Times*, Week in Review, November 7, 1993, Section4, pp. 1-2.

(33) في التقرير السنوي لكوكاكولا لسنة ١٩٩٢ الذي يتمشى تماما مع فكرتنا هنا، وهي "عوالم الفرصة".

(34) The New York Times Magazine, December 25, 1994, pp. 36-37ربما

يحدث باسم أيديولوجيا المتعة أن تقوم كل محلات العطور الكبرى بتسويق "مستحضرات تجميل الصغار" و "عطور الرُضّع" مثل l eau des petits من إنتاج جاكادي. ولدى شاو كو في باريس عطور تستهدف الشباب تحمل أسماء Babar و Celeste و Mickey و Minnie - إنها مدينة ملاهي العطور. انظر L'esprit du Bebe, *The New Yorker*, February 6, 1995, p. 28

(25) انظر Edward C. Banfield with assistance of Laura Fasano Banfield, *The Moral Basis of a Backward Society,* (New York: The Free Press, 1958).

الفصل الخامس: من السلع اللينة إلى الخدمة

(1) الأرقام من Bill Orr. *The Global Economy* (New York: New York University Press, 1992, p. 101.

(2) Ibid., p. 99.

(3) John Holush, "The Risks for High Tech," *The New York Times*, September 5, 1993,p. F 7 يعود قدر كبير من الهبوط إلى تخفيض نفقات القطاع العام، ولكن نفقات القطاع الخاص لم يطرأ عليها تغيير.

(4) *Fortune*, August 26, 1991, pp. 165-188

(5) *Fortune*, August 23, pp. 160-196

(6) الأرقام منقولة عن D. J. Connors and D. S. Heller, "Viewpoints: The Good Word in Trade is Service," *The New York Times*, September 5, 1993

(7) *Forune*, May 31, 1993, pp. 206-208.

(8) Pat Cadigan, "Pretty Boy Crossover," *Synners*, (New York: Bantam, 1993 as cited by John Leonard, "Gravity's Rainbow," *The Ntion*, November 15, 1993, pp. 580-588.

(9) اقتبسه Bernard Weinraub, "Robert Altman," *The New York Times*, July 29, 1993, p. B 1.

(10) Roger Cohen, "Aux Arme! France Rallies," *The New York Times*, January 2, 1994, p. H 1.

(11) المرجع السابق.

(12) نقلا عن Daniel Pipes, "The American Conspiracy to Run the World," *The Washington Post*, National Weekly Edition, Nov. 14-20, 1994, p. 25.

(13) الشركات مغرمة غراما شديدا بهذه اللغة: ولذلك أطلق جاك ولش رئيس مجلس إدارة جنرال إلكتريك على مؤسس شركة سوني أكيو موريتا (الذي أقصي عن منصبه لإصابته بنزيف في المخ)

"الكوني روحانيا". Jolie Solomon with PeterMcKillop, "We have Lost a Very Important Player," *Newsweek*, December 13, 1993, p. 50.

(14) في عدد خاص من *International Political Science Review* (Vol. 14, No. 3, July 1993) on "The Emergent World Language System"[العنوان في حد ذاته له مغزاه!] يكتب ابرام دي سوان قائلا: "في وسط هذه المجرة هناك لغة واحدة يتحدث بها متحدثون يجيدون لغات متعددة في المجموعات اللغوية العابرة للقوميات بما يفوق أية لغة سواها، ولذلك فهي مركزية بالنسبة لكل اللغات المركزية. هذه اللغة الفائقة المركزية هي بطبيعة الحال الإنجليزية." P. 219 ويذهب ديفيد د. ديتن الى أبعد من ذلك في قول يتعلق بالمعركة الدائرة بين الجهاد وعالم ماك حين يكتب قائلا: "يبين منطق العولمة أن اللغات العالمية كالإنجليزية سوف تبدأ في تحدي اللغات الإقليمية بطريقة تهدد وجودها كلغات حية." "The Game Theory of Languages," ibid., p. 226

(15) مع أنها كانت المرة الأولى، فإن مصلحة الجمهور في الثلاثينيات قُضي عليها قضاء مبرما بالحلول الوسط التي حصلت عليها النزعة التجارية: انظر Robert W. McChesney, *Telecommunicatios, Mass Media, and Democracy* (New York: Oxford University Press, 1993)

(16) هذا الموضوع ليس بالجديد، إذ يقول ويليام ليتش في كتابه *Land of Desire: Merchants, Power and the Rise of a New American Culture* (New York: Vintage Books, 1994) إن ظهور النزعة الاستهلاكية منذ تسعينيات القرن التاسع عشر مرورا بالكساد الأعظم يوازي بصورة أو بأخرى ظهور الرأسمالية الأمريكية.

(17) غياب الاهتمام الحكومي في أمريكا أمر مفزع، على اعتبار ما يعنيه هوس اندماجات وسائل الإعلام الجديدة بالنسبة لحرية المعلومات، الفرص المتكافئة للوصول إلى المعرفة، وقضايا الاحتكار. وقد عقد ائتلاف يضم ستين من جماعات المستهلكين والعمال والحقوق المدنية التي لا تستهدف الربح "المائدة المستديرة لسياسة الاتصالات" Telecommunications Policy Roundtable التي تأمل في طرح الجدل العام بشأن المصلحة العامة في هذه التقنيات الجديدة، إلا أنه لا يبدو أنها مقابل متكافئ مع الصفقات التي تصل إلى العديد من ملايين الدولارات وتعقدها في الوقت الراهن الشركات الخاصة.

الفصل السادس: هوليوود: فيديولوجيا عالم ماك

(1) Jeff Miller, "Viewpoints: Should Phone Companies Make Films?" *The New York Times*, January 2, Section 3, p. 11.

(2) Roger Cohen, "Europeans Back French Curbs on U.S. Movies," *The New York Times*, December 12, 1993, Section 1, p. 24.

(3) نقل روجر كوين في "Aux Armes! France Rallies," *The New York Times*, January 2, 1994, p. H 1.

(4) Marselli Sumarno, "Indonesia," in the *Vnity Fair Internationa Film Guide* (Hollywood: Samuel French Trade, 1993), p. 210. وطالبت الولايات المتحدة بتيسير دخول صادرات الأفلام الأمريكية إلى إندونيسيا مقابل ضمانها عدم إعاقة دخول واردات المنسوجات الإندونيسية الولايات المتحدة.

(5) Roger Cohen, "Europeans Back French Curbs," p. A 24.

(6) Alan Riding, "French Film Industry Circles the Wagons," *The New York Times*, September 18, 1993, Section 1, p. 11.

(7) بذلك يمكن لفيلم حقق جماهيرية على المستوى المحلي مثل *Les Visiteurs* أن يتفوق على فيلم فائق الجماهيرية مثل *Jurassic Park*.

(8) Bernard Weinraub, "Directors Battle Ovet GATT," *The New York Times*, December 12, 1993 1, p. 24.

(9) Paul Chutkow, "Who Will Control the Soul of the French Cinema?" *The New York Times*, August 9, 1993, Section 2, p. 22.

(10) Roger Cohen, "Barbarians at the Box Offices," *The New York Times*, July 11, 1993, Section 9, p. 3.

(11) في قصيدة من الشعر الهزلي بعنوان The Gatt in the Vat يصور ستيوارت اليوت المزاج الساخر الذي يرى به الأمريكيون القلق الفرنسي:

They note with delight GATT's roiling the French,
The folks who make teeth around the world clench.
The French claim our movies, TV and such,
Will put their own film makers in Dutch.
They clamor their culture's in peril, The French
Terrified Spielberg will make them retrench.
Overshadowed by "Jaws" and "Terminator 2,"
How will Gerard get his Depar-dieu?

Stuart Elliot, "GATT in the Vat," *The New York Times*, December 12, 1993, p. E 5.

(12) ألمانيا أكثر تمثيلاً لأوروبا من فرنسا. فقد أبدت قدرا أقل بكثير من المقاومة لهوليوود. ففي الخمسينيات كان فيها أكثر من سبعة آلاف شاشة عرض وما يزيد على ٧٥٠ مليون تذكرة، وكانت الأفلام الألمانية تمثل نصف ما يُعرض تقريبا. وكانت أمريكا تحصل فقط على ربع العائدات، بينما كانت الأفلام الإيطالية والفرنسية تحصل كل منهما على ١٠ بالمائة من السوق. وأتاحت ألمانيا لشعبها سوقا ثقافية متنوعة حق التنوع ومتغايرة ثقافيا. إلا أنه بحلول سنة ١٩٧٥ أدى التلفزيون وارتفاع الأسعار إلى هبوط مبيعات التذاكر إلى ١٢٨ مليونا فقط. في حين انخفض عدد الشاشات المتاحة إلى حوالي ثلاثة آلاف ومائتين. وفي الوقت نفسه، زحف النصيب

الأمريكي ليصل الى ٤١ بالمائة بينما هبط النصيب الألماني من العائدات الى ١٣ بالمائة فقط. وخلال الثمانينيات تراوح النصيب الألماني بين ١٠ و ٢٠ بالمائة من السوق، ولكن الواردات الأمريكية قفزت قفزة كبيرة من ٥٣ بالمائة سنة ١٩٨١ الى ٦٦ بالمائة سنة ١٩٨٤ ثم الى ٨٣ بالمائة سنة ١٩٩٢، وهي السنة التي كان فيها تسعة من أكثر الأفلام دخلا في ألمانيا أمريكية، حيث احتلت أفلام *Basic Instinct, Hook, Beauty and the Beast, Home Alone, JFK* المراكز الخمسة الأولى. (كل الأرقام من مأخوذة عن المعلومات التي قدمتها إدارة الإحصاء الخاصة بـ Spitzenorganisation der Filmwirkschaft e V بخطاب مؤرخ في ٢٨ يونيو ١٩٩٣.) وكما هو الحال في دول أخرى، ما تزال ألمانيا موطناً لإنتاج قدر كبير من الأفلام، يصل عددها إلى ثلاثة آلاف إنتاج في السنة. إلا أن ١٠ بالمائة فقط منها تعد إنتاجا جادا له ميزانيات حقيقية ونسبة قليلة منه تجد طريقها إلى العرض التجاري.

(13) David Stratton, "Gone With the Wind," *Variety International Film Guide*, p. 14.

(14) الارقام مأخوذة من إدارة الإحصاء في Spitzenorganisation der Filwirkschaft e. V.

(15) "Sleeping With the Enemy: Europe's Film Industry," *The Economist*, October 26, 1991, p. 91. إن تحديد عدد الأفلام الأمريكية لا يحول دون تحقيق الأفلام فائقة الجماهيرية نسبة لا تقارن من اجمالي العائدات.

(16) حذر المخرج السينمائي الفرنسي آلان كورنو قائلا "فكروا في العالم الذي ليس فيه إلا صورة واحدة." نقل ما قاله في Riding, "French Film Industry."

(17) Uma de Cunha, "India," *Variety International Film Guide*, p. 30.

(18) Deborah Young, "Indian Cinema Now," in *Variety International Film Guide*, p. 30.

(19) في فيلم Dances with Wolves يسجل كيفن كوستنر الغزو الذي تعرض له الهنود الحمر أصحاب البلاد الأصليين من الأمريكيين، فهل يمكن للإسلام أن يحقق ما هو أفضل في مواجهة كيفن كوستنر؟ وتشير الأرقام إلى أن حقق أكثر من نصف ايراداته من عرضه في الخارج. وينسحب هذا على الكثير والكثير من الأفلام الأمريكية، بما في ذلك تلك التي تبدو أفلاما ذات نجاح "أمريكي" مثل *Jfk, Pretty Woman, Robin Hood*.

(20) مقتبس في Davis Hanson, "The Real Cultural Revolution," *Newsweek*, November 1, 1993. P. 74.

(21) اقتبسه Andrew Horton, "Russia," *Variety International Film Guide*, p. 324 ما يجري عمله في روسيا في الوقت الحالي نوع مبهرج من الأفلام يحمل أسماء مثل "عملاق الجنس الرائع الصغير" و "العنف" و "بيت الدعارة" و "حتى عملاء الكيه جي بي يقعون في الحب". وبالنسبة لما عدا ذلك، فإن الاستوديوهات التقليدية مثل موسفيلم وجوركي ستوديو مشغولة الآن بشكل أساسي في تقديم الخدمات للانتاج الأجنبي مثل الفيلم الأمريكي *Russia House* للحصول على العملات الصعبة.

(22) هيمنة هوليوود على السوق الكونية لا يتضح فقط في عائداتها ومبيعات تذاكرها، وإنما كذلك في تزايد حصتها من الواردات في كل سوق مستوردة. ويقدم لنا استطلاعا عن قائمة "أفضل عشرة" أفلام أجنبية نشرته في اليابان *Kinema Jumpo* بدءاً من سنة ١٩٢٤ صورة واضحة عن نمو وانكماش السينما الوطنية في بلاد مثل الهند والسويد وفرنسا وإيطاليا التي كانت تمد اليابان بواردات عالية الجودة. فبعد الاحتكار القديم لهوليوود في أواخر العشرينيات وفي الثلاثينيات (من ١٩٢٤ حتى ١٩٣٤) جاء ٧٧ فيلماً (أو ٧٣ بالمائة) من أكبر الأفلام الأجنبية وعددهم ١٠٦ من أمريكا، وأصبحت أمريكا واحدة من بين مستوردين كثيرين. ومن ١٩٣٥ حتى ١٩٤٨ جاء ٢٧ (أو ٤٥ بالمائة) من بين أكبر ٦٠ فيلما مستورداً من أمريكا. وبعد الحرب، أي من ١٩٤٨ وحتى ١٩٦٨، جاء ٥٩ (أو ٢٨ بالمائة فقط) من أمريكا. وفي سنة ١٩٦٠ على سبيل المثال لم يحتل فيلم أمريكي مركزا في قائمة الأفلام العشرة الكبرى سوى فيلم The Great Dictator "الديكتاتور العظيم"، بينما احتل بقية القائمة ثلاثة أفلام هندية وأربعة فرنسية وفيلمان روسيان. وفي سنة ١٩٦٧ لم يكن على القائمة سوى فيلم *Heat of the Night* ، أما المراكز التسعة الأخرى فقد احتلتها أفلام أجنبية من السويد والاتحاد السوفيتي وغيرها من الإنتاج الأوروبي. غير أنه اعتباراً من ١٩٦٩ كان ما بين أربعة إلى سبعة من أفلام القمة العشرة المستوردة أمريكية (٧٠ فيلماً أو ٥٤ بالمائة من المائة والثلاثين فيلماً المستوردة في الفترة من ١٩٦٩ حتى ١٩٨٨)، وفي السنوات الخمس الأخيرة كان نصيب أمريكا ثمانية أو تسعة من بين الأفلام العشرة المستوردة التي تحتل القمة وكذلك أكثر الأفلام دخلاً قياساً على الأفلام المنتجة محلياً. كل الإحصاءات من مجلة السينما اليابانية *Kinema Jumpo* Best Ten: 1924-89

(23) الإنتاج المشترك يجعل من الصعب نسب هوية المنتج إلى ثقافة قومية بعينها، ولكن الأمر يتعلق أكثر بتمويل الأفلام دوليا أكثر منه إبداعها فنيا، ورغم أن الإنتاج المشترك قد أعطى نكهة عالمية لأفلام مثل *The Crying Game* و *The Lover* فإن تأثيره الأساسي كان أقلمة ما كانت في يوم من الأيام أفلاماً فرنسية أو سويدية أو إندونيسية أو صينية فلم تعد خاصة بدولة بعينها.

"'الديمقراطيات الجديدة' في شرق أوروبا تتلقى دروساً مريرة، إذ أن عدم وجود دعم الدولة يدفعها إلى الدخول في شراكات غير محتملة تهدد 'الشخصية القومية': في الشرق الأقصى، العدوان القديمان، الصين وتايوان، يعتمد كلاهما على صناعة الفيلم المهيمنة في هونج كونج في ضخ سبل الحياة في ثقافتيهما السينمائيتين. وفي اسكندنافيا، أضاع الإنتاج المشترك لدول الشمال 'جنسية' أي فيلم." David Stratton, "Gone With the Wind," *Variety International Film Guide*, p. 20

(24) كما يشير ديريك إيلي محرر *Variety International Film Guide*، فإن الإنتاج المشترك لفيلم من الأفلام في إيطاليا ويوغوسلافيا قد يعني وضع خطة الفيلم في أحد ملاهي روما، ومشهد سريع ورخيص فيما كان يوغوسلافيا، وبعد ذلك ..."يوقع عقد مع نجم أمريكي لم يعمل في هوليوود منذ عدة أشهر للقيام بالبطولة الرجالية للفيلم، ويوافق مشخص بريطاني يقضي أجازته في روما على القيام بدور 'الثقيل' بشروط متواضعة...ويتم التعاقد مع مخرج أمريكي من مخرجي المسلسلات التلفزيونية ليتولى الإخراج، رغم أنهم يوضحون له بطريقة مبهمة أنه لن يلقى تقديره كمخرج في إيطاليا. وبعد ذلك يحجز المنتج الأستوديو ويدفع

التكاليف ليوغوسلافيا. ويدفع اليوغوسلاف التكاليف هناك وربما يظل في جيوب كثيرين من أفراد المجموعة دينارات لا قيمة ليا." Derek Elley, "Coproduction: Who Needs Them?" *Variety International Film Guide*, p. 19

(25) وهناك استراتيجية فرنسية أخرى تدعو إلى دبلجة الأفلام الفرنسية بالإنجليزية مقلدة بذلك دبلجة الأفلام الأمريكية بالفرنسية، وهو ما ساعد هوليوود على اجتذاب المشاهدين الفرنسيين، ولكن الدوبلاج له أثر جانبي هو "أمركة" الأفلام الفرنسية بعض الشيء تعزيز سيادة اللغة الإنجليزية. ويلجأ الفرنسيون إلى استراتيجية منع عادة هوليوود المدمرة الخاصة بإعادة إنتاج الأفلام الفرنسية-كما حدث مع فيلم *Three Men and a Baby* و *Point of No Return* وكان اسم الأصلي *La Femme Nikita*.

(26) فولكر شلوندورف من ألمانيا، وبيتر فاير من النمسا، وبول فيرهوفن من هولندا ليسوا سوى عدد قليل من المخرجين الذين ذهبوا بمواهبهم إلى هوليوود، حيث جرى تعديل هذه المواهب لتتلاءم مع حاجاتها وأذواقها. وإلى جانب فيم فندرز وغيره من المخرجين الأوروبيين، يدعو المخرج الإنجليزي ديفيد بوتنام، الذي جرب هوليوود وعاد إلى بلاده، إلى توسيع الحصص الفرنسية والدعم على الطريقة الفرنسية ليشمل كل أوروبا. ولكن إذا كان هناك مكان "لا يمكن أن تعود إلى بلادك" وتتركه فقد يكون هوليوود. ويحاول معظم المخرجين القادمين من الخارج أن يحسبوا كيف يقومون بالرحلة في الاتجاه المعاكس.

(27) انظر Phiip Weiss, "Hollywood at a Fever Pitch," *The New York Times Magazine*, December 26, 1993, p. 22. وقد أجرى مقابلات للحصول على عمل مع أناس مثل سكوت رودن المنتج الشاب المعروف الذي أنتج *Sister Act* و *Family Values*.

(28) Report on France, *Variety International Film Guide, p.163.*

(29) السينما تتناول التسويق، والتسويق يعني الإذعان لحكم الشريط الصوتي الرقمي DAT الخاص بردود أفعال المشاهدين في العروض الخاصة التي ينظمها المنتجون لاختبار تسويق أفلامهم. وعندما يُخيرون بين توقعات تشيكيج وتقرير هذا الشريط عن ردود أفعال المشاهدين، فإن منتجين مثل سكوت رودن سوف يقولون إن الشريك يكسب في كل مرة.

(30) كل الأرقام الخاصة بإندونيسيا مأخوذة من Philip Shenon, "Indonesian Films Squeeze Out," *The New York Times*, October 29, 1992, p. A 19.

(31) رغم كل المخاوف التي في الخارج، ما تزال السيادة الدولية التي يتمتع بها الفيلم الأمريكي في تصاعد. وكما يشير جون ماركوم الابن في مقالته مجلة فوربس بعنوان "Dream Factory to the World" فإن "هوليوود بالفعل واحدة من أقوى موردي المنتجات الاستهلاكية. ومع ذلك فهي لم تبدأ بعد في استقطاب الأسواق الدولية." John Marcom, Jr., "Dream Factory to the World," *Forbes*, April 29, 1991, p. 98.

(32) رغم ما حققه المنتجون الأمريكيون من نجاح ، فواقع الأمر أنهم يشكون من أن العالم لا يشاهد الأفلام بالقدر الكافي. ومع أن نصف عائدات السينما الأمريكية يأتي من الخارج، حيث يمثل فائضا قدره ٣,٥ مليار دولار ، فما زالت الولايات المتحدة فيها شاشة سينما واحدة لكل ١٠٣٣٣ شخص (٢٤ ألف شاشة لـ ٢٥٠

مليون مواطن)، بينما اليابان بها شاشة واحدة لكل ٦١٥٠٠ شخص. ودور السينما في إيطاليا ليست مكيفة الهواء، ومعظم العالم لم يشاهد بعد سحر دور السينما متعددة قاعات العرض المربحة-رغم أنها في الطريق، حيث من المقرر أن تبني تايم وارنر، على سبيل المثال، ثلاثين في اليابان وحدها في عامي ١٩٩٣-١٩٩٤.
Alan Citron, "American Films Boffo Overseas," *International Herald Tribune*, March 31, 1992.

(33) ليس حرفيا بالطبع. فهناك حدود للتأثير المباشر للأفلام. يرتدي القتلة البوسنيون والصربيون أحذية أديداس ويستعملون الووكمان ويعرفون كل شيء عن مايكل جوردون، ولكنهم ما يزالون يسعون إلى قتل جيرانهم بطريقة وحشية. ويشاهد المسلمون السعوديون الأفلام الاستهلاكية الغربية دون أن يبدو أنهم سيتخلون عن دينهم. واشتهر عن كل من هتلر وستالين أنهما كانا مغرمين بمشاهدة الأفلام، بينما ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية فمن الواضح أنه متيم بأفلام الغرب الأمريكي، ولكن هذا لا يوحي بأن أياً من فيلمي *High Noon* أو *Gunfight at the OK Corral* منعه من مصافحته المصيرية لرئيس الوزراء الإسرائيلي رابين في واشنطن سنة ١٩٩٤ أو دفعه إليها.

الفصل السابع: التلفزيون وإم تي في : روح عالم ماك الصاخبة

(1) للحصول على خلفية عن دور التلفزيون والإعلان في الحياة الأمريكية انظر الكتب القديمة Marie Winn, *Plug-In Drug* (New York: Grossman Publishers, 1977); Frank Mankiewicz and Joel Swerdlow, *Remote Control: Television and the Manipulation of American Life* (New York: Ballantine Books, 1979); Jerry Mander,*Four Arguments for the Elimination of Television* (Brighton: Harvester Press,1980); Todd Giltin, *Inside Prime Time* (New york: Pantheon, 1983)

(2) Graldine Fabrikant,"Bell Atlantic's Acquisition," *The New York Times*, October 14, 1993,p. C7.

(3) لن أحاول هنا إعادة النقد الموضوعي للتلفزيون الذي قدمه النقاد الاجتماعيون مثل مارشال ماكلوهان أو نيل بوستمان أو تود جيتلين. غير أنه لكي نضع إطاراً لأفكارنا الواردة هنا، فإن تعليق جون بيرجر الذي يقول إن "الإعلان يحول الاستهلاك إلى بديل للديمقراطية" يستحق الاقتباس، Ways of Seeing (London: Penguin, 1972, p. 149.

(4) Steven Daly, "London Is Dead: Invasion of U.S. Pop Culture," *The New Republic*, June 14, p.12. ويقتبس دالي كلمات أغنية موريسي التي تقول "إننا نتطلع إلى لوس أنجلوس كي نحصل على اللغة التي نستعملها/ماتت لندن/ ماتت لندن."

(5) Miklos Vamos, "U.S. Cultural Invasion: Hungry for American Pop," *The Nation*, March 25, 1991, pp. 11-12 كان ذلك قبل ثلاث سنوات: ولم يطرأ أي تغير على الأمور.

(6) هناك بالإضافة إلى ذلك نسخة خاصة بمنطقة السهوب من *The Dating Game* اسمها *Love at First Sight* ومائتا حلقة من حلقات *The Rich Also Cry* المكسيكية الأمريكية. Nadeshda

Azhginkhina,"High Culture Meets Trash TV," *Bulletin of the Atomic Scientists*, January/February 1993, p. 42.

(7) يمثل البولنديون سابع أكبر عدد مشاهدين للكيبل في أوروبا، حيث يزيد عددهم بمقدار ٤٠٠ ألف عن الفرنسيين. Jane Perlez, "Poland Exercisesthe Right to Channel Surf," *The New York Times*, November 14, 1993, p. E 18. هذه الأرقام يفترض أنها زادت كثيرا في السنوات الماضية. أول قنوات بولندا التي حصلت على موافقة رسمية هي قناة بولسات التي بدأت بث برامجها "المحلية" في ١٩٩٣ بإذاعة فيلم مخرج هوليوود مايكل سيمينو *The Deer Hunter* (ويحمل بعض إدعاءات خاصة بوسط أوروبا) مع مسلسلات كلاسيكية مثل *General Hospital* و *Dallas*

(8) Patrick E. Tyler, "CNN and MTV. Hangin' by a Heavenly Thread," *The New York Times*, November 22, 1993, p. A 4.

(9) Philip Shenon, "Star TV extends Murdoch's Reach," *The New York Times*, August 22, 1993m p. C 1.

(10) ويمضي سيبروك قائلا "كثيرا ما يقال إن قسم الترويج هو جوهر إم تي في. كل شيء في إم تي في هو ترويج لشيء ما، ومهمة قسم الترويج، ضمن ما يقوم به، هي الترويج لذلك." ويقول أحد موظفي ام تي في "إنكم تبيعون إحساسا يتعلق بما يقصد به أن يكون ...يا إلهي، لقد نسيت." John Seabrook, "Rocking in Shangri-La," *The New Yorker*, October 10, 1994, pp. 64-78.

(11) في براغ الآن، تتضمن مواد القراءة الرسمية الخاصة بامتحان الحصول على الشهادة الثانوية أغنية البيتلز "Lucy in the Sky with Diamonds." وأغنية جون لينون "Happiest Days of Our Lives" *Harper's*, June 1994, p. 22. ولكن في ذلك الوقت كان فيلم ايريك سيجال *Love Story* ضمن اختبارات الجامعة في فرنسا!

(12) عندما بدأت إم تي في ، كان متوسط عمر الإدارة خمسا وعشرين سنة. أما الآن فهو أقرب إلى التاسعة والعشرين. ويعتقد ردستون أن أفراد حرب العصابات أطفال ويضيف قائلا: "وبالمناسبة، هذا هو السبب في أن المحاربين من أجل الحرية في كل أنحاء العالم يرتبطون بإم تي في"! اقتبسه سيبروك في "Rocking," p. 67.

(13) Steve Clarke, "Rock Conquers Continent," *Varriety*, November 16, 1992, p. 35.

(14) Helmut Fest, "MTV Europe Ignores Local Acts," *Billboard*, March 7, 1992, p. 8.

(15) Uma de Cunha, "India," in *Variety International Film Guide* (Hollywood: Samuel French Trade, 1993), pp. 205-210.

(16) في كتابه *Cassette Culture: Popular Music and Technolgy in North India* (Chicago: University of Chicago Press, 1993), ويصف بذلك بيتر مانويل كيف أن أجهزة الكاسيت المحمولة أحدثت موجات من الصدمة الثقافية في شمالي الهند، مما كانت له أثره السيئ على الثقافة الشعبية الهندية. ففي وجود أجهزة التسجيل كان هناك على الأقل خيار أمام المستمع: إذ أنه في وجود الأقمار الصناعية تتحكم الاحتكارات في الأذواق، حتى وهي تسعى إلى تلبية حاجة الأسواق المحلية.

(17) أُقتبس في Peter Waldman, "Iran Fights New Foe: Western Television," *The Wall Street Journal*, August 8, 1994, p. A 10.

(18) انظر Elizabeth Brown, "Music Television Turns to ," *The Christian Science Monitor*, August 6, 1991, pp. 10-11.

(19) Clarke, "Rock," p. 199.

(20) Celestine Bohlen, "Russia Parties Subdued by Early Vote Returns," *The New York Times*, December 13, 1993, p. A 6.

(21) أُقتبس في Ahginkhina, "High Culture," p. 193.

(22) ولا نأخذ إم تي في مأخذ الجد عندما تقوم بدور الولد السيئ، كما تفعل فرقة Public Enemy. ويبدأ هذا العمل المشين باسم الفرقة (وكذلك بالحروف .N.W.A التي تعني زنوج لهم موقف) ويستمر بأسماء أغني من قبيل Fight the Power [حاربوا السلطة] التي استخدمها المخرج السينمائي سبايك لي في فيلمه *Do the Right Thing*. وهناك قدر كبير من غضب مغنيي الراب في كل وضع: الضعف الجنسي على هيئة مشاهد جنسية حيث يعلو الصوت وحيث تغطي الطبقات العالية والمشاهد المقززة على ما تحتها من نعومة. ومعظم المشاهدين في أنحاء العالم لا يفهمون الإنجليزية بحال من الأحوال، والقضية بالنسبة لهم هي الصوت، والأسلوب والإحساس وليس الكلمات.

(23) تذير بذلك سلسلة Nobody Beats the Wiz حملة إعلانية ضخمة تعرض شخصيات كارتون Beavis and Butt-head الذي تقدمه إم تي في وهم يرتدون قمصانا عليها الحروف MTV ويبيعون ألبوميم *Death Rock* . وهذا الألبوم الذي يتضمن مجموعة من الأغنيات يحتوي على مجموعة كئيبة من أغنيات الموت التي تستهدف الشبان الذين يدمرون أنفسهم بأنفسهم ويقتلون بعضهم بعضا بأرقام قياسية. وقد أُذيع الإعلان في كبرى وسائل الإعلام قبل عيد الشكر سنة ١٩٩٣ تحت عنوان Huh, huh, huh, This ad is cool! ومعه صور كبيرة لشخصيتي كارتون إم تي في "بيفيز" و "بط هيد". وكان هاتان الشخصيتان اللتان تتسمان بالغباء وتبعثان على التقزز قد تم تأخير موعد عرضهما قبل ذلك بشهر إلى ساعة متأخرة من الليل، بعد أن أشعل الأطفال الذين يشاهدون مسلسلهما في فترة الذروة غرفهم تقليدا لشخصيتي الكارتون المهرجتين. وتضم أغنيات ألبوم *Experience* لبيفيز أند بط هيد أغنيات: I Hate Myself and I Want to Die (Nirvana), Looking Down a Barrel of a Gun (Anthrax),

(24) Seabrook, "Rocking," p. 75.

(25) اقتباس من Seabrook, ibid., p. 69. عدد من فناني الراب كانوا مخالفين للقانون، ومنهم توباك شاكور الذي يتحدث ألبومه الصادر في ١٩٩١ بعنوان 2pacalyps Now عن "إسقاط رجل الشرطة". فقد قيل إنه فعل ذلك في أكتوبر ١٩٩٣، وكان هو نفسه ضحية طلق ناري في أواخر ١٩٩٤. وهناك كذلك مغني الراب فلافر فلاف عضو فريق Public Enemy الذي ألقي القبض عليه في نفس الفترة تقريبا بتهمة الشروع في القتل بعد زعم إطلاقه النار على أحد جيرانه. ولكن المستفيدين في هذه الحالة ليسوا فناني الراب الذين وجدوا في سحر حياة الجيتو عملا مجزيا، وإنما شركات التسجيلات والمؤسسات التي تملكها وتحقق من ورائها في هدوء أرباحا لا بأس بها. للحصول على خلفية عن هذا الموضوع، انظر Toure, "Snoop

Dogg's Gentle Hip-Hop Growl," *The New York Times*, November 21, 1993, .Section 2, p. 32

(26) يختلط الواقع وكلمات الأغاني ببعضهما في النسخة المتوحشة من عالم ماك التي تقدمها إم تي في. وكثيراً ما يكون "راب العصابات" Gangsta rap من عمل عصابات بحق. ففي سنة ١٩٩٣ وحدها، علاوة على إلقاء القبض على شاكور لاتهامه بقتل شرطيين كما ذكرنا من قبل، اتهم فلافر فلاف بأنه أطلق النار على عشيق صديقته. كما وجهت إلى سنوب دوجي دوج تهمة حمل سلاحين ناريين وتهمة قتل. ووجهت تهمتي الاعتداء والاغتصاب ضد العديد من مواطني إم تي في. للإطلاع على تقرير عن ذلك، انظر Nathan McCall, "The Rap Against Rap," *The Washington Post*, National Weekly Edition, November 14, 1993, p. C 1. وموضوع الغلاف في نيوزويك "Rap and Race," .*Newsweek*, June 29, 1992, pp. 46-52

(27) يشير روبرت شير إلى أن المروجين لمايكل جاكسون والمستفيدين منه ماديا لم يلاحظوا يوماً أن "هناك شيئاً ما شديد الخطأ فيما يتعلق برفع شخص على قدر كبير من سوء التوافق مع بيئته إلى مرتبة المتحدث العالمي باسم الأطفال في أبهاء إعلانات ديزني لاند وبيبسي المقدسة". "Mega-Micgael," *The Nation*, October 11, 1993, pp. 376-377

Michael J. O'Neill, *The Roar of the Crowd: How Television and People Power Are Changing the World* (New York: Times Books, 1993), p. 110

(29) Adrian Lyttelton, "Italy: The Triumph of TV," *The New York Review of Books*, August 11, 1994, pp. 25-29.

(30) Gore Vidal, *Screening History* (ambridge: Harvard University Press, 1992), p. 81.

(31) Mark Crispin Miller, *Boxed In: The Culture of TV* (Evanston, Illinois: Northwestern University Press, 1988), p. 19.

(32) Kenichi Ohmae, *The Borderless World: Power and Strategy in the Interlocked Economy* (New York: Harper Business, 1990), p. xiv.

(33) يعمل مويزي نائباً لمدير المعهد الفرنسي للعلاقات الدولية. مقتبس في Roger Cohen, "The French, Disneyed and Jurassick, Fear Erosion," *The New York Times*, November 21, 1993, p. E 2 ويربط مويزي بين الجهاد وعالم ماك (دون أن يسميهما بالاسم)، مشيراً إلى أن "في دقيقة تكون الديناصورات [*Jurassic Park*] وفي الدقيقة التالية مهاجري شمال أفريقيا، ولكنه نفس القلق الأساسي."

(34) الغرض من ذلك هو إرسال كمات كبيرة من المعلومات والصور والأصوات إلى كل بيت على أساس تفاعلي. إن التكنولوجيا القديمة "الجديدة" كانت بحاجة إلى الألياف الضوئية التي تحمل آلاف الإشارات وتسمح لمراكز البث بإرسال المعلومات إلى الجميع. وتسمح تكنولوجيا التحويل الجديدة الخاصة بشبكة المعلومات الرقمية الموحدة Integrated Services Digital Network لأي بيت من البيوت بأن يتلقى المعلومات التي يطلبها (وهي نفس الطريقة التي تجعل كل بيت يتلقى فقط المكالمات الموجهة إليه بالتليفون، وليس كل المكالمات التليفونية في أمريكا). وهذه القدرة التحويلية هي التي تجعل الاندماجات الجديدة بين شركات

التليفونات والكيبل على هذا القدر الكبير من الربحية. وإعادة ربط البيوت الأمريكية بالألياف الضوئية تحتاج إلى ٤٠٠ مليار دولار. إلا أنه باستخدام نظام ISDN يمكن استخدام الأسلاك الموجودة بالفعل بجزء يسير من هذه التكاليف.

(35) كانت من قبل مملوكة لويتل كوميونيكيشنز، أما الآن فهي ملك لكيه ثري، وهي شركة متخصصة في التعليم والنشر بغرض الربح ورئيس مجلس إدارتها هـ. كرافيس من اللاعبين الأساسيين في ميدان البث.

(36) أجرت كولجيت بالموليف تجربة على تسويق عطر للمراهقين اسمهManiac [الميووس]، بينما ابتكر راندي بيرنيني من ميامي عطراً لـ "التفرقة". انظر الهامش رقم ٣٤ أعلاه.

الفصل الثامن: الأدب التلفزيوني وملاهي عالم ماك

(1) أتحدث هنا بصفتي كإنسان اشترك في عدد من المشروعات التعليمية الكبرى للتلفزيون-على سبيل المثال مع باتريك واطسون، في السلسلة ذات العشر حلقات بعنوان *The Struggle for Democracy*(الكتاب المصاحب للسلسلة من Little, Brown and Company, 1988). وأدى النجاح التلفزيوني الذي حققناه إلى الحيلولة دون حدوث فشل تعليمي.

(2) روبرت لينش أحد مديري ماكجرو هيل وجاء كلامه في Meg Cox, "Elèctronic Campus," *The Wall Street Journal*, June 1, 1993, p. A 5

(3) The Authors Guild, *Electronic Publishing Rights: Publishing Statement*, October 18, 1993.

(4) *User's Guide for Great Literature*, Personal Library Series, Bureau Development, Inc., 1992 اختصرت الأعمال الأصلية التي باللغة الإنجليزية ولكنها من ناحية أخرى لم تمس، أما ترجمات الأعمال الكلاسيكية الأجنبية فقديمة، وواضح أن المسئول عن الجمع كان مضطراً للتعامل مع ما هو متاح بالمجان وليس ما يخضع للحكم البحثي والتحريري.

(5) Cox, "Electronic Campus."

(6) حقق كتاب ستيرن *Private Parts* في الأسابيع الأولي من طرحه في الأسواق مبيعات تعدت المليون نسخة.

(7) انظر المقال الخاص بالمشاهير John Lahr, "The Voodoo of Glamour" (with Richard Avedon), *The New York Times*, March 21, 1994, pp. 113-122

(8) جاء كلام أورنستاين في مقال Jennifer Senior, "Hollywood on the Potomac," *New York Times*, December 12, 1993, Section 9, p. 1

(9) يشتري الناشرون الإنجليز من الأمريكيين كتباً تزيد عما يشتريه الأمريكيون من الإنجليز. ويحدث الشئ نفسه مع كل دولة أخرى في العالم. ويحاول الكُتّاب اليابانيون محاكاة الكُتّاب الأمريكيين مثل جاي ماكينرني، الأمر الذي يضطرهم إلى ادخال عالم ماك في نسيج الحياة اليابانية اسميا الخاصة بشخصياتهم. فنجد أن أبطال هاروكي موراكامي في "الفيل يختفي" يتخذون المارلبورو ويصلون إلى بروس سبرنجستين أو وودي آلن وهم

ينيون أسطر القصة في مواعيد غرامية على قدر كبير من التوتر في ماكدونالدز-وأعني بذلك فرع هونشو برجر الحقيقي وليس العالم المجازي الذي يجسده. ويقتبس موراكامي أسماء أفلام أمريكية مثل *The Wizard of Oz* وكأنها الكتب التي تقرأ قبل النوم الخاصة بالحضارة اليابانية على أعتاب القرن الحادي والعشرين.

(10) Nadeshda Azhginkhina,"High Culture Meets Trash TV," *Bulletin of the Atomic Scientists*, January/February 1993, p. 42.

(11) German Information Service, *The Week in Germany*, November 26, 1993.

(12) يتتبع باجديكيان احتكار وسائل الإعلام، ولكنه يتتبع كذلك التطور المفزع، "الأثر الغامض وإن اتسم بالعمق للإعلان على نطاق واسع على شكل وسائل الإعلام التي يدعمها الإعلان ومضمونها." Ben H, Bagdikian, *The Media Monopoly*, forth edition (Boston: Beacon Press, 1992, p. xxx

(13) Ibid. p. 4.

(14) Ibid. pp. 21-22 بدأت الشركة الألمانية برتلسمان مشروعا مشتركا قيمته ١٠٠ مليون دولار مع أون لاين الأمريكية سنة ١٩٩٥.

(15) جاء في Bernard Weinraub, "A Hollywood Recipe: Vision, Wealth, Ego,"*The New York Times*, October 16, 1994, p. A 1

(16) جاء في M. Myer and N. Hass, "Simon Says, Out! . Viacom Ousts Simon & Schuster's CEO," *Newsweek*, June 27, 1994, pp. 42-44.

(17) Sarah Lyll, "The Media Business: Paramount Publishing to Cut Jobs and Books," *The New York Times*, January 24, 1994, p. D 8.

(18) Bagdikian, *Media Monopoly*, p. 19.

(19) المرجع السابق

(20) أحسنت بارامونت صنعاً ببيعها *Dancing with Wolves* عبر ماكدونالدز، مما جعلها تفعل الشيء نفسه مع *The Addams Family* ومسلسل *Wayne's World* وكذلك *Ghost and Charlotte's Web*. وماكدونالدز كمنفذ للأفلام يعد تعبيراً طبيعياً عن وضعه كمدينة ملاه. إنها علاقة ذات اتجاهين: فقد باعت أمبلين انترتينمنت حقوق التجارية الخاصة بفيلم *Jurassic Park* لأكثر من مائة صاحب ترخيص بينهم ماكدونالدز. Bernard Weinraub, "Selling Jurassic Park," *The New York Times*, June 14, 1993, p. C 11,16 ويشير الناقد السينمائي ستيوارت كلوانز إلى المفارقة الساخرة التي في الفيلم نفسه، الذي يعرض مدينة الملاهي الخاصة به ويحول المتجر إلى مدينة ملاه بالمنتجات التي تصور شخصيات الحديقة الجوراسية المطابقة لتلك التي تباع في العالم الحقيقي. فأي العالمين هو الحقيقي إذن؟ انظر Stewart Klawans, "Films," *The Ntion*, July 19, 1993, pp. 115-116

(21) 1992 *Report to Shareholders*, McDonalds Corporaraion, Oak Brook, Illinois. في سنة ١٩٩٢ بلغت مبيعات ماكدونالدز في الولايات المتحدة ١٣,٢ مليار دولار، في حين كانت في الخارج ٨,٦ مليار دولار، ليصبح الإجمالي حوالي ٢٢ مليار دولار.

(22) زادت قيمة السهم أكثر من الضعف منذ ١٩٩١ وهي تتوقع أن تحقق أرباحاً تبلغ حوالي ٩ مليارات دولار في ١٩٩٥، مقابل ٧,١ مليار دولار في ١٩٩٢. *USA Today*, June2, 1994, p. 3B.

(23) Andrew E. Sewer, "McDonald's Conquers the World," *Forutne*, October 17, 1994, p. 104.

(24) من التقرير السنوي لماكدونالدز لسنة ١٩٩٢. الحذف موجود في الأصل.

(25) صناعة المشروبات الخفيفة تفهم هذا مثلها مثل أى إنسان. ويقول توم بيركو مستشار الإدارة الجديد في نيويورك: "تسعى كوك لايت إلى نشر النموذج الثقافي الأمريكي في أسواقها التقليدية. إنهم يقولون إن المرطبات شيء خاص بنمط الحياة، وقد يكون هناك نوع من الأناقة المعكوسة في هذا المنهج." Daniel Tilles, "Coke Light Gears Up for a Hard Sell," *The International Herald Tribune*, May 18, 1994. رونالد و. دونالدسن ، متحدث باسم أطلانطا كوكاكولا ويؤيد إتجاهاً على مستوى الأمة لإدخال المأكولات السريعة والمشروبات الخفيفة في المدارس، يقول بصراحة: "استراتيجيتنا هي التواجد في كل مكان. إننا نرغب في أن نضع المشروبات الخفيفة في متناول الرغبة." Robert Pear, "Senator, Promising Student Nutrition, Battles Coca-Cola," *The New York Times,* April 26, 1994, p. A 20.

(26) Prince Cosort Albert, May 1, 1851, inauguration address, cited by Michael Sorkin, *Variations on a Theme Park* (New York: Noonday Press, 1992), p. 209.

(27) Margret Crawford, "The World in the Shopping Mall," in Sorkin, *Variation, p. 4.*

(28) Ibid., p. 14.

(29) بما أن المراكز التجارية قد عرفت طريقها إلى شرق أوروبا وغيره، يؤكد المستثمرون المحليون بخليط من المصلحة الذاتية والسذاجة على أن ما يستثمرون فيه أموالهم "أحوال أمريكية بدون العقلية الأمريكية." *The Week in Germany*, German Information Service, October 8, 1993, p. 5 والمشكلة هي أن الأحوال هي العقلية. وقد دفعت هذه التطورات مجموعة من الساسة والكتّاب ورجال الدين وأساتذة الجامعات إلى تكوين "لجنة العدالة" التي يشير بيانها التأسيسي إلى أنها تعارض "تدمير صناعتنا وزراعتنا وعمالتنا الجماهيرية، التي لا تتحمل زيادة الإيجارات، والأجور المنخفضة بصورة ليس فيها عدل، وغلق المنظمات الاجتماعية، والثقافية، والرياضية، وبيع ما كان في يوم من الأيام 'ملك الشعب'، وإنكار الحق في شغل الشقق، والمنازل، والأراضي، وتدمير الروح المعنوية للناس في الشرق، وخاصة النساء، [وهو ما] قضى على الكثير من الآمال التي بعثها توحيد ألمانيا". *The New York Times*, July 12, 1992, p. A 1.

(30) نقله وحلله تحليلاً رائعا Edward W. Soja, "Inside Explois: Scenes from Orange Country," in Sorkin, *Variation, p. 94.*

(31) كلام ليندا كيليان من رينيسانس كابيتال كوربوريشن كما ورد في Ann Imse, "Hang on the Ride of Your Life," *The New York Times*, December 12, 1993, p. F 6.

(32) William Booth, "Wayne's World," *The Washington*, National Weekly Editon, August 29-September 4, 1994.

(33) من مقال في مجلة *Der Spiegel* نُشر ملخص له في *The Week in Germany*, German Information Center, November 5, 1993.

(34) طبقاً لما جاء في تقرير غريب ومضحك خرج من موسكو في نهاية سنة ١٩٩٣، فقد حان الوقت لإقامة مدينة الحرب الباردة Coldwarland. إذ فاق بعض المستثمرين الروس في الفضاء والطيران، ممن يعملون مع نظراء أمريكيين، الألمان بأن وضعوا موضع التنفيذ فكرة وجد مخترعو أوسي بارك Ossi Park أنفسهم أنها بعيدة المنال. ونشرت شركة ميجز اتسترا انكوربوريشن من ساراسوتا بفلوريدا إعلانات في وسائل الإعلام المقروءة بالبنط العريض تحمل العرض التالي: "اركب طائرة ميج ٢٩ بسرعة ٢,٥ ماخ في موسكو ... لست بحاجة إلى أن تكون طياراً"! وتروج الشركة لما يمكن أن تعلن عنه ويحقق لها أرباحاً باعتباره جولات نوستالجيا إمبراطورية الشر في مقاتلات ميج ٢٩ ودبابات تي ٨٠ باسعار تقترب من ١٠٠ ألف دولار (مقابل معركة جوية بين طائرتي ميج). ولم تكتف النيويورك تايمز بنشر الإعلانات، وإنما نشرت مقالاً سياحياً كتبه شخص قام بجولة وكتب عن الموضوع، متسائلاً عما إذا كان لينين وستالين وجون لو كاريه وتوم كلانسي موجودين في مكان ما "يهزون رؤوسهم في تعجب جماعي." "Your Very Own Cold War," *The New York Times*, October 25, 1993, p. A 18

(35) جاء في Michael Sorkin, "See Yoy in Desneyland," in his *Variations*, p. 605

(36) The Disneyl Annual Report, 1992, p. 14.

(37) Ibid. p. 8.

(38) في فلوريدا، يلقي الرئيس كلينتون كلمات مثيرة كتبها الشاعر الغنائي تيم رايس الذي كتب كلمات *Jesus Christ Superstar* وفيلمي ديزني *Beauty and the Beast* و Alladin، حيث يعرض الأول كمسرحية غنائية على مسرح برودواي التابع لديزني. ويجعل النص الذي كتبه رايس كلينتون يقول إن السعادة الوطنية "مازالت تنبع من الحرية، ومن الملكية." انظر الرواية التي تحمل قدراً كبيراً من السخرية الواعية في Jon Wiener, "Disneyworld Imagineers a President," *The Nation*, November 22, 1993, p. 620

(39) الوصف لـ Michael Wines, "Yes, Virginia, the Past Can Be Plasticized," *The New York Times*, November 28, 1993, p. E 4. إلا أن مقال واينز أقل تشككاً من عنوانه: إنه يقتبس كلام جيمس ماكفرسون مؤرخ الحرب الأهلية في جامعة برنستون والحائز على جائزة بولتزر والمحافظ الملتزم على أن لديه "مشاعر مختلطة" ويشير إلى أن أماكن مثل ويليامزبرج (التي شهدت في سنة ١٩٩٤ مزاداً مقلداً للعبيد كان مثيراً للجدل) قد أصبحت سابقة لديزني في ماناساس.

ومن المؤكد أن المدير التنفيذي أيزنر لديه رغبة شديدة في ألا يبدو كناهب للتاريخ. ففي فلوريدا استأجر ايريك فونر أستاذ التاريخ بجامعة كولومبيا ومؤرخ الحرب الأهلية الحاصل على الجوائز ليكون مستشاراً للمشروع. وطبقاً لما قاله جون فيينر في النيشن، فقد اشتكى فونر من صياغة وسياق الخطاب الذي ألقاه الروبوت لنكولن في قاعة أبطال الرؤساء في ديزني، وهو الخطاب الذي استبعد أي إشارة إلى الرق. استأجرت ديزني المنتقد. وعندما فرغ فونر من عمله، كان على أحد الصحفيين الراديكاليين أن يعترف بالإنجاز "الرائع": "في هذا

المنتزه الزاخر بالمعالم التي تخاطب العواطف بطريقة محسوبة. وتتميز بمهارة تبعث على الغثيان وتجارية تتسم بالفجاجة، سوف يجد الزائرون لقاعة الرؤساء التي أعيد تصميمها برنامجاً على قدر مدهش من الذكاء ودرجة عظيمة من التقدم." Jon Wiener, "Disneyworld Imagineers"

(40) للإطلاع على رواية عن كفاح ديكستر المحزن، لبناء مركز كنج للتكنولوجيا المتقدمة للترفيه الذي يتكلف ٦٠ مليون دولار في فترة دورة أطلانطا الصيفية سنة ١٩٩٦، ضد هيئة المنتزهات الأمريكية، التي يجب أن تشرف على منتزه King Historic District. انظر Ken Ringle, "A Dream Turned Nightmare," *The Washington Post*, National Weekly Edition, January 23-29, 1995,p. 9

الفصل التاسع: من يملك عالم ماك؟ جنون دمج وسائل الإعلام

(1) Ben H. Bagdikian, *The Media Monopoly*, fourth edition (Boston: Beacon Press, 1992), p. 19.

(2) قائمة باجديكيان التي تضم أكبر ثلاث وعشرين شركة هي كالآتي حسب الترتيب الأبجدي: Bertelsmann, Capital Cities/ABC, CBS, Buena Vista Films, Dow Jones, Gannett, General Electric/NBC, Paramount (now Viacom), Harcourt Brace Jovanovich, Hearst, Ingersoll, International Thomson, Knight Rdder, Meiaa News Group, Newhouse, News Corporation Ltd. (Murdoch), New york Times, Reader's Digest, Scripps-Howard, Time Warner, Times Mirror, and The Tribune Company. Ibid. pp. 21-22.

(3) Jolie Solomon, "Hollywood and Vice: Here Comes a New Golden Age," *News week*, August 23, 1993, p. 51.

(4) اُقتبس في مقال يحمل عنواناً له دلالته لـ Cindy Skrzyki, "Today, AT&T; Tomorrow, the -Wireless World." *The Washington Post*, National Weekly Edition, August 30 September 1993 . وتعلق سكرزايكي قائلة: "سيكون بإمكان المستهلكين أن يتمشوا في محل إيه تي أند تي للتليفونات ويطلبوا كل شيء من التليفون الخلوي cellular (الذي تصنعه إيه تي أند تي) إلى الخدمة الخلوية (التي يقدمها ماكو) إلى المكالمات البعيدة (على شبكة إيه تي أند تي). وعلى الجانب الفني، ربما تنقل تحويلات إيه تي أند تي المكالمة ثم يبلغ برنامج إيه تي أند يي الشبكة أي المكالمات ترسل، وأيها تحجز، وأيها تضعه في نظام الرسائل. والشريحة التي قد تحصل عليها إيه تي أند تي من مجال الراديو، كجزء من صفقة توفر لها سلعة ثمينة ضرورية لطرح أجهزة لاسلكية جديدة ترسل الصوت وإشارات المعلومات وتستقبلها عبر الهواء."

(5) اقتبسه Ken Auletta, "The Last Studio in Play," *The New Yorker*, October, 4, 1993, p. 80

(6) Calvin Sims, "Synergy: The Unspoken Word," *The New York Times*, October 5, 1993, p. D 1.

(7) تيد تيرنر هو رئيس مجلس إدارة ورئيس تيرنر برودكاستنج و تي إن تي وغيرهما. أما سامنر ردستون فهو المدير التنفيذي لفياكوم والمنافس المشاغب لباراموتت. ولتتعرف على ديلر، انظر المتن. ومارتن ديفز رئيس باراموتت ومديرها التنفيذي السابق. ومايكل أوفيتز هو رئيس مجلس إدارة كريتيف آرتيستس اجنسي ولاعب أساسي في مترو جولدوين ماير-صفقة بنك كريدي ليونيه. وبيل جيتس هو القوة التي خلف ميكروسوفت. وجون مالون هو رئيس تليكوميونيكشن ورئيس مجلس إدارة كيبرتي ميديا لبعض الوقت، إلى جانب امتلاكه لربع تيرنر برودكاستنج التي تجعله قوة كبرى خلف شبكة باري ديلر كيو في سي.

للمعرفة السيرة الذاتية الخاصة بواحد من أساتذة الاتصالات والترفيه العظام الذي فتح الطريق أمام الكثير من الرجال الذين جاء ذكرهم هنا، انظر Connie Bruck, *Master of the Game: Steve Ross and the Creation of Time Warner* (New York: Simon& Schuster, 1994)

(8) تقول فورشن إن مالون يساوي الآن ما يزيد على المليار دولار. وجاء لقبه كملك للكيبل في Allen R. Myerson, "A Corporate Man and a Cable King," *The New York Times*, October 14, 1993, p. C 7.

(9) قُدم الإعلان كملحق في Kenichi Ohmae, *The Borderless World: Power and Strategy in the Industrial Economy* (New York: Harper Business, 1990)

(10) اقتبسه Ken Auletta, "Under the Wire," *The New Yorker*, January 17, 1994, p. 52. ويؤمن جور إيماناً صادقاً بدور الحكومة كمنظم وعامل توازن، ولكن بعد انتخابات نوفمبر ١٩٩٤ ليس هناك مما يدل على أنه سوف يحصل كثير من دعم الكونجرس أو الأمة

الجزء الثاني: عالم الجهاد القديم

الفصل العاشر: الجهاد ضد عالم ماك أم الجهاد عبر عالم ماك"

(1) انظر David Gonzalez, "The Computer Age Bids Religions World to Enter," *The New York Times*, July 24, 1994, Section 1, p. 1.

(2) انظر Allan Bloom, *The Closing of the American Mind* (New York: Simon & Schuster, 1987) لقد بحثت مفارقات شكوى بلوم في موضع آخر في *An Aristocracy of Everyone: The Politics of Education and the Future of America* (New York: Ballantine Books, 1993), Chapter 5

(3) يرى رودولف وزوجته أن "كلينتون وغيره يثيرون بسهولة 'الأحقاد القديمة' كي يفسروا حقيقة الصراعات المعاصرة. والسؤال بعبارة أخرى ليس كيف تصحو الصراعات القديمة من جديد، وإنما لماذا تحطمت الفسيفساء المنسجمة مع بعضها من قديم." Suzan H. Rudolph and Lloyd I. Rudolph, "Modern Hate: How Ancient Animosities Get Invented," *The New Republic*, March 22, 1993, p. 25

(4) Benedict Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origins and Spread of Nationalism* (London: Verso, 1991),

Walter Russell Mead in a review of William Pfaf's *The Wrath of Nations* (5) (New York: Simon & Schuster, 1993), *The New York Times Book Review*, November 7, 1993, p. 25.

(6) المراقبون مثل لياه جرينفيلد يحاولون اظهار قدر من الإجماع كي يقنعوننا بأن القومية مسألة من مسائل علم الظواهر (الفينومينولوجيا): كل شيء وأي شيء يقوله من نسميهم قوميين أو يفعلونه. ويسمح وصفها الواسع للقومية بأن تحيط بـ "طرق" متعددة إلى الحداثة. وهي بكل تأكيد كل تلك الطرق التي جاء ذكرها آنفاً، القديم منها والجديد على السواء. ويتبنى الفلاسفة المعياريون مثل يائيل تامير وجهة نظر "ما هيوية" أقل اتساعاً، حيث يصرون على أننا لا بد أولاً أن نحدد الفكرة نظرياً وبعد ذلك نقصر الحالات الفعلية على تلك التي تتوافق مع المفهوم المعياري. وهي ترى أن "القومية الليبرالية" و "القومية العرقية" ليسا نوعين من جنس رئيسي، بل هما فيهمان متخاصمان، واحد منهما يمكن المحافظة على بقائه. Yael Tamir, *Liberal Nationalism* (Princeton University Press, 1993); Leah Greenfield, *Nationalism: Five Roads to Modernity* (Cambridge: Cambridge University Press, 1992) بل إن جرينفيلد تختار في نهاية الأمر أن ترى القومية كبوتقة تتشكل فيها الحداثة، وبذلك تضيق تعريفها لكي تستبعد الرؤى الرجعية للقومية استبعاداً تاماً.

(7) في الفصل الذي يقدمه عن "القومية" في كتابه *On Representative Government*. أكثر محاورات روسو فصاحة باسم القومية باعتبارها شرطاً للجمهورية نجدها في مقاله *Considerations on The Government of Poland,* الذي كتبه سنة ١٧٧١. انظر *the Government of Poland* edited by W. Kendall, (New York: Bobbs-Merill Company, 1972)

G. Mazzini, *The Duties of Man and Other Essays*, chapter III (London: (8) Dent, 1917), cited in S. Baron, *Modern Nationalism and Rligion* (New York: MeridianBooks, 1960), p. 49 للحصول على فكرة كاملة عن دور ماتسيني غير العادي كقومي ثوري ليبرالي، انظر Dennis Mack Smith, *Mazzini* (New Haven: Yale University Press, 1994).

- أنتوني سميث ماتسينياني جديد يؤمن بأنه ليس هناك "بديل للأسطورة ونموذج القومية كشعور رابط ورؤية لتجمعات الكائنات البشرية الكبرى، والتي تلقى قبولاً من الناحية الأيديولوجية وتكون ممكنة من الناحية الاجتماعية"، وذلك بالتحديد لأن الأمم وحدها "يمكنها أن تضع الأساس لنظام دُولي حسب مبادئ السيادة الشعبية وإرادة الشعب." Abthony Smith, "Ties That Bind," *The LSE Magazine*, Spring, 1993, pp. 8-11

Paul Hazard, *European Thought in the Eighteenth Century* (9) (Gloucester: Peter Smith, 1972, pp. 471-472

Eric Hobsbawm, *Nations and Nationalism Since 1780* (Cambridge: (10) Cambridge University Press, 1992), p. 121 في ظل التحول أصبحت العرقية واللغة العلامتين الفارقتين للقومية الجديدة.

(11) Jose Ortega y Gasset, *The Revolt of the Masses* (New York: W.W. Norton & Co., 1992, p. 83 كان أورتيجا يأمل في أن تلفظ البِنّة القومية التي بدأت في العشرينيات أنفاسها الأخيرة. "إن التأجج الأخير هو الأطول نفساً، والتنهيدة الأخيرة هي الأكثر عمقاً. وفي نفس عشية زوالها نجد حدودها قد اتسعت." قد نتمنى الشيء نفسه الآن، ما لم تكن أماني أورتيجا قد خيبها التاريخ اللاحق خيبة تثير الحزن.

(12) Yael Tamir, *Liberal Nationalism*, pp. 6, 14.

(13) Edmund Bruke, *The Works*, London, 1907, VI, p. 155.

(14) Anderson, *Imagined Communities,* p. 7.

Joel Kotkin, *Tribes: How Race, Religion, and Identity Determine Success in the New Global Economy* (New York: Random House, 1993) "بما أن الحواجز التقليدية التي تفصل الدول القومية عن الأقاليم باتت أقل أهمية تحت وطأة القوى الاقتصادية الكونية، فمن المحتمل أن تلك الشعوب المبعثرة [كاليهود والصينيين والهنود وغيرهم]—وأعمالها وشبكاتها الثقافية في أنحاء العالم—سوف يتعاظم دورها في تحديد مصير البشرية الاقتصادي." p. 4

(16) Eric Hobsbawm, "The New Threat to History," a lecture to the new Centeral European University in Budapest, reprinted in *The New York Review of Books*, December 16, 1993, pp. 62-63.

(17) Tony Judt, "The Old New Nationalism," *The New York Review of Books*, May 26, 1994, p. 45.

Adam Michnik in " More Humility, Fewer Illusions-A Talk Between Adam Michnik and Jurgen Habermas," *The New York Review of Books,* March 24, pp. 24-29.

(19) اتخذ مارشال بيرمان عبارة ماركس عنواناً لكتاب على قدر كبير من الوعي بحالة أمريكا الحضرية (وأدواتها). انظر *All That Is Solid Melts into Air* (New York: Viking Penguin, 1988)

(20) "Winners in the F.R.G.," By the German band *Endstufe* (Final Stage), translated by Elizabeth A. Jackson for the London Magazine *Searchligh; reprinted in Stephen Silver, "The Music of Hate," The New York Times*, February 8, 1993, p. A 23.

(21) انظر Silver, "The Music of the Hate," ibid.

(22) اعتزلت فرقتان على الأقل اليمين، هما Stoerkraft [القوة المدمرة] و Bose Onkelz [العم الشرير]: انظر Stephen Kinzer, "Berlin Journal," *The New York Times*, February 2, 1994, p. A 4. See Chapter 11, note 21, below.

(23) ومع ذلك فالواقع الجديد الذي ترغب القومية في مخاطبته لا يتناسب معها في حقيقة الأمر التناسب اللازم. فعلى سبيل المثال يرى جون لوكاس في القومية "القوة السياسية الأساسية في القرن العشرين".

John Lokacs, *The End of the Twentieth Century and the End of the Modern Age* (New York: Ticknor an Fields, 1993, p. 8

(24) Michael Ignatieff, *Blood and Belonging: Journeys into the New Nationalism* (New York: Farrar. Strauss & Giroux), p. 5.

(25) كان للإقطاع أهميته الإمبريالية والكوزموبوليتانية. فلأنه من وضع الكنيسة الرومانية المقدسة وإمبراطورية عموم ألمانيا في الوقت نفسه، فقد كانت له أهمية إقليمية تتضح، على سبيل المثال، في الأقاليم الفرنسية ما قبل القومية، كبورجوندي والبروفانس، أو المقاطعات الإنجليزية ما قبل القومية مثل إيسكس و دورسيت.

(26) في ظل السيادة الاسمية لأباطرة بعيدين، كان أهل بورجوندي ونورماندي وأهل الشمال وأهل الجنوب يعيشون حسب أساليبهم الإقليمية. سعت جان دارك إلى توحيدهم من خلال الدم والقتال في "فرنسا" خلقت من قتل الأخوة بعضهم بعضاً. هذه هي على الأقل الطريقة التي يروي بها الرجعيون المحدثون مثل جورج برنارشو القصة في إطار روائي مثل *Saint Juan* حيث تبدو فتاة أورليان كقومية وبروتستانتية. وفي حرب الورود في إنجلترا، خرج من جثث أهل دورسيت ولانكستر المتنازعين أمة جديدة من الإنجليز، حيث حلت طاعة الرعية الأساسية للتاج محل ولاءاتهم العشائرية.

(27) المؤرخ الفرنسي رينان كتب يقول: "Or, l' essence d' une nation est que tous les individuals aint beaucoup en commun et aussi que tous assent oublie des chose," Anderson, *Imagined Communities*, p. 199

(28) الآثار المترتبة على تشتت السكان والاستعمار الروسي تلوث تحول دول البلطيق إلى الاستقلال والديمقراطية في الوقت الراهن. فكرد فعل للاستعمار الروسي في ظل الحكم الشيوعي، الذي جعل من أهل لاتفيا أقلية تقريباً في بلدهم وجعل مع أهل لتوانيا وايستونا أقليات كبيرة الحجم من الروس، فرضت دول البلطيق اليوم قوانين المواطنة أحادية الثقافة التي تصل إلى حد التطهير العرقي الدستوري الذي قد يجبر الروس على الخروج.

(29) لهذا السبب لن أحاول هنا إعادة نشر الدراسات الإحصائية الخاصة بقتل الأخوة بعضهم لبعض والحرب الأهلية التي عرضها مؤخراً ايريك هوبسبوم ومايكل اجناتيف ودانييل باتريك موينيهان وجون لوكاس ووليام بفاف والتر كونور علاوة على الكثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع الممتازين. وبالإضافة إلى العناوين التي جاء ذكرها فيما سبق من هوامش، انظر Water Connor, *Ethnonationalism: The Quest for Understanding* (Princeton: Princeton University Press, 1994) and Pfaff, *Warth of Ntions*.

ولا أريد كذلك إعادة نشر صور الحياة اليومية المفصلة في العالم السوفيتي السابق وفي شرق أوروبا التي نتوقعها من صحفيين مدققين مثل تيموثي جارتون في سلسلته التي تحمل عنوان *The New York Review of Books* وجورجي أن جاير في مقالاتها التي تكتبها للواشنطن بوست وول ستريت جورنال. وكانت جاير من أول المراقبين المهتمين بظهور الجهاد: قبل عشر سنوات من اهتمام دانييل باتريك موينيهان وزبجنيو بريجنسكي بالجحيم الأرضي، كتبت جاير مقالا استشرافيا بعنوان Our Disintegrating

Menance of Global Anarchy," *Encyclopedia Britanica Book of the* World: the *Year 1985* (Chicago: University of Chicago Press,1985), pp. 11-25

الفصل الحادي عشر: الجهاد داخل عالم ماك: "الديمقراطيات"

(1) J.J. Rousseau, *Politics and the Arts: Letter to D'Alembert on the Theater* (original published in 1758), Allan Bloom, editor, (Ithaca, N. Y. Cornell University Press, 1960), p. 58.

(2) Michael Ignatief, *blood and Belonging: Journey into the New Nationalism* (New York : Farrar, Straus & Giroux), p. 5.

(3) يشعر وزير الثقافة الفرنسي جاك توبن بالقلق من الاتجاهات "القبلية" في اللغة، حيث يتحدث المديرون الإنجليزية، ويتحدث المهاجرون كل بلغته، ويتحدث أفراد الشعب العاديون "لغة التلفزيون" و "بين ذلك كله لغة الإدارة...وربما المفكرون وأساتذة الجامعة"–وسوف يسفر كل هذا عن "كارثة". *The Latest European News*, Published by United Airlines, November 29, 1994

(4) حسبما جاء في "Alan Riding, "Celts and Proud of It (Even if They Are French), *The New York Times*, August 2, p. A 4

(5) من بين ٢،٨ مليون يعيشون على شبه الجزيرة الواقع في المحيط الأطلنطي، هناك حوالي ١٠٠ ألف مشاركون في الحركة الشعبية المحلية. وكلت بريتاني الذين كانوا في يوم من الأيام هدفاً للنازيين الذين وعدوهم بالاستقلال إن هم تحالفوا مع الألمان. شكلوا في واقع الأمر "جبهة تحرير بريتاني" وبحثوا القيام بثورة سنة ١٩٦٨. واليوم المثقفون الذين يتحدثون اللغة البريطونية أكثر ممن يتحدثونها من الفلاحين، رغم أن هناك مدرسة "نواة" ("ديوان") مسجل بها ألف طفل. ويشجع الزعماء كتّاب المسرح على كتابة مسرحيات باللغة البريطونية ويحثون الأكاديميين على وضع معاجم بريطونية.

(6) تأسس المكتب سنة ١٩٨٢ وله ميزانية مقدارها ٤،٢ مليون دولار. Marlise Simons, "A Reborn Provencal Heralds Revival of Regional Tongues," *The New York Times*, May 3, 1993, pp. A 1, 8 و "التصور" هنا ليس هو أهمية الهوية الثقافية، وإنما الاعتقاد بأن حفنة من المفكرين يمكنهم إحياء اللغات التي ليس لها استعمال عملي في المدارس أو المعاملات التجارية أو البيت.

(7) انظر Andre Frossard, "L'Euroupe: une nouvelle tour de babel," Document, *Paris Match*, 1993/4.

(8) يمثل السويسريون حالة من التعددية الثقافية تتميز بنوع خاص من التشويق ويتميز فيها السويسريون الفرنسيون باهتماماتهم المتزايدة بفرنسا وأوروبا، بينما يرى السويسريون الألمان (هؤلاء الذين يعيشون في الريف، وليس رجال البنوك في زيورخ ولا مديري الشركات في بازل) أنفسهم على أنهم سويسريون حقيقيون (وليس ألمان مصطنعين) معادون لأوروبا وعالم ماك الذي تمثله. وقد كتبت الكثير عن الحالة السويسرية في

The Death of Communal Libèrty: the History of Freedom in a Swiss Mountain Canton (Princeton: Princeton University Press, 1974) انظر كذلك العرض الموجز الوافي عن سويسرا في أوروبا *Can the Confederatio Helvetica Be Imitated?* Special issue of *Government and Oppositio*, Vol. 23, No. 1, Winter, 1988

(9) نسخة ١٩٩٤ من الإعلان التي دفع ثمنها Generalitat Catalunya عبارة عن صفحة بيضاء عليها نقطة معرفة بأنها برشلونة ويسأل سؤالاً مثيناً: "في أي بلد سوف تضعون هذه النقطة؟" وبعد عدة صفحات يأتي الجواب: قطالونيا "بلد في أسبانيا لها ثقافتها ولغتها وهويتها ... بلد استثمرت فيه الكثير من الشركات الأجنبية، وما تزال تستثمر بكثافة، أموالها ... بلد لديه المعرفة التي تجعله يأتي بدورة الألعاب الأولمبية إلى عاصمته." وظهر إعلان سابق لهذا في *The New York Times*, July 17, 1992, pp. A 5. 7. وبدأت الحملة الجديدة في ١٩٩٤ بإعلان ظهر في عدد ٢٥ أبريل من مجلة نيوزويك. والتناقض الوجداني نحو عالم ماك جرى التعبير عنه في التركيز الذي جرى في الوقت نفسه على النزعة الإنفصالية القطالونية والتراث الثقافي القطالوني وعلى قيم قطالونيا الرأسمالية والتجارية ودورها كمركز اقتصادي أوروبي: اختلط القديس سانت خوردي حامي برشلونة والأبطال القطالونيون مثل دالي وميرو وكاسالس بطريقة أو بأخرى في وصف للشركات القطالونية متعددة الجنسية. ويظهر التناقض الوجداني ذاته في نسخة أخرى من الإعلان تبدأ بعنوان يقول: **قطالونيا بلد حديث تراثه يعود لقرون مضت.**

(10) رأى المعلقون أنه ربما فاق الملك خوان كارلوس بوخول على المدى القصير عندما سحر الجماهير بقطالونيته التي عبرت عن احترامه لهم، وبمسلكه الجيد، وبجعله محاولة بوخول للاستيلاء على دورة الألعاب الأولمبية تبدو خرقاء ومتعصبة. ولكن عرضه كان في واقع الأمر من تنظيم القوميين القطالونيين الذين كان يرد عليهم، وهم بلا شك المنتصرون الحقيقيون على المدى البعيد.

(11) Alan Riding, "The Olympics Crown a King with Laurels." *The New York Times*, August 12, 1992, p. A 5 المزايا الخاصة التي حصل عليها بوخول لقطالونيا يبحث عنها الآن القوميون العرقيون من أقاليم أسبانيا الأخرى.

(12) أعاد الصياغة. Marlise Simons, "A Reborn Orovencal," pp. 1,8.

(13) تمت الموافقة على الإجراء بنسبة ٨٠ بالمائة في جنيف ونويشاتيل، وفشل بالنسبة نفسها تقريباً في الكانتونين المؤسسين شفايتس وأوري (٧٥ بالمائة تقريباً).

(14) "Switzerland and Europe: Time to Join the Others?" *The Economist*, November 28, 1992, p. 52 افترشت الجماهير، التي لم تكن سهلة القياد بما يكفي، بكل هدوء جبال الهيمالايا الأوروبية، ونجحت في ٦ ديسمبر ١٩٩٢ مرة أخرى في تجاهل صفوتها. ومع أن أغلبية شعبية ضعيفة قوامها ٥٠,٣ بالمائة هي التي قالت لا، فإن ثمانية عشر من بين ستة وعشرين كانتوناً عارضت معارضة شديدة، بينما صوتت ثمانية كانتونات (كلها فرانكوفونية) بالموافقة (وكان المطلوب أربعة عشر).

(15) كمثال لذلك، انظر "La Vieille tradition du chemin solitaire"(تراث الطريق المنفرد القديم) في الجريدة اليومية اليسارية *Liberation*, December7, 1992 إلى جانب المقال الافتتاحي

المصاحب "Gerard Dupuy, "Un Nouveau Coup Contre L'Europe (ضربة جديدة موجهة لأوروبا). كتب ديبوي يقول: "' L'exception' suisse, sa fonction de soupspe, n'a plus grand sens dans sa partie europeenne."

(16) استمر الحظر بضع سنوات فقط، إلا أن اللغة التي استُخدمت لتبرير الحظر كانت تتمتع بقدر كبير من الاستشراف في توقعاتها الخاصة بالغزو الاقتصادي والدمار البيني. للمزيد من التفاصيل، انظر , *The Death of* Communal *Liberty*

(17) بالنسبة لكيبيك، انظر Michael Ignatief,*Blood and Belonging* . فبما أنه كندي بالمولد، فإن تناوله لمسألة كيبيك قد تكون أكثر فصول كتابه إقناعاً.

(18) تلتقط جويل كوتكن بعضاً من التناقض الوجداني لدى شعوب الشتات باستعمال مصطلح قبيلة للإشارة إلى الشعوب المتحولة التي تعمل على جبهة اقتصادية جديدة من التجارة والتبادل التجاري-أي الهنود والصينيين واليهود، وكذلك البريطانيون والأمريكيون (بصورة غير منتظمة بعض الشيء). انظر ,Kotkin *Tribes: How Race, Religion, and Identity Determine Success in the Global Economy* (New York: Random House,1993)

(19) يضمن تعديل للدستور الكندي المساواة بين الإنجليزية والفرنسية في نيوبرنزويك، ولكن هذا نتيجة لمحاولات تهدئة أهل كيبيك. انظر Clyde Farnsworth, "Acadians Cling to Their Culture, and to Canda," *The New York Times*, July 5, 1994, p. A 4

(20) قد لا يكون مستغرباً أن بعضاً من نفس هؤلاء الذين يشعرون بالضجر وسبق أن لعنوا الرموز الشيوعية، التي هيمنت على ميدان كارل ماكس في برلين الشرقية الشيوعية، ينبغي أن يلعنوا الآن الرموز التجارية التي تسيطر عليه في الوقت الحال. فحيثما كانت المطرقة والمنجل "الإمبرياليان" يحلقان في الماضي، يقبع شعار "إمبريالي" لامع لمرسيس بنز-تماما كما هو الحال في بودابست، ثُبت شعار النجمة الذهبية الخاص بشركة جولد ستار على ما كان فيما مضى مسكن المنظر الماركسي جورج لوكاس.

(21) أغنية Swastika لفريق Radikahl . هناك مفارقة قوية في استعمال وسيلة الحداثة التجارية، أي موسيقى الروك، من جانب أحداث الحداثة الذين يرتدون التي شيرتات التي تحمل هذا الشعار : "هتلر: الجولة الأوروبية".

إلا أن هناك تراجعا، وابتعدت فرق مثل Stoerkraft و Bose Unkelz عن اليمين. ونشر مؤخراً انجو هاسلباخ، وهو عضو مؤسس في "الخيار القومي" المحظورة ونائب رئيسها، كتاباً اسمه *The Reckoning: A Neo-Nazi Drops Out* (*Die Abrechnung: Eine Neonazi Steigt Aus*) (Berlin: Aufbau Verlag, 1994) وهو يرى أن مواقف النازيين الجدد مبعثها الإحباط الاقتصادي أكثر منه الاقتناع الأيديولوجي العميق.

(22) تتساءل-أغنية فريق المرحلة الأخيرة "الشتاء في جمهورية ألمانيا الديمقراطية" قائلة: "هل ستكون هناك ألمانيا تستحق أن يعيش فيها الإنسان؟" (انظر ماسبق). يتحاشى شونهوبر هذه الفجاجة من أجل هذه الأغنيات التي تتكون من بيت واحد مثل : "أنا احب الأتراك، ولكن عندما يكونون في تركيا أحبهم أكثر." وبدلاً من الاحتفاء بهتلر. يتحدث عن الحزب الفاشي العظيم الذي "خانه" هتلر. ,Philipe Boulet-Gercourt

Franz Schoenhuber: un SS tres Frequentable." *Le Nouvel' ObservateurlMonnde*, April 16-22, 1992, p. 66 من ترجمتي.

(23) فيما بين يوليو ١٩٩١ و يوليو ١٩٩٢ كانت فرص العمل في قطاع التصنيع الألماني قد انخفضت للنصف (٤٥،٦ بالمائة مقابل انخفاض قدره ٢،٥ بالمائة في ألمانيا الغربية، *The Week in Germany*, September 25, 1992 سهلت ترويهاند أنشتالت (وكالة الخصخصة في ألمانيا الغربية) بيع عشر صحف ألمانية شرقية لناشرين ألمان غربيين، *The Week in Germany*, April 1991

(24) يشير اجناتيف إلى ميل حليقي الرؤوس الألمان إلى الاستعارة من البريطانيين. وإن كان مغرقاً في مبالغته وفي بعض العداء الكندي لإنجلترا فيما يقوله بسخرية عن أن "ثقافة حلاقة الرأس قد لا تكون سوى أبقى مساهمة لإنجلترا تقدمها لألمانيا ولأوروبا الجديدة." Ignatief, *Blood and Belonging*, p. 83. For Nazis-on-line see Jon Wiener, "FreeSpeech on the Internet," *The Nation*, June 13, 1994, pp. 825-828

(25) لمعرفة المزيد عن المنظور النقدي، انظر Norman Brinbaum, "How New the New -Germany? " Part I,*Slamagundi*, Nos. 88-89, Fall 1990/Winter 1991, pp. 234 263: Part II, Slamagundi, Nos. 90-91, Sring/Summer 1991, pp. 131-178 وكذلك Peter Rossman, "Dashed Hopes for a New Socialism," *The Nation*, May 7, 1990, pp. 632-635

(26) تحققت هذه الانتصارات رغم المعارضة الموحدة التي انضمت إليها أحزاب أخرى. للاشتراكيين الديمقراطيين فصيل اسمه "البرنامج الشيوعي" مازال ماركسياً لينينياً. ومع أن معظم الحزب يعتمد على الولاء المحلي الألماني الشرقي، وسياسة الشخصية، وفلسفة الحزب التي تقول: " هدفنا ليس قلب النظام البرلماني الديمقراطي بالثورة وإقامة نوع من الدكتاتورية، وإنما التحول الديمقراطي الحقيقي لألمانيا." ويلعب زعيم الحزب جريجور جايزي مباشرة على الاستياء الألماني الشرقي: "إني أقبل الحرية السياسية، والنظام القضائي والمنشآت الديمقراطية التي يقدمها هذا النظام. ولكني في الوقت نفسه أرى أن الشعب في شرقي ألمانيا فقد حقوقاً مهمة، وأن المجتمع هناك يشهد الكثير من الظلم الاجتماعي وهناك الكثير مما يجب تغييره. نحن لا نواجه التحديات الكونية والاجتماعية والإيكولوجية والثقافية التي تجابهنا. لذلك فأنا أرى أن هناك أسباباً وجيهة تجعلني معادياً للرأسمالية." Stephen Kinze,"In Germany, Communists Resurgent," *The New York Times*, January 29, 1994, p. A 6

(27) إلى جانب العمال القادمين من اليونان وإيطاليا وتركيا وشمال أفريقيا، هناك مهاجرون جدد من فيتنام والهند إلى جانب الحشد المتزايد من اللاجئين السياسيين من شرق أوروبا الذين يستفيدون استفادة جيدة من قوانين اللجوء الطوعي في ألمانيا.

(28) فرانكفورت، على سبيل المثال، ثلثها من الأجانب، وفيها ما يزيد على ١٤٠ جنسية، وهو ما يجعلها تنافس لوس أنجلوس ونيويورك كمركز للتعددية الثقافية. ومفارقة ألمانيا الأخرى أنها، مثلها مثل إسرائيل، أنها أعطت حق العودة لكل الألمان العرقيين. لذلك فإنها تتعامل، إضافة إلى ملايين الألمان الشرقيين، مع ١٠٠ ألف ألماني عرقي من الشرق. ويرى الألمان الغربيون هؤلاء العائدين ومعهم الألمان الشرقيين الفقراء على

أنهم "أجانب". ومن الطبيعي أن يشعر العائدون من "الأجانب" الأتراك واليونانيين، تماماً مثل استياء الألمان الغربيين منهم. وتروي اجناتيف القصة الذي تنم عن قدر كبير من المفارقة الخاصة المهاجرين الألمان العرقيين العائدين حديثاً من روسيا. وهي تروي ذلك بروسية سليمة لأنها لا تتحدث الألمانية (بينما الجيل الثاني والثالث من الأتراك يتحدثون ألمانية صحيحة)! فتقول: "كنت أظن أنني قادمة إلى ألمانيا، ولكني وجدتها تركيا."
Ignatieff, *Blood and Belonging*

(29) طبقا لما صدر عن المكتب الاتحادي لحماية الدستور. Ferdinand Protzman, "Grman Attacks Rise as Foreigners Become Scapegoats," *The New York Times*, November 2, 1992, p. ! 1

(30) المرجع السابق

(31) في ١٩٩١ على سبيل المثال عقد ٤٤ ألف قران بين ألمان وأجانب (لم تصل النسبة إلى ١٠ بالمائة من إجمالي عدد الزيجات) منها ٣٥٠٠ بين أتراك وألمانيات، و ٨٨٠ بين ألمان وتركيات. *The Week in Germany*, January 29, 1994

(32) *Der Spiegel*, October 26, 1992.

(33) "إن كابوس ألمانيا الجديد هو أن عصابات المراهقين تتحدث في السياسة." Ignatieff, *Blood and Belonging*, p. 48

(34) المناخ المعادي للأجانب "يناقض الروح الأولمبية، حيث أنه في القرية الأولمبية الكل 'أجانب'". هذا هو ما يقلق لاعباً أساسياً في Stephen Kizer, "German Violence Worries Investors," *The New York Times*, January 1, 1993, p. A 3

الفصل الثاني عشر: الصين وساحل المحيط الهادي الذي ليس ديمقراطياً بالضرورة

(1) Milton Friedman in *Capitalism and Freedom* (Chicago: University of Chicago Press, 1982) or Jeffrey Sachs in *Poland's Jump to the Market Economy*, based on the Leonel Robbins Memorial lectures delivered at the school of economics, January 1991 (Cambridge: MIT Press, 1993).

(2) اقتبسه Nicholas D. Kristof, "China Sees 'Market-Leninism' a Way to Future," *The New York Times*, September6, 1991, p. 1 وانظر كذلك Kristof and Sheryl WuDunn, *China Wake: The Struggle for the Soul of a Rising Power* (New York: Times Books, 1994) الذي يحتوي على معالجة حادة، وإن كانت في بعض الأحيان شديدة القسوة والسخرية، للصين في الوقت الراهن.

(3) فيما يتعلق بـ "المعجزة" الاقتصادية في "التنين" الصيني "الذي استيقظ"، انظر William H. Overholt, *The Rise of China: How Economic Reform Is Creating New Superpower* (New York: Norton, 1994) وأوفرهولت من بين من يظنون بحق أن السلطوية في الصين، كما في تايوان وسنغافورة، مفيدة للتطور الاقتصادي لأنه يحرر الحكومة من الخضوع للرأي العام

وجماعات المصالح. ويقول أوفرهولت إن "إقليم جوانج دونج الصيني أصبح الثاني بعد الولايات المتحدة وحدها كسوق لشامبوهات بروكتر أند جامبل" كما أنه "السوق رقم ٢" لموتورولا "في العالم بالنسبة للجيل الثاني من التليفونات اللاسلكية." ومثل هذا الحماس الساذج نجده لدي الكثير من الصحفيين. انظر على سبيل المثال Joe Klein, "Why China Does It Better," *Newsweek*, April 12, 1993, p. 23

(4) Berry Link, "The Old Man's New China," *The New York Review of Books*, June 9, 1994, pp. 31-36

(5) دليل مهم على أهمية الدول ذات السيادة في مواجهة أسواق عالم ماك يقدمه لنك الذي يقول: "جاء من مصادر موثوق بها أن ممثلي عشر شركات أمريكية كبرى شجعوا القيصر الاقتصادي الصيني زو رونجي، في اجتماع عقدوه معه في بكين في وقت سابق من العام الحالي، على أن يتخذ موقفاً متشدداً مع كلينتون فيما يتعلق بوضع الدولة الأولى بالرعاية." ولم تخضع السيادة الأمريكية الرسمية لعناد الصين، بل للوساطة غير الرسمية التي قامت بها الشركات الأمريكية. Link, "Old Man's New China," p. 34

(6) اقتبسه Nicholas D. Kristof, "Chines Communism's Secret Aim: Capitalism," *The New York Times*, October 19, 1992, p. A 6

(7) المعجزة الاقتصادية الصينية، بما تحققه من نمو يزيد على ١٨ بالمائة، تزيد من عدم المساواة الاجتماعية وسوء توزيع الدخل: فالوجبة التي تُقدم لمائدة يجلس عليها مجموعة من الأصدقاء في مطعم فخم قد تساوي عشرة أضعاف الأجر السنوي لمعظم العمال.

(8) Nicholas D. Kristof, "China Sees 'Marke-Leninism' a Way to Future," *The New York Times*, September 6, 1991, p. 1

(9) وصف الوضع الصعب الذي يعاني منه الفنانون في صين ما بعد ١٩٨٩ وعرض الأعمال الفنية Andrew Solomon, "Their Irony, Humor (and Art) Can Save China," *The New York Times Magazine*, December 19, pp. 42-51

(10) اقتبسته Suzy Menkes, "Yuppie Shaghai Shows an Old Flair," *International Herald Tribune*, May 25, 1993

(11) اقتبسه Jianying Zha, " China Goes Pop: Mao Meets Muzak," *The Nation*, March 31, 1994, pp. 373-376

(12) Nicholas D. Kristof, " Satellites Bring Information Revolution to China," *The New York Times*, April 11, 1993, pp. 1, 12.

(13) المرجع السابق . وللسبب نفسه، فإن الفشل في استضافة أولمبياد ٢٠٠٠ كان مصيبة اقتصادية لإقليم بكين الذي كان سيحقق فوائد اقتصادية، وكان ضربة لصورة الصين الكونية. أما بالنسبة للمسئولين الذين يشعرون بالقلق من التأثيرات الخارجية المغرية، فربما كان ذلك بمثابة انتصار جاء عفواً.

(14) Dave Lindorff, "China's Miracle Runs Out," *The Ntion*, may30, 1994, pp. 742-744.

(15) Kristof, "China Sees 'Mrket-Leninism' a Way to Fortune," *The New York Times*, September 6, 1991, p. 1.

(16) Sheryl WuDunn, "Clan Feuds," *The New York Times*, january 17, 1993, p. A 10.

(17) كان الرد على الاستفزازات في المرتين باستعمال وحشي وغاشم للقوة-إذ تشير التقديرات إلى مقتل ما يزيد على الستين، بينهم الرئيس السريلانكي الذي اغتاله إرهابي في عيد العمال سنة ١٩٩٣. وفي سنة ١٩٨٧ استدرجت الهند إلى الصراع التاميلي بإرسالها مايزيد على الخمسين ألف جندي إلى شمال سريلانكا لفرض الحل الخاص بها. وعادت القوات إلى بلادها صفر اليدين، بينما اغتال الإرهابيون التاميل رئيس وزراء الهند الأسبق راجيف غاندي في سنة ١٩٩١. وفي سنة ١٩٩٣ حدث بعض التقدم في سبيل حل النزاع بين التاميل والسنهاليين (انظر Edward A. Gargan, "Sri Lanka Is Choking Off Long Ethnic Revolt," *The New York Times*, March 20, 1993, p. 1) ومع ذلك يعتقد معظم المراقبين أن تعددية سريلانكا الثقافية قد تدمرها. انظر Willam McGowan, *Only Man Is Vile: The Tragedy of Sri Lanka* (New York: Farrar, Straus & Giroux, 1993)

(18) ٨٥ بالمائة من سكان إندونيسيا مسلمون، إلا أن ١٠ بالمائة مسيحيون والباقون عبارة عن أقليات صغيرة من الهندوس والبوذيين وعبدة الطبيعة. وكان التدخل العسكري مؤقتاً وود سوهارتو إقناع شركاءه التجاريين بأن تدخله إجراء تنظيمي لا يزيد سوءاً، على سبيل المثال، عن تدخل سنغافورة أو تايوان. ولكن القهر لا يتوقف: فقريبا جداً أُغلقت ثلاث مجلات واسعة الانتشار بينها المجلة الشهيرة *Tempo* (التي تأسست سنة ١٩٧١) دون سابق إنذار.

(19) James Fallows, *Looking at the Sun: The Rise of the New East Asian Economic and Political System* (New York: Pantheon, 1994) فالوز ليس مقتنعا بأن الكساد الاقتصادي الذي حدث في ١٩٩٤ ليس مجرد عثرة في طريق اليابان. وهو يعارض من يعتقدون أن اليابان بلد مثله مثل أي بلد آخر (وهذا في رأيي يجعلها مرشحا أفضل لعالم ماك)، مثل بيل ايموت *Japanophobia: The Myth of the Ivincible Japanese*, New York: Times Books, 1994).

(20) Karl Taro Greenfeld, *Speed Tribes: Days and Nights with Japan's Next Generation* (New York: HarperCollins, 1994) يذكرنا جرينفلد بأن هناك ٢٥ مليون ياباني تتراوح أعماره بين الخامسة عشرة والثلاثين: إنهم "أبناء رجال الصناعة والمديرين والعمال الذين بنوا جابان انكوربوريشن" [أي اسهموا فيما وصلت إليه اليابان من وضع اقتصادي] وهم "متعودون على الهامبرجر تعودهم على كرات الأرز وغالباً ما يكونون أمهر في لف عبوات الهيروين أو الكوكايين منهم في عمل شكل بالورق في فن الأوريجامي."

(21) Neil Straus, "In Performance," *The New York Times*, July 23, 1994, Section 1, p. 12.

(22) التغييرات التي على أكبر قدر من عدم الضرر يمكن أن تشكل أكبر التحديات: على سبيل المثال، تصاعدت الضغوط الاقتصادية سنة ١٩٩٤ لإدخال نظام الخدمة الذاتية على النمط الغربي في محطات البنزين اليابانية البالغ عددها ستين ألفاً. وخلال الجدل الناجم عن ذلك ويركز على السلامة وفرص العمل، لم يأت ذكر الثقافة. ومع ذلك فإنه رغم أن الخدمة الذاتية قد تكون ذات فاعلية اقتصادية. فهي تثير إشكالاً حول نموذج

التوظيف الكامل (انظر الجزء الثالث) واهتمام اليابان التقليدي بانحناءة الاحترام والخدمة. والحملة التي تستهدف الإبقاء على محطات الخدمة الكاملة لا ينتظر أن توحي بجهاد ثقافي، ولكن ربما ينبغي أن تفعل ذلك. للإطلاع على مناقشة لهذا الموضوع، انظر Andrew Plooack,"Japan's Radical Plan: Self-Service Gas," *The New York Times*, July 14, 1994, p. D 1

(23) الفقرة مقتبسة من منتج كينا الأمريكي راي كودار ونقلها نيل ستراوس في موضوع رائع عن الحياة العملية لشوكيتشي كينا الذي غني نيويورك في صيف ١٩٩٤ وجعل من الهجين الأوكيناوي صوتاً عالمياً يتمتع بالانتشار. ويقول كودار الذي قام كذلك بالعزف على الجيتار في من ألبومات كينا: "قام كينا بتهجين النمط الشعبي الأوكيناوي والآلات الموسيقية الشعبية لتكون هذا النوع من موسيقى البوب أو فريق الجراج، مثلما يفعل الجميع في العصر الحديث." انظر Neil Strauss, "Okinawa Gives Its Flavor to Rock," *The New York Times*, July 16, 1994, p. 11

الفصل الثالث عشر: الجهاد داخل عالم ماك: "الديمقراطيات التحولية"

(1) اقتبسه John Kifner, "The World through the Serbian Eye," *The New York Times*, April 10, 1994, Section 4, p. 1

(2) Vladimir Goati as cited in ibid.

(3) كلام دومليان اقتبسه Milton Viorst,"The Yugoslav Idea," *The New Yorker*, March 18, 1991, pp. 58-79 اقتباس الـ "زوبعة" من "A Whirlwind of Hatred: How the Balkans Broke Up," *The New York Times,* February 14, 1993, p. E 5

(4) في صيف ١٩٩٤ حدث انهيار في اسهم أكبر شركة استثمارية في روسيا من ٥٠ دولاراً للسهم إلى أقل من ٥٠ سنتاً. والواقع أن ما يسمى MMM fund كان "قصراً على الرمال" لأنه "لم يحقق أية أرباح، ولم يسفر عن أية استثمارات، ولم يعلن عن أية استراتيجية مالية". وكان الارتفاع الحاد في أسعار الأهم ناتجاً عن بيع المزيد والمزيد من الأسهم، حيث كان المشترون الجدد يحققون أرباحاً للمشترين القدامى من خلال استراتيجية الاستثمار الهرمي التقليدية. وأنحت الشركة باللائمة على الحكومة بسبب تدخلها ولعدم وضع النظم. في حين وجه الملايين من حاملي السهم الروس الحكومة في المقام الأول. انظر Michael Specter,"10,000 Stampede a Russian Stock Collapses," *The new York Times*, July 30, 1994, p. A 1

(5) طبقاً لما قاله الكسندر باسخافر من مركز الإصلاحات الاقتصادية في كييف نقلاً عن Misha Glenny, "Ukraine's Great Divide," *The New York Times*, July 14, 19994, p. p. A 23

(6) Nikplai Zlobin, "Mafiacracy Takes Over," *The New York Times*, July 26, 1994, p. A 19. وعلى نفس القدر من الإثارة التي تميز به المقال، كانت رغبة نيويورك تايمز في إعطائه مكان بارز في صفحة الرأي.

(7) في الذكرى الخامسة والأربعين (١٩٩١) لإعدامه كمجرم حرب، كرّم البرلمان الروماني الجديد المارشال أيون أنطونيسكو الذي شارك في غزو هتلر للاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية وكان مسئولاً عن موت ٢٥٠ ألف يهودي. وكان التكريم البرلماني بالإجماع والتزم رئيس الوزراء أليسكو الصمت ، رغم أنه كان قد عبر في وقت سابق عن عدم موافقته على ذلك.

(8) Celestine Bohlen, "Zhirinovsky Cult Grows," *The New York Times*, April 5, 1994, p. A 1, 12 جمع خطب جيرينوفسكي وعلق عليها George Lancell, *Absolute Zhirinosky: A Transparent View of the Distinguished Russian Statesman* (New York: Penguin Books, 1994)

(9) بعد سنة من انهيار الشيوعية "تدهور إجمالي الناتج القومي في كل دول شرق أوروبا... هبط الإنتاج الصناعي بنسبة ١٠ بالمائة في المجر، و٣٨ بالمائة في رومانيا، و٣٠ بالمائة في بلغاريا" وفي كل حالة من الحالات زادت التوترات العرقية من تأثير المشاكل الاقتصادية، Serge Schmemann, "For Eastern Europe, Now a New Illusion," *The New York Times*, November 9, 1990, p. A 1, 10

(10) علاوة على الأفكار القومية المتطرفة داخل المجر، التي كثيراً ما تأخذ شكل توجيه الضربات لليهود، يتخذ المجريون من الملايين الذين يقيمون في صربيا ورومانيا (٧ بالمائة من السكان) وسلوفاكيا (١١ بالمائة) قضية-فهم يشكلون أكبر الأقليات في أوروبا بعد الروس الذين يعيشون خارج الحدود الروسية. وأصبحت قضية "المجر الكبرى" نداء التجمع الذي يطلقه المتعصبون مثل سوركا ممن يدعون إلى استعمال الترجمة الحرفية للمصطلح الألماني "lebensraaum"[المجال الحيوي] على الفضاء الذي يعيش فيه المجريون. على سبيل المثال، انظر Stephen Engelberg, "Now Hungry Adds Its Voice to the Ethnic Tumult," *The New York Times*, January 25, 1993, p. A 3 كان اشتفان سوركا عضواً بالمنتدى الديمقراطي المجري (الحزب الحاكم في المجر في عهد جوزيف أنتال حتى انتخابات ١٩٩٤) وقاد الحملة المعادية للصحافة. ومع أنه كان في يوم من الأيام صديقاً للمنشقين، فقد ابتعد حتى عن المحافظين. إلا أن التعيينات التي قام بها في وسائل الإعلام أدت إلى قدر كبير من الخسائر. وهو معروف بأنه "أبله، ولم يأخذ أحد ما يقوله في يوم من الأيام مأخذ الجد." Milos Vamos, "Hungary's Media Apparatchicks," *The Ntion*, December 13, 1993, p. 725

(11) كان على قدر من الولاء سنة ١٩٨٩، لدرجة أنه عندما أطلت القبلية برأسها لأول مرة من بين حطام الإمبراطورية الستالينية، اعتقد كل المراقبين تقريباً أن جنود الجيش النظاميين سوف يحتوون شهواتها التي استيقظت داخل يوغوسلافيا نفسها.

(12) منذ سنوات قليلة مضت أدرك فاسيلي بيلوف الصربي المدافع عن الثقافة السلافية معنى الاستياء التاريخي إدراكاً صحيحاً: " ما يُسمى بعقوبات الأمم المتحدة في يوغوسلافيا-إنها عقوبات من الفاتيكان وألمانيا ومعهما جورباتشوف." Serge Schmemann, "From Russia to Serbia," *The New YOrk Times*, January 31, 1993, p. E 18

الممثل الصربي الشهير نيكولاي بورلاييف كتب منذ فترة ليست ببعيدة في صحيفة *Den* اليومية التي تصدر في براغ يقول: "اليوم صربيا بمفردها. يبدو أن العالم بأسره تكتل ضدها. الحكومة الروسية الحالية خانتها. خانت شعباً من نفس دم وعقيدة الأمة الأرثوذكسية الروسية. لقد خانت إخوانها السلاف، الذين هم مثل الروس..." Schmemann, ibid. لقد تخلت روسيا في آخر الأمر عن أصدقائها الصرب بعد رفض البرلمان الصربي الحل الوسط الذي تقدمت به القوى العظمى وكان سيترك للصرب الكثير من الأراضي التي استولوا عليها في البوسنة. وكانت ليلتسين أفكاره الخاصة فيما يتعلق بخذلان الصرب لرعاتهم في موسكو.

(13) -Misha Glenny, "Ukraine's Great Divide," *The New York Times*, Op Ed, July14, p. A. A 23

(14) عرضت روسيا إلغاء ديون تزيد على ٢,٥ مليار دولار. وفي الوقت نفسه صوّت الغرب لصالح تقديم مساعدات قيمتها ٤ مليارات دولار (تشمل ٢٠٠ مليون دولار لإغلاق مفاعل تشرنوبيل وتطهيره). ومن سوء حظ كرافتشوك أن التصويت جرى في اليوم السبق لإقصائه عن منصبه، وسوف يجني خليفته كوتشمان الثمار السياسية لهذه الجائزة.

(15) اقتبسه Misha Glenny, ibid.

(16) Steve Erlanger, "Ukraine Questions Price Tag of Independence," *The New York Times*, September 8, 1993, p. A 8

(17) في ملحق آخر من تلك الملاحق الإعلانية المخصصة لاجتذاب الرأسماليين الغربيين الذين لا علم لهم بتاريخ وسط أوروبا كي يلقوا بملايين الدولارات في المنطقة: انظر "romania: Rebuilding the Nation," 1994

(18) وُضع خطوط الاتفاق في ربيع ١٩٩٢ فريق من "مشروع العلاقات العرقية" في بريستون بعد عقود من القهر في عهد الدكتاتور الشيوعي شاوشيسكو. وتتبادل المجر الأفكار الدموية، حيث لا تزال تدعو معاهدة تريانون، التي عُقدت سنة ١٩٢٠ اقتطعت كربات ترانسلفانيا بسكانها المجريين البالغ عددهم ٦٠٠ ألفاً، بـ "تريانون اللعينة" وتضع السيناريوهات لاستعادة سيادتها على تلك المناطق. وتصور مسرحية كارايل تشرشل الوثائقية *Mad Forest* الكثير من التوترات في رومانيا قُبيل سقوط شاوشيسكو، ولكنها تبرز بشكل أساسي التنافس العرقي والتعصب الأعمى ضد الغجر.

(19) Toby F. Sonneman, "Old Hatreds and New Europe: Roma after the Revolutions," *Tikkun*, Vol. 7, No. 1, January 1993, pp. 49-52.

(20) جاء الغجر من الهند في القرن الثالث عشر وتشتتوا في شتاتين، الأول في البلقان وملدافيا ووالاتشيا (رومانيا الحالية) حيث استعبدوا في الفترة من القرن الرابع عشر حتى القرن التاسع عشر: وظل الشق الآخر رحالاً في أنحاء أوروبا. وقد عزلهم نظامهم الطائفي الهندي الأصل عزلاً تاماً عن الدول التي استضافتهم، حيث أُعتبر في ألمانيا وفنلندا وبريطانيا العظمى أنها إهانة كبيرة أن يُولد المرء غجرياً. وقضت مذابح النازيين على ما بين ٧٠ و٨٠ بالمائة من الغجر جميعاً، وتراوح العدد في بعض الأماكن بين نصف مليون ومليون (لم يكن هناك تعداد للغجر يقاس عليه حجم الإبادة).

(21) كان أنطونيسكو ضابطا في سلاح الفرسان وكان مصابا بالزهري. وقد خلع الملك كارول الثاني المستبد سنة ١٩٤٠ وأطلق على نفسه لقب conducator واتخذ لنفسه هيئة Der Fuhrer [الفورر هتلر]. واعتبر أنطونيسكو مُخلصاً قومياً ويقرن البعض اسمه بحزب أليسكو، جبهة الخلاص الوطني.

(22) لمزيد من التفاصيل، انظر Rober D. Kaplan, "Bloody Romania," *The New Republic*, July 30 and August 6, 1990, p. 12 و sonnenman, "Old Hatreds"

(23) Kaplan, "Bloosy Romania" يصف كابلان رحلته عبر رومانيا كما يلي: "واجهت جحيماً خيالياً من إدمان الكحول الذي لا يُحتمل. حيث عصابات عمال المصانع الذين يقيمون في عنابر بعيداً عن أسرهم وقد زال عنهم أي نوع من الكبرياء، يشربون الكحول الطبي ويشاهدون أفلام الكونج فو في المقاهي." وهو يشير إلى أن أليسكو يستخدم عمال المناجم هؤلاء كحرس إمبراطوري المثقفين المعادين للنظام في المدن.

(24) Eric Hobsbawm, "A New Threat to History," *The New York Review of Books*, December 16, 1993, pp. 62-64.

(25) المرجع السابق .

(26) Ibid., p. 62 يشير هوبسبوم إلى دراسة عن وادي نهر السند بعنوان 5000 Years of Pakistan [٥ الاف سنة من عمر باكستان] مع أن "باكستان لم يكن هناك مجرد تفكير فيها قبل ١٩٣٢-١٩٣٣ عندما ابتكر الاسم بعض الطلبة النشطين سياسياً. وهي لم تصبح مطمحاً سياسيا جاداً قبل ١٩٤٠. وكدولة ظهرت إلى الوجود منذ عالم ١٩٤٧."

(27) اقتبس في Celeste Bohlen, "Ethnic Rivalries Revive, in E. Europe," *The New York Times*, November 12, 1990, pp. A1, 12

الفصل الرابع عشر: الجهاد الأساسي: الإسلام والأصولية

(28) Martin E. Marty and R. Scott Appleby, *Fundamentalisms Observed*, Vol. 1 of the Fundamentalism Project (Chicago: University of Chicago Press, 1991), pp. Viii-x.

(29) إعلان في *The New York Times*, July 20, 1994

(30) Chris Hedges,"Tehran Journal," *The New York Times*, August 16, 1994, p.A 2.

(4) Leslie Planner and Cherry Mosteshar, "Bringing a Beam of Delight to the Closed Wowrld of Iran." *The Guardian*, August 5, 1994, p. 14

(5) "هناك شيء استثنائي فيما يتعلق بدرجة السلطوية التي تسود الشرق الأوسط اليوم ...وسواء كان الإسلام و'الثقافة' الشرق أوسطية ظاهرتين يمكن فصلهما أم لا، فإن الاثنين يعملان بطرق غير مبشرة بالنسبة

(5) "هناك شيء استثنائي فيما يتعلق بدرجة السلطوية التي تسود الشرق الأوسط اليوم ...وسواء كان الإسلام و'الثقافة' الشرق أوسطية ظاهرتين يمكن فصلهما أم لا، فإن الاثنين يعملان بطرق غير مباشرة بالنسبة للديمقراطية." "Democracy Without Democrats," in G. Salame, editor, *Democracy Without Democrats* (London: I. B. Tauris Publishers, 1994), pp. 32-33

(6) Hilal Khashan, "The Limits of Arab Democracy," *World Affairs,* Vol. 153, No. 4, Spring 1991, pp. 127-135.

(7) Fatima Mernissi, *Islam and Democracy: Fear of the Modern World* (Reading Mass.: Addison-Wesley, 1993), p. 1992 للإطلاع على صورة للإسلام كما يراه مصور صحفي، انظر Abbas, *Allah o Akbara: A Journey Through Militant Islam* (San Francisco: Phaidon Press, 1995)

(8) حسبما يراه جون فول. "اعتقد زعماء الجهاد أن الكفاح المسلح ضد أي حكومة شريرة شرط من شروط عقيدتهم." "Fundamentalism in the Sunni Arab World," in M. E, Marty and R. S. Appleby, *Fundamentalisms Observed*, p. 345

(9) من ملخص *Islam and Democracy*, Timothy D. Sisk, editor, (Washington, D.C.: United Stated Institute of Peace, 1992, p. x

(10) على سبيل المثال، انظر: Edward W. Said,*Culture and Imperialism* (New York: Alfred A. Knopf, 1993)

(11) Sisk, *Islam and Democracy,* p. 23.

(12) Voll, "Fundamentalism, p. 348.

(13) Cited in ibid., p. 360 تُرى المؤسسات الحرة على أنها ذريعة للفساد، وهي ليست شراً في حد ذاتها ولكنها لا تؤخذ مأخذ الجد لأنها ليست سوى حصان طروادة الذي تُهرّب من خلاله مساوئ الغرب.

(14) Prynne, cited in Joans Baridh, *Antitheatrical Prejudice* (Berkeley, California: The University of Califorinia Press, 1981), pp. 84-85.

(15) Jean-Jacques Rousseau, *Letter to D'Alember on Theatem* Allan Bloom, editor, *Ploitics and the Arts* (Ithaca: Cornell University Press), p. 58.

(16) انظر Steohen Barboza, *American Jehad: Islam after Malcolm X* (New York: Doubleday, 1994).

(17) كتب ستيفن كارتر كتاباً شديد الوضوح عن تقليل أهمية الإيمان الحقيقي الذي يواجهه المتدينون في أمريكا العلمانية: *The Culture of Disbelief: How American Law and Politics Trivialize Religious Devotion* (New York: Basic Books, 1993)

(18) Jerry Falwell, Founder and President of the Moral Majority, in a March 1993 sermon; cited in The Anti-Defamation League, *The religious Right: ThaAssault on Tolerance and Pluralism in America* (New York: The Anti Famation League, 1994), p. 4.

(19) المرجع السابق . تيريل هو مؤسس Operation Rescu وهي الجماعة المعارضة للإجهاض.

(20) من "Drive By Witness," by A-1 S.W.I.F.T., cited by Michael Marriot, "Rhymes of Redemption," *Newsweek*, November 28, 1994, p. 64 وانظر كذلك

(21) الفضائح المالية والجنسية التي هزت دوائر من يقومون بالوعظ من خلال التلفزيون مثل دائرة جيم باكر ما زالت مستمرة. واضطرت Gospel Music Association في سنة ١٩٩٤ للإعلان أن مغني البوب المسيحي المتزوج مايكل إنجلش حملت منه مارابيث جوردون، وهي زوجة رجل آخر ومغنية في الثلاثي First Call-ربما لتبرهن بذلك على أن من يستغل أدوات عالم ماك الشرير قد يقع في شرك الشر.

(22) يقدم فيليب فايس عرضاً مدهشاً لتسربات العصر الجديد الرجعية في مقاله "Off the Grid," *The New York Times Magazine*, January 6, 1995, pp. 24-52

(23) كتب تشارلز ب. ستروزير وصفاً رائعاً للجانب الرؤيوي للأصولية. انظر *Apocalypse: On the Psychology of Fundamentalism in America* (Boston: Beacon Press, 1994) انظر كذلك Paul Boyer, *When Time Shall Be No More: Prophecy Belief in Modern American Culture* (Cambridge: Harvard University Press, 1993)

الجـزء الثالث: الجهاد في مواجهة عالم ماك

الفصل الخامس عشر: الجهاد وعالم ماك في الاضطراب العالمي الجديد

(1) Alexis de Tocqeville, *Democracy in America* (Mattituck: American House, 1838), Book 1, Chapter 15.

(2) وبذلك يحارب المجلس التجاري والصناعي الأمريكي بنود منظمة التجارة العالمية الخاصة بالجات، التي تخشى أن تكون "استسلام رسمي من جانب الولايات المتحدة للحكومات الأجنبية". إعلان في *The. New York Times*, July 28, 1994, p. A 13

(3) Jack Sheinkman, "When Children Do the Work," *The New York Times*, August 9, 1994, p. A 23.

(4) المرجع السابق. كما جاء في خطاب ديفيد كيبل الحاد نيابة عن منظمة التجارة الدولية للنيويورك تايمز، فإنه من غير المحتمل أن تتحدى دولة صغيرة مثل بنين المعايير البيئية الأمريكية لتكون عقبة في سبيل التجارة الحرة. بل إنه "من الناحية الاسمية فقط سيكون المتحدي هو بنين. إنها بحق مؤسسة كونية كبيرة تبحث عن حكومة أجنبية صديقة أو يائسة لتساعدها على التخلص من اللوائح التي تحاربها باستمرار" *The New York Times*, Letters, August 3, 1994, p. A 20 لاحظ أن البند الثاني من معاهدة منظمة التجارة الدولية يحظر على الحكومات سن قوانين "تؤدي إلى خلق عقبات لا لزوم لها في سبيل التجارة الدولية". والعقبات التي لا لزوم لها مثل فرض حظر على عمل الأطفال، ومعايير السلامة الصناعية، وقوانين حماية البيئة وما إلى ذلك!؟

(5) للإطلاع على المزيد مما يتعلق بالجدل الدائر هنا، انظر Laurie Udesky, "Sweatshops Behind the Labels," *The Nation*, May 16, 1994, pp. 665-668 and the ensuing correspondence, including a rejoinder from Levi Straus &Company in *The Ntion*, August 8/15, 1994, pp. 146-176

(6) في حوار تم مؤخرا بين الفيلسوف الاجتماعي الألماني يورجن هابرماس والإصلاحي والمحرر البولندي ادم متشنك، يرد هابرماس عن سؤال يقول "ماالذي بقي من الاشتراكية؟" بإجابة واضحة هي "الديمقراطية الجذرية". يتفق متشنك اتفاقا "تاما". ولكن ما يبدو أن هذا يعنيه ليس هو أن الديمقراطية بقيت، وإنما أن امكانياتها المثالية (المرتبطة بالاشتراكية كنظرية نبيلة) اختفت من الناحية العملية مع الاشتراكية. "'More Humility, Fewer Illusions'-A Talk Between Adam Michnik and Juirgen habarmas," *The New York Review of Book*, March 24, 1994, p. 24

(7) Thomas L. Friedman, "A Peace Deal Today Really Is a Bargain," *The New York Times*, September 11, 1994, Section 4, p. 1

(8) اقتبسه فانس باكارد في كتابه الكلاسيكي القديم عن الاستهلاك *The Waste Makers,* (New York: David McKay, 1960) واقتبسه مرة أخرى ألن ديورنج في دراسته الممتازة لمعهد ورلد ووتش باسم *How Much Is Enough: The Consumer Society and the Future of Earth* (New YOrk: W.W. Norton & Company, 1992,pp. 21-22

(9) During, ibid., pp. 22-116.

(10) كانت العصبة فشلا ذريعا. ولم تكن الولايات المتحدة عضوا فيها. وخرجت منها سبع عشرة دولة أخرى من بين دولها الثلاث والستين قبل انهيارها مع بداية الحرب العالمية الثانية، التي فشلت في الحيلولة دون نشوبها. انظر Mihaly Siami, *The Future of Global Governance* (Washington, D.C.: United States Institute of Peace, 1994), p. 27

المحاولة التي قامت بها الدول النامية الأكثر عددا، ولكنها اشد ضعفا، سنة ١٩٧٤ لوضع "نظام اقتصادي عالمي جديد" من خلال قرار الأمم المتحدة رقم ٣٢٠١ كانت موضع استهزاء لرفض دول العالم الأول القوي إبداء أي اهتمام بها. وكان ذلك هو نفس مصير نظام المعلومات العالمي الجديد الذي جرى التفكير فيه في أوائل الثمانينيات كرد فعل لهيمنة اتصالات عالم ماك. بل إن الدول القوية أعضاء مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لم تنجح في إخضاع البيئة الدولية لأغراض حفظ السلام الفعالة، كما يتضح ذلك بجلاء في الصورة الزائفة التي نراها في البوسنة.

(11) Maurice F. Strong, "ECO '92: Critical Challenges and Global Solution," *Journal of International Affairs*, No. 44, pp. 287-298 وهكذا درس مؤتمر في ١٩٩٤ إعادة ترتيب البيئات الدولية مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. انظر *Rethinking Bretton Woods* (Washington, D.C.: Center for Concern, 1995). مؤتمرات "القمة" البيئية والاجتماعية العديدة التي عُقدت على مدى السنوات الخمس الماضية كانت لها نفس الأهداف، ولكنها أضاعت الكثير من الوقت في الكلام وعجزت عن القيام بعمل مشترك.

Oscar Schachter, "The Emergence of International Environmental Law," (12) *Journal of International Affairs*, No. 44, 1991, p. 457.

Geoffrey Palmer, "New Ways to Make International Environmental (13) Laws," *American Law on International Law*, No. 86, 1992; p. 259 وانظر كذلك Benjamin B. Ferencz,. *New Legal Foundations for Global Survival* (New York: Oceana Publications, 1994) وهو ككل ما كُتب تقريبا عن القانون الدولي تنتشر فيه الكلمات التي لا طائل من ورائها مثل "يجب" و "ينبغي" و "لا بد" في المجال الذي يجب أن تكون الكلمات المستخدمة هي "لا يمكن" و "لا" و "لن".

(14) هناك العديد من المؤسسات الدولية–القوانين و والمعاهدات والمنظمات والبيئات–تتناثر فيما بين عمالقة من الدول المفككة، والقبائل المذبوحة، والأعداد الضخمة من اللاجئين المشردين، والبيئات المدمرة التي تشكل معا تاريخ السنوات الخمس والسبعين الماضية ولها بعض الشرعية. وفي المجالات المحدودة التي يمكن فيها للدول القوية أن توافق على بنود بعينها من جدول الأعمال، حققت هذه المؤسسات بعض الخير. وفي فترة ما بعد الحرب، عندما قامت الولايات المتحدة بدور "القوة المهيمنة" على العالم، كانت المؤسسات "الدولية" في واقع الأمر لا تُخفي أنها تنفذ سياسات الولايات المتحدة ومصالحها وساعدت على إيجاد "سلام أمريكي" pax Americana ضمن بدوره شكلاً من أشكال سلام الحرب الباردة. ويقدم جون جيرارد روجي المصطلح الذي أصبح شائع التداول في العلاقات الدولية الأكاديمية والدوائر الاقتصادية فيما بين الباحثين مثل روبرت كوين وتشارلز كندلبرجر وروبرت جلبن.

Robert Kuttner. *The End of Laissez-Faire: National Purpose and The* (15) *Global Economy after the Cold War* (New York: Alfred A. Knopf, 1991), p.260 يقدم كتنر عرضا شديد الوضوح لأوهام حرية العمل وأثرها المدمر على الاقتصاد الأمريكي.

(16) Assembly of Regions انظر المناقشة التالية في الهامش رقم ١٩.

(17) للإطلاع على مقال رائع يُعاد نشره عن الوطنية والكوزموبوليتانية، انظر Martha Nussbaum," Patriotism or Cosmopolitanism? Martha Nussbaum in Debate," *Boston Review*, special Issue, Volume XIX, Number 5, October/November 1994 وردي عليه في العدد نفسه.

Robert Reich, *Work of Ntions* (New York: Alfred A. Knopf, 1991), p. 313 (18)

(19) المادة ١/٢٤ من القانون الأساسي التي تناقش "قوة التكامل" تنص على أن "الاتحاد الفيدرالي يمكنه بالقانون نقل سلطات السيادة إلى المؤسسات الدولية". وقد حلت محلها "المادة الأوروبية" الجديدة في سنة ١٩٩٢. للإطلاع على مناقشة دقيقة، انظر: Charlie Jeffrey, "The Laender Strike Back: Structures and Procedures of European Integration: Policy-Making in the German Federal System," research paper prepared for the 26th World Congress of International Political Science, Berlin, August 21-25, 1994

(20) مازال المحبون للخير العام يحلمون بتدخل جيش تابع للأمم المتحدة لا يعتمد على الهيمنة الأمريكية. ولكن أي جيش خيّر كوني بلا سيادة كونية ليس محل تفكير. بينما الجيش الكوني الذي يعتمد على مشاركة

الدول ذات الاهتمام لا يمكن أن يكون خلواً من المصلحة ولا كونياً. للإطلاع على مناقشة حول ذلك، انظر Kai Bird, "The Case for a U.N. Army," *The Nation*, August 8/15, 1994, p. 160

ويبدو أنه حتى الاتحاد الفيدرالي العالمي المبجل قد تخلى عن مكانه للتصور خاص بحكومة عالمية ويروج لذلك في المقام الأول داخل الدول باسم منظمات قائمة بالفعل أثبتت عجزها عن حفظ السلام، ناهيك عن حكم العالم. ويطلب منها ملف أُعد لجمع الأموال يحتوي على رسائل سبقت كتابتها كي تُرسل إلى مندوبين معينين، بينهم الرئيس كلينتون، تطلب منهم "دعم الأمم المتحدة والتغيير الكوني" وأشياء قليلة أخرى.

(21) اقتبسه Stuart Elliot, "In Search of Fun for Creativity's Sake," *The New York Times*, January 3, 1994, p. C 19

(22) Juan Lewis, "UN Blues: Responding to the Crisis of Somalia," *LSE Magazine*, Spring 1994.

(23) Reich, *Work of Nations*, Chapter 12.

(24) هناه أرنت تجمع الثلاثة معاً في مناقشتها للديمقراطية الأساسية في *On Revolution* (New York: Viking Press, 1963, pp. 22-24

(25) أوضح روبرت بوتنام في كتابه *Making Democracy Work: Civic Traditions in Modern Italy* (Princeton: Princeton University Press, 1993) كيف أن المجتمعات الكورالية ميزت المدن الإيطالية التي كانت موجودة بها في القرون الغابرة بقدرة مميزة على المشاركة المدنية والديمقراطية.

(26) انظر Michael Lesy, *Wisconsin Death Trip* (New York: Pantheon Books, 1973) و Jane Mansbridge, *Beyond Adversary Democracy* (Chicago: University of Chicago Press, 1983

(27) Stephen Holmes, "Back to the Drawing Board," *East European Constitutional Review*, Vol. 2, No. 1, Winter 1993, pp. 21-25 إلا أنه ليس من الواضح إن كان المركز يتقبل النصح أم لا. ففي نفس العدد من المجلة الذي يحمل مقالته الافتتاحية التي تحمل النصيحة مخصص لمناقشة "فصل السلطات"، بينما نُظمت المجلدات اللاحقة حول تلك المؤسسات المجردة مثل المحاكم الدستورية، ورئاسة ما بعد الشيوعية، و "شكل" أنظمة الحكم الانتخابية.

(28) هناك قائمة بمثل هذه الجمعيات وأخبار أنشطتها منشورة في النشرة الشهرية *Third Sector* التي أعدتها مجموعة التحرير في Interlegal International Foundation in Moscow (Moscow: Belka Technology Publishers, 1994) وسوف أناقش أثر هذه المؤسسة على روسيا الجديدة لاحقاً.

الفصل السادس عشر: الرأسمالية المتوحشة في مواجهة الديمقراطية

(1) J. G. A. Pocock, "The Ideal of Citizenship Since Classical Times," *Queen's Quarterly*, Spring 1992, p. 55.

(2) Milton Friedman, in his Introduction to the new edition of Friedrich von Hayek's classic *The Road to Serfdom* (Chicago: University of Chicago Press, 1994).

(3) يطلق ستيفن هولمز على الدستورية السلبية "المقابل السياسي للتحررية في الاقتصاد" ويعتقد أن هناك "احتمال كبير أن تسفر عن أوتوقراطية جديدة على مدى ليس ببعيد" حيث أنها ترفض أن تعمل بفاعلية في احتواء مساوئ مجتمع السوق". Holmes, "Back to the Drawing Board," *East European Constitutional Review*, Vol. 2, No. 1, Winter 1993, pp. 21-25

(4) فوضوي بمعنى أن التحرريين يعتقدون أن كل أشكال الحكم، ديمقراطية وغير وديمقراطية، شريرة، وكلما نما الحكم تلاشت الحرية بالضرورة.

(5) انظر التراث الطويل والمثمر من النظرية النقدية السياسية التي تعود إلى جان جاك روسو وجون ستيوارت ميل–الديمقراطيان الحران اللذان شعرا بالقلق من تجاوزات الملكية الخاصة وإساءاتها ورأس المال الاحتكاري. ويحمل كتاب ميل *Autobiography* نقداً موجهاً بصورة خاصة لملامح بعينها من ملامح نظام الملكية الخاص–وذلك رغم احتفاء ميل بالحرية في *On Liberty*. ويقدم كتاب روسو *Second Discourse* "حول عدم المساواة" صورة مبكرة لأثر الملكية الخاصة على المساواة الإنسانية الطبيعية والقوة المدنية.

- ومنذ عهد هؤلاء النقاد الأوائل، يمتد الخيط ليصل إلى كارل بولانيي وجون مينار كيين وجون كينيث جالبريث. انظر John Kenneth Galbraith, "Capitalism's Dark Shadows," *Washington Monthly*, (July/August 1994), pp.20-23 حيث يرى جالبريث أن في الاقتصاد الرأسمالي أناس مثل مديري الشركات وحاملي الأسهم والمهنيون والمحالون إلى التقاعد يفضلون النمو البطيء وارتفاع معدل التوظيف رغم أثره المريع على معظم العمال في الاقتصاد وعلى الرأسمالية نفسها.

(6) قدم آدم سميث في كتابه *Theory of Moral Sentiments* عرضاً للسلوك البشري الذي تعدى بكثير المنفعة الاقتصادية. وفي *The Wealth of Nations* يترك مساحة كبيرة للسلطات العامة التي تتولى مسئولية المصالح العامة كالتعليم والصحة والرفاهة والأشغال العامة والسيطرة على الجوانب "التآمرية" المحتملة للأسواق (كالاحتكارات على سبيل المثال).

(7) Norman Birnbaum, "How New Is the New Germany?" Part I, *Salmagundi*, Nos. 90-91, Spring/Summer 1991, pp. 131-178, 292-296.

(8) Aleksandr Solzhnitsyn, "To Tame Savage Capitalism," *The New York Times*, November 28, 1993, p. E 11.

(9) يرفض أندرو شموكلر هذا التنازل في دراسته جيدة التوثيق *The Illusion of Choice: How the Market Shape Our Destiny* (Alabany, N.Y.: State University of N.Y.Press, 1993) ولكن يبدو أن اقتصاديي حرية العمل لم يتعلموا شيئاً من العشرينيات والثلاثينيات.

(10) ألف الأمريكيون من خلال حركة الكوبونات خصخصة التعليم. وقليلون من يعرفون أن حوالي ٢ بالمائة من نزلاء سجوننا قد عُهِد بهم إلى شركات خاصة في الولايات الثلاثين التي تنازلت عن سلطتها السيادية الخاصة بالعقاب لشركات خاصة مثل شركة الإصلاح الأمريكية.بل إنه في الوقت الحالي يزيد عدد حراس الأمن الخاصين على عدد أفراد الشرطة العامة. انظر Anthony Ramirez, "Privatizing America's Prisons," *The New York Times*, August 14, 1994,p. K 1

(11) Milton and Rose Riedman, *Free to Choose* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1980).

(12) Jeffrey Sachs, *Poland's Jump to the Market Economy* (Cmbridge, Mass.: The M.I.T. Press, 1993), pp. 4-5 and p.57 رغم إعفاء ساكس من مهامه (أو تخليه عن مهامه كما يؤكد هو) في روسيا، فما زال يعمل مرشداً للأسواق لدى بعض الدول التحولية. للإطلاع على نقد من اليسار، انظر Jon Wiener, "The Sachs Plan in Poland," *The Nation*, June 25, 1990, p. 877

(13) Robert Kutner, *The End of Laissez Faire: National Purposes and the Global Economy after the Cold War* (New York: Alfred A. Knopf, 1991), p. 18 يلاحظ كتنر بالطبع أن "الولايات المتحدة ظلت عشر سنوات تدعو، وبطريقة شديدة الغرابة، لحرية العمل وتمسكت بها تمسكا مخلصا بينما هي تمارس ما هو عكس ذلك، أي المذهب الكينزي Keynesianism الذي لا تعترف به-وأعني بذلك دعمها المفلس للدولار باعتباره الوسيلة الدولية للصرف، وإنفاقها العسكري الذي يلهب الاقتصاد، وتخفيض الضرائب الذي أقدم عليه ريجان وأدى إلى زيادة العجز (p. 18).

(14) *The Economist*, March 13, 1993, p. 21.

(15) انظر Bruce Reich, *Mortgaging the Earth: The World Bank, Environmental Impoverishment and the Crisis of Development* (Boston: Beacon Press, 1994) وكذلك Andrew Cohen's review essay "Potemkin Environmentalism." *The Ntion*, July 18, 1994, pp. 101-103 في ذكرى ميلاده الخمسين، يتعهد البنك الدولي (البنك الدولي للتعمير والتنمية سابقا) بأن يكون أداؤه أفضل فيما يتعلق بالحفاظ على البيئة على أقل تقدير. ففي بيانه لسنة ١٩٩٤ بعنوان "الإيمان بالمستقبل" يزعم أنه مهتم ببرامج التنمية البشرية والبيئة اهتمامه بالتنمية الاقتصادية والأسواق. انظر Thomas L. Friedman, "World Bank at 50, Vows to do better," *The New York Times*, July 24, 1994, p. A 4

(16) Kutner, *End of Laissez Faire*, p. 24.

(17) Thomas L. Friedman, "When Money Talks," *The New York Times*, July 24, 1994, p. E3.

(18) اعلان عن "جمهورية التشيك" The New York times, January 7, 1994, p. 6

(19) Holmes, "Drawing Board."

(20) Walter B. Wriston, *Twilight of Sovereignty* (New York: Scribner's 1992), p.12

(21) Friedman, "When Money Talks."

(22) قد يستحق الأمر منا أن نورد بالكامل وصفة ساكس للإصلاح الاقتصادي في بولندا (الذي ظهر تحت اسم " خطة بالسيروفيتش" تكريما لنائب رئيس وزراء بولندا للاقتصاد في الحكومة التي قدم لها ساكس النصح ليسيك بالسيروفيتش). و "الأعمدة الرئيسية" الخمسة في إصلاحه هي أولاً أن التثبيت الاقتصادي الكلي يهدف إلى خفض معدل التوسع الائتماني بتقليل الدين المحلي من خلال إجراءات مالية ونقدية. ثانيا، يشمل التحرير إنهاء كل أشكال التخطيط المركزي، وتحديد الأسعار، وفرض قيود على التجارة الدولية. ثالثاً، الخصخصة عن طريق نقل ملكية الأصول التابعة للدولة إلى القطاع الخاص. رابعا, إقامة شبكة ضمان اجتماعي تشمل تعويض البطالة. خامساً، تعبئة المساعدات المالية الدولية. (Sachs, Pland's Jump, pp. 45-46) ولم يُقام العمود الرابع قط ولم يوفر العمود الخامس الكثير من الدعم، وبذلك سرعان ما أصبحت الأعمدة من الأول حتى الرابع أساس العلاج بالصدمات. وهذه الخطة، التي يتم فيها تجاهل المجتمع المدني وتكون الإصلاحات السياسية أمرا مسلما به، كانت وصفة الكوارث في كل مكان تقريبا.

(23) Ludwig von Mises, *Human Action: A Treatise on Economics* (New York: Van Nostrand, 1949), p. 2 يضع أندرو يده في نقده الداخلي الفعال، وإن كان مبالغا فيه، لاقتصاد السوق على أوهام اللاعبين في السوق في عنوانه: *The Illusion of Choice*. وكارك كيزن الذي اقتبس شموكلر كلامه (p. 37) تقليدي في ربطه حرية المستهلك بالحرية المدنية: "الناس لديهم أفضليات فيما يتعلق بأنواع السلع التي يشترونها. أين يقيمون ويعملون، ما هي المهن التي يبحثون عنها ... أي نوع من القروض العقارية، وقروض السيارات، وقروض البنوك يدينون بها. إن عمل السوق، شريطة أن تكون تنافسية، تؤدي إلى أفضل مصالحة ممكنة بين هذه الأفضليات والإمكانيات التقنية الخاصة بالإنتاج، وهو مع هذه الأفضليات ... يقرر الوظائف والسلع والخدمات المتاحة." ولكن "الأفضليات" لا تقرر أي شيء ما يتضح أن المستهلكين "يريدونه" في وقت معين. والخيارات الاجتماعية والسياسية ليست هي التعبير عن الأفضليات، وإنما الخيارات المتروية التي تتم في جو من النقاش العام مع المواطنين الذين يسعون إلى تحديد قيمة مجتمعاتهم وحاجتها (انظر ما يأتي لاحقاً).

(24) Felix Rohatyn, cited in T. Friedman, "When Money Talks, Governments Listen," *The New York Times*, July 24, July 24, 1994, p. E 3.

(25) حاول مجرد الحديث عن المواطنين أو الرفاق أو الجيران أو الأخوة في تلك البقاع التي خلصت نفسها مؤخرا من الشيوعية. في الكثير جدا من هذه الأقطار أدى فشل "نحن" الشيوعيين إلى ضياع الأمل

في احتمال أن يكون هناك "نحن" ديمقراطيين. وإذا عدنا إلى لسنة ١٩٩٠ لوجدنا أن عمدة موسكو جافرييل بوبوف، وكان في ذلك الوقت "إصلاحياً اقتصادياً" في عهد جورباتشوف، يكتب قائلاً: "لكي تؤتي التحولات الاقتصادية ثمارها، لا بد أن نخلق جهازاً للإدارة، إلا أن الجماهير تكره البيروقراطية كراهية شديدة." ومنذ ذلك الوقت وهم يسمحون لتلك البيروقراطية بإعاقة قدرتهم الديمقراطية على العمل معاً لكبح جماح الرأسمالية المتوحشة. وفي حالات أخرى اصبحوا أسرى الحنين إلى الرؤساء الحكوميين الذين يمكنهم إصلاح كل شيء (مقابل التخلي عن حرياتهم التي اكتسبوها مؤخراً).

Robert McIntire, "Why Communism Is Rising from the Ash Heap," (26) *The Washington Post*, National Weekly Edition, June 20-26, 1994, p. 24.

الكثير من أطفال لينين الذين أسيئت معاملتهم، واعتادوا كثيراً على الحكم الستاليني، باتوا يرون الحكم الديمقراطي على أنه ليس سوى تنويع على الشمولية، وإن أخطر منها لأنه يرتدي عباءة الشرعية الشعبية. لقي رسم كاريكاتيري لمارجوني نجاحاً كبيراً حيث يصور أحد أعضاء حركة تضامن واقفاً أمام سوق وارسو بعد سنة انتخابات ١٩٩٠، التي حققت فيها تضامن فوزاً ساحقاً، ويقول لآخر: "لم أعد أحتمل طوابير الخبز، ونقص الطعام، وندرة المساكن ... حان الوقت للتخلص من هذه الحكومة العفنة." وهنا يرد عليه رفيقه قائلاً: "نحن الحكومة!" In the days of Solidarity government; from *The Houston Post*, reprinted in *The Washington Post*, National Weekly Edition, January 1-7, 1990

(27) يرى نقاد مثل شموكلر و كتنر أن الأسواق تحتاج ما هو من حقها ويخضع لإجراءاتها. وبغض النظر عن كون الوظائف السياسية صحيحة أم لا، فهي لا بد أن تفشل عندما تغتصبها الأسواق.

(28) الاقتباسان من Guillermo O'Donnell, "The Browning of Latin America," *New Perspectives Quarterly*, Vol. 10, Fall 1993, p. 50

الفصل السابع عشر: الرأسمالية في مواجهة الديمقراطية في روسيا

Peter Reddaway, "Instability and Fragmentatio," in the Ptly named (1) symposium "Is Russian Democracy Doomed?" *Journal of Democracy*, Vol. 5, No. 2, April 1994, p. 16.

Michael McFaul, "Explaining the Vote," ibid., p. 4. (2)

John H. Fairbanks, Jr., "The Politics of Resentment," ibid., p. 4. (3)

Padma Desai, "Ease Up on Russia," *The New York Times*, December 10, (4) 1993, p. A 35 وفي السياق نفسه، يقدم سول استرين تحليله المفاهيمي والاقتصادي الدقيق للخصخصة بالاعتراف بأن "خصخصة قطاع الدولة السابق ليست على أية حال الطريقة الوحيدة، وقد لا تكون الطريقة المثلى لضمان التحول الناجح إلى اقتصاد السوق". وذلك رغم أنه لا يطرح (وليس متوقعاً منه أن يطرح) السؤال الخاص بما إذا كان اقتصاد السوق هو البديل الوحيد للاقتصاد الموجه الشيوعي أم لا. Saul Estrin, *Privatization in Central and Eastern Europe* (New York: Longman, 1994), p. 4

(5) بما أن الكثيرين من التقدميين والليبراليين الأمريكيين أيدوا جورباتشوف، فقد اعتمد يلتسين في الأيام الأولى على مستشارين أكثر تحفظاً بينهم Heritage Foundation. ويشارك ريشارد بيرل أحد جنود الحرب الباردة في مشروعات مشتركة مع الشركات الروسية الجديدة التي تهدف إلى تحويل المنشآت الحربية!

انظر Jim Hoagland, "The New Guest in Moscow," *The International Herald Tribune*, April 1, 1992

(6) Margaret Shapiro and Fred Hiat, "The Agony of Reform," *The Washington Post*, National Weekly Edition, March 14-20, p. 6.

(7) Michael Specter, "The Great Russia Will Live Again," *The New York Times Magazine*, June 19, 19, 1994, p. 31.

(8) Celestine Bohlen, "Russia's New Rich on a Giant Buying Spree," *The New York Times*, August 31, 1993, p. A 1.

(9) AP report, "Russia's Reckless Capitalism," *The Berkshire Eagle*, August 4, 1994.

(10) Specter, "Russia Will Live," p. 32.

(11) David M. Kotz, "The End of the Market Rmance," *The Ntion*, February 28, pp. 263-235.

(12) Melvin Fagen, "Russia: Shock Therapy Isn't the Way To Promote Democracy," *The International Herald Tribune*, May 12, 1992.

(13) James Sterngold, "Summit in Tokyo: Yeltsin Arrives in Tokyo as Aid Plan Is Prepared," *the New York Times*, July 9, 1993, p. A 7.

(14) Joseph Blasi, "Privatizing Russia-A Success Story." *The New York times*, June 30, 1994, p. A 23.

(15) انظر Louis Utchtelle, "In the New Russia, an era of Takeovers," *The New York Times*, April 17, 1994, p. C 1 هذا "عالم من المستثمرين مازال مهتماً بشراء ملكية روسيا الشركات مقابل جزء من قيمتها أكثر من اهتمامه بتحسين ما يملكون."

(16) Liesl Schillinger, "Uneasy Rider," *The New Republic*, April 19, 1993, pp. 9 -11.

(17) Michael Dobbs and Steve Coll, "The Free Market's Ugly Face," *The Washington Post*, National Weekly Edition, march 1-7, 1993 انظر كذلك "From Russia With Cash," *The Washington Post*, National Weekly Edition, February 15-21 قدم النسخة المؤدبة من هذه الظاهرة ألكسندر بيم ود. جونز و ت. فايسكوف في عرضهم الاقتصادي السلس لـ "الخصخصة في الاتحاد السوفيتي السابق وروسيا الجديدة" حيث يكتبون قائلين: "إن سيطرة العالمين ببواطن الأمور على الشركات المخصخصة في روسيا في الوقت الراهن لا تعكس فقط المشاكل الموجودة في تكتيكات الإصلاحيين الجذريين ... (وإنما) الرغبة القوية لدى شريحة كبيرة من الشعب الروسي في الاستقرار والأمان." Estrin , *Privatization*, p. 274

(18) Bill Gifford,"Art of Zdyelka," *The New Republic*, February 28, 1994, p. 12 يصف جيفورد كيف أن سعر صرف الروبل قفز في ١ يناير ١٩٩٤ من ١٢٥٠ مقابل دولار واحد إلى ١٨٠٠ بعد ذلك بثلاثة أسابيع فقط، وفي يوليو ١٩٩٤ بلغ سعر عقود الروبل للبيع الآجل ٢١٧٤ مقابل

الدولار. وقدمت خطة الكوبونات الأصلية لكي روسي كوبونات قيمتها ١٠ آلاف روبل، أو ما يساوي أجر أسبوعين لأحد عمال المناجم، أو عشرة أكياس بطاطس، أو ثلاثة صناديق فودكا، أو بالدولار، عشرة فناجين قهوة في الغرب. وكانت القيمة الثابتة لإجمالي عرض الكوبونات تقدر بـ ١,٤ مليار روبل موزعة على ١٥٠ مليون فرد. وطلب من الشركات التي يعمل بها ما يزيد على ألف عامل أو رأس مالها الثابت ٥٠ مليون روبل أن تخصخص. Bill Gifford, "Russian Citizens to Get Share," *The New York Times*, October 1, 1992, p. A 1

(19) انظر Wendy Carlin and Colin Mayer, "The Treuhandanstalt: Privitization by State and Market," Paper presented at the National Bureau of Economic Resources Conferences on Transformation in Eastern Europe, Cambridge, Mass., February 26-29 وتعترف كارلين على سبيل المثال مكتب الخصخصة في ألمانيا Treuhandanstalt (انظر ما سيأتي) خفض عدد العمالة للحد من نفقاتها. ولم يبد أن هناك من يهتم كثيراً بأثر ممارسات خفض العمالة على الملايين من العمال الألمان الشرقيين الذين كان يفترض أنه سيتم إشراكهم في ديمقراطية ألمانيا الغربية.

(20) كانت هذه هي نتائج انتخابات ١٢ ديسمبر ١٩٩٣:

الديمقراطيون الأحرار (قوميون متشددون)	٪٢٢,٧٩	(٥٩ مقعدا)
خيار روسيا (إصلاحيون)	٪١٥,٣٨	(٤٠ مقعدا)
الحزب الشيوعي	٪١٢,٣٥	(٣٢ مقعدا)
نساء روسيا (وسط)	٪٨,١٠	(٢١ مقعدا)
الحزب الزراعي (الفلاحون الشيوعيون)	٪٧,٩٠	(٢١ مقعدا)
إصلاح يافلينفسكي-بولديريف-لوكين	٪٧,٨٣	(٢٠ مقعدا)
الحزب الروسي للوحدة والاتفاق (إصلاحي)	٪٦,٧٦	(١٨ مقعدا)
الحزب الديمقراطي	٪٥,٥	(١٤ مقعدا)

(21) ألبانيا وأرمينيا وجمهورية التشيك وايستونيا ولاتفيا هي فقط التي أبعدت شيوعييها إبعاداً تاماً عن الدوائر الحاكمة.

(22) "Every Man a Tsar," *The New Yorker*, Vol. 69, December 27, 1993, p. 8.

(23) لمعرفة الثمن البيئي للتحول، انظر Murral Feshbach and Alfred Friendly, Jr., *Ecocide in the USSR: Heallth and Nature Under Siege* (New York: Basic Books, 1992), pp. 565-566 المشكلة الآن ليست النهب الذي يجري بقدر ما هي العجز الاقتصادي عن التخلص من الفوضى التي تخلفت عن النظام السوفيتي الحاكم. وقد يكون تشرنوبيل، الذي ما يزال يعمل، وبحيرة بيكال، وهي من بين أكبر مصادر المياه العذبة في العالم (وما تزال ميتة رغم كل الأهداف العملية)، هما أوضح مثلين للعقبات الاقتصادية التي تقف في وجه السياسة الصحيحة بيئياً التي أفرزها اقتصاد السوق الجديد.

(24) Michael Specter, "Climb in Russia's Death Rate," *The New York Times*, March 6, 1994, p. A 1 يعكس الانخفاض في توقعات متوسط الأعمار عودة أمراض مثل الكوليرا والدرن من جديد، إلى جانب ضحايا الإدمان بين الذكور من الروس. وتعد الفودكا، التي كانت هي المهدئ في عهود القياصرة وعهد الشيوعيين على السواء، العنصر الاستهلاكي المتوفر بسعر واقعي (حوالي دولار واحد للزجاجة).

(25) للتأكد من هذه التعميمات، ربما أمكن القراء الرجوع إلى United Nations Children's Fund's *Crisis in Morality, Health and Nutrition*, a survey on health conditions from 1989 to 1994 in Russia, Albania, Bulgaria, the Czech Republic, Slovakia, Hungary, Poland, Romania, and the Ukraine ويذكر مدير اليونيسيف جيمس ب. جرانت أن: "هذه الأزمة الصحية لم يسبق ليا مثيل في زمن السلم في أنحاء أوروبا خلال القرن الحالي" وهي "كما هو واضح ... تقلل من عزم الدعم السياسي للإصلاحات الجارية". Barbara Grossette, "U.N. Study Finds a Free Eastern Europe Less Healthy," *The New York Times*, October 7, 1994, p. A 13

(26) Claire Sterling, *The New Republic*, April 11, 1994, pp. 19-20 وانظر كذلك كتابها الجديد *Thieves' World: The Threat of the New Global Network of Organized Crime* (New York: Simon & Schuster, 1994)

(27) Celstine Bohlen, "Russian Mobsters Grow More Violent and Pervaisive," *The New York Times*, August 16, 1993, p. A 1.

(28) Serge Schmemann, "Russia Lurches into Reform," *The New York Times*, February 2o, 1994, p. A 1.

(29) في الأونة الأخيرة أصبحت الأعمال الأجنبية كذلك أهدافا واضطر المستثمرون الحريصون أن يستأجروا قوات أمن مسلحة تسليحا ثقيلا. ولم ينج سوى سادة عالم ماك الرمزيين مثل ماكدونالدز وكوكاكولا، وربما لا يرجع ذلك إلى كونهم طواطم، ولكن لأن الدعاية ستكون سيئة (لأنهم طواطم!). انظر Michael Specter, "US Business and Russian Mob," *The New York Times*, July 8, 1994, p. D 1

(30) حول الإجراءات التي لم يؤيدها في البرلمان سوى حزب جيرينوفسكي، كان تعليق صحيفة ازفستيا هو: "في كل مرة تحاول روسيا أن تفعل شيئا للصالح الأكبر للدولة، ينتهي بها الأمر إلى الإرهاب السياسي والدكتاتورية والسلطات الاستثنائية الموجودة في أيدي الأجهزة الاستثنائية." واضطر ديفيد جوريفتش إلى أن يسأل "أليست هناك طريقة وسط بين فلاديمير جيرينوفسكي ومايكل كورليوني؟" في "The MOB Today's K.G.B.," *The New York Times*, February 19, 1994, p. A 19 وحتى الآن ليس هناك جواب شاف لهذا السؤال.

(31) Andrew Solomon, "Young Russia's Defiant Decadence," *The New York Times Magazine*, July 18, 1993, pp. 16-23 وانظر كذلك *The Irony Tower: Soviet Artists in a Time of Glasnost* (New York: Alfred A. Knopf, 1991)

كتب مايكل سبيكتر في "Could We Tell Thcaikovsky This News?." *The New York Times,* February 20, 1994, Setion 1,p. 15 : "بدافع من الإعلانات والمال، بدأت الإذاعة هنا تتخذ طابعاً أشبه المحطات الموجودة في نيو جيرسي ولوس أنجلوس، حيث أصبحت الموسيقى الكلاسيكية محاصرة."

(32) Janusz Glowacki, "Given the Realities It's Impossible to Be Absurd," *The New York Times,* September 19, 1993, Section 2, p. 7. جلوفاتسكي هو مؤلف "Antigone in New York" . تذكراً لمفارقة سارتر-حين قال متأملاً: لم نكن يوماً أحراراً كما نحن في ظل الاحتلال النازي-يشكو كاتب آخر أجرى معه جلوفاتسكي مقابلة قائلاً: "أسوأ شيء أنه لم تعد هناك رقابة بالمرة. وعندما يكون كل شيء مسموحاً به لا تشعر بالرغبة في الكتابة."

(33) Liesel Schillinger, "Barbski," *The New Reublic*, September 20, 1993, pp. 10-11.

(34) انظر William Schmidt, "Moscow Journal: West Sets Up Store and The Russians Are Seduced," *The New York Times*, Septmber 27, 1991, p. A 4.

(35) David Lempert, "Changing Russian Political Culture in the 1990's Parasites, Paradigms, and Perestroika," *Journal for the Comparative Study of Society and History*, Vol. 35, No. 3. July 1993, pp. 628-646.

(36) اقتبسه Andrew Solomon, "Defiant Decadence"

(37) "Russian Gadfly From TV to Poltics," unsigned special to *The New York Times*, December 26, 1993, p. A 18.

(38) اقتبس في Margaret Shapiro and Fred Hiat, "The Agony of Reform" *The Washington Post,* National Weekly Edition, March14-20, p. 6.

(39) مقابلة بعنوان "L'ecrivain internationa choisit la Grande Roussie," *Liberation,* April 6, 1992 من ترجمتي.

(40) اقتبسها David M. Kotz, "The End of the Market Romance," *The Nation*, February 28, 1994, p. 263

(41) اقتبسها *The Washington Post*, Weekly National Edition, April 5-11, 1993

(42) Michael Scamell, "What's Good for the Mafia Is Good for Rüssia," *The New York Times*, December 26, 1993, Section 4, p. 11.

(43) قد تكون هذه ديمقراطية طالما أن "الروس تعودوا السيطرة القوية من أعلى. وإذا كانت السيطرة من جانب بيروقراطية مافيا تمثل العودة إلى النظام النسبي الذي تمتع به كثيرون في ظل الحكم الشيوعي، فسوف يرحب به كثيرون." Nikolai Zlobin, "The Mafiacracy Takes Over," *The New York Times*, July 26, 1994, p. A 19

(44) إلى جانب غيره من مشجعي النظام (إن لم يكن القانون) بأي ثمن، سوف يُسر زلوبين عندما يعرف أن فردا واحد على الأقل من أفراد الطبقة الإجرامية وصل إلى أعلى الدرجات يتفق معه: "المافيا هي ما يربط أجزاء هذا البلد معا. إننا نمثل الهيكل، وعندما نتولى أمر عمل من الأعمال فإن هذا العمل يعمل بجد. انه عمل نبيل." Andrew Solomon, "Defiant Decadence"

Boris Yeltsin, Adress to the Federal Assembly, February 24, 1994, (45) pp. 32-37; Translated by Nina Belyaeva, "Rule for Civil Society," paper prepared for the XVI World Congress of the International Political Science Association in Berlin, August 1994, p. 10.

Interview with S.F. Cohen, "What's Really Happening in Russia," *The* (46) *Nation*, March 2, 1992, pp. 259-264.

الفصل الثامن عشر: استعمار عالم ماك لألمانيا الشرقية

(1) يحمل ملصق الحزب الديمقراطي المسيحي شعارات مثل "هيا إلى المستقبل، ولكن ليس مع الجوارب الحمراء". ويلعب المؤيدون على اسم كول، الذي يعني الكرنب والنقود في اللغة الألمانية، حيث يصيحون قائلين "Keine Kohl ohne Kohl" أي لا نقود بدون كول.

Peter Rossman, "Dashed Hopes for a New Socialism," *The Nation*, May 7, (2) 1990, pp. 232-235.

Tagezeitung, August 4, 1990. (3)

(4) الواقع أن الآلاف من الموظفين الملوثين عادوا بسرعة إلى بيروقراطيات جمهورية ألمانيا الفيدرالية. وكما يذكرنا نورمان بيرنباوم، ذهب مجرم الحرب الفيلد مارشال كيسلرنج من السجن مباشرة ليتولى منصب المستشار العسكري للمستشار كونراد أديناور مدى الحياة، بينما انتهى الأمر بالدكتور هانز جلوبكه، الذي كتب تعليقا رسميا على قوانين نوريمبرج للنازيين، كرئيس لأركانه. Norman Brinbaum, "How New the New Germany?," Part I, *Salmagundi,* Nos. 88-89, Fall 1990/Winter 1991, pp. 234-263

(5) أوضح ملصق كنيسة حصن مارتن لوثر في فيتنبرج أنه أثناء الهجمات الانتقامية على المسئولين الألمان الشرقيين السابقين: "هؤلاء الذين كانوا أجبن الجبناء هم الأعلى صوتا في مطالبتهم بالانتقام." المرجع السابق.

Ferdinand Protzman, "Privatization in East Germany Is Wearing to (6) Germans," *The New York Times*, August, p. D 1 طبقا لتقرير ترويهاند المؤقت المنشور في الإنترناشونال هيرالد تريبيون في أغسطس ١٩٩٤ فقد باعت ٢٤٧ شركة كيماويات وبقيت اثنتا عشرة، و ١٨١ شركة صلب وبقيت خمس وعشرون، و٢٣٨ مصنع حديد ومعادن غير حديدية وبقيت ستة عشر، و ١٠٦٠ شركة ماكينات وآلات وبقيت أربع وخمسون، و ٤٩٠ شركة إلكترونيات وبقيت أربع عشرة لكي تباع أو تصفى فيما بعد، ٥١٢ مصنع نسيج بقيت تسعة عشر. و١٠١٧ شركة تشييد ولم يبق سوى سبع. وشملت التصفيات في المقام الأول مبيعات للغربيين، وإن كان بينها كذلك إعادة شركات لأصحابها فيما قبل الشيوعية وكذلك

التصفيات. ومعظم فرص العمل التي ضاعت كانت بسبب خفض العمالة التي قامت بـه الشركات لاجتذاب المستثمرين بدلاً من االتصفيات المباشرة.

(7) The Week in Germany, July 15, 1994 أغتيل ديتليف روفيدر أول رئيس لمجلس إدارة ترويهاند في ١ أبريل ١٩٩١ وحلت محله بريجت برويل.

(8) حتى المحاسبين الأكاديميين المعتدلون لم يكن لهم هدف سياسي يجعلهم يهتمون بأمر كذلك الذي حذر منه فولفجانج زيبل، وهو أن اتفاقية التوحيد تقوم على "أساس مالي خاطئ"، رغم "التحويلات الضخمة من الأموال التي ذهبت إلى ألمانيا الشرقية". Wolfgang Siebel, "Necessary Illusios: The Transformation of Governance Structure in New Germany," *The Tocqueville Review*, Vol. 13, No. 1, 1992, pp. 179-199. مع أن المبالغ التي جرى تحويلها بلغت حوالي ثلث الميزانية الفيدرالية لألمانيا (حوالي ٩٥٠٠ مارك ألماني لكل ألماني شرقي)، فإن "معظم هذه التحويلات الفيدرالية لم توجه لاستثمارات إنتاجية. إذ ينفق اثنان وستون بالمائة منها في دعم التعويضات الاجتماعية مثل تعويض البطالة ودعم الإسكان". ويشكل هذا الدعم ٧٠ بالمائة من إجمالي الناتج القومي لشرق ألمانيا ويمكن مقارنتها بتحويلات مشروع مارشال سنة ١٩٤٧ التي بلغت حوالي ٨٠٠ مارك ألماني للفرد.

(9) المرجع السابق . سكسونيا، ومكلنبورج، وبراندنبورج، وسكسونيا-أنهالت، وتورينجيا ولايات شرقية تقوم على الأقاليم القديمة التي ألغاها الشيوعيون سنة ١٩٤٧. وينتهي زيبل إلى أن الخصخصة في ألمانيا في آخر الأمر "تدمر تمويل البلديات الصحي. فقد تُرك للبلديات تلك البرامج التي تحقق خسارة. ويؤدي هذا بدوره إلى تدمير المصداقية السياسية والإدارية الخاصة بالإدارة المحلية ككل". Ibid., p. 187 ويرى زيبل أن الهستيريا بشأن الارتباطات الشيوعية السابقة "بدت كتعويض نفسي عن العجز السياسي في التعامل بطريقة صحيحة مع النتائج المادية للتوحيد". Ibid., p. 189

(10) Stephen Kinzer, "German Neocommunists Surging, Capture a City Hall," *The New York Times,* June 29, 1994, p. A 6 للحزب الاشتراكي الديمقراطي ١٣٠ ألف عضو نظاميين، حوالي ٩٠ بالمائة منهم كانوا شيوعيين من قبل و٢٠ ألفاً متشددون. وجريجور جايزي، عضو في البرلمان، هو رئيسه صاحب الوجه التلفزيوني والداهية السياسي، بينما هانز مودروف، الذي كان آخر زعماء ألمانيا الشرقية، فهو الرئيس الفخري. وتؤكد كتيبات الحزب على أن "هدفنا ليس قلب النظام البرلماني الديمقراطي بالثورة أو اقامة نوع من الدكتاتورية، وإنما التحول الديمقراطي الحقيقي لألمانيا". ويقول جايزي زعيم الحزب: "فقد الناس في ألمانيا الشرقية حقوقاً مهمة، وهناك الكثير من الظلم الاجتماعي ... نحن لا نواجه التحديات الكونية والاجتماعية والإيكولوجية والثقافية التي تجابهنا. لذلك فأنا أرى أن هناك أسباباً وجيهة تجعلني معادياً للرأسمالية." المرجع السابق .

(1) Stephen Kiziner, "Group Is Formed to Defend East German Interests," *The New York Times,* July 12, 1992, p. A 11 وانظر كذلك Kinzer, "In Germany Too, an Effort to Mobilize Political Outsiders," *The New York Times*, July 19, 1992, Section 4, p. 2

(12) Stephen Kinzer, "Group Is Formed.

(13) إنها تحتج قائلة "الناس الذين عملت معهم كانوا يريدون استعادة ألمانيا الشرقية. إننا لم نعتقد قط أن البلد سوف يختفي ويبتلعه الغرب." وباعتبارها امرأة لا صبر لها على السياسة، فقد ازدرت كلاً من محاكمة ألمانيا الغربية للرئيس الألماني الشرقي السابق ايريك هونيكر وكذلك لجنة العدالة. وكان صوتها المستقل تمام الاستقلال واضحا. Stephen Kinzer, "Berlin Journal: One More Wall to Smash: Arrogance in the West," *The New York Times*, August 12, 1992, p. A 4

(14) Catarina Kennedy-Bannier, "Berliners," *The New Republic*, July 18-25, 1994,p. 11.

(15) Stephen Kinzer, "Luckenwalde Journal: In East Germany, Bad Ol' Days Now Look Good," *The New York Times*, August 27, 1994, p. A 2.

(16) اقتبستها Margaret Talbot, "Back to the Future, Pining for the Old Days in Germany," *The New Republic*, July 18-25, pp. 11-14

(17) المرجع السابق

(18) كان الألمان الشرقيون في يوم الأيام قراء نهمين، وربما كان هذا هو السبب وراء كسب زعماء المنتدى الجديد المثقفين لذلك العدد الضخم ممن اتبعوهم. كانت الطبعات الأولى من الكتب تصل إلى نصف المليون كتاب. وكانت الطبعة الأولى من دواوين الشعر تصل إلى العشرين ألفاً. لقد ولت تلك الأيام. يظل الألمان الشرقيون خمس إجمالي عدد سكان ألمانيا، ولكنهم لا يشترون إلا ٢ بالمائة من كتبها. وبينما يرى كتّاب المنطقة الشرقية أنفسهم على أنهم منشقون، فقد كانوا كذلك جزءاً من المشروع الاشتراكي الإصلاحي، حيث يعملون من أجل بلدهم كما كانوا يتمنون في يوم من الأيام أن يكون. ويرى شتيفان هايم، الكاتب اليهودي الذي فر من هتلر وحارب مع الجيش الأمريكي، وكان منشقاً في ظل النظام الشيوعي، أن الكتّاب الجدد سلالة مختلفة. إنهم "يرون أنفسهم كألمان شرقيين أقل من الكتّاب الذين يعيشون في ألمانيا".

(19) Roger Cohen, "High Hopes Fade at East European Newspapers," *The New York Times*, December 28, 1993, p. A 1.

(20) المرجع السابق

(21) الإحصاءات والاقتباس من "The Population Plunge That's Wracking Eastern Germany," *Business Week*, August 29, 1994, p. 20 أشارت البزنس ويك إلى أن "مثل هذه التغيرات لم يسبق لها مثيل بالنسبة لدولة صناعية في زمن السلم."

الفصل التاسع عشر: ضمان الديمقراطية الكونية داخل عالم ماك

(1) Walter B. Wriston, *Twilight of Svererreignty* (New York: Scribner's 1992), pp. 170 يعتقد ريستون كذلك أن "تكنولوجيا المعلومات الحديثة تدفع في الوقت نفسه الدول القومية إلى التعاون مع بعضها لكي يتم انجاز أعمال العالم". P. 147

(2) يقول دبلوماسي غربي في الصين إن "الحكومة الصينية قررت، وأرى أن قرارها منطقي، أنه لا يمكنها في واقع الأمر إغلاق قنوات التلفزيون الفضائية إغلاقاً تاماً، مهما كان خطرها. إننا لا نتحدث عن بعض المنشقين هنا. فمئات الآلاف من الصينيين يستثمرون تحويشة العمر في هذه الأطباق، وستحدث اضطرابات عامة في غاية السوء إذا أجبرتهم الحكومة بالفعل على إنزال الأطباق." وفي إيران، انتهت صحيفة طهران تايمز إلى أن "الغزو الثقافي لن يُقضى عليه بالإزالة المادية للأطباق." الاقتباسان من Philip Shenon, "A Repressed World Says 'Beam Me Up' "*The New York Times*, September 11, 1994, Section 4, p. 4 يلاحظ أن الخطر ليس في الدعاية السياسية وإنما في التلوث الثقافي الخاص بالبوب. لقد فصل مردوخ طواعية خدمة البي بي سي العالمية من خدمته الموجهة للصين . والمشكلة في إيران ليست السي إن إن وإنما مسلسل *Dynasty* الذي يعد أكثر البرامج جماهيرية في طهران الآن.

(3) robert Reich, *The Work of Nations* (New York: Alfred A. Knopf), Chapter 23, "The New Community."

(4) انظر Brock, *Telecommunications Policy* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1994)

(5) القناة الأولى تبث حاليا في حوالي ١٢ ألف مدرسة متوسطة وعليا. إنها تقدم أجهزة تلفزيون وفيديو وأطباق الأقمار الصناعية (الدش) بالمجان للمدارس (وهي عادة ما تكون في حاجة لذلك) التي توافق على إذاعة دقيقتين من الأخبار الخفيفة ودقيقتين من الإعلانات وثمانية دقائق من الترفيه الإعلامي على طلابها خلال ساعات الدراسة بالمدارس. وتبيع القناة الأولى مواقع بمبالغ تصل إلى ١٩٥ ألف دولار للثلاثين ثانية، وقد اجتذبت الكثير من الشركات الواقعة على حدود عالم ماك، ومنها بيبسي وريبوك. وباعها كريس ويتل لتيه ثري لإيه تعليمي.

(6) J. G. A. Pocock, "The Ideal Citizenship Siunce Classical Times," *Queen's Quarterly*, Spring 1992, p. 55.

(7) Neil Postman, *Technopoly: Surrender of Culture to Technology* (New York: Alfred A. Knopf, 1992) p. 52.

(8) Pocock, "Ideal of Citizenship."

(9) Zbigniew Brezeznski, *Out of Control: Global Turmoil on the Eve of the Twenty First Century* (New York: Scribner,s, 1993), p. 73 يرى سولجنتسين أن "المشكلة القديمة الخاصة بمعنى الحياة والفراغ الروحي (التي أهملت بشدة في العقود النووية) تبرز أكثر الآن" في عصر "ضبط النفس" الذي يتبخر." Slozhenistyn, "To Tame Savage Capitalism," *The New York Times*, November 28, 1993, Section 4,p. 11

(10) اقتبسه Dirk Johnson, "It's Not Hip to Stay, Say Small-Town Youth. *The New York Times*, September 5, 1994, p. A 1 في الوقت نفسه، تجتذب المراهقين في الدول الشيوعية السابقة نفس أصوات عالم ماك المغوية إلى أندية البانك مثل "تام تام" ومهرجان الجينز العالمي في سانت بطرسبرج ومهرجان الكوكا في موسكو ومحطات الراديو الجديدة في موسكو التي تخصصت في أتي لينوكس وسيندي لوبر وإربان كوكي كوليكتيف. ويقول مدير أشير محطة راديو في موسكو "إننا نستهدف

صغار البالغين ونحن نذيع ما يريد الناس أن يسمعوه. وصدقني، هذه ليست أوبرا." ليس حتى الروك الروسي (الروس لا يشاركون الألمان الشرقيين تذوق الفرق المحلية): "ليس من العدل بالنسبة لموسيقيين المحليين أن نحشرهم في الوسط بين بي فورتي وبرنس. سيكون ذلك في غاية السوء." Michael Specter,"Could We Tell Chaikovsky This News?" *The New York Times*, February 20, 1994 بقيت محطة موسيقى كلاسيكية واحدة في موسكو، وتفسيرات ذلك تتطابق تمام التطابق مع تلك المطروحة في مواقف مشابهة في نيويورك.

(11) Va clav Havel, *Summer Meditations*, trnslated by Paul Wilson (New York: Alfred A. Knopf, 1992), p. 6.

(12) Robert Putnam, "Bowling Alone: America's Declining Social Capital," *Journal of Democracy*, Vol. 6. No. 1, January 1995, p. 65.

(13) Harry Boyte and Sara Evans, *Free Spaces: The Sources of Democratic Changes in America* (Chicago: University of Chicago Press,1992).

(14) John Dewy, *The Public and its Problems* (New York: Henry Holt and Company, 1927), p. 137.

(15) Jushua Muravchik, *Exportin Democracy: Fulfilling America's Destiny* (Washington, D.C.: American Enterprise Institute Press,1994).

(16) تتطلب الديمقراطية الصبر والمرونة وإحساس المهندس المعماري بالمكان، ولا يمكن أن تُقدم جاهزة غير مستعدة لأن تجعلها تعمل. وحذر جان جاك روسو مؤسسيها المحتملين قائلا: "كما أنه قبل إقامة بناية كبيرة يقوم المهندس بعمل مسح واختبار للموقع ليرى إن كان ستحمل الثقل أم لا. فإن المشرع الحكيم لا يبدأ لا يبدأ بوضع قوانين جيدة في حد ذاتها، وإنما بالتقصي عن مدي مقدرة الشعب الموضوعة من أجله على تلقيها." Jean-Jacque Rousseau, *The Social Contract*, Book II, Chapter 8

(17) David B. Truman, *The Governmental Process*, first published in 1951, secondedition (Berkeley: Institute of Governmental Studies, 1971), p. 51.1.

(18) هناك منظمة عالمية جديدة اسمها CIVICUS معنية بخلق إطار للتعاون بين المنظمات غير الحكومية التحولية. انظر كذلك Pwter J. Spiro, "New Global Communities: Nongovernmental Organizations in International Decision-Making Institutions, *The Washington Quarterly*, 18:1, Winter 1995, pp. 45-56

(19) Thomas Jefferson, Letter to Joseph C. Cabell, February 2, 1816.

(20) يحذر ريجيس دبيراي من أن "أي ثقافة أحادية أمريكية سوف تتسبب في مستقبل محزن للعالم، مستقبل تتحول فيه الكرة الأرضية إلى سوبر ماركت كوني يكون على الناس فيه أن يختاروا مابين آية الله المحلي وكوكاكولا." اقتبسه Roger Cohen, "Aux Armes, Rrance Rallies," *The New York Timess*, January 2, 1994, p. H 1

فهرس المحتويات

(تابع) فهرس المحتويات

المؤلف فى سطور

يعمل بنجامين باربر أستاذاً للعلوم السياسية بجامعة روترجرز بالولايات المتحدة الأمريكية ومديراً لمركز والت ويتمان بروتجرز . وألف باربر العديد من الكتب منها An The Con- quest of Aristocracy of Everyone Strong Democracy Poitics . وهو يكتب بانتظام فى العديد من الدوريات منها Harper's و The New Republic و The Atlan- tic Monthey

المترجم فى سطور

يعمل حالياً رئيساً لقسم الترجمة بمجلة «كل الناس» . وهو حاصل على ليسانس الأدب الإنجليزى سنة 1973 ودبلوم الدراسات العليا فى الترجمة سنة 1987 من كلية الآداب جامعة القاهرة . ترجم كتباً منها « الناس فى صعيد مصر » لوينفريد بلاكمان (دار عين) و «طريق الحرير» لديفيد براونستون وأيرين فرانك (المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة) وله تحت الطبع كتاب «التراث المغدور : ماضى البوسنة الذى اغتالوه» . وله ترجمات فى دوريات مثل «الديمقراطية» و «الثقافة العالمية» و «كل الناس » .

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك . مادهو بانيكار	ت: أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح/ وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبدالجليل الأزدى وعمر حلى
١١-مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبدالفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	ادوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب/ فاروق القاضى/ حسين الشيخ/ منيرة كروان/ عبد الوهاب علوب
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى/ بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢-مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ -تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ -ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ -مثنوى	مولاناجلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت: نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت: منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب . كارس	ت: بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك . مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت: عبدالستار الحلوجى / عبدالوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لافريقيا الغربية	ا. ج . هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع

٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوه وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت: جمال عبدالرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩– الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت. محمد عيد إبراهيم
٤١ –ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى/ محمود ماجد
٤٢ عالم ماك	بنجامين باربر	ت. أحمد محمود

المشروع القومى للترجمة
(تحت الطبع)

الدراما والتعليم
العلاج النفسى التدعيمى
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)
تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٣)
مصر الفرعونية
المختار من نقد ت . س . إليوت
مصادرالرواية الإسبانوأمريكية
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية
عشرون قصيدة حب
التراث المغدور
اللهب المزدوج
شخصية مصر
بعد عدة أصياف
الحضارة المصرية القديمة
التصميم والشكل
خمس مسرحيات أندلسية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٤٧٢٠ / ١٩٩٨



Jehad vs. McWorld

BENJAMIN R. BARBER

يقدم لنا بنجامين باربر ، فى هذا الكتاب ، خريطة تجمع جانبى عملة واحدة . فهو يعرض لنا ذلك الجانب الذى يشترك فيه كل من التأقلم والعولمة ، التى يسميها : «عالم ماك» ، وهو كراهية كل منهما للديمقراطية . فكل من التأقلم والعولمة يضرب حصاراً حول الدولة ، ويسعى إلى محوها . ويرى بنجامين باربر أن الديمقراطية تتعرض لهجوم ثنائى تشنه عليها رأسمالية كونية قوتها الأساسية التى تحركها هى العدمية ، حيث تدمر كل القيم التقليدية فى سبيل تحقيق الربح ، بغض النظر عن الثمن الذى يدفعه الدين والأخلاق، وتعصب عرقى وقبلى ودينى يتسم بعدم التسامح والضغائن ضد الآخر .

إن الحقيقة الجلية ، التى تفصح عن المفارقة الظاهرية الموجودة فى متن هذا الكتاب ، هى أن ميول كل من الجهاد وعالم ماك قائمة بالفعل ، ويمكن رؤيتها أحيانًا فى بلد واحد ، وفى نفس اللحظة

والآن لا يعد أيًا من الجهاد أو عالم ماك جديدًا فى حد ذا... وانتهاء التاريخ بانتصار العلم والعقل أو بإساءة استغلالهما بط... مرعبة ، هى الفكرة الأساسية التى تكررت عند كل فيلس... وشاعر تأسى على عصر العقل ، منذ عصر التنوير حتى يومنا ه...

وهذا الكتاب فيه ما يفيد القارئ ، سواء أكانت اهتما... ثقافية ، أم سياسية ، أم اقتصادية .



الغلاف : عماد حليم